تاريخ القرن التاسع عشر

في أوربة والعالم

الجزء الثاني

الدكتور نور الدين حاطوم

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

دار الفكر
دمشق - سورية

بسم الله الرحمن الرحيم

تاريخ
القرن التاسع عشر
في أوربة والعالم

تاريخ

القرن التاسع عشر

في أوربة والعالم

الجزء الثاني

تعريب

الدكتور نور الدين حاطوم

دار الفكر
دمشق - سورية

دار الفكر المعاصر
بيروت - لبنان

الرقم الاصطلاحي : ٩٦٨,٢
الرقم الموضوعي : ٩٤٠
الرقم الدولي ISBN : 1-57547-243-0
الموضوع : تاريخ العالم
العنوان : تاريخ القرن التاسع عشر في أوربة والعالم
التأليف : الدكتور نور الدين حاطوم
الصف التصويري : دار الفكر ـ دمشق
التنفيذ الطباعي : المطبعة العلمية ـ دمشق
عدد الصفحات : ٤٦٤ ص
قياس الصفحة : ١٧ × ٢٥ سم
عدد النسخ : ١٠٠٠ نسخة

الطبعة الأولى ١٤١٦ هـ = ١٩٩٥ م

سورية ـ دمشق ـ برامكة مقابل مركز
الانطلاق الموحد ـ ص.ب (٩٦٢)
برقياً : فكر ـ س.ت ٢٧٥٤
هاتف ٢٢٣٩٧١٧ ، ٢٢١١١٦٦
فاكس ٢٢٣٩٧١٦

بسم الله الرّحمن الرّحيم

﴿ وَقُلْ : رَّبِّ زِدْنِي عِلْماً ﴾

[طه ٢٠/١١٤]

صدق الله العظيم

إلى

نـاديــة الغــاليــة

تمهيد
خارطة أوربة
حوالي منتصف القرن التاسع عشر

في عام ١٨٤٨ لم تتغير خارطة أوربة منذ ١٨١٥ . والتبدلات الوحيدة التي حدثت هي نشأة دولة بلجيكا ، وإمارة صربية ، ومملكة اليونان .

في الغرب أخذت البورجوازية السلطة ، وحلت الحرية الليبرالية . وما زالت أوربة الوسطى وبخاصة الشرقية على صعيد النظام القديم ونظام الحكم المطلق .

أ ـ أوربة الغربية

إنكلترا : المملكة المتحدة ـ إنكلترا ، وإيكوسيا ، وإيرلانده ـ لم تكن دولة متجانسة . فقدت إيرلانده استقلالها الذاتي بمرسوم الاتحاد في ١٨٠٠ ، ووضعت في حالة دنيا ، وهي تمثل وستمثل أيضاً بؤرة المعارضة والمقاومة .

لقد أوصل التطور السياسي البورجوازية إلى السلطة على حساب النبلاء الملاك العقاريين وأصبح الفحم المصدر الأكبر للطاقة في عصر البخار . ومن الطبيعي أن إنكلترا « الخضراء » إنكلترا ملاك الأراضي ، اللاندلوردات ، تخلت عن مكانها إلى إنكلترا السوداء ، إلى الصناعيين . واستقر النظام البرلماني نهائياً في الوقت الذي تربعت الملكة الشابة فيكتوريا العرش في العام ١٨٣٧ .

فرنسا : حافظت على الحدود التي أعطتها لها معاهدات ١٨١٥ وهذه الحدود لا تضم الساڤوا ونيس .

لقد انتظمت ملكية تموز فيها بنظام ضيق أبعد عن الحياة السياسية كل عنصر شعبي ، واعتمدت على البورجوازية العليا وأخمدت بالقوة الثورات الجمهورية .

وكان الزعماء المحافظون منقسمين على أنفسهم ويتنازعون على السلطة حتى اتفق الملك ووزيره غيزو والجلسان وتأمن الاستقرار في الداخل والسلام في الخارج (١٨٤٠ - ١٨٤٨) .

ولكن هذا الاستقرار كان ضعيفاً لأن الملك تعنت في رأيه ورفض كل إصلاح وأثار الاستياء العام الذي ظهرت آثاره في ثورة ٢٤ شباط ١٨٤٨ .

وقدمت ملكية تموز لفرنسا خدمة واسعة في إنشاء إمبراطورية جديدة استعمارية بفتح الجزائر .

ولم تكن الحرية الليبرالية غالبة في هذين البلدين الكبيرين فحسب بل إنها ظهرت أيضاً في **بلجيكا** تحت إدارة وتوجيه ملكها الماهر ليؤبولد الأول المرن ، والحزبان الكبيران الليبرالي والكاثوليكي يتواليان على السلطة على الطريقة الإنكليزية .

وفي سويسرا حيث اتحدت السبعة كانتونات الكاثوليكية في الرابطة الانفصالية (زوندر بوند) في عام ١٨٤٤ ضد الحكومة الاتحادية . وحلت على إثر حرب مدنية ، وانتظمت مع الدول الباقية في اتحاد كونفدرالي توجهه مبادئ ديمقراطية .

ب ـ أوربة الوسطى

وإذا تطورت أوربة الغربية ، فلم تكن الحال على مثل ذلك في أوربة الوسطى ، حيث ظلت روح الحلف المقدس ، والحكم المطلق ظافراً ، وحيث حافظت الأرستقراطية على امتيازاتها السياسية والاجتماعية . ونمسا مترنيخ المعتمدة على مساندة روسيا نيقولا الأول تحافظ على « النظام » عندها ، وفي ألمانيا وفي إيطاليا . ولكن بالرغم من شدة القمع ، وشدة الرقابة ، تهيأت حركات قومية وليبرالية .

الإمبراطورية النمساوية :

أولاً : كانت النمسا مأهولة تقريباً بـ (٣٥) مليون نسمة ، ولكنها تحتوي شعوباً مختلفة ، بلغاتها ، وماضيها ، ودينها .

الألمان : في النمسا الألبية (التيرول ، شتيريا ، كارانثيا ، حدود بوهيميا) ، جزيرات توجد حتى هونغاريا .

السلاف : في الشمال : التشيكيون في بوهيميا ، كاتوليك أو بروتستانت ، البولونيون الكاثوليك في غاليسيا والسلوڤاك والروتين ، كاثوليك ، بروتستانتيون أو أورثوذوكسيون .

وجماعة **الجنوب** تضم الكروات الكاثوليك ، حول **أغرام** ، والصرب الأرثوذوكس .

المجر : المتجمعون في وسط سهل بانوّنيا ، في جنوب بودابست ، عاصمتهم .

اللاتين : وهم رومان ترانسلڤانيا والإيطاليون (لأن النمسا تملك المملكة اللومبار ـ ڤينيسين) .

وهذه الشعوب المختلفة تتوزع إلى جماعات متعـاديـة ، ولم تكن متجمعـة إلا بفضل جاه السلالة .

ثانياً : الحكم معقد للغاية . والإمبراطورية النمساوية مؤلفـة من **دول تـاريخيـة** ، تأسست منـذ العصر الوسيـط . وبـالرغم من جهود مـاريـا ـ تيريزا وجوزيف الثـاني لم تتمكن من الذوبان في دولة حديثة متحدة ومتمركزة .

في الأقـاليم التي مـا زالت تحمل ألقـابهـا التـاريخيـة (مملكـة بوهيميـا ، مـارغرافيـا مـورافيـا) (التي كانت تعتبر إقليمـاً منـدمجـاً في مملكـة بـوهيميـا ، كبـاقي سيليزيـا) ، **ودياطات** تمارس السلطات التشريعية وتحافظ على امتيازات حقوقية تتعلق بها الطبقـة النبيلة . ومملكة هنغاريا التي نجت منذ زمن ماريا ـ تيريزا ، من محاولات المركزيـة ، وتتمتع بنظام خاص . والإمبراطور فيها ملك ، وعليه أن يقسم اليمين بمراعاة الـدستور ؛ ويساعده الدياط الذي يضم مجلس الماغنـات ، والمجلس الأدنى الـذي ينتخبـه النبلاء في الواقع .

ومع ذلك يوجد في فينّا **سلطة مركزيـة** . ويهتم بعض الوزراء بـالمصلحـة العـامـة للمـاليـة على سبيل المثـال ؛ وأمـانـات سر للمستشـار ، رئيس الوزراء ، تـدير البـلاد . وبعض الوزارات ، كوزارة الداخلية التي لم يكن على رأسها وزير وإنما لجنة . وزيـادة على ذلك مجلس الدولة الذي يحتوي عدة فروع ، ووزارة مؤتمر الـدولـة أو مؤتمر وزاري يشاوره الإمبراطور في القضايا الهامة .

ثالثاً : **الملكية** كان الإمبراطور بجاهـه الشخصي يجمع هـذه الشعوب المتفرقـة ، كما ينسق مصالح عمل الحكومة والإمبراطورية . ولذا كان لشخصـه أهميـة كبرى ، كما كانت سـلالـة آل هـابسبـورغ تتمتـع في الإمبراطـوريـة كلهـا بشعبيـة حقيقيـة . وحتى ١٨٣٥ الإمبراطور فرانسوا الأول ، الـذي يسميـه النمسـاويون « الإمبراطـور ذو الاسمين » لأنـه قبـل أن يصبـح في ١٨٠٤ « فرانسـوا الأول إمبراطـور النمسـا » كان في اثني عشر عـامـاً

فرانسوا الثـاني إمبراطور الأمبراطوريـة الرومـانيـة الجرمـانيـة المقـدسـة . كان أميراً يهتم بالتفاصيل ، ضعيفاً ، أنانياً ، يحب العمل ، ولكن إرادته السلبية تماماً تتحـدد في عـدم المساس بالنظام . وعنـد وفـاتـه انتقل العرش إلى ابنـه فرديـنـانـد **الأول** ، وكان ضعيف العقل ، مريض الجسم ، مصـابـاً بـالصرع . وكان **الأرشيـدوق** لويس ، عم الإمبراطور ، يؤمن **الأساسي** من العمل الأمبراطوري .

أمـا الشخصيـة التي سيطرت على الـدور فظلت المستشـار مترنيـخ ، ولكن إذا كان يدير السياسة الخارجية ، فإن نفوذه في الـداخل اصطـدم بنفوذ **كولوفرات** رئيس لجنـة الداخلية .

رابعاً ـ دعـائم النظـام : كانت الحكـومـة تعتمـد على الجيش الـذي كانت مـلاكاتـه (كوادره) ألمانية ومن الطبقة النبيلة ، المنجذبة بانتظـام إلى البلاط وبـإمكانها الاعتماد على **الكنيسة الكاثوليكية** التي تضعها تحت وصايتهـا ، وتمنع الأحبـار ، بثبـات تطبيق **الجوزفية** (نظام تصوره الإمبراطور جوزيف الثاني ، وهو يلحق الكنيسة بالدولة) ، من العلاقات المباشرة مع البابا ولكنها تشجعه أيضـاً ، لأن الكاثوليكيـة كانت بحق دين الدولة ، والوظائف العامة ممنوعـة على غير الكاثوليـك . ويوجـد تحت تصرفـه ديوانيـة (بوروقراطية) متمرسة وواعية وشريفة ـ ولكنهـا بطيئـة العمل للغـايـة ، وغير قـادرة على أن يكون لها اتصالات مباشرة مع السكان ، لأنها تتكلم **الألمانية** فقط . وأخيراً تعتمد الحكومة على **الشرطة** التي تراقب المسارح والجامعة والمراسلة وتمنع الخروج من البلد دون جواز سفر .

هذا النظام السلطوي ، حافظ عليه النفوذ النمساوي أيضاً في ألمانيا وفي إيطاليا .

ألمانيا :

أولاً ـ النظـام الأرضي : كانت ألمـانيـا قبـل ١٧٨٩ تضم أكثر من (٣٠٠) دولـة . كانت غابةً إقطاعيـة . ومنـذ ١٨١٥ كان سكانهـا نحو ٣٦ مليون نسمـة في ٣٨ دولـة بينهـا

خمس ممالك (بروسيا ، هانوڤر ، ساكس ، باڤاريا ، ڤرتامبرغ) ، ودوقية كبرى (باد) ، ومدن حرة وإمارات . وأهمها جميعاً مملكة بروسيا (١٢ مليون نسمة) ولكنها منقسمة إلى فرعين منفصلين بدول وادي الڤيزر .

ثانياً ـ النظام السياسي : إذا استثنينا دول الجنوب ، فالحكم المطلق يسيطر فيها . وكل هذه الدول متجمعة في اتحاد كونفدرالي (كونفدراسيون) ، تدخل فيه أيضاً أراضي مأهولة بالألمان وتابعة لعواهل أجانب . وكانت النمسا تضم في أراضيها ألماناً وتشيكيين ، وكانت اللوكسمبورغ تابعة لملك هولندا والهولشتاين لملك الدانيمارك .

والرابط الاتحادي ، بين مختلف دول الكونفدراسيون ، هو مجلس ، **الدياط** الذي يعقد جلساته في **فرنكفورت** . وهذا لا يملك أي وسيلة لتأمين تنفيذ قراراته : فليس له لا حكومة اتحادية ، ولا محكمة ، ولا موازنة ، ولا جيشاً . إنه بالإجمال مجلس مفوضين مطلقي الصلاحية ولكن لا صلاحية لهم واللقب فخري . والقرارات الهامة يجب أن تؤخذ بالإجماع : والنظام لا يمكن أن يدوم إلا إذا اتفقت بروسيا والنمسا .

إيطاليا :

أولاً ـ النظام الأرضي : إيطاليا **تعبير جغرافي** يضم أربع دول كبرى : في الشمال ، لومبارديا ـ **فينيسيا** التابعة للإمبراطورية النساوية ؛ وفي الغرب ، دولة صاحب الجلالة ملك سردينيا ، وتضم البيمونت ، وسادرينيا ، والساڤوا ، ونيس ، وجنوة ، وتمثل ٤,٥ مليون ؛ وفي الوسط : دول الكرسي ـ **الأقدس** ويسكنها ٢,٥ مليون وتضم عناصر مختلفة : المارش ومفوضيات على طول بحر الأدرياتيك ، روما ، واللاتيوم ، والأومبري . وهذه العناصر تؤلف نواة الدولة ؛ وفي الجنوب أخيراً مملكة الصقليتين ونفوسها ٧,٥ مليون نسمة .

وهناك دول صغيرة مثل دوقية توسكانا الكبرى ، وأمارتا پارما ومودينا ـ ودوقية اللوك ، وكلها محصورة بين دول البابا والبيونت .

ثانياً ـ النظام السياسي : لم يكن للدول الإيطالية فيا بينها حتى ذلك الرباط التافه الضئيل الذي كان لألمانيا متمثلاً بالكونفدراسيون الجرماني . وفي كل منها يسيطر الحكم المطلق بألوان محلية . والنفوذ النمساوي يمارس في كل مكان : والدولة الوحيدة التي صانت نفسها هي دولة ملك البيمونت ـ ساردينيا .

جـ ـ أوربة الشرقية

روسيا : التي تضخمت بفلندة ، وبسارابيا ، والقسم الأعظم من بولونيا ، وتحتل بينها المكان الأساسي . وكان القيصر **نيقولا الأول** الذي خلف في عام ١٨٢٥ أخاه الكسندر الأول ، يفاخر بأنه يجسد ، تجاه « الانحطاط الديني والمدني في أوربة » الحاكم الفردي والأرثوذوكسية والفكرة القومية . وقد أفاد من الثورة البولونية ليحذف الدستور الذي منحه سلفه ، لا سيا وأن مبدأه يبدو له بشعاً . والحدود « مغلقة على الناس ، والكتب ، ومن بعد على الطرق الحديدية الأوربية » . وكانت الشرطة سيدة البلاد وجماهير **الموجيك** (الفلاحين) الواسعة ليست إلا قطيعاً من العبيد .

تركيا تحاول أن تتجدد ، وقد دخلت في عصر التنظيمات ولكن جهود رشيد باشا رئيس الوزراء « الصدر الأعظم » اصطدمت بالمعارضة الدينية والاجتماعية . وقوة الأعراف القديمة .

الختام

وهكذا تسيطر على أوربة قضيتان :

١ ـ في **الغرب** ، نشهد نهوض البورجوازية الـذي يوضحـه تقـدم التقنيـة والتطور الاقتصـــادي ، ولكن سيطرة البـورجـوازيـــة ستثير ردود فعـــل العمال الجمهـوريين والاشتراكيين .

٢ ـ في **أوربة الوسطى** ، إن الحكم المطلق الذي كان يمسك بـه العواهل ، والطـابع الاصطنـاعي للـدول في ١٨١٥ لمجاملـة الغـالبين ، والاهتمام بـالتوازن والمصـالـح أثـارت حركات ليبرالية وقومية .

٣ ـ أوربة الشرقية تبقى جانباً . وروسيا ، **حصن الحكم المطلق** ، وأرض المـاضي ، تظهر في معصم من الحركات التي تهز باقي القارة .

الفصل الأول
الدول القديمة والأمم الفتية
نحو ١٨٥٠ ـ نحو ١٨٧٠

« الإمبراطورية هي السلام » . هذا ما صرح به الأمير ـ الرئيس (لويس نابليون) في ١٨٥٢ ـ في خطابه في بوردو .. الحرب لا تعمل لمجرد الرغبة ، إنها تعمل لضرورة . وفي أوقات الانتقال هذه ، حيث تنشأ في كل مكان ، إلى جانب الكثير من عناصر الازدهار ، بوادر الكثير من أسباب الموت ، يمكن القول بحق : الويل لأول من يعطي ، في أوربة ، المؤشر لتآمر لا تحسب نتائجه » .

من هذا النص وحده ينكشف البلاء الذي يتنبأ به وحده : في ١٨٥٤ ، أعلنت فرنسا الحرب على روسيا ، وفي ١٨٥٩ على النمسا ، وفي ١٨٧٠ على بروسيا . وهكذا أصبحت فرنسا ، على هذا النحو ، في عصر الإمبراطورية الثانية ، المحرض للاضطراب العام الذي كان نابوليون الأول يخيف به . ولكن من الخطأ ألا يرى في هذا التناقض غير الخداع ، أو ببساطة ، الخرق من جانب الإمبراطور . لقد قيل كيف كان الخلاف بين الدواعي القومية والشرعية المحافظة ، يؤدي إلى تشكيك ضروري في التوازن الأوربي . وفرنسا ، باعتبارها مولدة النظام الجديد ، كانت ترى أن هذا الأمر خاص بها ، وحفظت مبادهته ما يقارب خمسة عشر عاماً ، وبكل سعادة . ولكن دخول بسمارك المسرح الأوربي قد جاء فيما بعد بالمناسبة للبرهان في كل الحالات ، على أن البناء الذي أعِدَّ في فينّا ، وثبت في أولمتز لم يكن قابلاً للحياة ، وأن المتطوعين لن يألوا جهداً في توجيه الطعنات الحاسمة له .

وهناك حادث يفاجئ أكثر ، وهو أن هذا التوازن ، الذي جعل الإنكليز من أنفسهم حراساً له ويقظين عليه ، استطاع أن يتحول رأساً على عقب ودون أن يلاحظوه ـ كما يبدو . ومن هذه السلبية البريطانية يحسن أولاً أن نتصور بواعثه .

الأوج الفيكتوري :

لقد انتهت إنكلترا ، تحت حكم فيكتوريا ، بأن تشبه أسطورتها الخاصة : ليبرالية وقوية ، قوية لأنها ليبرالية . مجموعة ظروف سعيدة ساعدت هذا التحول الختامي .

ومن غير العدل ألا تذكر ، في هذا المقام ، الملكة نفسها : فلا لعمرها الطويل الاستثنائي استحقت أن تعطي اسمها لعصر فحسب ، وإنما أيضاً بالشعور الذي أرادت به وحدها في أوربة أن تمارس دورها مليكة « دستورية » . لقد ترك أسلافها تأسيس المسؤولية الوزارية ، ومجلس العموم التشريعي قليلاً قليلاً وتأمين رقابته على السلطة التنفيذية . ودون الرجوع إلى هذه المكاسب ، صانت خلال أربع وستين عاماً ، امتيازات التاج الأخيرة : تسمية واختيار الوزير الأول (رئيس الوزراء) ، والرقابة اليومية على السياسة الداخلية ، والتدخل المصالح في حال خطر ، في السياسة الدولية . ودون أن تزعم بأنها تحكم ، عرفت كيف تحكم .

أعطت للملكية الحديثة قاعدتها السياسية ، وأعطتها أيضاً القاعدة العاطفية التي كانت تنقصها في عهد الملك جورج الرابع وغليوم الرابع . كانت زوجة مثالية نموذجية للأمير ألبيرت ، ثم امرأته التي لا تقبل التعزية . وأم وجدة لسلالة عديدة ، ومجدت حتى البطولة هذا الإجلال المتصنع والمتكلف العظمة ، هذه الحياة العائلية الأنانية بحرارة التي كانت تمثل منذ قرون المثل الأعلى البورجوازي الكامل : هذه العواطف وهذه الأعراف كانت بحق ، بعدها ، تسمى فيكتورية .

والمجتمع الإنكليزي الجديد ، وإن ضيق أحياناً على الفرد فقد مارس بالعكس ، في السياسة وفي الاقتصاد ، الليبرالية الثابتة أكثر من غيرها . إن إلغاء قوانين الحبوب ،

بإدخاله منذ الآن فصاعداً الحنطة الأجنبية أقل غلاءً ، وإجباره المزارعين على التوجه إلى تربية الحيوانات ، لم يكن ذلك في عام ١٨٤٦ إلا خطوة أولى . أما بعد ذلك ، فإن المعاهدة مع فرنسا ، التي طال التفاوض بها ، وقعت أخيراً في ١٨٦٠ وسجلت انتصار مدرسة مانشستر الليبرالية ، وطبع على التجارة العالمية ، لمدة ثلث قرن ، طفرة مقدسة غالباً لبريطانيا العظمى : « منذ زمن طويل ننادي بهذه الحقيقة ، وهي أنه يجب مضاعفة وسائل المبادلة لجعل التجارة مزدهرة ؛ دون منافسة تبقى الصناعة متوقفة وتحافظ على أسعار مرتفعة تقاوم الاستهلاك ؛ وإن الزراعة ، دون صناعة مزدهرة تنمي رؤوس الأموال ، تبقى في سن الطفولة » . هكذا برر نابوليون الثالث ، لفرنسا ، تحوله إلى المبادلة الحرة . وكم بالأحرى مثل هذه البواعث طبقت في إنكلترا : فالتجارة ، التي نشطها استهلاك إمبراطورية واسعة خدمت بالنوعية العالية والسعر الرخيص النسبي للإنتاجات ؛ والاستهلاك الداخلي استطاع على هذا النحو أن يفيد من أسعار أكثر فائدة وأعم نفعاً ؛ فقد ازداد مستوى الحياة العام . وحتى العمال غير المهرة والبائسين جداً في النصف الأول من القرن ، عندما رآهم آنغلز أودكنز في مانشستر ، أصبحوا يفيدون منذ الآن من الخبز بسعر رخيص . وتكفي ملاحظة أخيرة لفهم التفاؤل الفيكتوري وتثمين الأهمية التي اكتسبتها عقيدة المبادلة الحرة منذ ذلك الحين في الوجدان الجماعي : في ١٨٧٠ كان الإنكليزي يدفع أقل من نصف الضرائب التي كان يدفعها جده في ١٨٢٥ .

وتبني المبادلة الحرة مجّد فتحاً آخر لإنكلترا الفيكتورية ، ألا وهو النظام البرلماني الذي نضج تقريباً : وفي الواقع ، إن المحافظ السور روبرت بيل بمساعدة المعارضة الليبرالية ، وبالرغم من جزء من أصدقائه السياسيين الخاصين ، كان قد فرض إلغاء الرسوم على الحنطة . واستطاع ديزرائيلي أن يتهكم على الواقع « بأن الشريف جداً الكريم المحتد قد فاجأ **الهويغيين** في حمام وأخذ ألبستهم » أي عراهم : وأصبحت الممارسة جارية ، واستعملها ديزرائيلي نفسه بعد عشرين عاماً . ولم يفكر أحد الحزبين بالرجوع

أبداً عن إصلاحات وطدها الخصم فحسب ، بل وحتى نراه يحاول غالباً إتمامها ، وحتى سبقها . لقد فتحت الحكومة المحافظة ، في ١٨٦٧ ، إلى البورجوازية الصغيرة ، الوصول إلى الحياة السياسية ، وألغت حكومة أخرى ، في ١٨٧٥ ، القانون « السيد والخادم » الذي يخول تشريعاً اجتماعياً « ليبرالياً » بجد . والحزبان المتعاقبان على السلطة بشكل منتظم تقريباً ، كانا يتعارضان أيضاً بمزاجهما أكثر مما بمبادئهما . والمبارزة الشهيرة بين غلادستون وديزرائيلي مجّدت ، بين ١٨٦٦ و ١٨٨١ ، هذا الاختلاف في الأسلوبين ، حتى أنهما نفسهما يعرفان بتناقضاتهما : غلادستون ، العملاق ، المتكبر والمعروف بأنه خطيب ديني وذو أبهة يحرص ، حتى في أقصى شيخوخته ، على أن يقطع بيده الخاصة أغصان أشجار حديقته . أراد أن يجسد الوجدان الإنكليزي . وخاصة بسياسته الكريمة ، غير الناجعة ، حيال إيرلاندة . وهو الذي كان من أرومة إيكوسية ، هو الذي اقترح لها الحكم الذاتي ، أي الحكم الداخلي . وديزرائيلي أقل قوة ، متهكم ، لامع في مجلس العموم كما في الصالونات . « محافظ للحفاظ على كل ما هو سوي وسليم » ، جسد أمامه مشهداً آخر للطبع البريطاني : الكبرياء . وهو يهودي الأصل ، إنكليزي وأكثر أنصار الملكية في عصره ، وربما أكثر من الملكة التي فرض عليها ، نوعاً ما ، لقب إمبراطورية الهند . وكان كلا الرجلين يعجب أحدهما بالآخر ، ولكن بنفور كامل . ومهما تكن قوة قناعاتهما وهوى جدلهما ، فقد كانا قبل كل شيء عضوي البرلمان ، وخاضعين لأغلبيته وعبرة للناخبين . والهيئة الانتخابية الإنكليزية ، الغرة في جمهورها ، كانت تتبع هواها ، أو تجحد في تصويتها . ولم يفكر أحد بلومها . وبفضل هذه القواعد التي أرساها رجلا الدولة العظيمان وجعلاها قطعية ، حُلّ النزاع العادي بين النظام والحركة ، بصيانة الطرفين .

هذه البرودة في المزاج ، هذا الصبر ، هذا التفاؤل أمنت لبريطانيا العظمى تطوراً داخلياً هادئاً ومزدهراً . ولكن ربما كانت في الوقت ذاته في أساس التغيير الأساسي لسياستها الأوربية . إن « ذروه يعمل ـ ذروه يمر » الذي يقوله المانشستريون لم يكن

حتى ذلك الحين ، الكلمة الآمرة للدبلوماسية الإنكليزية : ويبدو أنها ستصير ، وبخاصة بعد ١٨٦٥ ، تاريخ وفاة لورد بالمرستون الذي كان يوجهها زمناً طويلاً .

كانت سياسة بالمرستون « قومية » بالمعنيين للكلمة : وطنية ، وقومية . فقد دعمت بشدة المصالح الإنكليزية في كل مرة تبدو فيها معرضة للخطر أو معوقة ، ولهذا اعتمد على قوة الأسطول البريطاني ، وعلى عاطفة وطنية ـ وحتى قومية سريعة الاشتعال . ولكن دعم أيضاً ، في صف كاننغ ، كل الحركات القومية في القارة : الهونغارية والإيطالية ضد النمسا ، والصقليين ضد ملك ناپولي . ونحو آخر حياته ، أصبح هذا الميل خطراً ، في الحد الذي أوشك فيه زج إنكلترا في حرب الانفصال الأميركية ، إلى جانب انفصاليي الجنوب . وربما كان هذا عائداً للخوف من هذا الخطأ الأبدي الذي تمسك به بالمرستون وخلفاؤه في اتخاذ الحيطة ، أمام الخلافات التي مزقت أوربة خلال السنوات التالية . وكان سعيداً أن يرى الحركات القومية تتم وحدها تماماً ، ودون أن يتعرض فيها للخطر كل من غلادستون وديزرائيلي ، وذلك بوضع بريطانيا العظمى في حالة توفق بين المبادئ والمصالح لتستحق أن تأخذ على الأقل الاسم « عزلة » . وأن « انتظر وانظر » لم تعد سابقة للعمل ، بل حلت محله . ولأول مرة منذ « معسكر القماش الذهبي »(١) ، كانت القوات القارية الوحيدة في المجابهة على القارة ، وفي تغيير وجهها . وماذا يهم إنكلترا : لقد كانت ملكة البحار .

نابوليون الثالث : فرنسا بين جمهوريتين

لا يفهم حالاً المعنى العميق لانقلاب لويس ـ نابوليون . الواقع أن رئيس الجمهورية كان وارث البونابرتيين ، ويعتبر نفسه كما هو موطداً فيما بعد للنظم

---

(١) معسكر القماش الذهبي اسم أطلق على السهل الواقع بين غين Guines وأردر Ardres (پا ـ دو ـ كاليه) ، حيث التقى فرنسوا الأول هنري الثامن ، ملك إنكلترا ، في ١٥٢٠ ، بغية التفاوض معه بتحالف ضد شارل الخامس (شارل لكان Charles-Quint) .

الأمبريالية (الإمبراطورية) الملغاة منذ أربعين عاماً . وأخفى عن أعين المعاصرين ، وأحياناً خلفائهم ، هذه الحقيقة الواقعية المتناقضة : أي الإقامة التي لا رجعة عنها للديموقراطية السياسية في فرنسا ويرجع تاريخها إلى ٢ كانون الأول ١٨٥١ .

وفي الواقع ، حتى ذلك الحين لم تكن الإصلاحات « الليبرالية » مرتجاة من قبل مختلف الفئات ، إلا في الحد الذي تؤمن سلطتها : إن البورجوازية المتوسطة قلبت لوي ـ فيليب لأنه رفض لها تخفيض الضريبة ، ولكنها ما كانت لترجو في أعماقها بأن يكف حق التصويت في تطابقه مع حق الملكية أي حدوثها معاً ؛ واليسار الفكري والعمالي صفق لتأسيس التصويت العام ، ولكن ، بعد أن علم أنه تركه أقلية ، قام عندئذ وعمل بكل قواه على تأخير تطبيقه ، ثم من بعد لتخطئة نتائجه (مفاعيله) : أما اليمين المحافظ ، وإن قبل هذا التصويت نفسه ، فذلك بشرط أن يؤمن له الأصوات الريفية ؛ ولذا كان ينظر شذراً لخلاء الأرياف من السكان ، وتمركز العمال في المدن ، وهذا أوصله إلى أن يتصور بحيطة تطوراً اقتصادياً أراده القرن . وانفجرت في وضح النهار كل هذه التناقضات بين ١٨٤٨ و ١٨٥١ ، تاركة ظهور دوام قوتين كبيرتين سياسيتين تشعران بنفسيهما كثيراً أو قليلاً أنهما متحدتان ، ولكن الوحيدتين اللتين يحسب حسابهما بحق هما : المال والعدد . وقد نتج عنهما ضرورتان أساسيتان : ضرورة تطبيق الملكية وضرورة الاستناد على الجماهير . وظهرتا متناقضتين . أما لويس ـ نابوليون فقد أظهر أنهما متفقتان . وبعد أن حصل على أكثر من سبعة ملايين صوت ، كان بإمكانه منذ الآن فصاعداً أن يجبر ، للقول هكذا ، الفرنسيين على العيش معاً .

ولكن إذا أصبح التصويت العام ، بالرغم من المجلس المنحل ، عقيدة غير قابلة للمس ، فهذا يقتضي نتائج عظيمة : السلطة بكاملها ، كخصومها ، يجب أن تلغى قبل كل شيء ، تلاحم طبقات عريضة من الأمة ، ولهذا التعريف ببرامج لا بعقائد . وبالرغم من عدم تجربة الناخبين ، فهذا ما مرّ بالتمام والكمال : إن كل شيء في الإمبراطورية

الثانية وحتى الحرب التي أطاحت بها كان مسيراً ، مهما قيل في ذلك الحين ، بالتطور العام للرأي العام .

في البدء ، حسب الكلمة الشهيرة لنابوليون الثالث ، كان يجب : « أن يطمئن الأخيار وأن يرتجف الأشرار » . وقد أظهر الاستفتاء الشعبي على أن الناخبين وافقوا على هذا البرنامج . والوقت الذي لزم لتنفيذه شغل ما اتفق على تسميته بـ : « الإمبراطورية السلطوية » التي خفف في عهدها تقدم الاقتصاد التوتر الاجتماعي وأنست غياب لعبة سياسية نشيطة : كان يكفي ، ليكون الفرد منتخباً ، أن يكون مرشح الحكومة . وبعد ذلك ، كان القلق الذي شعرت به مختلف قطاعات الهيئة الانتخابية أمام معاهدة المبادلة ـ الحرة في عام ١٨٦٠ وتطور السياسة الخارجية وأدى إلى الرغبة في انحراف النظام في الاتجاه البرلماني : وهذا ما حصل انطلاقاً من ١٨٦٠ في ما سمي بـ « الإمبراطورية الليبرالية » . وفي هذا الموضوع صرح الإمبراطور في ١٨٦٩ : « إن فرنسا تريد الحرية ، ولكن مع النظام ؛ النظام أعني به : ساعدوني على تأسيس الحرية » . وفي السنة التالية تمّ التوصل إلى ما تتصوره الديموقراطية : المسؤولية الوزارية . فقد كلف إيميل أوليڤيه الجمهوري السابق والمنضم للعهد بتعيين معظم الوزراء . وهكذا فإن فرنسا نابوليون الثالث ، بامتلاكها حكومة مسؤولة والتصويت العام ، تكون قد ساوت بل وتجاوزت بريطانيا العظمى في طريق الإصلاحات : لأن التصويت الضريبي بقي فيما وراء بحر المانش حتى ١٨٨٥ وحتى ١٩١٨ ، ومجموع هذه الإصلاحات الليبرالية « كان موضوع استفتاء شهر أيار ١٨٧٠ ؛ إلا في باريس،حيث كانت « اللاآت » تؤلف الأغلبية ، جدد الناخبون بكثافة لنابوليون الثالث الثقة التي برهنوا له عليها في ١٨٤٨ و ١٨٥١ . وفي الحقيقة لم يبرر هذه الثقة بشكل أفضل منها ، في أي وقت مضى ، بالرغم من العداء المستشري للأقلية « الجمهورية » ، الشعار الذي كانت تحمله عملات ١٨٠٤ : « جمهورية فرنسية ، نابوليون إمبراطور » .

ومن المؤكد أن المعاصرين لم يكن لديهم شعور كامل بالطبع الفريد لمثل هذا النظام . وخصومه تظاهروا ، مع كثير من المبالغة ، بألا يروا فيه إلا الظلم : وأنصاره اتخذوه غالباً لأجل هذه الملكية الإمبراطورية التي اتخذ مظاهرها . وإلى هؤلاء الأواخر سجلت الهزيمة العسكرية في أيلول ١٨٧٠ خطأهم لأنها أدت لا إلى سقوط الرجل فحسب ، وإنما السلالة التي كان يعتقد بأنه أرجعها . لقد تخلت البلاد عن نابوليون الثالث ، كما فعلت برئيس للجمهورية ضل عن الطريق السوي . وفي الحقيقة بعد أن أنقذ التصويت العام ممن كانوا يريدون إسقاطه وأعطاه قاعدة قطعية إن لم تكن تطبيقاً موالياً جداً ، ما فتئ يردد أنه منتدبه . ولا عجب بالتالي ، من أن تكون للإمبراطور شعبية أعماله : فقد هلل له أثناء النجاحات ، وتسوهل معه في الأدوار القلقة ، وسقط في سودان عندما سلم « سيفه الخاص لا سيف فرنسا » ، وأصبح ببساطة جنرالاً مغلوباً . ولا يوجد « قيصري » في مثل هذا المصير ، اللهم إلا في الأوهام التي تقاسمها نابوليون مع أعدائه . والأحرى أنه كان رئيساً من أسلوب أميركي أخذ ، وحافظ ، وأضاع السلطة حسب تمنيات الأمة .

وعن الديمقراطية الجديدة التي تمناها الفرنسيون ، حدد فيكتور هوغو بعض الأهداف أثناء انتخابات ١٨٤٨ : يجب أن يعطى التعليم للجميع كما تعطي الشمس النور ، والإكثار من الخطوط الحديدية ، وإعادة تشجير جزء من البلاد ، وإزالة البور عن أخرى ، وزيادة قيمة الأرض مرتين .. وهذا البرنامج لمرشح للنيابة ، وسعه المرشح - الإمبراطور بدوره في ١٨٥٢ في خطابه في بوردو ، وتوصل إلى أن تحترم فيه الخطوط الكبرى . وفيكتور دُروي نفسه ابن عامل ، ووزير التعليم العام (المعارف) من ١٨٦٣ إلى ١٨٦٩ ، انطلق من هذا التحقيق الابتدائي : « حيث يسود التصويت العام ، يجب على كل العالم أن يملك أبسط عناصر المعارف التي تعطيها المدرسة الابتدائية » . وأكثر المؤسسات التي هي من هذا النوع ، ولكنه أحدث أيضاً تعليماً دون

لغات قديمة مخصصاً للتقنيين ، وتعليماً ثـانويـاً نسويـاً ؛ وشجع أخيراً البحث بتـأسيس (مدرسة الدراسات العليا) .

ولكن الدفع كان في الصعيد الاقتصادي أقوى مما في غيره : مددت أربعـة عشر ألف كيلومتر من الخطوط الحديدية ، وإدخـال الشيـك (الصـك) المصرفي وتعميم العملـة ـ الورقية ، وإحداث بنوك (مصارف) كبرى للودائع ، وتجهيز الصناعة المعدنيـة ، وأنجز كل هذا بسرعة حيرت بعضهم ، وأغنت الآخرين ، وسجلت على كل حال دخول فرنسـا في العصر الصناعي . إن معاهدة المبادلـة ـ الحرة المبرمـة مع إنكلترا في ١٨٦٠ أجبرت على تجديد تجهيز صناعة النسيج ، ولكن أيضاً أحياناً موضوعـات الفكر . وتحولت العـاصمـة نفسهـا أيضـاً : إن بـاريس ١٨٧٠ كانت تختلف كثيراً عن بـاريس لـويس ـ فيليب كاختلاف باريس هـذه عن بـاريس هنري الرابع . واتهم علمـاء الجمـال البـارون هوسّمان محافظ السين من ١٨٥٣ إلى ١٨٦٧ بالفاندالية (حـالـة فكريـة تنزع إلى تـدمير الأعمـال الفنية ، والأشياء الجميلة) وعدم الاستقـامـة من قبل الجمهوريين ، ولكنـه تمـاسـك بقوة وكان المنفذ القوي لعمل عظيم . وفي هذا الإطار الجديد ، عادت « الحياة البـاريزيـة » من جديد على ما كانت عليه في منتصف القرن الثامن عشر : مركز جذب للعـالم كلـه . إن أحـد عشر مليونـاً من الزائرين ومعظمهم سـادة أوربـة جـاءوا ليشـاهـدوا ويعجبوا بالمعرض العام في سنة ١٨٦٧ ، واستطاعوا أن يقتنعوا بأن فرنسا تكيفت مع عصرها .

والإمبراطور هل « كسب لذلك مصالحة الأحزاب المنشقة » كما كان اقترح في العـام ١٨٥٢ ؟ حقـاً لقـد بقي في ١٨٧٠ شرعيون وأورلئـانيون ؛ أمـا الأوائـل فقـد رفضـوا أن تندمل الجروح القديمة وظلوا أوفياء إلى فكرة عالم تبتعد حقيقته أكثر فأكثر ، وتمـاسكوا جيداً . وعوضوا عددهم الآخذ بالتناقص بوفاء ظل دوماً أكثر غيرة وحسداً ، ومـا انفكوا يرون في حفيد شارل العاشر الصغير ، الملك « هنري الخامس » ؛ وطوعاً أو كرهـاً ، فيما وراء السخريـة والتهكم المر والأحقـاد ، كانوا يفيـدون مع ذلـك من الازدهـار والسـلام الداخلي : إن كثيراً من النبلاء الذين عادوا للأرض ، عقـدوا معهـا من جـديـد روابط

قديمة ؛ وفي نكبة ١٨٧١ . اتجهت فرنسا الريفية في الغالب ، لزمن ، نحوهم . أما الدعامات القديمة الملكية تموز ، فقد امتزجت طوعياً أكثر بحركة الأعمال : فالأورلئانية بدأت تظهر وفاء سياسياً للسلالة أقل مما هي كشكل ليبرالي وذرائعي في تصور قضايا اليوم .

ومن الجهة الجمهورية وجد الرئيس السابق المعارضة السياسية الأكثر ثباتاً والأكثر حركية ، والأكثر استشراءً . كانت غير حساسة بالتقدم الاقتصادي ومقررة على ألا ترى في التصويت العام إلا العرف الذي يعمل منه نظام مكروه . وكانت تقرأ بحماسة « الثلاثة آلاف بيت من الكراهية في « القصاص »[1] . قدح الجمهوريون باستفتاء ١٨٧٠ ؛ وكانوا معادين للحرب مع بروسيا ، ولكن في الحد الذي يتوقعون فيه تصلباً في السلطة . ومع ذلك فقد كانوا بقعة زيت في الأجيال الجديدة للطبقات الصاعدة : إن المشهد الملكي للنظام هو الذي أبعد عنه الكثير من صغار البورجوازيين ، بالرغم من أن صعودهم في الغالب يرجع إلى سياسته ، إن الشاب غامبتّا ، في ١٨٦٨ ، يرجع إلى سقراط ، وشيشرون ، وكاتون في الدفاع عن « الدين الذبيح والأخلاق الجريحة والحق المسحوق تحت جزمة جندي » ، وبعد عشرين عاماً ، « الانحرافات العدائية الموسومة بالعار بخطابات بوردو ، لم ترجع « تيار النهر الشعبي العظيم » والأفضل أنها ردت إلى الفكرة الجمهورية الطبقة الناشئة عن الصناعة التي استحق عليها الإمبراطور في بداياته العطف . وفي الحقيقة ، إن نابوليون الثالث الذي تثقف بالمذهب السن ـ سيموني ، والمؤلف لـ « إبادة الفقر » ، خول الكثير للمطاليب العمالية : استوعب البطالة ، وخول حق الإضراب ، والنظام القانوني للجمعيات التعاونية ، وتساهل مع النقابات ، بل وحتى ، بين ١٨٦٤ و ١٨٦٨ ، القطاع الفرنسي للأممية . ولكنه لم يستطع أن يخول أكثر

---

(١) « القصاص » ديوان أشعار نظمها فيكتور هوغو ، بعد ٢ كانون الأول ١٨٥١ وهو محكوم بالنفي ، ونشرت في ١٨٥٣ ، وكانت هجاء عنيفاً لنابوليون الثالث والنظام الإمبراطوري .

من ذلك وإلا فقد المساندة البورجوازية . وفي هذه الحال ، إن ما كان يطالب به « الستون » عاملاً الذين نشروا ، في ١٨٦٤ بياناً شديد التعبير ، كان تعريفاً جديداً للعلاقات الاجتماعية : « التصويت العام جعلنا أكثرية سياسياً ، ولكن بقي لنا أيضاً أن نحرر اجتماعياً ... إن البورجوازية ، بكرنا في التحرير ، عرفت في ١٧٨٩ ، كيف تهدم امتيازات جائرة غير عادلة ؛ والمقصود لأجلنا ليس تدمير الحقوق التي تتمتع بها بعدل الطبقات الوسطى ، وإنما كسب حرية العمل » .

أما العمال الذين كانوا مقتنعين بدعاية حاذقة ، وهي أن مثل هذه المطالب كانت متممة لمطالب المعارضة الليبرالية ، فلم يبكوا الإمبراطورية . ولكن قوة حملاتهم وعمق خيبتهم ، بعد عودة الجمهورية البورجوازية ، يجب أن تكونا متناسبتين مع سعة هذا الوهم .

وعليه إذا أغنت الإمبراطورية المجتمع الفرنسي ، فقد أخفقت في توحيده من جديد . وفي خارج الثغور ، الحدود ، كانت القضايا مختلفة وكذلك النتائج أيضاً وهي أن نابوليون الثالث بلور أمماً .

سياسة العظمة وسياسة القومية :

لقد رأينا كيف أن إخفاق ثورات ١٨٤٨ في أوربة الوسطى جعل من الضروري تقريباً مجابهة فرنسا والنمسا . ومع ذلك فإن روسيا هي التي كافحتها أولاً لا فرنسا الإمبراطورية ، في ١٨٥٤ ـ ١٨٥٥ . ولكن يجب الاحتراس من المبالغة في أهمية هذه الحرب حيث حدد كل من المتحاربين طوعياً التوسع الجغرافي للعداء ولم يجند إلا جزءاً من موارده . وحرب القرم ليست هامة إلا في الحد الذي تسجل للشرق الأدنى نهاية عهد وتستبق تصور تقلبات لاحقة .

ونهاية العصر هي التي كان يمكن فيها لقضايا أوربة الشرقية أن تحل بتدخل دولة واحدة .

منذ الحملة على مصر من قبل نـابوليون الأول ، أعربت إنكلترا عن نيتهـا في مراقبـة كل تغيير في الوضع الراهن في البحر المتوسـط . واشتركت إذن مع فرنسـا لـدعم استقلال اليونـان ، ومن ثم إلى مجموع أوربـة عنـدمـا أراد تيير في عهـد لويس ـ فيليب أن يشجع على تجزئة تركيا . وقبل كل واحد ، حسب كلمـة القيصر نيقولا في ١٨٥٣ . بـأن تركيـا كانت « رجلاً مريضاً » ، وجميع الدول المسيحية ترأفت بمصير أقليات عـديـدة مـا زالت خاضعة إلى سلطـات منكـدة ومزعجـة ، مثل بلغـاريـا الأرثوذكسيـة . ولكن الرقـابـة المشتركة السيئة النية والقصد التي تمارسها الحكومات الأساسية جعلت كل عمل لصـالحهـا صعباً وكل تدخل وحيد الطرف خطراً . وهذا مالم يفهمه القيصر ، عنـدمـا طلب ، في أيار ١٨٥٣ ، نوعاً من حماية روسية على مجموع الأرثوذوكس في الإمبراطورية العثمانيـة . وكانت هذه أول ظاهرة لهذه الإرادة في التوسع في البلقـان الـذي أحـدث الاضطراب في المنطقـة حتى ١٩١٤ . ولكن ضربـة التـوقف كانت سريعـة . وجـاءت إنكلترا وفرنسـا لنجدة تركيا : وأوحى نابوليون الثالث بفكرة الذهـاب وتـدمير سيبـاستوبول ، وتقبل بالمرستون الفكرة طوعياً . ولم تكن هذه ، في الواقع ، قضية رقيقـة في القضـاء على هـذا الحصن بمساعدة جيش حملة سيء التنظيم وقيادة ضعيفة من الجهة الإنكليزيـة كما هي من الجهة الفرنسية . لقد كان الموقع الروسي تمونه كيرتش التي تحميهـا مـدفعيـة قويـة ، لأن المـوقـع الروسي لا يمكن أن يـؤخـذ إلا بشرط تضحيـة الكثير من الرجـال بـالكـوليرا كما بـالنـار ، وإلى بيليسيـه يعـود ، في ربيـع وصيف ١٨٥٥ ، السقـوط التـدريجي للنقـاط المحصنة ، وأخيراً احتلال المدينة في ١٠ أيلول .

وفي الحقيقـة ، إن مـؤتمر بـاريس ، في ١٨٥٦ ترك كثيراً من القضـايـا المعلقـة : فاستياء المسيحيين المضطهدين بقي بعد الهزيمـة الروسيـة . أمـا الآن فـإن الـدول كانت تريد عودة بسيطة إلى « الوضع الراهن » على أن توضع جانباً قضية الحكم الذاتي للبغدان والأفلاق (في رومانيا) على أن تتحدا فيما بعد لإنشـاء دولـة رومـانيـة . وكانت فرنسـا وحدها تتابع هدفاً طويل الأجل على أن تسهم شخصية نابوليون الثالث في إيضاحه .

أولاً : إن المؤتمر سجل ثأراً مضرب المثل على مؤتمر فيِنّا : فقد انتقل القطب الدبلوماسي نحو الغرب ؛ وفي العاصمة حيث عاد بونابرت واستقر بشكل يبدو قطعياً (الأمير الإمبريالي عُمِّد بأبهة عظمى أثناء المؤتمر) . وحكومة القيصر قبلت إخفاقاً حاداً ومؤلماً . ومن جهة أخرى أثارت النمسا استغراب العالم بجحودها ، وأرادت أن تنسى بأن المساندة الروسية ساعدتها ، قبل ستة أعوام ، في الحفاظ على هونغارييها ، وفي اللعبة الدبلوماسية ، دعمت فرنسا وإنكلترا ضد سان بطرسبورغ . لعبة أحمق ، لأنه ما أن وقعت المعاهدة ، إلا وتقرب نابوليون من القيصر ؛ وكان يكفيه أن يرى أن المدافعين عن معاهدات ١٨١٥ كانوا قطعاً منقسمين ، ومن السهل عليه منذ الآن ، أن يختار على أرضية معركته بتوجيه دعم القوميات ضد فيِنّا .

قال نابوليون طوعياً : « سنعطي للإمبراطورية معنى واسعاً من القومية ومن العظمة » وقارئ « مذكرات القديسة هيلانة » يلحق على هذا النحو الكاربوناري السابق . وهذه الاستعدادات الملائمة التي عرفها موجهو البيمونت وأدركوها والتقطوها ، وبالرغم من إخفاقهم في ١٨٤٨ ، لم يتخلوا عن أن يوحدوا الإمارات الإيطالية حول تورينو . وبهذا القصد اشتركت البيمونت في حرب القرم إلى جانب الغالبين وأفادت من المؤتمر ، رغماً عن أنف النمسا ، لتثير قضية إيطاليا « البائسة أكثر من مسيحيي الشرق بسبب درجة الحضارة المتقدمة التي بلغتها شعوبها ، والشعور بحرارة بنتائج حكم سيئ » .

في المرحلة الأولى لوحدة محتملة لشبه الجزيرة ، تطابقت أهداف البيمونت مع أهداف فرنسا . وكان قصد فرنسا دعم أمة ناشئة ومتعاطفة ضد سلطة آل هابسبورغ التي تعتبرها ظالمة ، وكان القصد أيضاً القطع النهائي لـ « الحماية » التي تخولها النمسا للبابا ، وتأييد فرنسا في دورها باعتبارها « البنت البكر للكنيسة » (ولا يهم ، إذا لزم الأمر ، نسيان السياسة المناوئة للإكليروس التي كانت البيمونتيون يمارسونها) . أما في بيمونت ، فقد كان قصد الملك فيكتور - إيمانوئيل أن يثأر لإخفاق أبيه ، ويضم على

الأقل إيطاليا الشمالية أي هذه المنطقة اللومباردية ـ البندقية التي أظهرت في سنة ١٨٤٨ ، حماستها لبيت آل ساڤوا .

وكان الوزير الأول البيمونتي ، كاڤور الماهر الحاذق يتكلم الفرنسية أفضل من الإيطالية ؛ ونابوليون كان قد كافح في صفوف الكاربوناري : وهكذا كان التعاطف سريعاً . وبالرغم من الميول الملائمة للنمسا لعدد لا يستهان به من كبار الموظفين الفرنسيين ، ومنهم والوسكي نفسه ، الذي كان آنذاك وزيراً للشؤون الخارجية ، وقع التحالف بصورة رسمية في ١٨٥٩ متوقعاً رداً مشتركاً من فرنسا والبيمونت ، في حال عدوان نمساوي .

هذا العدوان ، كان من خرق النمسا أن ارتكبته مغيظة من إثارات كاڤور التي لاتنقطع . وبعد صدام قصير ملحوظ بانتصارات فرنسية ـ بيمونتية في ماجنتا وسولفيرينو ، كان كل شيء مهيئاً للمعركة النهائية . وعندئذ ، على مرأى من المفاجأة العامة واستياء الحلفاء الشديد فاوض نابوليون الثالث بهدنة . وبموجبها تنازلت النمسا عن منطقة ميلانو ، على أن يحافظ على « الوضع الراهن » في كل مكان آخر . وهذا مادعا كاڤور إلى تقديم استقالته ، لأن سياسته ، القومية بصراحة ، لم يكن في نظرها توسيع رقعة أرض البيمونت ، وإنما تحرير إيطاليا وإقامة نظام ليبرالي معقول في شبه الجزيرة كلها .

وجرى التساؤل كثيراً عن هذا التقلب في رأي نابوليون الثالث الإمبراطور : ولهذا يجب أن يذكر الضغط المهدد للدول الألمانية ، ومنظر النفور من الحرب . ومن المؤكد كذلك أن كثيراً من البواعث لعبت دورها في هذا الشأن . ومن المحتمل أيضاً أمام مضاعفة الحركات الثورية التي كانت تحيي في إيطاليا كلها ، وحتى في الدول الحبرية ، الهزيمة النمساوية ، أن نابوليون فهم بأن عليه أن يعدل عن أن يكون رب عمل إنشاء أوربي ليصبح نوعاً من متدرب على صناعة ساحر . يضاف إلى ذلك أن قلق الكاثوليك الفرنسيين يمكن أن يلعب دوراً هاماً . ومهما يكن الأمر ، فقد فات الأوان منذ الآن .

وانطلاقاً من ١٨٥٩ ، لم تتدخل فرنسا في الواقع ، في أكثر من نقطتين : الحصول على نيس والساڤوا مقابل المساعي الحميدة (في ١٨٦٠) والحفاظ عند الحاجة بالقوة على السلطة البابوية في روما وفي المناطق المباشرة المجاورة لها . والباقي كله يصنع نفسه ، بالرغم من فرنسا أو بدونها : وذلك بأن تضم البيمونت ، بالرغم من بنود المدنة والمعاهدات الدولية ، ولكن بواسطة استفتاءات منتصرة ، بارما ، ومودينا ، وتوسكانا ، والرومانيو ، ثم مملكة الصقليتين ، والمارش والأومبري . وفي ١٨٦١ كان فيكتور إيمانوئيل « ملك إيطاليا » أي دولة لا ينقصها إلا منطقة البندقية التي ما زالت النمسا تحتلها ، والريف الروماني (كامپانيا الرومانية) التي كان فيها البابا بيوس التاسع يشعر وكأنه بين فكي كماشة .

هذا الاستقلال الإيطالي يسجل تأريخاً في التاريخ الأوربي : فقد أعاق أو عرض للخطر جميع الترتيبات الدبلوماسية ، وهدد السيادات القائمة ، مثل حوزة البابا على « تراث القديس بطرس » ، وعمل على الكفاح جنباً إلى جنب فيكتور ـ إيمانوئيل ، زعيم سلالة قديمة ، كاڤور الذي يلقب بـ « الليبرالي المحافظ » ، والمحرض ذي القميص الأحمر ، غاريبالدي . وكالثورة الفرنسية أعطى هذا الاستقلال الإيطالي مؤشراً لحوادث خطيرة ، وفيها كادت حماسة الرأي وقوة السلاح أن يصبحا البرهان النهائي الأخير . والأهواء المحتواة قليلاً في كل مكان في أوربة منذ ١٨١٥ ، أطلقت لنفسها العنان ، حتى اكتفت أو أنهكت : وهكذا طالب استفتاء فرنسي في عام ١٨٦٢ بـ « الاتحاد الفدرالي اللاتيني بواسطة الوحدات الفرنسية والإيطالية والإيبرية » ؛ واتحاد هذه الأخوات يجب أن يكفل جبل طارق إلى إسبانيا ، وروما والبندقية وإيلليريا لإيطاليا ؛ والضفة اليسرى لنهر الراين ، وبلجيكا والسويسرا الرومانديـة ، أي الناطقة بالفرنسية ، إلى فرنسا ... ومن المؤكد أن كل هذه لم تكن غير أحلام . **إلا أنها تعبر عن نشوء تيارات قومية قوية يصعب تلاشيها ، بل عرقية ستنتشر**

وتتعارض خلال نصف قرن ، حتى أنها تثير من هذه الحروب بأجمعها ، من شعب لشعب ، ما يمكن وصفها طوعياً بأنها لا تقبل الصفح والغفران والتكفير .

إلا أن نابوليون الثالث ، يئس من إيطاليا ، واضطره الرأي الفرنسي الحساس أكثر فأكثر بمصائب البابا إلى الحفاظ في روما على حامية ، فأراد أن يبحث بدوره على ثأر في سياسة « لاتينية » على مقياس عالمي ، فشدد الأواصر مع إسبانيا ، ولم يكن ذلك بتأثير الإمبراطورة فحسب بإبرام معاهدة جديدة « معاهدة البيرينيه » التي تثبت الحدود بصورة قطعية . وبخاصة ، في ١٨٦١ ، وذلك باجتياز المحيط : ويقصد بذلك الإفادة من مشاكل الولايات المتحدة ، التي كانت آنذاك فريسة الحرب الأهلية ، ليقيم في المكسيك زبوناً لفرنسا . وكانت هذه الحملة إخفاقاً مريعاً ومخزياً . وفي ١٨٦٦ ، أجلى الجنود الفرنسيون عن المكسيك وخلع الإمبراطور ماكسيمليان وقتل رمياً بالرصاص . وأصبح مذهب مونرو « أمريكا للأمريكيين » أقوى منه في أي وقت مضى .

.ولزم الأمر الاكتفاء بتعويضات أقرب : ولكن الإمبراطور اصطدم منذ الآن على الراين بدولة جديدة لم يستطع بنوها أن يعلم أو يريد مقاومتها ، فضلاً عن أن المحيي لها يفوق عليه بثلاث فوائد : السن والصحة،والعبقرية . وبعد الكثير من التقلبات ، أصبحت « سياسة العظمة » « سياسة العطاء أو الإكرامية » أي « البخشيش » بالعامية ، التي تهكم بها بسمارك عليه : أولاً ودون مراعاة مبدأ القوميات ، طالب نابوليون بأراض ألمانية : السار ، الپالاتينا الباڤارية ؛ ثم امتد بأنظاره على بلجيكا ، وعلى اللوكسمبورغ . وكان هذا من لعبة الهر والفأر : ففي كل مرة ينذر فيها الحلف الأوربي بعناية بسمارك ، كان ينتعش باللائمة على نابوليون الثالث . وبعد قليل ، فهمت فرنسا ، بعد أن تمت وحدتها القديمة على وجه تام ، أن لم يكن لديها شيء تكسبه ، وأن كل شيء معرض للخسارة بالاهتزازات والارتجاجات الكبرى التي كانت تهيج أوربة ، وكانت تعمل أكثر من أي وقت مضى « لصالح ملك بروسيا » .

نشأة الرايخ الثاني :

« ألمانيا لا تهتم بليبرالية بروسيا ، وإنما بقوتها ... وليس بالخطب والتصويتات بالأغلبية تحل قضايا عصرنا الكبرى ، كما ظن في ١٨٤٨ ، وإنما بالحديد والدم » . هكذا كان يتكلم ، في آخر أيلول ١٨٦٢ رئيس وزراء مملكة بروسيا الجديد ، أوتوفون بسمارك . وبعد ثمانية أعوام ، صرح نفسه باسم مليكه : « ليمنحنا الله أن نكون صانع العظمة الألمانية ، لا بفتوحات حربية وإنما بحسنات السلام والازدهار القومي ، والحرية ، والحضارة » ، وتغير الإيقاع ، ولكن بسمارك منذ الآن فصاعداً كان « مستشار الإمبراطورية » ، وملك بروسيا « إمبراطوراً ألمانياً » .

بين ١٨٤٨ و ١٨٥٠ ظهر عدد من النقاط بوضوح : أولاً : وجود عاطفة وحدوية بين شعوب اللغة والحضارة الجرمانية . فالطريق والخط الحديدي ، كما تنبأ غوتيه ، جعلا الخطأ في تقويم حوادث الدول ـ الصغرى محسوساً ؛ والمثال على ذلك « الاتحاد الجمركي » فهو يظهر لأي نقطة كان افتتاح سوق مشتركة لست وعشرين مليوناً من المستهلكين مفيداً للجميع ؛ وإن فكرة « اتحاد جمركي سياسي » تنتج عنه بصورة طبيعية . وفي هذه الحالة كان باستطاعة هذا الاتحاد أن يأخذ شكلين : إما شكلاً ديموقراطياً مؤسساً على اتحاد طوعي للشعوب ؛ وإما شكلاً يصان فيه المبدأ الملكي ، وقد تحقق تأسيس هذا الاتحاد على مبادهة بروسية . ففي بروسيا تكشفت العاطفة القومية الألمانية بأعظم قوة تحت الاحتلال النابوليوني . وفريديريك ـ غليوم الثالث هو الذي أسس في ١٨١٠ جامعة برلين . وفي برلين أعطى فيختـه في « خطب إلى الأمة الألمانية » ، صوتاً للأسلاف ، إلى المحاربين البواسل الذين دفعوا من دمهم الاستقلال الذي استردوه من السيطرة الرومانية (من روما الحبر الأعظم) . والأفضل أن النمسا ، ذات الميل الدولي المتجه نحو الشرق ونحو الجنوب ، وأنه كان باستطاعة بروسيا أن تجسد المثل الأعلى الجرماني .

في ٢١ آذار ١٨٤٨ ، في برلين ، توجه الملك فريديريك ـ غليوم الرابع « إلى الأمة الألمانية » ونصب ألوان الوحدة : الأسود ، والأحمر ، والذهبي ودعا فيما وراء حدود دولته ، إلى شعب « حر ومتجدد معنوياً » . وقال له : « ستشكلون من جديد أمة عظمى واحدة ، أمة قوية حرة رذات بأس شديد في قلب أوربة » . وفي ٣١ آذار ، انعقد في فرانكفورت بجماس « البرلمان المؤقت » ، فيض البورجوازية الليبرالية في الدول كلها ، وكان مؤلفاً من أعضاء سابقين وحاضرين في كل المجالس الموجودة ؛ وقرر أن يدعو من جانبه البرلمان ، المنتخب بالتصويت العام ، الذي انعقد فعلاً بعد شهرين .

ونعلم كيف ، في قليل من الزمن جداً ، انطفأت نار الهشيم . وكان يكفي النمسا أن ترد ببعض الشدة : فقد تفرق دستوريو فرنكفورت ، والملك البرليني كان أبعد منذ الآن عن دعوة الألمانيات كلها إلى « الحرية » ، ولم يطبق إلا بأعظم فطنة وحذر الدستور الممنوح إلى رعاياه الخاصين . وإذن أصبحت القضية دبلوماسية : إما أن تحصل النمسا ، بتوسيع الاتحاد الجمركي (تسولفراين) ، على دخولها في البناء الوحدوي ، أو أن البروسيا ، بتوصلها للخروج نهائياً من ثلم سياسة فيننا ، لا تجر معها الشمال اللوثري فحسب ، وإنما أيضاً باڤاريا الكاثوليكية والدول الجنوبية . ويجب لذلك فطنة قصوى مشوبة بالحذر . فقد كان آل هابسبورغ يحافظون على كل مكان في الألمانيات ، على الجاه المرتبط خلال قرون بامتلاك المنصب الإمبراطوري . وعاطفياً يبدو أن الجماهير شعرت بنزاع مباشر مع النمسا يبدو وكأنه نوع من حرب أهلية . ولذا كان يحسن كسب الوقت وعدم الانخراط إلا بعد التأكد والوثوق .

وعلى هذه الأسس كانت السياسة البروسية على وجه الدقة ما كان ينبغي أن تكون . وحتى ١٨٦٢ ، اقتصرت الحكومة على إعاقة جهود النمسا كلها لأجل أن تصلح لصالحها الدياط (المجلس) التقليدي . وفي الوقت نفسه ، كانت « الجمعيات القومية والليبرالية » ، حيث كان للجامعيين البروسيين الدور الرفيع ، تقوم بحملة لأجل كونفدراسيون تستبعد منه النمسا . ولكن منذ ١٨٥٩ ، السنة التي أثار فيها تدخل

نابوليون الثالث في إيطاليا تياراً شديداً من التعاطف « الألماني » حيال النمسا ، ظهر أن هذا التسويف بدأ يصبح خطراً . وعندئذ تدخل بسمارك .

وفي الحقيقة لا يوجد موازاة أو مقارنة أكثر فائدة وتعليماً من مقارنة بسمارك ونابوليون الثالث : كان هذا ديموقراطياً في أعماقه ، وغير كفء للعمل ضد تيار الرأي العام ، مؤمناً بنجمه أكثر من حقه ، يتسلح طوعاً بالخداع والمكر ، والمداجاة والرياء والسرية . وكان ذاك ملكياً كما لو لم ير غيره في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وواضعاً ، قبل كل شيء عظمة البيت الملكي لآل هوهنتسولرن ، وخادماً له كتابع أمين ؛ كان يحتقر الرأي ويعرف ـ لحد المخاطرة ـ كيف يجبره على اللحاق به ومتابعته ، ويعلن عن مشاريعه دون أن يكلف نفسه عناء إخفائها عنه ، مقتنعاً بأن الكذب ، دفاع الضعفاء غير المفيد ، يخدم أقل أيضاً من هم أقوياء .

ويحسن أيضاً إلقاء نظرة ، قبل أن نحكم على بسمارك بأعماله ، على من كان له ريشيليو . كان عمر الملك غليوم الأول أربعاً وستين عاماً عندما توصل إلى العرش ، في ١٨٦١ ؛ وحكم حتى ١٨٨٨ . لقد كان قبل كل شيء هوهنتسولرنياً يريد تتويجاً في كونيكسبرغ كما لو لم ير مثله منذ أول ملك لبروسيا ، في ١٧٠١ . كان همه الأكبر : الجيش الروسي الذي أحدثه وشكله أسلافه . ونظراً ليأسه من السبب الذي دعا المجلس لرفض الاعتمادات العسكرية ، قرر دعوة بسمارك ، الذي كان يظهر له حتى ذلك الحين مخاطراً بكل شيء ليكون رئيس حكومة . على أن التفاهم بين الرجلين لم يكن دوماً هادئاً : الملك لا يتنازل إلى تمجيد الجامعة الجرمانية كسلفه ، فقد كان يكنّ في أعماق نفسه احتراماً عظيماً لآل هابسبورغ ، ملوناً بعدم تعاطف لـ « الإمبراطورية ـ المقدسة » الكاثوليكية التي غطتهم مرتبتها زمناً طويلاً . وعندما كان القصد محاربة النمسا حذرته حاشيته من « الشريف الريفي المجنون » ، وبالمقابل ، بعد النصر ، أراد غليوم الأول أن يعمل كزعيم حرب تقليدي ويضم أراضي ، عندئذ أمسك به بسمارك وجعله يعدل عن رأيه . وأخيراً عندما تهيأت الوحدة ، لم يقبل الملك اللقب

الإمبراطوري إلا « كصليب على كتفيه وعلى بيت بروسيا الملكي » . والوصف الاتحادي « إمبراطور ألماني » بدا له حتى النهاية خارجياً بما يكفي . ومن الممكن أن يلاحظ أن هذا الشعور القوي ، بحقوق وواجبات السلالة ، يجب أن يعيش بعده في حفيده . وفي ١٩١٨ ، وبعد الهزيمة ، استسلم غليوم الثاني بسهولة لخلع الرتبة الإمبراطورية التي يتناولها من الناس أكثر من رتبة ملك بروسيا التي يتناولها من الله . وبالرغم من كل شيء ، فإن هذه الشخصيات التي حكمت مع اختلاف الزمن لاعتبارات كثيرة ، صنعت إمبراطورية جديدة يسكنها واحد وأربعون مليوناً ألمانياً .

هذه الوحدة . التي كان بسمارك قد عرفها بالشرط : « الحديد والدم » صنع لها الإرادة أولاً : جيش بروسي قوي . واستغنى خلال أربعة أعوام ، عن مجلس اللاندتاغ وطبق موازنة عسكرية بأوامر ملكية . وهكذا استطاع أن يدخل في الجيش كل الشبان المدعوين للخدمة العسكرية القومية الفعلية خلال سنة مدنية واحدة ، ورفع مدة خدمة الاحتياطي من عامين إلى أربعة أعوام . وبدت النتائج بسرعة .

في ١٨٦٣ ، ظهرت قضية دوقيتي شلزفيغ وهولشتاين : المأهولتين بكاملها بالألمان ، وكانتا تابعتين بصفة شخصية لملك الدانيارك . ووضعت مشكلة وراثية معقدة عندما وصل التاج الدانياركي إلى الدوق دوغلوكسبورغ الوارث بطريق النساء . إلا أن نوعاً من قانون سالي يمنع النساء من إرث التاج كان ساري المفعول في الدوقيتين اللتين طالب بها « ألماني » وهو الدوق دوأوغستنبورغ . ووجدت الحجة في ظاهرة من أسلوب الجامعة الجرمانية . وفي كانون الثاني ١٨٦٤ ، وبالرغم من المعاهدات الدولية السابقة ، تدخلت بروسيا والنمسا عسكرياً . وانتزعت الدوقيتان من الدانيارك ، وما أن حصل التخلي عنها من قبل المطالب بها إلا وقسمتا بين الغالبين . وبمناورة حاذقة ، حصل بسمارك لبروسيا على الشلزفيغ القريبة جداً والتي تساعد السفن البروسية على المرور من البالطيك إلى بحر الشمال بقناة كيل في المستقبل . والنمسا ، على أي حال ، سيئة الموقع

بالنسبة للدوقيتين ، لم تحصل إلا على هولشتاين البعيدة التي يمكن للبروسيين اجتياحها في كل حين . كان الاستياء شديداً في فينّا . وخاب أمل معظم الدول الألمانية . ولكن بسمارك ، خلال ثلاثة أعوام سيجمع ويوحد الظروف الملائمة لوضع قوته على المحك .

وفي الوقت نفسه كان نابوليون الثالث في موقف صعب (في عش الزلاقط) الرومي (من روما) ، ويحاول الخروج منه على أصابع قدميه . إلا أن إخفاقاً نمساوياً عظيماً مكن الإيطاليين من الحصول على البندقية . ومقابل هذا الإرضاء للأنانية وحب الذات ، ساعد على المفاوضة معهم بتسوية تحفظ مصالح البابا والرأي الكاثوليكي . ووافق بسمارك على هذه الخطة الدقيقة ، ووعد بتعويضات غامضة خارج الأراضي الألمانية . وعزم على العمل ، بعد أن أمن خلفياته . وفي ٩ نيسان ١٨٦٦ ، وعلى مرأى من الدهشة والذهول العام ، أوحى باجتماع مجلس ألماني منتخب بالتصويت العام ، منتقداً بشدة الإرادة النمساوية في الدوقيتين . ولا شيء يمكن أن يكون أكره على فينّا ، التي وجدت في الوضع نفسه الذي كان في ١٨٥٠ : كان رد فعلها أن تجند جنودها وأن تطلب بدورها دراسة جديدة لقضية شلزفيغ . وفي الحال هاجم بسمارك هولشتاين وكان هذا عمل معارضة أو هجوم متفق عليه ضد النمسا . ولذلك قامت الدول في ألمانيا إلا المدن وبعض البلاد الصغيرة في الشمال ، ودخلت الحرب إلى جانب النمسا .

وهكذا كان الرأي ضد الوزير الأول البروسي في هذه المغامرة . وجرت حوادث شاقة في برلين عند انطلاق الجنود ، حتى أن بسمارك نفسه ، في ٧ أيار ، تعرض لطلقات نار طالب من ڤورتامبرغ استاء من هذه الحرب الأهلية الجرمانية . ومع ذلك سلك مسلك رجل دولة لاعباً بكل شيء ببطاقة واحدة كان يعلم بأنها رابحة . ومنذ تموز غلبت النمسا في سادوڤا ، والدول الأخرى سحقت دون عناء ، وتحول الرأي بقوله : لقد برهن الجيش البروسي على قيمته ، وأسف لاندتاغ برلين على خطئه ، وصوت دفعة واحدة على الاعتمادات التي كان قد رفضها منذ أربعة أعوام ، وشكر التاج على تجاوزه .

وكان من الواضع منذ الآن أن تبعد ألمانيا الإمبراطورية النمساوية ، التي بادر بسمارك مع ذلك ، وقد قبل الأمر الواقع ، ووطد معها علاقات ودية .

وعلى حساب المغلوبين الآخرين ، وحدت بروسيا أخيراً القطع المنفصلة من أرضها الخاصة وألفت مع عشرين دولة كونفدراسيون ألمانيا الشمالية . وكان ملك بروسيا رئيساً له . وأمن ريخشتاغ منتخب بالتصويت العام للنواب البروسيين أغلبية ساحقة . ولكن دول الجنوب المخزية والقلقة بغموض يجب كسبها . وكان هذا الحين يذكر بالنبوءة التي كتبها في ١٨٠٧ الصحافي آرندت : (الوحدة تعمل برد فعل ضد الفتح) : العرب وحدوا إسبانيا ، والإنكليز وحدوا فرنسا ، والفرنسيون وحدوا بلدنا » . لقد كان المقصود إذن إرجاع ألمانيا نحو الغرب وتوحيدها أمام تهديد خارجي قد يكون باستطاعته أن يؤلف بين المترددين . ولكن هذا لم يحن أوانه بعد : ولذلك يجب ، كما كتب المستشار ، في الآجل ، « تأخير هذه الحرب حتى تستطيع نتائج تشريعنا وتربيتنا العسكرية أن تتوسع كاملاً في كل المناطق التي لم تكن لتتبع بروسيا القديمة ... إن كل سنة مهلة تعزز جيشنا بأكثر من مائة ألف جندي متعلم » .

وأصبح نابوليون الثالث قلقاً منذ الآن ومستاءً لأنه لم يتدخل في حينه ، واستعد للمناورة بشكل يدعو إلى الإعجاب . وطلباته المتوالية بـ (تعويضات) ، لم تؤد إلا إلى إثارة وتحريض الرأي فيما وراء الراين ، دون إرضاء الرأي الفرنسي لأنه لم يكن لها أي نتيجة ؛ وأخطر من ذلك أن مشروع ضم بلجيكا أيّد في ١٨٧٠ إنكلترا في موقف الاستنكاف (الامتناع) . وكان الإمبراطور أفضل إلهاماً ، في الأصل ، بوضعه موضع التنفيذ والعمل ، وفي الحال بعد سادوفا ، مشروع قانون عسكري مخصص لتعزيز عدد جنود الجيش الفرنسي : إن رؤية بلد مؤلف من ٢٢ مليون نسمة يضع ٧٠٠٠٠٠ رجل على حافة الحرب في بضع سنوات ، كما فعلت ، في ١٨٦٦ ، بروسيا ، قد تثير الرأي . ولكن نابوليون لم يتبع في رغبته في العودة إلى جيش قومي مؤسس على نظام عسكري يقضي سنوياً بسوق الشباب من عمر واحد لتأدية الخدمة العسكرية ؛ وبعد مداولات

متناقضة شابها انقطاعات متوالية ، أمكن التوصل إلى الاكتفاء في فرنسا بقانون نيل[1] (١٨٦٨) الذي حافظ على السحب بالقرعة ولكنه رفع المدة الكلية للخدمة من سبعة إلى تسعة أعوام (موزعة بين خمسة أعوام خدمة فعلية وأربعة أعوام خدمة احتياط) وأحدث ، عدا ذلك ، حرساً قومياً متحركاً للدفاع عن المواقع الحصينة ، من شواطئ وحدود ولأجل الحفاظ على النظام - يساق عن طريق الخدمة الطوعية وبإدخال حملة « الأرقام الجيدة » » : وفي الواقع لم ينظم ، لأن الوجهاء والنواب لم يشاءوا حسب تعبير إميل أولليفيه « أن يعملوا من فرنسا ثكنة » .

إن ترشيح أمير من أسرة هوهنتسولرن لعرش إسبانيا أثار زخماً من العصبية الفرنسية المفرطة وأتاح لبسمارك فرصة هذه الحرب غير القابل اجتنابها التي قد تساعد على « توحيد الأمة بصورة وثيقة في غضب مشترك » . ففي بداية تموز ١٨٧٠ ، سحب هذا الترشيح ؛ ولكن القضية دفعت التحريض القومي إلى نقطة أنه في فقدان - هكذا كانت الحالة في آخر الإمبراطورية الثانية - حكومة حاذقة وبصيرة بالعواقب ، لا يمكنها أن تزيل نفسها دون حرب . وقالت صحيفة البريس في ٤ تموز : « اثأروا للخزي المستديم على فرنسا ، ووطدوا التوازن الأرضي الذي عكرته معركة سادوفا » . هكذا كان الواجب الذي أملاه الرأي على السلطة التنفيذية . والدوق دوغرامون وزير الخارجية غير المسؤول أطاع وطلب إلى السفير الفرنسي في بروسيا ، بينيديتي الضمان من غليوم الأول على ألا يقدم مثل هذا الترشيح أبداً ، ووضع الأصبع في تعقيد يؤدي إلى الحرب مع التعاون الشخصي في هذه المرة مع بسمارك . هذا فيما كان الباريزيون يتظاهرون في ١٣ تموز بصراخ مجنون : « إلى برلين ! لتحيا الحرب ! » ، وصحيفة **الدستوري** تعلن في ١٣ تموز : « جنود ايينا مستعدون » . كان بسمارك يدبر مكيدة من شأنها أن توقع فرنسا في الحرب . و « **برقية إمز** » : كانت وسيلة خداع بسيطة ، من قبل وكالة صحافة مخلصة للمستشار ، لقصة مساعي السفير الفرنسي ، بعبارات خاصة

(١) نيل NIEL .

من شأنها أن تغذي وتزيد في غضب الباريزيين . ومن المفيد أن نلاحظ أن هذه الرواية للحوادث هي التي أمسك بها في فرنسا ، لا الأخبار المهدئة التي نقلت بطرق أخرى ، بما فيها الطرق الرسمية . ومناقشات الهيئة التشريعية ومجلس الشيوخ ، التي سبقت إعلان حرب فرنسا على بروسيا ، تستوقف النظر لأمور كثيرة ، منها أن تيير لم يستطع أن يسمع صوت الحكمة والعقل : « أرى هذه الحرب غفلاً وعدم بصيرة غاية في الكمال » . واعتبرته الصحافة « قزماً محباً للإيذاء ، مباعاً لألمانيا » . وتيير ، في ١٨٧٠ ، كان قليلاً بارناڤ في ١٧٩٢ ، لا ينصح بالحرب لأنها تهدد بفتح الطريق إلى الثورة . أما رئيس الحكومة فقد فضل بالأحرى أن يعرب بافتخار عن تفاؤله ويخدع البرلمان والبلاد من أن يتعرض لفقد شعبيته بقول الحقيقة لهم : « استعدادنا تام ... ويمكن للبلاد أن تتأكد من بدء الحرب في أفضل الشروط » . والإمبراطور كان يعلم بأنه لا يريد أكثر من ذلك . ولكنه سار إلى الحرب كما لو سار إلى التعذيب ، مشلولاً بالمرض ، مدفوعاً بالإمبراطورة ، رهن محبس الصفة الاستفتائية لسلطته .

حرب ١٨٧٠ ـ ١٨٧١ :

وللإيضاح نرى أن تفوق كونفدراسيون ألمانيا الشمالية وحلفائها لم يكن حاسماً إطلاقاً . والبديهي أن الكونفدراسيون كان بإمكانه أن يضم في صفه منذ الدخول في الحرب ٤٥٠٠٠٠ رجل ، مقابل ٢٧٥٠٠٠ من الجانب الفرنسي ؛ والأركان العامة ، تحت قيادة مولتكه هيأت منذ ثلاثة أعوام ، خطط حملة في فرنسا بكامل تفاصيلها ، ولكن الجنرالات البروسيين ، بدءاً بنفسه ، لم يكن عندهم عبقرية استراتيجية ؛ وفي الحقيقة إن الجنرالات الفرنسيين لم يكن عندهم أكثر ؛ وحشد الجنود قد توقع بشكل عقلاني وأصولي ، ولكنه كان أيضاً بطيئاً كما هي الحال في فرنسا ؛ والمدفعية الألمانية تعادل ضعف الفرنسية وأعلى في السرعة ، وفي المدى ، وفي الدقة والضبط ، ولكن البندقية (دريز) كانت أدنى من البندقية الفرنسية شاسبوت ، والفرنسيين كانوا يملكون الرشاشات الأولى . بتأكيد أقل هدوءاً من مولتكه ، كان بسمارك يخشى في حالة حرب

طويلة ممتدة الأجل من أن فرنسا تنجح بإلقاء احتياطاتها البشرية في المعركة ، لا سيما وأن النوعية في إطلاق النار ظلت غير قابلة للنقاش .

ولسوء الحظ ، لم يستعمل الفرنسيون إمكانياتهم في أن يكونوا أوائل المهاجمين في وادي الراين ، لأن هذا قد يؤدي إلى دفع وقلب التعبئات البروسية ، ولكن ما هو أقبح ، هو أنهم دحرجوا في بداية آب ، منذ الصدامات الأولى عن حدود الألزاس واللورين . وانطووا بشكل واسع ، حتى أن التماس مع العدو قد ضاع : فقد ذهب بازين وحبس نفسه في ميتز ، باسم مفاهيم استراتيجية عفى عليها الزمن ؛ وماكماهون والإمبراطور عاودا تنظيمها في شالون - على - المارن . وآخر شهر آب كان مشغولاً بإعداد وتنظيم مسبب للمصائب لحملة عقيمة وغير معقولة : ففي الحين الذي تكشف فيه بازين أنه غير كفؤ (عن عدم جدارة وخبرة أو سوء إرادة) للخروج من تطويقه ما دامت لديه الوسائل بعد ، تحرك جيش شالون ، بمعرفة البروسيين نحو مونميدي ، على افتراض اتصال مع بازين ، بينما هذا لم يقم بأي مبادهة . وأخفقت الحركة . وبنتيجة عدة قرارات متناقضة ، ترك الإمبراطور نفسه يحبس ويقصف ويؤسر في منخفض سودان المغلق (٢ أيلول ١٨٧٠) مع ٧٥٠٠٠ رجل و ٤٠٠ مدفع و ١٢٠٠٠ حصان . غير أن ٣٥٠٠٠ رجل استطاعوا وحدهم أن يفروا ويصلوا باريس تحت قيادة ڤينوي . وتلاحق هذا الجرح العظيم ، في جنود خط القتال في الأسابيع والأشهر التالية مع استسلام تدريجي لكل المواقع الحصينة في شرق فرنسا ، بنهاية حصارات طالت أو قصرت : واستسلام ميتز كان كارثة أخرى عظيمة من الدرجة الأولى ، لأن بازين ترك فيها ١٥٠٠٠٠ رجل وقعوا في (الأسر) ، وفيهم جيش الراين الفائق والحرس الإمبراطوري . إلا أن بلفور وبيتش قاومتا حتى إلى ما بعد الهدنة .

وبوصول الأخبار السيئة من سودان ، فتحت مرحلة جديدة للحرب في باريس منذ ٤ أيلول ١٨٧٠ . ففي مجلس أصيب بالذهول والتردد . قام بالمبادهة نواب باريس الجمهوريون وذهبوا لإعلان الجمهورية في القصر البلدي ، وتشكيل حكومة مؤقتة

للدفـاع الوطني يسيطر عليهـا شخصيـات تروشو ، جنرال من المعـارضـة ، وجول فـاڤر المعروف بعواطفه الجمهورية . ومن الهزيمة نشأت من جـديـد أسـاطير ١٧٩٢ ـ ١٧٩٣ : أسطورة الخيانة ، أسطورة الجمهوريـة المنتصرة بـدعوة جميع الرجـال الأصحـاء المستوفين الشروط للـدفـاع عن البـلاد . ووجـدت اللهجـة الثـوريـة في بـلاغ فـاڤر إلى العمـلاء الـدبلومـاسيين ، في ٦ أيلول : « لن نسلم إصبعـاً من أرضنـا ولا حجراً من حصوننـا » . وأثر ذلك أنـه شجع الـدول على عـدم التـدخل لصـالح فرنسـا المهـددة بـالسحق ، هـذا مؤكد ، وإنما لأن النظام الجمهوري لا يوحي أبداً بتعاطف مع الإمبراطوريـة العـدوانيـة التي حلت محله . ومع ذلك فإن فاڤر ، بالرغم من الظواهر ، كان يرجو التفاوض بسرعة مع بسمارك ، خشية من أن يؤدي امتداد الحرب إلى اضطرابات اجتماعية ويظهر في آخر الحساب بتفـاقم شروط السلام . على أن ثلاثـة أيـام محـادثـة مع المستشـار في قصر فريير (١٨ ـ ٢٠ أيلول) أقنعته بأن بسمارك ينتظر القدرة على الاعتماد على نجاحات عسكرية أكثر شهرة ومجداً ، ورفض التفـاوض مع سلطـة حـديثـة التـأسيس . ولم يكن أكثر من القيام بالحرب حتى النهاية .

إن أول مشهـد لهـذه الحرب : تنظيم المقـاومـة في بـاريس . وقــد نجحت عن قرار سياسي أكثر منها عن تحليل استراتيجي سليم : كان القصد بـالنسبـة للحكومـة ألا تترك العاصمة للعناصر الجمهورية المتطرفة ، وذلك خشية المخاطرة بـالانقطـاع عن بـاقي البلاد وإعطاء قيمة تدهور قومي إلى استسلام محتمل للعاصمة . وكانت باريس تتصرف بحصونها التي كانت تؤمن لهـا بعضـاً من « مجـال حيوي » ، لأن خـط تطويـق البروسيين الـذي توصل إلى مقربة المدينة في ختام زحف أصولي منظم مدة أسبوعين ، امتـد على ١٥٠ إلى ١٧٠ كيلومتراً ؛ ولكن ظروف العيش في مدينة محاصرة أصبحت أكثر ضعفـاً بتكـديس مليوني نسمة ـ بينهم مئتا ألف من سكان الضواحي لاجؤون في معسكر مخنـدق . وكانت باريس تتصرف لدفـاعهـا بـأكثر من ٤٠٠٠٠٠ رجل ؛ ولكن لا يوجـد على هـذا المجموع إلا ٦٠ إلى ٧٠٠٠٠ رجل عسكري قوي متين ـ وهم رجـال ڤينوي ، بضع فصائل قـديمـة

متوقفة في المدينة ، وجيش مشاة البحرية تحت قيادة الأميرال دولا رونسيير ؛ والباقي يتألف من حرس وطني يعيش أفراده في غموض تجنيد في قلب السكان المدنيين ، فاقدين معنوياتهم على المدى بإغراءات الشراب والنهب ، متحمسين لطلب الهجوم ولكنهم أكفاء قليلاً لدعمه فعلاً . أما الألمان فأقل عدداً بمرتين ، واكتفوا بقطع كل طرق الدخول وتوزيع جنود احتياطيين في العمق بانتظار أن يعمل الجوع عمله - كما في ميتز - عوضاً عن أن يجازفوا بهجوم مكلف . وأكثر من ذلك أنهم أخضعوا باريس بقصف مدفعي منتظم في الأسابيع الأخيرة من الحصار . ومُني بالإخفاق كل خروج للباريزيين . وفي ٢٨ تشرين الأول ١٨٧٠ استعيدت لوبورجيه ، ضاحية باريس الشمالية ، ثم ضاعت من جديد في ٣٠ من الشهر نفسه . وفي هذا اليوم عرف في باريس استسلام ميتز عندما عاد تيير من جولة في العواصم الأوربية ، وأتى بفكرة هدنة ودعوة جمعية وطنية : وفي ٣١ منه قامت فتنة ، أوشكت أن تقلب الحكومة ، تطالب بحكومة بلدية (كومون) والدعوة إلى التجنيد ، قبل التساهل على مشاورة انتخابية تنتهي الحكومة بتحويلها وقلبها ، بعد ثلاثة أيام على الأكثر ، إلى نوع من الاستفتاء لصالحها . ومن ٢٩ تشرين الثاني إلى ٢ كانون الأول وجد أن ١٠٠٠٠٠ رجل هاجموا في منعطفات نهر المارن وأخفقوا في إحداث ثغرة في جيش الخصم وقهروا في شامبيني . وأخيراً في ١٩ كانون الثاني ١٨٧١ ، في نفس اليوم الذي بدأ فيه التقنين الرسمي في الخبز ، وضع الخروج « العظيم » من بوزنقال أيضاً جيشاً من مائة ألف رجل في اللعبة فكسره العدو . ومضى كل شيء كما لو كان الخروج مخصصاً لجلب تهدئات للرأي الشعبي ، دون أن يكون مهيأً أو مقاداً كما يجب أن يكون . إن إخفاق ١٩ كانون الثاني كان على كل حال الحادث الذي ساعد الحكومة على البدء بمفاوضات الهدنة التي ، على ما يبدو ، منذ الآن أنها تفرض « القوة القاهرة » .

وفي ١١ أيلول ١٨٧٠ ، ندبت الحكومة إلى تور بعضاً من أعضائها لتنظيم تعبئة الموارد البشرية في الأقاليم التي لم يمسها الغزو . ولم يصبح عملها نافذاً وناجعاً بحق إلا

انطلاقاً من ٩ تشرين الأول عندما جاء وزير الداخلية ليون غامبتا يحركها وينعشها بإرادة نصر حقيقية . كان جمهورياً بورجوازياً وأراد هو أيضاً أن يوطد الديموقراطية في فرنسا بالطرق القانونية . كما كان يرغب أن يخلع على باريس وعلى المظاهرة السلمية في ٤ أيلول مشهداً ثورياً في تغير النظام ، ووضع في الحال المحافظين الجمهوريين في مراكزهم ، وكافح بقوة أيضاً ضد الحركات الكومونية التي قامت في ليون ، ومارسيليا ، وتولوز التي كادت أن تعرض للخطر سلطة الحكومة المركزية وتقدم للرأي المعتدل وجهاً مؤمناً قليلاً بالجمهورية . ولكن غامبتا على خلاف زملائه لم يفكر لحظة بسلام مخجل كثيراً أو قليلاً . وأيضاً في باريس قام بالحال بإعادة بناء الحرس القومي ؛ وبدا له أساسياً ، أن الجمهورية ما كانت في نشأتها مصحوبة بالهزيمة ومكلفة بدفع قائمة الأغلاط التي ارتكبتها الإمبراطورية . أما وقد أصبح في تور الرئيس الحقيقي للحكومة ، فقد حاول « أن ينيب مناب قوة النشاط في عدم كفاية المهل » « أن يستعمل جميع الموارد » و « يدشن الحرب القومية » . وكانت النتيجة أولاً تحويل جيش اللوار الأوسط إلى قوة من ١٨٠٠٠٠ رجل ممهورة بمدفعية وجيش فرسان يقوده أوريل دو پالادين ثم شانزي . واستعاد أورلئان بعد نصر كولميه (٩ ـ ١٠ تشرين الثاني ١٨٧٠) ، ولكنه لم يستطع المتابعة باتجاه باريس التي لم تكن مخارجها متناسقة مطلقاً مع استراتيجية حكومة تور . وفي ٣ كانون الأول غلب في پاتاي ـ لواني ؛ وبعد ستة أسابيع قارب بروتانيا ، وخسر معركة مانس الكبرى (٦ ـ ١٣ كانون الثاني ١٨٧١) . وحدثت نفس الصورة من النجاحات الجزئية والسحق النهائي لجيش الشمال وجيش الشرق . والتجأت حكومة غامبتا إلى بوردو في كانون الأول وخسرت رئيسها في بداية شباط ١٨٧١ ؛ ورفض غامبتا قبول وجوب التخلي عن النضال مقابل التخلي عن الألزاس واللورين ، وذهب إلى إسبانيا ليعيش في المنفى ، بالرغم من أن باريس وثماني مقاطعات اختارته بظفر نائباً في انتخابات ٨ شباط .

إن انتخاب جمعية وطنية ، سلطة شرعية مؤهلة للتفاوض بمعاهدة سلام ، تبع عن

قرب في الواقع هدنة ٢٨ كانون الثاني ١٨٧١ ، التي تركت باريس محاطة ولكن غير محتلة ومجهزة بجنود مخصصين للحفاظ على النظام . وهذا الانتخاب كان دليل عدم اعتراف من الإقليم والأرياف بالجمهوريين الباريسيين . وإذا كان غامبتا رجل باريس ، فإن تيير ، الذي أخفق في مارسيليا ، كان منتخب ٢٦ مقاطعة ومعه أغلبية محافظة جداً ملونة بالملكية بشدة : أغلبية منتخبة على قضية السلام وعلى قضية الاستقرار الاجتماعي ، وفي ظروف سرعة حتى أن مجموعة الوجهاء المحليين استعادوا بالطبع دورهم التقليدي ممثلين عن الرأي ، ماحين لمرة الفروق ، ومعبرين عن إرادة عميقة للنظام . وأخذت الجمعية مكانها في ڤرساي .

إن ثورة باريس ، في ١٨ آذار ١٨٧١ ، ظهرت كتصفية دامية للنزاع الخفي الذي مافتئ يقسم الفرنسيين منذ ٤ أيلول . وكان الممثلان الأساسيان في الدرامة في الواقع سكان باريس وڤرساي : وكان الألمان المشاهدين والمستفيدين ، وتدخلهم بقي سرياً بشدة . والقضية المركزية لم تكن قضية الحرب أو الهزيمة : لأن هاتين لا تحسبان إلا كعناصر لنزاع يعود لها ، وكومون باريس تقيم مع المحتل اتصالات تبعد كل فكرة ثأر يائس . وقدم بسمارك إلى تيير الذي أصبح رئيس التنفيذية ، أسرى الحرب الذين أطلق سراحهم والذين سيساعدونه على إعداد جيش القمع ؛ ولكن وجود الكومون نفسها جهزه بالعكس بالواسطة ، أي بمعارضة رفض الطلبات الفرنسية في مفاوضات السلام . وأحرى من رد فعل غضب وطني ، عبرت الثورة عن غضب المدينة التي خربها الحصار . فقد كانت مثقلة بالنتائج المادية ، والطبيعية والمعنوية لهذا المصاب ؛ من شعب ، بعد أن خدعته الحكومة بالدفاع الوطني ، شعر بأنه يثقل عليه عداء المجلس ، وتهديد الريفية المحافظة والملكية . ومن إعلان الجمهورية إلى توقيع الهدنة ، نضج خرّاج كان خصومه عازمين أيضاً على فقئه . وأن الكومون أخذت مشهد تسوية حسابات .

إن اللجنة المركزية المؤلفة من مندوبي مائتي كتيبة اتحادية للحرس الوطني في باريس ، حاولت أولاً عبثاً أن تفاوض مع ڤرساي تنظيم الانتخابات البلدية ، التي

يطالب بها في ٣١ تشرين الأول . والكومون ولا شك فضلت أن تحاول مباشرة زحفاً على ڤرساي ، قبل أن تنظم الجنود التي نجحت في الخروج من باريس ؛ وعندما فعلت ذلك في ٢ و ٣ نيسان ، كانت قواها قد توقفت بمدفعية أكمة (جبل) فاليرين ، التي بقيت وفية لتيير . ووجدت الثورة حبيسة في باريس . وفي ٢٦ آذار ، انتخب مجلس عام لكومون باريس من أقل من نصف الناخبين . وحاول بلجانه الوزارية ، أن يحكم كما لو كان المستقبل أمامه . وإلى جانب أقلية من العناصر الجمهورية البورجوازية. والمعتدلة ، كان المجلس يجمع نماذج من ميول ثورية واشتراكية تضم عدداً من اللاجئين السياسيين . وكان بعض عناصر برنامجه في ١٨ نيسان موعودة من قبل الجمهورية الثالثة ، بالإنجاز في حقل السياسة الدينية والتعليم والتشريع الاجتماعي . ولكن ، لأجل قصير ، لم تعرف الكومون أن تنظم بجد دفاعها ، بالرغم من جهود رئيس الأركان العامة روسل ، وهو ضابط شاب في قسم الهندسة مستاء ونافر من الظروف التي خسرت فيها الحرب ، كما أنها لم تستطع كسب إقليم باريس لقضيتها . أما الحركات الكومونالية في ليون ، ومرسيليا ، وسن ايتين وتولوز أو نيم فكانت دون غد . وفي ٢١ أيار فوجئت الكومون في بوابة سن ـ كلو . كان سكان ڤرساي يناورون دون عجلة ، قابلين أسبوعاً من الكفاح القاتل ومن تنظيف تدريجي للحارات ، كانت الحرائق فيه تثير شدة الغضب . وأقام في باريس جو ساحق من الحرب الأهلية والقمع ، وفيه يرى أن من فروا من الموت على المتاريس أو من الإدانة لم يستحقوا ذلك إلا بالفرار : وخسرت المدينة لزمنٍ جزءاً من سكانها العاملين . وبهذا الثمن كانت الجمهورية مطمئنة لمعتدلي الداخل كما للدول الأجنبية .

وبفضل الاستسلام الفرنسي توصل بسمارك لأهدافه . فقد أعلنت الإمبراطورية في قاعة المرايا في قصر ڤرساي . ووجد أن التحالف الجديد للدول الجرمانية قدم له غنيمة جماعية ، ثلاث مقاطعات فرنسية ، فصلت عنها بلفور . والغرامة الحربية التي فرضت على فرنسا تحدد أو تضع المسؤولية . وفي هذه المرة انتقل مركز ثقل أوربة بعزم إلى

الفصل الثاني

الديموقراطيات التحريرية (الليبرالية) والإمبراطوريات السلطوية

١٨٧١ ـ ١٩١٤

١ ـ أوربة الغربية

تعلم صناعة الديموقراطيات التحريرية (الليبرالية)

في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، بقيت أوربة الغربية ظاهراً أوربة الاختلاف . وسيكون تنوع الأنظمة السارية المفعول الشاهد عليها وحدها : إذ يبدو أن فيها قليلاً من النقاط المشتركة في الواقع ، بين بريطانيا العظمى ، حيث التطور السياسي في غير عجلة من أمره ، ولكن حيث يستمر ماض برلماني قديم من قبل ؛ وفرنسا ، حيث ما زالت الجمهورية ، بعد بالنسبة لكثيرين ، فكرة ثابتة أو تجربة ؛ وإيطاليا أخيراً ، التي صالحت بعناء كبير بين أقاليمها المتناثرة ، ولكنها باعتبارها أمة يجب أن تصبح دولة .

ومع ذلك فإن أوربة الغربية هذه كانت تتجه نحو الديموقراطية . ولكنها ديموقراطية ضعيفة جداً جداً ، سرية ، أو علنية ، لتكون دوماً مطالباً بها بقصد كمؤسسة (نظام) . ولكن هنا وهناك ، مثلاً ، يشغل التعليم السلطة ، كرمز للمساواة التي يلمح بها وتتوقع . ففي سياق التشريعات ربح حق التصويت العام ، وخوّل أيضاً بحذر وبإفراط في التقتير ، ولكنه نشر السيادة البلدية ؛ والرأي المعاكس الشرعي : أن الأنظمة والديموقراطية مالت إلى الاختلاط ، والمؤسسات إلى الاستقرار .

الفصل الثاني
الديموقراطيات التحريرية (الليبرالية) والإمبراطوريات السلطوية

١٨٧١ - ١٩١٤

١ - أوربة الغربية

تعلم صناعة الديموقراطيات التحريرية (الليبرالية)

في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر ، بقيت أوربة الغربية ظاهراً أوربة الاختلاف . وسيكون تنوع الأنظمة السارية المفعول الشاهد عليها وحدها : إذ يبدو أن فيها قليلاً من النقاط المشتركة في الواقع ، بين بريطانيا العظمى ، حيث التطور السياسي في غير عجلة من أمره ، ولكن حيث يستمر ماض برلماني قديم من قبل ؛ وفرنسا ، حيث ما زالت الجمهورية ، بعد بالنسبة لكثيرين ، فكرة ثابتة أو تجربة ؛ وإيطاليا أخيراً ، التي صالحت بعناء كبير بين أقاليمها المتناثرة ، ولكنها باعتبارها أمة يجب أن تصبح دولة .

ومع ذلك فإن أوربة الغربية هذه كانت تتجه نحو الديموقراطية . ولكنها ديموقراطية ضعيفة جداً جداً ، سرية ، أو علنية ، لتكون دوماً مطالباً بها بقصد كمؤسسة (نظام) . ولكن هنا وهناك ، مثلاً ، يشغل التعليم السلطة ، كرمز للمساواة التي يلمح بها وتتوقع . ففي سياق التشريعات ربح حق التصويت العام ، وخوّل أيضاً بحذر وبإفراط في التقتير ، ولكنه نشر السيادة البلدية ؛ والرأي المعاكس الشرعي : أن الأنظمة والديموقراطية مالت إلى الاختلاط ، والمؤسسات إلى الاستقرار .

هذا التطور أخذ عنه المعاصرون وعياً أقل وضوحاً مما نستطيع فعله : فقد كانت الحياة السياسية تتضح لأجلهم عبر تقلبات وفضائح تخفي جزئياً السير الحقيقي للأشياء : مثل كسب جديد لمناوئة البرلمانية في فرنسا ، صعود الطبقات الاجتماعية الجديدة المتطلعة إلى الحياة السياسية ، وتشكيل منظمات نقابية عدوانية ، وتفتيت الأحزاب القديمة (التحريري الإنكليزي ، على سبيل المثال) وضعف الأجهزة الوزارية : كل هذه المستجدات كانت تقلق أوربة البورجوازية بقدر ما تسحرها . وأيضاً في الغالب كثيراً . كان نمو القومية القوية يبدو الوحيد لضمان وحدة الدول من « العنجهية الإنكليزية » الإمبريالية والعدوانية ، و « الوطنية » الفرنسية الباحثة عن الأخذ بالثأر والحذرة ، والقومية الإيطالية بقدر ما تميل كثيراً إلى الأنانية المقدسة » حتى إن إيطاليا القليلة الأهمية عسكرياً ، كانت أيضاً قليلة الأهمية أكثر بوضعها الجغرافي على مفصلة الأوربيتين : الشرقية والغربية . والتصويت الموسع والجيوش الديموقراطية لم تستطع على هذا النحو أن تعيش بسعة إلا بالحمى القومية . وقد لاحظ الاشتراكيون ذلك وناضلوا ضدها ، قبل ١٩١٤ ومن ثم دخلوا في اللعبة .

بريطانيا العظمى : ملكية وديموقراطية :

ردَّ العهد الفيكتوري العظيم للولاء الملكي عند الإنكليز صفة عاطفية أعمق وأكثر حقيقة . فقد كان التاج محاطاً باحترام جديد ، والحماسة القومية امتزجت زمناً طويلاً مع شعبية الملكة . واليوبيل الماسي في ١٨٩٧ استطاع أن يظهر ، في قلب عالم متغير غلواء وبرّ شعب ثابت رابط الجأش . وفي الحقيقة لقد حكم بشدة على الحياة العاصفة لأمير غال ، ابن ووارث المملكة العجوز . ولكنه ما أن أصبح أدوارد السابع إلا وبرهن على بصيرة وذوق الأمة بأخلاقه وعاداته البسيطة ومعرفته بالبحرية .

أما الحياة السياسية ، فقد حافظت على كرامتها وتهذيبها القديمين ، زينتها الطوعية القديمة جداً . وكان مجلس اللوردات حقاً ضحية تعديل دستور جديد ، وفقد

في ١٩١١ حق الڤيتو السياسي ، وساق أكثر فأكثر أعضاءه من أرستقراطية جديدة ، أرستقراطية الفكر أو المال : إلا إنه ضمن على الأقل ، حتى في أعلى جلسة لمناقشاته المفحمة قليلاً ، جيلاً بعد جيل ، تفوق القيم الأرستقراطية التي فرضها على الأمة .

وبالمقابل ، إن الأجهزة الوزارية اللامعة كانت نادرة كثيراً : إن زعماء مثل دزرائيلي أو غلادستون لم يعوضوا في الحقيقة . أما بالنسبة للمركيز ساليسبري فكان حكمة إلهية سرية ظهرت بأنه يجب عليها حماية الأمة من الهيجان البورجوازي المحيط : ثقة لا تتغير ، تجد حقاً على شاكلتها الوسائل للتكيف مع الدمقرطة الضرورية للمؤسسات والنظم ، ولكنها اصطدمت وتعثرت بإصلاحات اجتماعية أعمق . كما كافح القومية الإيرلندية وكان له نفوذ كبير على السياسة الخارجية والاستعمارية الفرنسية .

والحياة السياسية ، في المقام الأول ، تمقرطت أي أصبحت ديمقراطية . فقد خفضت إصلاحات ديزرائيلي ، في ١٨٦٧ ، الضريبة الانتخابية لصالح البورجوازية الصغيرة المدنية . ومع الإصلاح الجديد في ١٨٨٤ ـ ١٨٨٥ العائد إلى غلادستون وصل عدد الناخبين إلى خمسة ملايين . وهكذا انتشرت حتى في الأرياف ديموقراطية منفتحة عن سعة .

ولكن الديموقراطية بدورها ، أصبحت أكثر انتباهاً للقضية الاجتماعية . إن الاشتراكية البلدية ، الانتهازية ، والمعتدلة ، ولكنها نافذة وناجعة ، حولت المدن الهرمة العتيقة وذلك بأن خصت نفسها بمراقبة الخدمات العامة الكبرى : وأكثر فأكثر بدت الليبرالية المانشسترية القديمة لاغية الموضة . وتحت ضغط المطالب العمالية الممثلة بصلابة بحزب العمال الذي شكل في ١٩٠٦ وذابت في داخله الاتجاهات الاشتراكية ونقابة العمال ، اتضح تدخل الدولة في الشؤون الاجتماعية . والحزب الليبرالي (التحريري) مع لويد جورج أسهم بذلك بسعة : يوم من ٨ ساعات لأجل عمال المناجم ، أسبوع « إنكليزي » لمستخدمي المخازن ، وفي ١٩١١ نظام التأمين الإجباري ضد الشيخوخة ،

والمرض ، والبطالة . ومنذ ١٩٠٩ ، يرى أن لويد جورج ، ورغم استياء الأرستقراطية العظيم ، أدخل ، مع ضريبة تصاعدية على المورد ، موازنة الطبقات .

وهذه النجاحات التي ترمي إلى المساواة فاجأت ، والحق يقال ، في زمن بدا فيه التوازن البريطاني السليم مهدداً ، لأن التعاقب المنتظم للأحزاب على السلطة تناغم معه زمناً طويلاً أكثرمما حذره : وهكذا فإن الأزمات ستتجاوز هذا الإطار البرلماني . ولم تتوسع الحياة السياسية دون مقابل : فقد أمكن رؤية الاضطراب يخلط المثير العجيب بالماجن القريب . والنساء بدورهن طالبن بصخب ، في قرقعة الزجاج المحطم ، حق التصويت ، وهددت شدة المطالب الاجتماعية بالشلل النشاط الاقتصادي . والنقابات التي كانت وما زالت حذرة وإصلاحية تبعت الدروس الثورية للنقابية القارية ، وهز الزخم الهائل من الإضرابات أقوى المنظمات النقابية . وفي ١٩١٣ عقد التحالف الثلاثي بين عمال المناجم ، وعمال السكك الحديدية وعملاء النقل .

والاضطراب الإيرلندي ، بعد فترة سكون ، عرف بدوره عودة جديدة ولم يهدأ ، في عام ١٨٦٩ ، « بعدم توطيد » الكنيسة الأنغليكانية في إيرلندة ، كما لم يحاول المحافظون تسوية القضية الزراعية إلا « بقتل الحكم الذاتي بطرق جيدة » . وأخذت المطالب طوراً سياسياً بصراحة ، وحركة السن فاين ما كانت لتطلب فقط الاستقلال الذاتي ، وإنما الانفصال والاستقلال . وفي هذه الحال كان دعم الأصوات الإيرلندية كافياً لتعيين اللعبة البرلمانية . والحزب التحريري (الليبرالي) المدعوم بها في انتخابات ١٩١٠ اعترف لها بحقوق : فقد قبل مبدأ « الحكم الذاتي » في ١٩١٢ بالرغم من احتجاجات المتطرفين . غير أن الشعب البروتستانتي والأنغلوساكسوني في الأولستر صرخ بالخيانة . ونظمت المقاومة ، ولاقت دعماً قوياً في الأوساط المحافظة وفي الجيش . وهكذا فإن الأزمة الإيرلندية الغاضبة من الانتظار كانت تهدد المملكة المتحدة بالحرب الأهلية .

وأخيراً ، يبدو أن الدولة الاقتصادية قد زعزعت بدورها وشعرت أولاً بالألم من المنافسة الأجنبية ، الأميركية والألمانية . وكانت المعركة غير متكافئة بين رجلي المساعي الحميدة ، فالإنكليزي ، كأمير عظيم ، كان يفاوض بلباقة ، والألماني كان أكثر نشاطاً بل ومحتاجاً ولكن آداب السلوك التي صنعت في جرمانيا كانت تكسب قليلاً قليلاً . فهل كان يجب منذ ذلك التخلي عن المبادلة الحرة ، العقيدة الظافرة لجماعة كوبدن وپيل ؟ ألم تكن هذه لحظة الرجوع ، مثل أمم القارة ، إلى الحماية الجمركية وشد أواصر التلاحم الأمبريالي بنظام التعرفة الجمركية المفضلة وحاجز مشترك حيال الخارج ؟ إن رجال صناعة القطن الذين كانت قواعدهم قوية ، رفضوا ؛ وبصورة معاكسة ، إن العمال الذين يخشون الخبز الغالي ، دعموهم . وكندا وأوستراليا أرادتا أن تلعبا لعبتها الخاصة وذلك من أجل أن تحتفظا لنفسيهما بإمكانيات تصنيع وضمان تصديرهما . وأخيراً جوزيف شامبرلن الذي كان فضل هذا الانقلاب الذي لم يسمع به ، أخفق ؛ لأن الرأي لم يكن مستعداً ، وبقي أكثر حساسية بالعناصر المستمرة للازدهار منه بأعراض الانحطاط .

هل كان ذلك ضعفاً إنكليزياً ؟ دون أي شك ، وألمانيا بين الأمم الأخرى كانت تحس به . وخلال الحرب ، انفجرت الثورة في إيرلندة . ولكن الأمة هنا أيضاً ، استعادت ديناميكية (حركية) وتلاحماً يتجاوزان بسعة شواطئ الجزيرة . لقد كانت القوة الحقيقية البريطانية قوة هذه الإمبراطورية المبعثرة في كل البحار ، وبمناسبتها كان الكثيرون في ١٩١٤ قد قالوا أيضاً كلمتهم ، كلمة لورد كورزون في ١٨٩٦ : « إنها تؤلف بعد الحكمة الإلهية ، أكبر أداة بغية الخير الذي عرفه العالم منذ الأبد » . وبين الوطن الأم القديم والدومينيونات المحدثة على نسق كندا ، في السنوات الأولى من القرن العشرين ، لم تكن العلاقات السياسية والاقتصادية علاقات تبعية . ومن هذه الإمبراطورية المنسوجة من « روابط لا تقهر » ، حسب تعبير لويد جورج ، لم تكن بريطانيا العظمى الرأس كما هي النموذج .

الجمهورية في فرنسا : تجربة مديدة :

نشأت الجمهورية من الهزيمة أمام بروسيا ، أولاً مؤقتة ، ولم تتخل عن إرث السلاح . وأنابت بالحال القيم البطولية والمغفلة للمقاومة اليعقوبه مناب سياسة الإمبراطوريات الشخصية . لم تطالب بالسلام ، ولكنها قبلته . ولم يكن لمقدمة صلح فرساي ، ثم معاهدة فرنكفورت أي انقلاب سياسي ؛ بل لم تكونا إلا إخفاقاً عسكرياً محضاً وبسيطاً .

والانتخابات ، التي طلبها بسمارك المهتم بألا يتفق مع حكومة واقع ، لم تتعين إذن باختيارات على الدولة . لقد أخذت بسهولة شكل استفتاء على السلام والحرب . ومن هنا كان نصر المحافظين ـ المنقسمين على قضية النظام ولكنهم كلهم معادون للحرب ـ أمام الجمهوريين المنقسمين على هذه القضية الأساسية : نصر يمين ملكي دون شك ، يجد فجأة ، بعد الإمبراطورية ، قواعده الفلاحية ؛ ولكن انتصار السلام ، الذي يخدم ، في جمهورية الواقع هذه ، من ينوون الجمهورية ؛ وهو أيضاً انتصار الوجهاء « الطبيعيين » في بلد تائه أعيته الحيلة تحت صدمة الهزيمة . والأفضل مع ذلك الا يتكلم لا عن النظام ولا الدستور . وقد انتخب تيير بالإجماع « رئيساً للسلطة التنفيذية للجمهورية الفرنسية » وهو محافظ متحرر (ليبرالي) ومسالم ، ولكن غير ملكي ، وقبل بألا يتحزب . وتوطيد النظام ، وإعادة تنظيم البلاد ، مرّا قبل اختراع النظام . وعليه إذا توصلت الجمهورية إلى التدخل في الأخلاق والعادات ، فذلك لأنها عرفت كيف تعطي الضمانات عن نفاذها .

كان قمع الكومون أول كفيل لها . وأنجزت من القيام بذلك بالنسبة للفكر الاشتراكي نموذجاً مثالياً حقيقياً ثورياً اعترف بها المعجبون : « لنتعلم إذن من الكومونيين الجرأة الثورية ، ولنحاول أن نرى في إجراءاتهم العملية صورة الإجراءات العاجلة عملياً والقابلة للتحقيق مباشرة » ، وهذا ما كتبه لينين في (**الدولة والثورة**) .

لكن الكومون في الغالب فصلت في الأفكار الفطنة لفرنسا المعتدلة عن سعة الفكرة الاشتراكية أو الثورية من جهة ، والنظام الجمهوري من جهة أخرى ، فبين الجمهورية والفوضى ، لم يكن التكيف أو التطابق الكلي مؤكداً . وأبعد طيف عام ٩٣ . وهكذا فإن الصيغ المؤسسية التي أخنى عليها الدهر ستصبح وقفاً من نصيب الملكيين ، بينما الجمهورية ، الشكل الغامض والمنفتح ، تركت المجال لتوقع الكثير من الافتراض والتقدير .

إن نهوض فرنسا من جهة أخرى ، لا يمكن إلا أن يؤمن ويثبت . فقد حرر تيير البلاد ، وحافظ على المركزية التقليدية ، ونظام جباية الضرائب القديم ـ وقبل الخدمة العسكرية الإجبارية ـ ولكن المعدلة بتدابير فضل على شرف حاملي البكالوريا : وعندئذ لانت البورجوازية بهذه الجمهورية العاقلة ، المحافظة على القيم الثابتة ، وربما الأفضل كذلك من ملكية برلمانية . وفي الوقت نفسه كان الكونت دوشامبور وارث العرش يؤكد على أنه لا يريد هذه الملكية البرلمانية : وهذا هو معنى إعلانه الشهير على العلم الأبيض ، حيث كان يؤكد بأنه لا يقبل بهيئة منتخبة تأتي وتتوسط بين الأمة وبينه . ومنذ الحين تخلى الحكم الرجعي عن حقه نهائياً . وأصبح بإمكان الجمعية أن تنقلب إلى جمعية تأسيسية .

لقد كانت قوانين ١٨٧٥ ، بشكلها دستوراً ، قصيراً ، لدناً ، مرناً صالحاً أيضاً لملكية دستورية كما هو صالح لجمهورية . لقد كانت ثمرة العملية التجريبية السياسية ، وعمل ملكيين خائبين وجمهوريين عاقلين ، وتكيفت دون عناء ، على الأقل حتى الحرب العالمية الأولى ، مع تطور بطيء لمجتمع بورجوازي بسوقٍ عظيم العدد وتجهيزه بالملاك الذي كانت فرنسا تبحث عنه بلبس في ١٧٨٩ وفي ١٨٣٠ ، وبه تريد أن تحيا منذ الآن .

وأعطي البرهان على ذلك بسرعة جداً . فبعد أن كسب الجمهوريون المجلس في

١٨٧٦ ، منيت كل محاولة لمقاومة سيرهم بالفشل : طوعاً أو كرهاً بالخضوع أو الاستقالة ، وحتى العزل . وانمحى خصوم النظام الجديد من رئيس الجمهورية الماريشال ماك ماهون الذي وضعه الملكيون عوضاً عن تيير ، إلى الموظفين المشبوهين بروح المحافظة . أما وقد أصبح الجمهوريون سادة الموقع والأفضال ، فقد استقروا تدريجياً في الأرياف بواسطة اللجان المحلية والماسونية ، وبذلك استطاعوا أن يطبقوا السياسة التي أعدوها ببطء في ثلاثة أرباع القرن من المعارضة : الحرية ، مناوءة الإكليروس ، تنظيم التعليم .

واشتركت الجمهورية في الواقع في الأرواح والأفكار في إعلان الحريات العامة :حرية الاجتماع ، والرابطات ، والصحافة ولكن أيضاً الحريات البلدية التي توفق بين تطلعات الوجهاء والأحلام القديمة لرجال الكومون .

هذه الحرية عرفت مع ذلك استثناءً هاماً فيا يتعلق بفئة واضحة من الرابطات والتجمعات : وهي الجمعيات الدينية . ففي زمن جهود العهد الرجعي والنظام الأخلاقي الماكماهوني ـ شوهت سمعة الكنيسة بشدة مع العناصر المحافظة : وكانت قد حصلت بخاصة ، في صعيد التعليم العالي ، على فوائد عظيمة . أما وقد قويت الجمهورية ، لذلك أرادت أن تكون علمانية ووطدت الطلاق ، وفرقت الجمعية اليسوعية . وكانت مهتمة بتعليم الشبيبة والتعلق بالنظم الجديدة ، ولم تقتصر على إعاقة الجمعيات الدينية والوقوف في سبيلها ، بل أحدثت المدرسة الابتدائية المجهزة بما يلزم .

وفي العمل المدرسي الذي قام به جول فيرّي ، من نعلم مجاني ، وعلماني ، وإجباري ، يجب أن ترى في الواقع « كتل الغرانيت » المخصصة لاستقرار النظام . فقد تحرر من قسر العقيدة المسيحية ، ووثق بتقدم بشري غير محدد ، منكراً بالعكس صراع الطبقات ، سينشر أخلاقاً عقلانية بالمعنى الدقيق . وهي الأخلاق التي يجدها بخاصة : كتاب « جولة فرنسا بطفلين » وبهذا المؤلف الذي أحرز نجاحاً فائقاً تنتشر صورة

جديدة لفرنسا سعيدة . وبآفاق مألوفة ، شوهتها خسارة الألزاس واللورين ، ولكنها أرض محبوبة ومتحمسة بـ « المواطنين الصالحين » .

هل مشروع واسع جداً كهذا سينجح بإطفاء كل معارضة ؟ في الحقيقة لا أحد يحسب ذلك . فكل كسب للجمهوريين أصبح لخصومهم نوعاً من « إقليم أسير » متروك على الأرضية وغير متنازل عنه في القلوب . لقد بدأ عصر تستخدم فيه الحجج من جانب وآخر سبباً لا يكون فيه الرياء كثيراً الصورة الهزلية للديموقراطية إلا هجوماً على الجمهورية . والملكيون الأوفياء ، ضحية الأزمة الاقتصادية في ١٨٨٢ ـ ١٨٨٥ ، والقوميون الذين يأخذون على الحزب الجمهوري التحول عن الاستعمار ، كلهم جميعاً وجدوا وراء الجنرال بولانجيه الشجاع ، المتواضع كثيراً ولكنه عرف كيف يبلور الآمال ، ويثقف الحاقدين ، ويحرك الجماهير بالبحث عن صور وعواطف . والجمهوريون تماسكوا في الوقت المناسب ليفزعوا الدكتاتور المتمرن ، ولكن بدقة .

وعبثاً أوحت حكمة البابا ليون الثالث عشر السياسية إلى كاردينال الجزائر ، لافيجري ، بنداء مدوٍ للكاثوليك الفرنسيين بأن ينضموا إلى جمهورية في سن العشرين ، إلى جمهورية أرادتها أغلبية الشعب : ورفض الأحبار ، والعلمانيون كلمة الأمر . وظل النظام ضعيفاً : وكان ذلك في زمن الفضائح التي استهوت الرأي والتي أزالت حظوة الزعماء المغمورين في أزمات وزارية متواترة : كان صهر رئيس الجمهورية ، غريفي ، منصرفاً لتجارة الأوسمة ؛ وأزمة باناما عرضت للخطر أكثر من مائة نائب « حملة الشيكات » وبالتدريج العداء للسامية ، في الأصل غير سياسي ، ويساري حقاً ، اعتبر كسلاح عند المستائين . وفي هذه الحال ، فإن التهديدات التي كانت تلفظ ضد النظام ، وضد جمهورية باعت فرنسا لليهود والفران ـ ماسون ، ليس لها ما تراه منذ الآن في النزاع العادي بين حزب **النظام** وحزب **الحركة** ، في داخل نظام معترف به ؛ إن العداء للبرلمانية ثبت في اليين وبحزم وجرأة .

لقد جهز أوج الأزمة ، في آخر القرن بـ « قضية دريفوس » ولم تكن في الانطلاق إلا خطأ قضائياً يتعلق بالكابتين الإسرائيلي دريفوس . وأثارت تضخم المرارات ، والخيبات والأحلام . وفي اليمين كانت الجمهورية مشهورة بأنها خانت شرف الجيش ؛ وفي اليسار أدى الأمر بمعظم المفكرين إلى الدفاع عنها بقوة باسم العدالة والحقيقة . وإذا أعيد النظر بالمحاكمة وأعفي دريفوس . ومن بعد أعيد له اعتباره ، فإن النتائج السياسية كانت دائمة وخطيرة . وأعيد تصنيف القوى من جديد : في اليمين تم تجاوز الأورلئانية القديمة المفرطة والقومية ـ اليعقوبية قديماً ـ في تقدم ، مشاركة للروح العسكرية ولكل أصدقاء السلطة ؛ ومع شارل مورا **والبحث عن الملكية** ، مع الوطنية العاطفية كثيراً عند بارّيس . أرانا أمام نهضات مذهبية . وبالمقابل ، توحد الحزب الجمهوري أكثر من أي وقت مضى مع النظام ، وبخاصة الحزب الراديكالي الذي نما في داخله . وجرى الاتحاد بالنسبة لليسار حول موضوع العداء للإكليروس .

والعلمانية في فكر مشرع سنوات ١٨٨٠ كانت أيضاً ، من حيث المبدأ ، طريقاً نحو المصالحة والتوفيق . وفقدت في ١٩٠٢ كل حياد ، وأصبحت مناضلة بجرأة وحزم . محبة للأخذ بالثأر ومتشيعة . والجهود السابقة لليون الثالث عشر ذهبت سدى ، بينما اعتلاء بيوس العاشر الحبرية أعطى من جديد لسياسة الفاتيكان ، التي يوجهها الكاردينال الإسباني ميري دل ڤال طوراً عدائياً أخرق . ولم تكن العلاقات مع فرنسا الوحيدة التي يشكى منها . وضد « الرهبان المتعصبين » و « رهبان الأعمال » ، اشتبك النزاع وحفر خندقاً جديداً بين الكنيسة والجمهورية . وأنهى قانون الفصل التطور : قرار وحيد الطرف ، كسر عقد الكونكورداتو ، القانون الذي أراده بريان ليبرالياً وعادلاً ، ولكنه في الواقع أغاظ الآراء التي اتخذت في السابق .

وأخيراً ، في آخر نتيجة لـ « القضية » وصل عداء العسكرانية إلى اليسار . ولزم تفاقم الحالة الدولية إلى أن توصل قانون الثلاثة أعوام إلى تهدئة القلق القومي ، قلق القوميين .

وفي معسكر الجمهوريين نفسه ، لم يكف كره الكهان والحذر حيال الجيش لتقوية النظام وتعزيزه . فقد كان الاشتراكيون يرون بشكل طوعي في العداء للإكليروس أداة مناورة من راديكالية أصبحت في الأعماق محافظة . ومؤتمر الأممية الذي انعقد في أمستردام في ١٩٠٤ ألغى مشاركة الاشتراكيين في كل حكومة بورجوازية . وكان ذلك معناه شجب المذهب الإصلاحي . وبصورة موازية فضل الميثاق النقابي في أميان الثورة العنيفة المباشرة . ووجد إذن في السلطة الراديكاليون السلطويون وحدهم (كليمنصو) رجال نظام قمعوا دون تردد الاضطراب الاجتماعي المتزايد . وضرب الجيش على أيدي مضربي دراڤي - وڤيلينوف - سن - جورج وضد أصحاب الكروم في الجنوب .

وكان على الحرب أن تؤيد ، بالرغم من كل كلام تيير عن الجمهورية ، « نظاماً » كان يقسم الفرنسيين أقل من غيره . وفي أربعين عاماً من تجربة الديموقراطية البرلمانية من المؤكد أن الجمهوريين في السلطة ارتكبوا أخطاء خطيرة كان من الممكن أن تكلف مليكاً وراثياً عرشه . ولكن هذه الأخطاء قد أصلحت وخففت بجمهوريين آخرين . ويبدو أنه كان يكفي لثبات النظام الجديد . أن يحل في اتحاد القومية المقدس ، المشاحنات السياسية والاجتماعية . واستطاع فتح إمبراطورية استعمارية أن يدل على الطرق ولكن بصورة مجزأة . وجاء عام ١٩١٤ في الوقت المناسب لسد الثغرات .

الأخطاء في تقويم إيطاليا الفتاة :

إذا كانت الجمهورية بالرغم من كل شيء قسمت الفرنسيين أقل ما يمكن ، فإن الحالة كانت مغايرة لها في إيطاليا : وقد صرح كريسپي : « الجمهورية تقسمنا ، والملكية توحدنا » . ولكن هذه الوحدة السلالية والوطنية لم تخف تبايناً ممتداً على العصور بين الشمال النشيط والصناعي والذي يدور في فلك أوربة الغربية والحديثة منذ وقت مبكر ، والجنوب القابع والجامد والمحافظ على شعب مؤلف من مستأجري الأراضي الزراعية البائسين ، ومن العمال المياومين المتخلفين الذين يقدمون سواعدهم للعمل .

والتقدم الاقتصادي الحقيقي الذي تفخر به منذ بداية القرن العشرين إيطاليا الواثقة من نفسها والمهتمة بحاضرها في عرض المتاحف والذكريات ، لم يكن من شأنه مع ذلك إلا تعزيز وزيادة التغيير : فسهول البو والتوسكانا حسنت ورويت ؛ وبفضل الشلالات (الفحم الأبيض) في جبال الألب كهربت الشبكة الحديدية الإيطالية . وفي الجنوب ، بالعكس ، بقيت الأراضي الكبرى الواسعة ، والحمى البرداء (الملاريا) تفتك كالأمية . وكان المخلص الوحيد الهجرة أو العيش في المنفى . وعلى شواطئ نابولي وبالرمو يتزاحم المهاجرون .

والتقاليد المحلية للحياة السياسية كانت تسيء تهيئة المملكة الفتية لديموقراطية برلمانية ناجعة . حتى إن وجود الدولة الجديدة كان مصدراً للصعوبات ، لأن البابا كان يعتبر نفسه فيها حبيساً . ومنع الكاثوليك من كل تدخل في الحياة السياسية ؛ « لا ناخبين ولا منتخبين » . وظل البابا ليون الثالث عشر الدبلوماسي في هذه النقطة مطالباً وملحّاً كبيوس التاسع . أما بيوس العاشر فقد كان بالعكس مرناً ولين هذا الموقف في ١٩٠٦ . ومجلس النواب من جهة أخرى ، المنتخب بالتصويت الضريبي ، لا يمثل إلا البرجوازية والأرستقراطية . ولا شك في أن الميزوجيورنو (الجنوب) كان يرسل إلى البرلمان عدداً من جماعة اليسار ، الإرث الثقيل من المشاحنات الاجتماعية . وفي الأحزاب الإيطالية ، كان يحسن أن يرى في الغالب عصبة متآمرين مستسلمين لسياسي الوجاهة والمنافسات الشخصية . وعندئذ أدى الأمر برئيس البيت الساڤوي المسؤول عن الوحدة أن يلعب دور الحكم القاطع : فيكتور إيمانوئيل الثاني وبخاصة ابنه همبرت الأول السلطوي والجشع إلى النفوذ . أما رؤساء الوزارة فكان يغريهم بسهولة شيطان « دكتاتورية » الأمر الواقع : « دكتاتورية » ديبريتس الانتهازية من ١٨٨٣ إلى ١٨٨٧ « دكتاتورية » كريسپي غير المتسامحة (١٨٨٧ ـ ١٨٩٦) ، التي نشرت تذوق قوة التعبير عن عواطفه : فقد كان يغذي في إيطاليا مقاصد كبرى أمبريالية منيت في إثيوبيا بإخفاق ذريع ؛ ودكتاتورية جيوليتي الماهرة أكثر من غيرها .

ولزم انتظار ١٩١٢ ليرى ظهور مؤشرات لديموقراطية صحيحة : إن إصلاحات جيوليتي الانتخابية ، وإن لم تؤسس التصويت العام ،فقد منحت حق التصويت لمن كانت سنهم في الواحد والعشرين من العمر ويعرفون القراءة والكتابة : احتراماً لتقدم التعليم ، وتخفيضاً لعدد الأميين ونمواً للمكتبة .

ومع ذلك فقد اشتدت الأزمة الاجتماعية المزمنة . فإخفاق سياسة كريسبي الإمبريالية ، وانخفاض التصدير الناجم عن الحرب الجمركية التي أثارها كريسبي ضد فرنسا ، وازدياد البؤس الريفي فاقمت الاضطراب وحتى في الشمال ؛ فقد انفجرت ثورة جوع في ميلانو ، في ١٨٩٨ وقمعت بشدة على يد قوى النظام . وهكذا كان على الاشتراكيين المشربين تدريجياً بالماركسية ، أن ينظموا مطلباً أكثر نفاذاً . ووجد في برلمان ١٩١٣ خمسون منتخباً اشتراكياً . وتقدمت ، على العناصر الإصلاحية في الحزب الاشتراكي الإيطالي ، العناصر الثورية التي كان موسوليني يوجهها ، وكان منذ ١٩١٢ مديراً لصحيفة (التقدم) ، لتهيئة إضراب عام في ١٩١٤ .

وهكذا سبق الاضطراب الاشتراكي ، في التاريخ الإيطالي ، نضج ديموقراطية متزنة ، وتلون بعداء للبرلمان : ووجدت الفاشية إحدى قواها في نقص خبرة هذه التجربة .

٢ ـ الإمبراطوريات الاستبدادية المتسلطة

المقدمة : من نهر الراين إلى المحيط الهادئ ، كان النظام القديم سائداً في فجر القرن العشرين : ويقصد بذلك إمبراطور ألمانيا الذي قبل ، بنفور ، هذا التاج الجديد الذي كان في نظره أقل مجداً من تاج بروسيا الذي تسلمه من أجداده ، وإمبراطور النمسا ، ملكاً في هونغاريا وفي بوهيميا بإرث عائلي ؛ أو القيصر الروسي بخاصة المبجل من قبل ملايين الموجيك ، الفلاحين الروس . كان هؤلاء الأباطرة الثلاثة الشرقيون ملوك الحق الإلهي ، ويفكرون ويعملون كما هم . « السيد الواحد في الإمبراطورية : هو أنا ،

ولا أتحمل فيها أحداً آخر » هذا ما قاله أيضاً غليوم الثاني في ١٨٩١ ؛ كما صرح نيقولا الثاني بقوله « أرى الحفاظ على الأورتوقراطية (الحكم الفردي) وصرح بذلك جهاراً في ١٨٩٤ .

ملكية ! هذا يعني كثيراً من الأشياء : أسلوب في حياة البلاط ، في الإدارة ، وتفوق للطبقة النبيلة ، ومفهوم للعلاقات الدولية حيث تستمر الروابط العائلية بين السلالات ، والزيارات بين العواهل ، ولها دور عظيم . وبخاصة لأجل عاهلين من بينهم على الأقل ، ممهورين ببورجوازية قليلة العدد وبأرياف يزرعها العمال الزراعيون لحساب المالكين غير المقيمين في الريف ويسكنون المدن . ولذا يطلق عليهم اسم : **الغائبون** ، وهم من عروق وديانات متنوعة ، وكان العنصر الملكي وحده الذي يساعد على تلاحم الدولة . وفي هونغاريا كان العاهل الحقيقي تاج سن ايتين : وهو وحده الذي يصنع من الإمبراطور الهابسبورغي ملك بودابست . وفي كل مكان تقريباً يقوم التعلق بالتيجان مقام الرابطة الوطنية .

ولا يمكن أن نتصور أن هذه الأنظمة قد تساعد على تطور بطيء نحو الديموقراطية والوحدة القومية ، كما كانت الملكية البريطانية ترى الإيكوسيين ، والإيرلنديين والغالويين والإنكليز يجتمعون تدريجياً على مقاعد مجلسي العموم واللوردات . لقد كان الوضع مغايراً لذلك ، والدور الذي امتد من ١٨٦٦ إلى ١٩١٤ رأى بالعكس تصلب النزعات المحلية ، وتشنج الحكم الفردي (الأوتوقراطية) والبحث أحياناً في الخارج عن معوضات لضعفه الداخلي . وكان يجب أن يصنع من الألمانيات دولة واحدة ، ولهذا يجب الحكم ، بالرغم من المبدأ الأوتوقراطي ، باتفاق مع التصويت العام ؛ وكان يجب ـ وهذه قضية معلقة منذ ١٨١٥ ، وأصبحت أساسية بإخفاق سادوڤا ـ اتحاد الممتلكات الهابسبورغية ؛ كما كان يجب سوق الشعب الروسي ، المؤلف في القسم الأعظم منه من فداديين سابقين أميين ، إلى فتح آسيا وأيضاً الحياة على النسق

الأوربي . وفي هذه الأعمال الثلاثة الضخمة ، كانت التيجان مأخوذة بسرعة بالقوى الجديدة : وأكثر من ذلك أنه كلما رأت نفسها ضعيفة كلما اعتقدت بأنه يجب أن تتكلم عالياً . والإعلانات الأولى للحرب ، في آب ١٩١٤ م جرت بين الإمبراطوريات الثلاث ؛ وقضى النزاع عليها كلها .

ألمانيا الجديدة ؛ تلمسات مستشار الإمبراطورية :

وفي المقام نفسه الذي حفظ لأجل أمراء كل الألمانيات ، وفي غضون قرن ونصف ، قيمة مَثَل ونموذجٍ ، في قاعة مرايا الملك الشمس ، ولد الرايخ الثاني في ١٨ كانون الثاني ١٨٧١ . وهذا لم يكف ليعطي للإمبراطور الجديد قوة لويس الرابع عشر . فقد وضعت لغليوم الأول ولبسمارك ، الذي أصبح مستشاراً للإمبراطورية ، قضية سياسية وقضية دينية وقضية اجتماعية .

سياسياً ، كانت ألمانيا الجديدة كونفدراسيوناً مؤلفاً من خمس وعشرين دولة ، كلها ملكية إلا ثلاث جمهوريات وهي الجمهوريات الهانسية ، **بريم ، لوبك ، وهامبورغ** . وكانت كل دولة من هذه الدول تحافظ على مؤسساتها وعلى دستورها ، وأسرتها الحاكمة ، وقواعدها الخاصة المتعلقة بالعدالة والتعليم العام ، ونظامها الانتخابي . وهكذا بقي في ساكس ، وفي بروسيا وفي عدة مناطق أخرى حتى ١٩١٨ نظام « الطبقات » المتميزة بالانتخابات إلى المجلس (لاندتاغ) أو المجلس المحلي ، على حين أن مجلس النواب الكونفدرالي (رايخشتاغ) كان منتخباً بالتصويت العام . وفي انتخابات ١٩١٢ ، على سبيل المثال ، أرسلت بروسيا على ٢٣٦ ممثلاً في الرايخشتاغ (٥١) اشتراكياً بينما المجلس البروسي المحلي لاندتاغ لم يضم إلا (٦) اشتراكيين على (٤٤٥) عضواً . والنتيجة كانت أن الشعب انفصل عن الانتخابات المحلية ، وركز تدريجياً مصلحته على انتخابات الإمبراطورية ، وفي هذا ما يشجع حقاً على الفكرة الوحدوية ، ولكنه يعطي للريخشتاغ أهمية في وقت كان التطور الداخلي لبروسيا قد أساء إعداد وتهيئة موجهيه .

ويحسن أن نضيف بأن الأقوى بعد بروسيا ، الدول الكونفدرالية . كانت باڤاريا التي حافظت على تمثيل دبلوماسي هام (كان البابا في المستقبل وهو بيوس الثاني عشر ، قاصداً رسولياً في مونيخ أثناء الحرب العظمى) ، ولها جيشها الخاص ، وخطوطها الحديدية . وفي الحقيقة إن أصالة الملك لويس الثاني المغرم بموسيقى فاغنر ، وبالإنشاءات المؤدية إلى الإفلاس ، رفعت حتى ١٨٨٦ ، تاريخ وفاته الدرامية ، الثقل عن ألمانيا الجنوبية . ولكن من المحتمل أن تكون البنية الفدرالية قد أساءت المقاومة للصدمات المتولدة عن القضايا الدينية إذا كان باستطاعة العاهل الباڤاري المحترم ، أثناء الكفاح لأجل الحضارة ، أن يسمع بحزم وجهة النظر الكاثوليكية . وفي الواقع ، إن التوازن منذ ١٨٧١ ما فتئ يتغير لصالح بروسيا التي كان وزيرها الأول مستشاراً للإمبراطورية التي كان عاهلها ينزع قليلاً إلى أن يصبح رئيساً لكونفدراسيون مما كان ينزع إلى أن يكون عاهلاً لجميع الجرمانيين ؛ لأن كل شيء كان يعتمد على المستشار الذي أوجد قليلاً قليلاً مصالح ومكاتب مختصة كان لرؤسائها صفة أمناء سر الدولة . دون القدرة على تشكيل مجلس وزراء . وإذن إذا توصل بسمارك إلى التفاهم مع الرايخشتاغ ، فإن القضية السياسية وجدت محلولة عملياً لصالح أكبر فائدة لبرلين .

وفي المسألة الدينية كادت القضية السياسية أن تتعثر . فمنذ الوحدة كان الكاثوليك ، يؤلفون ثلث سكان الرايخ ، وكانوا متجمعين بخاصة في ألمانيا الجنوبية والغربية ، التي بدت متحمسة قليلاً للوحدة ، وأيضاً في بولونيا وفي الألزاس لورين ، مناطق أسيء انضمامها إلى إمبراطورية بعد أن أدخلتها في جسدها بالقوة . وكانت السياسة الخارجية تلعب أيضاً : فالدولتان الكاثوليكيتان اللتان تحدان ألمانيا كان لها ما يدعو للثأر ؛ إحداهما **سادوڤا** والأخرى **سودان** . وباختصار ، بسمارك نفسه اللوثري الصالح ، كان يرى في الكاثوليك خطراً . أما الكاثوليك فقد شكلوا منذ الانتخاب الأول للريخشتاغ ، حزباً متجانساً ، منظماً يوجهه رئيس وزراء هانوڤر السابق ، لودفيغ فيندتهورست الحارس الدقيق للفكرة الكونفدرالية . أصبح فيندتهورست بسرعة

رئيساً للمعارضة السياسية للمستشار . وهذا الأخير قرر ، منذ ١٨٧١ ، أن ينتقل إلى الهجوم .

وما سمي « الكفاح لأجل الحضارة » يعبر عنه في الواقع بتعاقب إجراءات خرقاء اتخذها بسمارك ضد التعليم الديني والكنيسة عموماً بين ١٨٧١ و ١٨٧٥ . منع اليسوعيين ، إشراف الدولة على الحالة المدنية ، كل هذا وجد في خارجها في مكان آخر ؛ ففي القرن الثامن عشر ، على سبيل المثال ، فكر لويس الخامس عشر وجوزيف الثاني وبومبال بأن بنية دولة حديثة ومركزية تتطلب حلّ الجمعية اليسوعية . ولكن الأزمنة تحولت . وبالرغم من الحركات المخالفة الاتجاه التي سببها مجمع الفاتيكان ، فقد تكتل الكاثوليك الألمان حول أساقفتهم ، والبروتستانت أنفسهم آل بهم الأمر إلى القلق وانشغال البال . وعندما وصلت الأزمة إلى قمة الأوج ، وجد أن ثمانية مقاعد أسقفية شاغرة ، وكان من الواضح أن الكنيسة لم تستسلم وأن الحزب الكاثوليكي أيضاً كسب مقاعد في كل انتخاب ، وبرهن بسمارك على قامته كرجل دولة : « ذهب إلى كانوسّا »[(١)] . وسقطت « قوانين أيار » في النسيان بهوادة . وتقدم الاجتماعيين - الديموقراطيين ، والخلاف مع القوميين - الأحرار في موضوع تعزيز الحماية الجمركية - اضطراه أيضاً أن يرفع يده من هذا الكفاح . ومع ذلك فإن الأساسي قد ربح : إن كل الانتقادات المرة كانت في نطاق مؤسسي ، والكونفدراسيون الإمبراطوري خرج سليماً من الأزمة ، بل وأقوى لأنه قاوم فيها . والمهم أن نشير إلى أن المجتمع الألماني حفظ عنها طابعاً تحت شكل زواج مدني إجباري .

وأخيراً حل المستشار على شاكلته العملية ولكن الحازمة ، القضايا الاجتماعية لألمانيا الجديدة . فالنصر والخمسة مليارات التي دفعتها فرنسا تسببت ، نحو ١٨٧٢ ، بتفاؤل غامض وبازدهار ؛ ولكن حالة الاقتصاد القومي في التوسع المهدد بالتضخم قد

---

(١) يذكر بالعصر الوسيط عندما ذهب إمبراطور ألمانيا هنري الخامس إلى كانوسّا يلتمس عفو البابا .

استقرت وجرت إلى أزمة حقيقية ، على كل مستويات الاقتصاد الإمبراطوري الفتي . والتعرفات المنخفضة جداً فتحت الإمبراطورية للمنافسة الروسية والهنغارية من أجل الحبوب ، والبريطانية من أجل الفولاذ ؛ وامتلأت المدن بالعاطلين عن العمل وأغرتهم الثورة الاشتراكية بسرعة . وفي ١٨٧٧ ، أصبحت الحالة مقلقة بما يكفي حتى إن بسمارك توصل إلى تصور نظامٍ كاملٍ للإصلاحات . فالحماية الجمركية ، ونمو الصناعة ، ومراقبة التجمعات المعادية للنظام الاجتماعي ، كل هذا فرض بآن واحد معاً في ١٨٧٨ . والاشتراكيون الألمان اتحدوا منذ ١٨٧٥ على حل وسط (تسوية) بين الماركسيين واللاساليين ، ويتمنون تنمية عملهم في إطار قومي . وتعلق المستشار في وقت واحد بقمعه وإرضاء المطالب التي يستطيع أن يعتمد عليها قبل أن تصبح خطرة . وفي ١٨٩٠ ، مهرت ألمانيا ، بفضله ، بنظام اجتماعي حسدتها عليه كل البلاد الرأسمالية : تأمين المرض ، تأمين الحوادث ، تأمين الشيخوخة ، كلها أصبحت متحققة . وقليلاً قليلاً تحولت النقابات والجمعيات التعاونية إلى أدوات للبرجوزة ، بالرغم من تلاحم مبدأ مع الأرثوذوكسية الماركسية والديموقراطية ـ الاجتماعية في مؤتمر إرفورت في ١٨٩١ . وفي ١٩٠٤ تمكن بيبل زعيم الاشتراكية الألمانية من أن يقول إلى جوريس الاشتراكي الفرنسي : « حتى في ألمانيانا العسكرانية ونبلاء الأرياف ، يوجد عندنا نظم (مؤسسات) تعتبر مثلاً أعلى بالنسبة لجمهوريتك البورجوازية » . وبالرغم من الملكية الاستبدادية المتسلطة ، وربما بفضلها ، أنجزت ألمانيا البسماركية ثورتها الصناعية دون أن تخشى ثورة اجتماعية .

وبقوة السلاح ، وتثبيت السلام وتقويته ، وبإحداث مؤسسات نافذة ، بالمساندة المعطاة إلى مجتمع بورجوازي ، صنع بسمارك ألمانيا ؛ وهذا العمل الواسع الملاحق خلال ما يقارب أربعين عاماً (لقد كان مكلفاً بوزارة بروسيا في ١٨٦٢) وتر أحياناً علاقاته الشخصية مع غليوم الأول ، ولكن لم تكن بشكل دائم أبداً ، ومع تقدم السن نسي المستشار المرونة . ومنذ وصول غليوم الثاني إلى العرش ، في ١٨٨٨ ، شعر بأن الأشياء

ستتغير ؛ وفي أقل من عامين بعد ذلك فقـد العجوز حظوتـه ورجع إلى أراضيـه ، وتوفي في ١٨٩٨ ، مفسراً وموسعاً بمرارة خرق القيصر الجديد وملاحظاً على سرير موتـه : « إن هذا الصرح الذي رفعته حجراً حجراً سيفتتونه علي » .

القيصر : جرأة وتملق :

بالرغم من تنبؤات بسمارك ، برهنت السياسة الألمانية بين ١٨٩٠ و ١٩١٤ ، بطبعها الهادئ ، على أن الوحـدة قـد تمت واقعيـاً . وكانت ألمـانيـا الولهلمينيـة هـذه ، مع العلم بتوسعها الاقتصادي العجيب ، ألمانيا التي تشكل منها اللعب السياسية الباهتة والهادئة ، تبايناً ملحوظـاً مع البلاد المجـاورة . لأن أربعـة مستشـارين ، أعضـاء الطبقـة النبيلـة العظيـة ـ مثل هوهنلوهـه وبُلوف ، أو من الإدارة العليـا ، مثل كابريڤي وبتمان ـ هـو للفيغ ، كانوا يفضلون فيها وجهات النظر الإمبراطورية أمام برلمانات قليلـة الكفـاح . والأحزاب السياسيـة لم تعرف أبـداً المنـازعـات العقـائـديـة . وكان المحـافظون يكتفون بالدفاع عن مصالح الزراعة التي كان إنتاجها يتزايد ، ولكن دورها النسبي في الاقتصـاد مـا فتئ يتنـاقص ؛ والوسـط الكاثوليكي كسب ، حتى في البلـد البروتستـانتي ، أصـوات الطبقـات الـوسطى ؛ والأحرار يمثلـون رأس المـال ، والاشتراكيـون العمـل ، ولكن مجابهتهم لم تثر خلافات سياسيـة ؛ والخلافـات الاجتماعيـة نفسهـا كانت أقل عنفـاً ممـا في فرنسا أو في إنكلترا ؛ وإضراب ١٩٠٥ الأهم من غيره ، انتهى بتحكيم حكومي منح عمـال المناجم في حقل الرور يوم ثمانية ساعات عمل . وحيال الطبقة العاملة كان غليوم الثاني يتـابع على هـذا النحو سيـاسـة بسمارك التي بموجبهـا يملـك رب العمـل وحـده السلطـة فيما يتعلق بـإحـداث وإدارة الأعمـال الاجتماعيـة في المشروع ؛ ومثـل هـذا المـوقف كان يتطلب الـدفـع بـالعملـة . على أن الحـزب الاشتراكي وإن كان في ريخشتـاغ ١٩١٢ أكثر عدداً ، فإن موقفه الإصلاحي ، في عز ارتفاع مفاجئ للمنتجات الصنـاعيـة ، كان يمثل بالنسبة للنظرية الماركسية هرطقة أقل منها تكذيباً حقيقياً .

وألمانيا هذه العاقلة والمزدهرة والمتبرجزة ما كانت لتمثل مع ذلك إلا أحد صفقتي الباب ، وكان يوجد أيضاً ألمانيا القلقة والحربية والمتكبرة ، التي كانت ممثلة ، لمصابها ، بالإمبراطور نفسه . والمادية المحيطة لا يمكنها أن تكفي أميراً عصبياً وغير مستقر . وكان بعض الفرنسيين قوميين ممالقين برغبة مخلصة للأخذ بالثأر ، أو عن ضرورة انتخابية . وكان بعض الإنكليز كذلك لمصلحة اقتصادية ؛ والإمبراطور غليوم لم يكن عنده ما يحمله على تحمل أي من هذه الدوافع أو الأسباب . ومنذ أكثر من قرن ، كان سادة أوربة في معظمهم أناساً عقلاء يشعرون بمسؤوليات وظائفهم ووزن كلامهم وبثمن التوازن والسلام : أما غليوم الثاني ففضل أن يسلك مسلك زعيم لحزب .

كان الإمبراطور قائداً للجيش البروسي ، يسمى الضباط في جيش البر كما في البحرية ، دون أقل مراقبة من المستشار أو البرلمان ، « إن أعز رغبة على كل بروسي ، قال بتمان هولوڤيغ في ١٩١٤ ، أن يرى جيش الملك سليماً معافى تحت إمرة مليكه وألا يصبح جيش البرلمان » . وإلى جانب المجتمع الصناعي بقي على هذا النحو مجتمع من نموذج البروسي ـ القديم المطابق لوجهات نظر فريديريك ـ غليوم الأول وفريديريك الثاني : ضباط نبلاء خاضعون لسيدهم (ولو فقدت الطبقة النبيلة حصر مهنة ضابط) ، وجنود ، عند عودتهم إلى الحياة المدنية ، يرون بأنهم معززون ومجددون لقواهم بمرورهم في الجيش . والرفقة والإخاء في السلاح كانا الغرض أو الموضوع الذي يجده غليوم الثاني الذي يغير عدة مرات بزته العسكرية في اليوم ، في مئات الخطب . وكان يجب على جيشه أن يكون قاسياً كصخرة من القلز ، وأن يبقى حصناً للأمة ضد الأعراق المجاورة المنحلة . وفي الحقيقة إن الجيش والبحرية القويين باستطاعتهما أن يعتبرا ، في زمن بسمارك ، ضماناً للتوازن الأوربي . ولكن كان يلزم في الوقت نفسه أن يتصالح مع إنكلترا وروسيا . إلا أن الإمبراطور كان يحسد إحداهما ويحتقر الأخرى . وقد أعرب عن ذلك في تصريحات مسمومة تثير القضايا السياسية الحقيقية وحدها لحكمه . إن القوة الألمانية المتزايدة بحرارة وشدة أقلقت أكثر مما طمأنت ، لا سيا وأنها

كانت مشاركة لمذهب جديد وهو مذهب الجامعة الجرمانية « سياسة عالمية » وكل هذه الأغراض المتلاحمة عن غير فطنة ، لم تكن متخذة لتهدئ فرنسا ، ولتلين إنكلترا . وكان يلزم لألمانيا المتحدة ملك بورجوازي : وملكها الهوهنتسولرن الفارس وغير المسؤول عودها على اعتبار الحرب ، حسب تعبير الجنرال برنهاردي « كالتزام معنوي في بعض الحالات ، وكما هي ، عامل لا غنى عنه للحضارة » .

وعلى الأقل من هذه الحرب كان يحضر الوسائل بنفاذ ؛ فقد كان الجيش مدرباً جيداً ومجهزاً بمدافع كروب الثقيلة ، والبحرية أعيد تنظيمها على يد فون تيربيتز ، وتنافس « البحرية الملكية » الإنكليزية ؛ والمعنويات التي ارتفعت أخيراً في ١٩١٤ ، بعد الكثير من المناسبات الحربية ، دفعت العسكريين إلى اتخاذ القرار بقوة ، وكان باستطاعة ألمانيا أن تتبنى كلمة غوته في ١٨١٧ : « يجب علي أن أعترف بأن ليس في وسعي أن أعمل غير السعادة الأبدية ، إذا كانت لا تقدم لي أيضاً أعمالاً لإنجازها وعقبات للتغلب عليها » ، إلا أن العاصفة والزحف تغلبا على التأمينات الاجتماعية .

فرانسوا ـ جوزيف والملكية المزدوجة :

بعد سادوفا ، فهمت النمسا أن الوحدة الألمانية ستحقق دونها . حتى إنها رأت أنها سعيدة بأن هذه الوحدة لم تكن ضدها . وكان عليها منذ الآن الاهتمام بدبلوماسية قضاياها الداخلية ؛ والقضايا القديمة الملاحظة التي لم تحل على يد مترنيخ ، استيقظت بحدة : كيف يمكن أن يعيش بسلام ، وتحت صولجان واحد : النمساويون ، والتشيك ، والسلوفاك ، والكروات ، والصرب ، والمجر ؟ إن القضية حادة بذاتها وكانت تتعقد ، بالمقابل ، في كل تغيير للتوازن الأوربي : إن سلاف الجنوب ، وروماني الشرق ، وبولوني الشمال كان لهم أخوة دم في الجهة الأخرى من الحدود ، والتحرير الإيطالي أعطى للجميع درساً في القوة والمكيدة .

كانت القضية الهونغارية أهم من غيرها : فمن ١٨٤٨ ، صحبت الثورة الهونغارية ، بقيادة كوسوط ، الثورة الإيطالية . ومن جهة أخرى ، لم تكن « الحقوق التاريخية » لمملكة سنت إيتيين مهملة ، وفي الغالب كان العواهل النمساويون يعتمدون عليها للدعوة إلى ولاء الدياط والطبقة النبيلة المجريين . وفي ١٨٦٧ اعترفت تسوية (حل وسيط) نهائية باستقلال هونغاريا ، مع حكومة مسؤولة . وقبل فرنسوا ـ جوزيف بأن يتوج « ملكاً رسولياً » في بستْ . وسمي ثلاثة وزراء عامين : للشؤون الخارجية والحربية والمالية والمصالح المشتركة بين سيسليتانيا (النمسا) وترانسليتانيا (هونغاريا) ؛ واستلم في ١٨٧١ هونغاري ، وهو الكونت آندراسي ، وزارة الشؤون الخارجية واحتفظ بها خلال سنوات طويلة .

وهذا التقسيم ، هذه الثنائية ، أرضى كثيراً الأمة المجرية ! ولم يقتصر ذلك على الطبقة النبيلة التي تجسدها ، وتحافظ على تفوقها السياسي ، بفضل نظام انتخابي ضريبي (فرانسوا ـ جوزيف في حالة توتر مع الهونغاريين ، كان يهددهم بتوطيد التصويت العام عندهم) ؛ ولكنها كانت حرة في متابعة مجيرة (جعل الناس مجراً) متسارعة للقوميات الأخرى الترانسليتانية ، وبصورة أساسية الرومانيين ، والسلوڤاك والصرب . والكرواتيون استفادوا أنفسهم ، منذ ١٨٦٨ من حل وسط (تسوية) ثانوي في داخل النظام الترانسليتاني وفرضت اللغة المجرية في المدارس وحتى في أسماء الأمكنة والمواقع . وهذا العمل كان لعبة خطرة في نهاية القرن التاسع عشر ، لأن القوميات السلاڤية نمت بقوة تحت تأثير روسيا وصربيا . وفي الحقيقة ، إن المنازعات الداخلية القديمة بين الكروات الكاثوليك والصرب الأرثوذوكس ، كانت تعيق المطالب ؛ وعلى الأقل في ١٩١٤ كانت الإمبراطورية تضم على واحد وخمسين مليوناً من السكان ، أربعة وعشرين مليوناً سلاڤياً ، ووجدت نفسها مضطرة إلى حل عسكري لأنها طرحت زمناً طويلاً ، ولا شك ، وتطرح أيضاً كل حل اتحادي حقاً . وتحت الرصاص الصربي سقط في ساراييڤو الأرشيدوق الوارث فرنسوا فردينانـد ، (رغم

أنه كان شخصياً في صالح السلافيين) . ولسحق صربيا المستقلة نهائياً أثارت ڤينا دون ندم ، الحرب العالمية .

وفي پراغ ، من جهة أخرى ، وفي كل بوهيميا شعر التشيكيون بالخيبة من الحكم الثنائي ، وما لبثوا أن طالبوا لأجل تاج سَن فينسيسلاس الحقوق التي حصل عليها تاج سن - إيتين . ولم يسوَّ شيء في ١٩١٤ بالرغم من تعاقب الفدرالية غير النافذة والمركزية المتسلطة . وما كان الإمبراطور حاوله أحياناً لقبول حل اتحادي ، اصطدم بالأقلية الألمانية في بوهيميا وبحسد الهونغاريين وشيئاً فشيئاً حصل التشيكيون على المساواة في اللغتين ؛ الألمانية النمساوية والتشيكية في الإدارة ، وإنشاء جامعة تشيكية في براغ . وما زالوا بعد بعيدين عن الغاية عندما انفجرت الحرب . والأعضاء العنيفون في المقاومة اختاروا بعامةٍ المنفى .

والمؤرخ يحاول عبثاً ، عندما تنفجر أزمة ، أن يميز ويستبين فيها الصفة التي لا يمكن اجتنابها ، وعندما تنتهي بإخفاق ، أن يؤكد بأن النصر كان مستحيلاً . وعلى هذا فقد أصبح من المغري بعد الحرب العالمية الأولى ، أن يؤكد على أن الملكية المزدوجة كانت ميتة من تشوه ولادي ، وراثي . ومع ذلك فإن ملاحظاً ماهراً على ما يبدو ، وهو الرئيس التشيكي أدوار بينبش ، كتب في ١٩٠٨ : « لقد جرى الكلام في الغالب عن تفكك النمسا . لا أعتقد ذلك ؛ لأن الروابط التاريخية والاقتصادية التي تربط الأمم النمساوية بعضها ببعض قوية . وفي الحقيقة إن النزاعات القومية ستلعب أيضاً زمناً طويلاً دوراً هاماً ، ولكنها لم تعد كما كانت في نصف القرن السابق ..:. إن التصويت العام هيأ الأرضية لحل هذه الحالة الصعبة » .

وفي الواقع يجب ألا نبحث في التعايش لعدة لغات وأديان عن أسباب الأزمة النمساوية ، والأحرى أن نبحث في عدم المبادهة والأفكار الكريمة الذي ميز حكومة فينّا

في غضون الخمسين سنـة الأخيرة من حكم فرانسوا ـ جـوزيف الطـويـل ، كما في التعقيـد الخاص للقضايا النمساوية ـ الهونغارية .

إن حضور الإمبراطور نفسه ، أولاً كان معقماً للفكر السياسي : فكلما شـاخ « جـدٌّ أوربة » أصبح مبجلاً أكثر لكبر سنه ، والمصـائب العـائليـة التي تحملهـا بصبر ، بطبعـه المحايد كرجل بسيط ، كلما أصبحت الثورة الحادة لا يفكر بهـا ولا يمكن أن توجـه ضـده ، وبواسطة ذلك حصل الإعفاء من إزالة الأسباب الممكنـة . وقـد وصف الروائي موزيل في صفحات لا تنسى عشية الحرب أن هذه الازدواجية (القيصرية والملكية حاضرتان في كل مكان) المصفاة والمحافظة والمهتمة بالتشريفات والاحترام والقائمة بـالاحتفـال بيوبيل العاهل المبارك والمراكمة بهذا القصد للجـان الجوفـاء والاجتماعـات الفـارغـة . والتصوير (الرسم) سيكـون حقيقيـاً من وجهـة النظر السيـاسيــة . لأن إدارة آل هــابسبـورغ الشهيرة ، في فجر القرن العشرين لم تكن إلا آلة ثقيلة ورتيبة .

وهناك عدو كان قد عرف على هذا النحو ، في ١٨٥٥ ، دعائمها الأربع : « الجنـدي واقف ، والمكتبيون أو الديوانيون (البوروقراطيون) جالسون ، والكهان جـاثمون على ركبهم ، والوشـاة صـاغرون » وفي آخر القرن ظـل الجيش قـويـاً ومـدربـاً جيـداً وكان الإمبراطـور يسهر شخصيــاً عليــه ، ولم يقبــل أبــداً ، مثــلاً أن تعطى فيــه الأوامر بالهونغارية . بل ويجب أن يبقى واحـداً ولا ينقسم . والكنيسـة المهورة بشكل غني ، كانت تمـارس على المجتمع نفوذاً قطعيـاً ، ويكاد يطعن بهـا بتقـدم بـورجـوازيـة الأعمـال اليهودية والاشتراكية الماركسية . وبالمقابل ، فقـدت الشرطـة والإدارة حيويتها : ففي ١٩٠٧ وطد التصويت العام في النمسا ، واستطاع في فينّا محافـظ « مسيحي ـ اجتماعي » في تحويل النقل والغاز والكهرباء إلى مصالح بلـديـة . وفكر اشتراكيون مثل رنتير ، كما رأينا بينيش ، أن يتتابع هذا التطور ليصل بالملكية المزدوجـة شيئـاً فشيئـاً إلى الحـالـة الاجتماعية في ألمانيا ، جارتها .

وبالرغم من الإطار (الملاك) العتيق لمؤسسات النمسا هونغاريا ، والصعوبات الحقيقية الموروثة عن تاريخها ، وكان بالإمكان أن تتغلب على معظم الأخطار التي أطاحت بها ، ولم يكن لينقصها في هذا الشأن إلاّ سياسة واضحة ورجال صادقو العزم في تطبيقها .

إمبراطورية القياصرة وأزمة نموها :

بصورة منتظمة جداً ، وعلى نقيض ما حدث في الغالب الأعم في تاريخ روسيا السابق ، توصل القياصرة الثلاثة الأواخر من آل رومانوف إلى العرش ، كل واحد منهم خلف أباه . ولكن إذا مات الكسندر الثالث في ١٨٩٤ موتاً طبيعياً فإن الإمبراطورين الأخيرين هلكا قتيلين ، الكسند الثاني في ١٨٨١ من قبل إرهابي « حرية الشعب » ونيقولا الثاني في ١٩١٨ من قبل البلاشفة .

وذلك لأن الزعماء الدينيين والعسكريين ، والسادة المطلقين في ١٩١٤ لمائة وستين مليون نسمة ، هؤلاء الأواخر الحاكمون بأمرهم في أوربة لم يعرفوا كيف يرضون التطلعات القومية والاجتماعية والسياسية لرعاياهم في ذلك الحين .

من وجهة النظر القومية ، كانت الإمبراطورية الروسية بعيدة عن تشكيل جمهور متجانس : فنلانده ، والأقاليم البالطية ، أستونيا ، ليڤونيا اللوثرية ، ليتوانيا وبولونيا الكاثوليكيتين ، والقبائل الإسلامية في حوض الفولغا والقوقاز ، وأرمينيا ، وأكرانيا نفسها ، كلها جميعاً كانت تتحمل بجزع سيطرة سان بطرسبورغ . كانت الثورات عديدة ، ومنها ثورة بولونيا ، في ١٨٦٢ ـ ١٨٦٤ التي كانت دامية أكثر من غيرها . وفي أي مكان ما كان القياصرة ليعجبوا بحل آخر غير الترويس (جعل السكان روساً) ، وإلغاء اللغات القومية ، وتغيير أسماء الأمكنة وتثبيت الفلاحين المستعمرين الموسكوفيين ، وفي الغالب نفي القوميين المتشددين . وقد صرح القيصر الكسندر الثاني : « إذا منحت اليوم دستوراً ، فغداً تسقط روسيا حطاماً » . إن فسيفساء

الأعراق والأديان التي تتشكل منها الإمبراطورية كان لها إذن نتائج سياسية من وجهة نظر مضاعفة : فقد شهد فيها الحكم المطلق دفعاً بالغيبة لفقدان الإصلاحات الليبرالية ؛ والمعارضون استمدوا في الغالب من وجدان قومي مخزيّ غذاء للروح الثورية . واليهود على سبيل المثال الذين كان النظام قد دمرهم بالإبادة أو القتل ، كانوا بالنسبة للقيصرية أعداء غير قابلين للمصالحة : وتروتسكي كان مثالاً صالحاً لذلك .

وإذا أهملت الحدود القومية ، فإن المجتمع الروسي في أواخر القرن التاسع عشر ظل ريفياً في أغلبيته القوية العظمى ، ففي ١٨٦١ ، قبل الأوكاز إلى المرسوم المحرر للقيصر الكسندر الثاني ، كانت الفلاحة قليلة الاختلاف ، عن بعضها . والمير ، التنظيم القروي العائد للكومون (القرى) ، كان يعيد من جديد توزيع الأراضي دورياً بقصد المساواة ؛ وظل الفلاح ثابتاً على تنظيمه . ولكن إلغاء الفدادية تناول قليلاً هذا الإطار الذي دام منذ قرون ، وهو أن أقلية من الريفيين أكثر غنى ، وأكثر ذكاء أو مخادعين توصلوا إلى شراء أراضي كومونية (من الكومون أي الناحية في تقسيمنا الإداري) . و « أكلة المير » هولاء أو الكولاك ، الفلاحون الأغنياء ، جعلوا الحياة أصعب أيضاً على جمهور الفلاحين الفقراء . وهؤلاء ، بالرغم من الرقابة التي كانوا هدفها ودوام جواز السفر الداخلي ، أخذوا يهاجرون نحو المدن واضعين إلى جانب القضية الريفية قضية عمالية . وفي الواقع إن روسيا . منذ ١٨٨٨ ، أصبحت دولة صناعية . وتحت الإدارة القوية للكونت ڤيت الوزير من ١٨٩٢ إلى ١٩٠٣ ، بنيت سكك حديدية ، ورؤوس الأموال الأجنبية ، وبخاصة الفرنسية والإنكليزية ساعدت على نشأة صناعة كبرى ، صناعة معدنية في الأوكرنيا وفي سن بطرسبورغ ، ونسيجية في بولونيا وموسكو ، وبترول في باكو . وهكذا فقد تكدست في المدن الكبرى طبقة كادحة بائسة ، مثل التي عرفتها فرنسا وإنكلترا قبل خمسين عاماً . وبين هذه الجماهير العمالية بدأت الدعاية الماركسية تنتشر في سنوات ١٩٠٠ . والحزب العمالي الاجتماعي ـ الديموقراطي في روسيا ، الذي تشكل في ١٨٩٨ ، انقسم بسرعة إلى اتجاهين حزب **المانشفيك (حزب الأقلية)** الأوفياء

إلى الخطة القديمة التي وضعها كارل ماركس لنظريته ، وكانوا ينتظرون أن تصبح روسيا أمة صناعية حقيقية ، وأن الزيادة العددية في الطبقة الكادحة تساعد فيها بشكل طبيعي على ثورة . **والبولشفيك (حزب الأكثرية)** ، كانوا بالعكس أيضاً أنصار ثورة مباشرة ، وبالنسبة لرؤسائهم ، مثل اليانوف المسمى لينين ، المهم أن تتشكل جماعات صغيرة عازمة وحازمة ، تضم حداً أقصى من العمال المدربين على تقنيات الاضطراب الثوري . وبالرغم من تحريم كل حركة نقابية ، كانت الإضرابات تحدث بكثرة وفي الغالب دامية . وظلت القضية السياسية ، بالرغم من كل شيء ، الشغل الشاغل للقياصرة ، ويقصد بذلك التوفيق بين عدة متطلبات متعارضة .

وكانت الطبقة النبيلة تتجول في كل أوربة وتتكلم الفرنسية أكثر من الروسية ، وكانت في الغالب حساسة بالمؤثرات الأوربية . ولا يوجد فيها وسط في داخلها بين المستبدين المقتنعين ، والفزعين من ظواهر الليبرالية ، وبين أنصار الدمقرطة السريعة : والكونت ديمتري تولستوي وزير المعارف العامة في حكم الكسندر الثاني ، والداخلية في بداية حكم الكسندر الثالث سيكون ممثلاً للنموذج الأول . والكونت ليؤن تولستوي ، ابن عمه ، الذي وصف في قصصه الفساد وعديم الكفاءة ، والفظاعات غير المفيدة للإدارة الإمبراطورية ، سيكون أفضل مثال للنوع الثاني الذي كان يجهز الثورة بالعديد من الزعماء النشيطين . والجهود المبذولة لإدخال ممثلي البورجوازية الناشئة في هذه الطبقة النبيلة أدت أحياناً إلى تشكيل نافرين : كثير من الثوريين الماركسيين أو حتى من الحزب الدستوري الديموقراطي الذي يطلق عليه اسم (K.D) ، ينتسبون إلى الصفوف الأخيرة في **التشن** .

على أن تطوراً في النظام نحو الليبرالية الدستورية لم يكن مع ذلك مستحيلاً ، ففي ١٨٦٤ ، نظم ألكسندر الثاني من جديد الإدارة المحلية لأحداث زمستفا أي (مجالس) وهذه مجالس للمنطقة والحكومة المنتخبة من قبل ثلاث فئات ، أي مالكين

عقاريين ، سكان مدن وقرى ريفية) حققت بعض الاستقلال الذاتي المحلي وبعضاً من ذوبان الطبقات . وفي الوقت نفسه ، أحدثت لجنة محكمة الجنايات ، وتعليم ثانوي وعالٍ منفتح للجميع . وظهر شعور مدني أهلي يختلف عن الإطاعة الدينية التي اعتاد عليها رعايا القيصر : ودلَّ تولستوي في « البعث » كم من أعضاء اللجان الجديدة ، المشربين بدورهم الاجتماعي ، قد أنجزوه بعاطفة ذات أهمية . ولكن ثورة (الأرض والحرية) ، ثورة بولونيا ، والإخفاقات الخارجية ، وأخيراً مقتل ألكسندر « المحرر » كبحت نوايا الإصلاح . ودلَّ حكم ألكسندر الثالث على عودة إلى رد الفعل : رقابة وثيقة على الصحافة والمؤلفات المطبوعة ، قريبة من الزمستفا ، وإبعاد أبناء سائقي العجلات ، والخدم ، والطباخات والناس الذين من النوع نفسه ، عن الجامعة ، خشية أن يُصنع منهم ثائرون لا يمكن تمثلهم ، وجاسوسية في التعلم العالي ، إن كل هذا أدى إلى تعزيز الدولة ولكن أيضاً إلى الاستياء . وعند وفاة القيصر قبل أوانها ، كان خلفه نيقولا الطيب حتى الضعف ، والقابل للتأثير عليه ، قد حاول امتصاص المعارضات بفوز خارجي لامع . وكانت حرب ماندشوريا التي انتهت بالخزي الروسي أمام اليابان في ١٩٠٥ . وعندئذ حكم على السلطة المطلقة بالشجب . وبعد الثورات الدامية ، قرر القيصر منح نظام دستوري صنعت منه روسيا التجربة الغريبة بين ١٩٠٥ وثورة ١٩١٧ .

إن حرية الأشخاص ، والكلام والاجتماع والتجمع لإنشاء الرابطات وإحداث مجلس تشريعي منتخب بالتصويت حسب الكُوَر : وهو مجلس « دوما » الإمبراطورية ؛ وبعد هذه الإجراءات وجدت روسيا في نفس الدرجة التي كانت عليها فرنسا في ١٧٩٠ أي أنها مجبرة على تعلم القيام بتجربة الملكية الدستورية ، وإلا فتتعرض لخطر توسع العملية الثورية . ولكن ما أن حصل هذا الامتياز إلا وفزعت الأوساط المحافظة وأبلغت مخاوفها إلى العاهل ، مع أن الأحرار الفخورين بالنجاح الأول ، كانوا يطالبون بالتصويت العام . والدومات المتعاقبة كانت محكومة إذن إما بالحل إذا طلب

أعضاؤها توسيع الإصلاحات الديموقراطية (كانت هذه الحالة في ١٩٠٦ و ١٩٠٧) وإما إلى موافقة بسيطة على الإجراءات الحكومية . وكان هذا دور الدوما الذي أطلق عليه : « دوما الأمراء » الذي صادق بين ١٩٠٧ و ١٩١٢ دون عناء على الإجراءات التي اتخذها ستوليبين القوي . « تهدئة وإصلاح » ، هكذا كان هدف هذا المثل للبوروقراطية (الديوانية) المستنيرة . لقد عرف كيف ينمي بخاصة الملكية الفردية للأرض ؛ وبين ١٩٠٦ و ١٩١٢ كسب الفلاحون على هذا النحو ما يقارب تسعة (٩ ملايين هكتار) ، وفي الوقت نفسه ازداد الازدهار : الصناعي بفضل الحقن المستمر لرؤوس الأموال الأجنبية ـ ولكن أيضاً الزراعي : فقد ازداد استهلاك الزبدة والسكر بالنسبة للمواطن الواحد بنسبة ٣٠٪ بين ١٩٠٦ و ١٩١١ وكان هذا عظيماً بالنسبة لروسيا في الغالب .

وبالرغم من مقتل ستوليبين في ١٩١١ فإن سياسته توبعت حتى الحرب . ومع ذلك فإن المعارضة ، أمام تحسينات النظام ، لم تلق السلاح ، بل بالعكس . وفي الوقت ذاته أقام مذهب الإشراق (مذهب أوهام المدعين بالوحي ، أهل الكشف) في البلاط ، تحت تأثير الراهب الغامض راسبوتين ؛ والطبقات الموجهة كانت تشك أكثر فأكثر بشرعيتها الخاصة : ففي ١٩١٤ ، لم تكن إمبراطورية القياصرة لا أوتوقراطية ولا ديموقراطية ، وتضم مساوئ النظامين ، فتارة كان باستطاعة الثوريين أن يتآمروا صراحة ، ويعقدوا اجتماعات ، وينشروا صحفاً ؛ وتارةً يتعرضون للخطر ويقع عليهم قمع غاشم ، مثل الإعدام بالرصاص الذي جرى في ١٩١٢ لمضربي منطقة اللينا . وعليه فهذه روسيا السيئة التأمين والطمأنينة التي أرادت ، في آب ١٩١٤ أن تدافع عن صربيا باسم الإخاء السلاقي : وقد وضعت الحرب الإمبراطورية في ظروف ضعف داخلي ومنه كان بوسع التحليل اللينيني أن يستخلص النتائج (التاكتيكية) لصالح الثورة الاشتراكية .

الفصل الثالث
من أوربة البسماركية
إلى الحرب العالمية الأولى

لقد كان الإعلان الرسمي للإمبراطورية الألمانية ، في ١٨ كانون الثاني ١٨٧١ ، في قاعة المرايا ، في قصر ڤرساي ، يعبر للتصوير الشعبي عن رمز لنظام جديد : فعوضاً عن التفوق الفرنسي الذي أراد أن يبعث ، في عهد الإمبراطورية الثانية ، بدبلوماسية متعبة ، النتائج الشاقة للجيوش النابوليونية ، حلت محله هيمنة ألمانية بخوذة منتهية في أعلاها برأس معدني حاد يبرهن على أن الحديد والنار يحافظان على دورهما ، في عصر الرأسمالية الذهبي .

كان بسمارك راضياً . وهذا منه تعقل وحكمة : فقد عرفت إنكلترا الخصم من قبل ، وروسيا لا تحب الجيران لابسي الجزم . حتى إن ذلك كان عن قناعة شخصية : إذ كان على أوربة أن تستقر وتدخل في عصر توازن .

وكانت فرنسا منهكة من جرح الكبرياء الذي كان بالنسبة للمستقبل فألاً مشؤوماً . ولكنها ذلت وحط من قدرها ، واضطراباتها الداخلية كانت مؤشراً صالحاً للسلام ، على ما يبدو . ومع ذلك ظلت ترتجف خمسة أعوام .

١ ـ أوربة بسمارك

فرنسا منعزلة :

« لا أريد جمهورية تخيف » : هذا هو القول الذي يفضله جول غريفي . وذلك في الواقع ، في التوازن الأوربي على الأقل ، لأن فرنسا الجمهورية لم يكن لها وجه مُؤَمِّن ومطمئن . وأراد بسمارك أن يلعب به . إن فرنسا التي ساعدها على قهر الكومون وضعت في موقف المتهمة . وإن تضحية الألزاس واللورين التي صادقت عليها الجمعية (المجلس) لا تبعد مشاريع الأخذ بالثأر . أما بالنسبة للجمهورية في الداخل فكان القصد أن تسترد من الملكيين صوفية النظام ، وفي الخارج صوفية سلام لا يمكن أن يوصف بالجبن . توازن صعب : إن المجلس الذي صادق على معاهدة فرنكفورت ، أراد مع ذلك أن يهتم بالدفاع الوطني ، ولكن دون أن ينفر ألمانيا . وأصر تيير : ففي ١٨٧٢ أقرّ القانون العسكري خدمة خمسة أعوام . وتيير الذي كانت تحركه زمناً طويلاً العواطف الحربية حيال بروسيا التي كشف عن أطماعها في ١٨٦٦ ، حين واقعة سادوفا ، كان يشعر بأنه يجب تجنب حرب جديدة ، مهما كلف الأمر ، مع عدو أبدى كثيراً من القوة ، ولكنه ظل على حذره . ووجوده على رأس الجمهورية كان ضماناً ، بالنسبة لبسمارك ، بأن فرنسا قبلت باحترام بنود فرنكفورت . وإذن لم يتردد المستشار في تعزيز وضع الرئيس المهدد من قبل الأغلبية الملكية في ١٨٧٣ : أعطاه النجاح الدبلوماسي في الاتفاق الفرنسي الألماني في ١٥ آذار ١٨٧٣ ، الذي ينص مسبقاً على دفع غرامة والجلاء . وتيير « استحق اعتراف الوطن » ؛ ومع ذلك حل محله ماك ـ ماهون في شهر أيار . على أن وصول الملكيين إلى السلطة كان تهديداً للتوازن الأوربي كما كان يريد بسمارك : الملكية أفضل بكثير من الجمهورية إذ تستطيع عقد أحلاف مع البلاطات الأوربية . وعندئذ ضم بسمارك التهديد والعزل الدبلوماسي لفرنسا إلى لعبة الأحلاف الدقيقة .

كانت ١٨٧٢ سنة « **الكفاح لأجل الحضارة** » ، لأن النزاع الداخلي ضد الكاثوليك الألمان تضاعف بمعارضة لعمل الكاثوليكية على الصعيد الدولي . وكان بسمارك يخشى من أن القضية الرومية (من روما) تضم حول البابوية الأمتين الكبريين الكاثوليكيتين ؛ النمسا وفرنسا ، بتحريض حرب ضد إيطاليا . وحماسة المحافظين الفرنسيين كانت صدى للمناشير الدعائية للأساقفة الألمان ، وأتاحت للمستشار الفرصة التي يبحث عنها لتهديد حازم جداً . وكان التحذير شديداً بالنسبة للملكيين : فقد عزا إليهم الروح الحربية التي كانت منذ ١٧٩٢ وقفاً على اليسار في فرنسا . وأصبح الحزب الملكي حزب الحرب ، رهناً ثقيلاً لقاعدته الانتخابية في فرنسا المنهكة . وابعد الحذر . ولكن بسمارك شعر بالصعوبة التي كانت عليه للمرور من الكلام إلى الأعمال . ولم تنظر لا فرنسا ولا إنكلترا نظرة طيبة لتدخل ألماني جديد في فرنسا حتى ولو لتأمين سلام معرض للخطر بالاضطراب الفرنسي . وفي موقف الأسد ، عانت ألمانيا من قبول الفكرة بأنه من الممكن حصول خطر من هذه الذبابة الجمهورية التي اصبحت فرنسا .

وقانون الملاكات (كوادر) الجيش ، الذي صوت عليه في آذار ١٨٧٥ يمكن اعتباره مؤشراً لإرادة حربية من جانب فرنسا . فرد بسمارك عليه هذه المرة بصورة غير مباشرة . وكانت عناوين الصحافة الألمانية تدل على قلق مصطنع : « الحرب هل هي على مرأى من الناس ؟ » فإذا كانت كذلك فإن الدبلوماسية الألمانية كانت تحاول أن تفهم البلاطات الأوربية أن من الأفضل كسرها وهي في البيضة بأقل كلفة . ولسوء الحظ لم تكن إنكلترا وروسيا من هذا الرأي . فقد كتبت الملكة فيكتوريا إلى غليوم ، وأعطى القيصر إلى فرنسا ، بواسطة سفيره ، كل التهدئات عن « مناورة » بسيطة من ألمانيا .

وهذا التدخل خلال مرتين من إنكلترا ومن روسيا أشعر بسمارك بأن تهديداته تؤدي إلى التجمع حول فرنسا لكل الدول التي تقلقها القوة الألمانية : وهذا ما كان يريد اجتنابه . ولذلك عوضاً عن المساومة بالحرب ، أحل عندئذ دبلوماسية الأحلاف .

وظل عزل فرنسا الفكرة الأساسية للسياسة البسماركية ، ولكن ألمانيا كان لها القليل من الخيار لعقد أحلاف فعلية تكون أهلاً لها . رفضت إنكلترا : لأنها كانت تسهر على التوازن الأوربي بعزلة فظيعة . وإيطاليا ، فريسة الاضطرابات الداخلية ، ما كانت لتشعر بعطف حيال المستشار ، رجل النظام : حتى ولو جاءت وتحالفت مع فرنسا ، وهذا قليل الاحتمال على ما يبدو ، فلم تكن خطرة . والإمبراطوريتان ، النمسا - هونغاريا وروسيا ، كانتا الحليفتين الوحيدتين الممكنتين . وكلتاهما كانتا بالنسبة لفرنسا رفيقتين دبلوماسيتين محتملتين . فالنمسا - هونغاريا كانت تشعر بالخزي الذي فرضته عليها ألمانيا في سادوفا . وكانت روسيا تقلق ، منذ فرنكفورت ، من نمو القوة الألمانية ، لا سيا وأن الواحدة كانت منافسة للأخرى في البلقان حيث كان « **الزحف نحو الشرق** » النمساوي يقاوم الجامعة السلافية .. وهذا التنافس يمكن أن يدفعهما للبحث عن مساندة فرنسا . والدعم الألماني بالنسبة لكل منهما سيكون ولا شك حظاً عظيماً . وإذن كان يجب على المستشار أن يتصالح مع هاتين الدولتين المتنافستين ، ثم يضمهما معاً في تحالف يبعد عن البلقان : وهكذا حصلت ألمانيا على تأمين بالمساعدة في حالة حرب مع فرنسا ، وستكون بذلك حكماً أيضاً لأوربة الوسطى .

وفي أيلول ١٨٧٢ ، هيأ بسمارك ، بمناسبة مناورات كبرى ، لقاءً في برلين بين الأباطرة الثلاثة . ولم يكن هذا اللقاء غير مقدمة لتقارب الإمبراطوريات الثلاث ، والحوادث المعارضة في فرنسا دفعت بسمارك للإسراع في إبرام معاهدات حلف عسكري . ونص اتفاق سن - بطرسبورغ على عون مشترك جرماني - روسي في حال هجوم من دولة أوربية . والنمسا - وهونغاريا لم تكن إذن مبعدة عن اللعبة الأوتوماتكية في العون العسكري . ولكن اتفاق شونبرن المبرم بين الروس والنمساويين أتى بمعادل لجر ممكن لألمانيا في حالة نزاع نمساوي - روسي . وينص على اتفاق « مباشر وشخصي » بين العاهلين ، مستقل عن التغيرات التي يمكن أن تعمل في إدارتها . لقد كان المقصود ببساطة تهيئة عمل سياسة حليفة .

وفي تشرين الأول ١٨٧٣ أيدت هذه السياسة بتفاهم (وفاق) الأباطرة الثلاثة : اشتركت ألمانيا في الاتفاق النمساوي ـ الروسي واحتفظت لنفسها بإمكان لعب دور الحكم الأساسي . وحصل عزل فرنسا . وازداد بدخول إيطاليا في فلك الوفاق ، دون اتفاق واضح ، وإنما بجذب . وهكذا أرجعت دبلوماسية من أسلوب « نظام قديم » جداً ، لأن كل دولة ما كانت لتتابع إلا أهدافاً قومية واضحة . وبالنسبة لوفاق الأباطرة الثلاثة ، ظهر الحلف المقدس إيديولوجياً وسياسياً كذكرى بعيدة بشكل فائق ، أو ، إذا فكر بالخلافات الحديثة ، كسابقة . أما الآن فإن سياسة الوزارة لهذه العاصمة الكبرى أو تلك قد أصبحت من جديد واقعاً قوياً كما في زمن لويس الرابع عشر .

السياسة على المحك :

السياسة البسماركية تعتمد على موضوعة أساسية وهي : عدم تدخل النمسا ـ هونغاريا ، كروسيا ، في البلقان ، أي التخلي عن مشهد هام للروح القومية العائدة لكل منهما . ولكن في تموز ١٨٧٥ انفجرت ثورة في البوسنة ـ هرسك ضد الإدارة العثمانية الفظة : فقد شوهد هز الراية القومية لارتباط بوسني في الدولتين المستقلتين : صربيا والجبل الأسود . ثم التحقت بلغاريا في ١٨٧٦ بالحركة . وكانت مقراً لاكسرخوسية واستقلت كنيستها الأرثوذكسية في ١٨٧٠ عن الكنيسة اليونانية ، وأرادت أيضاً التحرير السياسي . وعندئذ وجد زعماء الدبلوماسيات الأوربية أنفسهم أمام صعوبة لقيها نابوليون الثالث وهي كيف يمكن دمج القوميات الجديدة في « توازن » غير مستقر في هذه الآونة ؟

أمام القضايا البلقانية ، أريد أن تكون السياسة الأوربية أولاً دولية : وتقبل السلطان عبد العزيز خطة مهيأة تماماً تتوقع نظاماً لمسيحي الإمبراطورية العثمانية ، وقبل فيها المبدأ ؛ ولكن بعد ذلك قامت الفتنة في القسطنطينية ، وسالونيك حيث قتل الجمهور المسلم قنصل فرنسا وقنصل ألمانيا ، واجتمع وزراء الأباطرة الثلاثة للاتفاق

على وقف إطلاق النار في بلغاريا وعلى الغرامات . وإذن لعب التحالف . ولكن بريطانيا العظمى رفضت رفضاً باتاً هذا التدخل من دول أوربا الوسطى في البحر المتوسط الشرقي .

وهناك حادثان قادا حتماً إلى الحرب : « ثورة تركيا الفتاة » في القسطنطينية التي وضعت على رأس الإمبراطورية عبد الحميد الثاني سلطاناً سيداً للدبلوماسية ؛ مؤكداً أولاً باستعلاء فكره الإصلاحي ، وبرهن بسرعة على دوام الاستبداد التركي . وأمام إخفاق الخطة ، دخلت الصربيا والجبل الأسود في الحرب ضد تركيا في تموز ١٨٧٦ .

وكانت الدول الثلاث : روسيا ، النمسا ـ هونغاريا وبخاصة إنكلترا ، تراقب هذه الحرب باهتمام : إلا أن إنكلترا ، بعد نشر رسالة مدوية لغلادستون عن « فظائع بلغاريا » ، رأت حركة رأي تكافح بعاطفة ضرورة سياسية : وهي ضرورة سلامة الإمبراطورية العثمانية .

ولما كانت روسيا والنمسا وفيتين لاتفاق شونبرن فقد وحدا سياستهما : والهزائم الدامية الصربية أدت لقبول تدخل عسكري روسي (نيسان ١٨٧٧) فرض ، بعد عدة أشهر من الحرب الشاقة ، على الأتراك بمعاهدة سان ستيفانو (آذار ١٨٧٨) تنظيماً راديكالياً للبلقان ، يتميز بإحداث بلغاريا الكبرى بواجهة على بحر إيجة . وهذه المعاهدة كانت صكاً ثنائياً . وهذا السلام يخالف مبادئ الحلف ، إذ لم تستشر فيه ألمانيا . وكسبت روسيا بسّاربيا التي فقدتها في ١٨٥٦ ، ولكنها ضمت جزءاً من أرمينيا التركية ، ومنحت نفسها حماية مباشرة أو معنوية على مجموع مسيحيي البلقان . ورفعت النمسا وإنكلترا الصوت والنغم : إحداهما رأت أنها تضررت ، والأخرى هددت على طريق الهند . وارتسم تألب (ائتلاف) نمساوي ـ إنكليزي ، وأخذت إنكلترا قبرص بعد مفاوضة ماهرة بين دزرائيلي والسلطان : وبذا أخذت ضماناً في البحر المتوسط الشرقي .

عندئذ تدخل بسمارك ، واجتمع جميع رؤساء وزارات الدول ووزراء الخارجية في

برلين . واختيار هذه المدينة مقراً للمؤتمر يطبع رمزياً تفوق ألمانيا ، بمناسبة قضية تمسها مبدئياً من بعيد .

انتهى المؤتمر في تموز ١٨٧٨ وأعطى تهدئات للنمسا ـ هونغاريا ولبريطانيا ـ العظمى ، قسم بلغاريا لإرضاء بريطانيا ، وحجم غو صربيا الأرضي والجبل الأسود لتهدئة النمسا التي أخذت في الغالب حق احتلال وإدارة البوسنة ـ هرسك : وبقي طريق سالونيك مفتوحاً لإمبريالية فينّا . وخرجت روسيا من مؤتمر برلين مفعمة مرارة . وكان شعور القيصر أنه حضر « تألب أوربة ضد روسيا » .

والحرب الروسية التركية ونتائجها طبعت ، بالرغم من كل شيء ، تهديداً للسياسة البسماركية ؛ من جهة لأن الخلاف النمساوي ـ الروسي في البلقان بدا من الآن غير ممكن اجتنابه ؛ ومن جهة أخرى ، لأن وفاق الأباطرة الثلاثة لم يبد مطلقاً كضمان كاف أمام عدوان محتمل من فرنسا .

إعادة نظر غير نافذة :

« قال بسمارك قبل سقوطه بقليل : إن دبلوماسيتي تقتضي أن ألعب بخمس كرات ، اثنتان منها في الهواء دوماً » . ولكن مهارة المشعوذ اصطدمت بصعوبات جديدة بلقانية .

وبعد مؤتمر برلين ، وجه المستشار نحو النمسا ـ هونغاريا آماله بحلف عسكري . ولكن البلدين كانت أهدافها متعارضة : ففي نظر أندراسي الوزير النمساوي الحلف العسكري مع ألمانيا سيكون أمناً ، في حالة حرب مع روسيا . وبالنسبة لبسمارك ، كان المقصود بصورة أساسية حلفاً ضد فرنسا . وفي هذه الحال تنازل بسمارك :ولم يكن أندراسي مستعداً إلا لحلف هجومي ضد روسيا ، ولم يقبل إلا بحيادٍ ملائم فيما يتعلق بكل دولة أخرى . ووقعت المعاهدة في تشرين الأول ١٨٧٩ بعد معارضة شديدة بين بسمارك

وغليوم الأول . ولكن هذا الحلف الذي دام حتى الهزيمة في ١٩١٨ يخاطر بجذب روسيا من قبل فرنسا . عندئذ استغل بسمارك تحفظات القيصر حيال النظام الجمهوري ، والمعادي للإكليروس ، ملجأ الدمويين العدميين ... وتوصل إلى تجديد تحالف الأباطرة الثلاثة مع الحفاظ سراً على المعاهدة النمساوية ـ الألمانية . وأصبح عندئذ وفاق الأباطرة على هذا النحو وفاق مخدوعين : كان بسمارك يريد عزل روسيا عن فرنسا ؛ والقيصر يريد حياد الإمبراطورين في حالة حرب مع بريطانيا العظمى ؛ ورأت فيه النمسا ثمن المساندة التي وعد بها **الدوبليس** (الحلف الثنائي) : ثمن دفع لمخاوف بسمارك من ثأر فرنسي .

وجاءت إيطاليا لتلحق بهذا الترتيب . وكانت سنة ١٨٨١ بالنسبة لها سنة مرة بسبب فرض الحماية الفرنسية على تونس . وهاجت موجة عداء لفرنسا يرجع أصلها البعيد إلى القضايا الرومانية (من روما) ، وانهالت على إيطاليا دافعة إلى تقارب مع النمسا . وهذا التقارب لم يكن في ذوق الحكومة التي كانت تبحث فقط عن مساندة ألمانية في القضايا الاستعمارية . ولكن بسمارك كان واضحاً : إن محور روما ـ برلين يجب أن يمر بفيينّا . ووقعت معاهدة في ٢٠ أيار ١٨٨٢ حولت الحلف الثنائي إلى حلف ثلاثي : وبموجبه تعد ألمانيا بمساندتها إلى إيطاليا ضد فرنسا في حال حرب دفاعية ؛ وإيطاليا تفعل كذلك مع ألمانيا بالمقابل . وهكذا كانت حليفة إضافية .

إن فكراً لامعاً كفكر بسمارك لا يمكن أن يكتفي بهذه المكايد الدفاعية . وحاول في الحقيقة أيضاً مصالحة مع فرنسا محاولاً وساطة شخصية جول فيري المستعمر . حتى إنه وجد من قبل فرنسا تخلٍ حر عن الألزاس ـ لورين ، مقابل مساندة ألمانيا للتوسع الاستعماري الفرنسي . وأسمع بسمارك أن فرنسا يمكنها البحث عن إرضاءات في كل الاتجاهات « باستثناء الاتجاه صوب الراين » . حتى إنه اقترح حلفاً رسمياً واضحاً على هذا الأساس . وكان المشروع دون صدى . ومنه كشفت البولانجية عن الصفة الطوبائية بإفراط من الدقة .

وهكذا فقد تصلبت السياسة البسماركية بعناء ، وكان عليها أثناء أزمة ١٨٨٦ـ١٨٨٧ أن تبرهن على عدم نفادها .

إن تقسيم بلغاريا لم يعق النفوذ الروسي . وأذاعه الضباط والموظفون في الجيش والإدارة والمدارس . وقوي الروس بنشر ثقافتهم ، وعملوا على انتخاب الأمير الكسندر باتّمبرغ ، وهو ألماني وينظر إليه أنه محب لروسيا . وفي الواقع ، استغل بسرعة القومية البلغارية التي تهدف إلى حذف روسيا . وشهد عام ١٨٨٥ تباعاً ثورة في الروملي الشرقية ، وهجوم بلغاريا ، المستعدة لضم الروملي ، بواسطة صربية ، وهزيمة صربية نكراء توصل التدخل النمساوي وحده إلى تحديدها . وأخذ الكسندر باتمبرغ صورة بطل قومي . إلا أن الروس خلعوه واستعاضوا عنه بحكومة موالية لهم ، قلبها البلغاريون ودعوا أميرهم . وبعد الكثير من التقلبات انتهى الكسندر بالتنازل عن العرش . ولكن بالرغم من الضغط الروسي كان خلفه المنتخب فرديناند دوساكس ـ كوبورغ الضابط في الجيش الهونغاري المدعوم من النمسا (١٨٨٧) . وهكذا انتقلت بلغاريا إلى منطقة نفوذ فينّا . وتدمر وفاق الأباطرة الثلاثة .

وكان ذلك في الوقت الذي أوشكت فيه فرنسا أن تعيش ساعة البولانجية ، ونفحة الحماس للأخذ بالثأر .

في ١٨٨٥ قُلب جول فيري إثر حادث لانغ سون الذي ضخم بتصور الوطن الأم (المتروپول) لنسب كارثة . فقد بلورت سياسة « التونكينوي » الاستعمارية معارضة قومية من اليمين كما من أقصى اليسار الراديكالي . وخسارة الألزاس ـ لورين بدأت ترجع كموضوع واخز : « لقد فقدت طفلين ، وتقدمون لي عشرين خادما » ، هذه الجملة قالها ديروليد وأثرت .

إن حضور الجنرال بولانجيه في وزارة الحربية في ١٨٨٦ أذكى بسرعة الآمال القومية : إلا أن فرنسا كانت قلقة ؛ كانت تريد أن تشعر بأنها محمية . وفي نيسان

١٨٨٧ ، أثارت قضية شنوبيليه هياجاً عظيماً . إلا أن اعتدال جول غريفي كسر الشدة الحربية عموماً ، ولكن بولانجيه أصبح « جنرال الثأر » . وأبعد عن باريس وأصبح مرشحاً يعتمد على موجة شعبية تعطيه السلطة في الشرعية . ولكن هذه الشرعية التي يجبها لم تراعه ، وأراح بعد ذلك بانتحار إبداعي (رومانتيكي) كل الذين أقلقهم هذا الشكل الذي لا وجه له .

وفي أزمة بلغارية ، نشأة فكرة ثأر في فرنسا : حاول بسمارك أن يعمل بمهارة تقرب من شخصية الشعوذة .

أولاً جدد الحلف الثلاثي المبرم ١٨٨٢ لمهلة خمسة أعوام . ولكن ، كان عليه للحصول على هذا التجديد ، أن يقبل بعض المطالب التي قدمتها إيطاليا ، مستفيدة من الفرصة . والقصد من ذلك البلقان ، حيث كانت ترى ، هي أيضاً ، أرض توسع ، بألبانيا .

وإذن تأتي المعاهدة الجديدة بالحفاظ على « الوضع الراهن » في هذه المنطقة المطموع بها ، ولكن في حالة نمو نمساوي جديد ، يكون لإيطاليا الحق بتعويضات أرضية . ومن جهة أخرى ، تعهدت ألمانيا بمساعدة إيطاليا ، إذا رأت هذه الأخيرة نفسها مضطرة لإعلان الحرب على فرنسا الطموحة جداً جداً في إفريقيا الشمالية .

وهكذا فإن الحلف الثلاثي ، الذي كان حلفاً دفاعياً أصبح بهذا الواقع حلفاً هجومياً بمطالبة إيطاليا .

بقيت إنكلترا الأمة الكبرى المنعزلة ، ورهناً ثقيلاً على هدف بسمارك الأساسي وهو : منع فرنسا من عقد حلف مع أمة أوربية . وحصلت أزمة بين فرنسا وإنكلترا بمناسبة السودان المصري وبدت تقدم لألمانيا فرصة مناسبة ومتاحة . وأفادت إيطاليا كسمسار : اقترحت تحالفاً إيطالياً ـ إنكليزياً ، على مبدأ الحفاظ على « الوضع الراهن » في البحر المتوسط مقابل هجوم فرنسا التي بدا توسعها الاستعماري يثمل . ولكن

البريطاني الأول ، لورد سالسبوري لم يشأ أن يحتوي هذا الحلف « أسباباً للحرب » واضحة . وحصل تبادل رسائل بسيط وعبر عن إرادة مشتركة في الحفاظ على « الوضع الراهن » في البحر المتوسط دون أي تعهد بدافع ذاتي(تشرين الثاني ـ كانون الأول ١٨٨٧) . إلا أنه على الأقل ، في حالة خلاف مع فرنسا ، فإن إيطاليا تكسب دعم الأسطول البريطاني الذي يؤمن لها حماية على شواطئها . وأتى بسمارك لهذا الاتفاق بالموافقة الألمانية . ومن ثم اشتركت النمسا ـ هونغاريا ثم إسبانيا كل بدورها .

إلا أن روسيا وحدها بقيت منذ إخفاق وفاق الأباطرة الثلاثة ، خارجة عن السياسة البسماركية ، والتحالف الفرنسي ـ الروسي ظل لبسمارك وسواساً . وبدأت مفاوضات صعبة بينه وبين شوفالوف ، سفير روسيا في برلين . وأخيراً أدت إلى معاهدة ، وبموجبها بلغ تعقيد السياسة البسماركية الذروة . وكانت هذه المعاهدة سرية : وفيها تعد ألمانيا روسيا بحيادها في الحالة التي تهاجمها النمسا ـ هونغاريا ، والاتفاق الثنائي لم تتم خيانته حرفياً وإنما في روحه . وغالباً ، ترك للروس هامش عمل جاد في البلقان . وروسيا ، بدورها ، وعدت ألمانيا بالحياد في الحالة التي تهاجمها فرنسا : وهذه النقطة كانت رئيسية بالنسبة لبسمارك . وللحصول عليها قبل بند سعر (ثمن) لروسيا وهو : يحق لهذه الدولة أن تغلق المضائق في وجه السفن الإنكليزية ، في الحالة التي يدعو فيها الأتراك بريطانيا العظمى لنجدتهم ، والوعد بدعم ، إذا كانت روسيا ترغب ذات يوم أن توطد سيطرتها على المضائق . وهذا البند ، المخالف لاتفاقات البحر المتوسط يقتضي السر الدبلوماسي . والسر الضروري ، الخداع الدبلوماسي ،اللذان أثارا عداء غليوم الثاني للسياسة الخارجية للمستشار الحديدي .

١٨٩٠ كان المنعطف : لأن هذه المعاهدة المضادة ـ للتأمين ، المبرمة مع روسيا ، في ١٨٨٧ لثلاثة أعوام وصلت لنهايتها ، وشعر بعداء ملحوظ لتجديدها في محيط غليوم الثاني الذي بدأ نفوذ بسمارك المتصلب بحكم السن في أفكاره ، يثقل عليه بشكل فريد .

ووصلت استقـالـة المستشـار في ١٨٩٠ ، بسبب الإفراط في الاستقـلال بمـا يقرب من الاعتداء على الجلالة .

وطبعت هذه الاستقالة منعطفاً في العلاقات الخارجية للأمم الأوربية . فقد تخلت ألمانيا عن معاهدة التـأمين المضـاد مع روسيـا وبصورة طبيعيـة أصبحت روسيـا حليفـة لفرنسا ؛ إلا أن قضايا العلاقة ظلت تطلب حلاً : بقية حياة في غير موضعها وزمانها في الغاب الأوربي عفى عليها الدهر .

٢ ـ الأحلاف الفرنسية الكبرى

الحلف الفرنسي ـ الروسي :

خلال عشرين عـامـاً أكبت حـذاقـة بسمارك على تنظيم سيـاسـة تشمـل ، بروابـط شديدة كثيراً أو قليلاً ، مجموع أو سائر الدول الأوربية ، ماعدا فرنسا . وسيطرت ألمانيا على أوربة دبلوماسياً ، ركيزة أساسية ترتبت حولها ولصالحهـا سيـاسـة بكاملهـا ، إلا أن التحالف الفرنسي ـ الروسي قلب هذا المبدأ .

لقد سار بخطوات معـدودات . وعلى هـذا كانت المـانيـا تراهن منـذ ١٨٩٠ . وكان عداء القيصر الكسندر الثالث للنظام البرلماني الفرنسي شهيراً ، ويثير في بلاط برلين عدة أمثال . وفي الحقيقة إن روسيـا كانت تقترض من فرنسـا منـذ ١٨٨٨ ، إثر رفض صريح ألماني ، من رؤية التوفير يوظف في السكك الحديديـة الروسيـة . ولكن المـال ليس لـه رائحة ، ومنذ إخفاق البولانجية كان القيصر يفجر ازدراءه لفرنسا الجمهورية .

وروسيا ، التي وجـدت في بـاريس مكانـاً من الطراز الأول لقروضهـا ، فكرت في ١٨٩٠ ، أمام هجر ألمانيا الدبلوماسي ، بأن عملية مسرحية من الوفـاق الطيب مع فرنسـا سيكون بالنسبة لها ، من جميع الوجوه ، نتائج طيبة وملائمـة : وذلـك يكون بـالحفـاظ على المكان المـالي ، والبرهنـة بشكل مفتـوح على بعض من النضـارة حيـال برلين ؛ فقـد

دعي الأسطول الفرنسي إلى كرونشتادت ، في كانون الثاني ١٨٩١ . وكان ذلك حركة بسيطة في فكر القيصر الذي كان يبحث بخاصة عن تجديد معاهدة التأمين ـ المضاد . ولكن سياسة ألمانيا التي كان يوجهها البارون هولشتاين الذي كان يؤثر بقوة على غليوم الثاني ، ظلت حازمة : رفضت ؛ حتى أن الحلف الثلاثي جدد مسبقاً في ١٨٩١ لئلا تنزلق إيطاليا التي هي مؤقتاً خارج يدي كريسبي ، الذي يكره فرنسا كراهة تحريبية ، نحو وفاق مع فرنسا ، وبخاصة في موضوع الاستعمار . كان التجديد هاماً وأخذ بالنسبة لروسيا شكل إثارة وتحريض . والأكثر إقلاقاً كانت موافقة بريطانيا العظمى ؛ وهكذا وجدت روسيا منعزلة كما كانت فرنسا منذ ١٨٧٠ .

إن زيارة الأسطول الفرنسي لكرونشتادت جرت في مناخ يختلف عن الروح التي كانت تسود الدعوة : حيا القيصر مصغياً لنشيد المارسييز . وفي ٢٧ آب ١٨٩١ أبرم اتفاق بين فرنسا وروسيا . وهو لا يتوقع إلا سياسة تحالف وبخاصة في الحال التي يشعر فيها أحد البلدين أنه مهدد . وأصر القيصر على أن يظل الاتفاق سرياً . ولكن فرنسا شعرت بإمكان ثورة دبلوماسية : اقترحت اتفاقاً عسكرياً يتمم الاتفاق السياسي . تردد الكسندر الثالث وهو الذي يشعر بأنه قريب جداً من ألمانيا لاعتبارات كثيرة . وانتهى بأن يكون له مع غليوم الثاني لقاء في كيل : ثم عاد منها بقناعة بأن ألمانيا لن تبدل سياستها . ولهذا فقد ارتسم الاتفاق العسكري مع فرنسا بصورته الأولى ، وكان يستخدم لحلف حقيقي ويتوقع عدداً من **أسباب الحرب** : فإذا هوجمت فرنسا من قبل ألمانيا أو إيطاليا تساعدها ألمانيا ، فإن روسيا تأتي لنجدتها بتجنيد ٨٠٠٠٠٠ رجل ؛ وفرنسا تدعم ، بمليون وثلاثمئة ألف رجل ، روسيا إذا هاجمتها ألمانيا أو النمسا ـ هونغاريا تساعدها ألمانيا . وفي كل تجنيد ، ولو كان جزئياً ، من أحد أعضاء الحلف الثلاثي ، تجيب فرنسا وروسيا بالتجنيد العام . وهذا هو رد كامل على الحلف الثلاثي : وله نفس الديمومة ، ويظل سرياً . إلا أن هنالك نقطة أبعدها القيصر وهي : أن الاتفاق بإمكانه أن يلعب لمساعدة فرنسا على استرداد الألزاس واللورين .

وهذا التحالف الواضح كاد يخفق أمام مقاومات وترددات نهائية . ووضعت الصفة السرية للاتفاقات للحكومة الفرنسية قضايا دستورية . لأن تجنيداً عاماً ، كما توقع ، يمكن أن يتدخل لأقل حادث في البلقان . ومن أجل روسيا ، وجد أن فضيحة باناما ، التي انفجرت في آخر ١٨٩٢ ، أعادت إلى الحياة العداء للجمهورية الذي دخل من جديد . وألمانيا كانت قطعاً أقل حذاقة تحت سلوك قيصرها مما كانت في زمن بسمارك ، الذي دفع روسيا بأن تمضي حتى النهاية ، بتصلب سياستها الخارجية وبحمايتها الجمركية الداخلية . والتصديق على المعاهدات قبل في كانون الأول ١٨٩٣ . وبعد أربع سنوات على اعتزال بسمارك ، أنجزت السياسة الأوربية الثورة التي كانت تخشى منذ ١٨٧٠ .

والمسألة الشرقية ، طوال هذا النصف القرن ، ظلت حجر تماس لصلابة الأحلاف كما في حال انقلابها . فقد سويت في خطوطها الكبرى في مؤتمر برلين بعد الحرب الروسية ـ التركية واستيقظت منذ ١٨٩٤ . وكانت الإدارة التركية السيئة كافية ، لشرح سعة الحركات القومية : في أرمينيا وكريت ، وماكيدونيا ، انفجرت ثورات . وحذر الحلفاء ، ولا سيا فرنسا ، الذين رفضوا بأن يتركوا أنفسهم يجرون إلى حروب لم تكن فيها مصالحهم الخاصة موضع رهان ، دلّ على ضعف السياسات . ولكن الفظاعات التركية حركت الرأي وبخاصة الرأي الإنكليزي : فقد ذهب البريطاني الأول لورد سالسبوري حتى اقتراح تقسيم للإمبراطورية العثمانية بين الدول ذات العلاقة بمسألة البحر المتوسط ، مع تعويضات استعمارية لفرنسا وألمانيا . وفي الوقت نفسه ، دشنت ألمانيا سياسة نفوذ لدى تركيا « رجل أوربة المريض » الأزلي . والإنكليز الذين فرضوا وجهات نظرهم على جبهات أخرى ـ ضد فرنسا في السودان ، ضد البور في جنوبي إفريقية ـ سحبوا خطتهم . وهكذا ظل البلقان بؤرة أطماع لأوربة : ولكن ألمانيا وحدها عندها حرية كافية للعمل . وفعلت ذلك ، وبشغف . وغليوم الثاني ما كان ليطلب أفضل من مزج السياسة بذوقه بالتظاهرة الشخصية . فقد قام ، في ١٨٩٨ ، برحلة إلى الشرق ، وفي القدس عبرّ بقوة عن صداقة ألمانيا للمسلمين . ومع ذلك فإن بناء

« خط حديد بغداد » كان مؤشراً محسوساً لهذه السياسة وقد تقرر باعتباره طريق النفوذ الألماني في الشرق ، وسيلاقي ، ويقاطع ، ويغيظ الكثير من المصالح .

نحو الوفاق الودي :

بريطانيا العظمى ، الدولة العظمى والخارجة على الدخول في سياسة أحلاف ، والوسيطة الماهرة ، التي تلعب ببعدها عن المنفعة بأشكال معنوية لا ترفع عنها الاهتمام بمصالحها ، بريطانيا العظمى هذه بدأت تعرف في آخر القرن التاسع عشر ، صعوبات خطيرة في موضوع السياسة الخارجية : أزمة في إفريقية الجنوبية حيث انفجرت ثورة البور في ١٨٩٩ وحيث تلقى هؤلاء مساعدة غليوم الثاني المعنوية ؛ وأزمة في الشرق الأقصى حيث اصطدمت بريطانيا ـ العظمى بروسيا التي كانت تتابع توسعها الاستعماري العظيم ؛ وأزمة في السودان : القومية الفرنسية ثارت أثناء حادث فاشودا . إن تقارباً مع ألمانيا كان له منطق لصالحها ، واستحقاق النفاذ . وسيأتي للأسطول البريطاني ، القومي تماماً ، الأول في العالم ، بالرافد الذي لا غنى عنه من الجنود التي تنقصها . وهذا ما دلت عليه حرب البور بفظاعة . وجوزيف تشامبرلن بطل هذا التقارب ، توصل إلى إيضاح مشروع حياد مشترك في حالة حرب مع دولة ثالثة ، وعون في حالة حرب مع دولتين متحدتين .

ولكن البحرية الحربية الألمانية ظلت النقطة الحرجة : لأن بريطانيا ـ العظمى لا يمكن أن تقبل بنموها . وفي هذه الحال كان هذا النمو هدفاً أساسياً في نظر غليوم الثاني : وكلف تيربيتز المضي في إنجاحه . وهذا السباق بالتسلح البحري دمر مشروع تشامبرلن . وألمانيا دخلت فيه بفكرة أن الإنكليز ، على أي حال ، ولا بأي شكل ، لن يخرجوا من عزلتهم اللامعة للتقرب من فرنسا وروسيا : ودفعها ميلها رياضياً نحو الحلف الثلاثي . وكان هذا جحوداً لأعظم قواعد الدبلوماسية الإنكليزية : وهو ألا تترك أبداً نفسها تجر بسياسة ذات ميكانيكيات صلبة جداً .

والأحلاف والاتفاقات كانت تحدد مناطق نفوذ مضمرة سكت عنها حسب علاقة قوى ترجع دولة ما أمام دولة أخرى ، أو تحثها على التساهل . ولكن إفريقية ظلت نقطة خلاف هام . فقد كان لفرنسا فيها مصالح قديمة ، ولكن أسيء تحديدها . وإيطاليا تهتم بالمغرب ، وبريطانيا العظمى بمصر والسودان : عن طريق الهند وطريق الكاب . وألمانيا جاءت متأخرة في الفتح الاستعماري ، وترى أن تصنع فيها مكاناً يعوض تطلعها المتأخر . ومنذ فاشودا ، كانت المنافسة بين لندن وباريس واضحة جداً ؛ ولكن دلكاسيه الوزير الفرنسي للشؤون الخارجية كان يفكر أنه بعد أن تم التحالف الفرنسي - الروسي ، أن تتقرب فرنسا من بريطانيا العظمى لتحذف كل خلاف استعماري . ووجدت الفكرة صدى ملائماً في بعض الأوساط الفرنسية المتهيأة للاهتمام بفتح مراكش مقتنعة بأن الاتفاق أو على الأقل الحياد من بريطانيا العظمى كان لا غنى عنه . ومن جهة الرأي البريطاني الحساس بالتقدم البحري والاقتصادي لألمانيا ، يؤدي نوعاً ما إلى تقارب مع فرنسا التي ستحرر بريطانيا العظمى من مشاكل استعمارية مغيظة .

وفي آب ١٩٠٢ ، استلمت فرنسا زمام المبادهة للتقارب . وبدأت المفاوضة ، وسهلها كراهة الملك أدوار السابع الشخصية حيال غليوم الثاني . وقام الملك في أيار ١٩٠٣ بزيارة إلى باريس ظلت شهيرة : وبساطته أتت بعنصر شخصي قوي في تحويل الرأي الفرنسي .

لم يكن القصد إلا تقارباً لا تحالفاً . فقد صفيت المنازعات الاستعمارية بالمقايضة : تترك فرنسا بريطانيا العظمى حرة في السيطرة على مصر ؛ ومقابل ذلك تسمح بريطانيا العظمى بأن توطد في مراكش حماية . لقد كان اتفاق ٨ نيسان ١٩٠٤ تسوية بسيطة لمنافسات بعيدة إلا أنه على الأقل ختم دخول بريطانيا العظمى في الكتلة المعارضة للحلف الثلاثي . وأصبح منذ الآن بالإمكان الذهاب نحو توازن مؤسس على خوف مشترك ؛ ولكن العكس هو الذي حدث .

تثبيت الوفاق الثلاثي :

انطلاقاً من ١٩٠٥ ، كان التوازن الأوربي أبعد ما يكون ضماناً للسلام ، وبدأ يعتبر كهدف حرب : فأمام المنافسات والأزمات ، خافت كل أمة ، واعتقدت أن عدم التوازن ازداد على حسابها الخاص : فهناك أزمات تعود إلى اشتداد الغضب والغيظ ، ودوماً في البلقان ؛ وتنافسات تعود إلى تجابه الإمبرياليات وخاصة في مراكش .

في مراكش . إن فرنسا التي كانت قد عقدت علاقات تجارية مع مراكش في عهد فرنسوا الأول ، حاولت أن تتغلغل في البلاد ولكن الفتح كان بطيئاً وصعباً ، وبخاصة عندما يكون القصد قبول هذا الفتح من الدول الأخرى . ومنذ الاتفاق الفرنسي ـ البريطاني ، تأمنت باريس بعطف لندن . وبقيت ثلاث دول تهتم بالأمر : إسبانيا وإيطاليا باعتبارهما محاذيتين للبحر المتوسط ، وألمانيا التي ظلت مراكش بالنسبة لها أرض توسع منظور .

والاتفاقات المتوسطية ، في ١٨٨٧ ، كان من الواضح أن غايتها منع التوسع الفرنسي في البحر المتوسط . ودلكاسيه (١٨٥٢ ـ ١٩٢٣) كان ماهراً بما يكفي لتجنب هذه العقبة بسياسة مطابقة للتي كانت قد ساعدت على الاتفاق الفرنسي ـ الإنكليزي . وإيطاليا كسبت حرية العمل في طرابلس الغرب مقابل الحرية التي تركتها فرنسا في مراكش . وحتى ، الحياد الإيطالي وعد في الحالة التي تهاجم فيها فرنسا من قبل ألمانيا : لأن الحلف الثلاثي عوكس والأنانية المقدسة استقرت في روما ، أما إسبانيا ، فقد انضمت في ١٩٠٤ إلى الاتفاق الفرنسي ـ البريطاني وأخذت منطقتي توسع في مراكش واحدة في الشمال ، والأخرى في الجنوب .

وبقيت ألمانيا وحدها ، وأريد تعديلها (تحييدها) . فضلت فرنسا سياسة الأمر الواقع : وضعت أسس حماية في المستقبل بإنشاء سفارة تدعم لدى سلطان مراكش برنامجاً للإصلاحات . وكان الرد الألماني مباشراً ومشجعاً بالحرب الروسية ـ اليابانية ،

التي أبعدت في الوقت نفسه كل إمكان لتدخل روسي . وفي ٣١ آذار ١٩٠٥ ، زار غليوم الثاني طنجة ، وألقى فيها خطاباً شهيراً يعني لفرنسا دون أن تذكر ، بأن ألمانيا كانت مستعدة أن تعمل كل شيء لصيانة الاستقلال المراكشي .

وهذا التنافس الفرنسي ـ الألماني كان حظاً غير متوقع للسلطان ، واقترح مؤتمراً دولياً ؛ وكانت الحكومة الفرنسية منقسمة : لأنها إذا قبلت ، فهذا يعني أنها تنازلت أمام المتطلبات الألمانية . وانعقد مجلس وزراء درامي في ٦ حزيران ، واضطر دلكاسيه إلى الاستقالة . وما أن أبعد هذا الخصم الذي لا يلين ، إلا وفكر غليوم الثاني بربط فرنسا بألمانيا ، وإجبارها نوعاً ما بالقوة ودفع بفوائده : حتى أنه دفع القيصر نيقولا الثاني على توقيع معاهدة بيوركو (تموز ١٩٠٥) التي تناقض الحلف الفرنسي ـ الروسي . ثم فكر أن يضم باريس إلى هذه السياسة الجديدة . ولكن فرنسا تهربت ؛ والقيصر بدوره رجع عن قراره ، وازداد التشدد الألماني من هذه الخيبة .

انعقد المؤتمر الدولي بشأن مراكش في الجزيرة في ١٩٠٦ . وتجنبت فرنسا المبدأ الألماني في إقامة شرطة دولية في الموانئ ، ولكن تأسيس حماية فرنسية جُنب كذلك أيضاً .

ومع ذلك فإن فكرة معاهدة بيوركو أقلقت بريطانيا العظمى : وارتسم تألب قاري حول ألمانيا التي ما فتئت قوتها البحرية في ازدياد . والوزارة الإنكليزية حاولت إذن أن تقوم في آن واحد بزيادة أسطولها وتبذل جهداً لنزع تسلح عام : وانعقد مؤتمر لاهاي لهذا الغرض من حزيران إلى تشرين الأول ١٨٠٧ . ولكن التشدد الألماني جعله يخفق . وتقربت بريطانيا ـ العظمى عندئذ بشكل أوضح من فرنسا وروسيا . وبدأت محادثات عسكرية مع باريس . وسوى اتفاق مع روسيا الخلافات الاستعمارية في آسيا . ومنذ الآن فصاعداً وقف الوفاق الثلاثي أمام الحلف ـ الثلاثي ، مبرراً بالجغرافيا أكثر من تطابقات وجهات النظر السياسية : وهكذا فإن الديموقراطيات الليبرالية تحالفت

وطوقت أوربة الوسطى التي كانت مستعدة للامتداد في كل الاتجاهات ، وذلك لتقيم سداً في وجه آخر دول الحكم الفردي (الأوتوقراطي) .

العواصف المنذرة :

إن الاضطرابات الدائمة ، التي كانت تثار في البلقان بيقظة القوميات ومشاحناتها ، كانت تهم كل أوربة ، بسبب التنافس النمساوي ـ الروسي . وحاول بسمارك أن يعدل هذا التنافس . ثم إن روسيا اتجهت نحو الشرق ـ الأقصى انطلاقاً من ١٨٩٥ ، ولكنها منيت في ١٩٠٥ بهزيمة طرحتها اليابان على إثرها نحو الغرب . وإيسفولسكي الذي أصبح وزيراً للشؤون الخارجية في ١٩٠٦ صنع من نفسه بطل المصالح الروسية في البلقان . وفي داخل النمسا ـ هونغاريا ، تحولت قضية الأقليات السلافية ؛ وحتى ١٩٠٣ كانت الدول السلافية البلقانية منضمة ومرتبطة بقيناً . وفي ١٩٠٣ اندلعت ثورة في صربيا استعاضت عن الملك الكسندر بالشعبي پيير قرجورجوڤيتش ، وكانت ثقافته فرنسية وملائمة للروس : وستلعب صربيا حيال السلافيين دور قطب الجذب ؛ وفضلت الوحدة السلافية التي أصبحت خطراً على الاستقرار الداخلي في الدولة الثنائية (النمسا ـ هونغاريا) . ولقمع هذه المناورات « اليوغوسلافية » ، استعمل النمساويون جميع الوسائل : منكدات اقتصادية ، تسميم المنافذ ، توسع الطريق الحديدي نحو سالونيك وأخيراً ضم البوسنة ـ هرسك بلا شرط ولا استثناء (١٩٠٨) . ووضعت روسيا أمام الأمر الواقع . وفي الحقيقة لقد حاول إيسفولسكي الحصول على اجتماع مؤتمر دولي وطلب وساطة فرنسا وإنكلترا : تهربت فرنسا ، ولم تشأ أن يلعب التحالف لأجل مصالح لا تخص إلا روسيا . وانتهت هذه بأن تنازلت ، وبعد هذا « القرص المر البلع » حرصت على أن تشد أواصرها مع إنكلترا وفرنسا ، وكانت أوربة كلها حذرة ؛ وإيطاليا ، التي لم تتلق من النمسا ، خلافاً للوعود ، أقل تعويض ، وحدت مصالحها مع روسيا المخزية . وأخيراً ، إن قومية سلاف الجنوب ، المكبوحة ، لم تبد .

وفي مراكش ، من جهة أخرى . جنب مؤتمر الجزيرة أزمة خطيرة ، ولكنه لم يسو شيئاً . فقد حافظت فرنسا كلها على طموحاتها ، واستمر التغلغل الفرنسي تحت إدارة الجنرال ليوتي . والقروض الفرنسية لمراكش زادت : والسيطرة ازدادت بصبر . وفي هذه الحالة لم تتخل ألمانيا أكثر : إن قضية الدار البيضاء ، في ١٩٠٨ ، حيث تلقى فارون ، من الجوقة الأجنبية ، مساعدة القنصل الألماني ، وضحت هذه الحرب الصغيرة الرديئة الطرق .

وفي ١٩١١ وجد سلطان مراكش في نزاع مع ثورة قبائل فاس ، ووجه للعسكر الفرنسيين نداء وقررت الحكومة أن تستجيب له . أما ألمانيا فإن هذا التدخل الفرنسي أصبح حجة مباشرة إلى طلب تعويضات : كانت تعتمد على الكونغو الفرنسية . وفي الأول من تموز ١٩١١ دخلت الدارعة « الفهد » في ميناء أغادير .

و « ضربة » أغادير ردت بأقل التكاليف . وتهربت روسيا كما فعلت فرنسا أثناء الأزمة البلقانية السابقة ؛ ولم يكن كايّو رئيس مجلس الوزراء الفرنسي معادياً لفكرة تعويض . وتقدمت بريطانيا ـ العظمى بصفة وسيطة ، وأخيراً ، قبلت ألمانيا ، مقابل جزء من الكونغو فقط ، بموجب اتفاق تشرين الثاني ، احتمال حماية فرنسية في مراكش . وفرضت هذه الحماية في ١٩١٢ . ولكن هذه التسوية (الحل الوسط) عوضاً عن أن تلأم الجروح كما فعل الوفاق الودي ، فعلى العكس زادتها حيوية ونشاطاً .

وبناء على ذلك أطلقت إيطاليا الأزمة البلقانية . لقد دخلت في منظومات الأحلاف لتكون مطلقة اليدين في ليبيا ، ورأت في ١٩١١ حجة ملائمة لتحقيق هذا المشروع الكبير ؛ وفي ليبيا كانت الصدامات مستمرة بين المستعمرين الإيطاليين ، والعرب والإدارة التركية . واندفعت إيطاليا بحركة قومية كبرى لمع فيها دانونزيو ، وأعلنت الحرب على تركيا في أيلول ١٩١١ . وكان الفتح سريعاً في طرابلس وبنغازي ، ولكن ذلك لم يكن إلا على حافة بحرية ، ثم رودوس ، والدوديكانيز . وإذا انتهت

الحرب في ١٩١٢ بمعاهدة لوزان فذلك في الغالب كان لأن تركيا ضعيفة ، ووجدت متورطة في حرب بلقانية جديدة ، أثارها أعداؤها بالبارحة . وبعد أن تقاسمت سلفاً البلقان ، اعتصبت الأمم الصغيرة وهاجمت وسحقت تركيا ، بالرغم من جهود الدول الأوربية في المصالحة . زحف البلغار إلى القسطنطينية . واجتاح الصرب ماكيدونيا ، ودخل اليونان سالونيك . وعندئذ ، بناء على طلب تركيا ، فرضت الدول الأوربية وساطتها ، وحاولت أن تؤسس وتوطد ، بمؤتمر لندن ، تقسيماً جديداً .

أما الثورة التركية التي أوصلت للسلطة (في كانون الثاني ١٩١٣ ، بعد كثير من التقلبات) زعيم المتشددين ، أنور باشا ، وشراهة البلغاريين الذين رفضوا التنازل عن القسم الأعظم من ماكيدونيا ، فقد جرتا إلى عودة الحرب ، ولكن في ظروف مخالفة جداً : لأن حلفاء الأمس انقسموا على أنفسهم ، فقد كافح الأتراك واليونان والصرب معاً ضد بلغاريا . وبالرغم من جهود الروس للحيلولة دون الحرب ، سحقت بلغاريا بسرعة .

وبموجب صلح بخارست الموقع في آب ١٩١٣ ، تنازلت تركيا عن أراضيها الأوربية ، ولم تحتفظ من فتوحاتها في القرن الخامس عشر إلا بإقليم تراكيا الشرقية ، وأدرنه ، والمضائق . وكان هذا لايعني إلا نهاية تفوق قديم دلت عليها القرائن كثيراً منذ أكثر من قرن . ولأجل قصير ، هذا النظام الجديد للبلقان ، الذي عينه انتصار الصرب وحلفائهم كانت له نتيجة أساسية وهي إغاظة وإقلاق النمسا . وأكثر من أي وقت مضى تجمع السلافيون وراء صربيا وأصبحوا أعداء خطرين لڤيننّا . وكان على الملكية المزدوجة الرأس أن تهاجم أو تهلك .

الآلة الجهنمية :

منذ تسع سنوات كانت أوربة مستعدة نفسياً للحرب . وفي ١٩١١ أكد لويد جورج في أشد الأزمة المراكشية : « السلام مهما كلف الأمر قول غير مقبول لبلد عظيم » .

وكانت إنكلترا مستعدة للحرب أمام تصاعد القوة الألمانية ولذلك ساعدت بصمتها الطويل على الأقل إلى تسارع الأزمة التي انفجرت في ١٩١٤ .

في ٢٨ حزيران ١٩١٤ ، قتل الأرشيدوق فرنسوا فردينانند وارث آل هابسبورغ في ساراييڤو من قبل طالب بوسني . والحكومة الصربية ليست مسؤولة مباشرة عن القتل ، ولكن الفرصة كانت صالحة جداً للنمسا ـ هونغاريا لتحجيم صربيا . وأعطت ألمانيا مساندتها . وفكرت بريطانيا بألا تقوم بأي رد فعل ؛ وبذلك يبقى النزاع محلياً .

ومع ذلك ، فإن الآلة الجهنمية قد جهزت : فقد وجهت النمسا إلى صربيا إنذاراً (التيما توم) وقبلته في معظمه ؛ ولم يمنع هذا النمسا ـ هونغاريا من أن تعلن عليها الحرب . وفي الحال جندت روسيا جزئياً ، بصفة إنذار . ولما ذهبت النمسا في مطلبها حتى النهاية ، أصبحت التعبئة عامة في ٣١ تموز . وفي الأول من آب أمرت فرنسا وألمانيا بالتعبئة بدورهما . وأعلنت ألمانيا الحرب على روسيا ، ثم في ٣ آب على فرنسا . وإنكلترا ، بعد أن حاولت عبثاً وساطتها ، لم تتسامح في خرق الحياد البلجيكي . ومن حلف إلى حلف ، ومن خلاف لخلاف ، بعد أربعين عاماً من الأزمات . جابه التوازن الأوربي قوانين عنف لم تستطع الدبلوماسية أن تسده . وإن القوة وعمى الرأي والصحافة ، في زمن التصويت الشبيه بالعام تقريباً حيث كان على الرجل السياسي ، ليفرض نفسه ، أن يلاطف أفظع عواطف شعبه ؛ ثم إن تصاعد القوميات العجلة إلى « الأحقاد التي لا تغتفر » والصدامات ، التي كانت في الغالب تصورية خيالية أكثر منها حقيقية ، نظراً للتراكم الدولي في رؤوس الأموال ، بين المصالح الاقتصادية ؛ كان التفسير والنقد يتناولان هذه الأسباب المختلفة لـ« الحرب العظمى » . والحقيقة أن لا الكنيسة ولا الأممية الاشتراكية ، المسالمتين بمؤهلاتها منعتا شيئاً . إن مؤتمر بال في ١٩١٢ تحت تأثير ظرف دولي درامي بخاصة ـ وهو ظرف الأزمة البلقانية ـ طرح الشعار : « حرب على الحرب » . ولكن الأممية لم تدرس بجد الكيفية العملية لتعبئة

القوى الكادحة ؛ والأحزاب الاشتراكية كانت في الواقع منقسمة بعمق على إتاحة الفرصة المناسبة لأسلوب الإضراب العام الثوري كلجوء فائق ضد الحرب البورجوازية : التي يحرمها حزب S.F.I.O[1] ، وتلاقي لا مبالاة (**نقابات العمال**) وعداء الاجتماعيين ـ الديموقراطيين الألمان ، وأيضاً حتى عند هؤلاء ، كان المنظرون المصلحون لا يؤمنون ، في ١٩١٤ ، بالحرب ويرون الخطر يبتعد بسبب القوة المرعبة للتسلح الحديث ، وتخفيف المنافسات الاستعمارية ، وتقوية الازدهار الرأسمالي . وعوضاً عن الإضراب العام اقترحوا التحكيم . وفي جهد جديد للمصالحة والتوفيق ، اقترح جوريس أن ينظم « الإضراب العام للعمال معاً ودولياً في البلاد ذات العلاقة » وأن يعتبر كوسيلة ناجعة « ليفرض على الحكومات اللجوء إلى التحكيم » . ومهما يكن من أمر ، فإن ملايين البشر ألقوا بأنفسهم في هذه « الحرب المدنية » مع حماسة لم تكن تظاهراً ، وإرادة الغلاب ، والغلاب بصورة قطعية ألا تكون صورية ، وتحمل بالتالي في ذاتها بذور منازعات جديدة . وبعد مائة عام على سلام نسبي وجد أن المنازعات الوحيدة التي هي ذات صفة محدودة جاءت لتعكر ، وأن الأوربيين دخلوا المعركة دون أن يفهموا أنها تمثل نوعاً من الانتحار . ونعلم اليوم أن الدول ، في الأول من آب ١٩١٤ ، عندما تخلت الدول عن استعمال ميكانيكية أسلحتها البالية الدبلوماسية . ـ كان كل واحد يخشى أن يمضي الوقت الذي يمكن فيه أن يتغلب على الخصم ـ حكمت على نفسها بتحمل التدمير لكل ما كان قد عمل القوة وساعد على تفوق أوربة في القرن التاسع عشر : من استقرار مالي ، واستمرار النمو الاقتصادي ، والنضج البطيء للأشكال السياسية والبنيات الاجتماعية ، ووجاهة القيم المعنوية والفكرية في الغرب . إن الحرب العالمية الأولى ، دمار القارة القديمة ، ظهرت بالنظر إلى الماضي أكثر خداعاً لحلول القضايا المختلفة جداً لدول أوربة : وبعضها ، مثل روسيا أو النمسا ـ هونغاريا ألقتا بنفسيهما بتأثير هرب إلى الأمام ، كما لو تريدا أن تجدا في الخارج تحويلاً لعطبهما الداخلي ؛

---

(١) S. F. I. O أي القطاع الفرنسي للأممية العمالية .

وأخرى ، مثل ألمانيا ، بحثت عنها كحل لتسهيل قضايا التوسع الاقتصادي . وأخرى أخيراً ، مثل فرنسا وإنكلترا ، لم تجد في نفسها الوسائل لتستعيد شبابها ولتعزز قواها في وقت مبكر ، قبلتها ، معتمدة على قوة مواردهما الواسعة ، كأداة ممكنة لإنقاذ مواقعها العالمية . وستتعلم على حساب نفقتها أن الحرب ، في عصر الحضارة الصناعية ، إنما هي بذخ مكلف جداً جداً ، لمن هي اغنى من غيرها .

الفصل الرابع

العالم
خارج أوربة
في القرن التاسع عشر

المقدمة :

لقد كان القرن التاسع عشر ، أكثر من القرن السادس عشر ، تحت القهر الذي مارسته أوربة ، قرن المساكنة والعلاقة المتبادلة بين أجزاء العالم . وكان التحسين المفاجئ للنقل البحري غنياً بالنتائج ، قرب القارات ، وسهل المشاريع الرأسمالية الظافرة ، وأوجد ظروف النفوذ السياسي الفعال ، والغليان الإمبريالي للقوميات المتنافسة .

في الأمريكتين ، استقبل التوسع الأوربي من قبل دول مستقلة كثيراً أو قليلاً ، ولكنها كانت تطلب جميعاً رجالاً ورؤوس أموال ، وأحرز نجاحاً واضحاً ، حتى أن البيض ، رغم أنهم لم يكونوا كثيري العدد وبأغلبية مطلقة ، استطاعوا بالجملة أيضاً أن يسمحوا لأنفسهم ، قبل ١٩١٤ ، بتجاهل القضايا الموضوعة لبقاء الحضارات القديمة والحفاظ عليها ، وبتجاهل الجماعات الخاضعة لهم من هنود وزنوج .

أما في آسيا وإفريقية ، فلم تشق إمبريالية البيض طريقها إلا بقوة السلاح ، وحتى عندما انتصرت ، ولد تدخلها نماذج أخرى من الخلافات والمنازعات . وكان الصدام في كل مكان فظاً بين ممثلي « المجتمعات المحبة للاقتناء والكسب » في الغرب ، والمجتمعات التي

لا حراك لها في القارات الأخرى : من ذلك أن المجتمع الصيني كان مشلولاً بكونفوشيانية تهتم بالسيطرة على الأجساد والعقول أكثر من امتلاك الأشياء ، وبماندارينا « طبقة مثقفة » متضامنة مع اقتصاد زراعي والمجتمعات في إفريقية السوداء معتادة على التسامح والتساهل مع قوى الطبيعة أكثر مما كانت أهلاً للسيطرة عليها ؛ هذه الحضارات كانت تبدو في أعين الغربيين أنها تبدد الوقت وتهمل الربح . وعندما تتمثل التقنيات والعلوم والأفكار السياسية والاجتماعية المعروفة في الغرب ، تقوم وتنادي ضده بمبادئها الخاصة . ومع ذلك يجب أن نتجنب إلقاء ظلال القرن العشرين ـ قرن الثورات الاستعمارية وتحرير العالم الثالث ـ وكذلك أيضاً قرن الأرباح الاستعمارية الكثيفة والسهلة والولع أيضاً بكل مظاهر الثقافات التي لم تكن ، حتى ذلك الحين ، معروفة من الغربيين إلا في إنتاجات اقتصادياتهم . وعلى مختلف مستويات حب الاطلاع . اكتشف الأوربيون الفلسفات والأديان ـ البراهمانية ، والبوذية ، والكونفوشية والفنون التشكيلية كالألواح الهندية المحفورة الناتئة ، ومعابد الخمير ، ورسوم هوكوساي ، وأخيراً اهتموا بالمعرفة العلمية لهذه الحضارات . وهكذا من ١٩٠٠ إلى ١٩٦٧ ، أمكننا أن نرى المدرسة الفرنسية في الشرق الأقصى التي افتتحت أولاً في سايغون ، ثم تضاعفت على كل أرض الهند الصينية الفرنسية الأعمال اللسانية ، والأثنولوجيا ، والتاريخ ، وعلم الآثار ، قبل الذهاب إلى كامبوديا التي ملكت زمام أمورها وأصبحت سيدة نفسها في متابعة ترميم معبد أنغكور ڤات العظيم وهرم بافوون ... وإذا أخذنا اتصالات القرن التاسع عشر بصورة متفاوتة ، نرى أن شعوب آسيا وإفريقية لم تقبض في القرن العشرين على شخصيتها القومية بكاملها ، وذلك دون شك بنتيجة الثورة ضد بعض أشكال الاستغلال ، ولكن أيضاً بنتيجة الكشف عن عظمتها الخاصة في صدامها مع البلاد المستعمرة .

أوربة القرن التاسع عشر وفتح العالم

كان القرن التاسع عشر ، ولا شك أجمل عصر للإنسان الأبيض ، فقد ساعده خصب عرقه على تأسيس مراكز استيطان على جميع القارات . وخولته الثورة الصناعية الجاه والنفاذ في مستوى المهارة التقنية ، وأصبح منذ الآن أعلى من إنسان الحضارات القديمة الزراعية والحرفية في باقي العالم . إن نشاطاته الاقتصادية وارتفاع مستوى حياته ساعدته معاً على الشعور بالحاجة وأعطته الوسائل لاستغلال الموارد المخبأة والثابتة في الكرة الأرضية بشكل منظم . وثقافته الفلسفية والعلمية وعاداته في التنظيم السياسي سحرت النخبات على الأقل كنوع حياته المادية ، وإن لغات أوربة حتى وأديانها ـ أو لا مبالاتها الدينية ـ طبعت بعمق الأوساط المثقفة في المجتمعات الاستعمارية . والفتح العسكري ، والسيطرة السياسية جاءا في أكثر من نقطة يعززان ، تسرع التأورب (أو الأوربة) ، وعندما بدأ المستعمَرون بالمطالبة بتحريرهم ، بدأوه بأخذهم عن المستعمرين أنفسهم ، مفاهيمهم ولغتهم ، وطرقهم الفكرية ، أو طرقهم في التنظيم . وهكذا استطاعت أوربة ، لا في زمن الإمبريالية فحسب أن تلعب الدور العابر لقارة موجهة ، وإنما أيضاً أن توسع تضامنات دائمة وتوقظ مواهب قومية دلت ، حتى في الثورة ، على فضيلة ، شديدة من بعض الاعتبارات ، اتصال الحضارات .

وفيما عدا التحرر من الاستعمار في القرن العشرين ، يجب أن نذكر أيضاً نجاحات العرق الأبيض التي كانت تساور الشعوب الملونة التي أصبحت حرة .

١ ـ تصدير البشر

عصر الهجرات الكبرى عابرة المحيطات :

كانت حصة أوربة ، في القرن التاسع عشر ، في سكان العالم ، قد انتقلت من ٢٠ إلى ٢٥ ٪ . ولم يمنعها هذا من أن ترسل إلى ما وراء البحار ٥٥ مليوناً من المهاجرين بين ١٨٢١ و ١٩١٤ ؛ ٣٣ مليون منهم اتجهوا نحو الولايات المتحدة ، ١٩ جاءوا من الجزر

البريطانية ، التي كانت نقاط انطلاق ووصول عظيمين ، ولكنها لم تكن الوحيدة ، كما يرى . وهذه الهجرة الكثيفة ، أدت ، في الواقع ، إلى احتلال مناطق كبرى مرجية لم تحتل بعد ، في أمريكا الشمالية ، في أوستراليا ، في الأرجنتين ، في سيبريا ... وهي ناشئة ، زمنياً وكمياً ، عن بريطانيا العظمى في المقام الأول ، ثم عن البلاد الإسكاندنياڤية والجرمانية : كانت الهجرة هنا مستمرة وكثيفة بنتيجة الثورة السكانية المبكرة ، والانفتاح الواسع جداً على العالم ، ومن الحاجة التي كانت للبلاد الجديدة من الهجرة البريطانية للإقامة فيها أو من الضرورة بالنسبة لبريطانيا العظمى نفسها ، في خلق وتنمية اقتصادات متممة لاقتصادها . ولكن الهجرة توسعت تدريجياً في أوربة الوسطى والشرقية والجنوبية كلما تفاقم فيها الضغط السكاني ، واختلال التوازن بين سعة الأرض والسكان ، كلما نمت أيضاً حركية هؤلاء السكان تبعاً لمرونة البنيات الاجتماعية وتقدم وسائل المواصلات ، واتساع الأفق العقلي والجغرافي معاً . في الحقيقة ، لا يكفي لإثارة الهجرة أن تكون مرتجاة من الوجهة النظرية ، وإنما يجب أيضاً أن تكون قابلة للتحقيق مادياً ونفسياً ، وفيما يتعلق بخاصة في أشباه الجزر الجنوبية لأوربة ، فما فتئت تغذي هجرة قصيرة الشعاع ، في داخل الحوض المتوسطي وأوربة الغربية . إن الإيطاليين ، في المراحل الأولى لهجرتهم ، اتجهوا بخاصة نحو فرنسا ، وسويسرا ، وتونس ، بنسبة ٨٢ ٪ في ١٨٧٦ ، وبنسبة ٣٦ ٪ أيضاً في ١٩١٣ ، وإذا انطلق ما يقارب تسعة ملايين إيطالي نحو الولايات المتحدة ، والبرازيل ، والأرجنتين بين ١٨٧٥ و ١٩٢٥ ، فإن أوربة الغربية والحوض المتوسطي قد استقبلا في الوقت ذاته أكثر من سبعة . فاليونان من جهتهم ، انتشروا في بلغاريا ، ورومانيا ، وتركيا ومصر قبل أن يتبعوا الإيطاليين على الطرق البعيدة .

المهاجرون :

وحسب الظروف والبلاد أخذت الهجرة مظاهر مختلفة ومتنوعة جداً حتى إنه لا يمكن وصف المهاجر كنموذج وحيد . والمهاجر كان دوماً رجلاً مجازفاً : رجلاً يقطع الجذور

ويهاجر ، ورجل الرحلة والسياحة (اقتطع الموت زمناً طويلاً ضريبة هامة على المهاجر الإيرلندي السائح أو الراحل كبضاعة على متن السفن البريطانية ، وعلى المهاجر الروسي المنطلق مسافراً على قدميه أو في عربة نحو سيبريا) ، ورجل التأقلم ، ومع ذلك ، ظلت الهجرة في كثير من الحالات قضية منظمة وأصبحت أحياناً قضية رتابة (روتين) : لأن جهد الشركات الاستعمارية ، وجهد وكالات الأنباء والدعاية لشركات السكك الحديدية أو حتى الحكومات استطاع أن يسهم في تحديد المجهولات والأخطار لمن يريد الرحيل ؟ إن قرى ومناطق بكاملها في إيطاليا الجنوبية أو مناطق البيلوبونيز كان من عادتها أن تتعامل مع الهجرة على شاكلة المهنة ، ولها عملاء السّوْق والاستقبال ، ويتجمع المهاجرون في الوصول حسب منطقة أصلهم أو حسب مهنتهم محاولين أن ينقلوا معهم في الحد الأدنى تغيرات نوع حياتهم ومحيطهم الاجتماعي من شاطئ لآخر في المحيط الأطلسي . وليفكر بهذه النوى القوية في الاستيطان الإيطالي لمدينة نيويورك أو دولة ساؤباولو ، اللتين قاومتا طويلاً التماس بالثقافات الأخرى ، في الأرجنتين حيث استطاع تمركز استثنائي للهجرة الإيطالية أن يفرض على البلد الذي استقبله الصفات الثقافية لبلد الأصل .

كان المهاجر في الغالب ، بائساً : طرد من أوربة بسبب المجاعة (وإذا لم تعرفها أوربة الغربية بعد ١٨٥٠ ، فلم تكن الحال على مثلها في أوربة الشرقية) ، والاضطهاد السياسي أو العرقي ، أو لفقدان الأرض أو الاستخدام . فالمهني ، والتاجر الصغير المنكوب ، أو الفلاح الخالي من الوصف الصناعي ، المهاجر كان إذن عندئذ مؤهلاً للدخول والاندماج في مجتمع جديد بطبقاته الدنيا ، ويبقى هذا صحيحاً بخاصة لمهاجري الإقامة في سنوات ١٩٠٠ ، من عامل زراعي في الملكيات الكبرى في أمريكا الجنوبية أو عامل غير ماهر في الصناعة الكبرى المكننكة في الولايات المتحدة . ولكن العامل ـ التقني البريطاني ، والمهاجر الذي ذهب مع رأس مال صغير ، استطاعا

بالعكس تحقيق صعود اجتماعي موسر نسبياً ، بفضل البلاد الجديدة للتجهيز والمجالات الواسعة التي تقدمها للاستيطان .

وأخيراً ، يبقى المهاجر غير مستقر غالباً . والفروق هامة جداً بين الهجرة الفظة للإقامة والهجرة الواضحة ؛ ووجد عودات ، كما وجد أيضاً « هجرات جديدة » ، والفروق لا نهاية لها بين الهجرة الفصلية والإقامة القطعية ، مروراً بالهجرة لأجل قصير أو بعيد . والهجرة الأوروبية في القرن التاسع عشر كان لها المعتادون عليها ، ولها المهاجرون المتنقلون في الكرة الأرضية ، ففي الأرجنتين تجاوزت نسبة العائدين ٥٠ ٪ . وعند المهاجرين للإقامة من أصل بلقاني الواصلين إلى الولايات المتحدة كانت من ٨٠ إلى ٩٠ ٪ . وإيطاليو الجنوب يذهبون بصورة منتظمة في تشرين الثاني للعمل في حصاد الحنطة والذرة في الأرجنتين ـ من كانون الأول إلى نيسان ـ ثم يعودون إلى البيمونت من أجل أعمال الربيع . والدهانون في أبنية البندقية يقومون بعمل فصلين : أحدهما في الولايات المتحدة من آذار إلى تشرين الأول ، والآخر في إيطاليا . وعند الأوربيين كانت حركة الكادح آنذاك أعلى من حركة السائح الثري ...

التبعيات الاقتصادية الجديدة :

كان دور الهجرة الأوروبية عظيماً في نمو وحدة اقتصادية للعالم . فالاقتصادات الأوربية واقتصادات البلاد الجديدة ، عبرها ، أقامت علاقات معقدة ، وكانت عاملاً أساسياً في النمو العائد لكل منها . ففي حالة الولايات المتحدة ، يلاحظ ، حتى نحو ١٨٧٠ ، بعض التبعية للنمو الاقتصادي حيال زخم الهجرات الأوربية للإقامة ، سواء أكان القصد عمالاً مهرة لا غنى عنهم للتصنيع ، أم دخولات كثيفة مرتبطة بالأزمة القارية الكبرى في منتصف القرن . وبالمقابل بعد ١٨٧٠ ، بدا نمو الولايات المتحدة يفرض بعض القوانين على الهجرة الأوربية للإقامة ، وبخاصة بالتحجيم بالميكنة والطرق الجديدة للإنتاج الحاجات للأيدي العاملة المهرة ، وبزيادة عدد الاستخدامات التي

يمكن الإمساك بها بيد عاملة رخيصة ودون مهارة : وعندئذ انتقلت الهجرة التقنية للإقامة التي كانت تؤلف تقليدياً أحد عناصر الهجرة البريطانية للإقامة نحو استخدامات أعلى في الرقابة والإدارة . أو تقيد أكثر نحو ١٩٠٠ في مستعمرات استيطان الإمبراطورية . ونحو ١٩٢٠ انتهى عصر تضامن اقتصادات الأنغلو ـ ساكسون من جانبي الأطلسي في الوقت الذي دخلت فيه القوانين المحددة لهجرة الإقامة في حيز التنفيذ في الولايات المتحدة : وهذه القطيعة لن تكون غريبة عن الصعوبات التي سيشعر بها الاقتصاد البريطاني منذ سنوات ال ٢٠ والاقتصاد الأميركي في سنوات الـ ٣٠ . ومن جهة أخرى ، إن الاستغلال الزراعي والمنجمي واستيطان دول مثل كندا والأرجنتين وأوستراليا وزيلاندة ـ الجديدة في سنوات ١٨٨٠ والتي تليها ، قد تكيفت بشكل وثيق مع حاجات اقتصاد أوربة الصناعية ، وبخاصة الاقتصاد البريطاني في مرحلة من مراحل نموه : وكان القصد إيجاد ، بكميات كبرى وبحساب رخيص ، المواد الأولية والمنتجات الغذائية الضرورية لتوسع الربح الصناعي وارتفاع مستوى الحياة ، وتأسيس البلاد الجديدة مستودعات لهذه المواد ، وفي الوقت نفسه ، أسواقاً جديدة لأجل الصناعات المعدنية الأوربية . ولكن التطور الخاص للبلاد الأوربية أتى منذ آخر القرن التاسع عشر بكبح هذه المبادلات : ونقصت الهجرة للإقامة ، لأن الخصوبة انخفضت لأن القطاع الثلاثي[1] فتح استخدامات جديدة في أوربة نفسها ، ولأن سياسيين قوميين ، جاءوا أخيراً ومنعوا خروج المدخر البشري خارج الحدود باسم الاكتفائية (الأوتاركية) الاقتصادية أو الحاجات العسكرية . وما من شك ، على كل حال ، في أن التسيار النشيط للناس ، عبر العالم ، قبل حرب ١٩١٤ ، كان مفيداً بشكل عالٍ لاقتصاد القارات الأخرى دون أوربة ، واقتصاد أوربة نفسها التي أتى لها ببعض المرونة في التكيف مع الأزمات كأمن بديهي في النمو الصناعي .

---

(١) القطاع الثلاثي قسم من الشعب النشيط الذي يعمل في التجارة ووظائف الدولة والبنوك ، والتأمينات ، والفنادق ، إلخ ....

٢ ـ تصدير البضائع ، ورؤوس الأموال والتقنيات

إن الهجرة ، التي لا غنى عنها لنفوذ أوربة الاقتصادي في العالم ، لا تستطيع أن تلعب دوراً ناجعاً إذا لم تحمل معها أو تجذب نحو البلاد الجديدة الصادرات المصنوعة ، ورأس المال التقني والمالي لهذه القارة . إن قوة أوربة تأتي من أنها الوحيدة التي تتصرف بالوسائل الضرورية من كل نوع لاستغلال الكرة والمتاجرة بثرواتها . إن أوربة ، وفي المقام الأول ، إنكلترا التي ينازع دورها الموجه للاقتصاد العالمي بضعة منافسين في الربع الأخير من القرن التاسع عشر ، ظلت عملياً لا تمس حتى الحرب العالمية الأولى .

رؤوس الأموال الأوربية في العالم :

في ١٩١٤ ، خارج أوربة ، ظل كل نمو اقتصادي أو القليل اللازم منه ، ملحقاً بحقن رؤوس الأموال الأوربية (الولايات المتحدة وحدها ، باستمرارها في امتصاص رؤوس الأموال ، انتقلت بدورها إلى فئة البلاد المستثمرة) . وصدرت أوربة في ذلك التاريخ لأجل رأسمال ٢٠٠ مليار فرنك ـ ذهبي . وجهز أصحاب المصارف الثلاثة في العالم وحدهم ٨٣٪ من هذا الرأسمال ؛ وهم بريطانيا العظمى بـ (٤٥٪) ، وفرنسا بـ (٢٥٪) ، وألمانيا بـ (١٣٪) . ولكن هذه النسب المئوية لا توضح بصورة مضبوطة ودقيقة درجتها في الإسهام بالاستعمار الاقتصادي للعالم . وفيما يتعلق بفرنسا ، بخاصة ، كان القصد استثمارات (توظيف أموال) أوربية لأجل أكثر من ٥٠٪ ؛ وأخذت أمريكا اللاتينية ١٥٪ من الاستثمارات الفرنسية ، ومصر ، والسويس ، وبلاد شرق البحر المتوسط ٥٪ ، وأخذت فرنسا ، وبخاصة بعد ١٨٧٠ ، دور إنكلترا ، التي كانت تؤسس صناعة حديثة عند جيرانها في القارة ، بينما إنكلترا في النصف الثاني من القرن التاسع عشر كرست نفسها أكثر فأكثر للتوظيفات المالية فيما وراء البحار : ففي تاريخ ١٩١٤ ، وظفت ١٩ ملياراً في أمريكا اللاتينية ($\frac{٥}{٧}$ مجموع الاستثمارات الأوربية) ، ١٣ في الولايات المتحدة ، ١٢ في كندا ، ١٠ في الهند ، وكذلك في أوستراليا وفي إفريقية .

وأكثر من ذلك ، إن الاستثمارات الفرنسية كانت استثمارات أصحاب الدخل الذين لا تدعمهم ، نظراً لعدم توسع ونمو الاستثمارات القومية بنسبة كافية ، قدرة (كفاءة) واسعة للتصدير الصناعي . والصناعة الفرنسية ، المتخلفة نسبياً ، لم تكن في حالة تمكنها من تقديم التجهيزات للخارج الذي يمكنه شراؤها بالمال الفرنسي ، بينما إنكلترا كانت تقدم لمدينيها المواد التجارية التي وضعتها في الحد الذي يطلب منها ، وجاء التوسع التجاري ليعمل على استثمار التوسع المالي . وبالمقابل كان الاستثمار الألماني النموذج نفسه في استثمار النفوذ المنافس مباشرة للاستثمار البريطاني ، الملهم بإرادة التصدير مهما كلف الأمر .

التجارة الأوربية في العالم :

بالجملة إن البلاد المصنعة في أوربة الغربية سيطرت أيضاً في ١٩١٤ على التصديرات الصناعية العالمية ، بنسبة الثلثين $\frac{٢}{٣}$. ولكن بلاداً وبخاصة مثل بريطانيا العظمى ، والبلاد المنخفضة ، ومنذ قليل ألمانيا ، كانت لها السيطرة الممتازة الخاصة على التجارة العالمية للمواد الأولية والمنتجات الزراعية : كانت المشترية والناقلة والبائعة ثانية لثروات البلاد المتخلفة أو المصنعة بضعف وتفرض عليها أسعارها واقتطاع أرباحها . وكان هذا الحصر نتيجة مجموعة امتيازات تقنية استطاع الإنكليز بخاصة أن يفيدوا منها فائدة منظمة . إن الإسطول البريطاني في ١٩١٤ كان يمثل أيضاً ٤٥ ٪ من الحمولة الطونية العالمية ؛ وكان يمثل دوماً أكثر من النصف في سياق القرن التاسع عشر . وتقدمه على أخطر منافس له وهو الأسطول الألماني ، ظل جسيماً (١٩ مليون طون من جهة ، وخمسة ونصف من الجهة الأخرى) . وشركة التأمين لويدز كانت تضع في خدمة السفن التجارية مصلحة استعلامات بحرية من النوع الأول تساعد في البحث ، من ميناء لآخر ، ومن بلد لبلد عن كل سفينة حمولة في حالة انتظار . والتجهيز الميناني في لندن بكيلومتراته من أحواض السفن طوال نهر التاميز وضع تبعاً لتجارة تخزين وتوزيع الإنتاجات الكبرى ، وعلى كل حال ، إن ما لا يمكن نقله فعلياً بلندن

كان على الأقل في الغالب يتاجر به ويحدد سعره في أسواق مالية (بورصات) متخصصة ، وهذا التمركز في الطلبيات (التوصيات) التجارية كان ممكناً بالاتصالات التلغرافية التي تضاعفت منذ سنوات ١٨٥٠ ـ ١٨٧٠ وكانت بريطانيا العظمى أيضاً هي التي قامت بثورة في شروط أجرة الشحن ، وذلك بتجربة منذ ١٨٤٣ لـ تاريخ إطلاق سفينة **بريطانيا العظمى** ، التي ظلت تعمل حتى ١٩٣٧ قبل أن تسقط في جزر فولكلاند) السفينة البخارية ذات المروحة : ومن هنا الإمكانيات الجديدة للنقليات الكثيفة ، والسريعة والرخيصة التكاليف على المسافات الطويلة جداً . ومع ذلك فإلى الفرنسيين وإلى الأميركيين ، وليس إلى الإنكليز ، فتحت أوربة الطرق البحرية الجديدة للسويس وباناما واختراع النقليات المجمدة .

التقنيات الأوربية في العالم :

وأخيراً إن التقدم الاقتصادي في العالم يبدو أنه معلق بأوربة الغربية في الحد الذي تحتكر فيه هذه الأخيرة الأسرار التقنية لهذا التقدم . إن التقني الإنكليزي ، أو الفرنسي ، أو الألماني ، هو المشغل الذي لا غنى عنه لرأس المال المستقرض أو سلع التجهيز المستوردة . إن جزءاً من جاه اللغات الأوربية في المناطق المختلفة في العالم يعود إليها من حيث أنها ليست فقط لغات التاجر ، والإداري ، أو المبشر ، ولكن أيضاً كونها طرق الوصول إلى ثقافة علمية وتقنية وإلى التعليم وسهولة إدراكها وفهمها . إن التقني الأوربي هو عميل سيطرة قارة على القارات الأخرى ، لأن الدول الاستعمارية لا تقوم بجهود لتنمية الثقافة التقنية في مستعمراتها وذلك بغية بقائها مسيطرة على تطورها الاقتصادي ، وإرسال التقني إلى مكان عمله ضمان للجوء المستحكم لرأس مال وتجهيزات بلده الأصلي . ولا نبالغ إذا قلنا إن الخدمات التي قدمت للإمبريالية الاقتصادية لبريطانيا العظمى على يد المختصين في صناعة النسيج والصناعة المعدنية ، والسكك الحديدية ، الذين انطلقوا من جبال بنين ، من بلاد الغال ، من إيكوسيا ، وذهبوا

يمارسون مواهبهم من فرنسا إلى روسيا ، ومن كندا إلى الهند ، إلى الأرجنتين أو إلى زيلاندة الجديدة . إن التقنية الإنكليزية كان لها المكان الأول في إنشاء الخطوط العابرة للقارة الكندية ، وإلى إنشاء ٥٢٠٠٠ ك م من الخطوط الحديدية في الهند ، وإلى خلق الصناعات الأولى اليابانية . ومدينة لندن مدينة بشهرتها العالمية إلى الوثوق بتقنيتها النقدية والمصرفية وشهرتها مركزاً مالياً يعتمد على نقد بقيمة ذهبية ، مستقر تماماً ، وقابل للمبادلة بقيم أخرى منذ ١٨١٩ ، وأداة مثالية للتسويات الدولية .

وبعد فهذه بعض عناصر نفوذ أوربة على العالم . ومن المعلوم أنه اصطحب ، نحو آخر القرن ، بجهد عظيم في تملك الأراضي والتوجيه السياسي . فلأي حد تعبر الإمبريالية الاستعمارية مباشرة عن الحاجات الاقتصادية ، أو تظهر أيضاً الكبرياء القومية وإرادة القوة ؟

٣ ـ السياسات الإمبريالية الأوربية
في آخر القرن التاسع عشر

في إنكلترا القرن التاسع عشر : جدل مذهب الحرية ومذهب الإمبريالية :

إن البلد الذي كان له أقوى إشعاع بشري ، وإقتصادي ، وتقني ، على باقي العالم في القرن التاسع عشر ، هو **إنكلترا** ، وهو الذي شاد أيضاً على البحار أو على القارات ، أضخم وأعظم بناء استعماري . وبين هذين المظهرين للتوسع البريطاني ، لم تكن الرابطة من ضرورة منطقية ؛ لقد كانت في الحقيقة رابطة واقع ، توطد ، بدواعي التاريخ نفسه ، من الظروف المحلية أو من الخيارات السياسية المؤقتة ، وكان مديناً بالكثير إلى الانتهازية وإلى ردود فعل النفسية الجماعية .

نظرياً ، إن العقائدية (الأيديولوجيا) السائدة في إنكلترا الثورة الصناعية هي مذهب الحرية (الليبرالية) الذي كان يشجب ويبعد الإمبريالية السياسية .

باسم التجربة : الأمثلة الأميركية ألا تدل على الزهو ، لأجل الوطن الأم ، بأنها تريد أن تفرض قانونها على مستعمرات ، وبخاصة على مستعمرات الاستيطان ؟

وباسم الأخلاق السياسية ، من غير المشروع إعاقة حرية تقرير المصير لأي شعب من الشعوب .

وباسم المصلحة المشتركة لإنكلترا وباقي العالم : إن إنكلترا المتحررة من الثقل المالي والعسكري الذي تمثله الإدارة والدفاع عن المستعمرات السياسية ، كانت تدعو جميع بلاد العالم لتؤسس معها جمهورية كبرى تجارية مثالية متحدة بالنمو العفوي للمبادلات الحرة ـ الملائمة للنمو الصناعي الإنكليزي ، ولكن مفيدة أيضاً ومربحة لشركاء إنكلترا لأنهم يجدون فيها الفرصة لإنتاج أكثر وللإسهام ، بقناة العلاقات التجارية ، في جميع فوائد الحضارة الغربية والتقنية والروحية .

ومع ذلك ، في التطبيق ، إن المكان المتواضع نسبياً الذي تمسك به الإمبريالية في هجرتها ، ومبادلاتها ، واستثمارها ، وتقدم الليبرالية ، لم يمنع مطلقاً إنكلترا من أن تصلب وتقوى وتبسط سيطرتها السياسية والأرضية على ما وراء البحار . ولم يكن التناقض إلا ظاهراً . أولاً ، بالرغم من ضياع ثلاث عشرة مستعمرة في أمريكا الشمالية ، بقيت إنكلترا مثقلة بإرث استعماري جسيم تركه القرن الثامن عشر : فكندا القديمة الفرنسية كسبت في ١٧٦٣ ، والكاب كسب في ١٨١٥ ، وكثير من جزر الأنتيل ، والوكالات الإفريقية ، والهند التي هزمت فيها الفتوحات باستمرار ملك الأمراء ، وتشكلت مستعمرات للاستيطان جديدة في عز القرن التاسع عشر : أوستراليا ، زيلاندة الجديدة . والحكومة البريطانية وجدت مدفوعة ، في كل مكان ، للتدخل حتى رغماً عنها ، لتوطيد الوحدة المهددة في كندا ، التي تجزأت بين السكان من أرومة فرنسية في كندا ـ الدنيا والمهاجرين للإقامة ، الأنغلو ـ ساكسون في كندا ـ العليا ؛ ولدعم المعمرين الإنكليز ضد أقوام الكافر والبور ، وفي غيرها ضد الماؤريس ... بيد أنه إذا

تضورت أن تمهر بسرعة مستعمرات الاستيطان حكماً ذاتياً داخلياً يساعدها على التخلي وإلقاء عبء مسؤولياتها ونفقاتها على سكان المستعمرات ، ولتحول دون كل نزاع بين الوطن الأم وهذه المستعمرات ، فلم تفكر مطلقاً بالتخلي عن عنصر الوجاهة ، والقوة ، ومن بعد الازدهار الذي يمثله امتلاكها بالنسبة لإنكلترا . أما المستعمرات المأهولة بالملونين ، فإن الإنكليز يرون أنفسهم مقلدين برسالة مربية حيالها (مذهب الوصاية) ويدفعون إلى موعد بعيد ومبهم الحين الذي يمكنها فيه أن تحكم نفسها بنفسها . وأن الإمبراطورية بوجودها نفسه تديم وتخلد الإمبريالية السياسية ، ومبادهات المعمرين المحلية أو السلطات نفسها تنفي أن تقتصر هذه الإمبريالية على الحفاظ والبقاء ، بل يجب عليها بالضرورة أن تتقدم .

وفي المقام الثاني ، إن مذهب الحرية (الليبرالية) باعتباره فلسفة سياسية يضم قوة توسع تستطيع بصعوبة الاستغناء عن اللجوء إلى القوة وإلى السيطرة والنفوذ . ومن حيث المبدأ ، إن التوسع التجاري الذي هو نتيجة النمو الصناعي ، ليس بحاجة للاعتماد على إمبراطورية ، وفي الواقع ، إن ممارسة السيطرة الاستعمارية يمكن أن تتيح الفرصة للتوسع التجاري وتحميه بشكل نافع ومفيد : « إنه لا يوجد أي شك في أن أفضل وسيلة للحفاظ على الثروة هي القوة » (من خطاب لدزرائيلي ، في ١٨٦٣) . إن التاجر ، والمبشر ، والمالي الذين يريدون أن يحرروا القوات المنتجة في إفريقية وفي أسيا ، ويهدون شعوبها إلى التجارة الحرة وفي الوقت نفسه إلى المسيحية ، يصطدمون في الغالب بحصر وإقطاعيات يجب كسرها قبل أن يتوطد تعاون اقتصادي وتقوم عملية الاستغراب . وهكذا ، إذا كان من المرجو تجنب ، قدر المستطاع ، الانضمام ، فإن ما يبقى على الأقل صحيحاً هو أن التوسع التجاري ، ونشر الليبرالية والمسيحية تعتمد على القوة والجاه والخوف - وإن « السلام البريطاني » ، المدافع عنه عند الحاجة بالحصار ، وقصف القنابل ، وإنزال جيش حملة ، إنما هو الدعم السياسي الذي لا غنى عنه للهيمنة التجارية . ويوجد أكثر من ذلك ، وهو أن الإنكليز ، في العصر

الفيكتوري ، كانوا ثملين بالنجاح المادي لبلدهم الذي وجهوه على حساب حضارة المشروع الحر . ويعتبرون أنفسهم كأدلاء للتقدم ، وأنهم أهل لخلق الثروة في كل مكان في العالم . وقد تمثلوا ميكانيكية نجاحهم القومي بقانون طبيعي وعام ، وفكروا بأن فرضه يعود لهم على الشعوب الدنيا التي تجهله بعد ، والذي وصف جون ستوارت ميل في **نظراته في الحكم التمثيلي** (١٨٦١) تسلسله من قمة يحتلها الإنكليز والشعوب الأخرى الأنغلو - ساكسونية إلى قاعدة تتألف من الشعوب التي هي في حالة قبلية مروراً باللاتين والشرقيين وسكان شمال إفريقية . والأوائل المنظرين للمذهب الليبرالي ، مثل آدم سميث ، تصوروا بأنفسهم على غير حق بأن البحث الحر ، من كل فرد ، عن فائدته وربحه ، يؤدي عفوياً إلى سعادة أقربائه ، وبالتوسع ، كافة الإنسانية : وقد دلت الوقائع ، في القرن التاسع عشر على أن جميع الشعوب لم تكن مستعدة لأن تقبل بحماسة التقسيم العالمي للعمل ومبادئ التنظيم السياسي التي اقترحتها إنكلترا . وحيال الإمبراطورية الصينية ، والسلطنات الإفريقية ، والبور أو الهنود المتمردين على التحديث ، تأخذ الليبرالية وجهاً جديداً أكثر وقاحة وتعاظماً ، وتتخلى عن الاعتقاد بوجهات النظر التفاؤلية والمثالية التي تبشر بتجمع وانضمام محتوم للشعوب البربرية إلى الحضارة البريطانية .

ولهذا بقيت الهند بحق رمزاً للإمبريالية البريطانية ، أمبريالية أصبحت وصايتها أوثق من قبل بعد تمرد ١٨٥٧ وإذا كان فتح الهند يجب أن يجري ثانية في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، فإن الإنكليز تراجعوا ولا شك أمام جسامة الجهد وأمام صعوبة تمثل حضارة هذا البلد . ولكن إذا أخذنا بعين الاعتبار ما أنجزته شركة الهند من فتح ، بالتناقض مع القواعد التي فرضت عليها ، وكذلك إذا اعتبرنا المكان الذي اتخذته الهند في النظام الاقتصادي والستراتيجي لإنكلترا ، فإن هذه تعلقت بها باعتبارها جزءاً أساسياً من إمبراطوريتها ، ومن هيمنتها العالمية تقريباً . ففي الهند لا تستطيع المصالح الإنكليزية الاستغناء عن السيطرة الاستعمارية : وإذا تركتها الإدارة والجيش ، فإن

الفوضى سترجع لها ، ولن يجد الإنكليز أمامهم شركاء قادرين على تأمين الأمن وانتظام التجارة ، فنحو ١٨٨٠ امتصت الهند وحدها ١/٥ خمس الاستثمارات البريطانية في الخارج وخمس ١/٥ صادراتها ، وأصبحت مركزاً هاماً للتجارة بين بلاد آسيا . ومن وجهة النظر الستراتيجية ، الهند قاعدة بحرية وعسكرية يعتمد عليها أمن التجارة والاستثمارات البريطانية حتى في جنوب شرقي آسيا والشرق الأقصى . وجيش الهند الذي تعيله بخاصة نفقات المستعمرة استخدم في الصين وبرمانيا ، وفي أفغانستان ، وآثيوبيا ، ومصر والسودان وإفريقية الشرقية ... هو مستعد للتدخل في كل الحالات التي يوجد فيها مهدداً كل ما يسمى بتعبير غامض « المصلحة العليا للأمة » في أوساط الحكومة والإدارة العليا اللندنية مهما يكن الحزب القائم على السلطة .

خليطة غريبة من الليبرالية والسلطوية ، هذه الإمبريالية البريطانية . لقد أخذت في السنوات العشرين الأخيرة من القرن التاسع عشر مساراً عدوانياً بصورة صريحة . وذلك لأن التهديدات أو المنافسات الأجنبية ، المحدودة في الزمن الذي كانت فيه فرنسا لوي - فيليب ونابوليون الثالث تظهر وحدها أطماعاً استعمارية ، أصبحت واقعية جداً عندما دخلت ألمانيا وبلجيكا والبرتغال وإيطاليا في السباق . إن انعكاس الخوف ، ورد فعل الجاه ، والتوترات الدولية الناشئة دون انقطاع ، والصعوبات العابرة في تجارة التصدير ، كان فيها ما يغذي شعلات القومية في الرأي ، ويسوق بعض رجال الحكم إلى طوبائيات جديدة ، وأحياناً إلى نمو الهجرة والتجارة بين بريطانيا العظمى ومستعمرات الاستيطان الأبيض ، كان الرأي الإنكليزي يتقبل طوعاً النظريات التي بموجبها كان المهم تقييم تملك مثل هذه الإمبراطورية بإعطائها وحدة اقتصادية ، سياسية ، عسكرية محددة جيداً تجاه الإمبرياليات المنافسة . إن مفاجأة المزاعم الاستعمارية الألمانية نحو ١٨٨٤ أثارت ردود فعل ابتدائية لحب الذات القومي الجريح ، مثل ردود جوزيف تشامبرلن الذي كتب في هذا الظرف : « لا أحب أن يشتمني بسمارك أو أي شخص آخر مهما يكن . » والمبشر الإنجيلي ليفنغستون ، والمغامر

غوردون وسعا حول شخصيها ، بعد موتها البطولي ، أساطير شعبية استأنفها الكاتب روديارد كيبلنغ على شكل موضة غنائية . وفي ١٨٩٥ ، بعد كثير من الوزراء الفطنين حتى التردد ، دخل تشامبرلن مجلس الوزراء . وبالرغم من أنه لم يكن آنذاك إلا أمين الدولة في المستعمرات ، استلهم منه فيا بعد السياسة العامة . فقد جاء من أوساط الصناعة المعدنية في برمنغهام ـ وكان حساساً بالأزمات ومهتماً في متابعة استغلال بلاد ما وراء البحار ـ ، وممثلاً لنوع من سياسة واقعية إنكليزية ، وعمل في كل المناطق ، بالفتوحات ، والضم ، وضربات القوة : حملة السودان ، احتلال نيجريا الشمالية ، حرب البور ، حملات ضد البوكسر ، وحلم بتأسيس منطقة إمبريالية للمبادلة الحرة وعليها تركز إنكلترا جهودها في التصدير والاستغلال . وبعد ١٩٠٠ بقليل ، وجد أن العودة إلى إزدهار التجارة العالمية ، والبريطانية بخاصة ، ونهاية الأزمات الكبرى الإفريقية أسقطت التمجيد الإمبريالي وهجرت فكرة التعرفة الإمبراطورية . ومع ذلك فإن الإمبراطورية البريطانية خرجت متحولة خلال العشرين سنة ، التي تفصل وضع اليد على مصر ونهاية حرب البور ، أكثر سعة ، وأكثر غنى ، وبالإجمال وفية أكثر من أي وقت مضى ، واعتبرت منذ الآن من قبل الإنكليز أنفسهم عنصراً أساسياً للتوازن الدولي ، وعلى وجه الاحتمال ، والنصر في نزاع عام يمكن أن ينشأ من السياسة الألمانية .

في فرنسا : الإمبريالية ، تابع سياسي :

تبدو الإمبريالية الفرنسية ، في نظر الإمبريالية البريطانية ، كإبداع (خلق) اصطناعي خال من هذه الروابط العميقة العضوية التي تجمع بين إنكلترا ومستعمراتها . فقد انطلقت من البقايا ، التي استعيدت بعناء في ١٨١٥ ، من الإمبراطورية الاستعمارية الفرنسية الأولى ، والثانية ، إمبراطورية القرن التاسع عشر ، كانت الوحيدة التي قاومت عن سعة وعن استمرار ، الإمبراطورية الاستعمارية الإنكليزية . ومع ذلك فإن فرنسا ذلك الزمن كانت تنزلق نحو الفقر السكاني ، وليس عندها رجال للتصدير ؛

وأنجزت بشكل غير تـام ثورتهـا الصنـاعيـة ، وهـذا مـا حـال دون تصنيفهـا بين الـدول العظمى المصدرة للمنتجـات المصنوعـة . فقـد ثمرت رؤوس أموالهـا في أعمـال أكثر دخلاً وأقل خطراً أو مجـازفـة من الأعمـال الاستعماريـة . والأهميـة المفرطـة نسبيـاً للمشـاريع الاستعمارية الفرنسية لا يمكن أن تتوضح إلا إذا وضعت على علاقة ثابتـة مع الاهتمامـات السياسية ، من نوع داخلي أحياناً ، ودولي في الغالب .

أثناء حروب الثورة والإمبراطوريـة ، وبثمن خراب نوع من التجارة الكبرى ، بـدا أن فرنسا أصبح من عادتها أنهـا مستغنيـة عن المستعمرات ؛ وقواعـد النظـام الاستعماري خرجت مدمرة ، هي أيضاً ، من الأزمة (منع الرق والتخلي عن حب الكسب) . وإذا كانت حكومات العهد الرجعي أقل لا مبالاة من الرأي في بقاء إمبراطورية استعماريـة ، فذلـك لأن البحريـة ترى لا غنى عنهـا لتوطيـد جـاه فرنسـا حيـال إنكلترا ، ولأن بلاد ما وراء البحار يمكن أن تقدم نجاحات منعت هزيمة نابوليون الأول منذ الآن فرنسا من البحث عنهـا على القـارة الأوروبيـة . ونحو ١٨٢٠ ، وجـد أن السنغـال ، قـاعـدة السفن الفرنسيـة الجـوالـة في البحر ضـد الرق الخفي السري ، كانت لأول مرة مـوضـع استغـلال طموح من جانب رجال الإدراة الذين يريدون أن ينشؤوا فيها هنداً فرنسية .

في ١٨٣٠ ، كانت حملة الجزائر ، وأصلها من جهة في خطط غامضـة لإعـادة توزيع أرضي لأوربـة وحـوض البحر المتـوسـط ، ومن أجلهما بحث عن مسـانـدة روسيـا ضـد إنكلترا ؛ ومن جهة أخرى ، في اهتمامات السياسة الداخليـة : ويقصـد بهـا تقويـة جـاه نظـام ضعيف خـائر ، وضمان إخـلاص الجيش لشـارل العـاشر والحصـول لهـذا الأخير ، خارجاً عن الرقابة البرلمانية ، على أموال منتظرة من مصادرة خزينة الداي التي تـأتي في وقتهـا لانضمام النـاخبين ودفـع معـاشـات متـأخرة . ولـذا لا غرابـة فيما بعـد ، خـلال ما يقارب عشرة أعوام وتحت نظام سياسي لم يكن نظام بدايـات الفتح ، وجـد أن تردد لمعرفة ما إذا يحافظ على هـذا الفتح أو يتخلى عنـه . وفيما أصبحت الجزائر فعلاً إقطـاعـاً للجيش ، ضغطت البحرية من جديد بكل وزنها على ملكية تموز بواسطـة أمراء المـاء :

دوبوتي ـ توارس ، وبويه ؛ فيلوميز ، من أجل الحماية على تاهيني وعلى جزر فالّيس وفوتونا ، وتوطيد مواقع جديدة فرنسية على الشاطئ الإفريقي (ليبرفيل ، غران ـ بَسّام) ، لأجل أن تلعب دوراً منافساً لاستئناف النشاط الاستعماري لإنكلترا . وهذا يعني روحاً قومية من المنافسة السياسية مع إنكلترا التي تترأس هذه التجارب الأولى للاستعمار .

وفي عهد الإمبراطورية الثانية بدأت الارتباطات والعلاقات بين السياسة الاستعمارية واهتمامات السياسة الداخلية ، تظهر من جديد بكل وضوح . وكان القصد ، حسب الحالات ، إرضاء فريق مصالح ، أوقطاع من الرأي ، أو دعامة للنظام . وكانت التدخلات العسكرية في سورية ، في الصين ، والمكسيك لحد كبير مخصصة لدعم مصالح الكنيسة الكاثوليكية ، المعاكسة في نفوذها التبشيري أو المهددة في امتيازاتها ـ وبالتالي للحفاظ على وفاء التصويت الكاثوليكي . ومعاهدة تين ـ تسن ، المستأنفة بمعاهدة بيكين (١٨٦٠) تعترف للمبشرين بحق إقامة دائمة في داخل الصين (على حين أن هذا الحق رفض للتجار) ، وإلى فرنسا دور الحماية على كافة البعثات التبشيرية الكاثوليكية في الصين . وإن ضم الكوشنشين ، والحماية المفروضة على كامبودج[1] يجب مبدئياً أن تؤسس المواقع ـ الأمامية لتغلغل تجاري وتبشيري ؛ ولكن في الظرف المباشر وجدت البحرية فيها الفرصة لإتمام سلسلة المواقع البحرية التي تضم من قبل تاهيتي ، وكاليدونيا الجديدة وبعدها السويس .

إن هزيمة ١٨٧١ واستحالة الثأر في أوربة المطاوعة للنظام البسماركي زادتا مظهر الجاه لتوسع استعماري مخصص لحي الخذلان القومي . وضرورته تحولت إلى مذهب من عدة شخصيات تنتسب للحلقات والنوادي الفكرية أو إلى الإدارة العليا . إن بول لوروا ـ بوليو ـ الأستاذ في كلية فرنسا ، الأكاديمي ، دعا فرنسا لأن تؤسس على

---

(١) كامبودج أو كامبوديا .

الاستعمار السياسي جاهها كأمة عظيمة « بالرغم من كل شيء » وازدهارها الاقتصادي (من الاستعمار عند الشعوب الحديثة ١٨٧٤) . والأميرال لارونسيير لونوري ، رئيس الجمعية الجغرافية في باريس ، صرح في ١٨٨١ « ليبقى أمة عظمى أو ليصبح أمة عظمى ، على الشعب أن يستعمر » ، وظهر غرض البعثة المحضِّرة . ونحو ١٨٨٥ ، في الوقت الذي دخل فيه الاستعمار ، جمعت « الفرّية » نسبة إلى جول فرّي ، نظرية عن العمل ، تجمع هذه الأغراض : على فرنسا أن تستعمر ، وذلك لأن كل الدول الأوربية حولها تفعل هذا ، وأن هذا سيخدمها كتعويض عن هوى شوفيني (تعصب) عاجز في هذا الحين ، عن استعادة الألزاس واللورين ؛ وفي المقام الثاني ، لأن عليها ، ككل الأعراق العليا . واجباً تجاه العروق الدنيا ؛ وأخيراً ، لأنها ستجد في مستعمراتها تثميراً مفيداً لرؤوس أموالها ومنافذ زائدة لأجل صناعتها ، « السياسة الاستعمارية هي بنت السياسة الصناعية ... إن الاستهلاك الأوربي أشبع ؛ يجب في الإقسام الأخرى من الكرة تفجير طبقات جديدة من المستهلكين » (التونكن والوطن ـ الأم ١٨٩٠) وعلى هذه النقطة الأخيرة كان للفرّية طنين مذهب مستخدم في بلد آخر غير فرنسا ؛ ولكن لم يُعرف بالنسبة للواقع القومي .

وكسبت الإمبريالية آنذاك ، في سنوات ١٨٩٠ ـ ١٩٠٠ ، التي كانت سنوات التوسع الفرنسي في إفريقية السوداء وفي مدغشكر ، كثيراً من المريدين في الأوساط السياسية ، في مجموع البورجوازية العليا ، وكانت تجديداً ، لأن الحماسة في ذلك الحين لم تكن واضحة عند العسكريين كما عند عدد من رجال أعمال ـ تجارة ومصرف ـ ـ لهم مصلحة واضحة في طلب الحماية في هذه المنطقة أو تلك في الكرة الأرضية ، وعلى سبيل المثال ، في سنوات ١٨٨٠ كانت الأوساط التي ضغطت على الحكومة لتكون التونكن والأنّام منفتحتين فعلاً على (تسلح مارسيلي ، حريرليون ، تجارة موانئ الأطلسي) . وكبار وجهاء الجمهورية الثالثة انضموا إلى لجان إفريقية الفرنسية ، وآسيا الفرنسية ، والاتحاد الاستعماري ـ نقابة بنوك ، ودور نقل وتجارة ـ وشركات منجمية ، في لجنة مراكش ...

ومئة نائب من جميع الأحزاب دخلوا في الفريق الاستعماري الذي أسسه أوجين إيتين ، نائب وهران ، الذي أصبح فيا بعد مساعد أمين سر الدولة في المستعمرات . وهذا الأخير لعب دوراً هاماً بخاصة في سياسة فرنسا الإفريقية وأراد أن يرى تأسيس مساحات كبرى جغرافية وثقافية :

« إذا أنزلتم عموداً يذهب من حد تونس ويمر من تشاد ليأتي وينتهي في الكونغو ، يمكنكم أن تقولوا بأن القسم الأعظم من الأراضي الواقعة بين هذا العمود والبحر هي لفرنسا أو مخصص للدخول في منطقة النفوذ الفرنسي : (خطاب ١٠ أيار ١٨٩٠ في مجلس النواب) .

« إن مسألة مراكش تحتفظ لنا بآخر حظ أمبريالي يمكن أن يبقينا في النقطة التي يكون فيها تقسيم الأرض ... في مراكش وحدها ، في هذا المتمم للبلاد التي نسيطر عليها من قبل في إفريقية الشمالية ، نجد إمكانية بسط صعيدنا العرقي واللغوي . ونستطيع بسط سطح الحضارة » (١٩٠٤) .

ومع ذلك هل تصبح الإمبريالية (التسلط) شعبية ؟ بشكل سطحي ، نعم . فهي بغيضة إلى المشاريع التي تكلف غالياً ، وتدور بشكل سيء وتحشر الجنود الشبان أثناء خدمتهم العسكرية ، والرأي العام ، مع ذلك ، على جهل عميق للقضايا الاستعمارية ، ومفتون بالجاه العسكري المتجدد الذي تحصل عليه الفتوحات فيا وراء البحار ، لأنها انطلاقاً من ١٨٩٣ كانت قضية جيش استعماري جند بطريق التجنيد الطوعي . وأكثر من ذلك . أن الجيش والبحرية وضعا في الأمام الفكرة الخاصة بجذب الرأي القومي ، وهي أن إفريقية الغربية الفرنسية (المنظمة إدارياً تحت هذا الاسم في ١٩١٠) تساعد على تجنيد جيش أسود يعوض النقص الديموغرافي (السكاني) للوطن الأم . وهكذا فإن التوسع الاستعماري وهو أبعد ما يكون عن تحويل طاقة القضية القومية الكبرى ، يأتيها بنجدته ، كما أن الرأي يعتاد على التفكير بأن كل إخفاق أو كل تراجع على هذه الأرضية

يعني تعدياً على العظمة ، ولكن أيضاً خسارة جوهرية . وحتى الاحتجاج الاشتراكي ضد الاستعمار يتلون عند جوريس بالقناعة في أن الديموقراطيات الأوربية عليها تأدية رسالة سلمية لدى الشعوب الأقل تطوراً .

التجارة العالمية في القرن التاسع عشر

توجد ثلاثة أصناف من الحوادث :

١ ـ الملاحة على مسافات طويلة : تبقى هذه الملاحة ، في القرن التاسع عشر ، أكثف منها في أي قرن مضى ، وبخاصة في شمال الأطلسي بين القطبين العظيمين لنو شمال ـ شرقي الولايات المتحدة وللجزر البريطانية . ولكن الملاحة انتعشت في البحر المتوسط مع فتح الطريق القصير إلى الهند . وتكاثفت حول جنوب آسيا وشرقها الجنوبي في الشرق الأقصى وفي أوستراليا .

٢ ـ دخلت بلاد نصف الكرة الجنوبي في دورة المبادلات العالمية . وما زالت إفريقية بمجموعها قليلة الاهتمام بعد . ولم تصبح سوقاً كبرى للمنتجات الأولية إلا في القرن التاسع عشر .

٣ ـ إن التركيز الجغرافي للصناعة الحديثة بلغ الحد الأقصى . ولعب بصورة أساسية لصالح شمال ـ غربي أوربة ، على أن مناطق أخرى قد مست بقوة بالتصنيع (مثل أوربة الشرقية ، واليابان ، وبخاصة شرقي أمريكا الشمالية) ولكنها ظلت مع ذلك تتصف بنوع خليط من الاقتصاد يحتل فيه تصدير الحاصلات الخام مكاناً عظيماً دوماً .

الإمبريالية الألمانية و « السياسة العالمية » :

عند ألمانيا ، الدولة العظمى التي جاءت متأخرة في الإقبال على الإمبريالية الاستعمارية ، تحتل هذه الإمبريالية أيضاً مكاناً خارجياً أكثر ، وعلى الأقل تحت شكلها الاستعماري ، بالنسبة للمصالح القومية الحقيقية . وتاريخ المطالب الاستعمارية الألمانية الأولى ، يرجع فقط إلى ١٨٨٤ ، عندما قرر بسمارك ، أخيراً ، أن يغطي بالراية القومية

عدداً من الوكالات التجارية ، وبخاصة في إفريقية . والتنافس المنظم مع فرنسا ، ولا سيا إنكلترا ، لم يبدأ تاريخه إلا مع وصول غليوم الثاني (١٨٨٨) إلى العرش ، في وقت كانت فيه ألمانيا معبأة بأيديولوجيا الجامعة الجرمانية . والتوسع الأرضي بحثت عنه أولاً في أوربة ، في حدود الطابع الألماني للشخصية الألمانية في الأعراف العرقية واللغوية والثقافية أو ببساطة التاريخية المرنة إلى الحد الأقصى . وتوسع استثماراتها وصادراتها الصناعية ، وجدته أولاً في البلاد الأقل تصنيعاً قوياً في أوربة ، وفي البلاد الجديدة في أمريكا الجنوبية ، وفي أسواق البلاد النصف ـ استعمارية مثل الإمبراطورية العثمانية أو الإمبراطورية الصينية . ومع ذلك ، فعلى الصعيد السياسي ، يرى الموجهون الألمان بأن لا غنى عن بسط إمبراطوريتهم الاستعمارية التي يكرس امتلاكها صف دولة عالمية لبلدهم ، وهذا الصف نفسه الذي يملي على الدبلوماسية الألمانية الاهتمام بأن تكون حاضرة دوماً وإذا أمكن كطرف مهتم ، عندما يتقرر تقسيم النفوذ في نقطة ما من العالم . وعلى الصعيد الاقتصادي ، يعتقدون بنفع تأسيس أسواق ممتازة ، في معصم من المستعمرات السياسية ، حيث يكون فيها دخل الاستثمارات وأمنها مكفولين ، وحيث يستطيع تقدم الصادرات أن يجري بسرعة أكثر مما في ظروف المنافسة الطبيعية على باقي السوق العالمية . وإن الحكاك الاستعماري لألمانيا الولهلمية المفاجئ ، إذا اعتبرنا القليل من الحالة التي سيوجدها هتك نفسه ، عدا نكبة ١٩١٨ ، من تعمير إمبراطورية استعمارية ، يتضح لأن موجهيها حكموا بأن وتيرة التوسع التجاري غير كافية : مهما يكن تحسين تقنيات البيع التي توضحها وكالات البيع وبيوتات التجارة ، ومهما يكن النجاح الحاصل على التجارة الخارجية الإنكليزية التي تقدمت فيها المبيعات ، من ١٨٧٥ إلى ١٩١٣ ، بسرعة أقل بمرتين من المبيعات الألمانية ـ ، والتغلغل الاقتصادي للأسواق بالطرق الليبرالية والسلمية يظهر بطيئاً جداً جداً ، وصعباً جداً جداً . ومن هنا ترى في العالم ، الذي تندر فيه أراضي قابلة للاستعمار ، شدة وعنف المطالب الألمانية ـ والأزمات المراكشية ، وتسارع البرامج الملاحية تشهد على ذلك في السنوات العشر التي سبقت الحرب العالمية الأولى .

وفي تزايد الأرباح تزايد القدرة ، وغنى أوربة على أساس استغلال عقلاني للعالم ، تعزيز ثقل الأمم بتعزيز امتداداتها الاستعمارية ، باسم التوازن الضروري للقوى الدولية ... في هذه البواعث الكثيرة للتوسع الأوربي ، لا يصادف غير اهتمامات أخرى طويلة الأجل ، ولا مفهوم لرضى وقبول ، ولا انسجام مشترك للشعوب والحضارات . وعلى هذا فإن التوسع الأوربي ، وعلى الأقل في شكل السيطرة السياسية يحمل ، على العموم ، منذ الانطلاق ، نبتة تدميره الخاص .

ونحو ١٩٠٠ ، وجد أن ١٦٠٠ مبشر بروتستانتي ، وأكثر من ٦٠٠٠ مبشر كاثوليكي قد أدخلوا تباعاً ٤ و٥ ملايين نسمة في الدين المسيحي . وحبرية بيوس التاسع وحدها رأت في ثلاثين عاماً تأسيس مائتي أسقفية جديدة أو نيابة أسقفية رسولية عبر العالم كله . وفي الوقت نفسه حافظ الإسلام على قوة توسع أعلى من قوة توسع المسيحية وتابع بخاصة تقدمه نحو إفريقية المدارية والاستوائية . ونقل الإنكليز والفرنسيون إلى مستعمراتهم نظام التعليم الابتدائي والثانوي وأحياناً العالي الذي اقترح على الأفارقة والآسيويين أن يقايضوا شخصياتهم بشخصيات غربية ، وفي الوقت نفسه ، بدؤوا بدقة علمية عظيمة ، دراسة الشواهد الآثارية أو الأدبية لحضارات ما وراء البحار ، معتبرين إياها كأشياء ميتة ، وأتى أطباؤهم للسكان المستعمرين بوسائل النصر على الوفيات التي تقلل أعدادهم ، بينما لم تهتم السياسة الاقتصادية للأوطان الأم بأن تجهز الناس بوسائل الحياة التي وعدوا بها . وهكذا تهيأ ، منذ الأصل ، سوء تفاهم عميق ، لقد أريد أن يقدم ، ما أمكن ، إلى المستعمرين نظام الشعوب المتخلفة (النامية) المتمتعة بمواطنية من الدرجة الثانية ، في داخل إمبراطوريات ظلت إدارتها الاقتصادية والسياسية تابعة للأوربيين ، عوضاً من البحث عن وسائل ترقيتهم في ملغمة بين ثقافاتهم التقليدية وبعض عناصر الثقافة الأوربية . إن اختيار هذه السياسة حكم عليها بألا تدوم ما دامت أوربة في وضع قوة .

الفصل الخامس

الأمريكتان

لقد كان الالتفات الاستعماري الأوربي نحو إفريقية وآسيا حادثاً من أهم الحوادث التاريخية في القرن التاسع عشر، على سلم الكرة. فقد تبع زوال الاستعمار الأول المختلف بعمق عن الثاني - وهو الذي عرفه منتصف القرن التاسع عشر - لأن الدفع فيه لم يكن من الشعوب الملونة، وإنما بنوى مكثفة بشكل كاف من المستعمرين البيض. فعلى إثر حركات الاستقلال التي انتصرت في ١٧٨٣ في أمريكا الشمالية، وفي ١٨٢٥ من مكسيكو إلى بوينوس إيرس وإلى سنتاغوشيلي، انتظم تاريخ أمريكا حسب أربع وجهات: إلى كوبا وفي بورتوريكو، اللتين ظلتا إسبانيتين بفضل حضور جنود أقوياء من الوطن الأم، وإلى جامايكا الإنكليزية، وإلى المارتينيك وإلى غواديلوب اللتين أصبحتا من جديد فرنسيتين في ١٨١٥، عاش، حتى تآريخ مختلفة، النظام القديم للاستغلال العبودي المتجه نحو إنتاج السلع المدارية التقليدية. وفي كندا، التي لم تسم آنذاك إلا أمريكا الشمالية البريطانية، حافظت الإمبريالية البريطانية على مواقعها تحت غطاء دولة أصبحت مستقلة ذاتياً بين ١٨٤٨ و ١٨٦٧، واكتسبت شخصيتها على كل حال ما يكفي من التجانس لتقاوم جذب الولايات المتحدة. وهذه الأخيرة بدورها حققت الفتح واستغلال مجالها الداخلي بدينامية (حركية) استثنائية، وأبدعت على الشاطئ الغربي للمحيط الأطلسي غرباً أوربياً ثانياً أفتى وأقوى من الأول. وأخيراً، إن الدول المستقلة الناجمة عن انهيار السيطرات الإسبانية والبرتغالية في أمريكا الوسطى وفي أمريكا الجنوبية تطورت نحو نظام متوسط، نصف - استعماري، وهو نظام المناطق التي تسيطر عليها بكاملها التجارة والرأسمال البريطاني، والتي يمهد تفتحها الاقتصادي الذي بدأ بالهجرات المتأخرة في آخر القرن التاسع عشر، وانتظر حتى أيامنا عز إنجازه.

١ ـ تنمية الولايات المتحدة

حتى ١٨٦٠

يتوزع تاريخ نمو الولايات المتحدة حتى الحرب العالمية الأولى على ظرفين تفصل بينهما هزة فظيعة ، وهي حرب الانفصال التي يسميها الأمريكيون ، بشكل أبسط وأقوى ، **الحرب الأهلية** . لقد كانت هذه الهزة هائلة حتى إن عواقبها الأخيرة لم تنطفئ ربما بعد قرن : وسواء كانت موضوعاً أدبياً أم سينمائياً مؤمناً دوماً بالنجاح (لنتذكر : « ذهب مع الريح » ، رواية مارغريت ميتشيل أو فيلم « قانون الرب » ، لوليم وإيلر تباعاً في ١٩٣٦ وفي ١٩٥٧) ، فقد وجدت بشقة مكانها في تأليف التاريخ الموضوعي للولايات المتحدة وظلت دون شك تلهم موقفاً للجنوب حيال الشمال ـ موقف المتحدي المستعلي أو العنيف الذي عبر عن نفسه في مقاومة تطبيق القوانين العادية للانفصال . والشيء الذي له دلالته في الظلام الذي ما فتئ حتى الحاضر يحيط بظروف اغتيال جون ف . كينيدي ، أن المفسرين استطاعوا أن يذكروا باستمرار أن المشاحنة القديمة كانت كأحد العناصر الملائمة لتحضير الجريمة . وفي الواقع ، لا عجب في أن الحرب الأهلية قد طبعت بعمق تاريخ الولايات المتحدة : لأنها ، في الواقع ، لم تكن شيئاً آخر غير أزمة نمو ، وظاهرة اختلافات إقليمية ملحوظة جداً تضع موضع التشكيك وجود أمة أمريكية ، حتى في الإطار الذي يجبر بما يكفي دولة اتحادية « فيدرالية » ؛ وإذا حلت الحرب الأهلية القضية بعهدها عملياً إدارة استغلال الاتحاد لإحدى المناطق : الشمال ـ شرقي ، موزع الناس ورؤوس الأموال ، نقطة مفصل الولايات المتحدة على باقي العالم . فمع ذلك لم تمح أسباب وجود هذه « القطاعية » التي كادت تكسر بوضوح صعود الدولة العالمية الأولى .

الإطار الأرضي وملؤه :

« أخذت الولايات المتحدة » مكانتها قبل كل شيء في أمريكا . وكان من الممكن

لهذه المكانة أن تكون هامة أكثر مما هي لو أن التوسع الأميركي لم يكبح باعتبارات السياسة الداخلية وبضغوط بريطانيا العظمى . **الأولى** ، أي السياسة ، تتعلق بالتوازن بين شمال الاتحاد وجنوبه : ويقصد بذلك بالنسبة للحكومة الاتحادية تجنب التوسع من أن يعمل بصورة أساسية لصالح أحد « القطاعين » الكبيرين . **والثانية** أي الضغوط ، تتعلق في أن الإنكليز لم يكونوا مستعدين لا إلى أن يتخلوا ويطردوا من كندا ، ولا إلى ترك الأميركيين يقومون بمنافسة تجارية جادة في بلاد أمريكا اللاتينية . وكذلك كان من الضروري لواشنطون أن يلاحظ بعض الاعتدال لا سيا وأنه كان من غير الممكن أيضاً تصور كسرٍ للاتحاد أو نزاع مسلح مع بريطانيا العظمى التي كانت الولايات المتحدة تعيش معها في حياة مشتركة .

وفي الجنوب كانت القضية بالنسبة للولايات المتحدة كسب واجهة بحرية واسعة على خليج المكسيك ، تفيد كمنفذ لاستعمار جنوبي في طريق الانتقال من السهل الأطلسي نحو المسسبي والجبال الصخرية ؛ وحتى بعد احتلال فلوريدا الغربية وموبيل في ١٨١٠ ، ظلت هذه الواجهة ضيقة . وفي ١٨١٨ ترك الرئيس مونرو الجنرال جاكسون يحتل كامل فلوريدا التي تم شراؤها من إسبانيا في ١٨١٩ . ومع ذلك فإن حدود الولايات المتحدة في الغرب كانت محددة على السابين ، فيا وراء المسسبي بقليل . وانطلاقاً من ١٨٣٠ في الوقت الذي كانت فيه الجمهورية المكسيكية الفتاة وارثة لإسبانيا كانت تنقصها القوى العسكرية الضرورية لاحترامها ، أغرق الاستعمار الجنوبي التكساس ، هذا الإقليم الواقع بين السابين وريوغرانديه : ففي ١٨٣٦ ، أصبح الأميركيون الأكثرية ، ونادوا باستقلال التكساس ، تحت رئاسة هيوستون . وترددت الولايات المتحدة ، خلال ثمانية أعوام ، بربط التكساس بها ، ولم تقم بذلك إلا في سنة ١٨٤٥ عندما كان بديهياً أن تخاطر هذه الأخيرة ، تحت ضغط الإنكليز ، في إلغاء الرق وتنتقل إلى الصف الأول بين مجهزي قطن لانكشاير ، وهذا ما تسبب في أخطاء غير قابلة للإصلاح في دول الجنوب . وفي السنة نفسها ، حاولت الحكومة المكسيكية توطيد

النظام في كاليفورنيا ، حيث تشكلت حكومة مستقلة ذاتياً . والولايات المتحدة التي كانت تطمع في ميناء سان فرانسيسكو ـ أفضل ميناء على المحيط الهادئ ـ اقترحت شراءه على المكسيك . وعندما رفضت ، قامت الحرب على ريوغرانديه في (١٨٤٦) . وهكذا انتقلت كاليفورنيا بسهولة إلى أيدي الولايات المتحدة ؛ وارتسم هجوم باتجاه مكسيكو . وأمكن الاعتقاد بأن أمريكا الوسطى ستقع بين أيدي أمريكيي الشمال ! ومع ذلك فقد عقد هؤلاء الصلح (١٨٤٨) على خط ريوغرانديه ولاجيلا : وكانوا يخشون بالتأكيد توطيد الرق في المكسيك ، حيث نفي منها ، وفساد الطبع الأنغلو ـ ساكسوني المسيطر في الاتحاد ، وأخيراً المعارضة البريطانية . وفي الواقع ، إن الأنكليز أغلقوا أمريكا الوسطى ، بإقامة قاعدة بحرية في بيليز حطت في مصب سان جوان على شاطئ الموسكيتو ، وفي جون فونسيكا على شاطئ نيكاراغوا على المحيط الهادئ (١٨٤١ ـ ١٨٤٩) ، والنتيجة كانت منع الأميركيين من أن يبنوا القناة عابرة المحيط في العصر الذي لم تكن فيه الخطوط عابرة القارة موجودة بعد ، التي ظهرت لهم أنها تؤلف متمماً لا غنى عنه لضم كاليفورنيا . وبعد المفاوضة في اتفاقات أولية مع كولومبيا ونيكاراغوا وعدت الولايات المتحدة الإنكليز بمعاهدة كلايتون ـ بولور ، بألا تبني القناة إلا بالتعاون معها ، وباحترام كل أنواع الضمانات . وفي هذه الشروط ، تخلت عملياً لنصف قرن عن بنائها (١٨٥٠) .

وتخلت الولايات المتحدة أيضاً عن مراقبة كامل شاطئ المحيط الهادئ الشمالي . وفي الواقع ، إن صعيد صيد الفراء للشركة الإنكليزية في جون هودسون ، الذي ظل حتى شرائه من قبل الاتحاد (الفيدراسيون) الكندي ، المؤلف في ١٨٦٧ ، كان يمتد من لابرادور إلى آلاسكا وإلى تخوم كاليفورنيا ؛ وفي أحواض الفرازير ، وكولومبيا ، وسناك ، اصطدمت الشركة الإنكليزية بمنافسة شركة الفراء الأميركية ؛وهكذا في ١٨٤٦ ، فإن بريطانيا باستفادتها من حيادها في حرب المكسيك ،حصلت على تحديد السيادات على جانبي خط العرض ٤٩° .

وفي الحقيقة إن الأميركيين ، وقد أصبحوا أقوياء باستعمار هام في الأوريغون ، كانوا يؤملون بدفع الحدود على خط العرض ٥٤° ، أي إلى حدود آلاسكا التي كانت ممتلكاً روسياً . وأحدث الإنكليز بدورهم مستعمرة كولومبيا البريطانية ؛ ولكن من الملاحظ ، ابتداءً من الإقبال على ذهب وادي الفرازر والمستعمرة البريطانية المعزولة عن مستعمرات كندا الشرقية بألوف الكيلومترات والخالية من البشر ، أنها كانت غارقة بهجرة أميركية للإقامة فيها . وفي ١٨٦٧ ، فاوض أمين سر الدولة الأميركي سيوارد بشراء آلاسكا من روسيا ، مستأنفاً نظرية « القدر الواضح » الذي كان جارياً منذ ١٨٤٥ في الأوساط السياسية في الولايات المتحدة ، وأكد بأن الطبيعة عاجلاً أو آجلاً ستفرض خطتها ، وهي دخول كل القارة الشمال ـ أميركية « في دائرة الاتحاد الأميركي السحرية » . ومع ذلك ، في ١٨٧١ ، نجح الاتحاد الكندي الجديد بإقناع كولومبيا البريطانية في إدخالها في حضنه ، مقابل الوعد بعابر قارة ، وفي نفس السنة كانت معاهدة واشنطون الإنكليزية ـ الأميركية ترى أن الأميركيين يعترفون بوجود كندا تمتد من محيط لآخر . وأكثر من ذلك اضطراباً أيضاً ، وأحياناً حربية بصراحة ، كانت العلاقات بين الولايات المتحدة وأمريكا الشمالية البريطانية على طول الحدود من البحيرات الكبرى إلى المحيط الأطلسي . وفي ١٨٣٧ ، في الوقت الذي ثار فيه الكنديون الفرنسيون ضد النفوذ البريطاني ، قامت جيوش موالية ، مؤلفة من المتمردين الكنديين اللاجئين والمغامرين وأخذت تناوش الحدود من شلالات نياغارا حتى حدود مين وبرنسفيك ـ الجديدة ؛ ومع ذلك ، فقد جنبت حرب حقيقية بتسوية ١٨٤٢ التي عينت الحدود . ومن بعد كانت حرب الانفصال مطبوعة (مدموغة) بأزمة جديدة . فبينما كانت بريطانيا ـ العظمى تسمح لقرصان الجنوب بالمجيء واللجوء والتموين في موانئ الشرق الكندي ، قامت عملية عسكرية محلية مفاجئة من قبل الإيرلنديين المهاجرين إلى الولايات المتحدة وامتدت على مقياس واسع . ولكن هنا أيضاً رجحت معاهدة ١٨٧١ العلاقات السلمية . وفي الحقيقة إن سياسة الولايات المتحدة حيال كندا لم

تكن سوى مظهر (مشهد) لعلاقاتها العامة مع بريطانيا ـ العظمى : ومهما تكن زغبتها في ضم كندا ، فإنها لم تقدر أن تضحي بها الوفاق الصالح مع رفيق اقتصادي ومالي على درجة أولى من الأهمية . لقد كانت تعتمد بالأحرى ، نحو ١٨٥٠ـ ١٨٧٠ ، على قوة جاذبيتها الاقتصادية وذلك بتخويلها الكنديين في ١٨٥٤ معاهدة المقابلة بالمثل ، التي رفضوا تجديدها فيما بعد في ١٨٦٤ . وقد أظهر لها قرار الاتحاد الفيدرالي في ١٨٦٧ بأن كندا كانت ترجو أن تكسب ، في الوقت نفسه إلى جانب وحدتها السياسية ، القواعد الأرضية لاستقلالها الاقتصادي .

ونحو ١٨٦٠ ، كان الإطار الجغرافي المحدد على هذا النحو أبعد من أن يملأ . ومع ذلك عرف السكان زيادة ملحوظة . فالولادة وقفت نسبتها بالقرب من ٤٠ / بالألف ، وبوفيات في حدود ٢٠ بالألف . وانطلاقاً من ١٨٣٠ ، تكاثفت الهجرة من أصل أوربي .

وهكذا فإن كامل السكان انتقل من (١٠) إلى ٣١ مليون نسمة من ١٨٢٠ إلى ١٨٦٠ ، بازدياد تقريباً ٣٥٪ كل عشر سنوات . وأثناء حرب الانفصال ، احتلت المنطقة الواقعة في شرق المسيسبي بكاملها ، ومحور تناظر السكان كان يتألف بقليل تقريباً من جبال الآبالاش . والمنطقة الواقعة في جنوب البحيرات الكبرى سكنها المهاجرون من إنكلترا الجديدة كما من المهاجرين البريطانيين والألمان ؛ وأنديانا وإيللينوز تحولتا إلى دولتين في ١٨١٦ و ١٨١٨ ، وتأسست شيكاغو في ١٨٣٠ ، ومن بعدها ميتشيغان ، وويسكونسن ، وايووا ، ومينوسوتا (١٨٣٧ ـ١٨٥٨) . والجنوب كان ، تحت شكل استعمار أكثر سعة بكثير عامل توسعه الخاص : ولم يقبل مهاجرين . ولويزيانا ، ومسسبي والابامـا وميسّوري أنشئت بين ١٨١٢ و ١٨٢١ ؛ والأركانساس في ١٨٣٦ ، وفلوريدا في ١٨٤٥ ؛ ويعلم ما كان عليه دور الجنوبيين في ضم التكساس وكاليفورنيا . وإذا حفظنا أيضاً إنشاء الأوريغون وإقامة المورمون حول البحيرة الكبرى المالحة ، ترى أن منطقة تأخذ بصورة مائلة جانبية شمال الجبال الصخرية والهضاب والسهول في غرب المسسبي ، لا تؤوي أيضاً إلا واحداً بالمئة (١٪) من سكان الاتحاد . وقفز

الاستعمار فوق الغرب الأقصى ، ودحر فيه الهنود . وبالخروج من الحدود الجغرافية حيث احتويت الثلاث عشرة مستعمرة في عصر السيطرة البريطانية ، شعر الأميركيون بأصالتهم القومية ـ وهي أصالة شعب يشعر بأنه مدعو بأن يطبع طابعه على قارة جديدة ، وينشر قواه المبدعة وحضارته في الإطار الطبيعي العجيب الذي احتفظت له العناية الإلّهية بها .

الشمال الشرقي :

وحتى نحو ١٨٤٠ـ١٨٤٥ إذا لعب الجنوب بفضل القطن دوراً اقتصادياً أساسياً محصلاً للاتحاد أكثر من نصف صادراته ، فعلى الأقل ان الشمال ـ الشرقي كان مقراً للتحويلات الاقتصادية الأساسية ، ومن قبل ، في ظل الحروب الثورية والإمبريالية ، كان هو الرابح الأول من دور المجهزين والناقلين الذين عرفت الولايات المتحدة الاحتفاظ بهم لنفسها . وبعد ١٨١٥ ، كان الشمال ـ الشرقي الرابح الأساسي من الهجرة للإقامة ومن الزيادة الديموغرافية (السكانية) : وتراجع نصيب دول الجنوب في مجمل السكان من النصف إلى الثلث حتى ١٨٦٠ . وأيضاً الشمال ـ الشرقي استطاع أن يدعم نمو صناعته في السوق الداخلية الهامة التي ، حتى ذلك الحين ، لم تكن شيئاً ، وغير موجودة ، في الولايات المتحدة . ومن جهة أخرى ، لقد كان هو الذي استلم زمام المبادهة في تنمية وسائل المواصلات شرق ـ غرب فنشط بذلك استغلال الغرب وتثميره أي جعله مثمراً . وبالرغم من أن الفرن العالي الأول قد ولع في ١٧٩٠ في بيتسبورغ ، وأول معمل لغزل القطن تأسس في ١٧٩١ في رود إيلاند ، فإن انطلاق الثورة الصناعية في الولايات المتحدة كان بعد ١٨١٥ . والولايات المتحدة في هذه النقطة مدينة لإنكلترا برأسمالها التقني الذي صدرته بواسطة ألوف المهاجرين الذين كانوا عمالاً مهرة . والأميركيون أنفسهم برهنوا على فكرة مدهشة في الاختراع في تحسين هذه التقنيات ، وهكذا ظهر ، منذ ١٨٢٠ في معامل القطن لدولة نيويورك ومسّاتشوستس التي كانت

آلاتها في الغزل والنسيج تعمل بأسرع من الآلات البريطانية المعادلة . وسنرى بعد قليل أن عاملاً ميكانيكياً من بوسطون ، إلياس هاوي يحسن بشكل عظيم آلة الخياطة التي اخترعها أولاً الفرنسي تيمونيه ؛ وأن عالماً بالمناسبة ، صاموئيل موريس اقتبس من محادثاته مع العالم الفرنسي آمبير اختراع البرق (التلغراف) الكهربائي . وتصنيع الشمال ـ الشرقي دخل ، من جهة أخرى ، بملجأ من حماية جمركية تعززت بالرغم من بعض التخفيفات في سياق القرن التاسع عشر ؛ ومنذ ١٨١٦ وضعت التعرفة رسوماً بين ٧,٥ إلى ٣٠٪ على الأقمشة القطنية والصوفية والحديد وبعض الإنتاجات المصنعة (المفبركة) . وهنا يوجد رد فعل للقومية الاقتصادية التي تدخلت في كافة المظاهرات الشديدة جداً لإرادة استقلال الولايات المتحدة ، حيال أوربة ، التي توالت من حرب ١٨١٢ إلى تصريح مونرو الشهير في ١٨٢٣ : وهكذا بدا أن الجمهورية الأميركية الناشئة والقوية تدفع بضائع الأوربيين مثل جنودهم وإدارييهم . ونحو ١٨٦٠ ، سيطر الشمال الشرقي على الإنتاج الصناعي سواء في بتسبورغ ووادي أوهايو الأعلى ، من أجل صناعة الحديد ، أو الدول الأطلسية من أجل غزل ونسيج القطن ، والآلات النسيجية والخياطة والمواد الحديدية ، والأسلحة ، كل الصناعة المعدنية الخفيفة . ولم يكن القصد بعد الصناعة الكبرى المتمركزة مالياً التي لا ترجع إلا إلى آخر القرن ؛ والمشاريع كانت وما تزال صغيرة بعد ومتناثرة . ولكن طابع مجتمع الشمال الشرقي هو أنه من قبل مجتمع مدني ومصنع ؛ والنخبات فيه كانت نخبات الثروة المنقولة والمشاريع . وحسب إحصاء (تعداد) ١٨٥٠ كان سكان نيويورك ٥١٥٠٠٠ نسمة ، وفيلادلفيا ٣٤٠٠٠٠ نسمة وبوسطون ١٣٤٠٠٠ نسمة .

وفي التقدم الذي أخذته نيويورك (لم يكن لها في ١٨١٠ إلا ١٠٠٠٠٠ نسمة مثل فيلادلفيا) نجد المشهد الآخر للنجاح الاقتصادي الذي حققه الشمال الشرقي : وظيفته كباب وكمنفذ معاً ، لأجل الداخل . وبين ١٨٢٥ و ١٨٥٠ بدلت مبادهات الشمال الشرقي لصالحه جغرافية السير الداخلي في الولايات المتحدة . وفي آخر القرن الثامن عشر

لم تكن الـولايـات لتعرف إلا الطريـق ـ طرق جيـدة متينـة أطفئت تكاليفها بـدفـع الرسوم ـ كوسيلـة للتغلغل في الـداخل من قبل المستعمرين . والجلاء نحو موانئ الشرق من أجل حاصلات المناطق الزراعية الجديـدة . ونحو ١٨٢٥ ، وضعت المصـالح المنظمـة للسفن التجـاريـة تحت تصرف النـاس والبضـائـع واسطـة نقـل رخيصـة جـداً وذات كفاءة قوية ؛ وانتظم السير آنئذ بصورة أساسية تبعاً لشبكة مسسبي ـ أوهـايو ، وميـنـاء أورلئان ـ الجديدة تلقى نحو ١٨٣٠ـ١٨٤٠ دفعاً شديداً . ولكن نيو يورك استفـادت من جـديـد بـإنشـاء قنـاة إيريـيـه (١٨٢٥) ، المتفرعـة على الهـودسـون في منفـذ منخفض الموهوك ـ أجمل ممر عبور عرضاني عبر الآبالاش ـ وعلى بحيرة إيرييـه في بفلو ؛ وتمم بقنـوات أوهـايـو ـ إيرييـه (١٨٣٣) وإيللينـوز ـ ميتشيغـان (١٨٤٨) ، دون حساب الأخرى الكثيرة القليلة الأهمية . وهكـذا نرى أن تيـار مواصلات البحيرات نحو نيو يورك يمكن أن يلتقط تجارة المناطق الوسطى ، بينما طريق الاستعمار ، عوضـاً عن أن ينزل الأوهـايـو ، كان يمر منـذ الآن فصـاعـداً في جنـوب البحيرات . وبـوسطـون وفيلادلفيا مخدومتـان بطرق وصول أبـالاشيـة ضعيفـة كثيراً ، ولم تعرفـا حيـاة لامعـة كنيو يورك .

وما كادت الملاحـة الـداخليـة تنتظم إلا وبحث الأميركيون دومـاً عن وسـائل نقل أسرع وأقل كلفة ، وتحمسوا لأجل الخط الحديدي والآلة البخارية الشاحنـة . وفي هـذه المرة أيضاً كان الشمال الشرقي أفضل مستفيد بمساعدة رؤوس الأموال البريطانية ، ولكن أيضـاً من المؤكـد أنـه قـوي بمـوقعـه الجغرافي المتـاز وبروح وفكر المشروع ، وفي ١٨٢٨ افتتحت أول رحبة خطوط حديدية ، وهي رحبة بلتيمور وأوهايو ؛ وفي ١٨٣٠ ، رحبة موهوك وهودسون ، انطلاقاً من نيو يورك ؛ ثم دخلت فيلادلفيا في المنافسة . ومع ذلك فـإن الاتصـال فيـلادلفيـا ـ بيتسبـورغ عن طريـق بنسيلفينيـا لم يتم إلا في ١٨٥٢ ، والاتصـال بين نيـو يـورك وشيكاغـو في ١٨٥٣ . وعشيـة حرب الانفصـال . وبصعـوبـة استطاعت موبيل ونوفيل ـ أورلئان (أورلئـان ـ الجـديـدة) أن تمهرا نفسيهما بطرق تغلغل

لم تستطع أن تجنب انحطاطاً لا شفاء له . إن التفوق التاريخي لموانئ الشمال ـ الشرقي فرض إذن على الولايات المتحدة محور تنمية اقتصادية يعاكس وضع المناطق الطبيعية في الجنوب .

وأخيراً إن الشمال ـ الشرقي ، وبشكل أدق نيويورك ، يلعب دوراً موجهاً للمبادلات والاعتماد . وحيال الجنوب والغرب ، مصدري الحاصلات الأولية والقليلة أو غير المصنعة ، تقوم نيويورك بوظيفة السمسار والمقرض ، وتحدد الأسعار ، وتشتري المحاصيل ، وتقدم السلف بسعر فائدة مرتفع ، وتبيع المحاصيل المصنوعة الواردة من أوربا ، وكان هدف حرب الانفصال بالضبط أن ينازعها هذا الدور ، لأن القصد كان ، في الحقيقة ، السيطرة الرأسمالية .

الغرب :

الغرب أولاً بالمعنى الضيق للتعبير ، هو البلاد الواقعة بين الأوهايو والبحيرات ، ومنذ الآن السهول فيما وراء المسسيبي . والبشرية التي استحوذت عليه نحو ١٨٢٠ ـ ١٨٦٠ ليست نفس البشرية التي في الشمال ـ الشرقي : وفي الحقيقة ، بالرغم من أن الاستعمار تمكن من أن يكون واقعاً ، في بداية الاتحاد ، فإن فلاحي إنكلترا ـ الجديدة أغروا بهجر مستغلاتهم الصغيرة جداً والفقيرة جداً لأجل استصلاح أراضي أكثر غنى بكثير ، وتم ذلك بصورة أساسية فيما بعد بواسطة المهاجرين الذين لم تتمسك بهم المدن التي استقبلتهم من أجل صلاحيتهم للعمل الصناعي ، ألمان ، إيكوسيون ، غالويون (من بلاد الغال في إنكلترا) وإنكليز . وهؤلاء الناس الجدد شكلوا مجتمعاً ديموقراطياً نسبياً ـ وسواسياً من الملاك المستغلين ، هذا التعبير الذي يجب أن يفهم تحته ملاك ـ مستغل مستقل ، وليس مزارعاً . واهتمامهم المسيطر كان في وضع رأسمال في البدء ضروري لكسب الأرض ومن ثم تباع بالمزايدة بوضع سعر ١,٢٥ دولار للأكر . (أي ما يعادل في فرنسا ٥٢ آر ولكنه يختلف من بلد لآخر) وبـ ٨٠ آكر في الحد الأدنى . واضطر معظمهم إلى الاستدانة لدى بنوك الشمال ـ الشرقي التي أخذت تستغل على بيع الأراضي كما على التجهيز النهري

والحديدي . وإذا كانت المحاصيل جيدة فإن الملاك يتحرر بسهولة ، وفي الحالة المعاكسة ، يبقى زمناً قصيراً أو طويلاً مديراً للأرض لانبيلاً . ويلعب الظرف أيضاً دوراً قاطعاً . والغرب ينتج الذرة ، ويربي الخنازير والأبقار ، ويزرع القمح عن سعة فيا وراء المسسبي ، ويبيع كثيراً إلى الجنوب ، الغني بالقطن أكثر من المواد الغذائية ، وإلى الشمال ـ الشرقي المتمدين بقوة ، وحيث تتطور الزراعة تحت تنافس المناطق الجديدة ، نحو إنتاج الحليب والخضار ؛ وأوربة ليست إلا زبوناً ثانوياً . وإنتاج الغرب يخضع لقواعد الزراعة الواسعة : واليد العاملة نادرة . وهدف المعمرين أن يجنوا من أرضهم ، بأقل مصاريف ، العائد الأعلى قبل بيعها (مع فضل القيمة التي تنتج عن استصلاح الأراضي) والذهاب إلى بعيد لشراء أراضي أخرى بسعر رخيص . وبفضل خدمة هذه الزراعة نمت الآلة الزراعية : الحاصدة ، الدارسة ، قشاشة العشب ، مجففة العشب ، الباذرة ، قلاعة العشب الرديء ، مدحلة لتسوية تراب الأرض ، إلخ ... التي أصبح استعمالها جارياً نحو ١٨٥٠ .

وأبعد من ذلك ، يتصف الغرب بصفة مغامرة كثيراً . فالرواد يمنون فيه على طول الطرق والممرات مثل ممر سانتا فه الذي فتح منذ ١٨٢٠ . وفي كاليفورنيا أوالأوريغون ، مستخدمون في إدارة الغابات ، عمال مناجم ، مربو حيوانات أكثر مما هم مزارعون .

الجنوب :

بينما ترتسم بين الغرب والشمال ـ الشرقي تكاملية وتضامن اقتصادي نرى أن المعارضة الحقيقية التي ما فتئت تتفاقم بين الشمال ـ الشرقي ـ بلد الحركية والرفاه العام ـ والجنوب ، الذي ، هو بالرغم من سعته الأرضية والاقتصادية في النصف الأول من القرن التاسع عشر ، يأخذ وجه منطقة قديمة . والجنوب القديم ، جنوب السهل الأطلسي ظل حتى آخر القرن الثامن عشر منطقة كبيرة منتجة بالدرجة الأولى للتبغ . إن ضعف التربة ، المعالجة بالزراعة الوحيدة ، وغير كافية الأسمدة ، ومنافسة كوبا

وجـذب القطن أدت بـه أخيراً إلى الأفول ؛ ولكن بفضـل هجرة قسم من المـزارعين نحـو الأراضي الجـديـدة ، استعـاد حزام التبغ نشـاطـه حسب المحور فرجينيـا ـ كنتكي ، وفي ١٨٦٤ أصبحت الولايـات المتحـدة بـه ثـانيـةً أول منتج عـالمي . وهـذا الحزام ليس هـو المنطقة الأكثر ميزة في الجنوب ؛ إنه يؤلف انتقالاً مع الغرب والشمال ـ الشرقي ، ونسبـة الشعب المستعبد فيه أضعف بوضوح . ومن جهة أخرى ، في حاشيـة خليج المكسيـك ، يـوجـد حـزام آخر محـدود جـداً في مسـاحتـه ، وهـو حـزام قصب السكر . وبين هـذه الحافات ، منطقة مؤلفة من ١٠٠٠ كم عرضاً على ١٦٠٠ كم طولاً ، تتطـابق مع بعض شروط الرطوبـة ، تؤلف الجنوب الحقيقي ، الجنـوب الـذي فيـه القطن ملـك ، وعمـل الخدمة الدولاب الأسـاسي في الاقتصـاد . وتنميـة جزر الهنـد الغربيـة هـذه في عز القرن التاسع عشر مرتبطة مباشرة بالطلب العظيم للقطن الخـام من أوربـة الشمال ـ الغربي ، حيث بدأت الثورة الصنـاعيـة ، كما هو معلوم ، بميكنـة الغزل ثم النسيج القطني . وقـد أجابه الجنوب بتنمية الزراعة نحو الغرب ، وذلك بأن خلق في السهول الجنوبيـة فيما وراء الآبالاش والمسسبي « جنوباً ثانياً » . وهذا التوسع اضطر نفسه إلى اللجوء إلى عدد عظيم من الأرقاء السود ، في غيـاب يـد عـاملـة بيضـاء محليـة أو مهـاجرة غزيرة بشكل كاف ومستعـدة لقبول هـذا النوع من الاستخـدام والعمل . وهكـذا يتضح أن الرق لم يلغ في الولايات المتحدة ، في الوقت الذي منعت فيـه الرق في ١٨٠٧ : وهنـاك تـدبير جـذري أكثر لم يتبع لأنه ظهر سياسياً وتقنياً من المستحيل الاستغناء عن العمل الشـاق من قبل الزنوج . ومن ١٧٩٠ إلى ١٨٦٠ ، قفز عـدد الأرقـاء قفزة عظيـمة بـالرغم من أنها أدنى من قفزة كامل السكان .

فمن ١٨٠٨ إلى ١٨٦٠ ، حصل الجنـوب على عـدة مئـات الألـوف الأرقـاء بطريقـة الاسترقاق غير القانوني ؛ والبـاقي من العمال الـذين كان بحـاجـة لهم ، جهز لـه بواسطـة « تربية » الأرقاء محلياً المطبقة بخاصة من قبل مزارعي منـاطق الأراضي الفقيرة .

والإنتـاج الكثيف للقطن مـدين أيضـاً كثيراً إلى التحسينـات التقنيـة ، مثل تبني

نوعيات ممتازة (جزيرة البحر ذات الليف الطويل ، وأرض الوسط العليا ذات الليف القصير) واختراع الآلة التي تفصل البذور القطنية ساعد على اختصار عملية طويلة . فمن ٤٠٠٠٠٠ بالة في ١٧٩٠ انتقل الإنتاج إلى ٣٨٤١٠٠٠ في ١٨٦٠ : أي ما يعادل $\frac{٧}{٨}$ الإنتاج العالمي . ومع ذلك فإن هذه النتيجة حصلت في ظروف ضعيفة وغير صحية حقاً . والمزارعون ، ومنهم قبضة فقط ، كانوا ملاكين كباراً جداً ، والباقي نحو أربعمائة ألف لا يستخدم إلا بضع عشرات من الأرقاء ، شكوا من التضاد بين حركة سعر القطن الخام التي ما فتئت في هبوط ، وحركة سعر العبيد التي ما فتئت في صعود . ووجدوا في الوقت نفسه في نظام زراعة واسعة لا يساعدهم في تحسين ربحهم بارتفاع الإنتاجية ؛ وكان تحت تصرفهم أراضي عذراء يمكنهم فتحها كلما نضبت أو عجزت الأراضي القديمة ، التي كانت تتصرف باحتياطي من اليد العاملة المسترقة ، وحافظوا على عادات قديمة في الإسراف في الأرض والعمل . وكيف يتخلون عن هذه العادات ، على حين أن رؤوس أموالهم كانت مستعملة للكسب أو تجديد الأرض وقوة العمل ، ولم يبق لهم منها شيء لتبني الطرق المكلفة في الزراعة الكثيفة حتى ولا من أجل مأجوري العمل الحر ؟ لقد كانت الزراعة الجنوبية تعمل بشكل نظام محكوم لأجل ، ولكن مستعمليه كانوا مقررين الإفادة منه حتى النهاية بدلاً من تصور الاستعاضة عنه بآخر بشكل واضح .

الزنوج في المجتمع الأميركي في عصر الرق :

لقد كان الجنوب محكوماً من وجهة النظر الاقتصادية ، ويبدو كذلك أكثر من وجهة النظر المعنوية . وإن علم الاجتماع المتعلق بماضي المجتمع الزنجي قبل الإلغاء الباقي للإنجاز ، وعلى الأقل في مستوى التركيب ، من المخاطرة اليوم أيضاً أن نثمن ونقدر إذا كان الزنجي الرقيق جسدياً ومادياً كان سعيداً أو شقياً على الزراعة . إن الرقيق له قيمة قوية أكثر فأكثر ، ولا شك في أن الملاك قد سهروا في معظم الحالات على تغذيته ، ومعاملته بشكل لائق ، وتعهده في حالة صحية مُرضية . ومن المؤكد في هذا الشأن أن

التحرير ، قبل كما بعد ١٨٦٤ ، قد أدى إلى تراجع منه إلى تقدم ، وليس بالمؤكد على الأقل أن الخادم ، والمرضع قد وصلا في كثير من الحالات إلى تشكيل رأسمال من الثقة والعطف لدى سيدهما . حتى إن الأرقاء تلقوا أحياناً تعليماً ، على الأقل تقنياً ، بالرغم من أن التعليم اعتبر أنه يشجع على الثورة . ولكن العمل بقي كما كان ، وأقسى إذا كان يتم تحت إدارة النظار . فقد عرف الجنوب في حال الدوام الكوليرا ، الحمى الصفراء ، والملاريا (البرداء) : والناس الملونون كانوا حساسين بخاصة بالتدرن الرئوي (السل) ، والتقرح الجلدي ، وأمراض أخرى يساء التعرف على أصلها . والوفيات بين الأطفال كانت عندهم مرتفعة بخاصة . وفي الغالب ظرفهم الحقوقي والاجتماعي ظل يرثى له . لقد كان الزنجي معتبراً كسلعة غير منقولة ، مرهونة ، يمكن التخلي عنها مع الملك ، والرقيق موضوع تجارة ـ مع تجاره المهنيين ، وقوافله وأسواقه يتغلب فيها من يدفع أكثر . وهو مخلوق أدنى من البشر ،وليس له لا حق الملكية ولا حق الوصية ، ولا حق الشهادة في العدل (على حين أن المحاكم كانت تطبق أحكاماً صارمة على أقل جنحة) ، ولا حق الزواج الشرعي ، وهذا ما يعرضه للزنا ، والبيع المنفصل ، وتعدد الزوجات . والتحرير صعب ؛ ومقبول لأجل الخلاسيين المولودين من نساء حرات ، ومن أجل الزنوج الذين قدموا خدمات في حرب ١٨١٢ـ١٨١٤ أو أثناء الأوبئة ، ويجب أن يضمن بكفالة قوية ومرفقاً بالانفصال عن دولته الأصلية . وفي ١٨٦٠ وجد أن أكثر من ٥٠٠٠٠ زنجي حر من دولتي نيويورك وبنسيلفانيا ، وأكثر من ٨٠٠٠٠ في دولة ميريلاند : ولكنهم لم يكونوا مساوين للبيض . وما فتئ الزنجي يكون رقيقاً إلا لأجل أن يصبح منبوذاً : فحقوقه الأهلية لا وجود لها ، وحقوقه المدنية مقطوعة بكل نوع من الأشكال .

خلاف الشمال ـ الشرقي والغرب مع الجنوب :

وبشكل خارجي جداً والحق يقال ـ لأن الشمال لم يهتم أبداً وبشكل جاد بمصير الزنوج كما هم ـ كان الرق المطروح على بساط البحث في النزاع بين القطاعات في أصل

الحرب المدنية . إن دول الشمال ، منذ ١٨٢٠ تقريباً ، التي أخذت بدعاية إلغاء الرق الذي أساسه في إنكلترا . ويقصد بذلك حركة إنسانية ناجمة تارة عن ليبرالية جذرية وديموقراطية ، وتارة عن الفرق الدينية : الكويكرس (جمعية الأصدقاء أسسها جورج فوكس ، في ١٦٤٨ـ٥٠) ، والأصوليين ، والبريسبتيريين ، ومنهم مهاجرون ، وقسيسون وصحافيون ، والكل يبشرون بالحرية ، فبعضهم مثل وليم لويد غاريسّون ، كان عامل طباعة ، أعطوا لهذا التبشير صفة سياسية ، تبرهن بصورة خاصة على حقوق الانسان . وآخرون ، مثل القسيس البريسبيتاري تيؤدور ويلد ، قاموا بدعاية من طبيعة أخلاقية ودينية فقط . وكتابه (النخاسة كما هي) أثر كثيراً على السيدة بيتشر ، ستووي ، التي نشرت في ١٨٥٢ « كوخ العم توم » ، وانتقل إلى العمل بعض المناصرين لإلغاء الرق في الدول الحرة ونظموا « الخط الحديدي تحت الأرض » ، شبكة شراكة تفاهم عميق ساعدت ، بين ١٨٢٠ و ١٨٦٠ مئة ألف رقيق على الفرار حتى كندا ، حيث لا يستطيع أحد أن يستردهم ؛ والعاطفة الإنسانية اجتذبت عن سعة ، في الواقع ، في أوساط البورجوازية الصغيرة المثالية والمسيحية . وتبع السود نفسهم الحركة بشكل متباين جداً . ففي الدول التي تتعاطى الرق اقتصر عموماً على الثورة الرقية ، مثل ثورة نات ترنر في فرجينيا (١٨٣١) الدولة الوحيدة التي حرمت التحرير . ولكن الزنوج المقيمين في الدول الحرة جهزوا بشخص فريديريك دوغلاس ، رقيق ميريلاند ، اللاجىء في الشمال ، الزعيم النشيط للإلغاء التام والمباشر ، نصيراً للعمل المباشر والعنيف .

وبين الشمال ـ الشرقي والجنوب . كان يوجد ، في الواقع ، تضامن : تضامن الملاك (الأسود ، الرقيق ، كان ملكية ، والرق بهذه الصفة لا يستطيع من حيث المبدأ أن يدمر) ؛ وتضامن الرأسماليين : صناعيي الشمال وكبار مزارعي الجنوب ، كانوا أيضاً معادين لتشكيل محتمل لكتلة ديموقراطية ـ مزارعين ، عمال ، أرقاء محررين . وفي سنوات ١٨٥٠ ، إذا كانت بورجوازية المصالح الشمالية تحزبت لاستعمال الحركة الملغية للرق ، فذلك فقط لأنها اعترفت في ذلك الحين بأن اختلاف المصالح الذي عارضت به

الجنوبيين كان أقوى من تضامن الطبقة ؛ وفي العداء للرق الرسمي في الشمال عشية حرب الانفصال ، لم يكن الأسود موضع تشكيك ، وإنما العثرة التي عارض بها الرق ، درع المجتمع الجنوبي ، هيمنة الشمال في داخل الاتحاد .

الخلاف الاقتصادي :

كانت المشاحنة بين الشمال والجنوب بادئ بدء مشاحنة اقتصاد الزراعة والاقتصاد الصناعي ، والعمل الحر ، والعمل الشاق . فالشمال يرى في الرق وسيلة ليثبت على الأرض ، لصالح الزراع وحده ، كتلة من اليد العاملة بسعر رخيص تستخدمها صناعته طوعياً ، إذ أصبحت مع الحرية متحركة وقابلة للتشغيل . والتشريع الجمركي يعكس بشكل آخر هذه المشاحنة . ففي ١٨٢٤ وفي ١٨٢٨ ، ارتفعت التعرفة ١٨١٦ لمصلحة تجار الأقطان والأصواف ورجال الصناعة المعدنية . احتج الجنوب : وباعتباره مصدراً للقطن كان يخشى معاملة بالمثل من جانب أوربة ؛ وباعتباره مشترياً للمنتجات المصنوعة ، رفض أن يتحمل الثقل الأساسي لتحديد الأسعار أو شبه ـ الحصر الذي أبى الشمال إلا أن يؤمنه على هذا النحو لمنتجاته . وعلى وجه الدقة ، إن السيطرة السياسية للحكومة الاتحادية بالعائلات القديمة ، في فيرجينيا وإنكلترا الجديدة ، انتهت ؛ وبانتخاب جاكسون ، رجل تينيسي ، أخذت مناطق الاستعمار الجديدة الطلبات . وقام الشيخ كالهون ، من كارولينا الجنوبية ، بحملة ضد التعرفة ؛ وفي ١٨٣٢ ، تحملت هذه التعرفة نقصاً أولياً ، اعتبره كالهون غير كاف . وانتهى الجنوب بأن حصل على ما يرضيه ، وبخاصة في تعرفات ١٨٤٦ و ١٨٥٧ ، التي ظهرت بأنها توجه الولايات المتحدة نحو التبادل الحر : والصناعيون الشماليون دعموا الحزب الجمهوري ، ولم يستطيعوا تحمل أكثر من ذلك . والأزمة الاقتصادية في١٨٥٧ جعلتهم يقنعون بأنه كان يجب توطيد الحماية الجمركية .

الخلاف السياسي :

ويأخذ الشمال على الجنوب استعمال الرق للحصول على تمثيل غير متناسب ؛ وقد حسب في الواقع على أساس السكان البيض الذين ازدادوا بمقدار $\frac{3}{5}$ الأرقاء : وهكذا فإن الجنوبيين يمسكون بـ ٣٠ مقعداً على ٦٢ في مجلس الشيوخ ، و ٩٠ على ٢٣٣ في مجلس النواب ، و ١٠٥ ناخبين رئاسيين على ٢٩٥ ، ويسيطرون على اللجان الهامة في مجلس الشيوخ .

التنافس على التوسع :

ولكن الرهان الأهم في التنافس بين الشمال والجنوب ، كان أيضاً رهان استعمار المجالات الحرة والتوسع الأرضي أي استعمار قطاعي الاتحاد الذي يعني أن الذي يأخذ السيطرة منه يؤمن في الوقت نفسه التفوق على الآخر . ويرى الجنوب أن استعمار الاتحاد يعني توسع أعمال الزرع والعبودية ؛ وهذا التوسع المستمر كان نفسه شرط بقاء نظامه الاقتصادي . أما الشمال ، بالعكس ، فإنه يرى أن التوسع لا يفهم إلا كواقع استيطان لصغار المزارعين الذين لا يعرفون إلا أناساً أحراراً ، وعملاً حراً ، ويفتحون دون انقطاع لرأسمالية الموانئ الأطلسية حقولاً جديدة للاستثمار مع تقدم « الحدود » ، المنشط الأساسي للنمو الاقتصادي منذ منتصف القرن . وهذا ما كان رغبة رواد الغرب في رؤية مناطق الاتحاد العذراء تنفتح بحرية لمبادهاتهم التي أوصلتهم في وقت واحد للمطالبة بحكومة فدرالية بشروط أكثر حرية في تخصيص الأرض والتحزب ضد الرق الجنوبي إلى جانب أوساط الأعمال الشمالية ، في داخل الحزب الجمهوري الذي تأسس في ١٨٥٤ .

وخلال أربعين عاماً ، حوفظ على التوازن على أي حال ، بين صيغتي تمليك الأراضي في الداخل . وفي ١٨٢١ تم التفاهم على أن تكون الميسّوري بصورة استثنائية مقبولة كدولة ذات أرقاء ، وعلى هؤلاء أن يقيموا بصورة عادية منتظمة في جنوب

خـط العرض ٣٦,٣٠° شمال خـط الاستـواء . وفي ١٨٥٠ صـوت سكان كاليفـورنيـا على دستـور مضـاد للرق ، ولكن بـالمقـابـل حصـل الجنـوب على الحفـاظ على الرق في كل الأراضي المنتزعة من المكسيك بموجب معاهـدة ١٨٤٨ ، وملاحقـة الأرقـاء الهـاربين على أراضي كل الولايـات . وفي ١٨٥٤ ، ذكرت سـابقـة كاليفورنيـا وحصل الجنـوب على أن يعطى لمستعمري الكانساس ونبراسكا ، وهم في غالبتهم من أصل جنوبي ، دستوراً يسمح بالرق . وفي ١٨٥٧ ، كانت المحكمة العليا في يد غالبية ديموقراطية ، وصرحت بحل وسـط (تسوية) ١٨٢١ غير دستوريـة . وعنـدئـذ اتضحت قوة ردود فعل الجنوبيين : وتهـدد التوازن بالكسر والقطيعة .

وفي ١٨٥٩ حـاول منـاصر أبيض لإلغـاء الرق وهـو جـون براون ، أن ينظم ثـورة للعبيد في فيرجينيا وذلـك بـالهجوم على ترسـانـة فرّي هـاربر : وفي ١٨٦٠ تغلب المرشح الجمهوري إبراهـام لنكـولن في الانتخـابـات الرئـاسيـة بـ ١٨٦٠٠٠٠ صـوت على مرشحين ديموقراطيين منافسين جمعا ٢٢٢٦٠٠٠ صوت . واقتنع الجنوب بأنه خسر المعركـة ، وقـام بمبـادهـة إعـلان الحرب على الشمال (في شبـاط ١٨٦١ : في مـؤتمر ممثلي دول الجنـوب في مونغومري ؛ وكان نيسان شهر بداية الحرب) .

٢ ـ الحرب المدنية ، ونتائجها

أهداف الجنوب وضعفه :

كانت الدولـة التي استلمت زمـام المبـادهـة في حل الاتحـاد ، كارولينـا الجنوبيـة ، حيث أكدت حملات الشيخ كالهون ، عضو مجلس الشيوخ ، وجود عاطفة انفصاليـة . ثم تبعتها جيورجيا وآلاباما ، وفلوريدا ، ولويزيـانـا والمسسبي والتكسـاس ، ثم كارولينـا الشمالية ، وفرجينيـا والتنيسي ، والارنكاسـاس . وهـذه الولايـات (الـدول) الإحـدى عشر تذكر بأنها كانت ذات سيادة وأنها تجمعت في كونفـدراسيون عـاصمتـه ريتشمونـد : وكان الدفاع عن الحكم الذاتي المحلي أحد مواد إيمان المتمردين . والآخر كان مادة الـدفـاع

عن العبودية وتوسعها ، ويدخل فيها الفتح الاستعماري الإمبريالي . وكان رئيس الحكومة الكونفدرالية جفرسون دافيس ، الشيخ ، والضابط السابق في حرب المكسيك ، الذي اشترك في الحملة الرئاسية في معسكر الديموقراطيين المتطرفين الذين كانوا يريدون بسط الرق على كل أراضي الاستعمار وضم كوبا .

وقد بذل الاتحاديون (الكونفدراليون) جهداً حربياً عظيماً : ففي أربعة أعوام ، وجد ما يقارب مليون رجل قد دعوا للجندية ، أي نحو $\frac{1}{6}$ سدس السكان البيض في الجنوب ؛ وقدم المزارعون ضباطاً ملحقين صالحين ؛ ولم ينقص الضباط الأعلون الذين درسوا في ويست بوينت مثل روبيرت لي ، وهو ملاك ثري من فرجينيا وضابط ممتاز في أركان الحرب . ولم تنقصهم المساعدات الخارجية : وبالجملة إن مستهلكي القطن الخام ، بريطانيا ـ العظمى وفرنسا أبدتا عطفهما إلى جانب الجنوبيين ، وقدم لهم الإنكليز القرصان للرد على الحصار الشمالي .

ولكن ثقل هذا التجنيد كان مفرطاً . ومن جهة أخرى ، هرب نصف مليون من عبيد الزراع إلى الشمال وأضعفوا لذلك اقتصاد الجنوبيين . وأخيراً تنقص الجنوب الوسائل للقيام بحرب طويلة الأمد : نقص الزراعات الغذائية المخصصة للسكان المحليين ، والصناعة ـ التي بقيت حرفية ـ والأسلحة والمؤن ، والوسائل المالية ـ القرض والتضخم غطيا ما يقارب كامل النفقات ـ ووسائل النقل على الخطوط الحديدية . وإنتاج القطن اضطرب جزئياً وسقطت مناطق الزراعة تدريجياً في أيدي الشماليين ، ونقص التصدير ، في أفضل حال ، إلى عشر ($\frac{1}{10}$) حجمه العادي .

الشمال والغرب غالبان ورابحان من الحرب :

إذا غلب الجنوب فذلك في الواقع لأن خصومه قضوا عليه من وجهة نظر القيمة العسكرية أو الشجاعة الفردية . وذلك بسبب تفاوت النسبة العظيم في الوسائل البشرية والاقتصادية الذي كان يوجد في الانطلاق والذي تعزز بسرعة في سياق الحرب نفسها .

لقد حشد الشمال والجنوب تسعة عشر ولاية ، واحدة وعشرين بعد إنشاء دولتي كانساس ونيفادا في ١٨٦٤ ، أي على الأقل عشرين مليون نسمة . ولنكولن صف في المعسكر الشمالي السكان السود ، مقرراً ، في ١٨٦٢ ، إعلان تحريرهم ؛ ولكن بخاصة ، المهاجرين وذلك بمنحهم في السنة نفسها حق كسب ١٦٠ آكر (٦٥ هكتار) لرب العائلة ، مقابل دفع عشرة دولارات ، وخمسة أعوام إقامة واستغلال . وهذا القرار بمنح المساكن الريفية أطلق حركة الهجرة في عز الحرب المدنية وساعد الشمال والغرب على دعم مجهود عسكري عظيم (٢٨٠٠٠٠٠رجل جندوا بعد تأسيس الخدمة العسكرية الإجبارية للرجال من ٢٠ إلى ٤٥ عاماً ، في آذار ١٨٦٣) ، دون قطع الاستعمار مع ذلك ، وتقدم الإنتاج الزراعي والاستغلال والتصنيع . فقد وصلت نيويورك مباشرة بـ سَنْ ـ لوي ، وبدئ في أوماها بإنشاء أول خط حديدي عابر للقارة ؛ وشركة الخطوط الحديدية و « نيويورك المركزية » لڤاندربيلت ، قدمت المثل الأول لأكبر تركيز مالي وذلك بجمع كل الخطوط من نيويورك إلى بفلو . والصناعة المعدنية هاجمت بعض أغنى مناجم الاتحاد : حديد البحيرة العليا ، الذي يعمل على أوهايو الأعلى ؛ ونحاس ميتشيغان ؛ والذهب والفضة المكتشفين في الكولورادو ونيفادا ؛ وبترول بنسلفانيا الذي تدفق في ١٨٥٩ في تيتوسڤيل . والمجهزون العسكريون حرضوا بعشرات الألوف المشاريع الصناعية الجديدة ، واقتطعوا لأنفسهم في الموازنة أرباحاً خرافية : كارنيجي في الصناعة المعدنية ، ريمنغتون وهوتشكيس في الأسلحة الخفيفة ، وفاركهار في صنع المحفات للجرحى ، وهاركنس في صنع الروم والويسكي ، إلخ ... وكلفت « الحرب المدنية » الاتحاد (٣١) مليار فرنك ذهبي ، أي من ضعف إلى ثلاثة أضعاف الحرب الفرنسية ـ البروسية في (١٨٧٠ ـ ١٨٧١) : وإذا أحيلت هذه النفقات على الحكومة الفيدرالية كتلة هائلة من الأوراق النقدية ، لأن الشمال عاش هو أيضاً على التضخم المالي ، فقد طبعت على التوسع الاقتصادي للولايات المتحدة تسارعاً في الطفرة التي يقع فيها النشاط العجيب الذي تبع توطيد السلام .

الحرب :

لم تعبر العمليات العسكرية نفسها مباشرة عن تفوق الشماليين . ولم تكن ريتشموند عاصمة الاتحاديين منفصلة عن واشنطون إلا بمائتي كيلومتر نوعاً ما ؛ واستعمل الجنوبيون بمهارة الوديان الطولانية والعرضانية في جبال الآبالاش ليهددوا بتغليف العاصمة الاتحادية وبخاصة بواسطة لاشينانداوآه والبل رن . ومع ذلك ففي أيلول ١٨٦٢ ، حصل الشماليون على أول نجاح في آنتيتام كريك ، أجبر الجنوبيين على الجلاء عن ميريلاند . وفي تموز ١٨٦٣ نجاح آخر واضح أكثر في غيتسبورغ ساعدهم على استعادة فتح البنسلفانيا . وتيقظ اتحاديو ماك كليلآن أفضل من اتحاديي لي . وعلى أي حال ما لبث الشماليون أن تفوقوا مع جيش غرانت الذي كان يقوم بعملياته في غرب الآبالاش : فقد تقدم في تينيسي في ١٨٦٢ ، وأخذ ڤيكسبورغ على المسسپي في ١٨٦٣ ، وقطع الدول الاتحادية إلى قسمين ، لأن الأميرال فرّاغوت في هذه الفترة استولى على أورلئان ـ الجديدة . وفي ١٨٦٤ ، عاد غرانت بصفة القائد العام لتوجيه العمليات في الشرق ، بينما في الغرب قرر الجنرال شيرمان بمصير الحرب . وفي الواقع ، بعد أن جزأ للمرة الثانية قوى الجنوبيين باستيلائه على أتلانتا وسافانّاه في كانون الأول ١٨٦٤ ، صعد نحو الشمال بزحف ٦٠٠ كم ، بينما غرانت كان يجتاز الفرجينيا باتجاه الجنوب . وفي نيسان ١٨٦٥ لي وجونستون استسلما تباعاً في إپوماتوكس وفي درم . وقبل عام أسر الأسطول الجنوبي في موبيل . وكما دل الناقد العسكري ليد دل هارت في كتابه عن « الحرب الحديثة » ، إن حرب الانفصال تصور مسبقاً ، في كل اعتبارات ، حروب النصف الأول من القرن العشرين .فقد لعبت فيها القدرة البشرية دوراً قاطعاً : فمن جانب لآخر ، جند عدد ضخم من الجنود ، والخسائر كانت فادحة (أكثر من ٦٠٠٠٠٠ نسمة في المجموع) . والقوة الاقتصادية كذلك ، مع الأخذ بعين الاعتبار تنوع السلاح واستعمال الطرق الحديدية لنقل الجنود (ومن هنا مصلحة (فائدة) الشماليين لأجل عقد حديدية جنوبية مثل فيكسبورغ وأتلانتا) . وتقدمت المدفعية بهذه المناسبة في

القوة النارية وبدأت تستخدم قطعاً ذات رمي منحن . وحرب المواقع في فرجينيا أدت إلى توسيع وتنمية التحصينات الدفينة . والشماليون قاموا بمناورات جديدة : الإنزال على المؤخرات ، وبخاصة مع شرمان ، حرب الحركة التي ساعدت على تقدم عدة صفوف طويلة على محاور متوازية ، كما في هجومات الجيوش المدرعة في الحرب العالمية الثانية . وعلى البحر ، كان ظهور المدرعات الأولى .

التعمير (١٨٦٥-١٨٧٧) :

لقد كان للحرب المدنية انعكاسات بعيدة على درجة كبيرة من الأهمية ؛ وختامها ، الشكل الذي صفيت فيه نتائج النزاع قد أسهما في تحديد الملامح الكبرى والدائمة للبيئة الإقليمية ، والاقتصادية ، والاجتماعية ، والسياسية للولايات المتحدة ، وروحها الجماعية أيضاً ، ولم يكن هذا إلا منذ ثلاثين سنة ، بفضل الهزات الجديدة مثل هزات **الأزمة الكبرى** في ١٩٢٩ ، والحرب العالمية الثانية ، وبعد الحرب ، حتى بدأ هذا البلد يأخذ سيماء جديدة تختلف جذرياً عن التي كان كسبها في الثلث الأخير من القرن التاسع عشر . أولاً ، النتائج الاقتصادية . لقد أفقرت الحرب الجنوب وأحدثت الاضطراب في الاقتصاد القطني التقليدي . ورافق الهزيمة إلغاء الرق ، الذي أعلن من قبل في ١٨٦٢ في « الأراضي » والمنطقة الاتحادية ، وامتد في ١٨٦٣ لصالح الدول المتمردة ، وتأكد بشكل علني ورسمي وعام في التعديل الثالث عشر (١٨٦٥) :

« لن يوجد في كل امتداد الولايات المتحدة أو في أي مكان خاضع لتشريعها ، لا رق ، ولا خدمة شاقة إجبارية ، باستثناء قصاص جرم ثبت على المجرم » .

وكان يجب على اقتصاد القطن أن ينظم على أسس جديدة كاملة ، أسس العمل الحر ، والمستغَل الصغير، ولم يتوطد الإنتاج إلا في نهاية سنوات اضطراب طويلة . إن الملاكين الكبار الذين افتقروا بنسب متفاوتة ، يؤلفون طبقة رأسماليين أقل قدرة من أي وقت مضى لمباشرة تجديد الجنوب . وعلى هذا الصعيد ، عبر الشمال عن نصره بإرادة

اعتبر فيها الجنوب كمستعمرة حقيقية ، حيث أبى الاستثمار واكتفى بأن يبيع فيها مواده المصنوعة ويمتح منها يداً عاملة من المهاجرين بسعر رخيص . ومنطقة التصنيع البطيء ، وهي الجنوب غرق منذ الآن في تأخر لا يمكن جبره حقاً إلا في منتصف القرن العشرين .

وعلى العكس خرج الشمال غنياً من الحرب . وكما في الحرب الهسبانية ـ الأميركية فيما بعد أو بخاصة الحربين العالميتين ، ساعدت الحرب المدنية في بعض الصناعات ، وفي مشاريع النقل ، تراكماً استثنائياً لرؤوس الأموال هيأ تسارعاً في التصنيع وأعطى الشمال تفوقاً اقتصادياً ساحقاً . فله التقدم التقني ، وله المهاجرون ، وله الإدارة المالية في إبراز أهمية الاتحاد بكامله .

وإلى جانب ذلك ، النتائج السياسية والاجتماعية . فقد أدت هزيمة الجنوب دون منازع إلى تعزيز وجيه للسلطة الاتحادية على حساب الولايات . وفي التطبيق العملي ، فرضت على دول الاتحاد المغلوبة احترام إلغاء الرق ونتائجه ، وإلى تسوية كيفية إدخالها من جديد في الاتحاد . وانتخب أبراهام لنكولن للمرة الثانية في ١٨٦٤ ، ضد ديموقراطي يناصر سلام تسوية (حل وسط) وضد جمهوري « جذري » (راديكالي) تسنده أوساط الأعمال ، وكان يرجو بتعقل وفطنة ودراية توطيداً سريعاً للحياة السياسية الطبيعية في الولايات (الدول) المغلوبة ، وإعادة إدخالها في الاتحاد مباشرة تقريباً ؛ ولكن متعصباً يقتني الرق ويحبذه ، اسمه بوث اغتاله بعد ثلاثة أيام على إعلان نصر الشمال .

أما خلفه جونسون ، وإن كان معادياً للرق ، فقد نشأ في تينيسي ويميل بهذا الواقع إلى بعض المداراة والمجاملة حيال الجنوبيين . فقد سمى مع ذلك في كل ولاية في الجنوب حاكماً مكلفاً بدعوة مؤتمر دستوري ، وأبعد عن الهيئة الانتخابية الموظفين والضباط الذين كانوا قد خدموا أثناء الحرب ، وكبار أصحاب المزارع وطلب إلى

الناخبين الآخرين يمين الولاء للتعديل الثالث عشر . وصوتت المؤتمرات على الدساتير السابقة ، وحذفت منها ببساطة المواد العائدة إلى الاسترقاق ؛ وأغلبية الجنوبيين - المكابرون منهم هاجروا إلى أمريكا الجنوبية أو إلى أوربة - قبلت في الواقع الهزيمة ونتائجها . ولكنهم نوعوا في الحال بدساتير ، « القوانين السوداء » ، وبتعبير آخر بتشريع مميز مخصص للأرقاء السابقين : فقد رأى هؤلاء تطبيق عقوبات مختلفة من قبل المحاكم . ورفض حق التصويت وأحياناً الاجتماع ، وتحريم المهن من غير مهنة الخادم والعامل الزراعي ... وإذن نرى أن بيض الجنوب كانوا يرفضون المساواة للسود ؛ وما كادت مشكلة الرق تحل إلا ونشأت المشكلة السوداء تحت شكل جديد ؛ ففي « الجنوب القديم » الذي لم يمارس بعد فكرة هجرة السود نحو المراكز الصناعية في الشمال والشمال - الشرقي ، قرر البيض سدّ الطريق بكل الوسائل في وجه السود ، وفي الغالب هم الأكثرية ، ومنعهم من الإسهام في الحياة السياسية والإدارية ، وإعاقة صعودهم الاجتماعي .

إلا أن المؤتمر كان منذ ١٨٦٤ ، يسيطر عليه « الجذريون » (الراديكاليون) . وهؤلاء الذين يقودهم الشيخان سومنر وستيفنس يرون أن الجنوب ، بلد متمرد ، مغلوب ومفتوح ، فقد كل حقوقه وعليه أن يدار وينظم حسب رغبة الحكومة الاتحادية ، وأن يخضع لسلطة الحزب الجمهوري ، كما يخضع لمصالح الرأسمالية الشمالية . ويتصور رد فعلهم أمام تسامح جونسون حيال الجنوبيين الذين على ما يبدو أنهم كانوا يبحثون في التمييز العنصري عن ثأر من الشمال . ورفضوا قبول ممثلين وشيوخاً من الولايات التي كانت صوتت على « القوانين السوداء » ، أو أعضاء سابقين في مؤتمر ريتشموند ، وسمى المؤتمر لجنة كلفت بتنظيم « تعمير » الجنوب وتبنى ، بالرغم من معارضة جونسون ، التعديل الرابع عشر :

« لا يمكن لأي دولة أن تطبق قوانين تحدد امتيازات أو حصانات المواطنين الأميركيين ؛ كما لا يمكن لأي دولة أيضاً ... أن ترفض لأي أحد يتبع تشريعها حماية

مساوية للقوانين ... ولا يمكن لأحد أن يكون عضواً في مجلس الشيوخ أو ممثلاً في المؤتمر أو ناخباً لأجل تسمية الرئيس أو نائب ـ الرئيس ، أو يحتل أي وظيفة مدنية أو عسكرية .... إذا ... اشترك في تمرد أو عصيان (ثورة) » .

وانتخابات ١٨٦٦ كانت في صالح الراديكاليين ، فقد استطاع هؤلاء من بعد أن يخضعوا دون شفقة الولايات المتمردة بقرار تجديد البناء في ٢ آذار ١٨٦٧ : إن حكومات الجنوب التي أقرها في مكانها جونسون قد حلت ، وكذلك أرض الجنوب الخاضعة لمدة غير محدودة للإدارة العسكرية ، وقبول التعديل ١٤ المعلن بأنه لا غنى عنه لقبول جديد لمنتخبي الجنوب في الكونغرس .

وعندئذ بدأ دور لم يصفه المؤرخون الذين هم في صالح الجنوبيين بموضوعية ، وتحت سلطة الحكام العسكريين ووضعت قوائم جديدة انتخابية تضم السود ، وانتخبت مؤتمرات جديدة يسيطر فيها السود وفقراء البيض ، وهكذا من ١٨٦٨ إلى ١٨٧٠ استطاعت كل دول الجنوب أن تدخل المؤتمر . وفي غضون ذلك خلف الجنرال غرانت ، بطل الحرب المدنية ، الرئيس جونسون (١٨٦٩) الذي لم ينجح الراديكاليون في وضعه موضع اتهام . ولكن هذه النتيجة لم يحصل عليها إلا بثمن دعاية دبرت لصالح الجمهوريين وقام بها جمهور من العملاء الناخبين الموصوفين بهزء : حملة أكياس سفر من سجاد ، مغامرين قليلي الأهمية ، اهتبلوا فرصة مهنة جميلة لسياسيين ممتهنين . ولا نكران في أن الإدارات الناجمة عن الانتخابات الجديدة رفعت إلى الوظائف الأولى كثيراً من الأميين ، وغير الأكفاء ، والمسرفين ، حتى إن بعضهم كون ثروات مفضوحة . أما بالنسبة للديموقراطيين الجنوبيين فكانت سنوات فوضى بشعة . ولكن بالنسبة للسود ؟ لقد بقي الإعمار في ذاكرتهم كمرحلة وحيدة أعطي لهم في سياقها حق الوجود في الأمة الأميركية ، رجالاً أحراراً ، يعيشون على قدم المساواة مع العرق الأبيض . أما وقد كثر الإقبال من قبل التجار والمستغلين في الجنوب ، فهذا حق . ولكن أيضاً ، لسنوات قصيرة ، ديموقراطية أميركية دون عرقية . وفي الوقت نفسه بذل جهد ـ قطعاً دون

نجاح ـ ليؤمن للسود المساواة الاقتصادية : فعلى الكثير من المزارع الكبرى المهجورة من قبل ملاكيها الموضوعة تحت حراسة السلطات الاتحادية ، نظمت تقسيمات قانونية قليلاً أو كثيراً ، وتألفت تعاونيات الاستغلال أحياناً : وكلف مكتب المحررين مبدئياً بتوزيع ٤٠ آكر لكل رقيق سابق .

وعلى أي حال ، نظم بيض الجنوب المقاومة . وظهرت جمعيات سرية ؛ وأشهرها كو ـ كلوكس ـ كلان (اسم صوت أو لفظة مماثلة للصوت تقلد ضجة بندقية من نموذج قديم يتسلح بها) ، أسست في ١٨٦٧ في ناشفيل.(في تينيسي) على يد جماعة من قدامى ضباط جيش الاتحاد الفيدرالي . وهذه المنظمة الإرهابية التي كان عندها عدة ألوف من السود الذين قتلو لحسابها ، حولت بسرعة الأرقاء القدامى عن عزمهم ، في جو من المشادات العرقية التي لا تنقطع ، وطلبت إليهم أن يكتتبوا على القوائم الانتخابية ، وأن يستعملوا حقهم في التصويت . وفي الحقيقة ، إن المؤتمر حاول الرد بالتعديل الخامس عشر الذي صوت عليه في ١٨٧٠ :

« إن حق الانتخاب التابع لمواطني الولايات المتحدة لا يمكن أن يرفض أو يحصر ... لبواعث لسبب العرق ، واللون أو حالة عبودية سابقة » . وقضى بحل ك.ك.ك (١٨٧١) . ولكن الإساءة جرت : لأن السود ، وقد أخيفوا ، عدلوا عن التصويت ؛ ووجد الحزب الديموقراطي من جديد في ١٨٤٧ الأغلبية في كل برلمانات الجنوب . ولكن اللعبة لم تخسر لأجلهم على الصعيد السياسي وحده . فعلى الصعيد الاقتصادي ، فرت الأرض من أيديهم . وبعض المزارع المثقلة بالديون بيعت بالمزاد : وأفادت بورجوازية المدن في الجنوب ومستغلو الشمال من ذلك . على أن مزارع أخرى أعيدت أخيراً إلى ملاكها ، أو نجح هؤلاء في شرائها ثانية ، على الأقل جزئياً . وبالإجمال ، بالرغم من نقل هام للملكية ، عاشت المزارع والسود الذين كانوا يزرعونها دوماً بقوا فيها بموجب نظام المزارعة (المؤاكرة) ولا يملكون إلا سواعدهم ، ومن ثم ارتبطوا بالملاك ، سادتهم القدامى (السابقين) بعبودية الديون الجديدة .

وفي ١٨٧٦ ؛ يرى أن الانتخابات التالية لرئاستي غرانت أتاحت للجنوب فرصة تصفية مرضية جداً له من التعمير . والمرشح الديموقراطي ، تيلدن ، حصل على أكثرية الأصوات . ولكن الجمهوريين نازعوا صلاحية الانتاخابات في كارولينا الجنوبية ، فلوريدة ، لويزيانا ، والأورغون . والمرشح الجمهوري هيس ، صرح أخيراً بأنه انتخب ، ولكن على أثر مساومة لافتة للنظر : قبل الديموقراطيون الامتثال شريطة أن تنسحب الجنود الاتحادية من الجنوب ، منهية بذلك نظام الاحتلال العسكري . وبتعبير آخر ، ترك الجمهوريون السودَ في الجنوب لمصيرهم البائس (في الواقع ، الجمهوريون المعتدلون ، بعد أن دعموا إلغاء الرق ، بحثوا عن قوة موازنة للسود ، وخشوا أفرقة الجنوب أي جعله أفريقياً) ليكونوا آمنين في الحفاظ على التفوق السياسي الذي كانوا يحتكرونه دون انقطاع منذ ١٨٦٠ ، وبفضله كانوا يريدون متابعة سياسة تطابق مصالح الشمال الاقتصادية ، وبخاصة في مادة الجمارك .

هكذا كان الأصلاء في أميركا ضحايا حرب شعوب دخيلة ، انطلق فيها في القرن الثامن عشر الفرنسيون والإنكليز في أمريكا الشمالية . وقلما نجا منها الهنود السكان الأصليون . فقد تعرضوا للإبادة التامة في القرن التاسع عشر . ودحروا بالحرب أيضاً ؛ واستغلهم بالحركة الاستعمارية الأميركيون والإنكليز والإسبان ، وتركوا المجال رحباً لشعب جريء من محيط لآخر ، من خليج المكسيك حتى البحيرات الكبرى ، وتبع ذلك الاستيطان واستصلاح الأراضي للإفادة من غلاتها على وتيرة كثيفة بعد فاصل حرب الانفصال ؛ الأمر الذي أدى إلى وقوع خلل ، في ١٩٠٠ ، وعدم توازن هام جداً بين الشمال والشرق من جهة ، والجنوب والغرب من جهة أخرى : خلل سكاني ، وخلل اقتصادي ، غالى فيهما القرن العشرون هوناً وجزئياً .

٣ ـ بلوغ الولايات المتحدة

مصف الدولة العالمية العظمى

الحياة السياسية الحديثة في الولايات المتحدة : « نظام الحزبين » :

منذ ما قبل حرب الانفصال ، يرى أن الخلاف العميق الاقتصادي والاجتماعي ، الذي يتعارض فيه الشمال والجنوب ، قد أدى إلى بلورة القوى السياسية في حزبين لم يغيرا عنوانيهما حتى أيامنا : جمهوريون وديموقراطيون . واستقرار ١٨٧٦ ـ ١٨٧٧ أمكن أن يقدم فرصة توقف ساعد على تحديد زبائنهما ، وبرامجهما ، ووسائلهما الانتخابية ، وعلى تقديم إيضاح متجانس اللعب للسياسة الأميركية حتى آخر الحرب العالمية الأولى .

الحزب الجمهوري هو الأقوى جملة بواقع الظروف ـ فقد خدم خدمة جلى بانمحاء الديموقراطيين في السنوات الأولى للأعمار ، وبالازدهار ، الذي انقطع بأزمات عابرة ـ ما فتئت الولايات المتحدة تستفيد منه ـ وبفضل تلاحم عالمها الذهني وزبائنها . فقد كان أولاً ، حزب الأعمال الكبرى ، والرأسمالية الصناعية الكبرى ، والتجارية أو المالية ، وفي رأيه ، أن الدولة يجب أن تدعم هذه الرأسمالية الكبرى بالحفاظ على البنى الاقتصادية والاجتماعية (سيطرة رأسمال التي لا تناقش) ، والسياسية (دولة ليبرالية) وبالحماية الجمركية . وإذا كان حزب الرأسمالية والمحافظة ، إلا أنه على الأقل حزب ديموقراطي ، شعبي ، وقوته الانتخابية حقاً لا تقتصر على قبضة من رجال الأعمال : لأن ـ دوماً حسب الدعاية الجمهورية ـ الرأسمالية الكبرى هي مصدر الرفاه والازدهار ، وإذن هي في خدمة المصلحة العامة ؛ والازدهار يتدفق على الجميع بتجنب البطالة ، وبإتيان أجور مرتفعة ، والتعبير « تشعر به في جيوبك » يؤكد شعاراً للناخب الذي يتهيأ للتصويت جمهورياً . وهذا صحيح بالنسبة للكثير ، إلا في وقت الأزمة ؛ ولهذا فإن غالبية الأميركيين تأتلف وتكتفي بإدارة أعمال الجمهوريين . وفوق ذلك ، الاحتجاجات الشعبية ، ضد إفراط النظام الرأسمالي ، يمكن أن ترتفع بحرية في داخل

الحزب ، وتسبب فيه منشقين . ومن جهة أخرى ، الحزب الجمهوري هو حزب العناصر الأنغلو - ساكسون في السكان ، حزب الأوائل المستقرين ، المتحدرين من « الآباء الحجاج » . وفيما يساوي نجاح أرباب الصناعة الكبار ، يجد التقليد القومي البروتستانتي ويجد لنكولن : الأميركي « المحض » المغذى بالكتاب المقدس . ومع ذلك فإن هذه العرقية السياسية لا تنفي تلاحم سود الجنوب ، أو عناصر من جميع البلدان ، ما أن تمثلت وتأمركت ، إلا وقبلت تكريس النجاح والبورجوزة . وجغرافيا ، إنكلترا - الجديدة (ما عدا بوسطون) ، النيويورك والنيوجرسي (ولا سيما في ظهير البلاد) ، والبنسيلفانيا هي إقطاعات صلبة . ومنطقة البحيرات الكبرى ، الغرب الأوسط هي وفية أيضاً في الحد الذي تكون فيه مأهولة بمهاجرين آتين من إنكلترا - الجديدة ، حيث لا يمسون الجنوب ، وواضعين جانباً حالة المدن الكبرى . والشمال - الغربي والغرب هما غير مستقرين - تابعين لاضطرابات واختلافات انتخابية منسوخة عن اضطرابات الاقتصاد - والجنوب لم يعبر عملياً . والشرق والوسط يؤمنان مبدئياً نجاح رئيس جمهوري ؛ ولكن يجب ألا يكون المستاءون كثيري العدد جداً .

والحزب **الديموقراطي** ، ليس على وجه الدقة إلا ائتلاف مستائين ، وأقليات ، وزبائن محليين على خلاف مع الجمهوريين . ومن هنا الصفة غير الواضحة للبرنامج ، والمعاكسات بين مقاومات (معارضات) مختلف القطاعات الإقليمية . وديموقراطيو الجنوب من عدة اعتبارات جمهوريون حقيقيون : متغطرسون بأصلهم ، ولا سيما الأنغلو - الإيكوسي (لدرجة يدافعون باستشراء ضد السود عن امتيازات العرق الأبيض) ، ملاكون رأسماليون محافظون جداً (وهذا ما ينصب ضدهم الفقراء البيض : ولكن المشاحنة العرقية تغطي كل شيء) . حتى إنهم بدؤوا ينساقون بالحماية الجمركية عندما بدأ تصنيع الجنوب . ولكن ، في الجمهوريين ، يكرهون الغالبين في عام ١٨٦٥ ، المسؤولين عن الإعمار ، والمدافعين عن سلطة اتحادية قوية بتخصيصات موسعة . وديموقراطيو الشرق لا يوجد بينهم ظاهراً شيء مشترك مع السابقين : فهم المهاجرون

الفقراء من أصل غير ـ بريطاني ، تكدسوا في المدن الكبرى ، وبقوا على جانب بعيد من المحتلين القدامى الذين يعتبرونهم غرباء عن البلاد وسلوكهم مغاير ؛ وأنشطهم الإيرلنديون الذين يعتمدون على الكنيسة ، الكاثوليكية ، وماهرون في فتح وكسب السلطات المحلية . وهؤلاء الديموقراطيون الموجودون في مدن الشرق الكبرى هم الجناح الليبرالي للحزب في الجنوب ، المدافعون عن الشعب ضد الأغنياء (في نظرهم ، الشركات الاحتكارية « التروست » تجعل الحياة غالية بالحفاظ على الحماية الجمركية ، وتقتل المنافسة الحرة) . ومع ذلك فإن السود واليهود لا يصوتون لهم ؛ وأكثرهم حظاً من بين ناخبيهم ينتقل بعد ذلك إلى المعسكر الجمهوري . ويوجد أخيراً ديموقراطيو الغرب والوسط . وهم ديموقراطيو مناسبة ، يتركون حزبهم وينتقلون إلى الحزب الآخر ، أي إنهم يتركون الحزب الجمهوري في موسم المحصول الرديء ، وانخفاض الأسعار ، والتعرفة الملائمة جداً جداً للصناعيين ، والزخم لحملة مناوئة للتروستات جاءت كلها تكذب الوعود بالازدهار . وهكذا فإن الديموقراطيين المؤمنين بغالبية ساحقة في عشر ولايات ، من فرجينيا إلى التكساس ، وأقوياء أيضاً في منطقة الاتصال التي تمتد من الأوكلاهوما إلى ديلاور ، ليسوا مطمئنين أبداً عن حظوظهم في الغرب ، حتى ولا في الشمال ـ الشرقي . ولإعطاء كامل أصواتهم يجب أن يعتمدوا على أزمة عامة . وفي الحال العادية ، تفر منهم الرئاسة ولا يمسكون إلا بمواقع محلية (حكام وبرلمانات ولايات) .

والحزبان الكبيران لا يضمان كامل الناخبين . لأن عدم اليقين الأساسي يجعل من كل الانتخابات مغامرة ؛ فإلى من يأتي المستقلون بأصواتهم ؟ وبقوتهم السياسية غير المنظمة يتعلق نوسان السياسة الأميركية . ولكن حصر الحزبين الكبيرين يبقى على الأقل ولا يمس . فلا المستقلون ولا المستاؤون نجحوا في بلوغ نتيجة حسنة في تأليف حزب ثالث بقوة مماثلة لحزبيهم ، بالرغم من جهود المزارعين الراديكاليين في الشمال ـ الغربي ، وبالرغم من محاولات الاشتراكيين . والجمهوريون والديموقراطيون يتنازعون الزبائن الانتخابية كشركتين كبيرتين تتقاسمان سوق منتوج من المنتجات .

حياة الأحزاب :

وعلى هذا فإن قضية الحزبين غير مطروحة على بساط البحث فيما يتعلق بتأليف تحالفات ، وكارتيلات ، وكتل ، وإزاحة الأكثريات بمفاوضات برلمانية ... وتبقى قضية واحدة وهي : كسب الأصوات . لقد أصبح الحزب آلة للاستحواذ على السلطة ، فهو يعتمد على الدوائر الانتخابية (تقسيمات المدن ، الدوائر المجاورة لمدن) . كل حزب ينشئ شبكة عمال (وكلاء) (رؤساء جوار المدن) و (زعماء الأحياء) وعلى العموم تسميهم إدارة الحزب . وهؤلاء أبعد ما يكونون مناضلين ، أو مشجعين متساهلين راضين ، إنهم ممتهنو السياسة مكافؤون بمال كثير مقابل عمل قليل في خدمة عامة يحصل لهم عليها بالضغط على السلطات . والوكيل الانتخابي المنتخب بعناية تبعاً للسيماء العرقية والاجتماعية لدائرته الانتخابية ، هذا العامل ليس له إلا اهتمام واحد : جمع الأصوات . ولهذا يقدم في كل الأوقات كل أنواع الخدمات الفردية ؛ وفي الدور الانتخابي يقوم بزيارات شخصية ، من دار لدار ، ويتغلغل في النوادي والمخازن والمقاهي ، والفنادق ، ويشارك في انتخاب أمكنة التصويت وأعضاء مكاتب التصويت . والأسوأ ، أنه يذهب لشراء ، ببضعة دولارات ، أصوات في الأحياء البائسة في المدن الكبرى أو يغير الأصوات في التصويت . وفي قمة تنظيم الحزب في كل ولاية ، يقوم الرئيس ، الذي ينتخب المرشحين ، بتأليف قوائم وبهذا كان يمسك بيده بشكل سري قليلاً أو كثيراً حكومة الدولة وإدارتها .

جماعات الضغط والصحافة :

ولكن ، في الواقع ، إن السادة الحقيقيين للسياسة هم ممولو مشاريع الأحزاب ، المنظمات الخاصة ذات الموارد القوية العظمى التي تختار لنصر مصالحها في الكونغرس وفي التشريع بوساطة هذا الحزب أو ذاك ، وبالمقابل أن تخلصه من كل قلق مالي ، وأيضاً تقدم له تعزيزاً جوهرياً من الأصوات . وفي الصف الأول . عدد عظيم من

الرابطات الصناعية : فكل حزب له شخصياته العظمية (ماغنات) التي تدعمه بوساطة عطاءات مدعاة للزهو والفخار . ولكن النظام ، بين الحربين العالميتين أخذ كامل توسعه ، ودخل في اللعبة عدد لا يحصى من الرابطات (النسوية والنقابية والوطنية التي تدافع عن إيديولوجيا خاصة أو خطة إصلاحات) . إن سيطرة قوى المال و« جماعات الضغط » امتدت مع ذلك إلى الصحافة الكبرى ، وبهذا إلى الرأي العام الذي يجب تكييف ردود فعله في التنبؤ بالانتخابات الآتية . فإلى جانب « نيويورك تريبيون » ، جريدة « أوربي » رصين ، كانت الولايات المتحدة تملك مع « النيويورك هيرالد » منذ ١٨٣٥ النموذج النوعي لصحيفة يومية رخيصة وبطبعات كبرى ، وبمستوى سهل الوصول ، وممولة بالإعلانات . وبعد الحرب المدنية ، حصل تقدم في الإخبار « المعلومات » (في ١٨٦٦ مدّ أول حبل تحت البحر مع أوربة ؛ وفي ١٩٠٧ تصوير برقي) والمطابع التي أتقنت نحو ١٨٨٥ وطبعت في ١٩٠٠ مقدار ٩٦٠٠٠ صحيفة مؤلفة من ١٢ صفحة في الساعة أدت إلى نهضة كبرى في الطباعة ذات الإحساس التي نظمت على شكل الصناعات المركزة . واشترى جوزيف بوليتزر ، المهاجر الهونغاري ، في ١٨٨٣ ، « عالم نيويورك » ، وأطلق موضة العناوين الكبرى والصور ، والمقالات « ذات الأهمية الإنسانية » أي التي تستغل الفضائح العامة أو الخاصة . من ذلك أن وليم هارست ، ابن شيخ ثري كاليفورني الأصل ، أطلق في ١٨٩٥ جريدة يومية ثمنها سنت واحد ، وكسب نفوذاً عظيماً بمناسبة انتخابات ١٨٩٦ وحرب كوبا ، ونظم سلسلة صحف يومية في الأقاليم تحت إدارة واحدة . وجرى نفس التطور نحو الحصر في وكالات الصحافة ، التي تغذي الجرائد بالأخبار « ذات النمط الواحد » : الصحافة المشتركة ، (١٨٩٢) « مصلحة الأخبار الدولية » (في ١٩٠٦ تابعة إلى هارست) ، « والصحافة المتحدة » (١٩٠٧) وهكذا فإن الرأي المحلي الأساسي فقد كل عفوية وكل استقلال ، واستطاع أن يكون لحد كبير « مصنوعاً » وموجهاً .

ويبدو أن الحياة السياسية الأميركية قد قد عملت من نشاط هذه الصحف الكبرى

المثلة والموجهة للرأي أكثر من المناقشات الدستورية الكبرى (إن النظم الاتحادية كانت قد قويت بانتصار الشمال ، وتركت على أي حال هامش مناورة كبير بما يكفي للشخصيات الرئاسية) ، أو من المنازعات الكبرى الأيديولوجية (لأنه إذا أمكن الكلام عن زبائن الكنائس ، فهي لا تملك على وجه الضبط زبائن سياسية ، ونقاش الرأسمالية ـ الاشتراكية ليس منفتحاً عملياً في الولايات المتحدة ، على عكس المجتمعات القديمة في أوربة) .

هذا الرأي يتألف من عناصر ، مهما يكن تاريخ استقرارها ، لا تفكر أبداً في أن تشكك بالنظام السياسي والاجتماعي ، سواء ناضلت للحصول عليه وكانت هي الرابحة الواضحة ، وسواءً اعتبرته مسبقاً بأنه أكثر ترحاباً من النظام في بلدها الأصلي . إن القضية الكبرى للسكان في الولايات المتحدة ، وبخاصة في مرحلة التوسع الذي تلا ١٨٦٥ ، هي الحصول على تملك قطعة ما ، وإذا أمكن حصة جوهرية . من الازدهار الذي بدا سائغاً للبلاد لمدة غير محددة . رضى أو مظالم المصالح الكبرى الاقتصادية والاجتماعية : هذه هي الحدود المبسطة للحياة السياسية التي يقترن نوسانها بنوسان النمو الاقتصادي .

إنجاز الاستعمار الداخلي :

من ١٨٦٠ إلى ١٩١٠ زاد سكان الولايات المتحدة بمقدار ثلاثة أضعاف ، وانتقلوا من ٣١ إلى ٩٢ مليون نسمة . وفي الواقع إن النمو السكاني أصبح منذ الآن فصاعداً أبطأ مما كان لأنه سقط إلى ٢,١٪ في العام في العقد ١٩٠١ـ١٩١٠ ، مقابل ٣,٥٪ عشية حرب الانفصال ؛ ونحو ١٩١٤ نزلت نسبة الولادة إلى تحت ٣٠ بالألف . وبالمقابل ، كان هذا دور تاريخ الولايات المتحدة الذي كانت فيه الهجرة للسكن في الولايات المتحدة تلعب دوراً هاماً ، وحيث أن هذه الهجرة تعرف تنوعها العرقي الكبير مع وصول الأعداد الروسية القوية جداً انطلاقاً من ١٨٨٠ ، والإيطالية انطلاقاً من ١٩٠٠ ، ولحد ضعيف

المكسيكية والبورتوريكية . واتسع الاستعمار في الغرب الأوسط ، الكاليفورنيا والأوريغون ؛ وأوجد دولاً جديدة في نبراسكا ، والداكوتاتين ، والأوكلاهوما ، وفي الجبال الصخرية (روشوز) دول ويومنغ ، ومونتانا ، واشنطون ، والأيداهو . ونحو ١٩٠٠ ، لم يكن ليوجد عملياً « حدود » في الولايات المتحدة ، وتثبت ذلك في إنزال جزء من سكانها في دول المرج الكندي . وهذا التملك السريع للأمكنة التي ما زالت فارغة كان بوضوح على علاقة مع التجهيز بالخطوط الحديدية ومع الظروف الجديدة في توزيع الأرض . فمن ٤٩٠٠٠ كم في ١٨٦٠ . انتقل طول الشبكة الحديدية إلى ١٠٦٠٠٠ كم في ١٨٧٣ ، وإلى ٤٠٠٠٠٠ في بداية القرن العشرين ؛ وكان أول خط حديدي عابر للقارة الذي يصل أوماها بفرنسيسكو ، قد فتح في ١٨٦٩ ، وتبعته أربعة خطوط أخرى حتى ١٨٩٣ . والاستثمارات الأجنبية في الولايات المتحدة تقدمت بصورة موازية من ٤٠٠ مليون دولار في ١٨٦٠ إلى ١٤٠٠ في ١٨٧٠ ، وإلى ٦٠٠٠ في ١٩١٤ : استثمارات بريطانية في الأساس ، وفيها كان الاستثمار للخطوط الحديدية نموذجياً .

والظروف التي هيئت للمستعمرين بواسطة قرار « المساكن الريفية » قد توسعت بالتدريج : والامتياز فيها بلغ ٣٢٠ ثم ٦٢٠ آكر ، بخاصة على الأراضي الجافة في السهول العالية والهضاب العالية ، وفي مناطق تربية الحيوانات . والاستقرار على الأراضي المباعة تلاحق من جهة أخرى ، إما بعناية حكومات الولايات ، وإما بواسطة شركات الخطوط الحديدية التي تبيع ثانية الأراضي التي خصصتها لها السلطات العامة بصفة إعانة . وأسطورة « الفردوس العدني » في الغرب ، الاحتياطي الذي لا ينضب من الأراضي الحرة المقدمة للتملك الفردي ، كان الواقع التاريخي يقاومها للاستغلال العقاري والتوزيع الجديد للأرض من قبل شركات قوية . فمن ١٨٦٠ إلى ١٨٩٠ ، مليونان من ساكني المساكن الريفية وسبعة ملايين مشتر استقروا على الأقل في الغرب على هذا النحو . ولكن نموذج الاستيطان يتغير كلما جرى التقدم نحو الغرب ، وفي الوقت ذاته تتألف مناطق زراعية جديدة . غير أن غرس السكان كان رخواً ومبعثراً وأخذ هيئة

أرض مزارع مستقلة بين الحقول العريضة جداً لشبكة مواصلات تتطاول منبسطة . ويظهر حزام من الحنطة في غرب الغرب الأوسط ، متميكن بقوة (من الجرارات البخارية ، ثم من الجرارات على البنزين) . وفي المناطق أيضاً التي هي قارية أكثر من غيرها ، أو بين الجبال ، تتطور تربية الحيوانات الواسعة ، المتنقلة التي تنتجع الكلأ والعشب ، مع تقنية سياج بواسطة شريط حديد شائك ، وبتربية حيوانات كثيفة ، أو تتراجع أمام الزراعات المروية والزراعات الجافة . ثم إن البحث الزراعي هو شرط أساسي كخط الحديد من أجل استصلاح الأرض واستغلالها في المناطق لا في الأراضي المنفذة قليلاً ، ولكن الكثيرة الجفاف أو الكثيرة البرودة . والحنطة نفسها تكيفت : والقصد من ذلك نوع حنطة الربيع المشتق من الحنطة الهندية ، والذي ثل عرشه لاحقاً بنوع ماركيز . وفي كلا الحالين حنطة سريعة ومقاومة ، وقد تبنتها كندا .

وعلى المليوني كيلومتر مربع المستصلحة من ١٨٦٠ إلى ١٩١٠ ، يرى أن شركة مزارعي الغرب الجديدة كانت ولا شك أقل رضى عن مصيرها مما يسمح به دورها في ديناميكية الاقتصاد الأميركي . وفي الحقيقة ، من ١٨٦٥ إلى ١٩١٤ ، ما فتئ الغرب ، كقارة دون حدود ودون جمارك ، يمتص الناس ، والبضائع ورؤوس الأموال . ولكن الاستعمار جرى مع ذلك في ظرف انخفاض الأسعار ، على الأقل حتى آخر القرن ، ثم تلاه تضييق السوق الأوربية تحت تأثير الحماية الجمركية - تضييق لحسن الحظ عوض بتوسع مستمر للسوق القومية . ومزارعو الغرب . ضحايا بعدهم ، كان عليهم أن يذعنوا لمتطلبات شركات الخطوط الحديدية التي عوضت خسارتها في حرب التعرفات في الشرق ، حيث كانت المنافسة شديدة جداً ، بزيادة مرتين أو ثلاثة لأسعارها في منطقة السهول الكبرى - ولمتطلبات تروستات تجارة المنتجات الزراعية التي تفرض أسعارها . وما من شك في أن الأرض سعرها مرتفع قليلاً ، ومحاصيل التربة بقيت محافظة على حالها بعض الوقت على مستوى عال ، بالهبة المجانية من الطبيعة ؛ ولكن الطرق الجديدة ذات الزراعة الميكنة ، وشراء الأرض الذي تفوق في الواقع على الامتياز المجاني

لحد كبير ، جعلا من المزارع رجلاً في الغالب مديناً ، وكثير الحساسية بالأزمات الاقتصادية وبحركة تركيز الملكية ؛ وهكذا نجد مزارعي الغرب في معسكر المتنفذين بالتضخم الذين يرجون دعم الأسعار وتخفيف الديون بالمحافظة في التداول على جزء على الأقل من الورق النقدي الذي أصدر أثناء الحرب المدنية ، وعلى نظام العملة المزدوجة الذي يسكّ عملة فضية وعملة ذهبية معاً . ومع ذلك فإن الغرب أيضاً « وبخاصة النيڤادا » كان المنتج لهذا المال وأراد أن تشتريه الخزينة الاتحادية . وفي هذه النقطة حصل على ما يرضيه ، على الأقل من ١٨٧٨ إلى ١٨٩٣ .

التصنيع :

إن الحوادث البشرية والاقتصادية الأساسية الناجمة عن الهجرة الكثيفة في سنوات ١٨٦٥ـ١٩١٤ ، لم تجر مع ذلك في سهول الغرب وجباله ، مهما يكن مدهشاً « فتح مجالها » . ففي شرق وشمال الولايات المتحدة يجب أن نلاحظها : لقد استمرت الصناعة الأميركية بحاجاتها الكبرى لليد العاملة ، في حين أن الغرب ، بكثافته المتناقصة ، لا يملك ، بعد ١٩٠٠ أراضي حرة لتقديمها . وهي التي أمسكت في المدن الكبرى بجماهير المهاجرين العظيمة ؛ فقد وضعوا تحت تصرفها المعادل البشري الذي جهز به الرحيل الريفي وخراب الصناعة الحرفية ، الثورات الصناعية الأوروبية . وانطلاقاً من ١٨٩٠ـ١٨٩٥ ،عندما أتت هجرة الطرح ، هجرة البؤس ، هجرة الفلاحين الإيطاليين ، والإغريق أو السلافيين ، الأميين بأكثر من ٥٠٪ ، الأغنياء فقط بعشرة أو خمسة عشر دولاراً في جيبهم ، وأفاد مستخدموهم أيضاً من نقص المهارة ، ومن غياب الفكر النقابي عند المهاجرين الفقراء المستعدين لأي عمل شاق ، بأي أجرة كانت ، وببساطة قلقين على جمع ما اقتروه من مال (قنوة) ليستطيعوا به الاستقرار والإقامة على حسابهم ، أو للعودة إلى وطنهم . وتكيفت الصناعة مع هذه اليد العاملة المختلفة كثيراً بتيلرة العمل ، وتنميط الإنتاج ـ والتقدم التقني الذي بدوره فيما بعد حدد الدعوة إلى الهجرة . ورمز قوة التيار المهاجر كان قبل كل شيء المدينة الأميركية الأطلسية ، نيويورك على سبيل

المثـال ، التي كان سكانها الخمسة ملايين ، في ١٩١٠ ، بثلاثـة أربـاعهم ، مهـاجرين من الجيل الأول أو الجيل الثاني . وحتى في الغرب نفسه ، ظهرت الزيادة المدنية كصمام أمن حقيقي للاقتصاد الأميركي .

وفي المقـام الثـاني ، أفـاد التصنيـع من الصفـات النـوعيـة للسـوق الأميركيـة التي توضحت في سياق هذا الـدور. فقـد حصل غـداة انتصـار الشماليين ، في ملجـأ الحمـايـة الجمركية الأثرة والكثيرة المغـالاة التي سلمت بهـا الحكومـة بـاسم الغطرسـة القوميـة وعلى إيحاء أوساط الأعمال ، في حين وصلت الصناعة إلى درجة النضج . إن الحمـايـة الجمركيـة والازدهار ظهرا غير مفترقين عن بعضها ، فقد خضعت تعرفـة ١٨٦٤ إلى تعـديلات كان أكثرها يذهب في اتجاه الزيادة . إلا أنه في سنة ١٩١٣ ، في بـدايـة إدارة الرئيس ولسون الـديموقراطي . انقلب الميـل الـذي ظهر حتى ذلـك الحين مـلائمـاً بخـاصـة للرأسماليـة الصناعية ، إلى صالح المستهلكين . وهذا السوق الداخلي المتحفظ بحرارة كان نفسه عظيم المرونـة ؛ وبسبب الزيـادة السريعـة لكامل السكان ، بـالتـأكيـد ، ولكن أيضـاً بسبب ارتفاع موارد هؤلاء السكان . وبالرغم من الهجرة إلى الولايات المتحدة ، فإن الحاجة إلى اليد العاملة كسوق العمل بقيت ملائمة للعامل : فنحو ١٩٠٠ ، كانت الأجور الأميركيـة أعلى بمرتين أو ثلاث مرات من الأجور الألمانية ، وهـذا مـا يشكل تشجيعـاً إضـافيـاً إلى الميكنة . وبعد سنوات قليلة ، كان « ماغنا » السيارة ، هنري فورد ، يفضل دفع أجور عالية . والرأسمالية الأميركيـة ، وعلى الأقل في دور الازدهـار ، كانت أول من قبل بـأن قانون الربح كان له كل شيء ليكسب بتنشيط القوة الشرائية لدى المستهلكين .

وإلى السوق الداخلي العظيم يجب أن نشرك تحديث التقنية والقوة المالية للشركات في إيضاح النجاح الصناعي للولايات المتحدة : على أن طبيعة السوق مسؤولة لحد كبير عن هـذه الظروف العـامـة لـلإنتـاج . إن أميركيي الشمال الـذين تمثلـوا بصـورة عظيمـة التقنيات الجديـدة في الصنـاعـة المعـدنيـة التي حسنت في إنكلترا سنوات ١٨٥٠ـ ١٨٨٠ ،

تقدموا في الاستعمال الصناعي للكهرباء والبترول ، وخرجوا هكذا الأوائل من « عصر الفحم » . ونحو ١٩٠٠ ، كان ٣٠٪ من الآلات مجهزة بالكهرباء ؛ والهاتف تحسن على يد بيلّ في ١٨٧٦ ،والمصباح المضيء بالحرارة العالية على يد أديسون في ١٨٧٨ ، أضيئت نيويورك كهربائياً منذ ١٨٨٢ . والشركات الأميركية (الكهرباء العامة) و (ووستنغهاوس) هي التي أقامت الصناعة الكهربائية في بريطانيا ـ العظمى نفسها ، أو في اليابان . ومنذ ١٩٠٣ إلى ١٩١٤ كان فورد قد صنع في ديترويت أكثر من مليون عجلة سيارة .

وفي كل الفروع الصناعية ، أثارت متطلبات الإنتاج العظيم والتقنية ، والبحث عن أعلى ربح ، تمركزاً مالياً . وفي الطريق الذي فتحته شركات الخطوط الحديدية ، كانت الأولى صناعة البترول : ففي ١٨٨٢ نشأت « ستاندارد أويل » لمؤسسها جون روكفلر الذي في بضع سنوات استطاع أن يسيطر على ٩٠٪ من الشركات البترولية .ثم جاء دور صناعات تحويل المنتجات الزراعية ، تنقية السكر ، والتبغ الأميركية ؛ والصفائح المعدنية ، وماكينة لأجل اللحم . ونحو ١٩٠٠ وصل التركيز إلى الصناعة المعدنية : فولاذ الولايات المتحدة في (١٩٠١) ، ثم الماكينات (الآلات) الزراعية ، والعتاد الحديدي ، والمناجم ، والصناعة الكيميائية إلخ ، ونشأة « فولاذ الولايات المتحدة » قدمت مثالاً جيداً لميكانيكية هذه التمركزات . وفي الانطلاق شركة بتسبورغ المعدنية ، شركة أندرو كارنيجي . فقد امتصت أولاً كل الشركات المنافسة في المدينة : وهذا ما يطلق عليه اسم : التمركز الأفقي . ثم إن كارنيجي اشترت معمل فحم الكوك ، ومناجم الحديد ، والطريق الحديدي الذي يصل منجم فحم الكوك العظيم من كونّيلسفيل إلى بتسبورغ ، وأسطولاً على البحيرات الكبرى : وهكذا نشأت شركة كارنيجي للفولاذ . والآن وجد التمركز الشاقولي (الذي يجمع عدة صناعات تؤدي إلى منتوج واحد) . وعندئذ تدخل بنك مورغان (أحد أعظم الثروات القديمة للولايات المتحدة مع فاندربيلت ، الذي شيد أيضاً على الطرق الحديدية) . لأنه انطلاقاً من

مستوى معين ، لا يمكن للاتحادات أي ذوبان المشاريع بيعضها دون مساعدة البنوك . فمورغان ساعد على امتصاص الشركات المنافسة : شركة الفولاذ الاتحادية ، شركة الفولاذ القومية ، « شركة كولورادو للمحروقات (الوقود) والحديد » ... وهكذا نشأت شركة « فولاذ الولايات المتحدة » ، برأسمال مليار وأربعمائة مليون دولار . وبفضل أزمة ١٩٠٧ ، صلبت بشراءات جديدة سيطرتها على السوق . وفي ١٩١٤ ، أنتجت ٥٠ إلى ١٠٠٪ من فحم الكوك والصلب والفولاذ وصناعة التصفيح في كل الاتحاد . وفي نفس التاريخ سيطر مورغان ، وفرعه « البنك القومي الأول » وحليفه « بنك المدينة القومي » على ٣٤١ شركة رأسمالها أعلى من ٢٢ مليار دولار .

إن ظهور هذه الإمبراطوريات الاقتصادية القوية تسبب في رد فعل دفاعي في عدد من الأوساط الاجتماعية . فالمزارعون شكوا منذ سنوات ١٨٧٠ دكتاتورية الأسعار التي تفرضها عليهم الائتلافات ، كأن يكون القصد تعرفات الخطوط الحديدية ، أسعار الشراء للمحاصيل الزراعية أو التجهيز بعتاد الزراعة . والشكوى أيضاً كانت من واقع بعض الصحافيين ، والنقابات الأولى . ولكن الطبقات الشعبية لم تكن الوحيدة التي أحست بأنها مهددة من جبروت الأعمال الكبرى ؛ والطبقات الوسطى ، وبخاصة أعضاء المهن الفكرية والليبرالية خشيت على جاهها من التصنيف الأعلى الذي يضمنه منذ الآن فصاعداً للأغنياء الجدد واقع تملك الدولارات بالملايين . وخاطر المجتمع الأميركي بأن لا يكون المجتمع الذي يعطي لكل واحد حظوظاً متساوية للنجاح . وفي عالم الأعمال نفسه ، كان الصناعيون المستقلون معادين للاحتكارات ، أي هذا الوسط الذي خرج منه منذ ١٨٨١ ، « العصبة القومية المناوئة للاحتكار » وذلك قبل بضع سنوات على تشكيل « أحلاف المزارعين » . ولكن قوة الأعمال الكبرى في داخل الكونغرس منعت الحركة القومية ، « الشعبية » الأميركية من الحصول على التصويت على تشريع فدرالي نافذ ضد توسع قطاع حصري في الاقتصاد : إن قانون ١٨٨٧ على التجارة الداخلية بين الولايات ، وقانون شرمان في ١٨٩٠ في الاحتكارات لم يطبقا عملياً وكانت أحكامها على

أي حــال غير كافيــة . إلا أنــه في بــدايــة القرن العشرين ، ظهر النضــال المعـادي ـ للاحتكار ، أكثر نفـاذا بقليل ، بـدافع من تيؤدور روزفلت (قرار هيبـورن ١٩٠٦) وودرو ولسون (قرار كـلايتـون ١٩١١) ؛ ويحفـظ منـه الحـل الفعلي لشركـة ستاندارد أويل في ٣٣ شركة مستقلة . وهكـذا شعر رئيس جمهوري ورئيس ديموقراطي بـأنـه يجب اتخـاذ إجراءات للحـد من تفـاقم الفواصل في داخل المجتمـع الأميركي . ولكنـه عشية الحرب العالمية الأولى ، وجد أن حرية عمل المصالح الكبرى لم تهدد بشكل جدي . وأدت الليبرالية لظفر الانتقاء الطبيعي .

لقد نما الإنتاج الصناعي على سلم هـذه الوسـائل . وانتقل بين ١٨٥٠ و ١٩٢٠ ، من ١ إلى ٦٣ مليـار دولار . ومنـذ ١٨٩٤ ، أمسكت الـولايـات المتحـدة بـالصف الأول بين الـدول في الصنـاعـة المعـدنيـة . وفي ١٩١٣ ، أنتجت ٣١ مليون طـون من الفـولاذ ، أي ضعفي الإنتاج الألمـاني الـذي جـاء في الصف الثـاني . وفي ١٩٠٠ ، كانت في رأس مجموع الإنتاج الصنـاعي . ولم تعـد إنكلترا الـدولـة الفحميـة الكبرى : فبـإنتـاج أعلى من ٥٠٠ مليون طون من الفحم الحجري ، تجاوزتها الولايات المتحدة بسعة عظيـمة جـداً . ولحـد ما ، حد البيان المفصل (الجرد) التدريجي للثروات القومية ، وأكثر أيضاً حد الانتقال نحو الغرب لمركز ثقل الاستيطان ، بسطت الصناعـة قواعـدهـا الجغرافيـة . إن منطقـة البحيرات ، من ديترويت إلى شيكاغو وإلى دولوث ، أصبحت مركزاً ثانويـاً للصنـاعـة المعدنية ، والمنطقـة الكبرى للإنشـاء الميكانيكي ؛ وتبـدو شيكاغو ، مركز توزيع لشبكـة الخطوط الحديدية ، والرأسمال الاقتصادي لكل منطقة السهول ، بأنها جادة في أن تسبق نيويورك التي لم تسبقها قطعياً إلا في سياق الأزمة الكبرى في سنوات ١٩٣٠ . ويبدو أن الجنوب يجد ثانية حظوظه في الصناعة المعـدنيـة في جنوب الآبـالاش ، وتنميـة صنـاعـة القطن واستخراج البترول .

٤ ـ نشوء الإمبريالية الأميركية

النمو الاقتصادي والإمبريالية :

في آخر القرن التاسع عشر ، توضح درجة التطور ، التي بلغها الاقتصاد الأميركي ، بعض النواقص في قواعده الطبيعية والقومية . وبالرغم من أن الولايات المتحدة كانت مهتمة بأن تصبح معمل العالم ، وليس فقط نبراً (شونة) له ، فلم تكن لتهتم بتصدير منتوجات مصنوعة : فالصناعة كانت تبيع بصورة أساسية في السوق الداخلي الذي تنعشه « الحدود » دوماً : على أن الأكثر إكراهاً لها كان في ضرورة تموينها بمنتجات الزراعة المدارية ؛ وترجح من جهة أخرى أن تتم باستيراد تجهيزها ببعض المواد الأولية التي تكون الحاجة إليها عند مقتضى الحال ، مغطاة بتصدير زخم لموارد ما تحت الأرض الأميركية نفسه . وفوق ذلك ، لقد ساعد النهوض الرأسمالي على تراكم رأسمال قومي للتنمية الاقتصادية الداخلية ، ولكنه اتجه أيضاً نحو الاستثمارات الخارجية . وهكذا نشأتْ إمبريالية اقتصادية ومالية ربما يمكن أن تكون أولاً ، سياسة مواد أولية .

في ١٨٩٧ ، عشية الحرب الإسبانية ـ الأميركية . لم تضع الولايات المتحدة للربح ٧٠٠ مليون دولار خارج حدودها . وفي ١٩١٤ ، أصبحت أكثر من ثلاثة مليارات ونصف ، أي تقرْيباً نصف قيمة رؤوس الأموال الأجنبية الموضوعة للربح في الولايات المتحدة . وأراضي الانتقاء لهذه الاستثمارات كانت كندا والمكسيك ، مع كل منهما أكثر من ٨٠٠ مليون . وفي كندا ، كان موطئ أقدام الأميركيين في الصناعة الاستخراجية ، وصناعة الورق ، والخشب ؛ وفي المكسيك في الاستخراج وإذابة الفلذات المعدنية ، وفي الصناعة البترولية . وجاء الرأسمال الأميركي ينافس الرأسمال البريطاني في أمريكا اللاتينية ، التي جعل الأوربيون منها مزرعة كبرى ، ومنجماً جسيماً مخصصاً لتموينهم . إن كوبا ، وبورتوريكو وسان ـ دومينغ أصبحت المجهز بسكر القصب للبلد المجاور الكبير ؛ ونشأت شركة الفاكهة المتحدة في ١٨٩٩ من ذوبان شركتين للموز وغطت

بحصر حقيقي كوبا ، وجمايكا ، وسان ـ دومينغ ، وكوستا ـ ريكا وحتى كولومبيا ؛ وخارج أمريكا الوسطى كانت الشيلي ، الغنية بالنحاس ، هدف استثمارات وجيهة . وباقي الاستثمارات الأميركية كان مهملاً : لا شيء في إفريقية ، ولا شيء في أوربة ، وفي آسيا كانت قروضاً للحكومة اليابانية .

أشكال السياسة الإمبريالية :

إن الأهمية الجديدة للمصالح الأميركية خارج الولايات المتحدة أعطت محتوى إيجابياً للمذاهب والنزعات الإمبريالية التي كانت ، منذ زمن طويل في هذا البلد ، وتضع قضية تغيير في وسائل عمل السياسة الخارجية للاتحاد .

لقد كانت الإمبريالية الأميركية في نشأتها في « مذهب مونرو » : وهو تصريح ١٨٢٣ ، وبه أعلم هذا الرئيس للولايات المتحدة عن عزم بلده على معارضة كل سيطرة أوربية على القارة الأمريكية ، وهذا التصريح يعني في الأعماق بأن الولايات المتحدة تشعر تماماً بتقدمها السياسي والاقتصادي ، وترى أن تحتفظ لنفسها ولزمن طويل بحق أن تفرض على الدول الفتية اللاتينية ـ الأميركية نموذجالعلاقات أكثر تطابقاً مع مصالحها . ولقد رأينا فيما سبق في سنوات ١٨٤٠ مذهب « النصيب الأوفى » والخلاف مع المكسيك عطفا السياسة الأميركية إلى جانب التوسعية الأكثر فظاظة . ومن ثم بريطانيا العظمى ، السيدة الفعلية للسوق الأميركي ، كانت قد نجحت في حصار هذا التوسع في أميركا الوسطى ؛ والمصاعب الداخلية للولايات المتحدة كانت قد اضطرتها أن تبقى حتى ١٨٦٥ بصفة مشاهد عاجز عن تدخل الجنود الفرنسية في المكسيك .

ولكن في السنوات ١٨٨٠ ما أن تغلبت على محك « التعمير » وفي عز مرحلة التوسع الاقتصادي ، إلا ووجد أن كثيراً من الأوساط الأميركية ، جامعيين ، رجال سياسيين ، ومن بعد رجال أعمال ـ قد نجت بصعوبة من إغراء مزدوج :

الأول : يذكر ببريطانيا ـ العظمى الليبرالية في النصف الأول من القرن التاسع عشر : وهو أن بريطانيا شعب متكبر بنجاحه وهذا النجاح أنمى فيه الاعتقاد بالتفوق . وقدرت الولايات المتحدة بأنها فهمت ، أفضل من الشعوب الأخرى ، أسس التقدم الإنساني ، ولذا فإن الآمريكان يعتقدون بأنهم مكلفون بأن يفيدوا بذلك المناطق المتخلفة .

والثاني : هو صفة مميزة لكل بلد يشعر بقوته المادية ، وبالتالي يرغب باستغلالها ، أو الحصول منها على التكريس على صعيد القوة السياسية : وانه لإغراء يعززه المناخ العالمي للمنافسات القومية والاستعمارية ، ونضالات الوجاهة لسني ١٨٧١ـ١٩١٤ . ومن المؤكد ، أن كتلة الناخبين تبقى متعلقة بفكرة أن الولايات المتحدة التي طرحت قبل قرن الرعوية الاستعمارية لا يمكن أن تفرضها على الآخرين . إلا أن الكنائس ترى في الإمبريالية عنصراً ملائماً لتوسعها الروحاني ، وأوساط الأعمال تراها ضرورية للدفاع عن مصالحها ، وحركة الأفكار يمكن أن تفسرها في عمل سياسي . وفي بضع سنوات ، حول ١٨٩٠ ، حقق كثير من الكتب نجاحاً عظيماً : مثل كتاب الأميرال الفرد .ت . ماهان ، آمر المدرسة الحربية البحرية في نيوبور . فهو يرى أنه لا يمكن أن تكون هنالك دولة عظمى دون سيادة على البحر ، وكتاب أستاذي جامعة ، فيسك وبرجس ، اللذين يدعوان إلى إذاعة ونشر التجارة والمفاهيم الليبرالية والديموقراطية المتعارف عليها في الولايات المتحدة . وفي نفس السنة أطلق أمين سر الدولة بلين سياسة الجامعة الأميركية ، والرئيس في المستقبل تيؤدور روزفلت ، الذي جسّد الإمبريالية الأميركية تحت شكلها الأكثر عدواناً ، بدأ حياته السياسية .

سياسة القواعد البحرية :

في ١٨٨٧ أقام الأميركيون قاعدتهم البحرية الأولى في المحيط الهادئ في جزر هاواي (بيرل هاربر الواقعة قليلاً في غرب هونولولو) ؛ وفي ١٨٩٨ ضموا الأرخبيل ، بفضل

فساد النظام السياسي المحلي وضغط زراع قصب السكر . وفي ١٨٩٢ ، تقاسموا مع ألمانيا ، أرخبيل الساموا . وفي ١٨٩٨ أيضاً ساعدت الحرب مع إسبانيا على كسب جزر الفيليبين وجزيرة غوام . وهكذا وجد أن طرق التجارة الأميركية محمية مع أوستراليا وبخاصة الشرق الأقصى ؛ وفي ١٩٠٠ـ١٩٠١ ، شاركت الولايات المتحدة بقسط نشيط في قمع ثورة البوكسر دفاعاً عن مبدأ المنافسة الحرة التجارية الدولية في الصين (سياسة الباب المفتوح) وهذه الأخيرة امتصت في ذلك الحين ٢٠٪ من كامل صادرات الولايات المتحدة .

وفي بحر الآنتيل ، تتعلق السياسة الأميركية في الواقع بنفس الأهداف التي في المحيط الهادئ ، لأن القصد تغطية اقتراب قناة مستقبلية بين المحيطات . ولهذا ، يجب أولاً حذف المصالح الأوربية في هذه المنطقة : في ١٨٩٥ ضغط الرئيس الديموقراطي كليفلاند على بريطانيا ـ العظمى لفرض تحكيمه ـ عمل رمزي ـ في الخلاف الإنكليزي ـ الفينيزويلي في موضوع الحدود الغويانية ؛ وفي ١٨٩٨ ، وجد الأميركيون حجة للتدخل في جزيرة كوبا الثائرة ـ ولم تكن هذه أول مرة ـ ضد السيطرة الإسبانية ، أقل بكثير لدعم حركة استقلال منها لتثبيت وجود مصالح اقتصادية وستراتيجية للاتحاد في هذه النقطة . وأصبحت كوبا دولة مستقلة نظرياً ، ولكنها في الواقع مرتبطة بشكل وثيق بالولايات المتحدة : وقد احتفظت هذه الدولة فيها بقاعدة بحرية وهي قاعدة غوانتانامو ، وباستطاعتها أن ترسل إليها جنوداً لتأمين النظام الداخلي أو الدفاع القومي ، وكان من المتوقع أن استقلال الجزيرة لا يمكن أن ينقل على وجه الاحتمال إلا لصالح الولايات المتحدة ، وبالمقابل ضمت بورتو ريكو ، كالفيليبين وغوام ، ووضعت تحت الإدارة الأميركية .

وأفادت الولايات المتحدة في آن واحد من الصعوبات الاستعمارية التي تواجهها بريطانيا ـ العظمى في إفريقية الجنوبية ، وفاوضت بمعاهدة هاي باونسفوت (١٩٠١) التي ألغت معاهدة كلايتون ـ بولور ، وتعترف للولايات المتحدة بالحق في

أن تنشئ وحدها القناة والحفاظ عليها عسكرياً . وفي ١٩٠٢ ، عدلت الولايات المتحدة عن بنائها على أرض نيكاراغوا ، كما تسمح لها معاهدة موقعة مع هذه الدولة في ١٨٤٩ ، واختارت رسماً عبر برزخ باناما ، الذي كان أرضاً كولومبية ، حيث فتحت فيها من قبل شركة أميركية خطاً حديدياً في ١٨٥٥ ، وحيث وجد فردينـانـد دولسبس ضحية نقص رؤوس الأموال ، وعدم كفاية العتاد والبيئة الطبيعية ، وكان أول من حاول بحق (١٨٨٣ـ١٨٨٨) تأسيس الطريق المائي . والمعاهدة ، التي تم التفاوض بها مع كولومبيا ، والتي كانت تنازلت بموجبها للولايات المتحدة عن شريط أرضي ، طرحت ولم يقبل بها برلمان بوغوتا (١٩٠٣) ، وقد استخدم الرئيس الجمهوري تيؤدور روزفلت ، معاوناً سابقاً لفردينـانـد دولسبس ، واسمه بونوڤاريللا ، للقيام بثورة في منطقة البرزخ التي أبدت نوايا الانفصال ؛ والدولة الجديدة البانامية التي نشأت تحت حماية الأسطول الأميركي امتثلت مباشرة لإرادة واشنطون . وحفرت القناة انطلاقاً من ١٩٠٦ وفتحت للمواصلات في ١٥ آب ١٩١٤ : والمسافة نيويورك ـ سان فرانسيسكو ، بطول ١٣٠٠٠ ميل بطريق مضيق ماجلان ، سقطت إلى ٤٠٠٠ ، أي اقتصاد المسافة بـ ٦٠٪ والمسافة نيويورك ـ هونغ كونغ انتقلت من ١٦٠٠٠ إلى ١١٠٠٠ ميل (٣٠٪ على الأقل) . وإذا وضعت القناة تحت التصرف الحر لجميع البلاد ، فعلى الأقل وضعت تحت السيطرة الخاصة بالولايات المتحدةالتي بسطت ضمانها العسكري لجمهورية باناما . ومنذ ١٩٠٣ برهن روزفلت عن إرادته المطلقة بإبعاد الأوربيين عن جوار القناة بإرسال الأسطول لحماية السواحل الفينيزويلية ضد تهديد إنزال الألمان الذين تصوروا استعمال القوة لتدخل من جديد في اعتماداتهم لدى حكومة كاراكاس . وفي ١٩١٧ أيضاً ، سيتم الأميركيون نظامهم الدفاعي بشرائهم من الدانيمارك ، الجزر العذراء ، الأولى من قوس جزر الآنتيل الصغرى ، في شرق بورتو ريكو .

الجامعة الأميركية :

لقد جاء النشاط السياسي في الإعمار البحري ، انطلاقاً من ١٨٩٠ يؤكد ويثبت هذه الإرادة الأميركية في الإسهام بسيادة البحار . وعلى القارة ، كان رجال السياسة في الولايات المتحدة يفكرون بأن على بلدهم ، بفضل تفوقه الواقعي ، أن ينظم الدول اللاتينية ـ الأميركية في حلف تجاري وسياسي . وفي ١٨٨٩ـ ١٨٩٠ دعا أمين سر الدولة بلين إلى واشنطون أول مؤتمر أميركي جامع لدول أمريكا . وكان البرنامج واسعاً : إنشاء اتحاد جمركي ونقدي ؛ تحسين المواصلات الحديدية والبحرية ؛ التحكيم في كل الخلافات التي يمكن أن تقوم بين الأمم الأميركية . ولكن الجامعة الأميركية اصطدمت بالحال بعداء الأوساط الفكرية ، في دول أمريكا ـ الجنوبية ، التي انتقدت نزعات الهيمنة عند الولايات المتحدة ومن ثم فظاظة سياستها ؛ واصطدمت أيضاً بلامبالاة المصالح الاقتصادية : لأن الروابط التجارية والمالية كانت صلبة ومتينة جداً مع أوربة .

وإذا لم تستطع الولايات المتحدة تأسيس الجامعة الأميركية بناء على رضى وقبول مشترك ، فقد جعلت منها عندئذ سياسة قوة وحيدة الجانب . وقد عرف تيوّدور روزفلت روحها عندما صرح أمام مجلس الشيوخ ، في ٦ كانون الأول ١٩٠٤ ، بأن الحفاظ على النظام وسلطة الشرطة الدولية يجب أن تمارسها الولايات المتحدة في كل مكان يمكن أن تكون مصالحها مهددة فيها . وهذا هو أصل السياسة المسماة « سياسة العصا الغليظة » . وقد جربتها كوبا خلال أكثر من عشرة أعوام من الاحتلال العسكري الأميركي . ولكن أيضاً المكسيك : في دور الفوضى الذي أعقب دكتاتورية بورفيريو دياز (١٨٦٧ـ ١٩١١) ، تدخلت الولايات المتحدة لتشجع الأحزاب والرجال الذين وعدوها بتنازلات اقتصادية جديدة ؛ وفي نيسان ١٩١٤ تم إنزال أميركي في فيراكروز وقلب حكومة هويرتا المشبوهة بتشجيع المصالح البترولية البريطانية ؛ وخلفه كارّانزا كان ، منذ شهر أيلول ، في نزاع مع الحرب الأهلية ، بواقع ثورة الجنرال پانشو ڤيللا ، الذي يأخذ عليه مجاملته للمصالح الأميركية . ولما كانت الاستغلالات

المنجمية والبترولية قد شلت بسبب الاضطرابات ، فإن الولايات المتحدة انتهت إلى أن تدخلت من جديد في ١٩١٦ بواسطة جيش حملة مؤلف من ١٥٠٠٠ رجل . وعبثاً خلال ما يقارب عاماً حاولت هذه الجنود أن تأسر ڤيللا الذي أصبح مع زاباتا بطل القومية الشعبية التي تمزج كره اليانكي (سكان الولايات المتحدة الأنغلو ـ ساكسون) وتطلعات الفلاحين الهنود إلى إصلاح زراعي . وفي الوقت نفسه ، خضعت الجمهوريات الدومينيكية ، والهايتية ونيكاراغوا إلى نوع من حماية . وفي الحقيقة ، إن الحرب العالمية كانت في عزها ، وأن الدفاع عن المصالح الستراتيجية غطى في الوقت المناسب العمليات التي كانت ، في الظاهر ، في تناقض تام مع المثل الأعلى الأخلاقي الذي حاول الرئيس الديموقراطي ويلسون ، منذ ١٩١٣ ، أن يضعه من جديد على قاعدة السياسة الأميركية .

وفي ١٩١٤ ، لم يتحقق أيضاً التجانس القومي للولايات المتحدة . لأن سلبية الشمال ولامبالاة السلطة الاتحادية تركتا قضية جديدة سوداء تنمو ، ولكنها ليست قضية الرق ، وإنما قضية الفصل العنصري الذي أرادته التشريعات الخاصة لدول الجنوب . إن الاختلاط العرقي غير الكامل جداً والتفاوت في التصنيع غذى من منطقة لأخرى ، ومن حي لحي ، في المدن الكبرى ـ الفروق الاقتصادية العميقة والذهنيات المتشاحنة . وهذه ولا شك وقائع ثانوية بالنسبة إلى تجديد عظيم : وهو أن الولايات المتحدة كانت منذ الآن فصاعداً أهلاً ، وإن لم تكن مقررة تماماً ، لأن تلعب دوراً عالمياً ، وأن تثير انقلاباً في تصنيف الأمم الموجهة .

٥ ـ بين ريوغرانده وأرض النار :

أمريكا الجنوبية فقيرة ومقهورة

في بداية القرن العشرين ، لوحظ أن اضطرابات المكسيك قد كشفت عن نشأة معارضة بين الوجدان القومي في أحد بلاد أمريكا اللاتينية الكبرى ، وأشكال سيطرة

غير مباشرة مميزة لإمبريالية « يانكية » فتية . وبين الولايات المتحدة ودول أمريكا الوسطى والجنوبية ، تنمو علاقة من نموذج استعماري ، وإن كانت حروبها الاستقلالية ضد إنكلترا وإسبانيا قد توالت مسافتها على مدى أربعين عاماً على الأقل . وفي سياق القرن التاسع عشر ، جاءت في الواقع الولايات المتحدة ووضعت نفسها على رأس فريق البلاد المصنعة من نموذج أوربي غربي ، بينما بلاد أمريكا اللاتينية ذهبت لتلحق فئة البلاد الحديثة المسماة النامية ، على نقيض السابقة . وهذا الاختلاف في التطورات ، فيما وراء المرحلة المشتركة الأولية ـ مرحلة التحرير من وصاية المدن الوطن الأم القديمة ـ يوضح بحق أنه طباق عميق للظروف الجغرافية والاستيطان بين أمريكا المعتدلة وأمريكا المدارية ، بين أمريكا البيضاء وأمريكا الملونين والخلاسيين . ولكنه يتضح مباشرةً بالظروف غير الملائمة التي تم فيها الوصول إلى الاستقلال الذي كان فرصة لتقوية ، لا لتصفية ، البنى الاقتصادية والاجتماعية الموروثة من العهد الاستعماري ـ المسؤولة في الحقيقة عن ركود بلاد أمريكا اللاتينية وانتقالها في الواقع ، من شكل تبعية إلى آخر ، لم يحررها منها « القرن العشرون الثاني » دوماً .

أمريكا الهسبانية ـ البرتغالية في زمن الكسندر همبولدت :

إن مستعمرات أمريكا الوسطى والجنوبية عشية الاستقلال معروفة لدينا بشكل عجيب بفضل الوصف العظيم الذي تركه لنا أكبر عالم في أوربة سنوات ١٨٠٠ ، وهو الكسندر همبولدت . وفي الواقع ، نحو الأراضي الاستوائية لأمريكا ونحو شواطئ المحيط الهادئ ، انصرف حب الاطلاع لفكر جشع لتنظيم المكتسبات بمعرفة أنسيكلوبيدية في تركيب عقلاني مؤسس على الإيمان بوحدة العالم ـ لفكر يبدو أنه جمع صفات أديب إنساني في القرن السادس عشر طموح إلى تعلم كل شيء ، ولفيلسوف في القرن الثامن عشر عنده حدس بنظام معقد للطبيعة ، وعالم في القرن التاسع عشر مأخوذ بالملاحظات الصحيحة . ونحن مدينون إلى همبولدت وإلى رحلاته الثلاث في ١٧٩٩ ـ ١٨٠٣ لأنها تقدمت في معرفة منطقة الأورينوك ـ والأمازون والآند ، وجمعت عتاداً

واسعاً من الملاحظات العلمية في كل الأصعدة ، ولكن أيضاً وضعت بياناً عن موارد المستعمرات الإسبانية ثلاثون كتاباً تشهد على ذلك نشرت في باريس انطلاقاً من ١٨٠٧ .

كيف نفسر انفصال المستعمرات الإسبانية البرتغالية :

إن العصر المجيد لتحضير الاستقلال ونجاحه كان ، من جهة أخرى ، موضوع أعمال لا حصر لها في البلاد المدينة له بوجودها القومي . وإن أصول ومعنى حركات الاستقلال تظل مع ذلك موضوعات جدلية . ولم يمض زمن طويل على مؤرخ فرنسي وهو پيير شونو ، الذي حاول أن يجدد تفسيراً لها . والانتباه بانصرافه بصورة أساسية إلى تحليل علاقة القوى الديموغرافية (السكانية) والاجتماعية وبالإصرار على الصفة العرضية لتطور العلاقات بين الأوطان الأم والمستعمرات ، أدى في حروب ١٨٠٦ ـ ١٨٢٥ إلى إظهار المنازعات المدنية أيضاً أكثر من الثورات القومية .

إن أفضل مفتاح للحالة هو الدور الموجه الذي تريد أن تأخذه على عاتقها بشكل تام جماعة الكريولّوس ، أي جماعة المهاجرين الإسبان الذين ضربوا جذورهم في مستعمرات أمريكا . والنتائج المختلطة من الهجرة للإقامة والنمو الطبيعي وتراجع السكان الهنود حملت المولودين في المستعمرات (الكريول) من أقل من ١ ٪ من كامل السكان ، في آخر القرن السادس عشر إلى تقريباً ٢٠ ٪ أي أكثر من ثلاثة ملايين نسمة . وهؤلاء المولودون في المستعمرات يؤلفون أرستقراطية واقعية ، أرستقراطية الجلد الأبيض الواضح والدم الإسباني النقي أو الذي اختلط بصورة ضعيفة . ولكن يضمون عناصر متنوعة للغاية : منحدرين من المستعمرين . وأصحاب أملاك أثرياء ، أو ملاك أراضي منجمية كبرى وزراعية ورعوية ، وصغار الملاكين ، وصغار التجار ، وتجار الموانئ المنفتحة على التجارة الأطلسية ... وبخاصة في السهوب وسلاسل الجبال في الوسط والشمال ، يحافظ على مجتمع أميري مماثل لمجتمع أوربة في العصر الوسيط . وقد

وصف فرانسوا شوڤاليه حياة هؤلاء الملاك الكبار الذي يقسمون السنة بين الإقامة في الريف على أملاكهم والمدينة ، متنقلين مع جهاز عسكري كامل من المستعمرين مستعدين دوماً لامتطاء صهوة الحصان ، مسلحين ، يلبسون بزة الضابط الإسباني ، ويمارسون على أرضهم (أملاكهم) حق العدالة ووظيفة حماية كأنهم إقطاعيون حقيقيون . وحتى إذا كان المقصود هنا حالة قصوى يمدها عدم الأمن على الحياة في وسط هنوء **شيشيميك وأباش** ظلوا رحّلاً ، فإن ما يبقى حقيقياً على الأقل ، هو أن جميع المولودين في المستعمرات ، باستثناء أقلية ضيقة مستنيرة ، يتمسكون قبل كل شيء بالحفاظ على موقعهم ، موقع التفوق الاجتماعي ، وكذلك حرياتهم المحلية ، التي كان تعلق إسباني أمريكا حيالها يبلغ أحياناً شدة من نوع الوطنية الأميركية .

على أن المولودين في المستعمرات كانوا يشعرون في هذه النقاط ، بأنهم مهددون على جبهتين : أولاً ، باعتبارهم أقلية ، ولذلك كانوا يغتاظون من منافسة أقلية بيضاء أخرى ، أكثر ضيقاً إلى ما لا نهاية ، وهي منافسة إسباني إسبانيا « المنتمين إلى شبه الجزيرة الإسبانية » وخطأهم الأول في أعين المولودين في المستعمرات كان ولا شك - حتى ولو كان هذا الادعاء لا يعبر عنه علناً - بأن جلدهم دون منازع أكثر بياضاً ، وذلك لأن الآتين ما كان بإمكانهم بحسب التعريف أن يكونوا ممن يشك بهم بأي خلاسية ؛ وهكذا فإن وجود هؤلاء الأناس بدم أنقى أدخل تنافساً بين الجماعتين المسيطرتين في قمة الهرم الاجتماعي . ومن جهة أخرى ، كان التوتر بين المولودين في المستعمرات وأبناء شبه الجزيرة الإسبانية يتفاقم منذ ١٧٧٠ تقريباً ، بدافع أن الهجرة عرفت منذ ذلك الحين تسارعاً مفاجئاً : من أربع إلى خمس مرات أقوى من بداية القرن الثامن عشر ، وكانت تعطي للمستعمرين المستقرين قديماً انطباعاً لنوع من غزو لا سيما وإن هذه الهجرة كانت بخاصة تأتي منذ الآن فصاعداً من أقاليم شمال إسبانيا ، وتنضاف إلى رأسمال من السكان المولودين في المستعمرات والآتين بصورة أساسية من الجنوب ، ولتعطي من جديد لما وراء الأطلسي حياة للمشاحنات الكلاسيكية (الاتباعية)

الإقليمية في الوطن الأم (المتروبول) وأخيراً ، إن العلاقات بين الأقليتين البيضاوين تهدمت لأن الأكثر أهمية منها يمكن أن يكون انطباعها الانتقال تحت سلطة الأقل عدداً بشكل واقعي وفعلي ظل حتى ذلك الحين مجهولاً . وفي الحقيقة كان من التقليد الجاري أن أبناء شبه الجزيرة الإسبانية شغلوا صفوف الإدارة والإكليروس ، بينما المولودون في المستعمرات كانوا يمسكون بالأرض ونشاطات الإنتاج ؛ وهذا التوزيع في الأعمال الاجتماعية كان في القسم الأكبر من نتيجة المستوى الثقافي الضعيف لإسبان أمريكا . ولكن في آخر القرن الثامن عشر ، أصبح سَوْق موظفي الإدارة أكثر فأكثر من شبه الجزيرة بشكل دقيق وبخاصة أن أعضاءها يظهرون بأنهم يحتكرون سلطة جديدة تماماً لأنهم أصبحوا في هذا التاريخ أدوات سياسية إسبانية ذات رد فعل إمبريالي . وإسبانيا شارل الثالث ، كانت دولة في طريق التحديث ، وقد أدخلت في مستعمراتها ، التي ظلت حتى ذلك الحين تدار بشكل بعيد جداً ، النظام الفرنسي للنظّار : في كوبا في ١٧٦٥ ، وفي فينيزويلا وبيرو في ١٧٧٧ ، في الفيليبين في ١٧٨٤ ، في شيلي وإسبانيا ـ الجديدة في ١٧٨٦ ، في ١٧٨٩ في نيابة ـ الملكية التي أنشئت من جديد من لابلاتا . والوزراء البوربونيون ، الواعون للاستياء الذي أثارته هذه الإجراءات ، تصوروا أن يعدلوا مفعولها بتبني بنية كونفدرالية للإمبراطورية التي ستتقبل ممالك أميركية ـ مستقلة ذاتياً تحت حكم أمراء الدم ؛ ولكن لا خطة آراندا (١٧٨٣) ولا خطة غودوى (١٨٠٤) لقيتا تنفيذاً . وهكذا بدت النقاط الحقيقية للاحتكاك بين إسبانيا ومستعمراتها . ويبدو أن العوامل الأخرى لتشكيل انفصالية هيسبانو ـ أميركية ، المذكورة بشكل كلاسيكي أكثر ، قد لعبت بالأحرى بشكل أقل . وفي الحقيقة ، كانت توجد مسألة الحصر الاقتصادي الإسباني ، التي منع تطورها الحديث من أن تكون مع ذلك حادة ، وبالتدريج ، من ١٧٦٥ إلى ١٧٧٨ وإلى ١٧٨٩ ، فتحت عدة إجراءات ليبرالية للتجارة الإيبرية ـ الأميركية موانئ عديدة استعمارية وموانئ تابعة للوطن الأم ، وللإنهاء ، حذفت الشركات ذات الحصر ، وزوال التعاقد مع شركة إشبيليه في ١٧٩٠ ،

هو في هذا الاعتبار رمزي لآخر عصر . وفي الموانئ الأميركية ، تبعه دور فائق للغاية في الإزدهار (يبرهن عليه نمو قيمة الصادرات) ، وبصورة أساسية لصالح طبقة جديدة من التجار المولودين في المستعمرات ، وكانوا رأسماليين وأكثر جرأة من بيوتات زمن الحصر القديمة . ولكن من الصحيح أن نقول إن المكسيك ، حيث مرّ إنتاج الفضة بمرحلة لامعة جداً ، وبعد جزر إنتاج ذهب البرازيل ، كان يغطي من جديد الأساسي من الحاجات العالمية إلى معادن العملة (النقد) ؛ وفينيزويلا ، البلد الغني بمزارع الكاكاو ، والتبغ ، والقطن ، والنيلة (النيلج) كانتا آخر المستعمرات للإفادة من الانفتاح ، لأن الحكومة تمسكت طويلاً بالإشراف عن قرب على تصدير الحاجات المفيدة جداً لمالياتها . وأكثر من ذلك بقيت مسألة لم تحل ، حق غير مكتسب : وهو حق العلاقات التجارية المباشرة بين المستعمرات والدول الأجنبية والتي أصرت إسبانيا على رفضها . وهكذا فإن عاطفة استغلال اقتصادي ، شديدة بهذا القدر بقصد العيش ، يمكن أن تأتي وتنضم إلى عاطفة الاضطهاد السياسي الذي أتت آلياته الجديدة لتحدث الاضطراب في العادات القديمة التي تعود إلى قرون خلت وتزعم إلغاء الحمايات الطبيعية لبنية جغرافية معادية للتمركز . فإلى أي حد كانت هذه الميول إلى الانفصال تغذى بمؤثرات عقائدية أو أمثلة سياسية خارجية ؟ لقد حصل تجديد محدود في تعليم الجامعات والكليات ، وتعدد المطابع في آخر القرن الثامن عشر والجمعيات الأدبية والعلمية والاقتصادية التي تذكر حقاً بحركة مشابهة لحركة التنوير الإسبانية . ولكن مع انسحاب (فارق) زمني ، وقوة في النشر أضعف أيضاً مما في إسبانيا ؛ والحالات الفردية مثل حالة ميراندا وبوليفار يجب ألا توهم على ضيق زبائن ـ مولودين في المستعمرات ومدنيين ـ العقلانية الفلسفية . أما الثورتان الأميركية والفرنسية ، فإن أمريكا اللاتينية المشربة بتقاليد كاثوليكية لم يكن لها أبداً إلا قليل من الاتصالات والقربى مع الأولى وقليل من التعاطف حيال الثانية .

وعلى كل حال ، إن مخاوف المجتمع المولود قديماً في المستعمرات لا يمكن أن تظل

وحيدة المعنى الذي لا يتغير . أما المجتمع المسيطر من غرس أوربي ، فكان يخشى كثيراً من قاعدة الهرم الاجتماعي العظيمة التي كان يريد السيطرة عليها إلى الأبد . وهنود المستعمرات الإسبانية قد أهلكتهم الحرب والمرض ، وعمل المناجم في القرن السادس عشر والسابع عشر . وفي القرن الثامن عشر لم يدع صعودهم الديموغرافي مجالاً لشك . فقد جرى حسب وتيرة أدنى من وتيرة نمو المستعمرة الأوربية ، وهذا صحيح ، لأن الولادة الهندية كبحت بطول إرضاع الأم في مجتمعات لا تعرف التربية ، أو لا تفيد إلا بصورة غير مباشرة من التربية التي أدخلها الإسبان ، ولكن الوفاة قلت : نتيجة الاعتياد على البذور التي أدخلها الأوربيون ، ولكن أيضاً إلى نشر وسائلهم العلاجية . وكان الهنود بضعة ثمانية ملايين ، منها أربعة في المكسيك وحدها . وفي القرن الثامن عشر تتابع تدمير النظام الاقتصادي والاجتماعي لأمريكا قبل - كولومب . وبالرغم من منع الملكية الإسبانية ، فإن الملكية الكبرى للمولودين في المستعمرات قديماً تابعت تجاوزها على الملكية الجماعية لأراضي المجتمعات الهندية ، وظلت تستعبد عمل الهنود . وأحياناً ، حصل أصحاب الحجوز منهم على تشريع بدفع نسبة إلى التاج ؛ ولكن أحياناً أيضاً نجح الهنود بإيجاد حماية في أحكام مجلس الهنود الذي يدافع عن مصالح الدولة بفرض احترام تشريع الوصاية على الملكية وعمل السكان الأصليين . وعلى الصعيد الأكبر كانت ممارسة السيد الأبيض للسلطات الإدارية ، والقضائية . والعسكرية إلخ ، تؤكد الطابع الإقطاعي للعلاقات البشرية التي توطدت فيها ، ومع ذلك فإن عوداً هجومياً للمجتمعات أو الوحدات الزراعية المنهوبة كان ممكناً دوماً ؛ والهندي الذي جرد من كل شيء يشعر بأنه إنسان مشوه وذليل ، ولا شيء له أهمية عنده إلا الأرض وأحياناً يبحث عما يعوضها . ووجهة نظر الضحايا كانت مع ذلك مدعومة في آخر القرن الثامن عشر ببعض ميول انتقادية من الماسيندا : أي الأساقفة ، والرهبان ، والنظار ، ونواب الملوك ، دون الجرأة في الحقيقة على وضع قضية الإصلاح الزراعي ، الذين يدلون على ضرورة تنمية الاستعمار الزراعي الصغير ، وإنشاء كنائس وقرى خارج الملكيات الكبرى

ـ باسم التقدم الاقتصادي والاجتماعي ، والنضال ضد حياة البداوة والترحل وعدم الأمن . وفي بيرو ، دلت الثورة الحديثة الهندية التي قام بها توباك آمارو ، على وجود مخاطرة ثورية . ومن عدم الأمن الذي شعر به نشأ عند المولودين في المستعمرات قديماً عمل منعكس موالٍ ، ودون شك قوي بالإجمال كالميل إلى الإنفصال : لأن مساعدة الجنود الإسبان كانت لا غنى عنها للحفاظ على سيطرتهم . إلا أنه على الأقل يشاهد وجود ما كان يدعوه بيير شونو « المحور الموالي » لأمريكا الأندية ، أمريكا الهضاب العليا حيث كان البيض فيها أقليات بخاصة : بيرو (أقل من ١٥ ٪) المكسيك (تقريباً ٢٠ ٪ ؛ وبالمقابل في ڤينيزويلا أو حول ريودولا پلانا ، كان البيض أقوى (٤٠ ٪ أو أكثر) أكثر انفتاحاً للأفكار الجديدة ، انطلاقاً من الناقدين والمعاكسين والكثيري اللوم .

الاستقلال : طوارئه وانعكاسات اتجاهه :

إن مجموع هذه القضايا لم يعرف ولا شك إلا نضجاً بطيئاً ، وإن أزمة ربما لا تخرج منه إلا في الآجل في القرن التاسع عشر . لو لم تتح حروب الثورة والإمبراطورية فرصة أقرب . فقد خرجت من السلام والتحالف مع فرنسا (١٧٩٥ ـ ١٧٩٦) سلسلة خسائر استعمارية (القسم الشرقي من سان ـ دومينغ ، ترينيداد ، لويزيانا) ، وقطع العلاقات المنتظمة بواقع الخضوع إلى الحصار القاري وإلى الهجومات في البحر من جانب الإنكليز ، وأخيراً الخسائر التي تسببت إلى الأسطول الذي أعاد بناءه شارل الثالث ، أثناء « موقعة الرأس الأغرّ » . وانطلاقاً من ١٧٩٧ ، سمحت طوعاً أو كرهاً لمستعمراتها ، لتجنب عنها الدمار ، بالتجارة مع الأجنبي بواسطة البلاد المحايدة ، وهكذا تم السير نحو قطع التبعية مع الوطن الأم ، وهو قطع سيكون من المستحيل الرجوع إليه .

وبالمقابل ، إن الصعوبات الفظيعة لإسبانيا والبرتغال في السنوات (١٨٠٧ ـ ١٨١٤) لم تؤد إلى قطع الروابط السياسية ، بالرغم من الاضطرابات العديدة . ولنمر على

حالة البرازيل التي أصبحت ملجأ أسرة البراغانس ، وحيث وجدت المصالح المحلية ما يرضيها في الانفتاح إلى التجارة الخارجية ، أي الإنكليزية بصورة أساسية ، في ١٨٠٨ ـ ١٨١٠ . ومنذ ١٨٠٦ ، ردت فينزويلا هجوماً مفاجئاً وجريئاً قام به ميراندا الماجور من إنكلترا ، كما هزمت لابلاتا كذلك التدخل المباشر للأسطول البريطاني . وفي ١٨٠٨ ، تسبب انهيار سلالة آل بوربون أمام التدخل الفرنسي في إسبانيا ، في رد فعل موال ؛ وجوزيف بونابرت لم يعترف به ، كما أثارت الثورة القومية في شبه الجزيرة ، حماسة الرأي الاستعماري . وبالتالي ، بعث نابوليون رسله : من حاولوا أولاً الحصول على الانضمام إلى جوزيف ، استقبلوا بشكل سيء ، ومن ثم ، بالنظر لعدم إمكان فرنسا أن تأخذ على عاتقها السيطرة الفعلية على أمريكا الإسبانية ، وجد أن من بشروا بالعصيان ضد خونته مقاومة إشبيلية ، قد لاقوا صدى أكثر ومع ذلك فإن الحالة كانت تحتمل مع ذلك الكثير من الغموض . وذلك لأنه يرجع إلى التاج وحده ، إلى شخص فرديناند السابع وحده الأسير الذي يتعلق به وفاء المستعمرات ؛ وبالنسبة للباقي ، فما كانت تريد الاعتراف بسلطة الحكومات الوكيلة الوُقتية لإسبانيا . والسلطات المحلية ، في أمريكا ، أرادت أن تحكم بنفسها بانتظار الرجعية ، وتحذر من إشبيلية ومن قادس اللتين ظلتا إمبرياليتين بالرغم من التنازلات التي عملت (مساواة الوصول إلى الوظائف العامة للإسبان وللمولودين في المستعمرات ، والتمثيل الأميركي في الكورتيزات) . وقادس مقر الحكومة الإسبانية ألم تكن رمزياً وواقعياً ، مدينة أصحاب السفن المهتمين بإبقاء روابط تبعية تجارية ؟ وأخيراً ، بعد ١٨٠٩ ، بدت إسبانيا غير قادرة على مقاومة الضغط العسكري الفرنسي . وبينما تنفتح الموانئ للسفن الإنكليزية والأميركية ، أصبح الإغراء عظيماً في إعلان الاستقلال . وهذا الذي وقع في بوينوس آيرس في ٢٥ أيار ١٨١٠ : أن لابلاتا لن تدخل أبداً تحت سلطة مدريد ، وأسهمت بشكل حاسم ، بعد قليل ، في تحرير المستعمرات الأخرى . وتبعت كاراكاس الحركة ، في ٥ تموز ١٨١١ ، ولكن الجمهوريتين المتعاقبتين ، جمهورية ميراندا وجمهورية بوليفار ، لم تقاوما هجوم

الموالين المعاكس : الإكليروس ، وبخاصة كبار الملاك في السهول العالية في الداخل ، الذين نجحوا في جر جيش من الخلاسيين والهنود ، ضد الإرستقراطية والبورجوازية الحرة (الليبرالية) في الموانئ والمناطق الساحلية ، وأخيراً ، بدت الأمور بشكل مغاير في المكسيك . وهنا ، خلال مرتين ، في ١٨٠٨ ـ ١٨١١ وفي ١٨١٢ ـ ١٨١٣ ، أراد راهبان ، أحدهما أبيض ـ هيدالغو ، والآخر خلاسي ـ موريلوس ـ تحقيق الاستقلال بإثارة الهنود والخلاسيين وراءهما ـ وهؤلاء الأواخر ، الذين هم بقرابة خمسة ملايين في كل أمريكا الإسبانية ، يؤلفون بداية طبقة متوسطة ممكنة . والقصد هنا في هذه المرة حرب مكسيكية ، مدنية، اجتماعية ـ وفي خلفيتها ، ذكرى جديدة العهد تماماً وهي استقلال هايتي . وضد الخوارنة الديموقراطيين وأنصار الهنود انتظم أصحاب الأملاك في جيوش خاصة ليدعموا ، بنفس الوقت ، القضية الملكية ، والنظام الاجتماعي التقليدي . أما الذي أسهم أكثر في سحق الثورة فكان إيتوربيد الذي تم وصول نجداته الإسبانية النجاح في ١٨١٤ .

ولكن بينما بدا أن توطيد سلطة فرديناند السابع يؤكد ضعف الانفصالية ، وجد أن خرق المنتصرين رد له كل حظوظه ، وتقريباً بالحال انفتحت في الحقيقة مرحلة النضال لأجل الاستقلال . فمن جهة ، رفض فرديناند السابع أن يكافئ ولاء الزعماء المولودين في المستعمرات ببعض الإصلاحات أو التنازلات ؛ حتى إنه حذر حيال الأكثر نفوذاً ، فأبعدهم . وهكذا عزل إيتوربيد من قيادته في ١٨١٦ ، وفي فينيزويلا ، وغرناطة ـ الجديدة انتصر الجنود الإسبانيون أو العصابات الموالية في حمام من الدم . ومن جهة أخرى ، أدرك المحافظون ، في هذه العاصمة السلطوية والإمبريالية بشكل لا يشفى ، بأن ليسوا في الواقع ، بحاجة إلى درك ، لأنهم استطاعوا ، تقريباً بوسائلهم الخاصة ، أن يبقوا الشعوب الخاضعة في حالة احترام : ومنذ الحين ، أصبح المحافظون انفصاليين ، وتوطد نوع من ائتلاف واقع بين مختلف التيارات الملائمة للاستقلال . وعلى كل حال ، هذا ما مر في المكسيك في ١٨٢٠ ـ ١٨٢١ ، عندما جهزت الثورة الليبرالية

الإسبانية للطبقة الموجهة عذر القطيعة ، والرأي المناقض لذلك عندما أخذ إيتوربيد ، مع السلطة ، المبادهة بانفصال قطعي . وفي هذه الفترة ، حرر بوليڤار للمرة الثانية ڤينيزويلا وغرناطة الجديدة (١٨١٧ ـ ١٨٢١) ، بينما سان مارتن ، انطلاقاً من الأرجنتين ، اجتاز الآند ليخلص شيلي (١٨١٧) ثم بيرو (١٨٢١) . ولكن بيرو تحررت رغماً عنه ، وهذا الحصن المسباني يجب أن يكون إطلاقاً مفتوحاً مرة ثانية ، ومنتزعاً من ولائه بقوة بوليفار ونوابه (١٨٢٢ ـ ١٨٢٦) . وهكذا فإن أمريكا اللاتينية وضعت بشكل أفضل لصالح ظرف السلام الموطد من ظرف حروب الإمبراطورية : فبعد ١٨١٥ ، في الواقع ، لم تجد إنكلترا نفسها ملزمة أخلاقياً بالاستنكاف في خلاف تعارض فيه إسبانيا ـ حليفتها ضد نابوليون ـ في مستعمراتها الأميركية ؛ ودبلوماسيتها ، ومالها ، وأسلحتها ، وجنودها المأجورين دعموا دوماً أنصار استقلال مطابق للمصالح الاقتصادية الإنكليزية . وبالعكس ، إن إسبانيا لم تستطع استعمال الجيش الذي أوجدته لنفسها في سنوات نزاعها ضد فرنسا ، نظراً لأنه لم يكن تحت تصرفها الوزن (الطوناج) الكافي من أجل تسيير النجدات ، وأيضاً بواقع الثورة الليبرالية في ١٨٢٠ . وفي أمريكا نفسها ، وجدت إسبانيا في الرجلين من عرقها ، بوليڤار وسان مرتان ، المحررين ، خصمين مخيفين . فبإيحائهما ، أولاً ، الذي أسهم معاً بإديولوجية القرن الثامن عشر ، التي لم يقتبسا منها مع ذلك إلا عناصرها الليبرالية ، ومن الإبداعية (الرومانتيسم) التي تقربهما بذوق البطولة الفردية والشجاعة العسكرية ، وإنما أيضاً سعة رؤيتهما القومية . وبقابليتهم التقنية أيضاً : لتقشف أخلاقي عظيم ، جمع سان مرتن ، بفضل الثقافة التي تلقاها في أوربة ، من صفات فاضلة في التنظيم والقيادة . وعلى عكس الفاتحين ، لم يتركوا مع ذلك طابعهم على أمريكا الجديدة : فلم يكونوا إلا وسائل المحافظة ، في إطار الاستقلال السياسي الذاتي ، لأمريكا ما قبل الاستعمار . وفي الحقيقة إن أمريكا اللاتينية ، قطعت القلوس (الحبال التي تربط بها السفينة) التي تربطها بالعالم القديم . والصورة الأولية التاريخية لا تختلف في البرازيل ، وإن تم الانفصال

بينها وبين البرتغال (١٨٢٢) دون حرب ، وإن بقيت رابطة سلالية بين عاصمة الملك جان السادس والمستعمرة السابقة التي أصبحت إمبراطورية ابنه بيدرو .

بعد الاستقلال : تفتح المجتمع الاستعماري السابق

وفي الواقع إن الصفة التي تضرب الحس أكثر من الدول الحديثة الناشئة عن حروب ١٨١٧ ـ ١٨٢٦ هي شدة الصفاتُ التقليدية للمجتمع . إن الاستقلال بالنسبة لطبقة كبار الملاكين هو أولاً الحرية في احتكار الأراضي ، وهذا يعني ، بالعلاقة ، هزيمة كبرى للملكية الهندية التي ظلت حتى ذلك الحين محمية ، ولو في ظروف متقطعة ونافذة قليلاً أو كثيراً من قبل التاج . والأملاك التي نشأت في العصر الاستعماري لم تبلغ إلا في القرن التاسع عشر وحتى في بداية القرن العشرين كامل قوتها .

إن نقطة انطلاق هذا التطور توجد ، بخاصة في المرسوم المتخذ في ٨ نيسان ١٨٢٤ ، عندما كان بوليفار يحكم معاً البيرو وكولومبيا الكبرى ـ حالياً الأكواتور ، كولومبيا وفينيزويلا . والمرسوم يثبت الهنود الذين كانوا يملكون أراضي في ملكيتهم ، ويوزع بين الهنود غير الملاكين أراضي الجماعات الزراعية . ولكن هذا كان بوضوح لتسهيل لم الأراضي وجمعها ليسهل شراؤها من قبل الهنود . وبإعطاء هؤلاء القدرة الحقوقية للشراء والبيع وممارسة كل عقد ، هيء نقل واسع للملكية . وعوضاً عن تشجيع تشكيل مجموعة فلاحية من الهنود الأصلاء ، دفع إلى تكديحهم . وما أن ثبتت هذه الإجراءات المبدئية ، في فجر الاستقلال ، حتى حذف كل شكل للعمل الشاق ، وكذلك حذف الضرائب الملكية . والمرسوم ١٨٢٤ كان يسهر على أن تكون جماهير الهنود حرة ولكن تملك قليلاً جداً من الأرض أو تركها لتقتلع ، أو تستمر في أن تقدم إلى الهاسينداس (الأملاك) أو الاستغلالات المنجمية (على سبيل المثال في مناجم نحاس شيلي) احتياطياً من اليد العاملة . وهذه اليد العاملة ، إن كانت مأجورة أو آخذة لقطعة من الأرض والتصرف بها ، ظلت تعيش في عبودية واقعية ، ومستغلة بأشكال

من قبل سادتها الذين لا يعرفون الشفقة أو جبروتيين ؛ لقد ولد الاستغلال إقطاعية - جديدة ، وفيها نجد أن أشكال الاستغلال الاقتصادي الرأسمالي للأرض كانت تغطي أشكالاً لاستغلال الإنسان لم تتغير منذ قرون . ووجد ، في جهد الهاسندادوس ، أصحاب الأملاك ، لاستعباد اليد العاملة أو لاختكار الأرض ، مراحل شدة متغيرة ؛ وزخم الملكية الكبرى تم بشكل شديد جداً انطلاقاً من الوقت الذي شكلت فيه الخطوط الحديدية ، ونمو المدن ، تنمية التجارة الخارجية كذلك طلبات من أجل اقتصاد التصدير . على سبيل المثال . في بيرو بين ١٨٧٠ و ١٩٠٠ ربط خط حديد موللندو-آركويبا-بونو بالشاطئ كل المنطقة المجاورة لبحيرة تيتيكاكا ، منطقة البونا أي الهضاب العليا الباردة ذات المراعي الفقيرة (نحو ٤٠٠٠ متر) . ونحو ١٨٨٠ بدأت الملكيات الكبرى لتربية الحيوانات وبخاصة الخراف تنشأ فيها بالألوف . ووجد فيها الهنود الإيمارا مجردين من أراضيهم بمئات الألوف . والهندي الجاهل والفقير تخلى بسهولة ، ودون أن يفهم ما حصل له ، عن حقوقه في الملكية مقابل مبلغ صغير من المال . ووقع عوضاً عنه ، وكان القاضي يستطيع إذن أن يعلن على الملأ الملاك الجديد . وعند هذا الأخير ، ينفجر الوجدان الصالح للرأسمالي الذي يفتح بحضوره طريق التقدم الاقتصادي . وعند الهنود ، الذين يكنزون النقود المكتسبة من بيع أراضيهم ، تستقر الرغبة في تملك ما كان أخذ منهم بخداع وحيلة رجال القانون الصغار الذين هم في خدمة الوجهاء : وهذه هي الرغبة التي تقودهم منذ الآن فصاعداً في الثورات ، اليعقوبية التي تخفيها السلطات تحت اسم اللصوصية المسلحة ، وبعيداً عن مراكز الرأي الكبرى ، وتسحقها دون مجاملة وهي أيضاً التي تستفيد ، بالمناسبة ، كسند ودعامة لمحاولات الإصلاح الزراعي من بعض الكاؤديليو (الزعماء) ذوي الفكر الراديكالي . وفي العصر نفسه في مكسيك بورفيريو دياز شجعت تقسيمات الأراضي التابعة للنواحي (القرى) الهندية ، والتصرف بالأراضي غير المزروعة (الهاسيندا) ، وفي عشية ١٩١٠ وجد أن نحو ٨٠٠٠ من هذه الأملاك تقاسمت أكثر من مليون ك م^2 ، أي ٥٥ ٪ من الأرض القومية .

وفي شمال الهضاب المكسيكية زرعت الهاسيندا[1] من قبل مستأجري الأرض أو بواسطة بيونس أكاز يللادوس ، عمال زراعيين ، مجبرين على عمل دائم لحساب الملاك مقابل فائدة إسكانهم (إيوائهم) ؛ وفي مزارع الجنوب ، كان العمل الشاق ، ولا نجد إلا في الوسط هنوداً أحراراً لا يعملون إلا بعض الوقت على الهاسيندا . ولكن المكسيك أيضاً كانت أول البلاد في أمريكا اللاتينية التي ضربت مثلاً لثورة اجتماعية ، مائة عام بعد هيدالغو .

من أمريكا الاستعمارية إلى نصف مستعمرة :

وإذا لم تعد أمريكا اللاتينية مستعمرة سياسية لإسبانيا والبرتغال ، فإنها ما تزال مستعمرة اقتصادية ومالية للبلاد المتقدمة ، وبخاصة إنكلترا ، قبل الولايات المتحدة . وهذا الواقع ينسب إلى صلابة البنى الاجتماعية التي أتينا على وصفها . إن إقتصاد كبار الملاكين في الواقع مسؤول عن الصفة المتجهة نحو العالم الخارجي الممتدة لاقتصاديات الدول الجديدة : وتفضيلها يتناول كل الإنتاجات الزراعية والمنجمية المخصصة للتصدير . ومجتمع كبار الملاكين مسؤول عن الحفاظ على مجتمع قاس ومتناقض بقوة لا ينمو في داخله لا تراكم رؤوس الأموال (المستهلكة بالبذخ الظاهر الخاص بأصحاب الأملاك) ، ولا الطبقات المتوسطة ، الموسرة نسبياً والمثقفة ، التي يمكن أن يكون لا غنى عنها لإثارة التصنيع . وكذلك كان المجال حراً ، في مثل هذه البنى ، لتغلغل رؤوس الأموال الأجنبية ، عجلات الأشكال الحديثة للإمبريالية .

ونحو منتصف القرن التاسع عشر تأكد تماماً هذا التقسيم في العمل ، هذه التكملة في الاقتصادات ، التي جعلت من أمريكا اللاتينية ، المفتوحة بصادرات المنتجات المصنوعة الإنكليزية ، مجهزاً لأوربة الغربية بالمنتجات الغذائية الخام وبالمواد الأولية الصناعية . وفي الحقيقة ، في ذلك الحين نرى أن الثورة الصناعية ، والعمران المدني (التمدين) والغنى اللذين رافقاها بدأت تعدد بشكل عجيب متطلبات واردات البلاد المتقدمة ؛ وفي

(١) الهاسيندا : هي الأملاك .

ذلك الحين أيضاً ساعدت ثورة النقليات في أمريكا الجنوبية على بسط منطقة الاستعمار والثقافة وتسهيل التصدير . وقد سمح للتوسع الاقتصادي أولاً بتمويل التجهيز بواسطة الاستثمارات الأجنبية التي انطلقت بخاصة في الغالب من مدينة لندن . وهذه الاستثمارات ، في الربع الثاني من القرن التاسع عشر ، كانت قد أخذت في المقام الأول شكل قروض للدول الفتية المستقلة بغية مساعدتها على تثبيت نفسها وتقويتها والضمان بالاستقرار السياسي من سير العمليات التجارية (الصفقات) . ونحو ١٨٥٠ وما بعدها اتجهت نحو تجهيز الموانئ ومد الخطوط الحديدية ، والتنظيم المدني والخدمات العامة . ودعمت فروع بنوك أوربة باعتمادها إنتاج وتجارة المحاصيل الكبرى . والملاحة على السفن البخارية الهامة بالخدمات التي تؤديها على مجاري الماء الكبرى مثل شبكة البارانا ، تلعب دوراً حاسماً في النقل السريع والكثيف لحاصلات الخزان الأميركي نحو زبائنه الأوربيين . وبتجهيزها بطرق التبريد ، أمسكت بقيادة ثروة ريودولا پلاتا .

.ولكن للإجابة إلى دعوة الاستهلاك الأوربي ، نرى أن أمريكا اللاتينية تنقصها اليد العاملة . وسكانها في أكثريتهم الغالبة هندية يحافظون على نسبة نمو بطيئة ، لأن الهجرة في النصف الأول من القرن اتجهت تقريباً وعلى سبيل الحصر نحو أمريكا الأنغلو ـ ساكسونية التي أصبحت بعد قليل مأهولة أكثر من أمريكا اللاتينية . ومنذ معاهدات ١٨١٥ ، أصبح من الصعب الاعتماد على تعاطي الرق ، حتى إن البرازيل تلقت بالتهريب الأسود ما يقارب مليون ونصف أسود في سنوات ١٨٢٠ ـ ١٨٥٠ . على أن الرق قد شجب بسبب ضعف إنتاجيته كثيراً ، وإلغاؤه أعلن بالتدريج في سياق القرن . وكانت البرازيل آخر من انضم لهذا الإلغاء في ١٨٨٨ . ونحو ١٨٥٠ ـ ١٨٧٠ لعب الصينيون دور المعوضين عن الأرقاء : فقد أتت كوبا لأجل مزارع قصب السكر ، وفي البيرو لجمع الغوانو (السماد الغني بالفوصفات والآزوت) بمئات الألوف حسب نظام عقود العمل ، وهو نوع من التجارة المقننة للحم البشري . ومنذ هذا العصر نفسه فهم زراع القهوة في البرازيل أهمية الدعوة إلى هجرة العمال الأحرار الأوربيين ، وأشجار

القهوة كانت ، في عز النزول نحـو وسـط وجنـوب البـلاد ، تفترس دون انقطـاع أراضي عذراء جديدة تحل محل قصب السكر في رأس الحاصلات القوميـة ، وبين ١٨٧٠ و ١٩٠٠ عرفت دولة ساؤ باولو توسعاً صاعقاً . وانتهى في عام ١٨٦٧ خـط الحـديـد الـذي يصل عاصمتها بميناء سانتوس ، وتكاثر إنتاج القهوة بمقـدار خمسـة عشر مثلاً ، أو مثل تقريبـاً كل الإنتاج العالمي ؛ والهجرة البرتغالية والإيطـاليـة وصلت إلى الحـد الأعظم في سنوات ١٨٩٠ و ١٩٠٠ : وسكان الـدولـة ازدادوا بمقـدار الضعف في عشرة أعوام . ولكن مـا هـو الفارق مع الاستعمار ـ المعاصر ـ للولايات المتحدة ! هنا يجب على المهاجرين الدخول في إطار طبقة الملاكين الكبار الموجودة ، والإقامة كانت في الغالب موقتة ، وجاءت حركة عودة هامة فعدلت الدخول . إن اليد العاملة التي يدعوها الوجهـاء ليست بحـاجـة لأي وصف . فالأرقـاء الأفـارقـة استعيض عنهم بفـائض من السكان الريفيين من بلاد البحر المتوسط . وكذا الحال في الأرجنتين ، دخلت الضيع بعد بضعة محاولات لإنشـاء استعمار من صغار الملاكين ، جمهور الآتين تحت شكل جماعـة فلاحين وعـمـال زراعيين في أمريكا الجنوبية من (فلاح أو عامل) غير مستقرة مع ذلـك ، ثم بـدأت بعـد قليل تـذهب نحو بوينـوس آيرس ـ نحـو الصنـاعـات التي تعـالـج الجلـود ولحـوم الخـاروف والبقر قبـل تصديرها . وهـذه الهجرة أوجـدت الأرجنتين تمـامـاً : من مليون واحـد من السكان في منتصف القرن التاسع عشر إلى سبعـة ملايين عشيـة الحرب العـالميـة الأولى . وتشكلت أمريكا الجنوبية البيضاء أخيراً في المناطق المعتدلـة من القـارة ، وكانت نسخـة متـأخرة وأقل قوة إلى ما لا نهاية من أمريكا الشماليـة . وهنـا لم يفرض العرق الأبيض . والفوارق الإقليمية ، الصفة المميزة للتخلف ، ازدادت كالاختلافات الاجتماعية : فمن جنوب الجبال الصخرية إلى جبال الآند ، اختلاف بين الهضاب العليـا الهنـديـة ، حيث يهزل اقتصـاد الإعـاشـة الضعيف ، والمنـاطق السـاحليـة بـزراعـات الغرس الغنيـة ؛ وفي البرازيـل ، اختلاف بين مناطق الاستعمار الحـديث ذي الإطـار الرأسمالي ومنـاطق الاستعمار القـديم التي أفقرت وانطـوت على نفسهـا (الشمال ـ الشرقي) . وفي المنـاطـق التي يكـون فيهـا

التوسع الاقتصادي لامعاً وحديث التأريخ ، الازدهار بكامله معلق على المدّ المتجدد لرؤوس الأموال الأجنبية وبمستوى الأسعار العالمية للمنتجات الكبرى . فإذا جاءت أزمة ، ينطوي الأوائل ، والثواني ينهارون . وخارجاً عن الحركات الدورية يكون الميل إلى أجل طويل غير ملائم . ومنذ ١٨٧٥ ، في الواقع ، وجد أن شروط التجارة أي علاقة الواردات بالصادرات ، المعبر عنها بقوة الشراء ، ـ تتطور على حساب بلاد أمريكا اللاتينية : لأن قوة شراء إنتاجها المقدرة بمواد صناعية نقصت نحو ١٥ ٪ بين هذا التاريخ و ١٩١٤ .

قضايا السياسة الداخلية والدولية :

سياسياً هل نجح الاستقلال بشكل أفضل ؟ نعم إذا اعتبرنا أن حروب الاستقلال كانت فرصة للشعور حقيقة بالوعي القومي الذي امتد بفضل الثورات والكفاح التي قامت بها طبقات عريضة من السكان البيض والخلاسيين . ولا شك في أن ظهور هذا الوعي كان يؤلف العامل القوي الوحيد في الوحدة السياسية للدول الجديدة ، والخير الوحيد الذي بقي منه هو الملكية السلمية لشعوب أمريكا اللاتينية . وقد ظهرت شدته في سنوات ١٨٦٠ ، ضد فرنسا التي حاولت أن تغرس سلالة أوربية في مكسيكو مع دعم من قسم ملكي للحزب المحافظ وحزب الإكليروس ؛ وضد إسبانيا ـ الأكثر حنيناً أكثر منها إمبريالية بالمعنى الحديث للكلمة ـ التي قامت تستعيد فتح بيرو .

ولكن بالمقابل ، إن المنافسات بين الدول وعدم استقرارها الداخلي قد أظهرت في القرن كله عدم قدرة هذه الدول على الحفاظ على تلاحمها خارج القسر الخارجي ، والأطر الشديدة للإدارة التي كانت ، نوعاً ما ، حسنات العصر الاستعماري . والاستقلال عبث ، عندما يأتي بغتةً في اقتصاد ابتدائي ، ومجتمع متسلسل جداً ، وأيضاً غير مجهز بالعناصر القادرة على تأمين البديل الذي يحل محل البوروقراطية (الديوانية) والحكم .

وفي الحقيقة لم يخلف وحدة السيطرة الإسبانية أي دولة عظمى جمهورية حرة ،

بالرغم من جهود بوليفار الذي كان سيداً بفضيلته الشخصية في المنطقة فينزويلا بوليفيا ، وأراد بسط هذا التضامن على كل القارة الأميركية (في مؤتمر باناما ١٨٢٦) . وعدا عن أن إنكلترا والولايات المتحدة كانتا معاديتين لكتلة كبرى وحدوية ، فإن هذه الصيغة لم يكن لها أي حظ بالنجاح : لقد كان الاستقلال جزءاً من حركات محلية منفردة جداً ؛ وإن سعة الأراضي والاختلافات ، والحواجز الجغرافية ، لم تعدل لا بشبكة قوية من المواصلات ، ولا بإشعاع لا جدل فيه لبعض العواصم الكبرى . لقد تشكلت الدول إذن في أحسن حال ، في حدود النيابات الملكية السابقة ، وفي الواقع بتجزئة هذه النيابات . و « إمبراطورية » بوليفار انفجرت إلى خمس دول ؛ وكونفدراسيون أمريكا الوسطى ، بين المكسيك وكولومبيا ، تجزأ بعد ذلك إلى ستة أقسام ؛ والنيابة ـ الملكية في لا پلاتا كان لها ثلاث جمهوريات وارثة . ثم قامت منازعات عنيفة بين الجمهوريات الجديدة وفي البرازيل . والأمثلة الثلاثة الأكثر دموية كانت أمثلة أورغواي ، وباراغوي وبوليفيا . فالأولى ثبتت استقلالها ضد البرازيل ـ الراغبة في تصفية قضية انفصالية أقاليمها الجنوبية ببسط نفوذها حتى ريودولابلاتا ـ وضد الأرجنتين التي كان دكتا تورها روزاس يريد منها أن تكون السيدة الوحيدة في سهول هذه المنطقة ، وحاصرت جنوده مونتو فيديو من ١٨٤٣ إلى ١٨٥١ : وقد جاء غاريبالدي مع ستمائة متطوع لنجدة « ترواده الجديدة » حيث بدأت الهجرة الإيطالية تتكاثر وتزداد . وحاولت الباراغواي عبثاً تحت دكتاتورية فرنشيسكو سولانو لوبيز أن توسع قاعدتها الأرضية في حوض بارانا ؛ وقد أخذ الخلاف هنا صفة عرقية بواقع أن باراغوي ظلت كما كانت في القرن الثامن عشر ، دولة ذات استيطان هندي غواراني[1] أساساً . وفي ستة أعوام لحرب مدمرة ، تألفت جاراتها الثلاث هذه المرة ـ البرازيل ، الأرجنتين والأورغواي ـ وتوصلت إلى سحقها وتقطيعها (١٨٦٤ ـ ١٨٧٠) . أما بوليفيا فقد خسرت وصولها إلى البحر إثر حرب المحيط الهادئ (١٨٧٩ ـ ١٨٨٤) ، ويرجع

(١) نسبة إلى اللغة الهندية في پاراغواي .

ذلك إلى شيلي التي ساعد جيشها القوي بخاصة على الاستيلاء بالقوة على صحراء آتاكاما ، الغنية بمناجم النيترات ؛ وبنفس المناسبة ، حذف الشيليون مقاومة الهنود الآروكان[٢] ، وهم شعب محارب أبقى الأوربيين في حالة إخفاق منذ أصول الفتح الإسباني . ومهما يكن الرهان ، فإن مثل هذه الحروب يمكن مع ذلك أن تولد في كل حين من طموحات الزعماء الذين يهتمون ببسط جاههم بالفتح .

وهذه الجمهوريات الناشئة عن الاستقلال لم تعرف وتحدد حدودها ، ولذلك أساءت تثبيت نظامها السياسي . ثم إن الظروف الاجتماعية ـ الثقافية لهذه الدول الحديثة تجعل فيها إدخال النظم الليبرالية والديموقراطية المستوحاة من الأمثلة الفرنسية والأميركية ، أمراً طوبائياً . ولقد نشأت الدساتير بالعشرات تحت أقلام السياسيين والحقوقيين : ولم تستطع أن تغير شيئاً بتصريحاتها المبدئية العابثة ، في الأمية وجهل القراءة والكتابة وبؤس الشعوب الهندية ، والخلاسية ، والرق أيضاً أحياناً ، التي يبعدها جهل اللغة الرسمية أو عدم وجود ملكية بشكل لا شفاء له عن الحياة السياسية . وحقيقة هذه الحياة السياسية ، هي نتائج من الصعب تصفيتها من الحرب المدنية التي جرت ، في الواقع ، تحت غطاء حروب استقلال ـ على الأقل ـ في المستعمرات القديمة لإسبانيا . إن نوعاً من الديموقراطية العفوية نما في داخل القوات غير المنظمة التي ناضلت إلى جانب الوحدات المنظمة ، تحت إدارة الكاؤديليوات المغامرين المرتجلين زعماء حرب . أما من بقي منهم ، وظلوا متجمعين إلى ما بعد حروب الاستقلال ، فكانوا ينتمون لطبقات محرومة في المجتمع ، خلاسيين ، هنود ، أشقياء عند المناسبة ـ كلهم أناس كانت حواجز الدم والملكية الأرضية تمنع الأمل في الخروج من ظرفهم ، ووجدوا في حياة العصابات المسلحة تعويضاً في بعض المساواة ، ونظاماً تسلسلياً مؤسساً على الشجاعة الشخصية وحدها وعلى الوفاء للزعيم ، الوهم في الإمساك ببعض القوة والسلطة

(٢) نسبة إلى أروكانيا وهي القسم الجنوبي من شيلي بين جبال الآند والمحيط الهادئ .

واستخدامها لقلب النظام التقليدي . ولكن إمكانية الاستيلاء على السلطة كان ينازعهم عليها ضباط الجيش النظامي الذين يتصرفون على العموم بجنود أفضل تنظيماً وسلاحاً . وقد نجم عن ذلك عدم استقرار درامي : لأن الكاؤدليوية والعسكرانية مسؤولتان عن عشرات الثورات ، والتغيرات السنوية للرؤساء الذين جعلوا الأخرين ينظرون إلى بلاد أمريكا اللاتينية بمجاملة ممزوجة بخوف الدول الأوروبية التي كان لها فيها مغتربون ومصالح .

وعاجلاً أو آجلاً ، مع ذلك ، تم بعض الاستقرار . بصورة عامة بمساعدة وفاق بين زعيم عسكري قوي بخاصة ، والمصالح الاقتصادية الكبرى - ملاكين عقاريين ، بورجوازية الأعمال في الموانئ . وهذا الاستقرار كان يفرض باسم حماية الملكية الخاصة ، المهددة بمصالح الكاؤديليوات الذين كانوا يعتمدون على الجماهير، ويجازفون في محاولة إصلاح زراعي، ويستجيب في الوقت نفسه لتمنيات البلاد الصناعية الكبرى. وقد عبر عنه بجهد في توطيد النظام والتلاحم الداخلي - القضاء على الثورات المسلحة، وأعمال الشقاوة والعصابات والاتحادية الإقليمية؛ وبتنفيذ الإصلاحات الإدارية والأشغال العامة الكبرى. ولكن الدكتاتوريات، النافذة نسبياً، ظلت في تبعية وثيقة حيال الجيش. وإذا كان هذا الأخير، في الواقع، تخلى شيئاً فشيئاً عن وضع نفسه في خدمة مصالح الأحزاب أو الأشخاص المهتمين بالاستحواذ مباشرة على السلطة ، وإذا وجد من جديد وحدة ونظاماً واكتسب صفات حديثة بتجهيز نفسه بآخر نماذج المدافع والبنادق واستدعى المعلمين الألمان أو الفرنسيين ، كما استقبلت شيلي بعثة الجنرال كورنر العسكرية ، أو البرازيل والبيرو ضباطاً فرنسيين - فقد بقي على الأقل آلة أساسية للدولة تسيرها كما تشاء . فإليه يرجع تأمين النظام الداخلي ، والإسهام في أجهزة خاصة لتعمير الطرق ، والجسور والخطوط الحديدية . وساعد أيضاً على امتصاص جزء من تطلعات الطبقات الكادحة وذلك بأن فتح لها عن سعة صفوفه وقدم لها إمكان حياة ضباط ثانويين ملحقين ، وحافظ أخيراً على دور

التحكيم السياسي الذي ظل يثقل الحياة السياسية للدول المعاصرة . إن نفوذ الجيش المنضم إلى نفوذ الكنيسة الكاثوليكية التي يحترمها الدكتاتوريون ، قد كبح بنفاذ نمو الليبرالية البورجوازية على شكل أوربة القرن التاسع عشر التي مع احتفاظها بمواقع اجتماعية محافظة جداً ، كانت تريد أن تدخل إلى أمريكا اللاتينية الأشكال البرلمانية . وهذه الليبرالية توضح الأهمية العددية المتزايدة للطبقات الوسطى المتعلمة في المدن الكبرى ، التي تثقفت في الجامعات وتوزعت بين الإدارات ـ التي هي من جديد في عز النمو ـ والمهن الحرة ؛ ووجاهة الدبلومات دخلت منذ الآن فصاعداً في تنافس مع وجاهة الرتب العسكرية . وعلى العموم ، إن الدكتاتوريات العسكرية مثل دكتاتوريات روزاس في بوينوس آيرس (١٨٢٩ ـ ١٨٥٢) أو بورفيريو دياز في مكسيكو (١٨٧٧ ـ ١٩١٢) تبقى أكثر عدداً وأكثر نموذجية . فهي تحمل في نفسها بذور الراديكالية والثورة التي دلّ القرن العشرون على قوتها . ومنذ ١٩١٠ ، أعطت المكسيك المثال : إن أربعين عاماً من التوطيد والترسيخ المنظم للملكية الكبرى والانفتاح بلا حدود لرؤوس الأموال الأجنبية ولدت فيها حركة هندية انتهت بإنجاز إيجيدوس (وحدات زراعية من الأراضي المشاع غير القابلة للتصرف) ، وقومية جديدة موجهة ضد الاضطهاد الاقتصادي لرؤوس الأموال الأجنبية ، وعداء للأكليروس بلغ أقصى العنف . وهكذا وضعت في محلها الصورة الأولى للتاريخ اللاتيني ـ الأميركي في القرن العشرين ، حيث أدى التدخل السري قليلاً قليلاً للولايات المتحدة إلى تمتين الدكتاتورية ، دون أن يمنع التخمر الثوري الذي سيؤدي ، مع فيديل كاسترو ، إلى أول نجاح .

الفصل السادس

الأوربيون في آسيا

المقدمة ـ التوسع الأوربي في العالم :

بالرغم من صغر الأبعاد في أوربة إلا أنها لعبت دوراً مسيطراً في حياة العالم الحديث ؛ وذلك يظهر فيما يلي :

١ً ـ أسهمت في نمو الموارد الطبيعية في القارات الأخرى .

٢ً ـ ضربت المثل بطرق تنظيمها ومبادلاتها ، حتى إنها استطاعت أن تفرضها .

٣ً ـ نشرت مفاهيمها ، إن من وجهة نظر تنظيم الدولة وإن من وجهة نظر الدين .

والقارة الأوربية بمثلها وبجاهها كان لها تفوق قاطع . فقد دعت الشعوب التي يجهل بعضها بعضاً إلى الدخول في علاقات متبادلة . ونسجت على منوالها وصورتها مجتمعات قديمة كالمجتمعات الآسيوية والإفريقية . ولذا فإن التوسع الأوربي كان حادثاً من الحوادث الأساسية في الدور « الحديث » . وإذا استطاعت ، رغم فرقتها وعدم اتحادها ، أن تلعب مثل هذا الدور فذلك لأن الأوربيين كانوا يشعرون ، في خارج أوربة ، بعاطفة التضامن التي ساعدتهم على أن يكون لهم نفوذ جماعي على شعوب القارات الأخرى .

بدأ هذا التوسع في بداية القرن السادس عشر مع الاكتشافات الكبرى . ولكن ما هي غاية هذه الاكتشافات الكبرى ؟ إنها :

١ ـ تنمية العلاقات التجارية .

٢ ـ البحث عن طرق للوصول إلى السلع والمواد التي هي بحاجة إليها : كالتوابل والمعادن الثمينة .

وفي الواقع ، كان لأوربة نتيجة غير متوقعة وهي اكتشاف أمريكا . فمن القرن السادس عشر إلى الحرب العالمية الأولى ، نما التوسع الأوربي بشكل شبه مستمر تشجعه المنافسة بين الدول الأوربية التي فهمت نفع المؤسسات الاستعمارية :

١ً ـ في البدء ، تأسست : الإمبراطورية الإسبانية والإمبراطورية البرتغالية ، ثم ، في القرن السابع عشر ، تأسست الإمبراطوريات الإنكليزية والفرنسية والتوسع الروسي في آسيا .

٢ً ـ في آخر القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ، يلاحظ فترة توقف .

في هذا العصر حدثت ثورة المستعمرات الأميركية التي أدت إلى تشكيل الولايات المتحدة الأميركية ، وثورة المستعمرات الإسبانية التي كان من نتيجتها تأسيس جمهوريات مستقلة في أمريكا الوسطى وأمريكا الجنوبية .

وهذه البلاد نجت على هذا النحو من الاستعمار الأوربي ، ولكن استيطان هذه القارات كان ، في القسم الأعظم منه ، من عمل الأوربيين .

٣ً ـ عودة الجهد الاستعماري ، وبخاصة في ١٨٣٠ . فقد تسارعت هذه الحركة بعد ١٨٥٠ لتؤدي في ١٨٨٠ إلى تقسيم العالم ، وبخاصة آسيا وإفريقية . يضاف إلى ذلك مشاركة قادمين جدد : من ألمان وإيطاليين وروس .

٤ً ـ بعد ١٩١٩ ، لاقى النفوذ الأوربي أفولاً . وهذا الأفول في الهيمنة الأوربية كان بسبب الحرب العالمية الأولى التي كان من نتائجها :

أ ـ ضعف أوربة الناجم عن فقد الأرواح البشرية وفقد العتاد ، والإنتاج الاقتصادي الذي كان مخصصاً للمجهود الحربي لدى المتحاربين .

ب ـ أن مكانة الولايات المتحدة في الحياة الاقتصادية قد ازدادت بشكل عظيم .

ج ـ أن اليابان ، التي لم تكن في السابق مصدرة ، أصبحت أثناء الحرب مصدرة وبقيت تصدر .

د ـ الضربة الموجهة لجاه البيض . فقد شهد ذلك الحين يقظة الشعوب الآسيوية التي حاولت تطبيق الطرق الأوربية ، وخلق بؤر مستقلة عن أوربة تنزع أخيراً لمنافستها . وفي الحقيقة ظلت أوربة الرائدة والمنشطة ؛ ولكن قسماً من العالم فرَّ من يدها .

ومهما يكن ، فمن الملاحظ أن الدور ١٨٦٩ـ١٩١٤ طبع أوج النفوذ الأوربي . وفيه بسطت الحضارة الأوربية عملها إلى الحد الأعظم :

ـ وجهت الحياة الاقتصادية وأبدعت نظاماً اقتصادياً « عالميا » تحت إدارة الأوربيين .

ـ شغلت العالم خارج أوربة ، وفرضت طرقها ووتيرة عملها ، وأرسلت ملايين المهاجرين .

وأصبح العالم يخضع لتوجيه وحيد ، وهو توجيه العرق الأبيض . أما وجهات النظر التي نتصورها في هذه الدراسة فهي التالية :

لماذا كان هذا الإشعاع أعظم منه في أي وقت مضى . وإلى أي شيء تعود هذه السيطرة الأوربية ؟ إن صفات الفكر الخاصة بالأوربي كانت سبباً هاماً في كل ذلك :

أ ـ استعداده للاختراع المبدع .

ب ـ تفوق السلاح ، وبدونه لكان كل فتح مستحيلاً . فقد كان يكفي مائة رجل

للقضاء على إمبراطورية الأنكا في امريكا الجنوبية ، ولكن هؤلاء الرجال كان بيدهم تفوق السلاح والتسلح .

ج ـ الطموح الذي هو صفة عندما يكون القصد الإصلاح والتحسين . والنهم إلى حب المعرفة ، والجشع إلى الثراء .

د ـ غريزة العمل .

هـ ـ الحس والشعور بالتنظيم ، لأن الأوربي ، نظراً لحضارته المتقدمة ، تتمخض في عقله المستنير خطط شاملة ، ويستطيع أن يهيئها ويطبقها .

ولكن يجب أيضاً أن نوضح هذه الأسباب ، ونفحص الظروف التي سهلت عملية التوسع .

إن الشكل الأول للتوسع هو التوسع الاستعماري . فقد توطد الأوربيون في بلاد مارسوا فيها سيطرة سياسية . وهذه السيطرة ساعدتهم على صنع الحياة الاقتصادية والحياة الاجتماعية ، وحتى أحياناً حاولوا أن يصوغوا الحياة الفكرية . وهذا الاستعمار وضع قضايا هامة نذكرها فيما يلي :

١) قضية التنظيم السياسي .

٢) قضية العلاقات بين المستعمرات والوطن الأم (المتروبول) .

٣) قضية اقتصادية : قضية الأرض واليد العاملة .

٤) قضية التماس بين الأعراق . وهي كيف أن المستعمرين ، وهم قليلو العدد ، استطاعوا أن يعيشوا لدى أبناء البلاد الأصليين الذين يختلفون جداً عنهم .

والشكل الثاني أقل استعماراً ، ولكنه أيضاً هام جداً للأسباب الآتية :

١ ـ كان تأثير الأوربيين تأثيراً اقتصادياً بصورة أساسية . لم يكونوا السادة ولكنهم كانوا الزعماء . أصلحوا وحسنوا البلاد « الجديدة » . مثال ذلك الصين التي تحولت جزئياً بالتغلغل الأوربي .

٢ ـ حاول الأوربيون أيضاً أن ينشروا أفكارهم السياسية التي كانت في رأيهم تتضمن التقدم .

٣ ـ لقد حاولوا نشر مفاهيمهم الدينية ، سواء كان القصد بعثات تبشيرية كاثوليكية ، أو بعثات تبشيرية بروستانتية . وفي كلا الحالين تغلغل النفوذ المسيحي معهم .

وفي المقام الأخير يجب تثمين النتائج :

أ ـ نتائج في حياة القارتين : (آسيا وإفريقية خاصةً) .

- تحويل الإطار السياسي .
- تحويل اقتصادي .
- تحويل المجتمع ، وطريق الحياة (في بعض الأوساط) .

ب ـ نتائج في حياة أوربة نفسها :

- ساعد التوسع نمو الصناعة الأوربية ، وهيأ لها « منافذ » .
- أثار التوسع منافسات بين البلاد الأوربية ، وهذه المنافسات لعبت دوراً هاماً في التاريخ الأوربي نفسه .

الأوربيون في آسيا :

يتصف القرن التاسع عشر من وجهة نظر العلاقات بين أوربة ودول ومجتمعات آسيا القديمة ، بتكثيف المبادلات المختلفة من كل طبيعة . وقد نتج عن صدمة أمبريالية الغرب تحت أشكال مختلفة اقتصادية وعسكرية وسياسية ـ صدمة يعبر عنها حسب الحالات ، بالفتح ، وقلب البنى ، أو بالعكس تجديدها .

إن توغل ، وسيطرة واستغلال آسيا ، من قبل الغربيين وردود الفعل القومية الناتجة عنها ، تمت على أزمان وحسب كيفيات متغيرة . ومن الممكن أن نميز أربعة

نماذج إقليمية للتطور : نموذج آسيا الروسية (تركستان وسيبيريا) ؛ نموذج آسيا الجنوبية والجنوب الشرقي (الهند الصينية الفرنسية ، وجزر الهند الشرقية الهولاندية) ، ونموذج الصين ، وأخيراً نموذج اليابان .

في آسيا الروسية ، القصد هو استعمار استيطان دحر البدو الرحل واتفق مع المقيمين ، وتقدم على شاكلة جبهة رائدة نحو الحواجز الطبيعية في آسيا الوسطى العالية والمحيط الهادئ . وهذه حال متابعة روسيا للتوسع الداخلي ، في حدود أرض واسعة ثبّتت عليها منذ زمن طويل سلطتها الاسمية دون أن تستحوذ عليها فعلاً . وقضايا إصلاح الأراضي واستغلالها ، وتمثل الجماعات العرقية والدينية غير المتجانسة أو المساكنة بينها ، وضعت هنا بتعابير استعمارية ـ كما تبرهن على ذلك علاقة القوى أو الفرق بين الحضارات ـ وإن كانت هذه القضايا موجودة في داخل حدود الوطن الأم نفسه .

في آسيا الجنوبية وجنوب شرقها يقصد بالمقابل حالة استعمارية كلاسيكية في بلاد مدارية . مجموعة أراضي واسعة ، تبعيات سياسية ومناطق استغلال اقتصادي للعواصم البعيدة ، تتوضع إلى جانب بعضها ـ بانتظار أن تتصادم ـ وأقلية ضئيلة من الإطارات (الملاكات) الإدارية ، والعسكرية والتقنية تحتكر السلطة والثروة ، وفي الغالب متضامنة مع الطبقات الموجهة التقليدية ـ والجماهير الأصلية بنية نجد فيها قبضة من المتطورين يعملون كخميرة للثورة ضد الغرب ، بعد جيلين أو ثلاثة أجيال . وفي **الصين** أخذ التغلغل الغربي أشكالاً أصيلة : النفوذ السياسي المباشر لأوربة غائب فيها ـ لأنه لا يمكن اعتبار الامتيازات أو الأراضي المؤجرة كمستعمرات حقيقية ؛ ولكن الدولة الصينية تحملت عملياً نظام حماية حقيقي ، وكسبت البلاد بنية اقتصادية استعمارية .

في **اليابان** ، تغير الرسم الأولي : لأن الاستعمار لم يكن لديه الوقت ليفرض نفسه ، لأن رد الفعل القومي وتطور البنيات كانا سريعين ؛ ففي ثلاثين عاماً أصبحت اليابان دولة اقتصادية ولا سيا عسكرية منافسة للإمبرياليات الغربية في الشرق

الأقصى نفسه : كما أن التكيف فيها كان صاعقاً أيضاً بينما كانت ظروف التحرير بطيئة التشكيل في غيرها من البلدان الأخرى .

١ ـ آسيا الروسية

روسيا تتجه نحو آسيا :

كان القرن الثامن عشر ، من وجهة النظر الأرضية ، بالنسبة لروسيا ؛ قرن كسب واجهات بحرية ، والدفع نحو الدانوب والڤيستول . ولكن في القرن التاسع عشر فرضت الحالة الدولية ، كحاجات روسيا الداخلية ، تغيراً في الاتجاه . ففي ١٨١٥ ، في فيِنّا دلت النمسا وإنكلترا بوضوح عن إرادتها في وضع سد أمام زحف الإمبراطورية الروسية نحو الغرب رافضتين أن تريا فيها دخول بولونيا البروسية القديمة ؛ وحتى ١٩٤٥ لم تذهب إلى ما وراء ذلك . وفي منطقة المضايق ، الدردنيل والبوسفور ، بدا أن كل محاولة جديدة روسية ستصطدم بمقاومة إنكلترا حامية سلامة الإمبراطورية العثمانية وتماميتها ، كما ستصطدم بحسد النمسا التي تخلت عن البلاد المنخفضة ، ومن ثم إبعادها عن الوحدة الألمانية ، اللذين وجهاها من جديد وبوضوح نحو جنوب ـ شرقي أوربة . ومنذ الآن فصاعداً ، كانت الأزمة البلقانية دوماً أزمة دولية ، وأصبحت حرية عمل روسيا محدودة جداً ، وحتى أيامنا ، لم تستطع الخروج من البحر الأسود . وهنا يوجد ما يوضح توجه روسيا من جديد نحو آسيا بحثاً عن تعويض لخيبتها الأوربية ، إرضاء لأنانية سلالية أو قومية . ولكن الزيادة الديموغرافية السريعة لروسيا ، في القرن التاسع عشر ، كانت أيضاً قاطعة : فالفلاحون الروس كانوا بحاجة للسهوب الداخلية في القارة . وقد تم الزخم الروسي حسب محورين : آسيا الوسطى المنخفضة ، وسيبيريا والشرق الأقصى .

فتح تركستان :

في سنوات ١٨٦٠ ، غداة هزيمة حرب القرم وضع الكسندر الثاني النقطة النهائية لتنافس يعود إلى قرون بين روسيا الموسكوفية والشعوب الإسلامية التي كانت عملياً مستقلة ومقيمة فيما وراء نهر أورال وبحر قزوين (الخزر) ، تنافس كان آخر أكبر زمن له في ١٥٥٦ في سقوط خانة استرخان التترية . وكان القصد أولاً إخضاع القازاق الرحل ، ومنهم الكوزاك المكلفين بحراسة الحدود الجنوبية للإمبراطورية منذ زمن طويل . كانت هذه الجنود على درجة كبيرة من الشجاعة والمهارة في التنقل عبر السهول الكبرى النصف صحراويّة وبالهجوم بالحراب . ويقضون حياة عصابة استعمارية بواسطة فصائل صغيرة متحركة تحت قيادة جنرالات طموحين . ومن بعد ، من ١٨٦٥ إلى ١٨٧٣ انهيار الإمارات القديمة في طشقند وسمرقند وبخارى وكيفا وكلما تقدم كانوا الروس يحاولون تبرير فتحهم وضم السكان بالعمل على إنعاش الازدهار ! من ذلك أنهم يكرون قنوات الري المليئة بالرمل منذ الغزوات المغولية والتركية . ومع ذلك فإن هذا الهجوم الأول للتوسعية الروسية في آسيا كان قصيراً : فمن ١٨٨٠-١٨٨٥ ، بعد فتح بلاد التركمان ، كان في طريق مسدود . وعند قدم الحاجز العظيم ، في جنوب وشرق الحوض الآرالي - القزويني ، الذي كان ينصب ذرى بين ٢٠٠٠ و ٨٠٠٠ م ، تبدأ في الواقع منطقة الهضاب - العليا الإيرانية والأفغانية ثم التيبيتية ، وفيها ترى إنكلترا غطاءً لا غنى عنه للمناطق الواقعة في شمال غرب الهند . وجبهة التنافس الإنكليزي - الروسي تتطاول نحو الشرق ؛ ومن المضايق تصل كشمير وحتى الصين . وهناك المكايد الدبلوماسية والضغوط العسكرية حول أمارة كابول ، التي انتهت باستقرار مؤقت .

إن السياسة الاستعمارية القيصرية في آسيا الوسطى المنخفضة ، الموصوفة بسياسة « التقارب » تقضي إلى تسرب كثيف كثيراً أو قليلاً للاستيطان الروسي في داخل الشعوب الإسلامية . ففي الإمارات القديمة ، الواحات المأهولة بالمقيمين : المزارعين الأوزبك ، كان القصد حضوراً بسيطاً من العسكريين والموظفين ، واستعماراً مدنياً

أساساً يضع الأحياء الأوربية ومدن الأهالي الأصلاء بجانب بعضها ؛ وبالنسبة للباقي ، ظل المسلمون في الغالب يدارون بواسطة وجهاء محليين مرتبطين بالروس . وعلى المضاب في شمال بحيرة آرال (بحر آرال) الذي يشغله القازاق الرحل بشكل غير منتظم ، كان هناك غزو من الفلاحين الروس : كانوا يقيمون على أراضي العبور ، ويدمرون قليلاً قليلاً توازن اقتصاد تربية حيوانات واسعة ومنتقلين من مكان لآخر بسبب تجزئة الأراضي الصالحة للزراعة ؛ والدار المنشأة باللبن تظهر في عز حضارة الخيمة والرحل النصف مقيمين ، والنصف كادحين الذين فقدوا بالطرد الأكثرية في القرن التاسع عشر ، وقازاقستان سترتبط بمفازة الاستيطان السلاڤي . ويتألم الأصلاء من قساوة المستعمر الروسي في احتكاره للأرض ، وإن كان بعض القادة المحليين يحاولون حماية مصالحهم .

أما التنمية الاقتصادية فلا جدال فيها . فقد بادر الروس بتحقيق فتحهم ببناء خط حديد عابر الآرال (موسكو ـ ساراتوف ـ طشقند) وخط حديدي عابر بلاد بحر الخزر (باكو ـ كراسنوڤودسك ـ طشقند) . وشجع الري نهوض زراعة القطن وزراعة البستنة الباكورية.وعشية الحرب العالمية الأولى بدأت رؤوس أموال أجنبية تهتم بالموارد المنجمية في هضبة قازاق ، مع فتح مناجم الفحم الحجري في كاراغاندا . ولكن الروس لم يروا في تركستان إلا مستودعاً للمواد الأولية وللمنتجات الأجنبية الغربية المخصصة لاستهلاك الجزء الأوربي من الإمبراطورية . والقطن والحرير يصدران خامين نحو مغازل منطقة موسكو . وبخاصة ، هناك ، تتحدد الاتصالات الحضارية . أما بالنسبة للباقي ، المجابهة ، وليس التغلغل المشترك بين الثقافات : فقد قاوم المسلمون التجهيز بالمدارس ، الذي كان أداة الترويس ، وتغيير الدين العدائي واحتقروا المستعمرين الروس ، لأن الديانة الأرثوذوكسية في نظرهم كانت الشهادة الوحيدة للمواطنة الكاملة . وكذلك ، لأسباب أمنية ، ظل المسلمون معفين من الخدمة العسكرية . ومع الحرب العالمية الأولى عندما فاجأ تفاقم الاستغلال الاقتصادي ، تفجرت ثورات الأصلاء العنيفة في (١٩١٦)

واتبعت بقصاص بالمقابل بقتل جماعي فظيع قام بـه الفلاحون الروس . وكـذلـك يجب أن تنسب إلى النظـام البـولشفي سيـاسـة الجنسيـات التي تسـامحت مـع السكان المسلمين وبقائهم في داخل الحدود الروسية .

خط عابر سيبيريا ومنشوريا :

انطلاقاً من سنوات (١٨٨٠ـ١٨٩٠)كان مسرح التوسع الروسي الأساسي سيبيريا . وسدت الآمال أكثر من أي وقت مضى في البلقـان ، حيث كان النمسـاويون سـادة منـذ ١٨٧٨ ، في البوسنة والهرسك وحصلوا على نجاحات متعددة في صربيا وفي رومانيـا ، ولا سيما في بلغـاريـا (١٨٨٧) التي ظلت حتى ذلـك الحين موقعـاً أمـاميـاً للنفوذ الروسي ، وحيث صرف الفرنسيون ، حلفاءهم الروس منذ ١٨٩٣ ، مع ذلـك في كل منـاسبـة ، عن المجازفة . ولا أمل ، في الحاضر المباشر ، كما رأينا ، في أن يـأخـذوا موطئ قـدم في آسيـا الوسطى العالية (ماعدا تسللات مستعمرين روس في الحوض الأعلى لنهر إيلي وبعض النشاط التجاري في سن ـ كيانغ) . وبالمقابل ، وجد أن تفاقم زيادة السكان في الأقاليم الـوسطى والجنـوبيـة في روسيـا أوربــة في السنـوات الأخيرة من القرن ، يجعـل ، من العـاجـل أكثر من أي وقت مضى ، الاحتـلال المنظم للسهوب السيبيريـة انطـلاقـاً من الأورال ، بينما في الأقـاصي الشرقيـة كان الإغراء قويـاً في أن تضـع روسيـا نفسهـا على مصـاف الـدول الأخرى الأوربيـة لأجل تقسيم الصين وتبعيـاتهـا الخـارجيـة في منـاطق النفوذ . ولكن روسيا ألم تربح ، في مثل هذا المشروع ، من قدم.وانتظـام علاقـاتها مع إمبراطوريـة الوسـط ، منـذ آخر القرن السـابع عشر لأن القـوافـل كانت تنقـل الشـاي والحرير من سوق كالغان على السور العظيم ، حتى إيركوتسك مقر حكومـة سيبيريـا ؟ وأكثر من ذلـك أن روسيـا لم تـوقـظ في أي وقت مضى حـذر الصين بـالبحث عن فرض وجود المبشرين عليهـا . وكالإسلام ، كان الشرق الأقصى مؤالفـاً لروسيـا هـذه التي تركم الفائدة من كونها دولة غربية ومن ربح التلاحم مع القارة الآسيوية .

ونحو ١٨٩٠ ، ظل ميزان التوسع الروسي في سيبيريا ضعيفاً إما بسبب نقص الخطوط الحديدية التي قد تسهل الاجتياز والعبور واستعمال هذه الأرض الواسعة ، وإما لعدم مبادهات حكومة كافية ومتابعة . وبالرغم من الهجرة العنيدة للفلاحين الروس الذين يحاولون الفرار من العبوديات الأميرية والقروية والديون والبؤس ، وفقدان الأراضي ، والهجرة غير القانونية كثيراً أو قليلاً حتى بعد منح النظام الأساسي لعام ١٨٦١ ، فإن سكان سيبيريا لم يعروا في سياق القرن التاسع عشر ، إلا من ثلاثة إلى ثمانية ملايين نسمة . وفي أطراف المحيط الهادئ ، أسس الروس في ١٨٦٠ مؤسسة ڤلاديفوستوك ، في المنفذ الجنوبي لمعبر الأوسوري ؛ ولكنها لم تكن إلا قاعدة ضعيفة ، مشلولة في الشتاء بالجليد ، ويستعملها أسطول حرب وتجارة متواضعة أيضاً . وفي ظهير البلاد جرت محاولة لاستعمار زراعي في حوض نهر آمور وأخفقت . وطريق الشاي والحرير كان نفسه في عز الأفول تحت تأثير منافسة طريق السويس . ولكن ، في سنوات ١٨٩٠ ، تشكل حول الوزير ويت « حزب مستشرق » يمتزج فيه المكتشفون ، والعلماء باللغة الصينية ، والعسكريون الذين يرجون كسب ميناء خال من الجليد ، والماليون الذين يهتمون بتوسيع الخطوط الحديدية . ولم يفكر البعض إلا في إنشاء نقاط استناد فيما وراء البحر ؛ والآخرون فكروا باستكمال إمبراطورية قارية ممتدة حتى المحيط الهادئ . على أن البدء في ورشة الخط عابر سيبيريا (١٨٩١) سيخدم معاً هاتين السياستين . وبسرعة تسارعت وتيرة الهجرة الريفية نحو سيبريا . وفي ١٨٩٦ تجاوز الخط الحديدي إيركوتسك . ووضعت قضية وصل قاعدة فلاديفوستوك بروسيا أوربة بأقصر خط حديدي ، وهذه موازبة مكلفة وبطيئة ، ولكن في الأرض الروسية ، بحوض نهر آمور ، أو بمسافة أقصر ـ نحو ألف كيلومتر ـ عبر مانشوريا ؟ وأتاحت حالة الصين الدولية على وجه الدقة للروس فرصة هذا الاقتصاد . وبنتيجة معاهدة شيمو نوزيكي ، قبلت الصين المساعدة المالية من روسيا بواسطة بنك روسي ـ صيني . ومقابل هذا العون ، المنوع بضمانة عسكرية ، قبلت إنشاء خط عابر ماندشوريا المستثمر والمحمي

بتقنيين وبجنود روس . وحفظت منشوريا الشمالية طابع هـذا « الاحتلال » في مـدنها الجديدة التي بنيت حول محطـات روسيـة . وحصل الروس فيما بعـد على تخل بـالتـأجير لطرف شبه جزيرة لياؤ ـ تونغ ، مع ميناء دالني والمينـاء العسكري بور ـ آرثر ؛ وأدى وصل هذه القاعدة بخط عابر منشوريا إلى رسم شبكة حقيقية حديديـة ، لا معـادل لها في باقي الإمبراطوريـة الصينيـة . وفي ١٩٠٠ ، أفـادت ثورة البوكسر (الملاكمين) حجـة للروس لتعزيز حامياتهم . وحتى فيما وراء منشوريـا ، تطلعت أنظـار بعض جماعـات المصالح إلى كوريا ، وبخاصة لاستغلال غابات منطقة يالو . ومع ذلـك فـإن التـأسيس الروسي في الشرق ـ الأقصى ظـل عسكريـاً بصـورة أسـاسيـة ؛ ومن وجهـة النظر الاقتصادية والبشرية كان ضعيفاً سريع العطب . إن خط حديد عابر سيبريـا ، الخط الوحيد الدائم ، كان أيضـاً أقل قـدرة لإثـارة مبـادلات تجـاريـة منـه في تسيير نجـدات عسكريـة بسرعـة : ولم ينجـح الروس في بعث الإدارات التجـاريـة القـديمـة لصـالحهم (بالرغم من تعرفة تفضيلية لصالح طريق الخط الأرضي ، ظل ثلثا الشـاي المستهلـك في روسيا يدخلان بطريق أوديسا ، وأصبح النقل أعلى بعشر مرات بالخط الحديـدي منـه بطريـق البحر) . أمـا مـوجـة الاستيطـان الروسي ، فلم تتجـاوز بعـد بحـق سيبيريـا الغربية .

الحرب الروسية ـ اليابانية :

هذا الضعف من حضور روسيا يوضح الحرب الروسية اليابـانيـة : إذ لم يكن منـه إلا تشجيع مبادهات اليابان الجشعة إلى القوة في آسيا ، والحساسـة بجـاذبيـة مـانشوريـا (أكثر بكثير من كـوريـا) كاحتيـاطي من الأراضي والمـواد الأوليـة . وبعـد تـوتر دبلوماسي دام عدة سنوات . وضع اليابـانيون حـداً في الليل من (٨) إلى (٩) شبـاط ١٩٠٤ ، بهجوم مفاجئ على پور آرثر. وأغارت طوربيدات الأميرال توغو، فـأبطلت كل رقـابـة ، ودمر أضخم وحـدات الأسطول الروسي الراسي في الحـوض . ثم إن اليـابـانيين

عزلوا بور آرثر من جهة البحر بسد الممر بـالسفن الغـارقـة ، وبوضع سـدود من الألغـام ووضع أسطولهم على مقربة من السواحل . على أن البتروپاڤلوسـك ، سفينـة الأميرال ، التي كان على متنهـا مـاكاروف ، قـائـد القـوات البحـريـة الروسيـة في المحيـط الهـادئ ، حاولت في سياق مخرج أن تفك الوثاق اليابـاني وانفجرت على أحـد هـذه الألغـام . وفي الصيف تدمرت بقايا الأسطول الروسي في سيـاق معركـة دامت عـدة أيـام ، بينـما عزل اليـابـانيون بور ـ آرثر من جهـة البر وذلـك بـالإنـزال في ليـاؤ ـ تـونـغ . وأمر الجنرال ستوسيل ببناء تحصينات اسمنتية ؛ ولكنـه كان مقطوعـاً من كل نجـدة ومن كل تموين ، ولم يتماسـك حتى وصـول أسطـول النجـدة ، الـذي يقـوده الأميرال روجـدستفينسكي ، واستسلم في ٢ كانون الثـاني ١٩٠٥ . وفي مـانشوريـا حـاول وزير الحربيـة لـدى نيقـولا الثاني ، الجنرال كوروپاتكين أن يدافع عن موكدن التي كانت تـدور حولهـا ، في شتـاء ١٩٠٤ـ١٩٠٥ حرب مواقع ، انتهت في آذار بمعركة عظيمـة في التـدمير فقـد فيهـا الروس ١٠٠٠٠٠ رجل . وتـدمر في هـذه الفترة أسطول النجـدة على يـد توغو في مضيق تسوشيما دون أن يقـدر على مسّ القـارة . وبعـد بضعـة أشهر أزالت معـاهـدة بورتسموث النفوذ الروسي من منشوريا ومن كوريا ، وأحلت محله نفوذ اليابان .

سنة ١٩٠٥ :

إن سنة ١٩٠٥ لها مع ذلك دلائل أخرى لأجل الشرق الأقصى غير دليل تراجع فظ للإمبريالية الروسية لصالح تقدم الإمبريالية اليابانية الفتيـة . ففي مينـاء بورتسموث ، الواقع ، على شواطئ فرجينيا وقع السلام بوساطة تيؤدور روزفلت : وهـذا دليل مؤشر على المصلحة النامية والمتزايـدة للولايـات المتحـدة منـذ السنوات الأخيرة للقرن التـاسع عشر في المحيط الهـادئ والشرق الأقصى وعلى إرادتهـا في تجنيب مـا يمكن أن ينقطع فيـه توازن الإمبرياليات لصالح واحدة منها . ومن جهـة أخرى ، لقـد أثـار النصر اليـابـاني زعزعة نفسية عميقـة بين شعوب آسيـا ، من الهنـد إلى الصين ؛ وهـذا هو الأول لسلسلة

طويلة من الاعتداءات على جاه الإنسان الأبيض ، والأوربي ؛ والحركات القومية الناشئة تلقت منه تشجيعاً ، فتصلبت في مواقفها ؛ إن زعماء الصين مثل سن يات ـ سن المعجب باليابان حتى تأريخ متأخر ، يرى في هذه الدولة زعيم سلسلة ممكنة لجامعة دول آسيوية محررة من الوصايا الأوربية : ولكن الثوري العظيم كان ، في هذه النقطة ، يميل جداً إلى جعل أهداف السياسة اليابانية مثلاً أعلى . وإذا أضيف أن الثورة الروسية ، في ١٩٠٥ ، المرتبطة في تحريكها إن لم يكن في حقيقتها العميقة في سقوط بور ـ آرثر ، قد قصرت في قلب النظام القيصري ، فمن المسموح أن يرى في الحرب الروسية ـ اليابانية ، في صفاتها العسكرية كما في انعكاساتها ، التصور المسبق والدقيق للحرب العالمية الأولى وأعقابها .

إن التوسع الروسي في آسيا لم يكن مع ذلك محاصراً . إن إنجاز خط عابر سيبيريا الأول (١٩٠٦) ، والإجراءات الحديثة في تحرير الفلاحين ، حيال المير في هذه المرة (١٩٠٦ـ١٩١١) ، ساعدت على هجرة ريفية كثيفة حقاً نحو سيبيريا (وسيبيريا كانت نفوسها ١٤ مليون في ١٩١٧ ؛ و ٤ إلى ٥ ملايين وصلوا منذ ١٩٠٦) . وأصلحت روسيا الحالة في آسيا الوسطى بتسوية خلافاتها مع إنكلترا (اتفاقات ١٩٠٧ ،التي أوجدت نوعاً من مناطق محايدة بين روسيا والهند) . وأخيراً تطبع من جديد نقاطاً في الشرق الأقصى ، بفضل صعوبات الصين الداخلية انطلاقاً من ١٩١١ : فعشية الحرب العالمية الأولى ، أصبحت مونغوليا الخارجية تحت النفوذ الروسي .

٢ ـ الهند البريطانية وجنوب شرقي آسيا

الهند البائسة والمقسمة :

في آسيا الرياح الموسمية على الإمبريالية الأوربية أن تأخذ بعين الاعتبار وتقدر وجود نوى لاستيطان قوي شديد ، وحضارات قديمة ومستقرة . ففي شمال حاجز آسيا الوسطى يوجد أناس قليلو العدد من البدو الرحل ، ومن النادر أن يتجاوزوا درجة

تنظيم القبيلـة . وفي جنـوب هـذا الحـاجـز مئـات مـلايين البشر متجمعـة في دول وإمبراطوريات ذات تقاليد متينة وصلبة .

الهند أكثرها ضعفاً في البنية بينها لم تكن بعد ، في القرن التاسع عشر ، كتلة جماهير بشرية عظيمة كما يذكر بها اسمها اليوم . ومع ذلك إذا كان نهوض الديموغرافية الهندية يرجع تاريخه فقط إلى سنوات ١٩٢٠ ، فإن هذا الشعب بلغ منذ ذلك الحين بين مئتين وثلاث مئة مليون نسمة . وقد كبح نموه بسبب المجاعات والأوبئة معاً ، التي في خلالها تساعد أمثلة ١٩١٩ أو ١٩٤٣ على تصورها ـ لأن الناس كانوا يزولون بالملايين . وقدم التقانة الزراعية ـ الهندي أقل عناية من ريفيي آسيا الموسمية ـ يديم الفقر بالمواد الغذائية ، سوء التغذية . وهذه تسهم في سوء الحالة الصحية لشعب معرض من قبل بصورة طبيعية لتكاثر الجراثيم في الوسط المداري . وبنية الملكية ، بنية قديمة وفي طريق التعزيز الذي يجعل مجموع الفلاحين ذوي قطع الأرض الصغيرة يهلك بالربا الذي تطالبهم به الطبقة الأرستقراطية العقارية (زاميندار) ويترك قليلاً من الأمل للشعب الهندي للخروج من ركود في أدنى مستوى .

الهند تعبير جغرافي ، بلد مجزأ إلى ما لانهاية ، نجد فيه مئات ألوف القرى ، خلايا زراعية وحرفية ، تعيش منطوية على نفسها . فمن ترافانكور إلى بنجاب ، ومن بومبي إلى كالكوتّا ، كل شيء يفصل السكان في هذه القارة المصغرة ، ملتقى عدة أعراق ، وعدة أديان . وأكثر من مئة لغة ولهجة ، بلد منفتح معاً على آسيا العليا وعلى المحيط الهندي ، ولكن لا يعلمان منه شيئاً . وما من بنية سياسية مجموعة تفرض شكلاً ما أو وحدة ما على هذه الهند غير العضوية ، التي سقطت منذ ١٧٠٩ ، تاريخ وفاة أورنج ـ زيب ، في تفتت يبلغ ستمائة إمارة إقطاعيين (نباب ، سوباب ، راجاه) لم يتحملوا أبداً إلا بشكل بعيد سيادة الأباطرة المغول ـ سيادة بالأحرى ، لا تدركها رعاياهم كلياً . حتى في التدرج المحلي ، ينتهي تسلسل الطبقات ، المكفول بالدين ، بتجزئة المجتمع الهندي وتجميده .

الطابع الإنكليزي : لقد أدخل النفوذ الإنكليزي شيئاً فشيئاً في هذا التعقيد نظاماً ، وحركية جديدتين ، هذا أمر لا جدل فيه ـ وإن كان بالإجمال ترك عدة بنيات على حالها لم تمس من اقتصادية واجتماعية ودون زوالها يظل خلق هند حديثة أمراً مستحيلاً .

منذ السنوات الأخيرة للقرن الثامن عشر ، أمر التاج البريطاني ، الذي يسيطر على مستعمراته في الهند بواسطة شركة الهند الشرقية ، أمر مبدئياً نهايةً للانضمامات ، ولكن الحكام تابعوا مع ذلك سياسة زيادات سلمية ، باحتلالهم دولاً أسيئت إدارتها ، أو وقعت في حالة حرمان تسبب تبنيات أو تركات . وهكذا فإن الإنكليز ، الحاضرين حتى ذلك الحين على السواحل في كارناتيك ، وسيركار ، وبنغال ، كانوا قد دمروا مملكة المهراتات ـ الدولة الوحيدة الحقيقية في الهند ، وانتزعوا أراكان ، وأسّام ثم رانغون من البرمانيين ، واحتلوا السند وبنجاب ، وأجروا انضمامات في شمال الدكن وسهل الغانج حتى سنوات (٥٠) ، تحت إدارة لورد دالهوزي . ولكن في ١٨٥٧ ـ اهتزت الهند بثورة السباهيين ـ ثورة إقطاعية ـ أكثر منها دينية ، لأن الجنود الأصلاء ، من أبناء البلاد ، الثائرين وضعوا على رأسهم نانا صاحب ، وهو أمير انتزع الإنكليز أملاكه . ولكن الثورة قمعت مع السرعة التي ساعد عليها استعمال الخطوط الحديدية الأولى والبرقية التي بدأ وضعها في ١٨٥٢ ـ ١٨٥٣ ولكن نتيجتها كانت تغيراً في الطرق الإدارية البريطانية . إن شركة الهند التي كانت قد خسرت في ١٨٣٣ حصرها التجاري ، جعلت مسؤولة عن الحوادث . وفقدت امتيازاتها وتركت المكان إلى إدارة مركزية : في لندن سكرتير الدولة في الهند ومجلس الهند ، وفي الهند ، حاكم عام وأربعة عشر حاكماً إقليمياً ، تخدمهم هيئة خاصة من الموظفين المدنيين ، وجيش يتعزز بإطاره الأوربي ، والتجنيد محدود للشعوب التي لم تسهم في الثورة (السيخ بخاصة) . وهذه القرارات المفاجئة ، من جانب إنكلترا الحرة (الليبرالية) التي كانت توالي بالعكس منذ ما يقرب من عشرين سنة سياسة تحرير المستعمرات ، والتي ثبتت في ١٨٣٧ نيتها أيضاً على تطبيق هذه

السياسة في الهند مع البطء العاقل الذي تمليه الحالة المتخلفة لهذا البلد . ولكن الخوف الذي شعرت به فجأة من ضياع جوهرة الإمبراطورية ، والواقع الذي لا يقصد مستعمرة استيطان أوربي يوضحان بما يكفي هذه العودة إلى فكرة الإدارة المباشرة . ومع ذلك فقد تخلت إنكلترا في الوقت نفسه عن سياسة الضم وثبتت ثنائية النظام الأساسي السياسي (مستعمرات التاج أو هند بريطانية ـ دولتان أميريتان محميتان) وقامت على مراحل صغيرة جداً بمشاركة بعض عناصر السكان الهنود بحكم البلاد . ومنذ ١٨٣٣ كان (البند النبيل) قد سمح بوصول الهنود إلى أعلى درجات الوظائف الإدارية ، ولكن دون أن يلقى حتى ذلك الحين أي تطبيق ، وفي هذه المرة ، أوجدت مجالس لدى الحاكم العام (نائب الملك انطلاقاً من ١٨٧٧ ، عندما أصبحت الملكة فيكتوريا نفسها إمبراطورة الهند) وحكاماً إقليميين . أولاً مؤلفين على سبيل الحصر من موظفين بريطانيين ، وانفتحوا ببطء على الوجاهات الهندية التي تنتخبها الإدارة البريطانية . أو تدل عليهم غرف التجارة والجامعات ، والسلطات الدينية ، ثم ينتخبون من قبل هيئات ضيقة تكاد تجمع مليوناً واحداً من الناخبين عشية الحرب العالمية الأولى . وفي الوقت نفسه تألفت بلديات منتخبة . وهذه السياسة بعيارات عالمة ، وبتقدم محدد ، تركت الهند ١٩١٤ قريبة جداً من النظام التمثيلي الذي حصلت عليه كل المستعمرات البيضاء الأخرى وتجاوزته : فالإنكليز في عملهم التربوي السياسي يعملون في منظور تحرير بعيد جداً ، من أجل موعد غير معين جداً حتى ينشأ انطباع عند القوميين كما عند موظفي « مكتب الهند » و (دون الكلام عن ضباط جيش الهند) ، بأن الوصاية البريطانية مخصصة لتدوم طويلاً دون تعيين تقريباً . وهنا توجد مسألة وتيرة في التطور السياسي الذي سيكون في المستقبل مصدر شقاق راديكالي بين المستعمِرين والمستعمَرين في الهند وفيما عداها من البلدان .

ومن الممكن أن نعتبر أن تطور النظم يعتمد على جهد التجهيز المدرسي . فقد رأت الهند نفسها مجهورة بنظام تعليم ثانوي و عال منسوخ على نظام بريطانيا العظمى ، ويقبل أبناء البورجوازية أو الارستقراطية الهندية في الجامعات .

أمـا النصف الثـاني من القرن التـاسع عشر فكان أيضـاً دور تحـويـلات كبرى اقتصادية في الهند . والمستعمرة القريبة بشكل فريد من الوطن الأم (إنكلترا) بـإقـامـة أول خط برقي (١٨٦٥) وفتح قناة السويس (١٨٦٩) ، أخذت بـالنسبـة لإنكلترا قيمة اقتصادية جديدة لأنها أصبحت مجهزاً بـالمواد الأوليـة الصنـاعيـة أو السلع المـداريـة التي لا تستطيـع منـذ الآن فصاعـداً بريطـانيـا العظمى أن تستغني عنهـا . وبفضـل حرب الانفصـال ، حلت الهنـد محـل الـولايـات المتحـدة كأول مجهـز بـالقطن الخـام لأجـل لانكاشير . ومـزارع الشـاي في أسّـام وفي سيـلان أدت إلى تغيير في ذوق المستهلكين البريطانيين ، الذين تحولوا عن الشاي الصيني . ويسجل بأن القصـد هنـا تقـدم يتعلق بخاصة في الزراعة التجاريـة . وعلى الصعيـد الغـذائي ، استمرت الهنـد تعرف مجـاعـات كبرى بالرغم من بناء السدود الأولى المخصصـة للري ومن مضـاعفـة السطوح المزروعـة . وعلى سبيل المثال نـذكر مجـاعـة الأوريسّا (١٨٦٦ ـ ١٨٦٧) التي قضت على ربع سكان الإقليم . وبالمقابل رفضت بريطـانيـا العظمى لمستعمراتها حق تصنيع نفسهـا ، وظلت تبـادل بحريـة من أجـل البـاقي ، وتستمر في تطبيقهـا على الهنـد نظـام حب الكسب (المركانتيليسم) . وبمناسبة القطن والجنفيص وضعت القضيـة أولاً . فقـد كان صنـاعيو لانكشاير وإيكوسيا يرون بأن تصدر الألياف بكاملها خـامـاً نحو أوروبـة ، لتعمل على سبيل الحصر في معـاملهم ، وأن يكتفي الهنود بـدور المشتري لنسيج المتروبول . وهكـذا فـإن القطن يقوم بـدورة عـدة آلاف الكيلومترات ، غير منتظر ولكنـه مطـابق لتقسيم العمل الذي تريد إنكلترا الصناعية في القرن العشرين الإفـادة منـهُ في عـالم غير مصنّع . وهكـذا يتم عـدم تصنيع حقيقي في الهنـد ، وتراجـع حرف النسيـج الريفي أمـام غـزو منتجات الصناعة البريطـانيـة يؤلف خطراً خطيراً على سكان ريفيين مؤهلين للزيـادة ويفهم بأن غاندي استطاع في القرن التالي ، أن يجعل من العودة إلى التقـاليـد الحرفيـة موضوع المقاومـة القوميـة ، ومع ذلـك فـإن جميع الهنود لم يقبلوا تحمل هـذا القـانون . ويوجد رأسمالية هندية ترغب أن تتوجه ، مقلدة الغربيين ، نحو الأربـاح الصنـاعيـة ،

وتمثل بخاصة بكبار الملاكين العقاريين ، وبتجار الوكالات المرتبطين منذ القرن السادس عشر بالتجارة مع الأوربيين مثل آل بارسيس في بومباي ، والمرابين أيضاً . ففي الزمن الأول ، نحو ١٨٥٠ ـ ١٨٧٥ نشأت صناعة قطنية تسيطر عليها الأمبريس ميلز للهندي تاتا في بومباي ، ناغبور ، أحمد أباد كونبور . ثم صناعة الجنفيص ، حول كالكوتا . وقد شعرت مانشستر ودونندي بعد ذلك بالتنافس في الشرق الأقصى كله ، وحتى في أوستراليا والولايات المتحدة . ولم تتوصل بعد أوساط الأعمال البريطانية لفكرة منع التنافس الصناعي الاستعماري بتأسيس فروع لها في الهند تشرف عليها شركات المتروبول (الوطن الأم) وتفيد علاوة على ذلك من رخص اليد العاملة المحلية (على حين أنها تبنت مع ذلك الطريقة المتعارف عليها في الموانئ الصينية : ولكن القصد هنا مشاريع متخصصة في الأعمال الاستعمارية) وأفضل من ذلك ، حصلت على أن رسماً خاصاً يضرب المنتجات المصنوعة من صنع هندي تباع في الهند ، ليبقى الربح للمواد الآتية من المتروبول . وهذا لم يمنع من أن أول تصنيع للهند تتابع ، في هذه المرة في قطاع المناجم والصناعة المعدنية : في جامشدبور ، في ١٩١١ ، وشركة تاتا للحديد والفولاذ دشنت أول فرن للكوك ، وفي ١٩١٢ أول فرن عال لها ، وفي ١٩١٣ أول فولاذ ذائب . وعلى نقيض المشاريع السابقة التي استنجدت بالرأسمال الإنكليزي ، كان هذا المشروع برأسمال هندي محض . وفي ١٩١٤ جهزت مناجم جهاريا ه ١٦ مليون طن من الفحم ، وعشية الحرب العالمية الأولى كانت الهند تملك طبقة كادحة تعمل في المصنع اقتصر عددها على أقل من ٨٠٠٠٠٠ نسمة .

نشأة أول قومية استعمارية : بتحليل الخطوط الكبرى للعمل البريطاني في الهند ، نمسك بالعناصر الرئيسية لإيضاح تشكيل قومية هندية . إن القواعد الاجتماعية التي ما زالت ضيقة من السهل ملاحظتها : أبناء الطبقات الغنية الذين استطاعوا أن يفيدوا من التربية البريطانية ؛ أعضاء بورجوازية الأعمال . وأسباب استيائهم واضحة ، بالنسبة للأوائل ، نخبة جديدة مثقفة بالثقافة الغربية ، والملاحظ أن النفوذ

البريطاني لم يقدم لهم أي مستقبل في المصالح الإدارية والسياسية ، وطرحهم إلى جهة المهن الحرة (مهنة المحامي في الغالب) وهذه المهن نفسها مستقبلها قليل في مجتمع هندي فقير جداً ومتمدين قليلاً جداً ؛ وأيضاً عاطفة الإرجاع الضروري للثقافة القومية الهندية وكرامة بلاد ذات ماض مجيد . وبالنسبة للثانية ، كانت الرغبة في الاستفادة من المنافسة الحرة ، وأيضاً الإسهام أكثر في إدارة الأعمال .

لقد مرت القومية الهندية قبل ١٩١٤ ، بعدة مراحل عقائدية (إيديولوجية) المرحلة الأولى : هي مرحلة القومية المؤسسة على إرجاع القيم الفلسفية والدينية للهند القديمة . وبين عدة اتجاهات مستوحاة بهذا الاهتمام . نمسك باتجاه رابندرانات تاغور (١٨٦١ ـ ١٩٤١) .

تاغور : نشأ في أسرة براهمانية من كالكوتا ، واشتهر بثقافته ، وتديماً بثروته ، اختلف أولاً إلى المدرسة البريطانية ، ولكنه مل فيها لدرجة أن أباه دبندرانات تاغور ، أبقاه أخيراً في المنزل وعهد به ، إلى معلمين مربين خاصين ، قطع أحدهم ، بتجديد منه الصلة بعادات الأرستقراطية الهندية ، وعلمه أيضاً البنغالية وطلب إليه أن يقرأ بحماسة الكتب المقدسة وشعراء الهند في العصر الوسيط . وفي مراهقته كان موهوباً فوق ذلك بعبقرية مبكرة فنية وشعرية ، ومارس بسهولة متساوية اللغة الإنكليزية والبنغالية ، وكان ينتقل دون جهد من ثقافة لأخرى . وفي ١٨٧٨ ، قام برحلة إلى إنكلترا جذبت انتباهه إلى تقدم الغربيين التقني ورأى فيه ظفر الذكاء ، وبالتالي عنصر التفوق . وبعد بضع سنوات من التجارب الأدبية والصوفية ، حيث تأكدت مواهبه ونجاحه ، عهد إليه بإدارة ملك لأبيه . واللافت للنظر أن هذا العالم بالجمال ، هذا الأرستقراطي قد تكشف عن رجل عمل . فلقد تأثر ببؤس الفلاحين وجهلهم . وقرر أن يكرس نفسه لتعليم القرويين وأسس مدرسة في سانتينيكيتان ، في منطقة كالكوتا ،

وهذه المدرسة تحولت اليوم إلى جامعة . وفي قاعدة تعليمها نرى اللغة والتاريخ البنغاليين ، والمبادئ الكبرى للفلسفة البرهمانية . وكان ذلك نقطة انطلاق لنهضة لغوية وثقافية . وفي الوقت نفسه ، ظل يكتب قصائد ، ويترجمها إلى الإنكليزية : وفي سياق رحلة ثانية إلى إنكلترا في عام ١٩١٢ ترجم مجموعة **جيتانجالي** ولاقت نجاحاً في الجمهور الأنغلو - ساكسوني ، وفي ١٩١٣ ، كان تاغور أول آسيوي استحق جائزة نوبل . وفي هذا التاريخ أيضاً تمخض في فكر تاغور مذهب الإخاء العام القريب من مذهب اللاعنف عند غاندي واصطف إلى جانبه في النضال بعد الحرب .

حزب المؤتمر : نشأ هذا الحزب في ١٨٨٥ ، وكان تفكيره قريباً من تفكير تاغور وإن كان من وحي سياسي . وهذا الاتجاه السياسي للقومية الهندية ضم رجالاً تثقفوا بالثقافة البريطانية ، وكانوا مشربين بالأفكار الليبرالية والديموقراطية في أوربة ومعترفين لإنكلترا بأنها أتت إلى الهند بالحسنات الأولى للنظام والحضارة الغربية . ولم يفكروا بالانفصال عن بريطانيا العظمى ولا أن يقفوا ضدها . لقد كانوا يطالبون فقط أن تطبق بسرعة على الهند المبادئ السياسية التي تعلم في الوطن الأم ، والتسارع على مراحل . وفي ١٩١٤ كان مطلبهم : « أعطوا إلى الهند النظام الأساسي للدومنيون ، وعاملوها ككندا أو أوستراليا » وكان الجيل الأول لحزب المؤتمر يوجهه زعماء معتدلون أساساً ، مثل غوخال ، وإن كان في بعض الأوقات ذاميول أكثر راديكالية ، مثل ميل تيلاك المستوحى من التقليد الديني الضيق ، استطاعوا أن يظفروا بخاصة غداة النصر الياباني . واعتبرت السلطات البريطانية ببعض من حسن الالتفات أن هذه القومية بالإجمال مطابقة لمفهومها الخاص في التحرير السياسي الطويل الأجل : لقد بحث الإنكليز من قبل وسيبحثون شيئاً فشيئاً في مستعمراتهم الاستيطانية عما يحرض نخبات قادرة على أن تقوم مقامهم ، ولم يستطيعوا ، في البدء على الأقل ، إلا أن يهنئوا أنفسهم على تشكيل عفوي لمثل هذا الحزب في الهند . وفي الواقع ، لقد أمكن توطيد تعاون بين

حـزب المؤتمر ونـائب الملك لتحضير إصلاحـات ، بينما في أوقـات أخرى لم يتردد في استعمال الحزم الذي من شأنه زج تيلاك بخاصة في غياهب السجن .

الهندوس والمسلمون : وعلى أي حال ، فقد شكت القومية الهنديـة حتى ١٩١٤ من ضعفين أسـاسيين : أولاً ، لأنها قـومية هنـدوسيـة ؛ وبهـذه الصفـة ، تبعث إلى حـذر المسلمين ، ونمو قومية منافسة (في ١٨٩٦ تأسست العصبة الإسلاميـة) ولا شيء أعمق ولا يمكن التغلب عليـه من هـذا العـداء بين الهنـدوس والمسلمين الـذي انتهى في ١٩٤٧ إلى « تقسيم » الهنـد ونقل السكان . وفي الـواقـع ، إن المقـاومـة أبعـد من أن تكـون دينيـة فقـط ، وإن كانت المشـاجرات تنفجر على العمـوم بمنـاسبـة الأعيـاد الـدينيـة ؛ أو بالأحرى ، إن المشاحنة الإسلامية ـ الهندوسية تغطي مشاحنـات أخرى : فمن ذلـك أن المسلمين لم يكونـوا إلا خمس السكان بكاملهم ، وأيضـاً ، هـذا الخمس كان الأفقر ، والمجرد من النخبـات . ولا عجب من أن المسلمين يخشـون في اليـوم الـذي تكـون فيـه الهنـد مستقلة ، أو مستقلة ذاتياً ببساطة ، أن تكون كل الأطر (القيادات) هندية ، ويصبح فيهـا المسلمون أقليـة محتقرة أو مؤهلـة للمـذابـح . ومن هـذا الخـوف من انسحـاب الحكم البريطـاني ، ومن أن تصبح الهنـد هنـدوسيـة ، كان الإنكليز يلعبون لعبتهم في الغـالب ليبرروا إمهال التحرير السياسي .

وفي المقـام الثـاني ، إن الـوعي القـومي ، لم يكن بعـد إلا رهن مستـوى نخبـة بورجوازيـة أو أرستقراطيـة . والعـاطفـة القـوميـة لم تكن بعـد قـد نفـذت في الجماهير الريفية . والقومية ، هي أيضاً زعماء دون جنود . وكانت حالة الهند نموذجيـة تمـامـاً في نوعها ، في هذا الاعتبار ، بالنسبة لمجمل حالة الإمبريالية الأوربية في العـام في ١٩١٤ : لأن التهديدات الأولى ضد السيطرة الاستعمارية لأوربـة أخـذت ترتسم ، ولكن مـا من واحـد من هـذه التهـديـدات كان جـديـاً . إلا أن الحرب العـالميـة وحـدهـا ستعطيهـا صلابتها .

إن جنوب شرقي آسيا (أي كافة الأراضي المتجمعة حول بحر الصين الجنوبية : الهند الصينية بالمعنى ـ الجغرافي ـ الواسع للكلمة ، ماليزيا ، جزر الهند الهولاندية ـ الفيليبين ، كان مسرحاً لمشاريع الاستعمار الأوروبية على تواريخ متغيرة جداً : فمنذ القرن السادس عشر أخذ الإسبان لأنفسهم موطئ قدم في الفيليبين ، وفي آخر القرن السادس عشر و بداية القرن السابع عشر . استقر الهولانديون في جزر الملوك ، في جاوا وسيليب ، بينما ماليزيا والهند الصينية الشرقية لم تقعا تحت السيطرة الإنكليزية والفرنسية إلا في سياق القرن التاسع عشر ، واحتفظت سيام باستقلالها بفضل التنافس الفرنسي ـ الإنكليزي .

ولكن بالرغم من اختلاف الظروف ، فإن هذه البلاد تطورت منذ القرن التاسع عشر بشكل مماثل ـ يذكر عن قرب تطور الهند . وفي كل مكان أخذت السيطرة الأوروبية شكل إطار إداري وعسكري بسيط خاص باستيطان كثيف واستغلال اقتصادي من نموذج رأسمالي متجه للربح الأساسي للدولة المستعمرة ، حتى وإن كان منوعاً بسياسة تربية أو تحرير من إلهام ليبرالي . وفي كل مكان أيضاً ، ولد رد فعل السيطرة الأوروبية ، على الحضارات الطويلة العمر ، حركات قومية باكورية معجلة وقوية .

الهند الهولاندية : يجب أن يفهم من ذلك ، في بداية القرن التاسع عشر ، وبصورة أساسية ، أنها تعني جزيرتي جاوا ومادورا . إن جزر التوابل وهي جزر الملوك لم تعد مركز النشاط الهولاندي في جزر الهند الشرقية منذ القرن الثامن عشر : إن دور التوابل في الاستهلاك الأوربي ، وبالجملة في التجارة البحرية الكبرى ، انمحى أمام دور المنتجات الكبرى للزراعة المدارية (سكر ، قهوة) التي بمجيئها تقدم جزيرة جاوا ظروفاً طبيعية ممتازة . أما سومطرة أو بورنيؤ اللتان أصبحتا في القرن العشرين مركزي التموين المعدني (قصدير ، بترول) فإن الهولانديين لم يمارسوا فيهما بعد الإسيادة اسمية : وهاتان الجزيرتان لم تهدآ ، ولم تدارا ، ولم تجهزا .

كانت السنوات الأولى من القرن التاسع عشر بالنسبة لجاوا سنوات تنظيم جديد وأزمة . فقد انفتح القرن على زوال (في ١٧٩٨ ـ ١٨٠٢) الشركة القديمة الهولاندية في جزر الهند الشرقية ، مرتين في القرن ، واتبع بحجز الإنكليز لجاوا بين ١٨١١ و ١٨١٦ ؛ وفي هذا التاريخ الأخير ، دخل الهولانديون من جديد في مستعمراتهم ، ولكنها كانت في أخفض نقطة في المنحنى ، يضايقها تنافس المستعمرات المدارية في الأطلسي ، الأقرب إلى أوربة ، بعدم يقين السياسة الاستعمارية التي يبدو أنها تتجه نحو استغلال بالمشروع الفردي الحر .

ثم أعطي دفع جديد لاقتصاد جاوا تحت سلطة الحاكم العام ڤان دن بوش ، انطلاقاً من ١٨٣٠ . كان محسناً عبقرياً . وطاغية جشعاً ، أو ببساطة إدارياً أصولياً ؟ لقد ظلت شخصية وعمل ڤان دن بوش بين أكثر الشخصيات التي نوقش بها في تاريخ الاستعمار كله . فقد استأنف ونظم الطرق التي كانت تستعملها الشركة القديمة أو الأمراء الأصلاء ، ونظم سياسة ناجعة جداً في استغلال الإنتاج الأصلي لأبناء البلاد . واضطر السكان إلى الاحتفاظ بجزء ما من الأرض للزراعات التجارية الشاقة التي يساعد إنتاجها على وفاء الضريبة عيناً ، والرقابة التي يؤمنها موظفون أوربيون وأصلاء من أبناء البلاد ، صلبت النظام بشدة فظيعة ، لأن هؤلاء الموظفين كانوا يهتمون بالحاصلات الباكورية العينية في محصول الزراعات . ونتج عن ذلك بالنسبة للبلاد ـ المنخفضة موازنة استعمارية مفرطة بشدة أتى منها فائض الجبايات بتغذية مالية الوطن الأم ، وبالنسبة لأمستردام بثروة جديدة كسوق عالمي للسكر والقهوة . ولكن بالنسبة لجاوا ؟ بدأت الزراعات التجارية للدولة بعد ذلك تطغى على الأراضي الأكثر خصوبة وعلى السطح الذي لا غنى عنه للزراعات الغذائية . ولكن ، بالعكس ، تقدمت الإنتاجية الزراعية بفضل التمويل السهل لأعمال الري ، وامتصت الزراعات التجارية التي تتطلب العمل كثيراً فائض اليد العاملة . ويبدو على كل حال بأنه يوجد ترابط أكثر تزامناً بين بدايات نظام فان دن بوش وبدايات زخم ديموغرافي يضرب كل الأرقام القياسية

(جاوا بـ ٥ ملايين في ١٨١٦ ، ٩,٤ في ١٨٤٥ ، ١٩,٥ في ١٨٨٠ ، ٢٨,٤ في ١٩٠٠) وأظهر من جديـد طيف المجاعـة . وهل كان النظـام شيئاً آخر أكثر من آلـة لسحب المـال من جاوا ؟ لا يبدو ذلك لسوء الحظ . فقد ظل الشعب يـدار بشكل سيئ بواسطـة وجهـاء أصلاء ، والتعليم الابتدائي والتبشير بالإنجيل في بدايتها .

ونحو آخر القرن ، أوصت الأفكار المغلغلة بالعواطف الإنسانية والمبـادئ الأخلاقيـة بـإصلاح الأخطـاء التي تسببت لأبنـاء البـلاد الأصـلاء وتكلمت عن « دَيْن شرف » الهـولانـديين . ولكن منـذ ١٨٧٠ سقـط نظـام فـان دن بـوش تحت ضربـات أنصـار الليبرالية . وانفتحت جـاوا على الاستعمار الخـاص ، الـذي أقـام على أجزاء من الأملاك العامة ، أو أجر لأجل قصير أراضي لأبناء البلاد الأصلاء : وكان ذلـك جهـداً هـامـاً من قبل الهولانديين لصيانة مصالح الجاويين أمام تغلغل الرأسمالية العقـاريـة للوطن الأم . وفي الوقت نفسه أعطى فتح قناة السويس من جديد قيمة لموقع جاوا الجغرافي ، وخوفـاً من المنافسـة الأجنبيـة ، قررت الحكومـة الهولانـديـة أن تتملـك فعليـاً الجزر الأخرى ، عرفت جزر الهند الهولاندية في عصر الليبرالية ازدهاراً أعلى بكثير أيضاً من ازدهار عصر حصر الدولة . ومن الجهة السياسية كان المؤشر الوحيـد للتحرير مع ذلـك إيجـاد إدارات قروية مستقلة ـ وفي الواقع يسيطر عليها الهولانديون بشكل وثيق .

ولكن بعض الجاويين جاؤوا للتحصيل والدراسـة في أوربـة . وآخرين كثراً دخلوا في صلات عديدة ، بفضل الروابط التي أقامتها جاوا مع باقي آسيا بتجارتها الخـارجيـة أو بـالهجرة الصينيـة إليهـا ، مع أوليـات الحركات القوميـة والثـوريـة في الشرق الأقصى . ونتيجة ذلك منذ ما قبل الحرب العـالميـة الأولى ، تشكيل حركتين قوميتين : **إحداهما** نشأت في ١٩٠٨ ، وكانت حركة مستغربـة أي على الطريقـة الغربيـة ، بو يـدي أوتيمو ، قـام بهـا ضـابـط سـابق في الصحـة أصيل طـالـب بـالتقـدم بتوسيع التربيـة الأوربيـة . **والأخرى** ، أنشـأت في ١٩١١ ، وهي حركـة جمـاهيريـة ذات صفـة ثوريـة : « صرخـة إسلام » التي عقدت مؤتمرات قومية ـ ونظمت إضرابات ، وطالبت بـالاستقلال ـ وبعـد

بضع سنوات أفادت كعجلة للتأثيرات الشيوعية الأولى قبل أن تطرحها وترمي بها . وهكذا فإن الأخفاق النهائي للاستعمار الهولاندي ارتسم في وقت مبكر . وبالنسبة للهولانديين،حصل الاستعمار على الدخل الاستعماري الدسم الذي حصل عليه بلد أوربي دخل في استغلال إمبراطورية ، وبالنسبة للأصلاء أتى بحسنات حضارة باردة،نفعية ودون إنسانية : مصلحة مائية ذات كفاءة عالية ، أنواع زراعات جيدة بشكل مدهش منتقاة ، ووسائل كفاح ضد الجدري والطاعون والكوليرا ـ ولكن إلى جانب ذلك ، لا مبالاة بالحاجات الروحية أو التطلعات السياسية : قليل من المدارس ، إدارة موظفين هولانديين يعتمدون على الأمراء والوجهاء ، ومفهوم للأصيل بأنه قوة عمل محضة . وعليه إذا ظلت بورنيو أو سومطرة حتى في أيامنا مؤسسة ، حفظ لشعب ونوع حياة بدائي ، فإن جاوا كانت أرض حضارة عالية ـ حضارة عجيبة من عدة حضارات حيث كان الأساس الهندي الدائم مغطى بنفوذ ديني إسلامي ، وتم باقتباسات من الصين . وقدرتها على التمثل سهلت عليها بالضرورة توجيه أسلحتها الخاصة ضد الغرب .

الهند الصينية الفرنسية : في عام ١٨٨٥ ، اضطرت إمبراطورية أنّام إلى الاستسلام أمام القوى الفرنسية لأنها منيت بنفس الضعف الذي كلف من قبل إمبراطورية الصين جزءاً من سيادتها : تحديث غير كاف لوسائلها العسكرية ، وخوف من ثورة زراعية . ومع ذلك ، فقد اصطدمت فرنسا في الهند الصينية بمقاومة طويلة تتمسك بوجود دولة حقيقية على أرضها وتقريباً بعاطفة قومية : وهكذا توصلت في الوقت نفسه مع وجود عمل قمع طويل ، إلى أن تقضي على ـ أو يلزمها القليل ـ لتقضي على بنيات سياسية قديمة . وفي الواقع إن المثقفين الأوفياء والفلاحين تجمعوا حول الإمبراطور الشاب هام نغي والوصي تو يت للمقاومة في الجبال الأنامية والتونكينية من ١٨٨٥ إلى ١٨٨٨ ، بينما ناضلت عصابات مسلحة حتى ١٨٩٦ وحتى ١٩١٣ . وكان كونغ خانه ، أخو هام نغي ، تحت الحماية الفرنسية في هو يه . ولكنه فقد الثقة التي كانت له في أعين رعاياه الخاصة ، وقررت السلطات الاستعمارية على عجل انتزاع السلطة منه ،

ومنـذ ١٨٨٧ ، وتحت إدارة وزير المستعمرات وحكـومـة عـامـة ، أنشئت هنـد صينيـة فرنسيـة استطـاعت خلال عشر سنوات أن تتطور نحو نظـام الإدارة المبـاشرة . وهكـذا فإن الظروف السياسية للمطالبة القومية نشأت منذ ذهاب هذه الوصاية الغـاشمة جـداً للملكية القديمة ، وبـالاذلال الـذي شعر بـه في شعب فيتنـامي كان يشعر تمـامـاً في أنـه ينتمي لدولة قديمـة ومجيـدة ، ولحضـارة ليس لهـا مـا تجسـد بـه حضـارة الغرب اللهم إلا مظاهرها التقنية .

في هـذه الهنـد الصينيـة التي هـدأت وانضمت ظـاهراً ، انفتـح عصر أعمـال كبرى واستصلاح . ففي غرب كوشنشين التي ما زالت أرضاً عذراء ، مول بنك الهنـد الصينيـة ريّ مئـات ألوف الهكتـارات ، التي استـأنفت عليهـا الحكومـة العـامـة تقليـد الاستعمار الأنامي ، وأقامت عليها ملاكين كباراً فيتناميين : وهكذا بدأت الكوشنشين في تغذيـة تيار عظيم لتصدير الرز جنت منه مصلحة الضريبة والتجارة الفرنسيـة أكبر ربح . وفي شمال وشرق تـونكن بـوشر بـاستغـلال الفحم والفلـذات غير الحـديـديـة . ومهر مجموع المستعمرة بتجهيزات الخطوط الحديدية والموانىء (ذات نفع قابل للمنـاقشـة أحيـانـاً) : وهكذا فإن خط حديد يونّانْ ، روعة تقنية الأشغال العامة التي لا مثيل لهـا في العصر ، كان يغذى في آخر الأمر بتجارة لا أهميـة لهـا تـافهـة ، كما أن استعمالـه لم يصل إلى الحـد الأقصى ... إلا من قبل خصوم فرنسا في حرب الهنـد الصينيـة الحـديثـة) . والصنـاعـة نفسها غرست في تونكن . وكل هـذا كان يـدعمـه معـاً الرأس المـال الخـاص وجبـايـات الموازنة الهنـد الصينيـة الوافرة بفضل الجمـارك وإدارة حصر الأفيون ، والكحول والملح . وشهدت السنوات الأولى من القرن العشرين تأسيس غرس الكوشوك هيفيا على هضاب الشمال في الكـوشنشين ؛ وستـأخـذ مكانهـا وراء مـزارع الرز في هــذا الإقليم ، كمجهـزة لصادرات سايغون المربحة،سايغون العاصمة الاقتصاديـة التي تركت لمـدينـة هـانوي دور العاصمة السياسية .

وهكذا أصبحت الهند الصينية أجمل مستعمرة فرنسية . ولكن سكانها لم يربحوا من

هـذا النهوض . بل كان الرابح الـوحيـد هـو شركـة ضيقـة من المستعمرين الفرنسيين ، والإداريين المدنيين والعسكريين . إن مزارع الرز ، أكبر مصدر لهذه المادة الغـذائيـة في العالم ، رتبت ونظمت في الكوشنشين ولكنها لم تأت لمساعدة الفلاحين البـائسين الـذين كانوا يتكدسون أكثر فأكثر عديدين سـاغبين في الـدلتـات التونكينيـة على أقل من ألف كيلومتر في الشمال . أما النخبات الأنامية ، فإن نظام الإدارة المباشرة الـذي ترك عليـه الجنرال بول دومر اسمه مرتبطاً به ، لم يترك لهـا أملاً في الـدخول في أطر البلـد ، بـالرغم من أن فرنسا على ما يبدو كانت مستعدة تماماً لتسهيل تربيتهـا على الطريقـة الأوربيـة (١٩٠٦ ، فتح جامعة في هانوي) ، ومن قبل انتظمت في خارج الهند الصينية جماعات من المثقفين الثـوريين في هجرة ، وبينهم كان الكـلام عن « تجـديـد » وجعـل الفيتنـام « جمهـوريـة » ، ومن ١٩٠٨ إلى ١٩١٣ ، تـوصلـوا إلى إثـارة اضطرابـات جـادة في عـدة نقاط ، وإلى إيقاظ نشـاط المتمردين الـذين ظلوا أوفيـاء للملكيـة . ومع ذلـك لم يلعب شيء : فقد حافظت فرنسا في ذلك التاريخ على كل حظوظها ، لأن جزءاً من الشبيبـة الفيتنامية كان معجباً بالغرب وبالثقافة الفرنسية ، ويضع كل آماله في سياسة المشاركـة واحترام الحماية التي ، على ما يبدو انطلاقاً من ١٩١١ ، كان الحاكم العام البيرسارو ، ممثل فرنسا يدعو لها ويعد بأنها ستكون ليبرالية ، ومحررة . ولكن خيبات الأمل والخلافـات لم تلد إلا في المنعطف السيء الذي أخذه ما بعد الحرب .

٣ ـ الصين

الصين والبرابرة :

إلى الهند التي سهل تفتتها وضعفها مشاريع الغربيين ، من المغري أن نقابلها ببعض « كثافة » الصين . ألم تكن أعظم إمبراطورية آسيوية ؟! فعدا عن أن الصين مؤلفة من ثمانية عشر إقليماً ـ هي وحـدهـا عـالم قـائم بـذاتـه يختلف فيـه الجنوب بشكل عميق عن الشمال ـ تضم هـذه الإمبراطـوريـة ممتلكات خـارجيـة : منشـوريـا ، مـونغـوليـا ،

سين ـ كيانغ ، التيبت ، ومناطق تابعة نظرياً (كوريا ، أنام ، برمانيا ، نيپال) ، شواهد على انتشار واسع للحضارة الصينية ؛ وبالمجموع ، ما يقرب اثني عشر مليون كيلومتر مربع ، وعليها تعيش ثلاث إلى أربع مئة مليون نسمة . وهذه الحالة ، من المؤكد أن الصينيين يعرفونها بالغريزة أكثر مما بالإحصاء ، وولدت عندهم عاطفة قوة هادئة ، وتفوقاً عددياً ، مضاعفاً بقناعة في حيازتهم على حضارة جليلة وعاقلة (حكيمة) ؛ هذه الصين كانت إمبراطورية الوسط ، المركز الجغرافي والأخلاقي للعالم ومقر حضارة يضرب بها المثل . والأجانب ـ مفهوم فيه لبس ، وفي داخله يرفض الصينيون كل فردية وكل محلية ـ كانوا بالنسبة لهم ، جماعياً ، برابرة ، ولا تطرح معهم على بساط البحث إقامة ما يعنيه الأوربيون بـ « علاقات دولية » : إذ لا يمكن في نظرهم السماح للبرابرة بشيء آخر إلا بتقديم احترام التبعية ودفع ضريبة إلى « ابن السماء » ـ وحق التجارة في الموانئ لم يكن إلا امتيازاً لحاجتهم العاجلة من منتجات الصين .

ومع ذلك ، بأي ضعف سيتكشف هذا البلد في تماسه مع الغرب ؟ إن فتح الصين في ١٨٤٠ أمسك بها في عز أزمة سياسية واجتماعية ، لدرجة أن موجهيها شلوا بها واضطروا إلى عدة استسلامات .

الصينيون والماندشوريون :

إثر أزمة سياسية ، وبصورة أدق أزمة قومية وأزمة إدارية ، تحمل الصينيون بجزع شيئاً فشيئاً وصاية سلالة من أصل أجنبي واضطهاد بوروقراطية (ديوانية) غير كفؤ ، ومتحكمة وجشعة . في ١٦٤٤ ،حلت السلالة الماندشورية لآل تسينغ محل السلالة الصينية لآل مينغ التي كانت نفسها في السلطة منذ ١٣٦٨ ، تاريخ سقوط السلالة المغولية لآل يوان . وهذا التقلب السلالي في ذاته لم يكن له ما يفاجئ به أو يثير الصينيين الذين ، خلال ثلاثة آلاف عام على التاريخ الملكي المستمر ، استخلصوا فلسفة

دورية للتاريخ وهي : أن السلالات تمر في دور أوج ، ثم انحطاط . والسلالة الحاكمة تستمد سلطتها من « انتداب السماء » ، وسلالة تِيَنْ ـ منغ التي أسست الحكم المطلق للحق الآلهي ، والالتزام المعنوي في احترام سلطة الإمبراطور بنفس الصفة التي لرب العائلة أو الأسلاف (الأجداد القدامى) ؛ والأخلاق الكونفوشيوسية ، قاعدة التعليم وحياة المجتمع ، تصر على احترام السلطة القائمة كما التقليد في كل مادة ، ولكن الانتداب ليس خالداً . إن الاضطراب في الإدارة ، والهزائم الخارجية (الغارات البربرية) ، والاضطرابات الاجتماعية (ثورة زراعية) ، والمصائب الكبرى مثل (الفيضانات ، المجاعات) تمر كمؤشرات منذرة بانهيار سلالة ، أصبحت منذ الآن فصاعداً غير أهل لهذا الانتداب . وعندئذ يمكن أن يكون هنالك مخرجان : فإما أن السلالة الحاكمة تمسك بزمام السلطة من جديد وتأخذ على عاتقها دفع الكوارث ، بتوطيد سلطتها وتبدأ عندئذ بدور رجعي ، وإصلاحات . وإما ثورة تتسبب في قطع الانتداب ، ويؤسس زعيم الثائرين سلالة جديدة ترى نفسها بدورها مقلدة بانتداب . وفي هذه الحال ماذا حصل على وجه الدقة لحكومة آل تسينغ في النصف الأول من القرن العشرين ؟ منذ القرن الثامن عشر وحروب الاسترداد الكبرى للإمبراطور كِيَنْ ـ لونغ ، لم يوجد حكم لامع لينسي الصينيين المظاهر البغيضة التي كانت عليها السلالة الماندشورية . ودون الكلام عن الالتزام بحلق الجزء الأمامي من الجمجمة والشعر المجدول في الخلف ، كمؤشر للرعوية ، ووجود حاميات ماندشورية في المدن ، أو الامتياز الضريبي المخول لأعضاء « الأرستقراطية » الماندشورية ، يكفي أن نذكر تنظيم بوروقراطية الموظفين لتفهم أسباب زوال محبة الشعب حيال بلاط بكين ـ زوال محبة تتقاسمه أقلية من الموظفين الأشراف العقلاء الأذكياء ، بينما الأكثرية منهم كانت تستفيد من النظام وتستغل عيوبه وفساده ، وظلت مشايعة وموالية للسلالة .

مساوئ نظام الموظفين :

كان سوق الموظفين يجري حسب نظام امتحانات مؤسس على معرفة الكلاسيكيين : كونفوشيوس ومفسريه . ومن هذه الثقافة الأدبية المحضة ، بقي عند « المثقفين » روح المحافظة ، والدفاع عن النظام الاجتماعي القديم - في الوقت الذي كان فيه عدم كفاءة تقنية ؛ ولكن قدامى الصينيين يرون بأن الإدارة الصالحة ، حسب المبدأ الكونفوشيوسي للحكم بـ « رجال الصلاح » ، هي فقط قضية حكم أخلاقي ، وكانوا يقبلون بأن الموظف يمكن أن يقوم طوراً وطوراً بالوظائف المدنية والعسكرية المختلفة . وفي المجتمع الصيني الذي لا يضم على وجه الدقة طبقة نبيلة ، كانت الطبقة الموجهة مؤلفة من نظام تسلسلي للموظفين قوي وغني ومرتبط بشدة بطبقة كبار الملاكين العقاريين . وكان المثقفون يخرجون على العموم من طبقة الملاكين أو من بورجوازية المدن : وهكذا استطاعوا أن يكونوا سادة الدولة كما كانوا سادة الأرض . وكان أبناء الأغنياء وحدهم يتصرفون بسنوات تفرغ ضرورية لتهيئة الامتحانات وبموارد يتطلبها جُعل ، أي رشوة (لأن فساد نظام الامتحانات كان جهاراً عاماً) وشراء المناصب - نوع من « فساد الوظائف » تفتح في الصين في آخر قرن للإمبراطورية . وكان الموظفون يستفيدون من إعفاءات ضريبية ؛ وراتبهم كان في ذاته قليلاً ، ولكن الصين الإمبراطورية أساءت تمييز الأملاك العامة والخاصة وعاشت على مفهوم تركة عامة مشتركة بين الدولة وموظفيها : لدرجة لم تكن لتظهر فضيحة إلا للذين يتممون مواردهم باقتطاعات على التحصيلات الضريبية التي يرون أنفسهم أنه قد عهد إليهم بجبايتها وإدارتها (وبخاصة على الاعتمادات الهامة المخصصة للعناية بسدود النهر الأصفر) . لقد كان الموظفون يتخذون لأنفسهم مظهراً سلطوياً ويبتعدون عن الناس ، حبيسين في مكاتب محصنة - صوراً مجسمة لمدينة بكين الممنوعة - ولذلك كانوا مكروهين لفظاظتهم . وقل من أفراد الرعايا من لم يتألم من حبس لا مبرر له ، ومن محاكات لا تنتهي ، ومن تغريمات من كل الأنواع . ومع ذلك فإن البورقراطية (الديوانية) الوظيفية لم يكن لها إلا

مساوئ . ويجب أن نلاحظ ، بعد ١٩١٢ ، بأنها شكلت حتى ذلك الحين تقريباً العنصر الوحيد لوحدة صين واسعة ومنقسمة بعمق باللغة (على جانبي اليانغ - تسيه) ، بوجود أقليات عرقية أو دينية (مسلمين ، أتراك ، مونغول ، وشعوب بدائية في يونّان) وطبعاً بتجزئة التضريس .

الأزمة الزراعية :

وأخطر من ذلك أيضاً كانت الأزمة الاجتماعية ، ونعني بها قضية الأرض . وهي قضية قديمة . لأنه منذ القرن الأول شوهد موظفون أعلون يهتمون بالإصلاح الزراعي ؛ ولكن من الثابت أنها قضية في عز تفاقمها في بداية القرن التاسع عشر بواقع النمو الديموغرافي ، السريع على وجه التأكيد منذ القرن السابق (والحوليات الرسمية كانت تعطي ١٨٢ مليون نسمة في ١٧٥١ ، ٤٣٢ في ١٨٥١ : وهذه الأرقام من الممكن أن تكون قابلة للجدل ، ولكن الميل العام لا يشك فيه) . وفي السهول المنخفضة القابلة للري ، كانت الكثافة تتجاوز في الغالب (٥٠٠) نسمة في الكيلومتر المربع . ومنذ زمن طويل ، كانت الهجرة (نحو المدن ، والموانئ ، ومحيط المحيط الهادئ) دواء ، وبخاصة في الصين الجنوبية . وكان الفائض من السكان يتقبل تخفيفاً موقتاً في « الوفيات » الدرامية التي تتلو مواسم الجفاف ، والمجاعات والفيضانات : ففي ١٨٥٣ ، نقل النهر الأصفر مصبه ٨٠٠ كم من الشمال إلى الجنوب ، على جانبي شانتونغ . ولكن ، كما في الهند ، السبب العميق لبؤس الفلاحين يكمن في بنية الملكية والاستغلال . إن تركيز الملكية نما بسرعة (منذ منتصف القرن الثامن عشر ، وكان الحاكم هونان يشكو من أن ٦٠٪ من الأراضي كان بين أيدي عدد صغير من العائلات) ، مع ما ينتج من تجزأة في كل المستغلات الصغيرة (التي كانت من قبل وسطياً أخفض من هكتار واحد) . والملاكون أصحاب الدخل من الأرض كانوا الموظفين الذين كان الربا سلاحهم النافذ . فقد نشأ من بؤس الفلاحين ، وتغذى بإمداده وتعهده ، فرد الفلاح المستأجر إلى

العبودية بتراكم الفوائد (على العموم ١٠٠٪ في العام) ، الذي يساعد على القضم التدريجي لما يمكن أن يبقى من ملكية فلاحية . والمستأجر الواضع اليد ، الذي يدفع للملاك أحياناً أكثر من نصف محصوله ، كان يجب عليه عدا ذلك ضمان مسبق ، رسوم مالية ، سخرات ، خدمات منزلية ، هدايا ؛ والحروب الكبرى في القرن الثامن عشر أدت إلى ثقل الضريبة ، وضد هذه الظروف ، لم تستطع التقانة الزراعية الدقيقة شيئاً . ومنذ نحو ١٨٢٠ تقريباً ، كانت التجارة السرية للأفيون ، الذي كان استيراده يمنى بدفع نزيف من العملة الفضية ، يضيف مصاباً جديداً : وهو ندرة وزيادة الارتفاع نحو ١٠٠٪ من التايلات (من التايل وحدة النقد الصيني) الفضية التي بواسطتها كان على الفلاح أن يؤدي الضرائب والأتاوات ، على حين أنه لا يجد ما يبيع منتجاته إلا مقابل السابيكات (جمع سابيكة وهي قطعة نقد ضعيفة القيمة) النحاسية .

ومقابل الأشكال المختلفة للقمع الذي كانوا ضحاياه ، كان الصينيون يتصرفون ببعض وسائل الدفاع . فقد كانت الكوارث الطبيعية الكبرى تولد دورياً ثورات تلقي مسؤولياتها على الأشخاص ، وعلى أموال ، ومحفوظات وثائق الملاكين أو عملائهم . وبشكل دائم إن الجمعيات السرية التي كان سَوْقها للفلاحين مؤمناً بأزمة زراعية ، كانت تمد العصابات الخارجة على القانون والنهابين والشحادين في مناطق الربى والجبال ، على هامش مناطق الزراعة المنتظمة ، وكثافة السكان . وهذه الجمعيات كانت : جمعية « النيلوفر » و « الطريق المستقيم » و « الثلاثي » ؛ وكلمة أمرها ، ذات شرعية بدائية (فان تسنغ ، فو مينغ) أي لنطرد آل تسنغ ، ولنرجع آل مينغ) ، كانت تقيم أسطورة العصر الذهبي لآل مينغ . وفي ١٨٣٢ ، ثار ٣٠٠٠٠ رجل من سكان الجبال ياؤ ومياؤ على الأطراف الجنوبية ـ الغربية للصين ؛ وزعيمهم رمزياً ، كان يلبس الرداء الأصفر الذي كان يلبسه الأباطرة المينغ القدماء . وفي الواقع ، منذ ١٨٢٠ ، تكاثرت الثورات من كل نوع في الصين الجنوبية ، مصدر القلق ، وعامل الشل لحكومة بكين . ومع ذلك ، فإن كل هذه الثورة لم تستطع أن تؤدي إلى تجديد البنيات السياسية والاجتماعية ؛ وفي كل

الأحوال ، لم تستطع أن تؤدي إلا إلى توطيد سلالة جديدة ، أو إلى إرجاع (طوبائي) للملكية القديمة .

انفتاح الصين :

كيف توطدت الاتصالات ، في بداية القرن التاسع عشر ، بين الغربيين والصينيين ؟ إن مراسيم ١٦٨٥ ، ١٧٥٧ ، و ١٨١٤ تحددها بدقة . وبموجب الأخير ، كانت الصين ممنوعة على المبشرين . وبالمرسومين الأول والثاني ، كانت المبادلات حبيسة في نطاق ضيق جداً : فخارج الوكالات البرتغالية في ماكاو ، ما كانت تجري إلا بواسطة كانتون ، التي كان يؤمها وكلاء وعملاء شركة الهند الشرقية الإنكليزية ، وكان هؤلاء يخضعون إلى ظروف إقامة دراكونية . ولا يستطيعون التجارة إلا بواسطة نقابة تجار صينيين . وهي نقابة الهونغ . وأكثر من ذلك ، إن الصينيين ، إذا قبلوا البيع ، كانوا يرفضون الشراء ، ويفرضون على الصادرات رسوماً . وكانت ظروف هذه المبادلات مع ذلك في طريق التغيير في بداية القرن التاسع عشر . فمن جهة ، أن الإنكليز وجدوا الوسيلة لتوطيد ميزان المدفوعات لصالحهم بالبيع السري لأفيون البنغال في الصين (٢٠٠٠ صندوق في العام في آخر القرن الثامن عشر ، ٢٠٠٠٠ نحو ١٨٣٠ ، ٣٥٠٠٠ نحو ١٨٣٥) . ومن جهة أخرى ، إن ضغط التجارة البريطانية كان يجري بشكل مطالب أكثر في سنوات ١٨٣٠ : حذف الحصر التجاري لشركة الهند في الصين (١٨٣٤) ، توسع صناعة لانكشاير للنسيج التي كانت تبحث عن أسواق خارجية . وفي التجارة الجديدة الحرة تميزت المؤسسة التجارية الأيكوسية جاردين وماتيسون بجرأتها وسارت معاً بالتجارة القانونية ، وبالتجارة السرية بالأفيون و .... تعليم الإنجيل بمبشر برتستانتي . ومن هنا ، كانت مختلف البعثات البريطانية تهدف إلى الحصول من السلطات الصينية على توسيع ظروف التجارة . وفي ١٨٣٤ ، لم يحصل اللورد نابيه المعتمد على سفينتين حربيتين على شيء . وكذا كانت في سنة ١٨٣٦ حال شارل ايليت . وأفضل من ذلك أيضاً أن نائب الملك القوي في كانتون باشر في ١٨٣٩ باستئصال التهريب الذي كان

يعمل بمشاركة الموظفين في ميناء لينتين الصغير ، ويوقف على هذا النحو تقدم تعاطي الأفيون . وهدد إيليت بالحصار القانوني في مكتبه ، وكان رئيساً لنظارة التجارة ؛ وعليه أن يسلم ٢٠٠٠٠ صندوق من الأفيون . ولكن ، منذ الآن فصاعداً ، بدأت الحوادث الدامية . وتكاثرت المعارك البحرية . فمن ذلك أن معركة شوئنپي (في ٣ تشرين الثاني ١٨٣٩) أثارت الحرب بين الصين وبريطانيا ـ العظمى . وكان جاردين مدعوماً من كل المؤسسات التجارية أو الصناعية الكبرى ، فدفع بالمرستون إلى الحزم : ولم يكن ذلك منه لمنع تجارة الأفيون ، التي سكت عليها ، وإنما لتأمين حرية التجارة . وبالرغم من تدخل بالمرستون ، أعطي الأمر لحاكم الهند أن يهيئ جيش حملة مؤلف من ٤٠٠٠ رجل ومن خمسين سفينة نقل وحربية توضع تحت قيادة الأميرال ـ المساعد إيليت ابن عم رئيس النظار . وحصن الصينيون منطقة كانتون ، ولكن الإنكليز هاجموا في البدء پكين وأخذوا لأنفسهم موطئ قدم بعد ذلك حول كانتون ونانكن .

وكرست معاهدة نانكن (١٨٤٢) النصر البريطاني . وهذه أول المعاهدات التي يصفها الصينيون لهذا السبب بـ « المعاهدات المتفاوتة » فقد وجدت تجارة الأفيون عملياً قانونية . وفرضت غرامة حربية دمرت الحالة المالية للإمبراطورية . وعدا كانتون ، فتحت موانئ شانغ ـ هاي ، ونينغ ـ پو ، وفو ـ تشيؤ ، وآموي للأوربيين تحت نظام التجارة المباشرة . وحصل الغربيون على « أول نص » لنظام الامتيازات الأجنبية تحت شكل قضاء قنصلي غربي . وحصل المبشرون على حرية التبشير التي يؤيدها مرسوم التسامح في عام ١٨٤٦ . كما حصلت الولايات المتحدة وفرنسا على الاعتراف بفوائد معادلة بموجب معاهدتي **وانغهيا ووهوامپوا** (١٨٤٤) : وهكذا سارت جميع الدول الكبرى دون تأخر في الثلم البريطاني .

لماذا استسلمت الصين ؟

لقد أدت هزيمة الصين المدوية في عام ١٨٤٢ إلى تحليل أسباب عجزها : عجز مرتبط بماض بعيد لهذا البلد ، وسيشل السلالة الماندشورية حتى سقوطها .

ولوضع البلاد في حالة مقاومة للضغط الغربي،كان بإمكان الإمبراطورية أن تتصور وسيلتين : إما أن تثير ضد الأوربيين حركة كبرى لثورة قومية قد ترد القوات ـ الحديثة ولكن القليلة العدد ـ لبريطانيا العظمى ، وتغرق « الشياطين الأجانب » تحت تأثيرات عاطفة شعبية ؛ وإما ـ وهذا ما سيكون ـ بعد ربع قرن ، الحل الياباني ـ أن تضع نفسها على سوية الغرب التقنية للنضال بأسلحة معادلة ضده . فلا هذه الوسيلة ولا تلك كانت في متناول موجهي بكين . في الفرضية الأولى ، إن السلطة الماندشورية التي لم تستطع أن تفرض قبولها على الصينيين كان بإمكانها أن تدعو هؤلاء لنجدتها : وما من شك في أن حركة شعبية ستنقلب ضد الأجنبي وضد السلالة معاً ؛ إن الخوف من انقلاب اجتماعي وسياسي عميق منع بكين من استدعائها للجماهير ضد الغربيين (إن إبرام معاهدة نانكن أسرع به بالقلق الذي يمكن أن يثيره في المقام الأعلى تنظيم حرب عصابات شعبية حول كانتون) . وفي الفرضية الثانية ، كان من اللازم صهر الفكر الصيني والفكر الغربي الذي على ما يبدو قد برهنت بوضوح تجربة عدة قرون على استحالته ما دامت البنى التقليدية لم تلغ . إن قضية التدني الفكري ، وعلى الأقل التقني والعلمي الذي كانت عليه الصين بالنسبة للغرب كان أيضاً من الصعب إيضاحه . ومن المعلوم أن الغربيين مدينون للصين بالطباعة ، والبوصلة ، وبارود المدافع . ويعلم قليلاً من العصر القديم إلى عصر النهضة الأوربية أن تقدم بعض العلوم كان أسرع في الصين مما في الغرب . ففي صعيد الرياضيات عرف الصينيون التمثيل العددي في الحساب منذ ١٥٠٠ قبل الميلاد . واستعملوا الصفر منذ القرن الرابع قبل الميلاد . ولا شك في أنهم أول من اكتشف القاعدة الثلاثية والبرهان على نظرية فيثاغورس . وعرفوا استخراج الجذور التربيعية من درجة عالية منذ القرن التاسع بعد الميلاد ، وطريقتهم أثرت على الرياضيات العربية ، وبهذا على رياضيات أوربة . وعملت تطبيقات عديدة للرياضيات في مسائل حسية : التقويم ، الطوبوغرافيا ، المساحة ، الأشغال العامة ، الإدارةالضريبية ، ميكانيكية علم التوقيت الساعي (القرن الثامن أو التاسع) . وفي

صعيد الفلك ، قام الصينيون بملاحظات عظيمة صحيحة تدعو للدهشة بفضل أدوات قياس من نوعية عظيمة (حيث يرى على سبيل المثال ميكانيكية صناعة الساعات المتكيفة مع أنبوب للاتجاه المعطى للنظر لأجل الملاحظة) ووضعوا فهارس للنجوم ، وسجلوا لأدوار طويلة جداً الحوادث السماوية ، وتمثلوا في وقت مبكر كوناً تتموج فيه الكواكب السماوية في الفضاء ، وعرفوا كيف يستعملون نظام الإحداثيات . أما بالنسبة للباقي ، فلا يوجد عندهم حتى بداية للعلوم التجريبية ، ولا أي تقنين هندسي ، مثلاً : لحركة الأجسام السماوية ، ولا أي بحث عن القوانين الفيزيائية التي من الممكن أن يفاد منها على الصعيد العملي . وافتقدت الصين ما كان يوجد في أوربة عصر النهضة وهو التعاون بين الحرفية العالمة ورجال العلوم ، والفكر المتجه نحو البحث عن الكسب ، وهوى المعارف والاكتشافات . وبالتالي ، كان بإمكان الصين أن تمثل التقدم الذي حققه الغرب منذ القرن الخامس عشر بفضل الجهد الذي بذله اليسوعيون في نشر العلوم الأوربية في بلاط آل مينغ . فقد حاول الأب ماتيؤ ريتشي الرياضي والفلكي أن يهدي الصين إلى الكاثوليكية درب التعليم العلمي ، وأن يضع في اعتماد المسيحية تفوق المعارف الجديدة التي تأتي بها ؛ وفي ١٦٠٧ ترجم جزئياً « عناصر اقليدس » التي تكشف للصينيين طرق المحاكمة الغربية . وفي ١٦٢٣ ، وصل الصين ٧٠٠٠ كتاب أوربي ، ولكن أخفق اليسوعيون نظراً لعدم وجود جمهور . ولم يثيروا إلا اهتمام عدد صغير من الاختصاصيين ، حتى إنهم لم ينجحوا في تبديل التعليم التقليدي .

ثورة التاي ـ پينغ :

لقد كانت الصين الرسمية غارقة طوعياً في تخلف أربعة أو خمسة قرون ، ولذلك اضطرت إلى أن تتحمل بسلبية كاملة تقريباً التدخل الغربي ونتائجه . ومن جهة أخرى إن الهزيمة العسكرية والإذلال الدبلوماسي أوصلا عدم الثقة بالماندشوريين إلى الحد الأقصى . وعبثاً صَلَّبَ تاؤ ـ كوانغ وهين ـ فونغ سياستهما حيال الغربيين ، وأفقدا حظوة مفاوضي ١٨٤٢ ، وأعاقا إقامة الأجانب في الموانئ الصينية ورفضا البعثات

الدبلوماسية في بكين . ونظراً لفقدان الوسائل العسكرية الجديدة ، فلم تستطع هذه السياسة إلا أن تؤدي إلى قلق الغربيين وإقناعهم بضرورة تدخل ثان . واستعد بالمرستون إلى فتح نانكن وتيان ـ تسان بالقوة ، ولكن حرب القرم أجلت عمله . أما الأزمة الداخلية الصينية فقد ازدادت سوءاً بسرعة : لأن الإمكانيات غير المحدودة المفتوحة لتجارة الأفيون زادت في تفاقم هرب المال ؛ وتألمت الحرفية الصينية من منافسة الصناعات الأوربية ؛ واضطراب التيارات التجارية المتجهة قديماً نحو الميناء الوحيد كانتون ، تسبب في بطالة جمهور من الملاحين والحمالين في الصين الوسطى . وفي هذه الظروف انفجرت ثورة التاي ـ بينغ .

هذه الحركة الشعبية الكبرى في المقاومة والتحديث ، التي هزت الصين ، خلال ما يقرب من خمس عشرة سنة حول العقد ١٨٥٠ ـ ١٨٦٠ ، لا يمكن تشبيهها أو مقارنتها بأي حركة أخرى في تاريخ آسيا المعاصر ، فقد أسست تقليداً ثورياً صينياً سيرجع إليه طوعياً سن يات ـ سن وماوتسيه ـ تونغ . ففي الانطلاق كان هنالك فلاح من إقليم كوانغ ـ سي ،اسمه هونغ هسيو ـ شوان أسس في ١٨٤٧ فرقة تدعو إلى اعتناق المسيحية تحت اسم « عبدة الله » : وهي قبس إيديولوجي مخادع لديانة غربية أثارت الحذر بشكل طبيعي . ولكن هونغ كان قد عاشر في كانتون التجار الأجانب والمبشرين البروتستانت ؛ وأخذ بتفوق الغربيين التقني ، ورأى في تقليد الغرب ـ على كل الأصعدة ـ الطريق الوحيد لتجديد بلاده وتحريرها . وكان يجب عليه أيضاً أن يقاوم الكونفوشيوسية ، مذهب النخبة الذي سيوجه ضده ثورته ، بعقائدية إيديولوجية قادرة على تنظيم جنودها بشكل أفضل مما لم تستطع فعله الطاوية والعبادات الشعبية التقليدية ، التي هي أشكال ممسوخة عن البوذية ؛ وتاريخ الحركات القومية في المستعمرات ، في القرن العشرين ، يقدم أمثلة أخرى (كما في الكونغو البلجيكية ، وكينيا) من إلهام مسيحي غامض للثورات الأولى ، وحقق هونغ بسرعة حوله توحيد جميع المستائين : فلاحين ، سكان أكواخ السفن ، حمالين ، عمال الموانئ ، وحتى أيضاً

عناصر من البورجوازية (مفكرين فقراء ممتعضين من فساد نظام الامتحانات ، وتجاراً ، ورجال أعمال ضربتهم مصلحة الضريبة الإمبراطورية) ؛ وزحف جيش على نانكن العاصمة القومية العجوز (لأن بكين كانت عاصمة ماندشورية) واستولى عليها وأقام دولة تاي ـ بينغ الجديدة (تاي ـ بينغ ـ تيان ـ كووو : الإمبراطورية السماوية للسلام العظيم) .

ويا لها من خليطة غريبة من القديم والحديث هذه الإمبراطورية المنشقة . فمن وجهة نظر السياسة كان القصد ، في الحقيقة ، دولة قومية ، معادية للماندشوريين الذين اعتبروا مسؤولين عن الأزمة الصينية ، ورعاياها الذين قصوا غدائرهم وتركوا شعورهم تنمو . ولكن هونغ أعلن نفسه إمبراطوراً وشكل بلاطاً في نانكن . واستندت الدولة الجديدة على دين وأخلاق رعوية أهلية واجتماعية حلت محل الكونفوشيوسية ، واختلط كهانه بالموظفين الموضوعين على رأس الدوائر المدنية والعسكرية معاً . والكتاب المقدس الذي ترجمه إلى الصينية المبشرون البروتستانتيون ، حل محل الدراسات الكونفوشية في امتحانات الموظفين . وحافظ لاهوت التاي ـ بينغ على مذهب التوحيد ، أي الإيمان بالمسيح منقذاً ومتجسداً ؛ ولكن هونغ أصبح فيه الإبن الثاني للرب ؛ وبقيت مفاهيم الخطيئة ، والسماء ، والجحيم ، وكذلك التعميد والراحة يوم الأحد . وكذلك المزج من التقاليد ومن الجرأة في الصعيد الاقتصادي والعسكري . وبعث الإصلاح الزراعي ولا شك شيوعية بدائية ، وجمع عمل الحقول في إطار خلية أساسية اجتماعية حديثة ، كوخ الخمس وعشرين عائلة ، وتوقع دفع الفائض من المحاصيل إلى الدولة . وتجميع العمل امتد إلى الحرفية ، وتوزيع منتجاته أمنته الدولة . وأصبح العمل لزاماً على الجميع . وتوقع برنامج عظيم في الاستغراب تنمية الطرق ، والخطوط الحديدية ، وإنشاء الصحف ، والمشاريع الصناعية الكبرى . وحرم القمار والأفيون . وحل التقويم الشمسي محل التقويم القمري . وبسط الأسلوب .

وفي نهاية بضع سنوات على إنشاء الدولة ومباشرة الإصلاحات الكبرى كان على هذه الدولة أن تعترف بأنها مغلوبة . وخطؤها الستراتيجي الأول كان في إهمال فتح پكين والصين الشمالية ؛ وثورة الفلاحين والملاحين في الصين الجنوبية والوسطى ، هي من مزاج ثوري أكثر ، وكانو وحدهم على اتصال مباشر مع الغربيين ، وحركة التاي ـ پينغ لم تتجاوز اليانغ ـ تسيه وساعدت على هذا النحو الماندشوريين على تحضير ردهم عليها والمقابلة بالمثل . وفي المقام الثاني ، لم يحاول التاي ـ بينغ تنسيق عملهم مع عمل الحركات الأخرى المعاصرة للثورة : ثورات الفلاحين في سهول النهر الأصفر التي اجتاحتها الكوارث في عام ١٨٥٣ ؛ وثورات المسلمين في يونّانْ ، وسين ـ كيانغ (حيث أوجد بدوي ، يعقوبغ دولة عابرة مؤقتة في الصين الغربية) ؛ وثورة جمعيات الشرعيين السرية : التریاد التي قبضت على شانغ ـ هاي من ١٨٥٣ إلى ١٨٥٥ ؛ والنيان الذين حركوا ستة أقاليم في الشمال من ١٨٥٩ إلى ١٨٦٨ بمساعدة ماندشوري يدعى سانغكوليستين ، أفضل جنرال للإمبراطور . وفي بعض الأوقات التي كانت فيها الولايات الثمانية عشر عملياً كلها في ثورة لم يستطع التاي ـ بنغ توحيد هذه الحركات كلها . وأخيراً تدخل الغربيون لمساعدة بكين على سحق الثورة وفي الوقت نفسه لتعزيز وصايتهم على الإمبراطورية الماندشورية نفسها . وبعد أن رأى الإنكليز ، بترحيب انقسام الصين والمظاهر المتمسيحة للدولة التاي ـ بينغ ، فهموا كم كان تحريم الأفيون في الجنوب مهدداً لمصالحهم . والتزامن بين ثورة التاي ـ بينغ وثورة السباهيين صلب موقفهم ؛ وزخم الروس في الشرق الأقصى بعد هزيمة القرم أقلقهم أيضاً . واتخذوا حجة حوادث صغيرة ، وفرضت حملتان فرنسية وإنكليزية (١٨٥٨ و ١٨٦٠) معاهدة تيان ـ تسان . واستولت عساكر لورد إيلجن والبارون غرو على بكين ونهب قصر الإمبراطورة الصيفي وأحرق . وحصل الغربيون على فتح منطقة موانئ جديدة ، وحق التغلغل على اليانغ تسيه حتى هانكيؤو ، كما حصل المبشرون على السكن داخل البلاد وليس في الموانئ فقط . واتضح قانون الامتيازات الأجنبية (إدارة أوربية

مستقلة ذاتياً في « امتيازات » الموانئ المفتوحة) ؛ والغربيون ، الذين لم يسموا أو يدعوا منذ الآن برابرة سيكون لهم تمثيل دبلوماسي دائم لدى الوزارة الجديدة ، وزارة الشؤون الخارجية ؛ والرسوم الجمركية على الواردات الأوربية ستكون في الحد الأعظم ٥٪ ، وتراقب جبايتها من قبل موظفين إنكليز أو أميركيين.. وفي ١٨٧٦ ، حصل الإنكليز على الميناء الثاني عشر على البحر وعلى خمسة موانئ على نهر اليانغ ـ تسيه (بداية لـ « طريق برمانيا » للتجارة الإنكليزية) . ومقابل التنفيذ الصادق للمعاهدة ، التي أوصى بها الأمير كونغ ، ساعد الغربيون بأسلحتهم وبمتطوعيهم ـ تجار السوق السوداء ، والمغامرين ، وحتى أحياناً المبشرين ـ وعساكرهم النظامية والزعماء المحليون للمليشات على دحر التاي ـ بينغ حتى أطراف تونكن . وفي ١٨٦٤ ، استعيدت نانكن نهائياً وانتحر هونغ .

عصر الإمبريالية الذهبي في الصين :

ربما كان إخفاق التاي ـ بينغ ، بالنسبة للصين الحظ ، الأول لتطور خاسر . وهو أيضاً ، بالنسبة للنفوذ الأجنبي ، بداية حرية العمل الحقيقية . وهو أخيراً ، بالنسبة لحكومة بكين ، بالرغم من نصر ١٨٦٤ ، تبعية ظاهرة كثيراً والوقوع في العجز . وفي الحقيقة ، حول الأمير كونغ زعيم حزب المحافظين « المنفتحين » باشر كبار الموظفين بتقويم الإمبراطورية التي كانت منذ قليل من الزمن مترجرجة « بالإصلاح » . فعلى الصعيد العسكري يرى أن الجيوش المحلية ، التي أقيمت ضد التاي بينغ مثل جيش تسانغ كووو ـ فان قاهر النيان ومرجع الكونفوشيوسية ، قد دخلت في الجيش النظامي ؛ وسيق معلمون فرنسيون وإنكليز ؛ وأنشئت ترسانات وورشات إنشاء بحري في شانغ ـ هاي ، ونانكن ، وفوتشيؤ ، بمساعدة رؤوس أموال وتقنيين بريطانيين ؛ ولكن الضريبة الخاصة ، التي فرضت لتجهيز أسطول حربي كبير حديث ، تحولت في الواقع لصالح إعادة بناء قصر الصيف . وعلى الصعيد الاقتصادي ، بدا أن تشانغ تشيه ـ تونغ ، نائب الملك في الصين الوسطى ، ولي هونغ ـ تشانغ ، رئيس نظار

التجارة ، كمؤسسين للصناعة الصينية الحديثة ، ومعطين دفعاً لمعامل القطن والحديد في شانغ ـ هاي وهان ـ كيئو .والخط التلغرافي تِيَنْ ـ تْسَنْ ـ شانغ ـ هاي (« الرسالة الكهربائية ») وضع ، كما أطلقت أول شركة ملاحة . وابتدأ رسم استعمار زراعي على الهضاب الشمالية ـ الغربية . ومع ذلك يسجل بأن لا شيء عمل فيما يتعلق بالنقل البري (في ١٨٨١ فقط بوشر بمد الخط الحديدي بكين ـ تين ـ تسن) . وكان الاهتمام بالتسلح يسيطر على هذا التصنيع في بدايته . وأخيراً ، على الصعيد الفكري ، نظم الأمير كونغ وزارة الشؤون الخارجية ، وضم إلى هذه كلية لدراسة اللغات الأجنبية ، وقراءة الصحف الفرنسية والإنكليزية ، وترجمة المؤلفات العلمية الغربية (افتتح لهذا الغرض مكتبان واحد في بكين والآخر في شانغ ـ هاي) ؛ وأرسل الطلاب إلى الخارج . ولكن فيما يتعلق بالأمور السياسية والإدارية ، والاجتماعية ، فلم يتغير شيء ؛ وطال الحكم المطلق ونظام الأرستقراطية الوظيفية ، والفكر الكونفوشيوسي ، وكذلك البنيات التي تقف عقبة أمام استغراب الصين . فحول الإمبراطور الضعيف تونغ ـ تشيه ، تغلب أخيراً المحافظون المحدودو الذكاء : فقد جادل رئيس الأكاديميا بشدة نفع تعليم الفلك والرياضيات الغربية ؛ وحزب الإمبراطورة الأرملة تسو ـ هي ، التي تعيش على ما أمن لها الإمبراطور من أموال بعد وفاته ، اعتمد على تفجيره كره تين ـ تسن للأجانب ، في ١٨٧٠ ، ليوجه من جديد السياسة الصينية نحو تحديد الاتصالات مع الغرب . وكل سياسة تسو ـ هي (١٨٧٥ـ١٩٠٧) تقتضي الحفاظ على توازن ضعيف بين الإرضاء الذي يجب تقديمه للغربيين وبين انطواء الصين على نفسها ، الضروري لبقاء السلالة الماندشورية .

ومع ذلك ، فبفضل « المعاهدات المتفاوتة » ، حولت الرأسمالية الغربية ، التي شاركتها أوساط الأعمال الصينية ، بكل همة ونشاط ، الموانئ ، وصنعت ومدينت المحيط الساحلي لإمبراطورية الوسط . وعرف ميناءان نهوضاً مدوياً : هونغ ـ كونغ (التي تخلي عنها لإنكلترا في ١٨٤٢) ، حيث ظلت شركة جاردين وماتيسون تسيطران

على تجارة تخزين الشاي والحرير . وشانغ ـ هاي التي سيطرت عليها شركة بنك هونغ ـ كونغ وشانغهاي ، وكان سكانها ٥٠٠٠٠٠ نسمة منذ ١٨٧٠ ، وجاءت الهجرة الريفية تملأ فيها أحياءً بائسة ، مجذوبة بنشاط الرابطة ، أي الرصيف الذي تمتد على طوله الامتيازات الأجنبية . ومنذ ١٨٤٢ إلى ١٨٨٠ ، انتقلت الصادرات الصينية من ١٣٠ مليون إلى مليار تايل ، ومازالت تتجاوزها واردات مانشستر القطنية ، والرز ، والأفيون من الهند ـ على أن هذه المبادلات متواضعة بالنسبة إلى سعة البلاد ؛ ولكن القدرة الشرائية للصينيين انخفضت وقلت . وكان ذلك الحين زمن الانطلاقات الكبرى للكوليين (من اللغة الصينية كو ـ لي بمعنى ألم ـ جهد) نحو مزارع جنوب ـ شرقي آسيا ، والهند وإفريقية الجنوبية : وهكذا تركت الصين المتخلفة (النامية) رجالها يتخلون عنها ، ومالها يهرب منها .

ومع ذلك ، فإن الأوربيين لم يحصلوا على الفوائد الجوهرية إلا في السنوات الأخيرة من القرن . والمناسبة في ذلك كانت أيضاً مرة ثانية أزمة صينية ، أزمة خارجية أثارها الهجوم الإمبريالي الأول لليابان الحديثة .

الحرب الصينية ـ اليابانية و « انهيار الصين » :

كانت كوريا في أصل النزاع . كانت مملكة سابقة تابعة للصين ، واستقلت منذ ١٨٦٨ ، وأصبحت منذ هذا التاريخ مسرح تنافس على النفوذ بين الصين واليابان . وكانت اليابان قد حصلت في ١٨٧٦ على نظام الامتيازات في ثلاثة موانئ مفتوحة ؛ وتمثل كوريا بالنسبة لليابان فائدة مزدوجة باعتبارها موقعاً استراتيجياً ومخزناً للمواد الأولية . ولكن الصينيين دفعوا ملك كوريا إلى الاستغراب ليكون قادراً على مقاومة اليابانيين . وبمناسبة اضطرابات داخلية ، حصل أن الدولتين تدخلتا معاً ، كما اعترف لكل منهما بالحق في ١٨٨٥ . وفي ١٨٩٤ كان أحد هذين التدخلين المنضمين فرصة لصدام

بين قــوتين متنــافستين : ١٨٠٠٠ يــابــاني طردوا ٣٠٠٠ صيني مسلحين بشكل ضعيف وأجبروا الملك أن يضع نفسه تحت حمايتهم . وأعلنت الصين الحرب على اليــابــان ، ولكنها هوجمت على عدة جبهات ـ في ماندشوريا ، وفي شان ـ تونغ ، وفي فورموزا ـ واضطرت أن توقع سلام استسلام في معاهدة شيمونوزيكي (نيسان ١٨٩٥) . وتخلت الصين عن كل نفوذ في كوريا ، كما تركت فورموزا ، وجزر البسكادور ولياؤ ـ تونغ ، ودفعت غرامة باهظة وقامت بتنازلات اقتصادية هامة . وقلقت روسيا من حضور اليابانيين في ماندشوريا ، وفرنسا السعيدة بتحول روسيا عن القضايا البلقانية ، وألمانيا ، اهتبلت الفرصة ورضت بمسعى مهدد جماعي إرجاع لياؤ ـ تونغ (تشرين الثاني ١٨٩٥) ؛ إلا أن إنكلترا وحدها جاملت اليابان وكانت تفكر أن تعمل منه وزناً ضد وزن روسيا .

وهكذا فإن الدول أدت إلى الصين خدمة قادرة عليها ، ولكنها بادرت إلى قبض الثمن . وأخذ التغلغل الأوربي بهذه المناسبة أشكالاً جديدة . من جهة دشن الأوربيون سياسة بناء خطوط حديدية ، واستغلال منجمي ، أدخلت هذه المرة نفوذهم الاقتصادي إلى قلب البلاد نفسه . ومن جهة أخرى ، اقتلعوا من الصين امتيازات وتنازلات أرضية بدت أنها تسبق تجزئة . وشوهد النمو العظيم للنفوذ الروسي في الصين بين ١٨٩٥ و ١٩٠٤ . وألمانيا أقامت قاعدة بحرية في حوض لياؤ ـ تشيئو وجعلت من شان ـ تونغ منطقة نفوذ اقتصادي . وإنكلترا جعلت من ويْ ـ هايْ ـ ويْ رداً على بور ـ آرثر وحصلت على وعد بألا تتخلى الصين عن أي أرض في حوض يانغ ـ تسيه ، إقطاعة التجارة البريطانية . وفرنسا اعترف لها بحق إنشاء خط حديدي في يونّان ، وتصورت أن تعمل من امتيازها في كوانغ ـ تشيئو ـ وان قاعدة تجارية منافسة لهونغ ـ كونغ . إلا أن الولايات المتحدة وحدها ظلت تتمسك بمبدأ المنافسة الحرة ورفضت المشاركة في التقطيع .

ميزان الاستعمار الاقتصادي :

لننتقل إلى ١٩١٤ فنجد ٦٥٠٠٠ أوربي كانوا آنئذ مقيمين في الصين . وأن ٧٠٪ من المبادلات الصينية تجري مع الغرب الذي يسيطر على ٨٠٪ من الاستثمارات . وأن ما يقارب من نصف هذه الأخيرة هو من أصل بريطاني (٣ مليارات فرنك ـ ذهبي على ٦,٤) ؛ والبنوك الإنكليزية تمول تقريباً كل التجارة الخارجية ؛ ولكن التمويل الألماني كان أيضاً حاضراً مع البنك الألماني ـ الآسيوي ؛ والروسي بالبنك الروسي ـ الصيني ، والفرنسي ببنك الهند ـ الصينية ، والبلجيكي بالبنك البلجيكي للخارج . والصناعات أوربية أو موجهة بمهندسين أوربيين بدؤوا مع ذلك بتثقيف وتكوين تقنيين صينيين . وأن الـ ١٢٠٠٠ ك م من الخطوط الحديدية الموجودة في ١٩١١ كانت ممتلكة ومستغلة أو على الأقل مراقبة من وجهة النظر المالية والتقنية من قبل الأوربيين . ولنضف إلى هذا الحضور الاقتصادي الأوربي حضورها الروحاني : فالبعثات التبشيرية الكاثوليكية استطاعت أن تضم أكثر من مليون مؤمن ؛ والبروتستانتية أقل من مليون بقليل . والجزء الباقي من التجارة الخارجية والاستثمارات يعود إلى اليابان وحدها . وكان ميدان عملها الأساسي ماندشوريا حيث ورثت في ١٩٠٥ الحقوق والفوائد الروسية ؛ وكان ٥٠٠٠٠ ياباني يسكنون فيها ؛ و٦٥٠ مليون فرنك ذهبي تستثمر فيها . ومدد اليابانيون خط حديد جنوب ماندشوريا بفروع متجهة نحو الصين الشمالية ، واستغلوا المناجم بنشاط . وأخذت ماندشوريا الجنوبية على هذا النحو طابع اليابان كما أخذت وحافظت ماندشوريا الشمالية بالخط الحديدي عابر سيبيريا على طابع روسيا . وفي الصين الأصلية ، كان اليابانيون ٢٥٠٠٠ ، ويقيمون ١٣٠٠ دار للتجارة ، ويسكنون في شانغ ـ هاي تقريباً بموقع كالإنكليز ويسيطرون على آمويْ (تجاه مستعمرتهم في فورموزا) ، ويسيطرون على مناجم الحديد والصناعة الحديدية في منطقة هانكيؤ ، دون الكلام عن المشاريع العديدة النسيجية في شانغ ـ هاي أو تِيَنْ ـ تْسَنَ . والأسطول التجاري الياباني ، الممثل عن سعة في الموانئ الصينية ، يأتي بالأنسجة القطنية ،

ويأخذ القطن الخام ، والصويا ، والحبوب . وبين الدول الصناعية الكبرى في العالم كانت الولايات المتحدة الدولة الوحيدة التي لم تأخذ موطئ قدم في الاقتصاد الصيني ، بالرغم من جهود التروستات المصرفية ، تحت رئاسة تافت للتدخل في مانشوريا بين الروس واليابانيين ولبناء خطوط حديدية فيها . وظل الحضور الأميركي ببساطة تجارياً أو تبشيرياً .

يقظة الصين :

ومع ذلك ، فإن الإفراط في الإذلال الذي فرضه اليابانيون والتدني أمام مزاعم الغربيين من كل نوع ، انتهى في الصين بإثارة رد فعل قومي ربما بدأ انطلاقه في ١٨٩٨ ، وتحت أشكال متنوعة جداً ، وما فتئ يعبر عن نفسه حتى ثورة ١٩١١ .

حكم « المئة يوم » :

من الممكن أولاً الظن أن الصين ، غداة هزيمة ١٨٩٥ ، فهمت قيمة المثال الياباني ، وستدخل بدورها في « عصر الأنوار » . فمن ذلك أن حزباً مصلحاً ، تجمع حول الإمبراطور الشاب كوانغ ـ سيو ـ وكانت هذه منه أول محاولة استقلال حيال تسو ـ هي ، ومثقف كانتوني ـ كانغ ييؤ ـ وي ، فرض فيها من حزيران إلى أيلول ١٨٩٨ ، سبعين (٧٠) مرسوماً للتحديث : تنظيم جديد للإدارة ، إصلاح الامتحانات ، إنشاء جامعة في بكين لأجل دراسة العلوم الأوربية ، ترجمة الكتب الأوربية ، تنظيم جديد للجيش عهد به إلى يوان ـ شي ـ كاي ، مشاريع تجهيزات اقتصادية ... ولكن تسو ـ هي وضعت كوانغ ـ تسو تحت الحراسة في القصر وبعثرت المصلحين وعادت إلى فكرتها في استغلال تيار الكره الشعبي للغربيين وتقنيته لصالح السلالة .

البوكسر (الملاكمون) :

نما هذا الكره للأجانب بنفس وتيرة تغلغل الأوربيين الاقتصادي : وهو كره تغلغل الموانئ المفتوحة ، حيث كان المستخدِم فيها الرأسمالي الأجنبي ، وحيث تعرض في وضح النهار مساوئ سوق الكولي[1] ؛ وكره الأرياف التي تأثرت بالمحاصيل الرديئة في ١٨٩٠ـ١٨٩٨ ، وحيث أنمى بناء الخطوط الحديدية والبرقية البطالة في عالم الملاحة والحمل ؛ وكره الصينيين التقليدي الذي يتهم المبشر بنشر مبادئ خطرة ، وهو في الوقت نفسه عميل تجاري . وخلال مرات عديدة ، منذ مقتل عشر راهبات تابعة لطريقة سان ـ فنسان ـ دو ـ بول في تين ـ تسن في ١٨٧٠ ، كانت الموانئ مسرحاً لحوادث دامية ومجتاحين حيث تألم الأشخاص والأموال من الكاثوليك والأجانب وحتى المثقفين . وكانت الجمعيات السرية في الغالب الموحية لهذه المذابح : ومثل هذه الحالة كانت أيضاً حالة اشتعال نار ثورة سنتي ١٩٠٠ـ١٩٠١ ، التي ولعتها فرقة « الثمان حوادث » التي أطلق عليها الإنكليز فرقة « الملاكمين » لأن أعضاءها يطبقون جماعياً تحت إيحاء كهان يقومون أو يزعمون أنهم يقومون بالخوارق ، نوعاً من الملاكمة أو النضال الطقسي . وتأتت قدرتها من أنها نجحت في الواقع في الاختفاء وراء مليشات ريفية كانت تسو ـ هي نفسها التي أمرت بإنشائها ، في منظور ثورة عامة ضد البيض . وفي ربيع ١٩٠٠ انفجرت الاضطرابات : هجوم على خطوط بكين ـ هانكيؤ وبكين تين ـ تسن ؛ مذابح كهان ومؤمنين . ووجد عدة ألوف من المسيحيين محاصرين في بكين ، حيث كان الأمير توان يؤلف وزارة مع رؤساء ملاكمين . وضربت المفوضيات بالمدافع ، وقتل دبلوماسيون . وفي كافة الصين هلك ٣٠٠٠٠ مسيحي ، ضحية التعذيب البربري ، ومنهم من قطعت أوصالهم ، وهم أحياء ، ومشوهون ، ومن رفعوا على الوتد ، ومن قطعت رؤوسهم ، ومن أحرقوا ، أو ضربوا بالبلطات أو بقرت بطونهم .

---

(١) الكولي هو الشغيل الآسيوي .

ومن قطعوا إرباً إرباً . وقسم منهم صبأ عن دينه لينجو ؛ والملاكمون « البوكسر » يوحدون بين التبشير بالإنجيل والتوغل الغربي ويضعون أنفسهم مصلحين مرجعين للكونفوشيوسية .

وصفوة القول ، إن الإمبراطورة التي تركت الأمور على عواهنها ، وجدت في مأزق تام . لأن حملة دولية يقودها ، في عام ١٩٠١ ، رئيس أركان ألماني سابق ، الماريشال فون ڤالدرسي فرض على السلالة الماندشورية برهاناً جديداً على عدم كفاءتها . وأخذت بكين ، وحصون تاكو على مصب نهر پي ـ هو ، دكت دكاً وحلقت ، وفرضت غرامة ثقيلة ، ووسع الروس احتلال ماندشوريا ، وأخيراً دفعت موارد الجمارك إلى جمع من البنوك الغربية لتؤمن بالأسبقية خدمة الغرامة .

ومع ذلك فإن ميزان القضية لم يكن بصورة كاملة سلبياً بالنسبة للصينيين . فقد فوجئ الأوربيون من سعة رد فعل كره الأجانب ، وقرروا في الواقع منذ الآن فصاعداً الاكتفاء بالتغلغل الاقتصادي وعدلوا عن البحث عن فوائد جديدة من نوع أرضي : وهكذا فإن تحطيم الصين انقطع وتكاد تبدو سلامة الأرض الصينية بأنها مصانة بالجملة . أما تسو ـ هي التي أخفق برنامجها في طرد الغربيين ، فقد توصلت إلى فهم الضرورة بأن تأخذهم نموذجاً لها . ففي ١٩٠٣ دعت من جديد يوان ـ شي ـ كاي لتجديد الجيش . وبادر هذا إلى دعوة معلمين يابانيين وألمان ، وطبق تضخماً حقيقياً في أعداد العسكريين بإنشاء عدة جماعات من الجيوش ولا سيا جماعة بحار الشمال التي قدمت فائدة في امتصاص جزء من فائض السكان الريفيين ، ولتكون مجهزة بعتاد حديث تقريباً ، وتحذير الحكومة ، من حيث المبدأ ، من ضغط الأجانب ومن التهديد بثورة داخلية معاً . ولكن ، في الواقع ، كانت هذه الجيوش مرتبطة في الغالب بشخص زعمائها وهم التوكيون أو « أمراء الحرب » ولم ينقذوا على الإطلاق الماندشوريين من ثورة ١٩١١-١٩١٢ . وإلى جانب ذلك ، إصلاح الامتحانات والوظيفة العامة (١٩٠٥) ،

وإصلاح المحاكم ، وتحريم أمكنة تدخين الأفيون ، والوعد بدستور ١٩١٥ : ولا شيء من ذلك تصدى للقضايا الأساسية .

سن يات ـ سن :

إن تاريخ هذه المحاولات المجهضة ، يدل بما يكفي كم كان عبثاً انتظار تحديث حقيقي للصين من سلالة رجعية وعاجزة . إلا أن الأمل سيأتي من الخارج . وذلك أن صينياً حكم عليه بالنفي المؤبد ، وهو سن يات ـ سن ، سيحقق أول انفتاح للصين على العالم .

« أنا كولي (خولي) وابن كولي . نشأت عند فقراء الناس وسأبقى بنفسي فقيراً » . هكذا عبر عن نفسه ، في ١٩٢٢ ، رجل وضعته أصوله الجغرافية والاجتماعية تماماً لأن يكون قادراً على الشعور شخصياً بكل مظاهر الأزمة الصينية . ولد نحو ١٨٦٦ ، من أب يصنفه استغلال ستين آراً بين الفلاحين الأثرياء الميسورين نسبياً . لقد استطاع أن يشعر ، في تكوينه الديني والمدرسي في السنوات الأولى من حياته ، بكل السأم من التقليدية الصينية التي سيطرحها في الآجل بنفور عميق . ولكن كان من حظه أن القرية التي ولد فيها ، كوانغ ـ تونغ ، كانت بؤرة تقليدية للهجرة ، وبين الأعضاء الآخرين المنطلقين نحو الثروات البعيدة ، كان له أخ بكر ثبت في هونولولو بعد أن غني من زراعة الرز . وأقام من ١٨٧٩ إلى ١٨٨٣ عند هذا الأخ الذي سيلعب له دور الحكمة الإلَهية ، ويقدم له خلال زمن طويل فرص تثقيفه وتكوينه والسند المادي . وفي المدرسة الأنغليكانية في هونولولو ، اكتسب معارف أساسية جيدة ، وتعلم الإنكليزية ، وقرأ الكتاب المقدس . ثم عاد إلى قريته ، في ١٨٨٣ ، ولم يبق فيها إلا أشهراً قليلة ؛ وقطع فيها بوضوح كل صلة بعائلته وبالاعتقادات التقليدية ، وهرب إلى هونغ ـ كونغ حيث اعتنق المسيحية . ومن ١٨٨٤ إلى ١٨٩٢ ، تلقى في الأرض البريطانية نوعاً من التعليم الثانوي ، ثم تعلم الطب واختص بالجراحة ، وبفضل هذا

التكوين اتصل بالفكر العلمي الغربي . وفي الوقت نفسه ، ناضل في جمعية **التريـاد** السرية ، حيث تعلم طرق النضال السياسي السري . وهزيمة الصين في الحرب ، التي قاومت فيها فرنسا بسبب تونكن (١٨٨٤) ، أثرت فيه . وعندئذ آلى على نفسه بأن يعمل لقلب آل تسينغ وإلى تأسيس جمهورية . وسكن كانتون من ١٨٩٢ إلى ١٨٩٥ ، وأسس فيها « رابطة نهوض الصين » ، ولكنه أخفق في محاولة هيئت بدقة لضربة قوة ضد سلطات المدينة . ونفي من جديد ، ولزمن طويل . وساقته رحلة عالمية من ١٨٩٦ إلى ١٨٩٨ ، « من اليابان إلى اليابان » ماراً بأمريكا الشمالية ، وبريطانيا العظمى ، وأوربة الغربية وروسيا ؛ وأتى منها بتجربة مباشرة في سير عمل الدول الغربية الكبرى . ثم ثبت في اليابان . وما أتى به سن يات ـ سن من جديد جداً هو برنامج سياسي ، اقتصادي واجتماعي ، لا يدين فيه بشيء ، أو تقريباً ، إلى أفكار المعارضة التقليدية . وبالرغم من أن سن يات ـ سن بدل استراتيجيته الثورية مراراً وأغنى مذهبه ، فقد حافظ على ثلاثة أهداف : القومية ، الديموقراطية ، الاشتراكية . **قومية :** ويقصد بها إعطاء الصين وحدتها واستقلالها القومي ، حيال الماندشوريين كما حيال الغربيين (الذين يظهر لهم سن إعجاباً وصداقة وعليهم يعتمد لأجل التنمية اللاحقة لبلده) . **ديموقراطية :** ويعني بها إلغاء الملكية لصالح الجمهورية ، وإعطاء الصين مؤسسات (نظماً) برلمانية على الطريقة الغربية . **اشتراكية :** ويريد بذلك الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية ؛ وبالرغم من أن سن كانت له اتصالات في لندن مع الهجرة الثورية الروسية ، أي مع الماركسية الجماعية ، فلم يتصور أيضاً للصين إلا إصلاحاً زراعياً (تخصيص الأرض للفلاح) والانتقال إلى اقتصاد صناعي من نموذج رأسمالي . وهذه الصفة التركيبية نوعاً ما لهذا البرنامج كانت في صورة ائتلاف غير متجانس للقوى الاجتماعية التي يجب أن يعتمد عليها سن ، باستخدام كل الإرادات الطيبة ومحاولة عدم ضجر أي شخص ، وفي التونغ ـ منغ ـ هواي (عصبة الاتحاد المحلف) التي ستصبح في ١٩١٢ ، بعد الثورة « حزب الشعب القومي »

(الكيو ـ من ـ تـانغ) يوجـد في الواقع عنـاصر تقـدمـيـة (طلاب صينيون تخرجوا من جامعات يابانية ، عمال الموانئ) ، ولكن أيضاً عناصر معتـدلـة (رجـال أعـمـال الموانئ الصينية أو المستعمرات الصينية في الموانئ الأجنبية) .

ثورة ١٩١١-١٩١٢ :

إن الأزمة السياسية التي حلت بالإمبراطوريـة الصينيـة انطلاقـاً من ١٩٠٨ ستتيح لسن فرصة أول نجاح ، وإن كان جزئياً وعابراً .

إن وفـاة تسو ـ هي وكوانغ سيو ، في ١٩٠٨ ، تركت العرش إلى طفل عمره ثـلاثـة أعوام . والوصاية ، مرادف الضعف ، افتتحت تحت رئاسة الأمير تشوان . وهـذا ، دون أن يتخلى عن سيـاسـة « الإصـلاحـات الصغيرة » لتسـو ـ هي ـ لأنـه في ١٩٠٩ أمر على سبيل المثال بإنشاء مجالس إقليمية ـ كان يحكم على الأقل مع ذلـك في جو عـداء متزايـد ، ناتج عن فقدان الحظوة لبعض الشخصيات (مثل يوان شي كان) ومن استيـاء الجماهير الريفية التي أصيبت بعدة محاصيل رديئة ، وأخيراً ، في ١٩١١ ، من الخلاف الذي انفجر بين بكين والجنوب بمنـاسبـة بنـاء خـط حـديـدي للـدولـة حتى كانتون . وثـورة عمـال الورشات الحديديـة وترسـانـة وو ـ تشـانغ (هـان ـ كييو) التي استغلهـا في الحـال لي يوان ـ كونغ ، أحد تلاميذ سن الأوفياء ، انتصر دون عناء على القوات الحكومية . وفي آخر السنـة . انتصرت الثورة الجمهوريـة عملياً في جنوب اليـانغ ـ تسيـه وتشكل مجلس قومي في نانكن .

عندئذ دخل سن في العمل ، في ٢٩ كانون الأول ١٩١١ ؛ إثر عودتـه من الولايـات المتحدة ومن أوربة ، انتخب رئيساً موقتاً للجمهورية الصينيـة . ولكن هـذا النصر كان قصير الأمـد ، قليل المـدة ، لأن الصين الثوريـة في الجنوب اتفقت في الحـال مـع الصين المحافظة في الشمال حيث يوان شي ـ كاي ، الوجيـه الكبير الطموح ، ترأس جيش بحـار الشمال وأجبر الوصي على الاستقالة ووضع نفسه تحت سلطة ـ اسمية محضـة ـ الإمبراطور

الطفل . ومنذ ١٣ شباط ١٩١٢ ، بعد أن حصل على تنازل الإمبراطور وتثبيت النظام الجمهوري ، ترك سن المكان ليوان . إن سبب هذا الإنمحاء غير النفعي من رجل لم يستسلم لنشوة السلطة ولا تذوق المال ؟ هو أن سن لم يشأ أن يخاطر بحرب مدنية بين الجنوب والشمال ؛ لقد فضل ، لتأمين الحفاظ على الوحدة القومية ، أن يترك الرئاسة لرجل كان أكثر منه بكثير موضع ثقة الوجهاء الريفيين (الذين أقلقتهم نظرية إعادة توزيع الأراضي) والغربيين ، سادة التحصيلات الضريبية ، والذين يفضلون رجلاً أقوى وقادراً على حماية المصالح الأجنبية في الصين . وكان سن يعتمد ، لانتصار مبادئه ، على عمل حزبه ، وعلى المعارضة القانونية داخل نظام برلماني .

وتقريباً بقي اذن كل شيء للعمل ، فقد طرد المانشوريون ، وحلت محلهم اسمياً جمهورية . ولكن في الحاضر المباشر ، بقيت الصين سجينة المصالح الاقتصادية الأجنبية ، وظل الوجيه سيد الأرض والفلاح .

٤ ـ اليابان

اليابان التقليدية : تطور بطيء وراء مظاهر جامدة :

من نافلة القول في التاريخ المعاصر أن يقابل المخاض البطيء والمتشنج للصين الحديثة مع السرعة والعزم اللذين بهما سوت اليابان الخلاف بين حضارتها التقليدية والحضارة الغربية . وللنظرة الأولى يبدو النجاح الياباني ـ استغراباً في استقلال قومي وأصالة ثقافية محافظ عليها ـ ومع ذلك مفاجئاً ، لأن هذا البلد يظهر فقيراً إلى جانب الصين : فقبل انفتاحه ، لم يكن أكثر من ثلاثين مليون نسمة حبيسين بشكل قاس شديد في أرخبيل مساحته تذكر بمساحة الجزر البريطانية ـ ويبدو مغلقاً بكبرياء أيضاً أكثر من الصين لتغلغل النفوذ الخارجي (تحريم المسيحية منذ ١٦١٦ ؛ منع اليابانيين من مغادرة اليابان منذ ١٦٣٧ ، الاتصال مع الغرب بجزيرة ديشيما الوحيدة ، تجاه ناغازاكي ، حيث كان الهولانديون يقيمون وكالة) وفي الواقع ، إن فروقاً عميقة ، بين

البنيات القديمة لليابان وبنيات الصين ، كانت تهيء هذا الاختلاف في ردود الفعل عند الاتصال والتماس مع الغرب الأمبريالي ، فرق في البنية الاجتماعية ، لأن اليابان القديمة كانت تملك ، مع الدايميو[1] والساموارئيين[2] ، تجارها الأغنياء ، عناصر طبقة موجهة قادرة على أن توصل إلى خير التحول العظيم الذي كان ثورة الميجي[3] ؛ وفرق في البنية الاقتصادية : لأن بعض التطور في الاقتصاد الإقطاعي نحو الرأسمالية التجارية والصناعية ، بدأ يخفف الفرق الذي يفصل اليابان عن الدول الكبرى الغربية ؛ وفرق أيضاً في النفسية الجماعية (فكيف لا يذهل المرء لما يراه عند اليابانيين من تحالف بين مرونة الذكاء المتمثل وقوة العاطفة القومية ؟ !) يضاف إلى ذلك موقف المثقفين أنفسهم ، قبل « الانفتاح » بكثير ، تجاه بعض التقدم في العلم والتقنية الأوربية بواسطة الترجمات الهولاندية وإقبالهم عليها . فقد وجد منذ ١٧٤٥ قاموس رسمي هولاندي ـ ياباني . كما افتتح في ١٨١٠ مكتب رسمي للمفسرين والشراح والتراجمة . ومن المؤكد أن اليابان كان من حظها أنها استطاعت أن تعتمد على سلالة قومية ، بينما كان عَلى الصين بادئ بدء أن تسوي ما يجب أولاً وهو القضية السلالية

الإقطاعيون والفلاحون والتجار :

في اليابان القديمة ، كان النفوذ الاقتصادي والاجتماعي والسياسي في أيدي قبضة ثلاثمائة عائلة أميرية (الدايميو) وبعض خمسمائة ألف تابع عسكري (الساموارئي) يكافؤون بالرز أو الأرض : والكل يؤلف طبقة مالكة أطيان وحربية : ومصادر سلطته هي حيازة الأرض والأسلحة . ومنذ القرن الثاني عشر ، رد الإقطاعيون الإمبراطور إلى

---

(١) الدايميو : اسم أطلق على الأمراء الإقطاعيين في اليابان القديمة .

(٢) الساموارئي : عضو طبقة المحاربين في التنظيم الشغوني (الدكتاتوري) العسكري في اليابان من ١١٩٢ إلى ١٨٦٧ .

(٣) الميجي : العصر الجديد الذي بدأ في اليابان في ١٨٦٨ ، وهو عصر « الحكم المستنير » تحت حكم موتسو ـ هيتو .

دور سلطة دينية عليا : الله الحي بين الناس ، هو زعيم الديانة القومية والرسمية وهي الشنتو ، السابقة لإدخال البوذية ، التي اختلطت بها بشكل معقد لا مفر منه . والسلطة السياسية انتقلت إلى جنرالية أي إلى القائد الأعلى للجيش ، الشوغون ، الذي لم يكن عند الانطلاق إلا دايميو مجهز بشكل أفضل بالأراضي وبالساموارئيين ؛ ومنذ القرن السادس عشر ، لم تترك هذه الوظيفة أبناء سلالة توكوغاوا . وبالرغم من أن هؤلاء حاولوا إنشاء نظام مركزي ، واعتمدوا على مائة وخمسين عائلة وفية تحتكر بشكل وراثي الوظائف العامة ، وتراقب ولاء الأمراء بإجبارهم على الخدمة سنة على سنتين في البلاط الشوغوني في ييدو (توكيو) وترك أعضاء من أسرتهم في السنة الثانية بصفة رهائن ، فإن امتيازات الإقطاعيين وظلت واسعة وطاعتهم غير مؤكدة . كان الدايميو يجبي الضريبة ، ويضرب النقود ، ويقيم جيشاً على إقطاعه . وفي غرب هوندو وفي كيوسيو توجد عائلات قوية تحافظ على استقلال حقيقي .

هذه الطبقة النبيلة (المجتمع الصيني القديم لا يقدم معادلاً لهذه الطبقة) تعيش من عمل طبقة ريفية تؤلف معظم السكان . والفلاحون يطبقون زراعة وصلت إلى حد إمكانياتها الطبيعية والتقنية . في بادئ بدء أخذ العمل الدقيق الحيازة الكاملة على السهول ، مع حقول الرز ؛ ثم في القرن الثامن عشر ، كان يجب زراعة الأراضي العالية ، صعيد البطاطا الحلوة (القلقاس) التي أصبحت منذ الآن فصاعداً غذاءً أساسياً للفلاحين البائسين ، والرز كان أكثر فأكثر محجوزاً للأغنياء وللمدن . ومع ذلك فقد أصبح من المستحيل تغذية واستخدام كل السكان . وفي سياق المجاعات الكثيرة والمخيفة ، كان الفلاحون المصابون يرجعون إلى أكل لحم البشر . وفي اليابان ، كما في كل المجتمعات القديمة الرعوية ، وجدت القضية الخالدة وهي : كيف يمكن العيش على قطعة أرض ضيقة جداً جداً ، بعد أداء الرسم الزراعي ، وتسليم المحاصيل إلى الأنبار العامة ، ودفع الأتاوات الأميرية الطبيعية عيناً ؟ ونجد أيضاً أن الظرف نفسه قد تدنت درجته : الأرض التي تنتقل إلى أيدي الفلاحين الموسرين أو تجار الرز ، والناس

الذين يخلون القرية ليكونوا مشردين ، أو يذهبون إلى المدن ويفسدون على هذا النحو التموين ومورد الطبقة النبيلة .

ولكن يجب ألا نتصور مع ذلك اليابان قبل الانفتاح بأنها كانت زراعية وإقطاعية محضة . فالاقتصاد والمجتمع كانا فيها ، في عز التحويل ، وعلى الأقل منذ القرنين السابقين . فقد وجد فيها بورجوازية تاجرة : الشونن (حرفياً : أناس المدن ـ وهم بورجوازيون منظمون في نقابات ممتازة ، ذات امتياز ، ويسيطرون على النقل البحري وتجارة الرز ، ويفيدون كوسطاء بين بائعي الرز (المكلفين بأن يبيعوا بسهولة فائض الدخل الإقطاعي) ، والأنبار الكبرى العامة في أوزاكا وإلى المستهلكين ؛ وبفضل حصرهم ، يضاربون دون خجل أو حياء ، ويشترون بسعر رخيص ، ويبيعون بسعر غال ، ويرفعون الأسعار . والثروات الضخمة الظرفية التي تشكل على هذا النحو تستخدم في شراء إقطاعات وألقاب نبل ، وتبديل العملات والربا واستغلال الطبقة الحرفية المنزلية الريفية . وكان لليابان في ١٨٠٠ مدنها الكبرى : ييدو ، كيوتو ـ عاصمة الإمبراطور ـ ، أوزاكا تقارب أو تتجاوز نصف المليون من السكان . ومن جهة أخرى ، كان كبار الدايميو في الجنوب يستعملون معاً الموارد المتأتية عن الدخل العقاري والمواد الأولية التي تجهزهم بها أملاكهم ، ويؤسسون بها الصناعات الأولى الحديثة : معامل الصهر في ساتسوما ، وميتو ، وورشات إنشاءات بحرية في يوكوسوكا وناغازاكي .

١٨٥٣ : لماذا ، في منتصف القرن التاسع عشر ، ضغطت المصالح الأجنبية على الشوغون للتخلي عن سياسة الانغلاق الصارم لبلده ؟ في الحقيقة ، إن انفتاح الصين الحديث ، وحده ، جعل عزلة اليابان ضعيفة . ولكن وجدت ضغوط مباشرة أكثر منها : ضغط روسيا (حاكم سيبريا مورا ڤيف ، أسس قواعد في كامتشاتكا ، على مصب نهر الآمور ، في كوريل ، وفي ساخالين ؛ وقاعدة الولايات المتحدة أصبحت قوة كبرى في المحيط الهادئ منذ انتصارها ، في ١٨٤٨ ، على المكسيك ، وتبحث عن محطات على

طريق تجارة الشاي وحرير الصين ، وقاعدة إنكلترا ، التي كانت تبحث دوماً عن نقاط استناد ومحطات لتجارتها البحرية .

وبعد حرب الأفيون ، قبل الشوغون فتح ريو - كيو ؛ ولكنه رفض كل مفاوضة أخرى ؛ وأيضاً ، منذ ١٨٤٨ ، تصور الروس والأميركيون ممارسة ضغط ، وقرروا تقريباً في وقت واحد معاً ، في ١٨٥١ ، إرسال أسطول . وأسطول بيري الأميركي هو الذي مثل الأول في خليج ييدو (طوكيو) ، ولم يكن القصد مع ذلك غير تسليم رسالة (تموز ١٨٥٣) . وعندما عاد بيري يبحث في آذار ١٨٥٤ ، عن الجواب ، حصل ، دون حرب ، بموجب معاهدة كاناواغا ، على فتح ميناءين ضعيفين . هاكوداته وشيمودا . وفي ١٨٥٧ ، حصل الهولانديون بدورهم على معاهدة . وفي ١٨٥٨ ، عند التدخل الأوربي في الصين ، حصل الأميركيون على فتح ثلاثة موانئ جديدة : (ناغازاكي ، يوكوهاما ، نييغاتا) ، وحق التجارة دون واسطة ، والإفادة من نظام الامتيازات الأجنبية ، والتمثيل الدبلوماسي . ومضت الدول الأخرى في ثلم الأميركيين . وهنا كانت خمس سنوات كافية للحصول على فوائد مماثلة للفوائد التي كان يجب أن تنتزعها في عقدين من الصينيين .

١٨٦٨ : لقد أعطى استسلام ١٨٥٤ مؤشراً لاضطراب سياسي ودبلوماسي مدة خمسة عشر عاماً ، وفي نهايتها انهار نظام الشوغانا المحافظ وترك المكان لإمبراطورية مصلحة . ففي محيط الشوغون ، في محيط الإمبراطور ، بين الدايميو ، وجد تياران متعارضان : تيار الانفتاح ، وتيار طرد البرابرة . وضد الإمبراطور الذي شوور بصورة استثنائية ، ضد أغلبية الدايميو ، كان الشوغون قد فرض تبني حل واقعي في (١٨٥٣ - ١٨٥٤) : وهو حل التنازلات والامتيازات للغربيين ؛ فقد عرف ضعف سلطته ، وضعف أسلحته (بالرغم من مشتريات بنادق ومدافع هولندية أنجزها بعض الدايميو ، وإنشاء معمل للأسلحة) ، ووفر على اليابان حرباً لا يمكن دعمها . ولكن في السنوات التي تلت الانفتاح ، كان الشوغون يتحمل بعناء ضغط خصومه السياسيين مع إرضائه

متطلبات الأوربيين المتزايدة . وتشكل ضده ، ائتلاف ضم عناصر من الطبقة النبيلـة ، مثل دايميو الجنوب الأقوياء (ساتسوما ، كيوسيو) ، وعناصر من البروجوازيـة الكبرى التـاجرة (دار ميتسوي على سبيـل المثـال) ـ حلف سيـاسي أسـاسي لنجـاح ثـورة « الميجي » . وفيا عدا موقف كره الأجانب ، وهوموقف تاكتيكي خالص ، حـاول هـذا الائتلاف تحقيق البرنامج التالي : تحديث الدولة والاقتصاد تقليداً للغرب ، تحت حمايـة سلطة إمبراطورية مصلحة . وبعد تدمير نظام شوغوني جعلته النخبة اليابـانيـة مسؤولاً عن الاضطرابات الداخلية وضعف اليابان الخارجي . واستطاعت المعـارضـة أن تستغل كره الأجانب من كل طبقات المجتمع : طبقة السـاموارئي الحسـاسين بعـار الاستسلام في ١٨٥٤ ، وطبقة الحرفيين الذين تأثروا بارتفاع الأسعار (لأن المواد الأولية ندرت بسبب التصدير الجزئي) وبمنافسة المواد والأدوات المستوردة من أوربة ... وعلى إثر المعـاهـدة اليابانية ـ الأميركية في ١٨٥٨ ، قامت حملة اغتيالات ضد الوزراء وضد الأجـانب ؛ وفي ١٨٦٢ نجح الشوغون في فرض تحديد الفوائد المقبولـة سـابقـاً على الأجـانب ، ولكن كان عليه في الوقت نفسه أن يدفع لهم غرامات بسبب الاعتـداءات . وبعـد ، قليل ظن أنـه يستطيع أن يعد المعارضين الذين يكرهون الأجـانب بمرسوم لطردهم : ولكن كان عليـه أن يجـابـه آنـذاك عـدة مظـاهرات بحريـة للفرنسيين والإنكليز والأميركيين (١٨٦٣ ـ ١٨٦٤) : قضـايـا كاغوشيما ، شيمـونـوزيكي وأوزاكا) ، وفي آخر الحسـاب ، كان على الحكومـة اليـابـانيـة أن تلغي مرسوم الطرد ، وتعـود لتنفيـذ معـاهـدة ١٨٥٨ ، وتحـدد التعرفة الجمركية إلى ٥٪ ، وتفتح ميناء كوبيه (١٨٦٥ ـ ١٨٦٧) . وبعـد أن ظهر بكثرة عجز الشوغونة المراوغ ، قام الإمبراطور الفتي .. موتسو ـ هيتو ، الـذي اعتلى العرش في ١٨٦٧ ، وقرر بنـاء على نصـائح محيطـه من السـاموارئيين المصلحين ، إلغـاء الشوغـونـة (١٨٦٨) : وتم ذلك بعد حرب مدنية قصيرة .

الميجي :

تحت نفوذ الإمبراطور الجديد ، أو بالأحرى الطبقة الجديدة الموجهة ـ التي ليست شيئاً آخر غير توسيع القديمة ـ انطلقت اليابان بهوى في تقليد الغرب . فمن يوم ليوم ، لم تعد قضية طرد الأجانب موضوعة على بساط البحث ، ولا انغلاق اليابان على نفسها ؛ والتحريض على كره الأجانب لم يكن له من دور ليقوم به إلا الإسراع بسقوط النظام القديم ؛ والفعل الأول لموتسو ـ هيتو كان في إعلان نيته على احترام المعاهدات واستغراب بلده ـ وهذا العمل لم تكن مسألة طرحه على بساط البحث موضوعة لعناية الشوغونة الساقطة وفاقدة الثقة والحظوة .

حتى نحو ١٨٧٥ ، كان الازدهار الحر ذو النزعات التحديثية ، وفيه لم يجد الحس السليم دوماً حسابه . إن رواج الغرب كان في التعجيل الشديد للقطيعة مع الماضي الإقطاعي ، حتى إن هجواً قام بعد ذلك يسخر من الشاب الذي يحمل مظلته الإنكليزية كما يحمل الساموارئي سيفه ، وسلسلة ساعته كحمالة سيْف . ولكن وجدت مبادهات جادة للغاية ومثقلة بالنتائج : فمن ذلك أن الحكومة الجديدة جندت مستشارين أجانب من كل طبيعة (مهندسين للخطوط الحديدية ، والمناجم ، كيماويين ، مختصين بالصناعة المعدنية ، مختصين بالآلات الصانعة ، حقوقيين ، رسامين ، نحاتين ، وحتى فرنسي خبير بالموسيقى العسكرية) ؛ وأن نوادي مثل نادي الميروكوشا أو « مختصين بالآداب من رجال السنة السادسة » (١٨٧٣) اتخذوا كلمة الأمر : « حضارة ونور » ، ونشروا روسو ، كونت ، ستوارت ميل ، ودعموا الحريات المدنية ، والمطالب النسوية . ونحو ١٨٧٥ ـ ١٨٨٠ سيضرب مع ذلك رد الفعل التقليدي بعض هؤلاء المستغربين ، وسيرى قيام مدافعين عن الحق التقليدي الياباني ، وفنانو نهضة **جيو ـ جيستو** ، **ونو** ، والرسم الكلاسيكي والأغاني الحربية . وهذا لم يمنع بعد عشرين عاماً توغل مذاهب جديدة .

الاستبداد المستنير في اليابان :

لقد قامت شبكة إصلاحات بشكل عاجل ومتحمس ـ ولكنها ذات أهمية مختلفة ، أضفت بعد ١٨٦٨ على اليابان سيماءها الحديثة ـ المحيرة بتنوعاتها ، ووضع تجديداتها الجريئة إلى جانب المحافظة المحترمة .

إن الإصلاح الاجتماعي جعل الإصلاحات الأخرى تابعة له . ودون قلب نظام التسلسل ، دمر فيه المظاهر البالية وألحقه بحاجات الدولة . وألغي النظام الإقطاعي ؛ وأصبح واضعو اليد ملاكين للأراضي التي يزرعونها ؛ وتحولت الإقطاعات إلى دوائر إدارية ، بلديات ، ولن يكون هنالك ألقاب إلا الألقاب الشرفية . ولكن الطبقة النبيلة القديمة انتقلت على العموم لخدمة الدولة ، وقدم الساموراني لها الشخصيات الحكومية والإدارية المفيدة . أما القضية الزراعية ، فبقيت بكاملها : ما من أي تخفيف للأعباء ، التي انتقلت كلها للدولة مع إيجاد رسم زراعي بـ ٥ ٪ محسوب على قيمة الأرض (وليس تبعاً للمحاصيل) ؛ وما من أي امتداد للسطح الوسطي للملكية : وتسارع تكديح الفلاح الياباني مع حرية بيع الملكيات ، ومع إدخال غابات في الملك الإمبراطوري ، حيث كان الريفيون يمارسون في السابق حقوق الاستعمال .

والإصلاح السياسي يشبه كثيراً أيضاً طبقة نظم حديثة على بنيات قديمة . في البدء ، أرجعت الملكية المطلقة بكل قوتها : الإمبراطور يقرر كل شيء ، بناء على نصائح فريق من الدايميو القدماء ، وسمورائي الجنوب ، الجنرو ، بالرغم من « ميثاق المواد الخمس » (١٨٦٨) الذي يذكر بتعاون الحكام والمحكومين . ومع ذلك ، لتهدئة ثورة الساموراني أثناء إلغاء الإقطاعية ، أنشأ الإمبراطور فيما بعد مجلس الشيوخ ، وكان أول رسم لجمعية تشريعية ؛ ثم لإرضاء أوساط الأعمال « الليبرالية » ، قبل في ١٨٧٨ مبدأ مجلس منتخب ، ووعد « في ١٨٨٠ » بانعقاده في ١٨٩٠ ؛ وكلف الكونت إيتو بالذهاب لدراسة الدساتير الأوربية ـ ولكن دساتير أوربة الوسطى لا أوربة الغربية ـ وتقريره

لعام ١٨٨٥ يفيد أساساً لدستور ١٨٨٩ . ولم يكن النظام الجديد دستورياً إلا في الحرف ، لا في الفكر . فقد تأكدت من جديد الصفة المقدسة للإمبراطور ؛ وهو رئيس الجيش ، والبحرية ، والدبلوماسية ، ويسمي أعضاء مجلس الشيوخ ، ويدعو ويؤجل أو يحل مجلس الممثلين ـ المنتخب بالتصويت العام من قبل نصف مليون من الناخبين ، والمجرد من نقد وقدح الوزراء ، وفي المناسبة ، يستطيع الإمبراطور الاستغناء عن السلطة التشريعية ويحكم بمراسيم ، وبالجملة ، تيؤقراطية (حكم مشيئي) متلبسة بلباس أنظمة من نموذج غربي .

وفي الصعيد الاقتصادي ، كان التقليد للغرب أكثر اندفاعاً مما في غيره . ففي ثلاثين عاماً ، أصبحت اليابان أول دول آسيا الصناعية ـ حتى الوحيدة في ذلك التاريخ ؛ وفي آخر القرن التاسع عشر ، كان فيها ثلاثة آلاف معمل يشتغل فيها نصف مليون عامل . وهناك مرحلتان ، أصليتان جداً ، في هذا التجهيز الصناعي ، من ١٨٦٨ إلى ١٨٨٠ تقريباً ، في المرحلة الأولى ، كانت الدولة تداوي نقص رأس المال الخاص ، وأحدثت بنفسها شركات خطوط حديدية وتلغرافية ، ومنجمية ، ومعدنية ونسيجية للحرير والقطن ، ومعامل للإسمنت والزجاج والآجر ... والآلات والأدوات والتقنيون مقتبسة من الخارج ، من بريطانيا العظمى بخاصة ؛ وكذلك جزءٌ من رؤوس الأموال أيضاً ، وإن كان الأساسي من التمويل مؤمناً بوسائل قومية : قروض داخلية ، تضخم ، رسم زراعي بخاصة (قام الفلاحون ، في آخر الأمر ، بتمويل نفقات التصنيع ، كغرامات مريحة ، تدفع إلى الدايميو والساموراثي تعويضاً لخسارتهم امتيازاتهم القديمة) . ثم نحو ١٨٨٠ ، أعادت الدولة المشاريع الحديثة . التي كانت أسستها برأس المال الخاص ، أي الزيباتسو ، وهي أنواع من الاحتكارات مؤلفة منذ قليل انطلاقاً من الدور القديمة التي دعمت العهد الرجعي الإمبراطوري ، وإنها لعملية غريبة يختلط فيها ولا شك الاهتمام بالتخلي عن العبء المالي الثقيل ، والاهتمام بمكافأة المصالح الكبرى لدعمها السياسي . وآخر صفة مميزة للنشاط الاقتصادي لليابان الحديثة هو التوجه المبكر

لمبادلاتها نحو الولايات المتحدة التي استوعبت في سنوات ال ٩٠ ما يقرب من ٤٠ ٪ من الصادرات اليابانية ، وبخاصة تحت شكل حرير خام ، وأرسلت لليابان ما يقارب ١٠ ٪ من صادراتها الخاصة .

وعلى الصعيد العسكري أخيراً ، برهن الاستغراب على أن اليابان تريد فرض احترام استقلالها ، وحرية الحركة والمناورة في آسيا ، وكسب جميع نعوت وخصائص دولة عظمى . أما تحديث الوسائل العسكرية فقد نتج معاً من إصلاح اجتماعي ومن تقدم صناعي . ففي ١٨٧٣ ، الخدمة العسكرية التي كانت حتى ذلك الحين امتياز السامورائيين ، أصبحت التزاماً عاماً . وخسارة امتياز الطبقة هذا ، مضافة إلى الفقر الناجم عن حذف النظام الإقطاعي ، تسببت في السنوات التالية بهزة ثورة عند الساموائيين . ومع ذلك ، ففي زمن السلام ، لم يدخل كل التجنيد السنوي في الخدمة العسكرية ، وألّف غير المدعوين لخدمة العلم ببساطة مليشا ؛ إلا أن اليابان على الأقل أصبح عندها منذ الآن جيش عامل مؤلف من ٢٥٠٠٠٠ رجل ، متعلم على الطريقة الألمانية ومربى بانتظام على إجلال الإمبراطور والوطن . وبني أسطول حربي ، أولاً في إنكلترا ، ثم في اليابان نفسها انطلاقاً من ١٨٨٦ ، بفضل إقامة ورشات بحرية تحت إدارة المهندس الفرنسي إميل برتن ؛ والضباط تعلموا على أيدي الإنكليز ، أو أنهم ـ مثل الأميرال توغو ـ ذهبوا للتدريب عدة سنوات في البحرية البريطانية . وفي ١٨٩٤ ، كانت البحرية الحربية اليابانية تملك ، مدرعة واحدة ، و٢١ طراداً و٢٥ نسافة .

وبالمقابل ، إن تقليد الغرب لم يبدل المظاهر الدينية والثقافية أو الخاصة العميقة في الحضارة التقليدية . ولنأخذ مثالاً على ذلك الدين : في الحقيقة ، إن المنع الذي أثقل على انتشار المسيحية ، قد رفع في ١٨٧٣ ، ودستور ١٨٨٩ منح حرية الوجدان لرعايا الإمبراطور ، وأعلن فصل الدين عن الدولة . ويوم الأحد ويوم عيد الميلاد عيدين . ولكن اليابانيين أظهروا لا مبالاة معلنة حيال المسيحية ، بالرغم من إقامة المبشرين وبناء كنائس لكل الأديان وكل الفرق (كاثوليكية ، أورثوذوكسية ،

بروتستانتية ، وجيش الإنقاذ ...) وبالعكس ، تصلبت وقويت الديانات التقليدية . فمن ذلك أن البوذية التي يساء النظر إليها في الأوساط الموجهة في بداية عصر النور أصلحت وأخذت هيئة قوة مقاومة للمسيحية الغربية : فقد كانت الفرق الدينية والمعابد ترسل الكهان والطلاب إلى الهند وأوربة ، لدراسة النصوص والأعمال التي لها صفة بوذية ، لملاحظة تنظيم الكنائس المسيحية ، منافستها ، أما الديانة الشنتوية ، فبعد إخفاق أولي للحكومة التي أرادت أن تعمل منها ديانة قومية تمذهب الأفكار ، وتجند الأفراد ، وبالرغم من فصل مبدئي ، فقد ظلت في الواقع توحي العمل الرسمي ، وخاصة في مادة التربية (البراءة الإمبراطورية لعام ١٨٩٠ تأمر التعليم الابتدائي أن يرسخ في ذهن الأطفال « الغطرسة القومية ، والوفاء للسلالة ، والتضحية للوطن ») . والوصول إلى التعليم العالي ظل ملحقاً بقراءة وكتابة بضع خمسة آلاف حرف . وفي الحياة الخاصة ظل مستطيل تاتامي من الحصير الأثاث الأساسي للبيت الياباني ، فعليه يتناول الغذاء في وضع جلوس القرفصاء ، بواسطة ملاعق بشكل عيدان . وقد كتب مخبر عن اليابان في عام ١٩٠٠ : « اليابانيون مزدوجو الحضارة ، يعيشون على صعيدين . عن الغرب اقتبسوا كل تقنياته ودفعوها في الغالب إلى أعلى درجة الدقة ، وإلى الاستعمالات الأكثر سعة ؛ ولكنهم في تقاليدهم كانوا ينهلون كما ينهل من نبع متدفق دائماً لإنعاش العالم المتجمد الذي يسكون به منا » . ووجد كل اقتباس داخلاً في شخصية موهوبة بقوة مقاومة قصوى ـ ربما أيضاً أقل آسيوية منها أوربية ، لسبب آخر » .

اليابان ، دولة حديثة أمبريالية :

هذا الاستغراب الجزئي لليابان كان كافياً مع ذلك لأن يحرر فيها قوى حيوية ، أدت ، بممارسة ضغطها في عز دور التوسع الغربي في الشرق الأقصى ، بهذا البلد ـ الذي ظلت فيه التقاليد العسكرية قوية ـ إلى سياسة إمبريالية فاتحة وإلى تدخل غير متوقع في المنافسات الدولية .

هذه القوى الحيوية ، هي قوى ديموغرافية قلب الانفتاح الياباني قواعدها فمن ١٨٧٢ إلى ١٩١٤ انتقل السكان من ٣٥ إلى ٥٤ مليون . وفي الواقع لقد تقدّمت الولادة ، بتشجيع تشريع جديد للزواج ، وبالتخلي عن قتل البنات ، وبتنوع الاقتصاد ، وحتى بإرادة قوة الموجهين . أما الوفيات ، فبالعكس ، تراجعت ، بفضل تقدم الحالة الصحية ، والواردات الغذائية التي ألغت خطر المجاعة . وبدأت المدن تتقبل مدَّ الريفيين الكثيف (تجاوز سكان توكيو المليون نسمة نحو ١٨٨٠) .

وتوصلت اليابان على هذا النحو إلى الطمع بالأراضي القليلة السكان التي تواجهها على القارة الآسيوية . إذ بإمكان هذه الأراضي أن تجهزها بالمواد الأولية التي تنقصها بشكل واسع ، وتستورد منها مالا غنى عنه لصناعة فتية تستطيع وحدها أن تستوعب فائض السكان الريفيين ، وتوازن بصادراتها مشتريات المواد الغذائية . وباستطاعتها أيضاً أن تصبح أراضي مغذية وأراضي للاستعمار . وفي الحقيقة ، ورغم ذلك ، فما زالت اليابان بعيدة عن أوقات القرن العشرين التي وجدت فيها اليابان مهما كلف الأمر منافذ لأجل صناعتها الفائضة عن الحد والمتضخمة بالنسبة إلى السوق المحلي . ولكن الإمبريالية كانت ثمرة القسر البشري والاقتصادي .

واستطاعت الأوساط الموجهة عدا عن ذلك أن تجد بسهولة مبررات ستراتيجية لمشروع فتح . وترى هذه الأوساط أن أمن اليابان مهدد بتقدم الإقامة الروسية في سيبريا الشرقية . وفاوضت يابان عصر النور (١٨٧٥ ـ ١٨٧٦) بشأن الحصول على عدة أرخبيلات مجاورة : البونن التي تخلت عنها الولايات المتحدة ؛ وريو ـ كيو التي تخلت عنها الصين ؛ والكوريل التي بادلتها روسيا نفسها مقابل امتلاك كامل جزيرة ساخالين . وفكرت عدا ذلك بأن تؤلف لنفسها حاجزاً حامياً على القارة وخاصة في كوريا . وكوريا ، الغنية بالحديد والرز ، مقدمة لآسيا نحو الأرخبيل الياباني ، وكاد اليابانيون من قبل أن يهاجموها في ١٨٧٣ لتجهيز المستائين من الساموارئي بمحول لما

يحاولون . ولقد عرفنا كيف كان عندهم من الفطنة انتظاراً ريثما يصبحون في المستقبل أقوياء بل أقوى للمخاطرة وكيف أنهم في آخر الأمر خسروا ، وفرت الحيازة على كوريا من أيديهم . ومع ذلك ، وبالرغم من ضربة التوقف في ١٨٩٥ ، كانت المكاسب جديرة بالتقدير : ففورموزا والبسكادور كانت بداية لتغلغل اقتصادي في الصين الشمالية وفي الصين الوسطى . وبعد عشرة أعوام ، في ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ تجددت المغامرة ، ضد روسيا ، وأيضاً مع كبح تدخل خارجي ، ولكن أيضاً مع مكاسب جديدة : الحماية على كوريا ، ووضع اليد على ماند شوريا ، وتعزيز المواقع الاقتصادية في الصين ، وإرضاء ثأر اتخذ ضد الغربيين . وفي ١٩١٠ تحولت كوريا إلى مستعمرة التاج : وعلى هذا النحو زالت سلالة آل يي المبجلة التي كانت تحكم منذ ١٣٩٢ ، وفي السابق كان سادتها موحدين لبلادهم ، ولكنهم لم يستطيعوا منعها من أن تصبح في الدور المعاصر ، كبولونيا الشرق الأقصى .

ومع ذلك ، حتى ١٩١٤ ، لم تجد الإمبريالية اليابانية فرصة لتسجل نقاطاً جديدة ، وعلى الأقل تحت شكل انتصارات عسكرية وانضمامات . وفي الواقع ضعف الموقف الدبلوماسي لليابان ؛ ولم يصبح من جديد ممتازاً إلا بفضل الحرب العالمية الأولى ، إذ كانت هذه فرصة غير مؤمل فيها لليابان لأن تدخل من جديد في كسب حظوة لدى الدول الكبرى . ولكن في هذا الحين ، نرى أن التحالف الثمين مع بريطانيا في ١٩٠٢ ، وإن كان قد جدد في ١٩٠٥ وفي ١٩١١ ، قد فقد كل معناه : لقد كان موجهاً ضد روسيا ، ولكن هذه وجهت مرة جديدة أطماعها على البلقان ، وقبلت « الوضع الراهن » في الشرق الأقصى ، وسوت خلافاتها مع إنكلترا ؛ وحصلت هذه الأخيرة على إعادة نظر في معاهدة التحالف في معنى تقتيري وتقنيني ، وأخذت تبدي منذ الآن فصاعداً بعض الحذر تجاه القوة اليابانية : الخوف من المنافسة الاقتصادية في الصين ، والخوف من أن تسيء إلى الولايات المتحدة ... وهنا مست النقطة الحساسة : وهي الآن المنافسة اليابانية ـ الأميركية التي كانت على الصعيد الأول في المحيط الهادئ . لقد كان

الأميركيون صناع وساطة فرضت على اليابانيين رغماً عنهم في ١٩٠٥ ، واصطدموا من جديد مع اليابانيين في ١٩٠٦ ـ ١٩٠٧ بشأن الهجرة اليابانية إلى كاليفورنيا ؛ وكانت هذه الولاية مسرحاً لرد فعل عرقي عنيف مطبوع بالتمييز العنصري أو حتى المنع الدراسي بتشكيل عصبة لإبعاد اليابانيين ، حتى بطريق الاغتيالات ؛ وفي ١٩٠٧ حدد « اتفاق ودي » الهجرة على الطلاب وحدهم والتجار . منذ الحرب الإسبانية ـ الأميركية في (١٨٩٨) في الفيلبيين ، قلقت الولايات المتحدة فضلاً عن ذلك من المطامع اليابانية على الأرخبيل الصعب الدفاع ما لم ينته حفر قناة باناما ، وتطلب الأمر بعثة أمين الدولة (وزير الخارجية) تافت ورحلة تخويف وتهويل من الأسطول الأميركي أقنعتا اليابان بتوقيع إعلان مشترك في ١٩٠٨ ، يكفل الإبقاء على « الوضع الراهن » .

إلا أن اليابانيين لا يذعنون بسهولة لعدم العمل . وفي الحاضر المباشر ، تابعوا سياستهم في التسلح ، كما لو كانوا يهيئون أنفسهم إلى قفزة جديدة إلى الأمام : من ذلك أن قانون ١٩٠٦ زاد بمقدار ٥٠٠٠٠ رجل الجزء الداخل في مجموع الشبان المدعوين للخدمة العسكرية الفعلية في سياق نفس السنة المدنية ، ورفع عدد الفرق العاملة من ١٩ إلى ٢٦ ؛ وازداد الأسطول الحربي باثني عشرية (دزينة) وحدة ضخمة ، وأصبح الخامس في العالم : وهكذا يستطيع أن يلعب دوراً من الصعيد الأول في المحيط الهادئ ، حيث بريطانيا ـ العظمى ، والولايات المتحدة وفرنسا لا تستطيع أن ترسل إلا جزءاً من قواها البحرية . ومع ذلك فإن « خلافاً في الطرق » ظهر بين الموجهين اليابانيين : في ١٩١٣ ، كانت وزارة كاتسورا لينة العريكة جداً ومطيعة لنفوذ الزعماء العسكريين ، ووجدت نفسها في حال أقلية ؛ وفي ١٩١٤ ، قطع البرلمان الزيادة الدائمة للاعتمادات العسكرية ، ورفع إلى السلطة وزارة أوكوما ، المرتبطة هذه المرة بأوساط الأعمال ، الزايباتسو . وهكذا تم الأول من هذا النوسان ـ الذي أصبح كلاسيكيا بين الحربين العالميتين ـ للسياسة اليابانية : وحسب الظروف الاقتصادية والسياسية كانت الحكومة الناجمة طوراً وطوراً عن الطبقة العسكرية أو البرجوازية العليا تختار تارة

الإمبريالية الاقتصادية المحضة ، وتارة الإمبريالية الأرضية والعسكرية . وقد أتاحت من جديد حرب ١٩١٤ وعلى عجل للثانية من هاتين السياستين الفرصة للنصر على الأخرى .

ومع ذلك فإن الواقع الاقتصادي لم يفرض على عجل على اليابان في ١٩١٤ توسعاً لإمبراطوريتها بالفتح . وإذا كانت التنمية الاقتصادية لدور ١٨٦٨ ـ ١٨٩٤ قد أسهمت في نشوء إمبريالية يابانية ، فبالمقابل أسهمت النتائج المكتسبة من ١٨٩٤ إلى ١٩٠٥ في تحسين التوازن الاقتصادي بشكل رصين لليابان ؛ وإن نهوضها الصناعي وميزانها التجاري وجدا مشجعين : فكوريا ، ومانشوريا الجنوبية ، والصين الشمالية والوسطى ـ مستعمرات أو مناطق نفوذ بسيطة ـ كانت بلاد الاقتصاد المتمم الذي كانت اليابان بحاجة إليه ، وحيالها كان باستطاعتها أن تلعب دور « إنكلترا آسيا » ، (فقد كانت هذه البلاد تجهزها بالرز ، والصويا ، والقمح والقطن الخام وفلذات الحديد ، وبالمقابل تستورد المنسوجات والرساميل اليابانية) .

يضاف إلى ذلك ، أن اليابان لم تكن بعد دولة صناعية من النموذج الألماني ، على سبيل المثال ، الذي تفرض بنيته الاقتصادية سياسة توسع منظم . فالصناعة اليابانية تتصف عام ١٩١٤ بالجمع بين الحرفية (التي ما زالت هامة أيضاً في غزل الحرير الذي هو دوماً صناعة صغيرة ريفية) والصناعة الكبرى الحديثة المتمركزة في شركات احتكارية (تروستات) استطاعت قوتها أن تستفيد من التراكات العائلية القديمة للرساميل ، ومن الأزمات ، والحروب . وما زالت هذه الصناعة نفسها بعد نامية بشكل متفاوت حسب القطاعات . وباستثناء مناجم الفحم (٢٢ مليون طن) ومناجم النحاس (ثاني إنتاج عالمي) فإن الصناعات الاستخراجية ، في الحقيقة ، ظلت قوية قليلاً . بسبب ضعف الموارد الطبيعية . من ذلك أن صناعة الحديد (مصانع الفولاذ الأولى ، مصانع ياواتا التي يرجع تاريخها إلى ١٨٩٥) لا تغطي ثلث الحاجات القومية . وبالرغم من

تقـدم الإنشـاءات البحريـة ، وصنـاعـة المحركات والآلات ، فـإن مواد التجهيز ظلت في الجزء الأعظم مستوردة . والصنـاعـة الكبرى تنتج بخـاصـة مـواد الاستهلاك : النسيـج - وبصـورة أسـاسيـة المنسـوجـات القطنيـة - يـدخـل لأجـل ٤٥ ٪ من قيمـة الإنتـاج الصنـاعي . وللتصـدير ، يرى أن المواد الأوليـة من أصـل نبـاتي أو حيـواني (شـاي ، حرير) تظـل تلعب دوراً حـاسماً . ولا يعتقـد المـلاحظـون الأجـانب بمستقبـل هـذه الصنـاعـة الكبرى ، التي لا تستعمل بعـد إلا مليون شخص ؛ ويرونهـا مثقلـة في أسعـار كلفتها بالاستيراد الكثيف للمواد الأولية ، وضعيفة في إنتاجاتها بسبب نقص الأطر واليد العاملة الماهرة ، وتابعة للرأسمال الأجنبي . وستكون الحرب العـالميـة الأولى لليـابـان كما لباقي آسيا العامل المعجل لكل التطورات .

الفصل السابع

الأوربيون في إفريقية

المقدمة

إن توزيع الدول أو « الإمبراطوريات » في إفريقية قبل الاستعمار، كان يخضع، إما إلى تقليد تاريخي : وهو إدخال الأطراف الشمالية والشرقية للقارة في مجموعات سياسية خارجية (الإمبراطورية العثمانية ، والسلطنات العربية ...) وأيضاً ، أكثر حداثة ، إلى الاتصال بالتجارات الأوربية من السنغال إلى أنغولا ؛ وإما إلى أحكام (عوامل) جغرافية قسرية بخاصة لأجل مجتمعات ذات وسائل تقنية ابتدائية ، يعبر عن عملها في هذه الفراغات السياسية التي تؤلفها المناطق الصحراوية وصعيد الغابة الكثيفة .

لقد احترمت تقسيمات العصر الاستعماري الوحدات المتشكلة بقوة أكثر من غيرها ، وبخاصة في الأجزاء الإسلامية من إفريقية . أما في غيرها فقد طبقت عليها نظام الحدود الناشئة معاً من الإدارات التي مارست فيها زخوم الاكتشاف والفتح أو الرغبة الاقتصادية والمساومات الدولية التي في سياقها أخذت المفاوضة قليلاً من الاعتبار للوقائع المحلية . وإن الصعوبات السياسية للدول الناشئة عن الخلاص من الاستعمار تعبر في أكثر من حالة عن ثأر البنى العرقية لإفريقية العجوز من معاملة القوة التي فرضتها عليها البلاد المستعمرة .

١ ـ إفريقية البيضاء

تحاذي إفريقية الشمالية البحر المتوسط والصحراء الكبرى معاً . ولذلك إما أن يدار حول إفريقية أو أن تجتاز للوصول إلى إفريقية السوداء . ولقد كانت وما تزال على صلة بأوربة من جهة ؛ ومن جهة أخرى مع باقي القارة الإفريقية . والفتح العربي أو التركي لم يحولا أو لم يقطعا الصلات بين شمال وجنوب البحر المتوسط . وإخفاق الحملات الصليبية والتسلسل دون نهاية لأعمال القرصنة والمقابلة بمثلها لم تتغلب على دوام المبادلات التجارية . وفي القرن التاسع عشر ، اكتسبت إفريقية الشمالية هذه فجأة أهمية جديدة في أعين الفرنسيين والإنكليز . فقد باشر الأوائل ليجعلوا منها حرفياً امتداداً لبلد مضطر للبحث في حوض البحر المتوسط عن تعويضات عن ضعفه على القارة الأوربية . والثواني اقتنعوا في النصف الثاني من القرن بأن القسم المصري من إفريقية المتوسطية قد أصبح مفصلاً أساسياً لإمبراطوريتهم وقرروا إبعاده عن كل نفوذ غير بريطاني . فالجزائر (١٨٣٠) وتونس (١٨٨١) ومصر (١٨٨٢) ومراكش (١٩١٢) مرت بالتوالي بتجربة استعمار أوربي على أشكال مختلفة ، ولكن ضعفها نتج ، حتى في الحالة الأولى ، من ظروف التدخل نفسها التي كانت فظة قاسية في أصولها ، وسطحية في صلابتها . ومن هنا كان ، ولا شك ، قصر واختصار هذه التجربة .

الجزائر : لا شك في أن التعبير (البلاد البربرية) أو بربرة كان من مفردات تاريخية ترجع إلى عصر اليونان والرومان على اعتبار أنها البلدان المتحضران في ذلك الزمن ، وغيرهما متخلف ، ولذلك فإن هذه الأقوال يجب أن تفرغ من محتواها الأسطوري . إن وصاية الجزائر كانت دولة وصلت إلى درجة من الحضارة : فقد نقلت إلى إفريقية الشمالية طرق الإدارة التركية التي ليس لها خلال زمن طويل ما تحسد به طريقة البلاد الغربية . وما من شك في أن هذه الإدارة كانت قد أثقلت على الجزائر ، وألفت في بعض عناصرها إقطاعية فاسدة كثيراً أو قليلاً . ولكن الدايات نجحوا في

الإبقاء على النظام في بلد تواجد فيه المقيمون والرحل ، ولم يكن هذا استحقاقاً متواضعاً أو ميزة رقيقة : لأن قبائل المخزن المسلحة والمعفاة من الضريبة العقارية ، كانت تفرض على سكان التل الجزائري احترامها بواسطة فرسانها ومدنها المحصنة . أما الحملة الفرنسية على الجزائر فقد دمرت هذا النظام التركي نهائياً بإرادة الجنرال بورمون ؛ وفي الحال أمكن رؤية جبلي داهرا والأوراس يجتاحون سهل شتيف ، والقبائل الغربية تنتشر في سهل الميتيجا . والجزائر عام ١٨٣٠ لم تكن أيضاً بلداً فقيراً بخاصة ؛ إن قيمة صادراتها من أصل نباتي وحيواني تجعلنا نشك بأنها كانت متخلفة أكثر من بلاد البحر المتوسط الأخرى : إسبانيا ، صقلية ، اليونان ... ولكن الموارد لم تتوزع فيها كما هي اليوم : فقد كانت السهول الداخلية غنية نسبياً (تلمسان ، شتيف ، صطيف ، وقسنطينة) بزراعات الحنطة ، والشعير ، والرز ، ومدعومة بري صغير ، بينما تحمل المنحدرات الأشجار المثمرة ، والجبال تمارس صناعة عائلية صغيرة . وفي الحقيقة . إن فوائد التجارة كانت خاصة بالأسر الكبرى وبورجوازية المدن أكثر مما هي للمستأجرين الخماسين على الإنتاج . وبالمقابل إن السهول الساحلية المزدهرة اليوم كانت فقيرة ، ومخصصة في الغالب لتربية الحيوانات : وقبائل المخزن كانت تكتفي في الواقع من الأرباح المتأتية عن صنع الأسلحة ؛ والزراعة المعتنى بها كانت بالأحرى من عمل القبائل في الداخل . وكانت هذه الزراعة تتخبط في تناقضات كثيرة . فقد عرفت ، في البدء ، توالي الرخاء والوفرة ثم القحط والعوز ، نظراً لعدم انتظام تهطال الأمطار السنوية ، ففي سني الوفرة ، استطاعت الجزائر أن تجهز حكومة الإدارة (الديركتوار) في فرنسا بالحبوب وكان الملاكون والتجار يراكمون عندئذ الأرباح التي يستطيعون استعمالها ثانية بطريق الربا في السنوات العجاف ، سنوات المجاعة . كما كانت الجزائر تقيم من جهة ثانية وبصعوبة توازناً بين الزراعة وتربية الحيوانات ؛ وكانت الأمطار القوية في الخريف تحض على الفلاحة عن سعة خشية فساد السطح الضروري للرعي ، ولكن بالعكس ، إن نمو النجيليات القوي ، وولادة خراف الملائمة تضخمان بسرعة القطيع فيما

عـدا الموارد المـائيـة . وعلى كل حـال إن البحث عن أراضي العبـور يقـود القبـائـل إلى الابتعاد أحيانـاً بصورة عظيمـة عن الأرض الزراعيـة المزروعـة : ومن هنـا تتـأتى حيـاة الترحـال والبـداوة أو على الأقـل النصف بـدويـة التي تـؤثر على مجمـوع السكن ـ الـذي يتضاعف بقرية دائمة وقرية خيام إلا إذا أستعملت هـذه الأخيرة وحـدهـا ـ والعلاقـات صعبة بين القبائل التي تتوصل إلى اتفاقـات ضعيفـة أو مستحكمـة في التنـافس على مراع يبحث عنها كثيراً . وفي الجزائر التي يبلغ سكانها مليونين ونصف ، المكان فيهـا مفقود ، إذا أخذنـا بعين الاعتبـار هـذا النظـام الزراعي ـ الرعوي الابتـدائي والـذي فيـه أدخل الاستعمار الأوربي ، المقيم والجشع لأفضل الأراضي ، اضطرابات اقتصـاديـة واجتماعيـة . ويجب أخيراً الرجوع إلى أفكار القرصنـة والعبوديـة . إن الجزائر لم يكن عنـدهـا أرقـاء مسيحيون في آخر القرن الثامن عشر ، ما عدا بضع مئات من الهاربين من حامية وهران الإسبانية التي لم تقع في يد المسلمين إلا في ١٧٩٢ ، وكان العمل الحر ينمو ، على حين أنـه في تـونس ومراكش كان اللجـوء إلى الأرقـاء السـود . ويجب أن نتـذكر بـأن الـدول المسيحية وبخاصة البنـدقيـة ، انصرفت في القرن السـابع عشر إلى صيـد الأرقـاء لإيجـاد مجدفين على السفن الحربية والتجارية ، وأن الاستحـالـة لتنميـة تجـارة كبرى متوسطيـة مسـالمـة وقـانـونيـة بشكل كامـل ، نتجت على الأقـل في جـزء منهـا عن مـوقف البـلاد الأوربيـة التي كانت تمنـع إقـامـة مراسلين مسلمين في المـوانئ المسيحيـة وترجـو إجبـار التجارة الخارجية للمغرب أن تعمل بواسطة سفن مسيحيـة . ويبقى أن نفحص المستوى الثقـافي للجزائر . كان التعليم ابتـدائيـاً على أربع سنوات ويعطى إلى جميع الأطفـال في مدارس تابعة للمؤسسات الدينية في المـدن ، وفي الأسـاس في مـدارس الجوامع ، والتعليم قرآني،لأن القصد كان تعلم القراءة والكتابة باللغة العربية الفصحى الكلاسيكية للوصول إلى دراسة النصوص المقدسة . وكثير من تجمع الخيام أو القرى كان لها « معلمها » وبعض الألوف من التلاميذ يتعمقون في تعليمهم في المدارس ، وهي كليـات بـالمستوى الثـانوي الدراسي ، تعلم فيها اللغة العربية والقرآن ، وهما المادتان الأساسيتان في التعليم . ولـدى

الجوامع الأكثر شهرة من غيرها ، وجدت مدارس تضم بضع مئات من الطلاب يدرسون فيها الشريعة ، واللاهوت والحساب والفلك : ولكن هذا التعليم « العالي » كان يجهل على العموم العلوم أو كان يعيش على أفكار ابتدائية عفى عليها الزمن . وهكذا كان دور التعليم أن يديم في السكان العرب ـ البربر شكلاً من الثقافة كان في الغالب أخلاقياً ودينياً ، ويمكن أن يفيد كسند ، عند مقتضى الحال ، لتنظيم سياسي ، وإلى مقاومة وطنية ، في إطار هذه الفرق القوية التي قاومت بشدة الفتح الفرنسي ، مثل فرقة القادرية ، في الجزائر الغربية ، المتجمعة حول الأمير عبد القادر الجزائري أو فرقة الطيبية المسؤولة عن ثورة ١٨٤٥ الكبرى التي كان يقودها **بومعزة** وحضارة الجزائر في ١٨٣٠ كانت فقيرة على الصعيد الأدبي والفني أو العلمي ، وكانت أيضاً حضارة أخلاقية قادرة على مقاومة قوية للأوربيين .

والترددات والغموض لم تخل على المدى الطويل والشاق في فتح الجزائر . إن حكومة بولينياك لم تفكر في الحفاظ على هذا الفتح لفرنسا ، وكانت ترى أن تسلم الجزائر العاصمة للسلطان مقابل التخلي عن نقاط الاستناد البحرية في منطقة بونه . ولكن الجنرال دوبورمون ، بعد أخذ الجزائر العاصمة في ٥ تموز ١٨٣٠ ، حاول أن يتخذ طريقاً آخر : فقدأسمع الجزائريين أن الأتراك قد طردوا نهائياً ، وأخبر باريس عن نيته في إدارة الجزائر العاصمة « مع عرب متعلمين وأذكياء » . وعن تهيئة حكومة من الوجهاء . وهؤلاء ، بعد ظفر الثورة الليبرالية في باريس ، اقتنعوا بأن فرنسا ستسود دولة جزائرية مستقلة . وفي الواقع ، كانت الحكومة الفرنسية مترددة ، وترسل إلى الجزائر العاصمة تارة جنرالات أنصاراً للفتوحات وبشكل قوي ، مثل كلوزيل وساڤاري ، وتارة أحراراً ليبراليين مثل برتيزن .

وأخيراً خلصت لجنة التحقيق البرلماني المشكلة في تموز ١٨٣٣ ، في ١٨٣٤ ، إلى ضرورة إبقاء وتوسيع الاحتلال العسكري لأسباب وجاهة داخلية وسياسة متوسطية .

وعلى إثر ذلك ، في ٢٢ تموز ١٨٣٤ ، أعلنت براءة ملكية أن وصاية الجزائر العاصمة هي حوذة فرنسية .

وكانت الفكرة الأولى تقتصر على الاحتلال الضيق : احتلال المنطقة الساحلية ، والداخل يقبض عليه بواسطة زعماء قبائل يحاول معهم التفاوض واحتلت بليدا وميديه لتغطية الجزائر العاصمة في الجنوب ، وأقيمت الحاميات في وهران ، وبونه ، وبوجه ، وفي ١٨٣٤ تفاوض ديميشيل ، قائد منطقة وهران ، مع أمير **مسكرة** ، الأمير عبد القادر الذي كانت سلطته تمتد بسعة على غرب الجزائر . ولكن التعصب والتذوق للحرب المقدسة كانت في حال يقظة عند الجزائريين ، وقرر عبد القادر أن يستغلها لطرد العساكر الفرنسية ؛ وكفاح المقطع أظهر ذلك جيداً في ١٨٣٥ ، مع تدمير طابور فرنسي غامر بنفسه نحو الداخل . وأيضاً في عهد الماريشال كلوزيل والماريشال فاليه ، جرى تطور نحو ستراتيجية احتلال كامل . وقد وعد كلوزيل كثيراً وتماسك قليلاً ، واقتصرت مغامراته على ضربة قوة على مسكرة وإلى محاولة بائسة للاستيلاء على قسنطينة التي كانت تؤلف في شرق الجزائر المركز الرئيسي للمقاومة الجزائرية للفتح الفرنسي (١٨٣٦) . وفي ١٨٣٧ ، بدا أن دامريمون يوطد الحالة بالاستيلاء على قسنطينة بشكل جاد والتفاوض على يد بوجو باتفاق جديد مع عبد القادر ، وقد حددت معاهدة **تفنا** على أي حال منطقة الاحتلال الفرنسي ومنطقة سيادة الأمير عبد القادر ، وأظهرت فرنسا أنها ترى فيه أداة لنفوذها على مسلمي الداخل ، بينما وجد الأمير نفسه بالعكس ، معززاً بالتكريس الدبلوماسي الذي أتى به الخصم نفسه لسلطته . ولكن إرادة ڤاليه في الإدارة والاستعمار فعلاً لكل المناطق الخاضعة للعساكر الفرنسية أفهم عبد القادر بأنه لا يوجد تسوية (حل وسط) ممكنة بين طموحاته الشخصية والسياسة الفرنسية . وبعد أن كان ينفذ دوماً معاهدة ١٨٣٧ لمصلحته الشخصية على سبيل الحصر ، اختار استئناف الحرب بمناسبة حملة قسنطينة ـ الجزائر في تشرين الأول ١٨٣٩ ، وكانت نزهة عسكرية كان فيها ڤاليه محاطاً بدوق أورلئان ، ابن الملك لوي

فيليب ، وأراد أن يبرهن أن هذا الاتصال الصعب ، عبر كتلة جبال بيبان كان تحت سيطرته . وكان آخر ١٨٣٩ وسنة ١٨٤٠ النقطة الحرجة للفتح : فقد قام الأمير بالهجوم باتجاه الجزائر واجتاح مؤسسات الاستعمار الأولى في سهل الميتيجا ؛ ورد ڤاليه بهجوم معاكس في ربيع ١٨٤٠ ، ولكن آخر السنة كان ملحوظاً بتفاقم الحالة الصحية للعساكر الفرنسية : فقد مات خمسة آلاف جندي فرنسي في المستشفيات من شهر حزيران إلى تشرين الأول . وجن جنون الرأي الفرنسي في فرنسا . وزادته ضغثاً على إبالة الأزمة المصرية التي تعلقت عليها أزمة دولية خطرة أدت بالحكومة إلى أن تطلب من ڤاليه إعادة قسم من وسائله إلى فرنسا .

على أن الفتح التام لم يأت إلا مع بوجو الذي سمي عوضاً عن ڤاليه في الأيام الأولى من ١٨٤١ . وكان بوجو ضابطاً سابقاً في الإمبراطورية وبخاصة ضابطاً قديماً في حرب إسبانيا التي أبدت بعض التشابه مع حرب الجزائر . وكان بوجو أيضاً ملاكاً عقارياً ظل قريباً من الأرض ، وسياسياً عازماً على أن يفيد من القضية الجزائرية أعظم ربح لحياته الشخصية كما لفرنسا نفسها . ومرت سبعة أعوام من عمليات الهجوم قامت بها طوابير قوية ومتحركة حتى انتصرت على عبد القادر . ولكن الجيش الفرنسي الذي كان ثلثه تقريباً (مئة ألف رجل) مجنداً في الجزائر ، ضعف فيها ، وفقد معاً المعنى لكل استراتيجية معقدة ومعنى بعض أخلاق الحرب ـ لأن بوجو دشن طريقة الإرهاب وترك ضباطه يهدمون القرى ويبيدون السكان . وفي ١٨٤١ ـ ١٨٤٢ ، حقق بوجو الارتباط الجزائر ـ وهران ، بأخذه مسكرة ، وتلمسان ، وبإخضاعه الأوراس . وفي ١٨٤٣ ـ ١٨٤٤ طرد عبد القادر من منطقة وهران والتجأ إلى مراكش : وعرفت الحرب خلال فترة إمكان التوسع نحو الغرب ، إلا أن الإنكليز القلقين على جبل طارق أظهروا مقاومتهم ، وأخيراً اقتصرت العمليات على منطقة وجدة (وضرب بوجو ، على إيسلي العساكر المراكشية التي دعمت عبد القادر) كما ضرب أسطول الأمير جوانڤيل طنجة وموغادور . ورأت معاهدة طنجة (١٠ أيلول ١٨٤٤) عندئذ السلطان عبد الرحمن يقبل بإخراج

عبد القادر . ولكن هذا ظل طليقاً وغير قابل للإمساك به . وأفاد في ١٨٤٥ من الثورة التي قام بها زعيم ديني آخر وهو بومعزة ، في دهرا والأوراس ، ليحاول أن يستعيد بيده أوفياءه المخلصين . ولكنه اصطدم باعيائهم من الحرب ، وعاد إلى مراكش (١٨٤٦) ، وفيها كان هدفاً لعداء السلطان فقرر أخيراً أن يسلم نفسه للفرنسيين (كانون الأول ١٨٤٧) . ولما أبدى بومعزة خضوعه ، في سياق هذه السنة نفسها ، وأعاد بوجو السلام في القبائل الكبرى ، وتوصلت الفصائل الفرنسية حتى تخوم الصحراء الكبرى ، اتفق بصورة عامة على تثبيت ١٨٤٧ نهاية لفتح الجزائر . ومع ذلك فإن خضوع القبائل تطلب أيضاً عدة حملات من ١٨٥١ إلى ١٨٥٧ جند فيها الكثير من الرجال وكثرة التدمير . والإمبراطورية الثانية اهتمت عدا ذلك بالسيطرة على نقاط عبور تجارة القوافل : واحتلت الأغواط في ١٨٥٢ ، وتوغورت في ١٨٥٤ . ولكن السلطات الفرنسية لم تتوصل إلى التفاهم دائماً مع كونفدراسيون ولد سيدي الشيخ الذي حاصر لمدة ثلاثين سنة تقدم الفتح نحو الصحراء الكبرى .

كانت تعاصر الفتح قضية كبرى بالنسبة لمستقبل الاستعمار وهي : إقامة استيطان هام أوربي . فحتى ١٨٣٤ كان يظن لن يكون شيء من هذا . وإذا تبعت بعض الألوف من الأوربيين الجنود ، لتقديم خدماتهم أو المخاطرة بالمغامرة ، فإن السلطات كانت تسهر على منع المرور المجاني وتدحر كل قادم لا يبرهن على موارد واسعة . ومع ذلك ، فإن واقع تشكيل ملكية فرنسية بحجز الأملاك التركية ـ وأموال الأتراك المطرودين وبعض أموال الحبوس التابعة للمؤسسات الدينية بدا أول مشجع للاستعمار . ولجنة التحقيق في عام ١٨٣٣ توصلت إلى التوصية به علناً منذ بدا لها أن الحفاظ على الفتح أمر مرجوفيه ، وتصور بعض العسكريين عن خطأ بأن الحالة الديموغرافية والصناعية لفرنسا تقتضي فتح منافذ خارجية ، فمن المؤكد بالمقابل أن المصالح الاقتصادية مثل مصالح مارسيليا كانت تنتظر بفارغ الصبر إنشاء سوق استعمارية للمبادلة منذ الخسائر التي تحملتها في عهد الإمبراطورية وتأمل بتحويل البحر المتوسط الغربي إلى بحيرة فرنسية ، في الوقت

الذي كانت تكافح فيه بصعوبة ضد المنافسة الروسية ، ثم اليونانية ، في البحر المتوسط الشرقي وفي البحر الأسود . وكان باستطاعة المارسيليين في الجزائر أن يعتمدوا على بيع خمور الجنوب ، وإنشاء خط ملاحة منتظمة ، وربما حتى مزارع مدارية ، دون الكلام في الحاضر المباشر عن الأرباح التي يؤمنها تموين العسكر . وعلى كل حال ما لبثت المبادهة الخاصة ، في هذا المناخ الجديد ، أن استغلت في هذه الظروف غير المنتظمة ، على الأراضي القبلية ، وإليك ما كتبته ، في ١٨٣٤ ، امرأة ضابط عالي المقام :

« حتى هنا اقتصر الاستعمار على التجارة بالملكيات ؛ وهنا يلعب على الأراضي كما يلعب في سوق النقد على الدخول ... فقد بيعت بليدة إلى ألوف المستعمرين قبل أن تفتح وتحتل ... واكتفى الكثيرون بالذهاب لدى كتاب العدل واشتروا بناء على الكلام . وبيع أيضاً سهل الميتيجا ... وبيع منه ما يعادل ثلاثة أمثال مساحته على الأقل » .

وفي ١٨٣٦ تاريخ أول محاولة للاستعمار الرسمي : كان الماريشال كلوزيل نفسه مالكاً لحقل جميل في سهل الميتيجا ، وقرر أن ينشئ مركزاً للاستعمار إلى جانب معسكر بوفارق العسكري . ولكن أوائل من حصلوا على الامتيازات ماتوا فيه بسبب أزمات البرداء (الملاريا) ، بالرغم من أعمال التجفيف التي قامت بها في ١٨٣٨ الهندسة العسكرية . وفي ٢٠ تشرين الثاني ١٨٣٩ دمرها عبد القادر بهجومه عليها . وانطلاقاً من ١٨٤١ ، أصبح الجهد الرسمي منظماً ، واتجه نحو فكرة استعمار عسكري من جنود ـ فلاحين ، يساعد استعماراً مدنياً استيطانياً صغيراً إلى جانبه : وقد صرح بوجو منذ وصوله إلى الجزائر بقوله :

« سأكون مستعمراً متحمساً ، لأنني أعلق قليلاً على مجد الغلاب في ساحات الوغى مما أعلقه على تأسيس شيء دائم ونافع لفرنسا » .

وتعليات الماريشال سولت وزير الحربية توضح بعد بضعة أشهر :

« الاستعمار المحدود بعقل أول عنصر للمحافظة ، ويمكنه أن يعطينا بقليل من السنوات واسطة للقدرة بما يكفي للدفاع عن الجزائر دون أن نجند أكثر مما يلزم قوى البلاد ومالها » .

وكان بوجو متمسكاً شخصياً بمفاهيمه وأفكاره : إن استقالته كانت في آذار ١٨٤٧ بسبب رفض اعتماد من ثلاثة ملايين ، وفيه ظن بأن يرى إعلان تغيير سياسي واستعمار بامتيازات كبرى وتدخل الأوساط الرأسمالية ؛ وعلى العكس كان لاموريسيير يرى أن الاستعمار كان « قضية مالية أحرى منها قضية رجال » . ويرى أن « رؤوس الأموال لا تثبت أحداً » . إن تكثيف الاستعمار كان يفترض أولاً التخلي الجزئي عن الأراضي التابعة للأصلاء أبناء البلد ، وإقامتهم ـ وليس دحرهم . ويوضح بوجو دون حيطة أو حذر :

« في كل مكان يوجد فيه مياه صالحة وأراضي خصبة ، يجب وضع المستعمرين دون معرفة لمن تتبع هذه الأراضي ؛ يجب توزيعها بكامل الملكية ... يجب أن نكون أقوياء لنفرض تحمل الظلم الذي لا يفوتنا أن نكون مجرمين حيال العرب ، وتخفيف آثاره بالتعويض بإدارة ذكية وأبوية » .

وفي ١٨٤٤ ، ١٨٤٥ ، ١٨٤٦ حكمت مختلف الإجراءات بأن توضع الحراسة العسكرية على الأراضي في حال عداء للحضور الفرنسي ، وأن تخصص لملك الدولة كل الأملاك غير المبنية التي لم يستطع مالكوها الحصول على أوصاف سابقة للفتح ، ولما كانت القبائل لا تعرف على العموم الملكية الخاصة والفردية ، لذلك لم تملك في الغالب مثل هذه الأوصاف . وعلى أراضي الأصلاء المعبأة ، كان الجيش يتدخل لإنشاء طرق ، وقرى ، وحقول نموذجية ، والضباط الملازمون والجنود ممن لهم خدمة ثلاثة أعوام

وتحرروا ، يقدم لهم مع عطائهم مواد غذائية وإقامة مجانية وفرصة ستة أشهر ليتزوجوا . أما في الواقع ، فإن الاستعمار المدني هو الذي نما في الغالب في المناطق الساحلية التي كانت في متناول اليد . وعند انطلاق بوجو كان يوجد في الجزائر ١٠٠٠٠٠ أوربي ، منهم ٤٧٠٠٠ فرنسي و ٣١٠٠٠ إسباني ؛ وأنشئت ٦١ قرية ، وإذا برر المستعمر أن موارده ١٢٠٠ فرنك ، تقدم له في فرنسا إعانة طريق ، العبور مجاناً ، وحصة للبناء ، وحصة للزراعة من ٤ إلى ١٢ هكتار ، وإعانة مواد للبناء ، ونباتات ، وبزور ، وأدوات وحيوانات للفلاحة ، وفي بعض ظروف الإقامة واستصلاح الأرض لاستغلالها كانت ملكيته لحصته مكتسبة.وبعد بوجو اتجه الاستعمار الرسمي بسرعة إلى صورة هزلية : فقد أنشأت الجمهورية الثانية في فرنسا ٤٢ مركزاً جديداً إثر إغلاق المشاغل القومية ، وأقامت مجموع ١٣٠٠٠ مستعمر ، ولكنهم كلهم تقريباً كانوا على الإطلاق غير أكفاء للاستعمار الريفي ومات الكثير من المرض ؛ والإمبراطورية الثانية أرسلت بدورها محكومين سياسيين ، وأطفال لقطاء ، وموقوفين ، ومحكومين بالأشغال الشاقة .

وكان المفهوم الجديد للاستعمار مفهوم الرأسمالية الليبرالية . ومع أن الدولة قامت بحجوزات جديدة على عدة مئات الألوف من الهكتارات ذات الأراضي الطيبة والغابات ، فقد علقت ، منذ ١٨٥١ ، كل مساعدة وكل سلفة إلى الاستعمار الصغير ، وبعد أن فتحت استثناء السوق الفرنسي للمنتجات الجزائرية ، بدأت تبيع امتيازات واسعة للشركات ١٦٠٠٠٠ هكتار من السنديان ـ الفليني لشركة الهبرا والمقطع ، وللشركة العامة الجزائرية ، و٢٠٠٠٠ هكتار من الأراضي لشركة جنيف في منطقة صطيف ، إلخ ...

وتلقى استعمار الاستيطان مع ذلك دفعة جديدة في السنوات : ١٨٧٠ ـ ١٨٩٠ . إن ثورة القبائل في ١٨٧١ أثارت مصادرة جديدة للأراضي ، بينما كان بعضهم يحلم من

جديد باستعمار فرنسي يغمر الجزائر ويتمثلها . وفي عشرة أعوام ، على ٣٦٠٠ عائلة ، منها ١٢٠٠ جاءت من الألزاس ـ لورين التي ضمت إلى ألمانيا وأقامت على نفقة الدولة . ثم عرف الاستعمار الحر دفعاً بواقع هجرة العديد من زراع الكروم ومربيها من مقاطعات البحر المتوسط ، ضحايا أزمة الفيلوكسرا ؛ وفي آخر القرن ، أخذت الجزائر على هذا النحو لوناً جنوبياً بوضوح . وفي وقت لاحق ، ازداد السكان الأوربيون بخاصة بحركتهم الطبيعية فيما يتعلق بالفرنسيين أو بهجرة المياومين الزراعيين الذين أتوا من الأندلس ، وكالابر ، والپوي ومالطا . وفي ١٩١١ ، كان الأوربيون ٧٥٢٠٠٠ . وفيهم يمكن التعرف على أمةٍ جديدة ناشئة عن الانصهار التدريجي لمختلف العناصر المتوسطية المهاجرة ، ثم إن التجنس ، والزواج المختلط ، ووحدة الدين ، ووحدة المصالح أمام المسلمين ـ وأيضاً أمام اليهود ضحايا المظاهرات العنيفة والعداء للسامية ـ شجعت على هذا الذوبان ، الذي يختلف في بعض أسلوب الحياة ، في خلق لغة محلية . ثم أبعدت نفسية جماعية جديدة أوربي جزائر عن فرنسي العاصمة : نفسية جماعة عرقية مسيطرة ، تشعر بتفوقها على المسلمين ، وتثق بدعم الجيش الاستعماري ، وفخورة فيما بعد بنجاحها المادي .

هذا النجاح ، كان فعلياً في نمو قطاع حديث في الاقتصاد ، ويأتي أولاً قطاع الزراعة المتجهة نحو التصدير . وفي أول رد فعل ، ألف المستعمر الفرنسي من جديد ريفه الأصلي : فحتى نحو ١٨٨٥ ، جاءت الحنطة الطرية والشوفان ، وهما زراعتان فرنسيتان تضافان إلى الشعير وإلى الحنطة القاسية ، الجزائريين . ولكن انطلاقاً من هذا التاريخ ، طردت هجرة زراع الكروم بالتدريج حبوب المناطق الساحلية والقريبة من الساحل ـ التي توافق أرضها ورطوبتها مع ذلك كثيراً هذه الزراعة ـ لصالح الكرمة . ونحو ١٩٠٠ ، كانت الزراعة التي تساعد على الغنى أكثر أيضاً زراعة الخضار التي بدأت تغذي تصدير الخضار الباكورية . ولكن في القرن العشرين لم يكن معظم أوربيي الجزائر مستعمرين زراعيين : فهم يعيشون في المدن ـ في المدن الكبرى إذا

أمكن ذلك ؛ ولما كانت الرأسمالية الفرنسية المتأتية من فرنسا تتجنب تصنيع المستعمرات ، لذلك جاووا ينفخون بلا حدود « القطاع الثلاثي »[1] . وكان الموظف أو التاجر أو الفنان ، أو عضو المهن الحرة ، أوربي الجزائر يشعر بحق بأنه في بيته في المدينة حيث حافظ على الأكثرية خلال زمن طويل .

إن استعمار الاستيطان الأوربي لم يأخذ أبداً طابعاً كثيفاً : فقد بقي خارجياً عن جسد (الجزائر) بعمله الكثيف في السهول الساحلية ، والموانئ الكبرى ، حول الجزائر ووهران بشكل أساسي . وفيما عدا ذلك ، بقيت الجزائر « أصلية » ، مسلمة ، فقيرة ، بدائية ومسيطر عليها . فبين تعدادات ١٨٧٢ و ١٩١١ ، بدأ الشعب الجزائري بارتفاع هام ، بفضل تحسين الحالة الصحية . ولم يكن بعد أيضاً انطلاق الديموغرافية الكبير ، الذي لم يحدث إلا بعد ١٩٢٠ ، ولكن كان هذا كافياً لإثارة حركة إفقار الفلاحين . لأن ازدياد السكان تعلق على حركة تكديح الفلاحين ، لأن سياسة إقامتهم هي المسؤولة . وفي كل المناطق التي وصل إليها الاستعمار ، لم يحافظ الجزائريون الأصلاء ، في الواقع . إلا على أراضي غير كافية كمياً وكيفياً ، ولا سيما إذا أخذنا بعين الاعتبار عاداتهم الريفية والرعوية ودور الأرض البور في نظام الزراعة . وقد باعوا أو هاجروا في كثير من الحالات ، أو حاولوا أن يجدوا من جديد لأنفسهم موطئ قدم على الأراضي التي كانوا ملاكيها سابقاً ، ولكن في هذه المرة بصفة خماسين على المحصول أو عمالاً مأجورين . ونظراً لكونهم غير قادرين على تحديث أنفسهم ، لذلك كانوا أكثر من أي وقت مضى حساسين بالأزمات الزراعية من أصل مناخي (كما في أزمة ١٨٦٦ ـ ١٨٧٠ التي أهلكت خمس السكان في منطقة قسنطينة) وهكذا أفقر المجتمع الريفي الأصيل في دائرة مغلقة .

---

(١) القطاع الثلاثي أي قسم السكان النشيط المستخدم في التجارة ، والمصالح والبنوك والتأمينات والفندقة وغيرها ...

إن إدارة بلد غير متلاحم وضعت عدة قضايا خلال نصف ـ قرن . ففي المرحلة الأولى التي انتهت نحو ١٨٥٨ هيأ الفرنسيون نظام إدارة مختلطة . وأمكن التوصل في عهد بوجو . في ١٨٤٤ ـ ١٨٤٥ إلى التمييز بين أرض مدنية تطابق تقريباً المنطقة التلية ، وأرض عسكرية . فالأولى كانت ، بفضل الجمهورية الثانية ، تتألف من ثلاثة محافظات : وكان المحافظ تابعاً ملحقاً بحاكم عام أراده المستعمرون أن يكون مدنياً ؛ وبعض المصالح كانت ، في فكر التمثل ، مرتبطة مباشرة بالوزارات الباريسية ، كما أمن للأوربيين تمثيل برلماني . والأرض الثانية تديرها « المكاتب العربية » ، وكان الجيش يدير هذه المكاتب بكاملها . وتتألف من بعض ضباط ، ومن جهاز ضعيف من المستخدمين والعمال ، وتوضعوا فوق السلطات الجزائرية الأصلية ـ الخلفاء ، الأغوات ، القادة ، الشيوخ ؛ وكان دورهم سياسياً (مراقبة هؤلاء الزعماء ، اقتراحات الترفيع ، أو العزل ، والتعيين) وقضائياً (محكمة عسكرية للقضايا الجنائية ، والمحاكمة تكون على يد ضابط يساعده قائد للقضايا المدنية) وعسكرياً (رئيس المكتب العربي هو قائد العساكر من أبناء البلاد ، القوم) ، وإدارياً أخيراً (تحديد الضرائب الواجبة على القبائل ، مراقبة المدارس القرآنية والزعماء الدينيين) وهم ، في الواقع ، الذين ترأسوا على توزيع الأراضي من جديد ، وأحلوا الأصلاء ، في أماكنهم ، وثبتوهم على الأرض في قرى عمرت ، بقصد تشجيع تشكيل الملكية الخاصة ، ولحد ما ، التقدم الزراعي .

وفي المرحلة الثانية ، التي تطابق سنوات ١٨٥٨ ـ ١٨٧٠ ، قامت الإمبراطورية الثانية بتجربة سياسة مخالفة جداً ، سياسة رد فعل ضد التمثل ، والمركزية ، وأيضاً السلطة المدنية . وبعد التجربة ، من ١٨٥٨ إلى ١٨٦٠ لوزارة الجزائر والمستعمرات ، التي عهد بها إلى جيروم ـ نابوليون ، وفي سياقها جرب المستعمرون الحصول على تعزيز التمثل ـ وبخاصة ، في تجنس العرب نشر نابليون الثالث رسالة أعلن فيها عن نيته في بسط سياسته في القوميات على الجزائر : وهذه هي السياسة التي تسمى سياسة « المملكة العربية » وبموجبها يكون أبناء البلد الأصلاء المرتبطين بالتاج الإمبراطوري ،

ومعزولين عن المستعمرين في كل مكان ، إذا أمكن ذلك أيضاً ـ وإلى هذا نزع تثبيط عزم الاستعمار الصغير للاستيطان ـ وسيحافظون في كل الجزائر على نظامهم الأساسي وإدارتهم الخاصين بهم . وسيكونون رعايا فرنسيين ، ولكن لا مواطنين فرنسيين ، وإن كانوا يزعمون بالوصول إلى بعض الوظائف المدنية أو العسكرية ، ولهم حق الإسهام في انتخاب المستشارين البلديين في مناطق الاستعمار . وبعد أن حذفت بعض الوقت الحكومة العامة ، أعيد توطيدها من جديد ولصالح العسكريين : بيليسية من ١٨٦٠ إلى ١٨٦٤ ، وماكماهون من ١٨٦٤ إلى ١٨٧٠ . وفي الواقع ما من واحدة من هذه السياسات كان من نتيجتها انسجام العلاقات بين عنصري السكان . فالسنوات الأولى بعد الفتح لم تسمح بالحكم على حالة رأي المسلمين : فعدا عن أن السلطات العسكرية حرمت أو خنقت حرية التعبير ، فإن السكان بادئ بدء اجتازوا دور خضوع : فعقب الآلام الفظيعة في المرحلة الأخيرة للعمليات العسكرية تلت أزمة اقتصادية وديموغرافية : فمن ١٨٤٩ إلى ١٨٥١ حصل موسمان رديئان في المحاصيل ، وجائحة وباء في الحيوانات ، وغارات الجراد ، والكوليرا دمرت وأهلكت السكان . ثم عاد ازدهار نسبي من ١٨٥١ إلى ١٨٥٨ مع صعود أسعار الحبوب وإدخال البطاطا والتبغ وحتى القطن . ولكن الجزائريين وقفوا من جديد مستعدين للثورة في كل مناسبة . وكان آنذاك شكويان قاهرتان : شكوى الأرض وشكوى الدين بصرف النظر عن إذلال المغلوب . لقد كان العرب يعيشون في حالة قلق لانتزاع الاستعمار ملكياتهم منهم ، على حين أن خضوع القبائل كان على العموم منوعاً بوعد التمتع الهادئ بالأراضي . وكانوا مستائين من أن يروا قلة الاعتبار لعقائدهم ولغتهم : فمنذ ١٨٤٨ أغلق في الجزائر أو بيع ، أو هدم أحد عشر جامعاً على خمسة عشر ؛ وحالة الضعف التي وقعت فيها المدارس القرآنية لا تطابق أي جهد في التعليم الابتدائي باللغة الفرنسية : إلا أن الإمبراطورية الثانية قامت بمحاولة عابرة (تخلي عنها في ١٨٧١) لتنمية كليات عربية ـ فرنسية يمكن أن يجري في داخلها ذوبان للثقافات والنخبات : وكان المستعمرون يعتبرون اللغة العربية لغة

أجنبيـة في المـدارس . وهنـا يجب أن نكـون حـذرين وفطنين في تفسير وقـائـع مثـل السهولة التي تم فيها انطلاقاً من ١٨٥٥ تجنيد عدة كتائب رماة ، مدعوين للمشـاركـة في حملات بعيدة : لقد كان القصد تجنيد متطوعين من طبقات محرومـة من السكان الـذين قبلوا هـذه الحرفـة للهروب من البؤس . وفي الواقع ، إن البنـادق الجزائريـة تحـولت في الغالب في الجزائر نفسها ضد العساكر الفرنسيـة : فعلى الحـدود المراكشيـة ، وفي منطقـة بني سناسن في ١٨٥٩ ؛ وفي الأوْراس في نفس السنة ؛ وفي ١٨٦٠ في سيـاق ثورة هودنـا ـ على صلة ، دون شـك ، مع تخصيص ٢٠٠٠٠ هكتـار من الأراضي للشركـة السويسريـة الجونيفية في منطقة صطيف ؛ وفي ١٨٦٤ ، في الجنوب ؛ وهكذا في الغالب ، ولحاجـات القمع كانت للعساكر الفرنسية فرصة استئناف طرق الإرهـاب التي كانت في عهـد بوجو تفرض غرامات وتحرق وتحلق وتنهب القرى .

إن سقوط الأمبراطورية الثانية ساعـد المستعمرين على إطلاق الهجوم من جـديـد لصالح التمثل والإدارة المدنية . وزالت بالتدريج المكاتب العربيـة حتى ١٨٨٥ ، وغرقت دوائرُها في الأرض المدنيـة .. ومع ذلـك بقي تمييز بين النواحي (القرى) المسماة « ذات الممارسـة الكاملـة » التي تطـابـق منـاطـق الاستعمار الكثيف ، والنـواحي (القرى) « المختلطة » التي حل فيها المدير المدني محل ضابط المكتب العربي . وإحدى الفوائد التي وجدها المستعمرون في هـذا النظـام الإداري كانت في القـدرة على أن يربـط بـالنواحي ذات الممارسة الكاملـة عـدداً من الـدوار ، تجمع قرى الخيـام ، التي كان سكانهـا خـاضعين لأعبـاء ضريبـة ثقيلـة وغـذوا الموازنـة بتجهيز مراكز للاستعمار . ومن جهـة أخرى وقـع الجزائريون الأصلاء تحت سلطة محـاكم من نموذج فرنسي كان من الصعب كثيراً الـدفـاع فيهـا عن مصـالحهم . ثم إن زوال الحكم العسكري وتجنس اليهـود بمرسـوم كريميـو تسببـا بثـورة القبـائـل تحت إدارة مقراني (١٨٧١) . ولم يبرهن المسلمـون بهـذا على عـدائهم للسامية فحسب ، وإنما أيضاً بأنهم يفضلون أبوية المكاتب العربية والعسكريـة على نفوذ السلطة المدنية والمستعمر : ووصل أيضاً خبر تغيير النظـام الإداري الأريـاف والجبـال تحت

ضربــات الفصــول الفظيعــة في سنتي ١٨٦٦ ـ ١٨٦٨ اللتين انتشر فيهما الجراد والجفــاف وهلكت الأشجـار المثمرة ، ومحـاصيل الحبـوب ، والعشب وغمرت الجـزائر مرة أخرى في المجاعة والوباء (كان يوجد ولا شك عدة آلاف الضحايـا) . إن سحق الثورة على عـدة أشهر من العمليات ساعد المستعمرين على توطيد تفوقهم نهائيـاً : وبينمـا كانت تتـدخل حجوزات جـديـدة للأراضي ، كان قـانون ١٨٧٣ يجبر الجـزائريين على الخروج من عـدم الانقسـام في كل مرة يصبح فيهـا أوربي شريكاً لهم في الملكيـة . وتبـع ذلـك تعجيـل في قلب وتفتيت ملكيات القبـائل وبيع حصص فرديـة وتكـديح المسلمين الـذين وجـدت قوة عملهم في خدمة الاقتصاد الأوربي .

أمـا الميل الملائم لـدمج الجزائر بفرنسـا فقـد عرف عـز تـوسعـه نحـو ١٨٨٠ ـ ١٩٠٠ بسياسة تسمى سياسة « الارتباطات » التي وضعت مختلف قطاعات الإدارة الجزائرية في تبعية مباشرة للوزارات البـاريسية المطابقة لها بدءاً بـالحـاكم العـام ، الـذي هو عـامل أو عميل بسيط لوزارة الداخلية . وهـذه التبعيـة مـالبثت مع ذلـك ، أن أسـأمت الشعب الفرنسي الـذي حصـل ، بعـد ١٩٠٠ بقليـل ، على تعريف نظـام أسـاسي إداري مـدعـو للدوام ، مع بعض الفوارق ، أكثر من نصف قرن : فقد مهر الجزائر الشخصية المدنيـة ، وعزز الاستقلال الذاتي للحاكم ، وأنشأ مجلس تداول ونقاش في القضايا الاقتصاديـة والمـاليـة ، وموازنة خاصة . وفي السنوات نفسها ، نشـأت من جـديـد المكاتب العربيـة تحت شكل مصلحـة الشؤون الجزائريـة الأصليـة ، لأجل أراضي الجنوب والـواحـات . ولكن هـذه الإصلاحـات النظـاميـة (المؤسسيـة) لم تمس القضيـة التي يجب أن تعرض على الصعيـد الأول في تـاريخ الجزائر في القرن العشرين : وهي وصـول المسلمين إلى الحقـوق الأهليـة وتشكيل نخبـة جـزائريـة أصليـة . إن المستعمر الفرنسي في الجـزائر ، الـذي اعتـاد على فرض وجهـات نظره على الـوطن الأم فرنســا ، حيث لا يهتم الرأي بتفصيـل الشـؤون الاستعمارية ، لم يكن في ١٩١٤ مستعداً لقبول ضرورة توسيع الهيئة الانتخـابيـة والتمثيل

للمسلمين ، وحكم طوعاً لحساب نظام طبيعي في دونيتهم الساحقة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية . وهكذا نشأت عرقية . وسنجد أثرها في الطرف الآخر من القارة ، في إفريقية الجنوبية التي تؤوي تجربة أخرى للاستيطان الأوربي .

من الاستغراب إلى الحماية :

١ ـ في مصر :

لقد توطد النفوذ الأوربي في مصر وفي تونس في ظروف مختلفة واضحة . لأن وجود دول أكثر نشاطاً وتطوراً في هذه النقاط من إفريقية الشمالية قد حض ، في الواقع ، على علاقات وثيقة مع أوربة حتى قبل أن تتدخل هذه فيها عسكرياً ؛ وأجبر أيضاً الدول الفاتحة لحدٍ ما على احترام البنيات السياسية المحلية التي استطاع بقاؤها أن يفيد كنقطة استناد لنمو قومية مبكرة .

على سلّم البحر المتوسط الشرقي ، وبخاصة في نظر الأمبراطور العثمانية . كانت مصر منذ النصف الأول للقرن التاسع عشر ، دولة كبرى . فتحت سلطة النيابة ـ الملكية لمحمد علي الألباني ، الذي جاء يحارب بونابرت على رأس عساكر تركية ، ثم تربع على كرسي السلطة من ١٨٠٤ إلى ١٨٤٩ ، بسطت مصر سيادتها على السودان ، وتدخلت في شبه جزيرة العرب ضد توسع الوهابيين ، وسيطرت موقتاً على سورية ، وكريت ، حتى إنها هددت القسطنطينية في ١٨٣٣ . وبقيت عدا ذلك ، وفية إلى الدفع الذي أعطاه لها بونابرت ، وإن كان مروره بها عابراً ، ولكنه كان مثمراً . يضاف إلى ذلك أن محمد علي استعان عن سعة بفنيين فرنسيين بقصد تحديث جيشه أو تنمية الزراعة . فتحت حكمه تضاعف السطح المزروع وزاد ذلك بفضل الري . وأكثر من زراعة شجر التوت والزيتون ، وتغطت دلتا النيل بمزارع الرز . والفيوم بمزارع الورد ، وأصبح

القطن أخيراً ثروة مصر العظمى . ولم يكن السكان غير ثلاثة ملايين نسمة ، وبذا تكاد تكون أكثر من الجزائر . ولم يؤثر عليها بعد تزايد السكان ومصير الفلاح يمكن أن يحكم بشأنه أنه مرض . ولكن البلد كان رهن التنافس الفرنسي ـ الإنكليزي : وبصفته منطقة عبور دولي لأوربة نحو الهند ، تأكدت هذه الصفة بإيجاد خط لملاحة شبه الجزيرة الهندية وجزؤها الشرقي يمارس النقل بالقوافل بين الجزأين البحريين . وفيما كان محمد علي محمي فرنسا ، كان بالمرستون في ١٨٣٩ ـ ١٨٤٠ يدافع عن الإمبراطورية العثمانية حارسة مضائق البوسفور والدردنيل ، وحصناً ضد تغلغل النفوذ الروسي في البحر المتوسط الشرقي . ومع ذلك لم تطرح على بساط البحث في ذلك العصر قضية التدخل المباشر : لقد قاوم الفرنسيون إنشاء خط حديدي من قبل الإنكليز عبر برزخ السويس . وحاول الإنكليز بعد ذلك بقليل ، منع الفرنسيين بناء قناة . وظل التوازن قائماً بين النفوذين الفرنسي والإنكليزي غير المباشرين ، والتفوق البريطاني في التجارة الخارجية لمصر ، يقابل النفوذ الفرنسي المتفوق برؤوس الأموال الفرنسية . وقد سمح سعيد باشا (١٨٥٤ ـ ١٨٦٣) ببناء الخط الحديدي والقناة ولكن مبادهات إسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) تسببت بصورة أساسية بمشاركة مباشرة للمصالح الأوربية مع الشؤون المصرية . وفيما يخص أشغال العمران المدني والوجاهة كما هي الحال لخلق نواة صناعة وطنية ، استقرض إسماعيل خلال ثماني مرات من ١٨٦٣ إلى ١٨٧٣ ، ١,٧٠٠,٠٠٠,٠٠٠ فرنك تحت شكل قروض عامة طويلة الأجل ، مكفولة بالحصائل الضريبية أو المحاصيل الزراعية التي أفادت في تقوية سلفات مكلفة لأجل قصير . وهذه الدعوة لرؤوس الأموال كانت في البدء مرضية للدور القديمة للبنك الفرنسي الأعلى والإنكليزي أو الألماني ؛ واهتمت البنوك الكبرى للأعمال والودائع بدورها ؛ وأخيراً ظهرت بنوك متخصصة في تثمير القروض المصرية : وفيما كانت تتباطأ الحركة الكبرى في بناء الخطوط الحديدية ، اتجه التمويل الأوربي بجشع نحو استثمارات الحكومات في البلاد المتخلفة (النامية) التي كان سعر الفائدة عندها عالياً ومضموناً لدى الموفرين والرأسماليين .

نذكر من هذه البنوك على سبيل المثال البنك الفرنسي والمصري لشارل فري أخ رجل الدولة جول فرّي في (١٨٧٠) ـ أو البنك الإنكليزي ـ المصري ١٨٦٤ الذي كان ينعشه في الواقع جان باتيست باستريه رجل الأعمال المارسيلي من الصعيد الأول . وانطلاقاً من ١٨٧٣ اكتفى إسماعيل باشا بالسلف القصيرة الأجل ، وفي آخر ١٨٧٥ وجد نفسه في صعوبة لدفع أقساطه . وعندئذ وضع في البيع الـ ١٧٦٦٠٢ سهم التي كانت ملكه أو ملك مصر في شركة قناة السويس : وهي ما يعادل نحو ٤٥ ٪ من المجموع الكلي الذي كان ٤٠٠٠٠٠ سهم . وكانت الحكومة البريطانية التي يرأسها دزرائيلي قد ضغطت على فرنسا لأن تترك لها أمر هذا الشراء . ولم يكن للرأسمال البريطاني في الواقع أي مشاركة في الاكتتاب . وكانت فرنسا تحتفظ من قبل ب ٥٢ ٪ من الأسهم . ومبادهة دزرائيلي مخصصة للحفاظ على توازن بين الدولتين المعنيتين في مصر ؛ وتعني أيضاً أن بريطانيا العظمى الواعية للدور الأساسي الذي كانت قناة السويس تلعبه من ذلك الحين فصاعداً في تجارتها كما في ستراتيجيتها الإمبريالية القلقة من الانحطاط الذي لا شفاء له ظاهراً ، الذي كانت عليه الإمبراطورية العثمانية ، ولذلك تهيأت لتتبنى في مصر موقفاً أكثر نشاطاً .

خلال ستة أعوام ، بدا أن اعتبار المصالح المالية يبقى الدليل الأساسي للسياسة الأوربية . ففي نيسان ١٨٧٦ صرح إسماعيل باشا أن مصر في حالة إفلاس جزئي : وفرضت البنوك الفرنسية والإنكليزية عليه عندئذ ، في ١٨ تشرين الثاني ، إنشاء صندوق للدين العام وحضور مراقبين عامين للمالية . وهذا يعني حكماً مشتركاً (حكم ثنائي) فرنسياً ـ إنكليزياً على المالية المصرية وبالتالي تدمير سيادة إسماعيل . واستولى كبار موظفي الدولتين تدريجياً على عدة وزارات والوظائف الأساسية في الإدارة . وفي ١٨٧٩ عزل إسماعيل من قبل الغربيين وحل محله توفيق ، الذي كان لعبة مسيرة : وكان القصد مكافحة نمو معارضة وطنية . واصطدم التدخل الفرنسي ـ الإنكليزي برأي

المحافظين المسلمين لأسباب دينية ، وبكبار الملاكين والفلاحين الذين أصيبوا بتفاقم الضريبة ، والضباط المستائين من نقص الاعتمادات العسكرية . وفي الواقع ، انطلقت الثورة بفتح فرنسا لتونس : فقد ضغط الوطنيون انطلاقاً من ١٨٨١ على توفيق أن يقاوم خشية أن يروا مصر تخضع بدورها للحماية . وسلم توفيق للضغط وشكل ، في شباط ١٨٨٢ ، وزارة وطنية متطرفة يسيطر عليها الزعيم عرابي باشا . ووقفت تظاهره بحرية مشتركة من الاسطولين الفرنسي والإنكليزي أمام الإسكندرية في ٢٥ أيار فأثارت بالمقابل ثورات معادية للأوربيين في ١١ و ١٢ حزيران أوقعت ٥٠ شهيداً وباشر الوطنيون بتحصين وتعزيز الإسكندرية . في هذه الأثناء تأثر الليبرالي غلادستون بالخطابات الإمبريالية التي كان يلقيها دايلك في مجلس العموم ، وشعر بالضرورة التي وجدت فيها بريطانيا العظمى للدفاع عن اتصالاتها الإمبريالية مباشرة على قناة السويس منذ أن برهنت الإمبراطورية العثمانية في ١٨٧٧ ـ ١٨٧٨ على ضعفها الشهير في الحرب الروسية ـ التركية ، غلادستون هذا الليبرالي قدم إنذاراً بواسطة الأميرال سيمور : وفي ١١ تموز ١٨٨٢ فسر الأميرال بسعة تعليماته وفتح النار على تحصينات الإسكندرية . وأمام كبح البرلمان الفرنسي الذي كان يرى بأن عبء تونس كان كافياً وموقف بسمارك ـ في وقت كانت الدبلوماسية الفرنسية فيه غير مؤمنة في الحقل الدولي ، وتركت الحكومة الفرنسية إنكلترا تقوم بالعملية وحدها ؛ ومن جهة أخرى ، في ذلك التاريخ كانت أوساط الأعمال الكبرى الفرنسية تشعر بمجيء أزمة في السوق المالي ، ومنذ عام تحررت من الفوائد المصرية . لذلك لا ترى محذوراً من أن يأخذ الإنكليز على عاتقهم الحفاظ على النظام في مصر . وهكذا في أيلول ١٨٨٢ ، كان يكفي بضعة أيام للعساكر البريطانية وحدها أن تقوم بعملية إنزال لسحق القوات الوطنية المصرية وتحتل القاهرة .

وسنرى فيما بعد أن الاحتلال العسكري لمصر من قبل الإنكليز كان تأريخاً رئيسياً في تاريخ استعمار إفريقية : لأن الحادث في الواقع أثار تقسيم القارة إثر ردود فعل

متسلسلة . وهذا الاحتلال أوجد حالة واقع تطور أخيراً إلى إقامة طويلة الأجل وإلى حماية صريحة . وفي ذلك الحين أكد الإنكليز أن الاحتلال لن يبقى إلا بمقدار ما هو ضروري لتأمين النظام والحفاظ على رهن ضريبي للديون الأجنبية . ولكنهم ، من الناحية العملية ، أصبحوا مباشرة السادة الوحيدين والحقيقين في مصر ، وحذفوا فرنسا من المراقبة العامة للمالية المصرية ، وبخاصة أن مفوضاً سامياً لدى الخديوي كان يسير الأمور ويضع المستشارين إلى جانب الوزراء المصريين . ومع ذلك فإن الإنكليز ظلوا يراقبون الموقف الدولي حتى ١٩١٤ . وعندما رأوا أن تركيا وقفت إلى جانب دول وسط أوربة ، وطدوا رسمياً حمايتهم على مصر . وحتى الوفاق الودي ، اقتصرت فرنسا على أن تقف سداً أمام النفوذ البريطاني في إطار صندوق الدين العام وشركة القناة ـ حيث ظلت ممثلة ولا شك ـ أو تبحث عن عوض لها في إفريقية السودانية .

إن المغامرة البريطانية في مصر تذكر بكثير من مظاهرها مغامرة الإنكليز في الهند . فقد رأينا فيها النفاذ التقني للوصي يبلغ بعض نتائج لامعة في مضمار استعمال المياه والزراعة : وفي ١٩١٤ أصبحت مصر ثالث منتج عالمي للقطن العالي النوعية . ولكن تجارة التصدير له كانت أكثر من أي وقت مضى تشرف عليها المصالح الأجنبية ، والمستعمرات التاجرة الأوربية كانت تتمتع علاوة على ذلك بامتيازات عالية قضائية وضريبية . وإن الصناعة ظلت رشيمية . وأن الصفة الاستعمارية للاقتصاد المصري كانت في ازدياد وظهور ، فيما كان الموظفون البريطانيون يجتاحون الإدارة . وهكذا أمسكت الإمبريالية البريطانية ببلد كان في طريق الاستغراب . وجاءت إليه تعاكس تطلعات نخبة ضيقة ولكنها كثيرة الحركة والتحريض ، وتطوراً ليبرالياً ودستورياً للدولة المصرية مع تسهيل اتصالاته بالحضارة الغربية . ولا شيء أكثر دلالة من حياة سعد زغلول باشا الذي أسس غداة الحرب العالمية الأولى حزب الوفد . كان ابن فلاح وتوصل إلى الدخول في جامعة الأزهر الإسلامية ، في القاهرة ، بفضل صفاته الفكرية . وكان في سن العشرين ، موظفاً صغيراً عندما عزل لأنه اشترك في الحركة الوطنية التي يوجهها

الزعيم عرابي باشا . وفي سن الأربعين نراه محامياً شهيراً ولامعاً ، وعندئذ جاء يتم ثقافته الحقوقية في كلية الحقوق في باريس ؛ وعندما عاد إلى القاهرة تزوج ابنة وجيه مصري كبير ، ودعاه اللورد كرومر للوزارة التي شكلت من جديد ، وهي وزارة التعليم العام آنذاك ، واعتبر مسلماً محبذاً للأفكار الغربية ، ووطنياً معتدلاً وباستطاعته أن يشكل حزباً أهلاً للتعاون مع الإنكليز . وفي ١٩١٠ ، كان وزيراً للعدلية . ولكن حياته المهنية غيرت الاتجاه في ١٩١١ ، فقد استقال ليظهر خلافه مع زملائه الطيعين جداً للدولة الحامية . وفي ١٩١٢ ، دخل الجمعية التشريعية وكان فيها نائباً للرئيس وأخذ رئاسة المعارضة . وأصوله الشعبية ساعدته في الوقت ذاته على الحفاظ على تماسه واتصاله مع الجماهير الفلاحية . وهنا كان الخلاص من الاستعمار في بنيته الأولى قبل أن يأتي الاستعمار إلى الأوربي بكل ما هو قادر عليه .

٢ ـ في تونس :

إن تاريخ الاستعمار في تونس يقدم تشابهات فريدة مع التجربة التي أتينا على وصفها . فحتى نحو ١٨٦٠ ، كانت وصاية تونس تعيش حياة هادئة وبالإجمال سعيدة . وكانت التجارة في مرسيليا تشتري منها زيت الزيتون ، وفي الدرجة الثانية الصودا التي تغذي معامل الصابون الفرنسية . وكان الميزان التجاري عندها فائضاً بحيث أن ثمن الصادرات يفوق ثمن الواردات . وفتح الباي بلاده عن سعة للأجانب ـ فرنسيين ، إيطاليين ـ مالطيين ـ الذين كان بإمكانهم فيها شراء أراضي أو ممارسة مهنة حسب اختيارهم . حتى أن محمد الصادق (١٨٥٩ ـ ١٨٨٢) منح بورجوازية تونس دستوراً على شاكلة ملوك الغرب (١٨٦١) . وفي الحقيقة تحت حكمه كما تحت حكم إسماعيل في مصر ـ طبقت إرادة التحديث بشكل أخرق وعجلت بتونس لتكون تحت الوصاية الأجنبية . فتحت نفوذ قنصل فرنسا العام ، ليون روش ووزيره مصطفى خزندار أكثر الباي الصادق الامتيازات في المناجم ، والخدمات العمرانية ، والخطوط الحديدية بأسعار

زهيدة ، واقتنع وسلم نفسه للقروض . ونظراً لفقدان موازنة منتظمة ، وتنبؤات صالحة في التجهيزات ، وإدارة مالية شريفة ، كانت تونس تبذر رؤوس الأموال المستقرضة ، وأصبحت بعد ذلك غير قادرة على تأمين مصلحة الدين : وفي ١٨٧١ استولت لجنة مراقبة دولية على أموال الوصاية . وفي السنوات التالية نمت منافسة دولية حول هذا البلد ، الذي اعتبرته من قبل الدولة الإيطالية الجديدة كامتدادها التاريخي ، ومجمعاً طبيعياً لفائض سكانها ، واعتبرته إنكلترا موقعاً ستراتيجياً على درجة أولى من الأهمية على مضيق صقيلية ؛ كما أن فرنسا اعتبرته متمماً لا غنى عنه للمستعمرة الجزائرية ، وكأرض تبديل لوجاهتها . ونحو ١٨٧٨ ـ ١٨٨٠ ، أصبح التنافس في المصالح التجارية والمالية حول المشاريع الكبرى للخطوط الحديدية والمينائية ، كما حول امتيازات الأراضي ، لدرجة أن الحكومة الفرنسية تنازلت لإلحاح أوساط الأعمال والعملاء القنصليين . وكان جول فري آنذاك رئيساً لمجلس الوزراء ، وغامبتّا رئيساً للغالبية البرلمانية . وفي آيار ١٨٨١ دخلت العساكر الفرنسية تونس من المنطقة التلية ، مستفيدة من التسهيلات التي قدمها خط حديد تونس ـ غارديماو ، الذي انتهى منذ ١٨٨٠ ، وبعد أن صنعت الحكومة أسطورة الاضطرابات المدبرة على طول هذا الخط من قبل قبيلة الكرومير ، التي كانت موضع تشكيك الإيطاليين في ١٨٨٠ (الخط الحديدي كانت قد بنته واستثمرته شركة خطوط حديد بونه ـ غويلما ـ فرع شركة الباتينيول التي كانت تسيطر على الأشغال الكبرى في مقاطعة قسنطينة ؛ وسبقه أيضاً خط برقي . وإذا لم يتطلب الاحتلال الفرنسي غير نزهة عسكرية ، فإن خضوع سهوب تونس الوسطى والجنوبية تطلب ثمانية عشر شهراً وخمسين ألف رجل تألموا كثيراً : وخاف الرأي من « فتح الجزائر » الجديد ؛ وإذا قبل البرلمان بضغط من غامبتّا الحفاظ على الفتح ، فقد أجبر على الأقل فرّي على الاستقالة .

ووضحت فرنسا في تونس نوعاً من المؤسسات الاستعمارية أصيلاً ، ألا وهو الحماية . لقد كانت الحماية تستعمل من قبل ـ ولكن تحت شكل رخو ، في كامبودج

(كامبوديا) منذ ١٨٦٣ ، وكان دورها تهدئة روح الرأي الدولي والرأي الداخلي باحترام ظاهر للسيادة المحلية لأبناء البلاد ، وتجنب محذور سياسة التمثل المكلفة على كل المجالات ، مع السماح للدولة المستعمرة بممارسة واقع السلطة . وقد أعطي أول تعريف للنظام بمعاهدة قصر باردو (١٢ أيار ١٨٨١) الموقعة تحت ضغط الباي الذي أراد أن يجنب لبواعث دينية حماية دولة مسيحية ، ولكن القيادة الفرنسية لم تتكفل له بأمن شخصه إذا ظل مستنكفاً في رفضه ؛ وهنا مثال ، بين الأمثلة ، من هذه الطرق التي تسم منذ الانطلاق جو المستعمرات السياسي . وعهدت المعاهدة لفرنسا بممارسة السيادة الخارجية ، في شخص مقيم عام أصبح وزير الشؤون الخارجية ، وقائد للعساكر الفرنسية في تونس أصبح وزير الحربية . أما الواقع فكان شيئاً آخر . فالمقيم الأول سمي ليخلف القنصل العام روستان كان محافظاً ، وهو بول كامبون : وكان هدفه توطيد نظام الإدارة المباشرة ، كما لو كان القصد ضماً ، ولا حماية ، وتشكيل وزارة فرنسية بكاملها . وأوحى بمعاهدة الحماية الثانية ، وهي **معاهدة المرسى** (٨ حزيران ١٨٨٣) التي تلغي مادتها الأولى عملياً سيادة الباي الداخلية بوعده « القيام بإصلاحات إدارية ، وقضائية ومالية ترى الحكومة الفرنسية أنها نافعة » . وهكذا نما النظام الذي سمي فيما بعد « السيادة المعاونة » ، وفيها كان إلى جانب الباي مقيم عام ، وإلى جانب الوزراء مديرون وأمناء عامون ، وإلى جانب القادة مراقبون مدنيون . وتم توسع الدوائر لصالح استعمار فرنسي من الموظفين الفرنسيين ، دون كوادر تونسية ثقفها الفرنسيون ، وكان بإمكانها أن تقوم مقام هؤلاء الفرنسيين في تونس المستغربة . والبورجوازية التونسية ما كان بإمكانها إلا أن تلاحظ توقف التطور الليبرالي الذي بدأ في ظل نظام الاستقلال ، وسد الوظائف بنخبة فرنسية منافسة . ومنذ ١٩٠٦ طالب جماعة الشبان التونسيين المقيم بتطبيق الإصلاحات . وحدثت حوادث دامية في تونس في ١٩١١ ، وحركة معادية للأجانب في ١٩١٢ وألفت معاً بداية حركة معارضة امتدت إلى الجماهير الشعبية ولم تقتصر على النخبة الفكرية البورجوازية .

لقد أعطى اتفاق المرسى إلى السلطة الفرنسية وسائل تشجيع الاستعمار البشري والاقتصادي . ومع ذلك فقد أخذت الهجرة إلى تونس صفة محددة كثيراً ؛ ونحو ١٩١٤ ، كان أقل من ألفي ملاك فرنسي يتقاسمون نصف مليون من الهكتارات ، كانت تدار أو أخذت للإيجار من قبل الإيطاليين . وكان ربع هذه الأراضي في أيدي شركات . ولكن المهم هو دون شك ، أن هذه الأراضي المكتسبة ، في مناطق التربة الجيدة والرطوبة الكافية بطريق الشراء وأيضاً بطريق الحجز ، في حالة أراضي العرش (ملكية جماعية منتشرة في خارج التل والساحل) التي لم تكن ، كما في الجزائر ، للفلاحين التونسيين ؛ ووضع الأراضي إلى جانب بعضها كان هنا فظاً بصورة خاصة بين المستغلات الأوربية من نموذج رأسمالي وزراعة صغيرة تقليدية .

إن الأصالة الحقيقية للاستعمار في تونس ، هي الاستثمار في الصناعة الاستخراجية والطرق الحديدية المخصصة لخدمة مواصلاته : أما مناجم الفوسفات المكتشفة في ١٨٨٥ والمستغلة انطلاقاً من ١٨٩٩ فقد بقيت حتى ١٩٣٠ بين أوائل العالم .

٣ ـ حياة الاستقلال المراكشي الطويلة :

في أقصى غرب إفريقية الشمالية ، ظلت مراكش متمسكة بانعزالها الملحوظ كثيراً حيال الحضارة الغربية ومحافظة حتى ١٩١٢ على استقلال مناقض في قارة مقسمة بكاملها تقريباً . ونجمت هذه الحالة في جزء منها عن نوع من الضمان الدولي أفادت منه مراكش ، وكل الدول المهتمة بتوقعات استغلال هذا البلد والمتفقة على الحفاظ فيه على المنافسة الحرة . ولكنها تتضح أيضاً بوجود ملكية قديمة ، وهي ملكية السلالة العلوية القوية معاً بسلطتها الدينية وعاطفتها الوطنية العاجلة الظهور في كل مرة يهدد فيها غزو . وقد أريد ، من الجانب الفرنسي ، تعليق أهمية شديدة على المعارضة بين « بلد المخزن » و « بلد السيبا » ، بين السهل الذي يخضع للحكومة الشريفية والجبل المتمرد الثائر ، بين العرب والبربر ... ولكن هل كان يوجد فيه كثيراً أكثر من تضاد بين

مناطق السكن المقيمة ومناطق البداوة والترحل ، هذه الأخيرة التي لم تستطع بالبداهة الخضوع إلى إدارة منظمة . والحماية الفرنسية توطدت في نهاية دور ضعف للسلطة المركزية عائد لأسباب شخصية ولتكثيف الضغوط الخارجية . ومع ذلك ، في ١٩١٢ ، شوهد أن أشد المنافسين خطراً في الظاهر على السلطان مولاي حفيظ قد تصالحوا معه ضد حتمية تدخل الخطر الفرنسي ، والحروب ، التي دارت حول فاس ، أظهرت بشهادة ليوتي ، تلاحم القبائل الفائق الذي شد أزره كره المستعمرين الأجانب المسيحيين .

حتى ١٩٠٠ ، بدت مراكش معادية بعزم للتحديث بإرادة مولاي حسن القوي الذي توفي في ١٨٩٤ ، ثم بالوزير العظيم باأحمد الذي مارس حتى ١٩٠٠ الوصاية لحساب الفتى عبد العزيز . وهذا الأخير ، بالعكس كان مفعماً بإعجاب طفولي بالحضارة الغربية ، وفتح مراكش للمصالح الأوربية ، وهكذا حكم على بلاده بأن تصبح ساحة معركة للمنافسات الدولية ، وكانت فرنسا عازمة على أن تؤمن لنفسها موقعاً متفوقاً ، ورأت أن لا غنى أيضاً عن تأمين الحدود الغربية للجزائر وتقدمها في الصحراء الكبرى وحماية المصالح الاقتصادية الفرنسية ، لأن ترسيخها في نظر دلكاسيه يشق الطريق للحماية بـ « تغلغل سلمي » . واهتم شنايدر السياسي والمنشئ معامل كروزو مع أخيه ، بمشاريع بناء خطوط حديدية وبنك باريس والبلاد المنخفضة بإمكانات قروض من جانب « الخزينة الشريفية » دون الكلام عن طلبات أخرى صغيرة تعود لأهواء عبد العزيز ، أو توقعات استغلال منجمي . ودفعت الحكومة الفرنسية مشاريع شنايدر وكل الصناعة الثقيلة الفرنسية المجمعة في شركة مراكشية . وتفاوضت مع إيطاليا ، وإسبانيا وبريطانيا العظمى لئلا تهتم بالأمر (١٩٠٢ ـ ١٩٠٤) وسمت الكولونيل ليوتي على رأس قسم العين الصفراء (١٩٠٤) لتأمين الشرطة على الحدود الجزائرية ـ المراكشية . وبفعل الوكيل الفرنسي لدى السلطان ، وهو سن ـ رونيه تيّانديه بدا أن توطيد الحماية بات قريباً . ولكنه مع ذلك أجل عدة سنوات بسبب تدخل ألمانيا المفاجئ الذي أتى بضمانه لاستقلال مراكش وأجبر فرنسا على قبول تقسيم

هـذا البلـد إلى منطقتي نفوذ : فعلى حـدود الجـزائر يسيطر النفـوذ السيـاسي الفرنسي ، وعلى المنطقة السـاحليـة تقوم قوة شرطـة مراكشيـة يقودهـا ضبـاط فرنسيون وإسبـان (١٩٠٥) .

وفي الواقع ، ظل النفـوذ الفرنسي يتقـدم في مراكش بفضـل عمليـات الشرطـة التي تعددت في السنوات التالية ، وبسبب السياسة الأصيلة أيضاً المستوحاة من الجنرال ليوتي الـذي كان آمراً في وهران من ١٩٠٧ إلى ١٩١١ . وكانت الفكرة المركـزيـة هي أنـه يجب دعم واصلاح مراكش من الداخل ، لا القيام بفتح عسكري ، خشية المخاطرة بإثارة أزمـة دولية جديدة ، وتألب القبائل المراكشية على الفرنسيين . وكان الخط الجديد للسيـاسـة الفرنسية الاستعمارية تعزيز أو توطيد جديد لسلطة السلطـان بشكل يتماشى وقـابليـات ودية حيـال فرنسـا على نقيض السيـاسـة التي كانت متبعـة في الجزائر وفي تونس . ففي عهد السلطان عبد العزيز ، ثم بعد ١٩٠٩ في عهد مولاي حفيظ نظم معلمون عسكريون فرنسيون الجيش الشريفي ، وسـاعـد إداريون عسكريون فرنسيون المخزن على تـوطيـد سلطته على القبائل في المناطق التي هدئت في بادئ الأمر ـ وهـذا الخضوع عمل لحسـاب السلطان لا لحساب فرنسا . وبدا أن الألمان وافقوا فرنسـا على هـذه السيـاسـة ، مقـابل تنظيم نـوع من حكم مشترك ثنـائي اقتصـادي على مراكش (١٩٠٩) . ولكن هـذا المشروع أخفق ، وفي ١٩١١ فسدت العلاقات الفرنسية ـ الألمانية من جديد عندمـا جـاء الجنرال موانيه وفـك الحصـار عن فـاس حيث حـاصرت القبـائل الثـائرة السلطـان وفي الوقت نفسه بعثة الجنرال مانجن العسكرية ، ولا سيما عندما لاحظ الألمـان أن العسـاكر الفرنسية بقيت في فاس عندما انتهت العمليات : غير أن العاصمة المراكشية كانت واقعـة خارج المنطقة التي تمارس فيها فرنسا حق الشرطـة منـذ ١٩٠٥ . و « ضربـة أغـادير » ، حيث نزلت الدارعة الألمانية « النمر » ، مهددة اتبعت مع ذلك بمسـاومـة خولت الألمـان تعـويضـات في إفريقيـة الاستـوائيـة وتركت للفرنسيين مطلـق الأيـدي في مراكش . وهكذا استطاع ليوتي أن يتوج بمعاهدة الحماية في ٣٠ آذار ١٩١٢ ، السيـاسـة التي دشنت

في السنوات السابقة : وهي أن يتعهد السلطان بأن ينفذ بمراسيم (أظاهير) كل الإصلاحات التي تراها الحكومة الفرنسية ضرورية ؛ ولكن المقيم العام الفرنسي الذي وضع لدى سلطان مراكش ، لا يعمل سوى أن يصادق عليها ويعلنها . وهكذا أوضحت الحماية المراكشية ، وعلى الأقل في فكر ليوتي ، ما يفصلها عن الحماية التونسية : هذا ويجب الحذر من نزعات الجهاز الفرنسي إلى التمثل ، وإلى الإدارة المباشرة التي كان يزعمها المستعمرون . لقد كان معجباً بالملكية المشيئية (التيؤقراطية) عند العلويين ، ويحترم سلطة كبار الإقطاعيين الذين يرغبون بالحفاظ على النبل ، والتمييز الطبيعي الذي كشف عنه في الشعب المراكشي وفي ثقافته ، وعبر في عدة تقارير عن مفهومه لحماية تقوم بالتحديث الضروري مع احترام التقاليد :

« إن مفهوم الحماية هو مفهوم بلد يحافظ على نظمه (مؤسساته) ويحكم نفسه ويدير نفسه بأعضائه الخاصين تحت رقابة بسيطة من دولة أوربية تنوب عنه لأجل التمثيل الخارجي ، وتأخذ على العموم إدارة جيشه ، وماليته ، وتوجهه في تنميته الاقتصادية . إن ما يسيطر على هذا المفهوم ويميزه هو الصيغة « إشراف » المناقضة لصيغة « إدارة مباشرة » (٣ كانون الأول ١٩٢٠) « إن مصدر كل سلطة هو عند السلطان ... ويتشرف المقيم ... بأن يكون أول خادم للسلطان » (١٩١٨) .

على أن ليوتي لم ينجح قطعاً في فرض وجهات نظره التي تحتمل مع ذلك الكثير من التناقضات وتخطئ دون شك بإفراط الآراء الشخصية . ولكن كرمها ربما كان من طبيعة أن يقدم للإمبريالية الأوربية صورة من الصور الأكثر احتراماً للبلاد المستعمَرة ، ويمكن أن يفكر بأن تبنيها قد يؤثر في اتجاه معتدل على النمو اللاحق للقومية (الوطنية) المراكشية . ونظراً لأن مذهب ليوتي لم يكن ممثلاً للتقليد السياسي الفرنسي ، لذلك ظل مع الأسف حرفاً ميتاً : وهذا يعني خيانة للشخصية التاريخية ، على كل حال ، إذا صف ببساطة في عداد الضباط الذين قاموا بالفتح ، عندما ألف الإداري ورجل الدولة منه البعد الحقيقي .

٢ - إفريقية في جنوب الصحراء

حتى آخر القرن التاسع عشر بقيت إفريقيا السوداء أكثر القارات عزلة وأقلها تغلغلاً . إن ثلاثة محيطات تطوق هذه الجزيرة الكبرى بحضارتها المتخلفة : الأطلسي ، والهندي ، والصحراوي . وهذا الأخير المثلم بأساطيل القوافل ، ينقل زخم فتوحات الإسلام ويؤمن الارتباط مع عالم البحر المتوسط . ومنذ أعلى العصر الوسيط استقبلت الشواطئ الشرقية زيارة التجارة العربية ؛ ومنذ القرن الخامس عشر كانت التجارة الأوربية حاضرة على الشواطئ الغربية . ولكن الأوربيين ، حتى القرن التاسع عشر ، لم يهتموا إلا بأخذ الرجال والبضائع على الشواطئ نفسها ، دون التفكير بالتقدم نحو داخل القارة التي يفصلهم عنه حاجز مزدوج : حاجز العوائق الجغرافية ، وحاجز قبائل الساحل التي كانت تلعب دور الوسطاء . وعلى عمق بضع مئات من الكيلومترات ، كانت جماهير القارة تحيا في السر حياة بائسة . والإمبراطوريات القديمة تنازع فيها . وإمبراطوريات أخرى تنهض فيها بفضل الفتوحات المؤقتة التي تنشط حركة الهجرات القبلية وتضيف إلى عدم الاستقرار الطبيعي اضطراب أنواع حياة الأطر الأرضية التي تتعدل دون انقطاع . فمن الوكالات الغينية (في غينيا) حتى قلب السودان والكونغو تقدم إفريقيا صورة جسد فقير الدم بعثر الرق جوهره من أمريكا الشمالية حتى ماليزيا ، وكان فريسة لا حراك فيها لأجل الفاتحين من الخارج كما للمغامرين من الداخل ، مجتمعات أضناها الجفاف والأوبئة والحروب الداخلية .

وفي القرن التاسع عشر ، لامست إفريقية قاع السقوط والانحطاط . وسكانها الذين لم يكن عندهم الجرأة ولا وسائل الانطلاق لاكتشاف العالم ، يرون عندهم نزول كل شعوب أوربة ، الطلعة إلى المغامرات والجشعة للتقسيم . حتى إن إفريقيا بكاملها تقطعت وخضعت ، ولكنها في الوقت نفسه أخذت حظها من استغراب ، وإن كان سطحياً ، أوصل إليها في القرن التالي الطاقة الضرورية لتحريرها ولبداية تطور اقتصادي واجتماعي وفكري .

سكان المناطق الساحلية :

في الأمكنة ، التي لا يضع فيها التضريس وخط العرض ببعده عن خط الاستواء ، الإقامة البشرية ، كما في غينية أو في الغابون ، عائقاً من النباتات القوية التي تتشكل في الغابات ، تنتظم دول بتلاحم سياسي ودرجة حضارة مختلفين جداً . فحول مصب السنغال توجد قبائل أسلمت منذ زمن طويل انطلاقاً من مراكش ، مثل قبيلة التوكولور ، التي كانت مراكز لإصلاح ديني ونقاط انطلاق في القرن التاسع عشر لمحاولات جريئة للتجمع السياسي : في سيراليون وجدت قبائل التمنه التي تكتلكت منذ بداية القرن السابع عشر وتخلست موضعياً بالقرصان الأوربيين المغامرين . وفي جنوب نيجيريا الحالية كانت في حالة أفول دول اليوروبا وبنين التي شعت حضارتها نحو الشرق حتى على الكمرون ، ونحو الغرب حتى على الداهومي وساحل الذهب ، حيث نمت بشكل دقيق أقوى نوى المقاومة : الإمبراطورية الداهومية التي مهرها غهيزو (١٨١٨ ـ ١٨٥٨) بجيش قوي (شهير بكتائبه من الأمازون = النساء المحاربات) ؛ وكونفدراسيون الأشانتي الذي تشكل منذ ١٦٩٩ حول كوماسّي . ورئيسه الأعلى « الآسانتيهين » ، يحاول عبر القرن التاسع عشر كله أن يخضع سكان السواحل ، فانتي الذين يحميهم الإنكليز ، وقاتل هؤلاء عدة مرات (في ١٨٢٤ أخذ الضابط البريطاني شارل ماك كارثي وقطع رأسه وسيزين رأسه حتى آخر الاستقلال الآشانتي أكبر طبل حربي للملك) . وإذا قطع غور خليج غينية لا نجد إلا أطلال مملكة الكونغو الكاثوليكية التي نظمت قديماً حول سان سالفادور ، وإلى أبعد من ذلك الرحل البدائيين وغير المنظمين وهم الهيريرو ، الهوتنتو والبوشيمان بقايا أقدم شعوب إفريقية (الزنوج السالفون) . والساحل الإفريقي ـ الجنوبي كان خالياً جداً من التنظيم السياسي ومن الاستيطان واستطاع الهولانديون أن يقيموا فيه دون حرج بعشرات الألوف . وعلى الساحل الشرقي لإفريقية توجد سلطنة زنجبار . وكانت دولة عربية يقيم أميرها في مسقط ، في شبه جزيرة العرب حتى عام ١٨٣٢ ؛ وكان السيد (الأمير)

يضم على أي حال ، في تبعيته عدداً من شعوب البانتو على جبهة ساحلية من عدة مئات الكيلومترات ، وكان نفسه محمياً من إنكلترا .

من رق الزنوج إلى رق المحاصيل المدارية : نهاية نظام

منذ إقلاع الأرقاء الأوائل الأفارقة إلى أمريكا ، في بداية القرن السادس عشر . قضى اقتصاد استعمال الرق تعاوناً مؤسساً فقط على المصلحة المشتركة ، بين التجارة الأوربية التي تعلقت بالساحل على يد عدد من المكاتب ، ودول المنطقة الساحلية التي كان رؤساؤها مباشرة أو بواسطة التجار ، يحققون ربحاً من الغارات ضد سكان ظهير البلد والمفاوضة بأسرهم مقابل المنتجات الصناعية والأسلحة الأوربية .

وهذا النظام مالبث أن تخرب إثر استغلال لا يقدر . ومنذ آخر القرن السابع عشر ، ظلت مواقع الرق تنتقل من الشواطئ السنغالية والغينية نحو شواطئ الكونغو والأنغولا . وفي منتصف القرن الثامن عشر يئست شركة الهند الفرنسية من محصول الرق الزنجي السنغالي ، وتخلت عنه إلى شركات خاصة من نانت ، وفضلت أن تقتصر على التعامل بالصمغ العربي الذي كانت السنغال تجهزه وحدها وتستهلك صناعة المنسوجات الأوربية منه كميات متزايدة . وهذا يوضح المصلحة التي كانت تعلقها فرنسا في الحفاظ على السنغال ، في ١٧٦٣ كما في ١٨١٥ . وفي الوقت نفسه ، كان اليوروبا يجهزون البرتغاليين بالأرقاء ، وقضوا على السكان المجاورين ، وفر الباقون منهم أحياءً في الجبال والغابات . واقتصروا على بيع أعضاء الطبقات الدنيا كأرقاء . وأصبح ظهير البلاد منطقة محايدة (لا يد لأحد عليها) ، وامتلأت في القرن التاسع عشر بهجرات فاتحة آتية من داخل إفريقية . وعندئذ انتقلت الأنغولا إلى الصف الأول من المجهزين . فنحو ١٨٢٦ يقدر تقريباً نحو ثلاثة ملايين عدد الأرقاء الذين أرسلوا من الأنغولا إلى البرازيل .

وفي آخر القرن الثامن عشر وفي بداية القرن التاسع عشر ، كانت الأزمة في اقتصاد ترسيخ الرق في المستعمرات الأميركية لفرنسا وإنكلترا التي شككت في مبدأ التعامل بالرق . إن استقلال سان ـ دومينغ ، الذي اكتسب بنخبة صغيرة من المتحررين والعبيد الذين أعطوا التعليم البدائي خلص من الصعيد الاستعماري الفرنسي أكبر جزر الآنتيل . وبعد أن أفادت جامايكا من نقص السكر على السوق العالمي بسبب الثورة الدومينيكية ، وقعت عشية الحصار القاري في أزمة زيادة إنتاج ونضوب الأراضي الذي أفلس ربع المزارعين . وفي سياق النصف الأول من القرن التاسع عشر ، شكك نمو زراعة الشمندر في أوربة بضرورة إنتاج السكر الاستعماري ، مهما كلف الأمر ، والذي يحصل عليه في ظروف مردود آخذ بالضعف . وفكرت الرأسمالية الأوربية الآن في استغلال موارد إفريقية حيث هي في مكانها وبواسطة يدها العاملة الزهيدة السعر ، وهذا ينفي تصديرها : وهكذا حول الإنكليز في مزارعهم في فرناندو پو ، قاعدة الاسترقاق السابقة ، الأرقاء إلى مأجورين بعد أن كان يقبض عليهم على السفن الزنجية التي تنقل الزنوج وتبيعهم في أمريكا .

وفي الوقت نفسه كانت تجارة الرق والاسترقاق موضوع هجوم كبير من النزعة الإنسانية الدينية والعلمانية معاً في إنكلترا التي أثرت فيها « اليقظة الأصولية » . ومنذ ١٧٧٢ لم يستطع تألب المزارعين والتجار تجنب إلغاء الرق في بريطانيا ـ العظمى نفسها . وفي ١٧٨٧ ، كان إنشاء مستعمرة للزنوج الأميركيين المتحررين في سيراليون ، يبشر بسياسة جديدة للحكومة البريطانية ، التي ضغط عليها الرأي : وهكذا منذ الآن فصاعداً أخذت التجارة الحرة للبضائع تجري مع إفريقية ، وهذه العلاقات السلمية والمطابقة للأخلاق المسيحية يمكنها أن تكون وسيلة لتبشير واستغراب الأفارقة . ودوماً في ١٧٨٧ جعلت « جمعية إلغاء تجارة الرق » هدفها أن تحصل في البرلمان على تصويت على القانون الذي يلغي التجارة بالسود ؛ وتوصلت إلى أهدافها في ١٨٠٧ . وفي الوقت نفسه ، عددت الفرق إنشاء جمعيات إرساليات ، ومنها **جمعية التبشير اللندنية**

(١٧٩٥) التي بقيت ولا شك أكثر شهرة من غيرها . وكانت الجمعية الجغرافية تمول رحلات الاكتشاف الأولى في داخل القارة . وفي ١٨١٥ ضمت الحكومة الإنكليزية إلى القرار النهائي لمؤتمر فينا إعلاناً غامضاً جداً يدع مجالاً للتنبؤ في تنظيم نضال ضد تجارة الرق على الصعيد الدولي . وتوبع عمل الملغين للرق حتى ١٨٣٣ وهو التاريخ الذي حصلوا فيه على حذف الرق في المستعمرات البريطانية ، وامتد حتى إلى ما بعد هذا النصر لأنه لزم خلال أكثر من نصف قرن حثّ الحكومة دون انقطاع التي بدت جهودها عاجزة عن إزالة تجارة الرق في الواقع .

والقضية كانت كما يلي :

لقد كان عمل الإنسانيين يتناقض مع مصالح دول القارة الأميركية ، كما يتناقض أيضاً مع دول الشعوب الإفريقية . وكان عليه أن ينتظر ، ليظفر بحق (وليس فقط في برلمان لندن) تطور البنيات الاقتصادية والسياسية والذهنية على جانبي الأطلسي . أما في أمريكاالنصف الأول من القرن التاسع عشر فقد عرف اقتصاد ترسيخ الرق كسباً من القوة وتفتحاً نهائياً وبالتالي صلب وقوى تجارة الرق . فقد أنمت دول جنوب الولايات المتحدة بشكل عجيب إنتاجها في القطن في إطار ترسيخ الرقيق ، والرق لم يلغ فيها إلا في ١٨٦٢ـ١٨٦٥ . وأطلقت كوبا والبرازيل في الواقع الاقتصاد السكري ، لأن توسع زراعة الشمندر السكري في أوربة لم يكن إلا تدريجياً ، على حين أن استهلاك هذا النتاج الشعبي كثيراً في القرن التاسع عشر أوجد طلباً متزايداً . وإسبانيا لم تلغ الرق في مستعمرتها إلا في ١٨٦٦ ؛ وقررت البرتغال الإلغاء في ١٨٧٨ ، ولكن البرازيل المستقلة منذ ١٨٢٦ ، لم تلغه إلا في ١٨٨٨ . وأيضاً إنكلترا التي جعلتها قوتها البحرية بالضرورة أول مسؤول عن قمع تجارة الرق ، لم تلق لدى حكومات أوربة وأمريكا إلا اللامبالاة أو العداء . فإسبانيا والبرتغال طلبتا رسماً غالياً على تفتيش سفنهما ، أولاً في شمال خط الاستواء ، ثم في جنوبه ، وذلك بسبب وضع الأنغولا . وانتظرتا طويلاً أيضاً حتى قبلتا الحجز على السفن الفارغة ، ولكن تجهيزها بـ (جسور ، صالونات نوم ، حديد ،

مواد غذائية) يكشف عن استعمالها بالبداهة . ولكن البرازيل استمرت في تجارة الرق تحت رايتها ، وتوصل الإنكليز إلى القبض بقوة على سفنها . واطرحت الولايات المتحدة في ١٨٢٤ حق التفتيش المشترك وأعلنت أنها ستضع بنفسها شرطتها الخاصة ؛ ولا شك أن دول الجنوب كانت تستورد القليل بما يكفي من الأرقاء الذين تعهدت بعض الدول بتجهيزهم بفضل نوع من التربية ؛ ولكن دول الشمال غنيت بإنشاء سفن التجارة بالرق التي كانت تبيعها إلى الكوبيين الذين تركتهم يقاتلون علم الاتحاد ، ولم يكن لهم علاقة بالسفن الحربية الاتحادية . وفرنسا نفسها لم تتعاون مع إنكلترا إلا في أدوار قصيرة من الانفراج في علاقاتها الدبلوماسية . والمحاكم الخاصة التي أقامها الإنكليز لم يكن منها في آخر الأمر إلا الحكم في عدد صغير من الشؤون التي كانت تخشى انعكاساتها الدولية . وسفن التجارة بالعبيد ، التي أنشئت حسب نماذج قوية وحديثة توصلت في الغالب إلى أن تسبق سفن الرقابة . والإنكليز لم يكشفوا ، ولم يحرقوا كل الحصون الصغيرة التي كانت تفيد قاعدة للتجار على الساحل الإفريقي . والأفضل أنهم توصلوا إلى تحرير بضعة ألوف من السود في العام . وعليه يقدر في السنوات ١٨٢٥ـ١٨٣٥ أن تجارة الرق قدمت من ١٢٥ إلى ١٣٥٠٠٠ فرداً، وهذه الأرقام لم يتوصل إليها في القرن الثامن عشر . وبعد ١٨٤٠ . عندما أصبحت الرقابة شديدة ظلت تنقل عشرات الألوف من الأرقاء في العام . ومادام المنفذ الذي تنجو رقابته من الإنكليز ، لم يغلق ، فإن تجارة الرق السرية ، وتهريب الزنوج قائمان . والحادث الحاسم كان في هذا الاعتبار « الحرب المدنية » التي قرر خلالها الرئيس إبراهام لنكولن في (١٨٦٢) إلغاء الرق والتعاون مع بريطانيا العظمى (بموجب معاهدة واشنطون) .

ولكن المجهزين الأفارقة لم يكن تمسكهم في تجارة الرق أقل من غيرهم . لأن الأرقاء بالنسبة للشعوب الإفريقية كانوا يؤلفون عملة (نقد) التبادل الذي لا غنى عنه لكسب المنتجات الأوربية التي تذوقوها منذ قرون : كحول ، تبغ ، منسوجات ، أسلحة ، تحف صغيرة مصنوعة من الزجاج ، أو أدوات نحاسية ، وكانت البنادق ،

والبارود قوة أساسية لزعماء القبائل . والقبائل الساحلية ما كانت تعيش إلا من سمسرة التجارة بالرق الأسود . وقوة المصالح المحلية ، في الانطلاق كما في الوصول ، توضح التواطؤ الذي تفيد منه تجارة الرق السرية . فقد سمح ملك داهومي على هذا النحو بالإقامة في ودّاه ، وفي كوتونو لكبار الرأسماليين البرازيليين ، مثل فرنشيسكو دو سوزا أو خوسيه دومينغو مارتينيز ، الذين كانوا يستقبلون المشترين في قصور محصنة حيث يعيشون سادة مطلقين ويتخذون أوضاع رجال سلطة محترمين من الجميع - سود وأوربيين - ولتنجح سياسة « التجارة الأخلاقية » البريطانية ، كان من الوهم الاعتماد على الإقناع فحسب : فمن ذلك معاهدات أبرمت بأسعار ذهبية مع مليكات أفارقة ، وتبشير الإرساليات ... وكان من المهم لحد كبير أن يعوض عن الرقيق بنتاج أو محصول واسع الطلب : وعندئذ فقط تعمل المبادلات بشكل طبيعي على أساس « سليم » . ونحو ١٨٣٠ ، أمكن التوجه نحو هذه التجارة الجديدة والأساسية بنمو عظيم للحاجات الأوربية ، وبخاصة من إنكلترا ، بالزيوت لأجل الآلات ، وبالدهنيات لأجل مصانع الصابون ، وبحمض الشحم لأجل الشموع أو بالزيوت من أجل الإضاءة . وكانت المواد الزيتية المدارية في شاطئ غينية ، وزيت البلح ، أو زيت الفول السوداني تأتي في وقتها لتنوب مناب الزيوت النباتية من أوربة المتوسطية . ومنذ الآن فصاعداً . كان تجار النشاطات « المحضة » ينطلقون بسهولة في منافسة النشاطات المريبة في تجارة العبيد . وعلى شاطئ إفريقية الشرقي ، عرفت تجارة الرق في الوقت نفسه تطوراً مشابهاً . إن سلطة زنجبار ، التي مصدرها غناها الأساسي كان تصدير رق ظهير البلاد في كل المحيط الهندي ، قبلت أن تضيق بالتدريج تجارة الرق لصالح تجارة القرنفل الذي كانت زراعته قد أدخلت حديثاً . ولم يكن هذا إلا بداية لعملية تقييم لإفريقية في أعين الأوربيين : لأن سلم المنتجات المدارية أو المعدنية ، التي كانت قادرة على تجهيزه لهم بكميات كبيرة ، غني بسرعة .

إمبراطوريات الداخل :

إن الصعوبات التي اصطدم بها الأوربيون في قمع تجارة الرق كما في تجارة مواد البدل ، وإرادتهم في إدخال المسيحية والحضارة الغربية في إفريقية ، قادتهم بالضرورة إلى التماس مع داخل القارة . ولم يكن القصد بعد إلا مكتشفين ومبشرين وتجاراً : إلا أنه يرى في النصف الثاني من القرن التاسع عشر أن الدول الاستعمارية تتخلى عن طوبائية السيطرة السلمية ، الاقتصادية والروحية المحضة على الشعوب السوداء لتنطلق في الفتح العسكري والتقسيم الأرضي . وكان أحد عناصر هذا التغير في الموقف ، على وجه الدقة ، كشف البنيات السياسية لإفريقيا الداخلية المتفاوتة في تجانسها ، ولكنها مسلحة بما يكفي لإجبار الأوربيين على حملات حقيقية . فعلى السنغال الأوسط ، والنيجر الأدنى والبينوية ، حول البحيرات الكبرى في إفريقية الاستوائية ، أخفق الإنكليز والفرنسيون في جهودهم للصعود بالتجارة والتبشير .

وفي بداية القرن التاسع عشر ، كان معظم الإمبراطوريات الناشئة ، بين نهاية العصر القديم في أوربة وبداية عصرنا الحديث ، قد زالت أو أنها تقلصت أو تفتتت . وحروب الاسترقاق المرتبطة بتجارة رق الزنوج ، التي امتدت حتى قلب إفريقية ، كان منها أن أفرغتها جزئياً من قواها . والزخم المتقطع للإسلام عرضها على يد الزعماء الدينيين لفتح العساكر المتعصبة ، وإلى التفتت الداخلي عندما دمر الدين الجديد عند الرعايا المهتدية أي التي غيرت دينها ، مع دين عبادة الأرواح في الأجسام الحية ، قواعد الطاعة للزعماء التقليديين . وأخيراً إن هذه الإمبراطوريات كانت تنقصها الوسائل المادية الضرورية لإدارة مجموعات واسعة سياسية ، وتنظيم بوروقراطي (مكتبي) كافٍ ، وتشكو من المعارضة بين السلطة المركزية ، والسواسية بين القبائل .

وفي المنطقة السودانية ، منطقة الفصول المتعاقبة والساڤانات (السباسب ذات الأعشاب) ، وسط طبيعي منتقى للإمبراطوريات الكبرى . وغانا ومالي

والسـونغهـاي ، التي كانت في القـديم سـادات حـوضي السنغـال والنيجر ، ليست إلا ذكريات ـ ولكنها ذات جاه كبير : وبعد الاستقلال ألم تأخذ الدول الناشئة الإفريقيـة أسماءها السابقة ؟ إلا واحدة في السودان الأوسط ، دولة كانم ـ بورنو ، التي تـأسست في القرن الحادي عشر وحافظت حتى ١٨٩٣ على وجـاهـة ممـاثلـة . ودولـة واداي زالت في ١٩٠٩ . وبين هـاتين الـدولتين ، عـاشت دولـة البـاغيرمي بعنـاء حتى ١٨٩٧ ، والثلاث دول تمارس صيد العبيد ، وتوجه ضد القبائل غير المنظمة على جانبها الجنوبي (ولا سيما على هضبـة بـاووشي) حمـلات عسكريـة حقيقيـة ؛ وكان الأسر يغـذي تجـارة الرق في الشرق العربي كله . وبالإضافـة إلى ذلـك تجـارة قوافل تنقل نحو البحر المتوسط العـاج وريش النعـام . وفي السودان الشرقي ، مملكـة سنّـار ، حول الخرطـوم ، تشتري العبيـد المقترحين من قبـل أمراء منطقـة تشـاد ، وتـأسر آخرين في منطقتي شـاري ولاسنغـا ، وتصـدرهم بـواسطـة مـوانئ البحر الأحمر نحـو اليمن ، والحجـاز ، والهنـد الإسـلاميـة ، وماليزيا . وأخيراً على هضاب الحبشـة العليـا ، خرجت المملكـة الآثيوبيـة القـديمـة في النصف الثـاني من القرن التـاسع عشر من دور فوضى ، تحت حكم تيـوُدوروس الثـاني ، وجان الرابع ، ومينيليك ؛ وكونت لنفسها شهرة حتى على القـارات الأخرى بمقـاومتهـا لتغلغل الإسلام وضغط مصر وعدوان إيطاليا معاً .

ولا شيء من هـذا في إفريقيـة الوسطى والجنوبيـة . ففي ١٨٧١ اكتشف المكتشف الألماني راوخ في روديزيا الجنوبية أطلال زمبابويه الفخمة بأسوارها العالية وأبراجهـا : وهذا شاهد على حضارة من أعظم الحضارات البراقة اللامعة الإفريقية . ولكنهـا مـاتت في القرن الثـامن عشر وهي حضـارة إمبراطوريـة مونـومـوتـاپـا التي بسطت في أوجهـا نفوذها من الأنغولا وكاتانغا إلى موزامبيك . وكانت تصدر بواسطة سوفالا بضعـة ألوف من كيلوغرامـات الـذهب في العـام . وقـد دخلت مونومـوتـاپـا على صلـة مـع الهنـد . وأنـدونيسيـا والصين بـواسطـة التجـارة العربيـة ، ثم البرتغـاليـة ؛ ووجـد على شـاطئ تـانغـانيكا كثير من البورسولين والعملات الصينيـة . وكشفت حفريـات روديزيـا عن

عناصر لحضارة مادية غير مقتبسة . ولا شك أنها وحيدة على القارة قبل مجيء الأوربيين . وبالمقابل وجد ستانلي في ١٨٧٥ في أوغاندا مملكة متمدنة بصورة عالية : فقد كان السادة فيها يقرؤون ويكتبون اللغة العربية ، وتحت تصرفهم جيش قوي ، ويحكمون حسب بعض القواعد الدستورية .

الإمبراطوريات الجديدة السوداء

في القرن التاسع عشر :

ومع ذلك فإن القرن التاسع عشر مطبوع بتجمعات جديدة يجب وضعها على علاقة تارة مع اليقظة الإسلامية التي هزت شمال القارة وتارة مع رد فعل دفاع الشعوب السوداء الواعية لتقدم التغلغل الأوربي . وفي السودان الغربي ، انتعش الفكر الطهراني للحرب المقدسة في ١٨٠٥ بين البول ، وهم شعب خلاسي ونصف ـ بدوي منتشر عبر السودان . وكان أولاً حول سوكوتو ، مملكة المرابط عثمان دان فوديو ؛ ثم مملكة أحمدو لوبو على النيجر الأوسط ؛ وأخيراً وبخاصة مملكة الحاج عمر التي أخضعت ، بين ١٨٥٠ و ١٨٦٠ ، كل منطقة سنغال ـ نيجر ، من قفا فوتا ـ جالون حتى تومبوكتو . وحاصره فيدرب ، كبير زعماء الاستعماريين الفرنسيين ، من جهة السنغال الأدنى ، ولكن عمر هذا عوض خسائره على حساب الشعوب الإفريقية التي تخلت عن عبادة الأرواح واعتنقت الإسلام .

وفي السودان الشرقي ، كانت مصر أداة هذا الزخم الإسلامي . فقد ضم محمد على سنّار وكوردوفان في ١٨٢٠ ، وإسماعيل الدرفور ١٨٧٤ . وحرم إسماعيل تجارة الرق في ١٨٧٥ ، ولاحق التجار على يد عساكر غوردن باشا ؛ والتجأت عصاباتهم المسلحة في غرب بحر الغزال ، وكان هذا في أصل إمبراطورية رباح الحربية الذي ظل خلال عشرين عاماً يخرب المنطقة الواقعة بين أوبانغي وتشاد . وكابدت سلطنات هذه

المنطقة العذاب من ذلك ؛ وبادت قبائل بكاملها . وفي ١٩٠٠ لزم تجمع ثلاثة صفوف متطاولة فرنسية لسحق رباح في معركة كوسّيري .

وفي إفريقية الجنوبية يرى أن صدام هجرات الباتنو نحو الجنوب مع تغلغل البور الصاعدين نحو الشمال ، يحتم جهداً لتنظيم الشعوب السوداء في اتحادات قبلية ، إن لم يكن في دول أو في إمبراطوريات . والمحاولة العظيمة كانت محاولة زعيم زولو واسمه ، تشاكا ولقبه « نابوليون الأسود » . فمن ١٨١٠ إلى ١٨٢٨ عسكر قبيلته والقبائل المجاورة ، بالقوة ، وبسط في أجمل أيامه ، سلطته على المناطق الحالية : الناتال ، الأورانج ، الترنسفال وموزامبيك . وفرض خدمة عسكرية على الرجال من ١٦ إلى ٦٠ عاماً ، وسلحهم بأدوات رماية ومجنات ، وعلمهم الهجوم بصفوف متراصة ، والمناورات المفاجئة ، وغذاهم باللحوم ، وجعل من الزواج مكافأة الخدمات الحربية . وعلى مثال الزولو ، وضدهم ، انتظمت قبائل أخرى : الماتابيليه تحت حكم مسيليكازي ؛ والبازوتو في عهد موشيس الملقب « بسمارك الإفريقي » لأنه وحد قبائل الكافر والبيتشوانا ضد الزولو ؛ والبتشوانا ؛ السوازي ، والباروتسيه ، إلخ ... والمصير النهائي لهذه التجمعات سيكون مع ذلك دوماً الانتقال تحت الحماية البريطانية في النصف الثاني من القرن ، للهرب والنجاة من ضغط البور المقيمين في وضع مركزي في وسط السود المدحورين نحو الجبل أو نحو الصحراء . إلا أن الزولو وحدهم تابعوا تحت زعامة سيتّيوايو حتى ١٨٨٤ مضيراً حربياً . والكافر ، أول المتصلين مع مستعمرة الكاپ ، كانوا بالعكس ممتصين عملياً من قبل المستعمرة البريطانية نحو ١٨٥٠ ـ ١٨٦٠ ، بعد مقاومة أضعفها انقسامهم .

ما من واحد من هذه الاتحادات الحربية تجاوز مرحلة التنظيم البدائي ، ولا أفاد كدعم لحضارات أصيلة . وما من دولة من هذه الدول العسكرية استطاعت أن تفخر بروائع مشابهة للأسوار العظيمة لزمبابويه أو إلى الصور الفائقة من برونز وعاج فن بينين . وبالمقابل ، تقدم قارة مدغسكر الصغيرة ، تحت نفس الضغوط الغربية ، للمثال لمقاومة أكثر تجانساً . وسكان الجزيرة الكبرى ، من أصل هندي ـ ماليزي ، تحملوا نفوذ

السلالات الفاتحة من عربية ومستعربة ، جاءت بخاصة من جزر القمر وزنجبار : وأتت إليهم بتقنيات الصناعة المعدنية والأسلحة ، وأشكال تنظيم سياسي عال ، وتقويماً وكتابة ، دون أن تمحي مع ذلك أصالتهم اللغوية أو الدينية . وربما أخذت هذه الخلاسيات بعين الاعتبار تفوق حضارة الجزيرة على حضارة إفريقية .

ومنذ آخر القرن الثامن عشر ، نمت فيها المقاومة ، تجاه طموحات فرنسا وانكلترا المتنافسة . إن قبائل ميرينا المقيمة في الهضاب العالية الوسطى أسست بنفسها مملكة حول تاناناريف وتحت توجيه **أمبوابينا** ، منشئ دولة مزدهرة وجيدة الإدارة . ولعب ابنه راداما الأول بالسيادة البريطانية ضد الفرنسيين الذين أعيدوا ليقيموا في ١٨١٧-١٨١٨ في حصن - دوفن ، تاماتاف وسن - لوي في جزيرة ريؤنيون ، وضد مملكة الساكالاف الغربية التي يدعمها الفرنسيون . وساعده العون البريطاني العسكري على أخذ تاماتاف ثم مقاتلة الساكالاف ، وأخيراً طرد فرنسا من حصن - دوفن . وبالمقابل ، كان عليه أن يعد بالتخلي عن تجارة الرق ويسمح بدخول المبشرين من « جمعية مبشري لندن » الذين ترجع إليهم الكتابة بالحروف اللاتينية لغة جزيرة مدغسكر . وانفتاح الجزيرة كان قصير الأمد . ففي عهد راناڤالونا الأولى أرملة ووارثة راداما الأول (١٨٢٨ - ١٨٦١) طرد المبشرون الإنكليز ، وحرمت ممارسة الدين المسيحي ، وكذلك هجرة اليد العاملة نحو الممتلكات الأجنبية . وفي ١٨٤٥ بدت تظاهرة بحرية إنكليزية - فرنسية أمام تاماتاف وأخفقت ؛ وبقيت رؤوس القتلى معلقة على أوتاد على طول الساحل . وفي ١٨٥٧ طرد رجال الأعمال الفرنسيون وحجزت أملاكهم . ونحو ١٨٦٠ أنجزت راناڤالونا فتح الساحل الغربي ، الذي اكتفى الفرنسيون في عرضه باحتلال الجزر . ومن بعد ، أقامت إنكلترا وفرنسا من جديد علاقات تجارية طبيعية مع مدغسكر بموجب معاهداتي ١٨٦٥ و ١٨٦٨ ، ولكن شريطة احترام استقلالها .

٣ ـ من الاكتشاف إلى الفتح

لم تكن المقاومة المسلحة للشعوب السوداء العائق الوحيد لاستعمار إفريقية . فقد دحرت هذه القارة في بادئ الأمر الأوربي بكثافتها المزبئرة بالسلاسل الجبلية أو الهضاب العليا الساحلية ، وبمناخها الشاق بواقع الحرارة الرطبة في مناطق ما بين المدارين ، وبالبرداء (الملاريا) التي تشترك معه في تسبب البلاء . وفي الحقيقة لقد حصل تقدم حاسم عندما عين الفرنسيان بللوتيه وكافانتو (في ١٨٢٠) المستحضرات الصيدلانية من الكينا ، ولكن الإنكليز ظلوا زمناً طويلاً أوفياء من جانبهم إلى وصفات قديمة قليلة التأثير . ولم يكن ذلك إلا بثمن « عصر بطولي » مات فيه العديد من المكتشفين قبل عودتهم بسبب عائق الجهل بالجغرافيا ؛ وهناك جهل آخر على صعيد علم الأقوام (أثنولوجيا) ، وعلم الاجتماع ، وآليات الوسط الطبيعي لم تحذف إلا في وقت متأخر بفضل الإقامة الطويلة للمبشرين ، والإداريين وبإيجاد مؤسسات علمية . وإذا كانت معرفة ظهير البلاد لا غنى عنها ، فإنها لم تكن كافية على الإطلاق لسحب العبور والمرور والانتقال إلى مرحلة الفتح والاستعمار : وباستثناء ، على سبيل المثال ، الثروة المعدنية في الهضاب العالية في كاتانغا وفي روديزيا الشمالية) نرى أن داخل إفريقية لا يبدو أنه يقدم منفعة كافية لتتصور الحكومات الأوربية طوعاً النفقات الضرورية الجسيمة لإخضاع ، وإدارة ، واستصلاح واستغلال الأراضي الواسعة والصعبة غالباً ، والضعيفة الكثافة بالسكان . إن الحاجة الكثيفة للمنتجات الزراعية أو المعدنية التي تقدمها إفريقية ، لم تظهر إلا في بداية القرن العشرين ، في البلاد المصنعة والمتمدنة بشكل عال ؛ والسوق الإفريقي المتلئ قليلاً ويبيع قليلاً ، لا يشتري الصادرات الأوربية . وهكذا كان تقسيم إفريقية متأخراً وفظاً معاً : فقد أجري بسرعة منذ أن بدت هذه النقطة أو تلك فيها تدعو ضرورة النفوذ والتغلغل وتفرض نفسها للحفاظ أو لنمو النشاطات الأوربية على الشاطئ ، أو على صعيد سياسي عام جداً ، لإبقاء بعض التوازن الدولي وحماية المصالح الستراتيجية القاهرة .

الرحلات في قلب إفريقية :

لقد نمت الحركة الكبرى في الاكتشافات من آخر سنوات القرن الثامن عشر حتى نحو ١٨٨٠ ، واختلطت فيها المبادهات الفردية ـ حب اطلاع علمي ، والاهتمام بالكشف الأصولي لمحتويات الكوكب ، والتذوق الإبداعي (الرومانتيكي) للمغامرة ، ودعوة الإلهام الرباني للمبشرين ؛ وعمل الجمعيات ذات الأفراد القليلي العدد ، ولكنهم منتخبون ، مثل « **الرابطة الإفريقية** » ، والجمعية الملكية الجغرافية في لندن أو الجمعية الجغرافية في باريس ؛ وتدخل الدولة ، الذي حول المكتشف إلى وكيل ممهد للفتح ؛ وظهر غالباً في الآجل متأخراً تحت شكل بعثات عسكرية (فرنسية بخاصة) ورحلات وكلاء شركات ذات ميثاق إنكليزي .

لقد بقي الاكتشاف زمناً طويلاً وقفاً على الأمم القديمة الاستعمارية . فقد قامت البرتغال بالمبادهة في إفريقية الجنوبية والوسطى ، عندما أخافتها إقامة الإنكليز في الكاب (١٧٩٥) من تدخل في ممتلكاتها الساحلية في الغرب (أنغولا) وفي الشرق (موزامبيك) : وكان ذلك في رحلة لاسردا على الزامبيز وحتى بحيرة موئيرو (١٧٩٦-١٧٩٨) . وفي الوقت نفسه بدأ اكتشاف حوض النيجر ومنطقة السودان الوسطى : كان ظهير بلاد التجارة بالرق الأسود ؛ ومن ذلك أيضاً الرحلة الأولى للإيكوسّي منغو ـ پارك التي أوصلته من مصب غامبيا حتى سيغو على النيجر (١٧٩٥) . ورحلة ثانية ساقته في ١٨٠٥ حتى شلالات بوسّا ، ولكنه توفي هناك . وإلى هذا النوع من الرحلات ينتمي المشروع الجريء الوحيد الذي قام به رونيه كالليه ، الجندي غير النظامي في الاكتشاف ، الذي استطاع أن يدخل بشكل يدعو للإعجاب في وسط إفريقي ـ مسلم ووصل بهذه الطريقة حتى تومبوكتو (١٨٢٨) انطلاقاً من موريتانيا وعاد أدراجه . واستؤنفت قضية النيجر الأدنى بشكل آخر على يد الإنكليز . فقد انطلق كلابرتون وأدنيه ودينهام من طرابلس الغرب في ١٨٢٢ ورأوا تشاد في ١٨٢٣ ، وأمارات كانو وسوكوتو في شمال ـ شرقي النيجر . ومات كلابرتون في رحلة

ثانية ساعدته بالوصول إلى هذه العواصم نفسها انطلاقاً ، هذه المرة ، من لاغوس ودلتا النيجر (١٨٢٦) ؛ وتمم لاندر أخيراً عمله بالتعرف أصولياً على نهر بين بوسّا والدلتا (١٨٣٠ـ١٨٣١) بينما صعد ليرد في ١٨٣٢ البيونويه . والرحلات الإضافية التي حدثت نحو منتصف القرن، مثل رحلة بيكي في ١٨٥٧ ، لا تخص تماماً الاكتشاف البطولي ؛ فقد جرت بمساعدة الكينيين والسفينة البخارية ، وكان هدفها الواضح توطيد علاقات تجارية في منطقة النخيل الزيتي ، وأقنعت نهائياً الإنكليز بإنهاء التغلغل في السودان بطريق النيجر لا بطريق الصحراء الكبرى .

أما الحملات الألمانية فقد أخذت في النصف الثاني من القرن النيابة عن الاكتشافات الإنكليزية ؛ فمن ١٨٥٠ إلى ١٨٥٦ ، كانت رحلات بارتْ ومساعديه أوڤرويغ وفوغل اللذين أمدتها لندن بالمساعدات المالية ؛ وفيها تما ، انطلاقاً من طرابلس ، معرفة المنطقة المحصورة بين النيجر وتشاد . ومن ثم وجه رولفس وناختيغال (نحو ١٨٦٠ـ١٨٧٥) رحلاتها بشكل دقيق إلى الصحراء الكبرى والسودان الشرقي . وقبل ١٨٥٠ بقليل ، قام الدكتور كرايف ، لحساب « جمعية التبشير المسيحية » باكتشاف منطقة جبال كليمانجارو وكينيا ، انطلاقاً من مومباسا . ولكن المصالح الإنكليزية ، في هذه المنطقة ، كانت متعددة ؛ ومنطقة البحيرات الكبرى ، التي وجه إليها كرايف الانتباه في علاقاته ، بدت تظهر بأنها مركز تجارة العبيد ومنبعاً ممكناً لنهر النيل . وتعددت الاكتشافات الإنكليزية أيضاً حول ١٨٦٠ : فانطلاقاً من ساحل المحيط الهندي ، ساعدت اكتشافات برتون وسبيك (١٨٥٦) وسبيك وغرنت (١٨٦٤) على معرفة بحيرتي تانغانيكا وفكتوريا ، هذه الأخيرة التي تغذي النيل من طرقها الشمالي ؛ واكتشف بيكر بصعود النيل ، في ١٨٦٥ ، بحيرة البيرت وثبت أصل النهر . وإلى الجنوب أكثر ، قام ليفينغستون باجتياز إفريقية الجنوبية ذهاباً وإياباً من لاؤندا إلى مصب نهر زامبيزي (١٨٥٣ـ١٨٥٦) ، ثم برهن على الارتباط بين زامبيز الأدنى وبحيرة بياسّا بواسطة الشيريه . وأيضاً طلبت منه الجمعية الجغرافية الملكية ، في رحلة ثالثة

(١٨٦٦) أن يتحقق ما إذا كان للنيل منبع آخر في منطقة تانغانيكا . وذهب من زنجبار ومات في ١٨٧٣ ، في إيلالا دون الوصول ببعثته حتى النهاية . ومع ليفنغستون انتقل اكتشاف إفريقية إلى اهتمامات الجمهور الكبير : فمن ذلك أن مدير صحيفة « نيويورك هرالد » رأى فيها موضوع خبر في الجريدة لأجل الصحفي الشاب ، ستانلي . فقد أرسله للبحث عن الرحالة الشهير (لحقه فعلاً في ١٨٧١ في أوجيجي) . وأنهى الأميركي المناقشات في منطقة البحيرات الكبرى بجملته في ١٨٧٤ ـ ١٨٧٧ : وأكد حقاً بأن بحيرة فيكتوريا هي الوحيدة التي ينبع منها النيل ، ثم نزل لوالابا (في الكونغو) بعد أن برهن على أن تانغانيكا تصب نحو الأطلسي بواسطة المنخفض الكونغولي المغلق .

وعلى آخر مرحلة الاكتشافات الإفريقية تتفصل مباشرة بداية التقسيمات الكبرى السياسية والأرضية ؛ ويقصد بذلك السنوات اللاحقة لعام ١٨٧٧ والتي وضع فيها ستانلي شخصه في خدمة ملك بلجيكا ليؤبولد الثاني وعمله الاستعماري في حوض الكونغو . كان ليؤبولد ملكاً منذ ١٨٦٥ وكان مغرماً بالاكتشافات والأشغال العامة واستثمارات رؤوس الأموال . وقد أعطته حملة ستانلي الكبرى فكرة الدعوة في بروكسيل ، في ١٨٧٦ ، لمؤتمر دولي في الجغرافيا ، لدراسة وسائل إدخال الحضارة في المنطقة المحصورة بين مصب الكونغو وشاطئ زنجبار : وخرجت عنه الرابطة الدولية الإفريقية التي كانت لجنة دولية ، مع لجان قومية لأجل الاكتشاف والحضارة في إفريقية الوسطى . وفي الواقع ، كان قصد ليؤبولد تغطية مبادهة شخصية (الرأي البلجيكي لم يظهر من جانبه أي حماسة للاستعمار) : وهي : إنشاء دولة إفريقية في حوض الكونغو يصبح سيدها بصفة خاصة . والواقع أنه عهد إلى ستانلي ، خارجاً عن الرابطة الدولية الإفريقية (A.I.A) ، العناية في إنشاء هذه الدولة التي أيقظت حذر إنكلترا التي قلما كانت منجذبة بإفريقية الاستوائية ، وأكثر أيضاً من فرنسا التي عَرَّفت بوادي الأوغويه على يد سافورنيان دوبرازًا (الرحلة الأولى ١٨٧٥ ـ ١٨٧٨) . وهو ضابط هذه البحرية

الفرنسية ، التي كانت منذ ستين عاماً تقوم بدورية من السنغال إلى الغابون واكتسبت من هذه السواحل معرفة عظيمة . ومن ١٨٧٩ إلى ١٨٨١ رحلة ثانية أوصلته بوادي الأوغويه حتى الضفة اليمنى لنهر الكونغو ، بينما على الضفة السرى كان ستانلي يوقع من جهته معاهدات حماية مع زعماء محليين . وهكذا تم المرور ، دون مرحلة انتقالية ، من عصر الرحلات إلى عصر المنافسات الأرضية .

التقسيمات :

في سنوات ١٨٦٠ ، بدأ احتلال الداخل من غرب إفريقية السوداء ، ولكن بشكل معقول جداً ومحدود . أولاً ، بواقع العمل الفرنسي في السنغال . وفي الواقع انطلاقاً من هذه النقطة على الساحل الإفريقي ، دخلت فرنسا ، في زمن فيدرب ، في تغلغل القارة ـ وليس انطلاقاً من نقطة من النقاط الأخرى التي تستند إليها وتملكها على سواحل غينية ، والعاج ، وداهومي أو الغابون . واهتم الزياتون في بوردو أو في مرسيليا بالفول السوداني بينما زياتو ليفربول تعلقوا بزيت النخيل . وكان فيدرب « متطلعاً » نحو السنغال الأعلى والنيجر الأعلى بإمبراطورية الحاج عمر ، وكان دون شك مهتماً بالحفاظ على إمكانية ارتباط صحراوي مع الجزائر ، أي بـ « كتلة فرنسية » . وخلال إقامتيه في (١٨٥٤ ـ ١٨٦١) وفي (١٨٦٣ ـ ١٨٦٧) قاتل الحاج عمر (١٨٥٧) وزين سن ـ لوي ، وأنشأ دكر . ونحو ١٨٨٠ استأنف بورنيي ـ ديبورد النضال ضد ساموري وحقق الارتباط بين النهرين : وتثبت الاتجاه غرب ـ شرق بوضوح للفتح الفرنسي .

أما الإنكليز ، من جانبهم ، فقد أنشؤوا مستعمرتين رسميتين منذ بداية القرن : سيراليون (١٨٠٨) وغامبيه (١٨١٦) ولكن حول ثالثة (ساحل الذهب) ، التي أخذتها الحكومة على عاتقها في ١٨٤٣ وبدأ الاستعمار كنقطة الزيت بالاتساع . فمن ذلك أن الإنكليز ضموا في الواقع في ١٨٧٤ بلاد فانتي ليؤمنوا ضد شعب الاشانتي حماية تجارتهم مع القبائل الساحلية .. ولأجلهم حشروا أنفسهم لمدة قصيرة في التدخل أبعد من ذلك

أيضاً في شؤون الاتحادات القبلية الإفريقية . وفي ١٨٦١ ضموا لاغوس : وعند ذلك الحين حلت الشركات البريطانية شيئاً فشيئاً محل الأصلاء في تجارة زيت النخيل ، وحاولت أن تموّن نفسها مباشرة من مسافات أعظم في داخل حوض النيجر ؛ وفي ١٨٧٩ ، دعمها غولدي في « الشركة الإفريقية المتحدة » . وهذه هي بالنسبة لنهر النيجر نقطة الانطلاق لسياسة إمبريالية : لأن غولدي كان تاجراً ودبلوماسياً وإدارياً ، ودعا إلى تحجيم الرق في إمبراطوريات الداخل ، وإلى تأسيس اقتصاد تجاري جديد بالقوة ، وإلى النضال ضد تقدم النفوذ الفرنسي في الحوض الأوسط والأعلى للنهر . وعلى أدنى النيجر نفسه ، وعلى البينويه سيقلق الوكلاء الفرنسيون الحصر الإنكليزي خلال عدة سنوات .

وأخيراً توترت الحالة في إفريقية الوسطى . وليؤبولد الثاني ـ الرأسمالي لاستغلال بلاد ما وراء البحار يمثل التوظيف المثالي لرؤوس الأموال ـ ويحلم بإعطاء البلجيكا موارد جاوا ، وإذا لم تشأ ، أن يصبح ملك دولة سوداء ، مثل بروك الضابط في الهند الذي أصبح في ١٨٤١ راجا سرواك . وخلفه رؤوس أموال أنفرس وهولاندا . وكان هذا الحين عندما فرضت فرنسا حمايتها على باي تونس ، وعلى ماكوكو ، ملك الباتيكيه ، شعب الكونغو ، وكان أيضاً الحين الذي كان فيه التدخل الإنكليزي في مصر ، وكان أخيراً الحين الذي كانت فيه المطالب الأولى الألمانية على إفريقية المدارية والاستوائية والجنوبية ؛ وأيضاً حين الدعوة إلى برلين لمؤتمر دولي نجح في تأجيل الخلافات . وفرض التحكيم الألماني في المستعمرات كما في أوربة (١٨٨٥) . وهدأت الحمى لحظة : لأن بريطانيا العظمى دافعت إطلاقاً عن نفوذها في منطقة النيجر الأدنى ، وبدا أنها تركت الباقي للنفوذ الفرنسي ؛ وأعلنت حرية التجارة والملاحة مبدئياً على النيجر والكونغو ، وعرفت وحددت شروط الاحتلال الفعلي للأراضي الاستعمارية .

ونحو ١٨٨٥ ـ ١٨٩٥ ، بدا أن السياسات ، المتنافسة فترة ، أخذت تنمو كل واحدة منها حسب خطة أصيلة . فمن ذلك أن الإنكليز تركوا غولدي يعمل ، وشركته « **شركة**

النيجر الملكية » التي أنشئت وجهزت بميثاق ١٨٨٦ ، أنمت بقوة تغلغلها في البلاد يوروبا ، وتتطلع إلى ما وراء منطقة شلالات بوسا وإمارات سوكوتو وكانو . وشدد الفرنسيون ، بالعكس ، ضغطهم العسكري في اتجاه السودان الأوسط : فقد دحر غالليني ثم أرشينارد أحمدو وساموري ؛ وأنشئت مستعمرة فرنسية في السودان حول قيس ؛ وفي السنة نفسها مستعمرة ساحل العاج ، وفي ١٨٩٤ مستعمرة داهومي . وحدد اتفاق فرنسي ـ إنكليزي في عام ١٨٩٠ مختلف المناطق الفرنسية والإنكليزية انطلاقاً من الساحل ، أما الحدود فلم تثبت إلا حتى خط عرض ٩° شمالاً ونحو ١٨٩٤ـ١٨٩٥ دخل الإنكليز والفرنسيون في تماس بين شمال داهومي وشلالات بوسّا ، وعادت الحالة حرجة .

وفي إفريقية الوسطى ـ الشرقية نشأت التوترات تبعاً للمصلحة المباشرة التي يعلقها الإنكليز منذ ١٨٨٢ على مصر . وفي ١٨٩٠ ، فرضوا على الألمان اتفاقاً لإقامة هؤلاء في ظهير زنجبار ، حتى تانغانيكا ـ ولكنهم وطدوا لأنفسهم حمايتهم على زنجبار وعلى كل ما يسمى في التالي كينيا : ويقصد بهذا السيطرة حصراً على بحيرة فيكتوريا ومنابع النيل . وبعد بضعة أشهر ، حصلت إنكلترا على وعد من إيطاليا ، التي حشرت نفسها في المكايد الآثيوبية ، بألا تقترب أبداً من وادي النيل . وفي ١٨٩٤ تم النفوذ على أعلى النيل بالحماية التي فرضت على أوغاندا . وفي الوقت نفسه فكرت فرنسا بحملة تنطلق من برازّافيل عن طريق ألاوبانغي وبحر الغزال ، لتذهب وتتخذ موقعاً على النيل في منطقة تلاقيه مع بحر الغزال ومع النيل الأزرق : لقد كان القصد في الوقت نفسه محاولة توحيد كل المنطقة السودانية تحت العلم الفرنسي ، والضغط على إنكلترا للجلاء عن مصر . وبعد أن أخفقت العملية في البدء ، نجحت على يد الرئيس (الكابتين) مارشان ، من ١٨٩٦ إلى ١٨٩٨ : ولكنها أثارت مقابلة رد بالمثل إنكليزية . ولمنع إقامة الفرنسيين على النيل قام جيش كيتشنو بإعادة فتح أصولي للسودان المصري الذي وجد فيه الإنكليز أنفسهم مجنبين عنه منذ ١٨٨٥ بالثورة السياسية ـ الدينية التي قام بها المهدي

عبدالله . وأخطر من هذه الصفوف المسلحة التي تزحف للقاء أحدهما الآخر ، بمعدل واحد ضد مئة : تصورت الآراء والحكومات ، في فرنسا وفي إنكلترا ، الذهاب حتى الحرب . ففي فرنسا كانت القومية غاضبة بقضية دريفوس . وفي إنكلترا ، كانت الوزارة التي يرأسها تشامبرلن الذي يجسد شكلاً جديداً للإمبريالية ، قلما ينظر إلى وسائل العمل . وفي ٢٥ أيلول ١٨٩٨ كان اللقاء بين مارشان وكيتشنر قد فتح ، في فاشودا ، أزمة يخاطر فيها نزاع دولي للمرة الأولى بالتعلق على صدمة إمبرياليات أوربية في إفريقية .

ولكن الأزمة حلت ، في الواقع ، بتسوية دبلوماسية كبرى أنهت ، لأجل الأساسي ، تقسيم إفريقية . فقد تنازلت إنكلترا لفرنسا ، في حزيران ١٨٩٨ على تحديد ملائم لحدود داهومي والنيجر الفرنسيتين مع نيجيريا الشمالية ، وبدت ، بالعكس ، حازمة في آذار ١٨٩٩ بشأن السودان ؛ فقد ثبتت حد النفوذ الفرنسي على خط تقسيم المياه في أوبانغي ومياه بحر الغزال ، وحققت إرادتها التي كانت في ألا تترك أي دولة أجنبية تسيطر على نقطة ما من وادي النيل .

ولا يمكن إلا أن يدهش المرء بالخلاف بين الاضطراب الذي نشأ في أوربة بتقسيم إفريقية ، والغموض الذي وقعت فيه كل دولة تملك قطعتها من القارة . أما الاستثناء فقد كان في جنوب إفريقية ، منطقة الاستعمار القديم الذي جذبت إليه حرب البور الأنظار في منعطف القرن ، وكان فيها تقدير الثروات الطبيعية متقدماً جداً آنئذٍ ، وباقي إفريقية السوداء الحديثة الفتح يدخل في دور تجارب إدارية واقتصادية تحمل كل منها طابع مزاج استعماري قومي . وجنوب إفريقية . هي الوحيدة التي تقدم المثال لاستعمار استيطاني شبيه بالاستعمار الذي عرفه المغرب ؛ لأن الاتصال بين الأوربيين والسود تعقد بمنافسات بين الأوربيين . أما في مكان آخر ، فكان القصد استعمار استغلال ، ولكن أشكاله كانت تختلف حسب الحصة المباشرة كثيراً أو قليلاً التي تأخذها

الكوادر الأوربية : فمن نيجريا أو من ساحل الذهب إلى إفريقية الشرقية الإنكليزية أو إلى الكونغو البلجيكية أخذ تارة هيئة بلدية الأصل ، وتارة رأسمالية صراحةً . ولكنه في كل الأحوال أدخل إفريقية في عصر جديد وذلك بدمجها في السوق العالمي ، وكان ذلك دون شك أهم حادث في التاريخ الحديث لهذه القارة ذات التقاليد الانعزالية والانطواء على نفسها .

٤ ـ بعض نماذج من السيطرة الاستعمارية في إفريقية السوداء

كان جنوب إفريقية مسرح تجربة استعمار عظيم بقدمه (من ذلك أن ڤان ريبيك ، البطل القومي من أصل هولاندي أسس منذ ١٦٥١ مستعمرة الكاب ، تحت شكل نقطة رسوّ لتموين وإصلاح سفن شركة الهند الشرقية الهولاندية) ؛ وغني بالنتائج بالاتصال الواسع الذي أحدثه بين البيض والسود ، وبإيجاده نموذجاً أوربياً متعلقاً بعمق بإطار جغرافي جديد ـ نموذجاً لا يوجد له معادل إلا في كندا الفرنسية أو في أميركي المستعمرات الثلاث عشرة .

البور[١] والإنكليز : خلاف عرقي

تاريخ هذا الاستعمار يقع أولاً حول التاريخ ١٨٠٦ . وحتى ذلك الحين ، كان الاستيطان الأوربي من أصل هولاندي حصراً . باستثناء بعض البروتستانت السيفينوليين[٢] أو البروڤانسيين[٣] الذين وصلوا بعد إلغاء مرسوم نانت . وهكذا وجد

(١) البور كلمة هولاندية وتعني الفلاح أو أنسال السكان القدامى بعد اختلاطهم بالهولانديين .
(٢) السيفينوليون من منطقة السيڤين في شرق كتلة الماسيف سنترال في فرنسا .
(٣) البروڤانسيون : سكان إقليم بروفانس في جنوب فرنسا .

أن ٢٥٠٠٠ أوربي كانوا يسيطرون على ٣٠٠٠٠ رقيق (عموماً مستوردين) وربما بقدر ذلك من الخلاسيين - المتحدرين من الزواج بين الأوربيين والهوتنتو - ، الهوتنتو المستخدمون كرعاة للبقر في المناطق الرائدة وأخيراً المتحررة . ومن ١٧٩٥ إلى ١٨٠٣ ثم من جديد في ١٨٠٦ استولى الإنكليز على المستعمرة - بفضل ثورة المستعمرين البور ، ضد سلطة شركة الهند الهولاندية والتحالف الذي فرضته فرنسا على هولاندة . وأصبح نقل السيطرة شرعياً في مؤتمر ڤيينا . واستحوذ الإنكليز على أرض غريبة : دون حدود واضحة إذا لم يكن ذلك من جهة البحر ، مأهولة بشكل رخو للغاية من قبل سكان فلاحين ينتمون إلى أجيال هولاندية سابقة ، وهم أناس قساة لا يشعرون أنهم براحة إلا في وسط ستة آلاف آكر من الأراضي ، يمتطون الحصان ومسلحين ببندقية ويمارسون تربية البقر والغنم الواسعة ، وزراعة الحبوب البدائية . أناس مستقلون سريعو الدفاع عن حقوقهم ، ولكنهم قليلو الميل إلى تحمل إطار دولة حديثة ، تتملكهم حرارة إيمان إصلاحية قريب جداً من الكتاب المقدس ، ولقول كل شيء ، إنهم شعب عتيق ومتخلف صراحة في عدة نقاط .

لقد أفاد البور من زوال نير الشركة الهولاندية ومن إدخال حرية التجارة أما بالنسبة للباقي فإن السيطرة الإنكليزية تعني بداية محنتهم . لا لأنهم غمروا بالاستعمار البريطاني : لأن جنوب إفريقية يبدو اليوم كإخفاق نسبي للاستعمار الأبيض ، إذا قارناه بأعداد الرجال الجاهزين بوضوح في أوستراليا وزيلاندة - الجديدة ، ولا سيما كندا . فمن ١٨٢٠ إلى ١٨٦٠ وجد أن ٤٠٠٠٠ مهاجر فقط جاؤوا واستقروا في جنوب إفريقية . وجنوب إفريقية يتأثر بإقليم تحت - صحراوي ، باستثناء قسمه الجنوبي والشرقي ؛ ولكن في الغالب ، كان بلد الرقيق والخدم ، ومن بعد أيضاً في الآجل بلد العمل الرخيص المنفذ بيد عاملة ملونة . إن نسبة الأجرة الزراعية ليس فيها ما يجذب المهاجر البريطاني . وعلى عكس الولادة القوية عند الشعب المستعمر ، كانت نواة الاستيطان الأوربي باقية ثابتة أو بزيادة ضعيفة . ومع ذلك انتقلت إلى ٢٠٠,٠٠٠ نحو ١٨٧٠ .

ولكن الإنكليز حذفوا كلياً إسهام البور في إدارة المستعمرة ، وأدخلوا اللغة الإنكليزية لغة رسمية على حين أن $\frac{7}{8}$ الشعب لا تفهم إلا الهولاندية (١٨٢٥) ، وأعطوا سعراً للعملة الإنكليزية وحدها . ومنذ ١٨١٥-١٨١٦ انفجرت ثورة البور ، ونحو ١٨٣٠-١٨٣٢ استؤنف الاضطراب بغية الحصول على مؤسسات تمثيلية وحريات سياسية . ولكن الضربة القاضية المميتة وجهت إلى المساكنة الإنكليزية - الهولاندية بالظروف العملية لإلغاء الرق (١٨٣٤) ، هذا الإلغاء الذي كان البور على أي وجه خصومه : لأن الملاكين الذين يتعاطون الرق حصلوا من لندن على تعويض بـ ١٣٠٠٠٠٠ جنيه بينما كانوا يقدرون خسائرهم ٣٠٠٠٠٠٠ ، وحسب أشكال الجباية المدمرة . والمستفيدون من التعويض تخلوا عنه عموماً وفضلوا الذهاب . وقد ساق السفر الطويل في أرض وعرة عام ١٨٣٧ نحو ١٠٠٠٠ عائلة مع حيواناتهم وأرقائهم ، حسب عدة طرق ، فيما وراء الفال والأورانج وفي الناتال . وكان قرار الرحيل ثقيلاً بالانعكاسات : فمنذ الآن وجد الإنكليز والبور محشورين مع الشعوب الإفريقية في داخل القارة في سياسة ملاحقة وعلاقات ثلاثية خرجت منها التعقيدات القرن التاسع عشر السياسية مثل التعاظلات (التراكبات) والتوترات الاجتماعية التي عملت منها الحياة الحالية لاتحاد جنوب إفريقية .

لقد وجدت الحالة السابقة جزئياً معادة . من ذلك أن البور المجتمعين حول مدينة بيترماريتزبورغ ظهروا تهديداً للمستعمرين الإنكليز المقيمين حول ميناء ناتال : وهولاء المستعمرين استنجدوا بمساعدة سلطات الكاب ؛ وأرسل السور جورج نابيه عساكر وضم الناتال إلى التاج البريطاني ، الذي أخذ على عاتقه على هذا النحو مستعمرة ثانية في إفريقية الجنوبية ١٨٤٢ . والمسافرون على الدرب الطويل الوعر قطعوا عن الساحل ، فما وسعهم إلا أن أوغلوا من جديد نحو الداخل وألفوا جمهورية الأورانج في الوادي الأعلى للنهر . وجاء الرد الإنكليزي في ١٨٤٨ تحت شكل ضم للأورانج . والسفر الطويل الوعر ، الطريق الثالث ، الذي قاده بريتوريوس الأول أدى عندئذ إلى إنشاء جمهورية الترنسفال .

وكان من حكمة لندن أنها قطعت تسلسل الرد بالمثل . والصعوبات المتزايدة الناشئة من مقاومة الشعوب السوداء ، والنصر العابر على الأقل لسياسة ليبرالية معادية للأعباء الحربية والاستعمارية قادت الإنكليز إلى الاعتراف للبور في العيش في جمهوريات مستقلة (اتفاق ساند ـ ريفر في ١٨٥٢ قبل استقلال البور في شمال فال ؛ واتفاق بلومفونتاين في ١٨٥٤ ، جعل من الأورانج حداً للنفوذ البريطاني) . وهكذا تم تقسيم جنوب إفريقية .

أما من جهة البور فلم تكن الحالة لامعة . ففيما كانت الترنسفال تصون بمشقة وحدة سياسية فرضتها عليها أخيراً في ١٨٦٤ قوة سلطة ممارسة القائد ـ الجنرال پول كروجر ، كانت دولة الأورانج الحرة على الأقل وجهاً تافهاً لا قيمة له : كما أن تهديد تجمع البازوتو القوي اضطرها أن تخمد منازعاتها الداخلية . ثم إن نفوذ أقلية قوية إنكليزية جاءت من الكاب ، ودخلت في النشاطات الاقتصادية والسياسية ، أجبرها على الخروج من عادتها القديمة ومن الرتابة والانعزال . ومنذ ١٨٣٨ إلى ١٨٥١ نهضت تربية خراف الصوف بشكل عظيم ؛ ولكن طرق التربية ما كانت لتسمح بالحصول إلا على صوف متخلف النوعية ويصدر مع ذلك . يضاف إلى ذلك أن استصلاح الأرض لاستغلالها لم يبدأ بحق لا في هذه الجمهورية أو في تلك من جمهوريات البور .

ومن الجهة الإنكليزية ، كان التطور سريعاً دون منازع . ففي ١٨٥٣ ، حصلت مستعمرة الكاپ على نظام تمثيلي (مجلسان منتخبان دون تمييز في اللون ، ولكن بالتصويت الضريبي ؛ وعلى حاكم يحافظ على حق النقض (فيتو) ، وهو حق الحل ، والإشراف الوحيد على الوزراء) امتد إلى الناتال في ١٨٥٦ . وفي ١٨٧٢ ، توصلت الكاپ إلى مرحلة حكومة مسؤولة ، والحاكم فيها ينحي أمام مفوض سام يلعب بالملوك الدستوريين ، ورقابة الوزراء التي انتقلت إلى البرلمان . وإلى الصوف ضمت المستعمرتان موارد زراعية متوسطية أو مدارية : حبوب ، كروم ، قصب سكر ؛ وأيضاً ريش النعام والعاج . وفي سنوات ١٨٥٠ـ١٨٦٤ تقدمت الصادرات بقوة ، وتم إنشاء أول خط

حـديـدي انطلاقـاً من الكاب ، ومجيء الهنـود بعـدد متزايـد على الـزراعـات السكريـة والقطنية ، وهجرة المزارعين الألمان ، كلها تؤلف عناصر حركية نسبية . ولكن انطلاقـاً من ١٨٦٤ ، وأكثر أيضاً انطلاقاً من فتح قنـاة السويس أخـذ نشـاط الموانئ يتضـاءل . والحقيقة أن إفريقية الجنوبية تعتبر أقل المستعمرات البريطانية موهبةً : ففيها قليل من الأراضي الطيبة ، وقليل من الناس ، وقليل من المنتجات الجيدة النوعية ، يضـاف لهـا المنـازعـات الـداخليـة والمشـاكل مع السود ... لقـد كان يجب وجـود معجـزة لتغيير كل ذلك .

البيض والسود : الخلاف العرقي

إن الواقع الهام في توسع النفوذ الإنكليزي ـ البوري على إفريقية الجنوبية في سيـاق النصف الأول من القرن التاسع عشر هو أنه سارع بشكل عنيف الاتصـال بين الأوربيين وعالم القبائل الإفريقية المتحدة جزئياً . ومن المؤكـد أن الوصول إلى هـذا الاتصـال قـد حصلَ على أي حال ، لأن المجتمعين كانا يبحثان عن أراضي شاغرة ، ويوجد بينهما بعض التشابه في حـاجتهما إلى سطوح واسعة لتغذية السكان القلائل ، بواسطة تربية حيوانات وزراعة واسعة ، وبتفضيلهما للأراضي الطيبة المروية بشكل كافٍ .

إن البور بتقدمهم نحو الشمال منذ زمن الشركـة التقوا بـالهوتنتو والبوشيان . وقـد ترك الأوائل أنفسهم يتصون دون مقاومة كبرى . ودحر الآخرون أو قتلوا . ولكنهم في ١٧٧٩ فقط اصطدموا ، نحو الشمال الشرقي ، بطليعـة الهجرات البـانتو ، والكافر . ومنـذ ذلـك الحين تسلسلت الحروب : تسـع حروب قـامت بهـا قبـائـل الكافر ، ونشـأت على العموم أوائلها على تخوم الاستيطانين ، ومنازعـات حول الأراضي والحيوانـات . وابتـداءً من ١٨١١ كانت السلطة الإنكليزية مدفوعة بـالمستعمرين البريطـانيين كما هي مـدفوعـةً بالبور ، ولذلك قـامت بعمل شـديـد في دحر السود . وبعـد إلغـاء الرق اتجـه الميل إلى إقـامتهم في قريـــة كافريـــة ، حيث تترك الأراضي للسـود تحت إشراف زعـمـاء مـوالين

للإنكليز ، ولتخدم كمستودع لليد العاملة الرخيصة لأجل المستغلات الأوربية الخاصة المحرومة من عمل الخدمة العبودية (١٨٣٥) . وبعد حرب ١٨٤٥-١٨٤٦ ، ضم الأنكليز أراضي جديدة وأنشؤوا كافرية بريطانية يديرها الأوربيون ، تاركين فيها مقاماً احتياطياً للقبائل . وفي سياق النصف الثاني من القرن ضمت الكافرية كلها بالتدريج ، ولحق الكاب على هذا النحو بالناتال دون أي انقطاع (١٨٩٤) .

والبور من جانبهم ، وسعوا جبهة المعركة العرقية في سياق مسيراتهم الطويلة الشاقة . ففي ١٨٣٧-١٨٣٨ قامت حرب شاقة بينهم وبين قوم ماتابيليه الذين اضطروا إلى الانطواء في شمال ليمپوپو (روديزيا الجنوبية الحالية) وكذلك الزولو . والدولتان البوريتان اللتان فرضت عليهما اتفاقات الاستقلال إلغاء الرق ظلتا تخطفان رجالاً لحدودهما وتقومان بحروب محلية بوسائل مالية وعسكرية فقيرة . وقاوم البازوتو الأورانج زمناً طويلاً . وكانت إنكلترا تستخدمهم أحياناً ضد البور . وأخيراً غلبت الأورانج البازوتو واحتلوا بلادهم ، في ١٨٦٧ ، وكان الإنكليز مهتمين بحرمان البور من الفائدة الاقتصادية لأراضيهم ومن الناس الملحقين ، وفي نفس الوقت بإرضاء رخيص لمبشريهم (الذي كانوا يصرون على ألا يجرد الأصلاء الزنوج من الأراضي التي كانت ضرورية لهم) ووضعوا أرض البازوتو تحت حمايتهم ١٨٦٨ ، ثم ضموها إلى مستعمرة الكاپ (١٨٧١) . وهكذا استقرت الحالة مؤقتاً بانتظار المشاريع الجديدة من سيسيل رودز بعد ١٨٨٠ .

على الهوامش الشمالية : برتغاليون وألمان

في منتصف القرن التاسع عشر ارتسمت في عمق قارة أسيئت معرفتها ، منافسات دولية كبرى . **فالبرتغاليون** الذين بدأت سيطرتهم في خليج ديلاغوا اهتموا بتثبيت حقوقهم على الهضاب العليا والبحيرات الكبرى منذ أن رأوا الإنكليز يقيمون في الكاپ : من ذلك استطلاع نهر زامبيز وبحيرة موئيرو على يد لاسردا (١٧٩٦-١٧٩٨) ولا سيما

رحلات سنوات ١٨٣٠ و ١٨٤٠ ، ولخداعهم قام لفنغستون باكتشافيه في ١٨٤٠ـ١٨٥٦ و ١٨٥٨ـ١٨٦٤ . وكانت هذه الأخيرة بشكل بعثة رسمية ومساعدة بالمال . وفي منطقة نياسا ، حيث رجع أيضاً في ١٨٦٦ـ١٨٦٨ ، حاول ترسيخ نفوذ المبشرين البريطانيين للنضال ضد تجارة الرق وضد سيطرة البرتغاليين على القبائل معاً . وكذلك أيضاً كان المبشرون الألمان ، هذه المرة ، أول من اتصلوا مع الدامارا والناماكا في جنوب غرب إفريقية ، حول جون والفيش ، ملك شركة إنكليزية . وهكذا كان بالإمكان منذ الحين التنبؤ لأي الفرقاء المتفاوتي الخطر ، أن زخماً جنوبياً محتملاً من البريطانيين يجازف بالصدام .

١٨٦٧ :

لقد وجد أن معطيات قضية جنوب إفريقية تغيرت كثيراً حتى الأعماق بالمعجزة الاقتصادية الأولى التي نزلت على هذه المناطق المحرومة ظاهراً : وذلك باكتشاف مناجم الماس .

وبالرغم من أن الماسات الأولى قد تبينت صحتها منذ ١٨٦٧ ، فإن التزاحم على مواطن وجودها لم يبدأ إلا في سنة ١٨٦٩ بعد اكتشاف الماس الذي هو على شكل نجم في جنوب إفريقية ، والذي بيع خاماً بثمن ١١٠٠٠ جنيه . وحتى ١٨٧١ كان الاستغلال منصباً على المناجم الغرينية الواقعة على جانبي الشمال على ١٥٠ كم من التقائه بنهر الأورانج ؛ ولكنها نضبت بسرعة على يد جمهور من صغار المستغلين الذي كان الواحد منهم لا يتصرف أحياناً إلا ببضعة أمتار مربعة . وبعد هذا التاريخ ، وجد الأساسي على شرق الشمال بقليل ، حول دوبيرز وكمبرلي ، في طبقات أعمق . وقد وصل بارني بارناتو وهو يهودي من هوايتشابل لا يملك نحاسة في ١٨٧٣ ، ونجح بفضل العمل الشاق في جمع رأسمال صغير ، وبه انطلق في ١٨٧٦ في استغلال سوية أعمق في الأراضي الزرقاء ، ليكافأ بملاحظة أهم مخزون للماس في الكوكب الأرضي . ثم اشترك مع سيسيل رودز المنسوب

إلى وسط الكنيسة العليا الأنغليكانية ، وجاء ليلتحق في إفريقية الجنوبية بأخ يزرع القطن . وكلا الإثنين وضعا حداً لنفوذ المستغلات الصغيرة غير القادرة على الوصول إلى الطبقات العميقة وجمعاها في أربع شركات .

كانت النتائج الاقتصادية المحلية من استخراج الماس عظيمة ، والقيمة العظيمة لهذا الإنتاج قومت بشكل صاعق التجارة الخارجية للكاب والناتال ، وبررت في ١٨٧٣ ـ ١٨٧٤ انطلاق شبكة حديدية اقتصرت حتى ذلك الحين على خط الكاپ ـ ويللنغتون ؛ ثم مدد وبدئ بالإنشاء انطلاقاً من ميناء اليزابت وإيست لندن ؛ وبلغ الخط كمبرلي في ١٨٨٥ . وعلى الصعيد البشري وجدت ثلاث حوادث مترابطة : ١ ـ **التحريك** ـ أخيراً ـ لتيار قوي لهجرة آتية من كل القارات ؛ ٢ ـ **دمج السكان** السود والبيض في المدن المنجمية . فقد جذب السود بأمل ربح أعلى ، مهما تكن سوية الأجرة ، من واردات الأرض أو تربية الحيوانات في مراكز خاصة أو الحمايات ؛ ٣ ـ **نمو** مدينة ثانية كبرى خارج الكاپ وهي كمبرلي . ولم تكن النتائج السياسية أقل أهمية : فقد عين الماس دفعاً جديداً نحو شمال النفوذ البريطاني ، ولكن هذا الدفع على ما يبدو قد عدلت عنه لندن منذ الاعتراف باستقلال البور . ولم تتبع منطقة الماس أي سيادة محددة ، وفقرها لم يجذب حتى ذلك الحين النظر إليها . وأقنعت بريطانيا زعماء القبائل المحليين بالمطالبة بالأراضي الماسية ، واللجوء إلى تحكيم حكومة الناتال ثم إرجاعها في وقت لاحق إلى مستعمرة الكاپ . وهذا ما كان في ١٨٧١ . وقبل بريتوريوس الثاني ، رئيس الترانسڤال ، المفاوضة مقتنعاً بأن ضعف البور العسكري ، لن يساعدهم على تقدير مزاعمهم بجد . وقبلت الأورانج باسم رئيسها براند أن تتخلى عن حصتها مقابل تعويض ٩٠٠٠٠ جنيه .

١٨٨٤ :

إن الحظ الحقيقي لإفريقية الجنوبية أتيح لها بالذهب أكثر من الماس . فقد عرف

الذهب في الترانسفال قبل الإقبال والتزاحم على الماس ، ولكنه اكتشف بكمية قليلة ، من ١٨٨٤ إلى ١٨٨٦ في سلسلة ربى ويتوترسراند ، الجزء الأعلى الأكثر طراوة والأكثر فائدة للصحة من ڤلد ـ العالي . وهذا الاكتشاف ترك بعيداً وراءه اكتشاف المناجم الأميركية في القرن السادس عشر . لقد كان المنجم واسعاً جداً ومتجانساً جداً ، وأبدى في بادئ الأمر محذوراً وهو أنه كان عميقاً جداً (أكثر من ألف متر) ويعرض الذهب مندمجاً في عروق الكوارتز وبعيار من ٣ إلى ٦ أضعف من الفلزات المعروفة سابقاً . ولكن التقنية آنئذ كانت في عز تقدمها : كاستعمال الديناميت وآلة التكسير ، وطريقة السيانور وساعدت على استغلال في ظروف جيدة ـ فضلاً عن أن مصاعب الاستخراج والتنقية فرضت بالحال سيطرة الشركات القوية والرساميل التي جهزتها صناعة الماس ولندن أو نيويورك . وهكذا وسع رودز ميدان عمله على مناجم الذهب مع شركة بيرز كونسوليداتيد الناشئة من شراء رؤوس أموال بارني بارناتو . وخولت حكومة الترنسفال الشركات ظروفاً مالية استثنائية ملائمة ، وتركت تشكيل « غرفة المناجم » تدافع عن مصالح الشركات . وأثار التزاحم على الذهب هجرة أوسع بكثير أيضاً . فعلى بعد سبعين كيلو متراً عن مدينة بريتوريا الشبه فلاحية ، نشأت جوهانسبرغ التي بلغت خلال عشرة أعوام ١٠٠٠٠٠ نسمة وجذبت تمديدات الخطوط الحديدية التي بوشر بها سابقاً (بريتويا ـ جوهانسبرغ ـ الكاپ ١٨٩٢) .

طور الإمبريالية العدواني (١٨٧٧-١٩٠٢) :

إن الطور الأكبر للغنى الذي دخلت فيه على هذا النحو تباعاً مستعمرة الكاب ، ثم جمهورية الترنسفال صحبته يقظة في الخطط البريطانية على إفريقية الجنوبية ، وعلى الإرادة الثابتة في إلحاق الوصاية السياسية باتجاه الاقتصاد المنجمي الآخذ بالتوسع ، هذا الاقتصاد الذي كان يتبع ، على أي حال وبصورة وثيقة رؤوس الأموال الإنكليزية .

لقد أعطي الدفع أولاً من أمين الدولة في المستعمرات ، اللورد كارنارفون . فهو يرى في الوصول الحديث (١٨٧٢) لمستعمرة الكاپ إلى « حكومة مسؤولة » نقطة انطلاق لاتحاد أربع دول أو مستعمرات إفريقية الجنوبية ، تحت العلم البريطاني متبعاً في ذلك إيحاء المؤرخ فرود ، منظّر الإمبريالية السياسية والمؤسسية . إن مشاريع كارنارفون أفادت من عدة تعاطفات : في الناتال بخاصة ، التي كانت إدارتها تخشى المصاعب المرتبطة بحضور عدد من السود والهنود أعلى بكثير من عدد الأوربيين ، وأكثر من ذلك أيضاً يقظة القدرة على القتال عند الزولو . وكان هذا التهديد يثقل أيضاً على الترنسفال ، حيث وجد الميل الشديد إلى التقارب مع بريطانيا ، النتيجة المنطقية لرفض السكان دفع الضرائب والخضوع لخدمة عسكرية : وماذا تفعل دولة فقيرة وفوضوية دون مالية ودون إدارة إذا كان الأفارقة يغمرونها ؟ وحتى في الكاپ ، كانت أقلية البور ، مع هوفماير ، تدافع عن أصالتها الثقافية وفكرة اتحاد بإدارة بريطانية . ولكن كارنارفون أفسد نفسه حظوظ مشروع يعجل بضم الترنسفال (١٨٧٧) . وكانت البلاد منقسمة لدرجة أنه لم يكن أولاً أي رد فعل ؛ ورافق الضم وعد بتطور قريب نحو الاستقلال الذاتي المحلي . ولكن الاتصال بالإدارة البريطانية ما لبث أن أيقظ قومية البور . ومن جهة أخرى ، إن إنكلترا الإمبريالية تألمت بجد في وجاهتها من الحرب التي أثارها الزولو في ١٨٧٩ : وذلك أن سرية بريطانية دمرت في معركة إيزاندهلوانا ، حيث هلك الأمير الإمبراطوري لوي ـ نابوليون . وترأس كروجر رئيس المعارضة مع جوبير الثورة المسلحة ؛ وأعلن الاستقلال في ١٨٨٠ ، وتألف ثالوث مع بريتوريوس ؛ وجيش النجدة ، المنطلق من الناتال ، دحره البور في معركة ماجوبا هيل . ويا لها من فكرة جميلة لمعركة غلادستون الانتخابية . فقد دفن فيها ، في ١٨٨٠ ، الإمبريالية الدزرائيلية ، قبل أن يهاجم القضية الإيرلاندية . ورد اتفاق بريتوريا (١٨٨١) الاستقلال للترنسفال ؛ ومع ذلك فإن السيادة البريطانية استمرت تحت شكل إشراف على السياسة الخارجية للجمهورية .

ترانسڤال كروجر :

من إخفاق الضم الأول إلى نجاح الثاني ، عرفت الترنسڤال تحت رئاسة بطلها القومي ، المنتخب على أربع مرات منذ ١٨٨٣ ، تجربة تثبيت وتوسيع لاستقلالها . ودون أي شك استطاع البور أن يُعرفوا بكروجر ، الذي ظل قبل كل شيء ملاكاً كبيراً عقارياً مفعماً بالإيمان المصلح وكره الأجانب . أخلاقه وعاداته بسيطة جداً . كان يرتدي اللباس الأسود دوماً ، وترك مع ذلك ثروة عظيمة تمثل الاستثمار بطريق الإيجارات راتبه الرئاسي المريح . كان مؤسساً لفرقة تفعم بشواهد من الكتاب المقدس خطبه ، لئلا يقال مواعظه ، وعجلا بتشبيه إسرائيل والبور بتقارب شجاع في الرحيل والسير في الطريق الوعر الطويل ، إلا أنه كان يسلك على الأقل في السياسة ما تقتضيه السلطة والواقعية المرغوبتان .

في قلب هذا المجتمع في الترنسڤال المطبوع أيضاً بقوة طبع رعوي ، توجد نبتة تطور ديموقراطي ، عنصر تفتيت أدخلته الشركة الصناعية والمختلطة في الراند (منطقة منجم ذهب بالقرب من جوهانسبرغ في الترنسڤال) . وفي جوهانسبرغ في ١٨٩٦ يوجد ٥١٠٠٠ أبيض منهم ٦٠٠٠ ترانسڤالي فقط : أما بالنسبة للباقي فيقصد به المهاجرون الذين أتوا بخاصة من بريطانيا ـ العظمى ومن الكاپ . ويوجد أيضاً ٤٧٠٠٠ ملون منهم ٤٢٠٠٠ بانتو و ٥٠٠٠ هندي . وفي مجموع الترنسڤال ربما يوجد عشية حرب البور ٣٠٠٠٠ شخص لهم الحق بالتصويت بين سكان البلاد الأصليين ، مقابل ٦٠ إلى ٧٠٠٠٠ بين **الويتلاندر** (المهاجرين من جنسية غير هولاندية) . وقد أدى هذا الخلل في التوازن بكروجر إلى أن رفض للمهاجرين كامل الحقوق السياسية ، تحت طائلة أن تفقد الترنسڤال وجهها التقليدي : وأنشأ لهم ، في ١٨٩٠ ، مواطنية من الدرجة الثانية مجردة من معنى سياسي حقيقي . وكانت النتيجة إثارة تجمع **الويتلاندر** في اتحاد وطني (١٨٩٢) أدى بالاضطراب لصالح المساواة في الحقوق وأفاد فيا بعد كحليف للسياسة البريطانية المجهزة على هذا النحو بحجة التدخل . إن الاختلاف وعدم

التلاؤم في الأمزجة كانا فضلاً عن ذلك شديدين لدرجة أن الويتلاندر سواءً أكان القصد مأجورين ، أم مشاريع كبرى ، كانوا الرابحين الوحيدين من الثروة الوطنية الجديدة .

لقد شعرت الترنسفال أنها مضناة من الداخل ، ولذلك حاولت أن تخلع على نفسها هيئة أكثر مما هي عليه ، وتكسب دعماً في الدبلوماسية الدولية . وكانت الفكرة العظيمة لكروجر أن يؤمن المبادلات الخارجية لبلده بطريق مستقل عن الموانئ البريطانية في الكاپ ، وإيست لندن أو دربان (ميناء الناتال) ، طريق يؤدي بأقصر سبيل إلى خليج ديلاغوا في أرض برتغالية . وانطلاقاً من ١٨٩٥ نجحت الترنسفال في توجيه الأساسي من مواصلاتها الحديدية نحو هذا المنفذ ، وحاولت أن تعتمد على ألمانيا بشكل ضعيف لأن غليوم الثاني لم يشأ دعمها إلا في الحد الذي يكون ضرورياً له ليقنع بريطانيا العظمى في التساهل معه .

سيسيل جون رودز :

إن صلابة كروجر لم تقاوم مع ذلك الضغوط الجديدة للإمبريالية البريطانية ، وسياسة الاختناق التدريجي ثم العدوان المسلح ، الذي استعمل ببذخ كبير في الوسائل وفي إطار جغرافي واسع ، كل من رودز ، وتشامبرلن ، وميلنر في السنوات ١٨٩٠ ـ ١٩٠٠ . إن رودز في سياق دراساته في أوكسفورد ساورته فكرة الطموح في أن يصنع من إفريقية جنوبية موحدة أول عنصر لإفريقية بريطانية من الكاپ حتى القاهرة . وقد جسد الرجل باقتناع بسيط مفرط هذه الإمبراطورية الإنكليزية في آخر القرن التاسع عشر المطبوعة بالصوفية ـ صوفية الإيمان برسالة إنكلترا المحضرة ـ والعرقية الغاشمة ـ عرقية الاعتقاد بالتفوق الطبيعي للعرق البريطاني . وكان من حظه أن ركز بين يديه عدة وسائل سياسية ومالية أمنت نفاذ عمله ، إن على الأرض في إفريقية نفسها ، أو في لندن : كان نائباً في برلمان الكاپ ، ووزيراً أول للمستعمرات ، كما كان سيد شركة مناجم قوية هيأت له كل الأموال الضرورية لإطلاق شركة ذات امتياز ؛

وكان أيضاً صديقاً للوزير جوزيف تشامبرلن ، كما كان صديقاً للزعيم الإفريقي هوفماير .

اندفع رودز أولاً لضم بتشواناالاند (١٨٨٦) . وكانت هذه أرض استيطان أفريقي محض ، وتحاذي الترنسفال من جهة الغرب حسب حدود ظلت غير واضحة . وقد رأت فيها **جمعية التبشير اللندنية** منطقة تبشير أخذته على عاتقها بغية حماية أبناء البلاد الأصلاء ضد البور . وكان كروجر ، من جهته ، يعتبر سكان بتشوانا كاحتياطي لليد العاملة . وألح رودز على الأهمية الستراتيجية « لقناة السويس هذه نحو الداخل » لأجل تغلغل لاحق للسيطرة البريطانية نحو الهضاب ـ العليا . وأخذت حكومة لندن بضرورة التدخل بين الترنسفال والمؤسسات الألمانية الجديدة على الساحل الغربي (١٨٨٤) . وعندئذ تدخل رودز مباشرة . وأنشأ « شركة إفريقية الجنوبية البريطانية » ، وهي شركة استعمار تعتمد على شركة بيزز وعلى إصدار أسهم بجنيه واحد على انتشار شعبي واسع . وقام بالحال بالتغلغل في ماتابيليلاند على الوجهة الشمالية للترنسفال ؛ وفي ١٨٨٨ منحه الملك لوبينغويلا حصر البحث والاستغلال المنجمي على كل أرضه . وانتهت الحكومة البريطانية بالموافقة رسمياً على الاتفاق وبمنح امتياز لشركة رودز (١٨٨٩) : تحت إشراف نظري لوزارة المستعمرات ، بعد أن تصرفت الشركة بمالها وبجيشها الخاصين ، أصبح بإمكانها أن تحمي السكان الأصلاء وتبني خطوطاً حديدية وخطوطاً برقية ، وتستعمر وتتاجر وتستغل المناجم حتى نهر زامبيز وما وراءه . وفي هذا التاريخ حذفت المشاريع البرتغالية بدورها في الربط بين أنغولا وموزامبيك بعمل رودز . وفي الواقع امتدت الحماية البريطانية على منطقة نهر زامبيز الأعلى في ١٨٩٠ ؛ وفي الوقت نفسه قام رودز بارتباطه مع مبشري ووكلاء « شركة البحيرات الإفريقية » الذين كانوا يعملون من قبل في منطقة بحيرة نياسّا . وفي ١٨٩١ امتثل البرتغاليون وسحبوا بعثة سربابنتو التي قطع الإكليز عليها الطريق . واحتفظت البرتغال بالسهول الساحلية ، وهي ذات أهمية اقتصادية ضعيفة ؛ وامتدت الحماية

الإنكليزية منذ الآن حتى أبواب كاتانغا (التي كانت محتلة من قبل البلجيكيين) وحتى بحيرات إفريقية الإستوائية ، على الهضاب العليا التي تؤلف أفضل جزء بواقع غضاضتها النسبية وثروتها المعدنية . وهكذا امتصت أو استوعبت « إفريقية الجنوبية البريطانية » البحيرات الإفريقية . وفي ١٨٩٣ تخلص رودز من لوبينغويلا : فمن نهر ليمپوپو إلى بحيرة نياسًا لا يوجد منذ الآن إلا روديزيا .

ودخلت روديزيا في طريق الاستغلال المنجمي والتجهيز بالخطوط الحديدية : إن إقبال رؤوس الأموال ، وإصدار أسهم جديدة للشركة جاءا يتوجان إجراءات الفتح . ولكن بقيت تسوية قضية « الظهيرات » (الخلفيات) أي قضية أرض البور المحاطة بأراضي غيرها . لقد كان رودز رئيس وزراء الكاب ، ولم يكن في لندن إلا مالك ملايين وأثارت مشاريعه بعض الحذر . وفي هذه الظروف فكر أولاً ببساطة باتحاد اقتصادي ، يمكن أن يتطور لاحقاً على خطة سياسية . وفي مستعمرة الكاب نفسها ، كان رودز يتبنى موقف المصالحة المساعد على تقديم الازدهار و « الحكم الذاتي » للبور ويحلم بإثارة قومية أرضية إنكليزية - بورية . ولكن كروجر كان في السلطة ، وما لبث رودز أن أدرك أن لا سبيل إلى التفاهم أبداً : ولم يكونا رجلين يقاوم أحدهما الآخر ، وإنما عصري حضارة أوربية غير قابلين للتوفيق والتراجع . وقام جمسون صديق رودز ومعاونه الأساسي ، انطلاقاً من ١٨٩٤ بتحضير عملين في وقت واحد معاً انطلاقاً من الحدود ، واجتيازها بجيش من المتطوعين ، ومن جوهانسبرغ حيث يثار الويتلاندر . ولكن « غارة جمسون » (٣١ كانون الأول ١٨٩٥) كانت خيبة ؛ وأنكرت الحكومة البريطانية على رودز عمله ، وكان رئيسها جوزف تشامبرلن ، ورفضت « تغطية » التعبئات : وكان هذا آخر حياته السياسية .

وفي الواقع لا يوجد حل آخر إلا القوة ، وكان على حكومة لندن أن تلجأ إليها في يوم أو في آخر تحت طائلة خسارة الإشراف على قطب النمو الديموغرافي والاقتصادي لإفريقية الجنوبية . الذي أصبح منذ الآن الترنسفال . وظفرت أخيراً سياسة رودز بعد

أن أخفق في ١٨٩٩ بعد مؤتمر بين المفوض السامي ميلنر صاحب مذهب الإمبريالية المتكبرة المتعاظمة ، وكروجر المستعد للتعبئة .

حرب البور (١٨٩٩-١٩٠٢) :

ومع ذلك فإن الإنكليز تعززوا بالعساكر القادمة من الهند ، وبدؤوا يتحمل سلسلة نكبات (الأسبوع الأسود، ١١-١٦ كانون الأول ١٨٩٩) . وكان البور منظمين تحت بشكل جيش مدفعية وجيش فرسان بجماعات صغيرة متحركة جداً ومجهزة بأسلحة خفيفة جيدة ، ومع ذلك لم يكن لديهم الوسائل لفتح الأراضي تحت إشراف بريطاني . غير أن تياراً من التضامن الإمبراطوري عمل على تقاطر وتوافر العساكر والمال من كل مستعمرات الاستيطان البريطاني ، واستلم المبادهة في بداية ١٩٠٠ ، الزعيان العسكريان ـ لورد روبرتز ولورد كيتشنر اللذان أبليا البلاء الحسن ، كل بمفرده ، في أفغانستان وفي السودان . وفي حزيران ، أخذت بريتوريا ؛ وفي آب هرب كروجر إلى أوربة ؛ وفي أيلول ضمت الترانسفال . والعصابات البورية دامت أيضاً خلال أكثر من عام ، حين لم تكن الترنسفال موجودة كدولة وضاع كل أمل بتدخل أجنبي .

تجديد الاتحاد :

كان على الجنرالات البور الشبان أن يقبلوا المحتوم : ولكن مقابل ضياع الاستقلال ، قدم لهم مؤتمر ٣١ أيار ١٩٠٢ المساواة اللغوية وثلاثة ملايين جنيه لدفع الديون العاجلة . ووعد في أقصر مدة بالحكم الذاتي لمستعمرتين جديدتين للتاج يديرهما موقتاً اللورد ميلنر .

ومن ١٩٠٢ إلى ١٩٠٥ وجه الإنكليز بنفاذ مؤكد الإعمار ، والعودة في طريق الإنتاج ونمو الأشغال العامة ، والتعليم ، والإدارة المحلية . وفي ١٩٠٦ أسرع ظفر الأحرار في الانتخابات البريطانية التطور السياسي : فقد توصلت الترنسفال إلى الاستقلال الذاتي الداخلي ؛ والأورانج في ١٩٠٧ . ومنذ ١٩٠٨ كان التفاوض على الاتحاد . وقرار

« جنوب إفريقية » صوت عليه في لندن ، في ١٩٠٩ ، ونشأ اتحاد جنوبي إفريقية في ٣١ أيار ١٩١٠ ، أي بعد نهاية الحرب بثماني سنوات بالضبط .

إن إسراع رودز أوميلنر إلى التجنيد في الجمهوريات البورية ترك المكان رحباً لمحو انقسامات الماضي على عجل . ولكن تسوية الواجهة هذه لا يمكن أن تحمل على أكثر مما تستحق . وكل القضايا بقيت كاملة بتمامها . والأفكار ظلت قلقة ولم تهدأ . فمن ذلك أن بوتا وسمتس في الترنسفال ، وستين وفيشر في الأورانج . وهوفماير في الكاب جهزوا الأحزاب الإفريقية التي تخاطر بأن تصبح حكماً للحياة السياسية الاتحادية (الفدرالية) ؛ وبخاصة ، لأنه لم يؤخذ حتى الآن أي اعتبار للعامل الأساسي ، من وجهة النظر العددية : الأسود . والجمهوريون السابقون قبلوا ، عن عرف الكاپ ، تصويت السود حسب بعض الأوصاف ، ولكنه من سُدَّ في وجههم الوصول إلى النيابة . ولم تمض عشر سنوات إلا وتكشف اتحاد جنوبي إفريقية أنه الأقل طاعة بين الدومينيونات ، وانتقلت القضية العرقية إلى الصعيد الأول لاهتماماتها الداخلية .

وخارج إفريقية الجنوبية لاتوجد في أي مكان هذه القضايا في التعايش بين الأقليات الأوربية ؛ وإذا وضعت قضية التعايش بين الشعوب الإفريقية ومستعمرات الاستيطان الأوربية ، فذلك بعبارات مقلقة قليلاً أيضاً ـ في تانغانيكا أو في كينيا على سبيل المثال . وفي المناطق المنخفضة في إفريقية الاستوائية والمدارية الرطبة ، لا يوجد الاستيطان الأوربي إلا في مدغسكر ، لأن القضايا هنا هي قضايا كيفيات الاستغلال الاقتصادي وإدارة السكان أبناء البلاد الأصلاء ـ ولا يجرأ أيضاً أن يقال قضية تحسين مستواهم التقني والثقافي .

في الكونغو : نظام الشركات

الكونغو البلجيكية (حتى ١٩٠٨ : دولة الكونغو المستقلة التابعة بخاصة إلى الملك ليؤبولد الثاني) تقدم لنا مثالاً لمستعمرة محضة ذات علاقة ، أصلحت واستغلت حسب

القوانين الكاملة للمحصول بعاهل يُتصور طوعاً بأنه على رأس بنك أعمال . فقد صرح في ١٨٨٥ بأن كل أرض شاغرة ملك للتاج ، ونظم في ١٨٩١ حصراً للدولة من أجل الكاوشوك والعاج . وأن جمع هذه المنتجات الطبيعية منشط بإلزام السكان الأصلاء تسليمها بصفة ضريبة ؛ ونمت مزارع تستعمل العمل الشاق ، على أملاك التاج أو تنوزل عنها إلى شركات ذات امتياز تحصل بموجبه على تفويض بالسلطة الإدارية . وهذه المرحلة الأولى انتهت بفضيحة لجنة تحقيق دولية نشرت إساءات الاستعمال التي كان ضحيتها السود (١٩٠٤) . وعشية الحرب العالمية الأولى ، سلم الاتحاد المنجمي لكاتانغا ـ العليا الألوف-الأولى من أطنان النحاس العالي العيار ، والتروست الهولاندي لوفر (مراجل صابون العالم) بدأ ، على ٧٥٠٠٠٠ هكتار من الامتيازات ، الزراعة الكبرى لأشجار النخيل المنتج للزيت .

وقد كتب هنري برنشويك « لقد دامت الكونغو وازدهرت تحت إشراف الثالوث المشكل من الإدارة والكنيسة والمشاريع الخاصة الضخمة » ؛ وهذا الإشراف السلطوي للأطر المحلية أعفى بسعة المستعمرة من حق النظر الذي كان ميثاق ١٩٠٨ يخصصه مع ذلك لبرلمان بروكسيل ، وأجبرها على التطور منعزلةً وعليها أن تؤخر على الدوام تشكيل النخبات الإفريقية .

والكونغو الفرنسية الممهورة قليلاً من الطبيعة ، فرض عليها انطلاقاً من ١٨٩٩ اقتطاعات دورية مفرطة حسب مبادئ مشابهة ولكن من شركات أقل قوة بكثير . وهنا أيضاً ، انفجرت الفضيحة ؛ فقد اعتصرها وعملاء قدروا الكوشوك والعاج بأسعار دنيا تدعو للهزء ، وطلبوا سخرات الحمل المضنية ، وظلموا السكان ؛ وهذه المستعمرة التي أسسها برازّا استقبلت في ١٩٠٥ زيارة لجنة تحقيق يوجهها بنفسه .

وهكذا فإن العمل الشاق زاد بإخلاء السكان هذا الفراغ الطبيعي الذي هيأته قوة الغابة في قلب إفريقية حيث ظلت الكثافة ثلاثة مرات أضعف مما في السهول السودانية أو على هضاب الشرق العالية .

في إفريقية الغربية الإنكليزية :

سياسة حماية الأصلاء وترقيتهم :

في نيجيريا وفي ساحل الذهب ، إذا منحت الإدارة البريطانية امتيازات إلى شركة منجمية ، فقد تجنبت خطأ قبولها من أجل المزارع . وهكذا ظلت الأرض في أيدي الإفريقيين ، وكان الإنتاج الفلاحي يستجيب في بداية القرن العشرين لارتفاع الطلب الأوربي العظيم . وإذا كان النظام مرضياً من أجل الكاكاؤو والفول السوداني ، فقد كان قليلاً من أجل النخيل الزيتي الذي يقوم الأصلاء بقطافه ويستخرجون منه الزيت حسب طرق غير كاملة جداً . أما البنيات الإدارية ، فإن الإنكليز تبنوا وجهات نظر لوغارد مفوضهم السامي في نيجيريا الشمالية . لقد كان لهذا الضابط قناعاته الليبرالية والإمبريالية معاً ، ويرى أن الوسيلة الاقتصادية الأكثر اقتصاداً من غيرها والأكثر عدلاً لإدارة المناطق الحديثة الفتح في نيجيريا الواسعة ، هي أن تستعيد ، تحت الإشراف البريطاني حقاً ، البنيات الإقطاعية الموجودة ، الإمارات الأصلية في البلاد وتقلد مسؤوليات مالية وقضائية . وهذا المذهب الذي يلتقي بمذهب ليوتي المعاصر (« وضع الطبقة الموجهة في مصالحنا ») ويفكر بأن يسهل ، في مستقبل بعيد بأن الاستعمار ، كما كان يفكر بالإجماع ، في ذلك العصر ، له مهنته وحياته أمامه ، أي الانتقال إلى « الحكم الذاتي » . وامتد النظام قليلاً بعد حرب ١٩١٤ على ساحل الذهب لصالح الآشانتي . وأساء التكييف ، والحق يقال ، حيث لا يوجد النظام القبلي بقوة كافية .

في إفريقية السوداء الفرنسية : تفاوت التنمية

إن الأراضي التي كانت تحت الإدارة الفرنسية تضرب الحس ، باختلافها عن الأراضي السابقة لعدم كفاية عامة للاستصلاح والاستغلال ، وللصفة النظرية جداً

و « العائدة للوطن الأم » للحلول السياسية التي أبقيت فيها ، وذلك ، في آخر الحساب ، بهدف حربي أساساً ، كما يظهر ، يفرض فيها .

إلا أن مستعمرتين تتميزان عن الأخرى أما بتنميتها الأكثر تقدماً (كما في السنغال) وأما بالصفة المنظمة لسياسة التنمية التي طبقت فيها كما في (مدغشكر) . أما السنغال فقد تعاونت مع الوطن الأم في فتح « إفريقية الغربية الفرنسية » بجنودها . وكانت الأرض الوحيدة في إفريقية السوداء الفرنسية التي قدمت المثال الأول ، وكان محدوداً كثيراً في الحقيقة ، للتمثل بفرنسا: وهو مثال سن ـ لوي ، غوريه ، داكار وروفيسك ، هذه « النواحي الأربع » التي كان سكانها مواطنين ، وليسوا فقط رعايا فرنسية ، وينتخبون مجالسهم البلدية ، ومجلساً عاماً ، ونائباً ، وكان من فائدة السنغال أنها كانت تتصرف بزراعة تصدير في توسع وهي زراعة الفول السوداني . ومنذ ١٩٠٧ بوشر ببناء خط حديدي يتغلغل من تييس إلى كيس ليلحق في ١٩٢٣ خط كيس ـ كوليكورو ويجعل من داكار مخرجاً لكل حوض النيجر نحو الأطلسي . وفي مدغسكر كانت حكومة الجنرال غالّييني (١٨٩٦ـ١٩٠٥) ، في الوقت الذي كان خضوع الجنوب يتتابع تحت قيادة ليوتي ؛ وتفتح الطرق لاستعمار منظم موجه لأجل طويل ، وأيضاً نحو التمثل . كانت الإدارة الفرنسية تشرف فيها على الزعماء التقليديين لمختلف الجماعات العرقية : وبين هؤلاء المرينا حافظوا على فائدة ، وهي أن لغتهم حصلت على المساواة باللغة الفرنسية ، وبالانتقال من التعليم الابتدائي والابتدائي العالي ، يجهزون صغار الموظفين والدرك . وعلى الصعيد الاقتصادي ، فتح غالييني رحبات منذ ١٩٠٠ لبناء الخط الحديدي : تاناناريف ـ الساحل الشرقي ، وفي الوقت نفسه بناء الطرق بواسطة ضرائب عمل الأصلاء . ومع السماح بإقامة صغار المعمرين ، ويرجع أصلهم إلى جزيرة ريؤنيون ، وبعض الشركات . وكان يعتمد بخاصة على نمو اقتصادي نقدي في الجمهور المدغسكري ، بفضل الضغط الذي مورس بضريبة الرأس : وهذه الضريبة تجبر الفلاحين إما بأن يتخدموا عند المستعمرين ، وإما أن يزرعوا بأنفسهم محاصيل مخصصة

للتصدير . وكان هذا التصدير يمثل في القيمة أكثر من ٥٠٪ في ١٩١٤ ، بالقهوة ؛ وتصدير اللحم ، تحت شكل حيوانات حية أو محفوظة (كونسروة) ، قد لعب دوراً في تموين فرنسا أثناء الحرب العالمية الأولى .

أما مصير المستعمرات الأخرى فما زال ضعيفاً . فساحل العاج لم يكن فيه أي مدينة ولا أي ميناء يستحق هذا الاسم . ولم يكن الفتح فعلياً قبل ١٩١٤ في المنطقة الغابية التي تتوالى تقريباً دون مرحلة انتقال إلى منطقة المستنقعات البحرية . والاقتصاد ما زال بعد في مرحلة استغلال الموارد الطبيعية الخام ، وبصورة أساسية خشب الأكاجو . وتكاد توضع قضية تقليد ساحل الذهب المجاور في توسع زراعات الكاكاو . ولم يخرج السودان من اقتصاد الغذاء أو من أسلوب المبادلات التقليدية الذي يعتمد على إنتاج الحرف المحلية أو الصحراء الكبرى المجاورة .

وهكذا لم تخلف حمى الفتوحات والتقسيمات ، في هذا الجزء من الإمبراطورية الفرنسية حمى الاستثمارات ، لا في الخطوط الحديدية ولا في المناجم ولا في الزراعة . وحافظ الاستغلال غالباً على الشكل التقليدي في تجارة الرق . وحتى في حد التعامل مع الناس لم يكن شكلاً محسناً : « إن فرنسا المائة مليون نسمة » (مانجن) هي أولاً متروبول تستمد الاحتياطات الحربية من إفريقية الفقيرة .

الفصل الثامن
العلاقات الدولية
من ١٨٧١ إلى ١٩٠٤
المدخل

إن سقوط بسمارك في ١٨٩٠ ، يساعد على التمييز بوضوح بين دورين في تاريخ العلاقات الدولية من ١٨٧١ إلى ١٩٠٤ .

في الدور الأول ، مارست ألمانيا الهيمنة . وبقوة معتمدة على التحالف النمساوي ، حاولت أن تكبل لسياستها السلمية روسيا وإيطاليا . عزلت فرنسا ، وطوراً وطوراً هددتها وقدمت لها التحالف معها .

وبعد سقوط بسمارك ، خرجت فرنسا قليلاً قليلاً من عزلتها . تحالفت مع روسيا ، وتصالحت مع إيطاليا ، ووقعت مع إنكلترا اتفاقات ١٩٠٤ وتوطد توازن القوى من جديد في أوربة .

وافتتحت المسألة الشرقية مرتين من ١٨٧١ إلى ١٩٠٤ : أولاً بمبادهة روسيا التي حددت إنكلترا والنمسا ـ هونغاريا مكاسبها في مؤتمر برلين (١٨٧٨) ، ثم بمبادهة السلطان عبد الحميد الثاني . الذي نظم انطلاقاً من ١٨٩٤ مذابح أرمينيا ، وكريت وماكيدونيا .

وجنبت الحرب العامة أثناء هذه الخمس وعشرين عاماً ؛ ولكن المحاولات لتحديد أعباء السلام المسلح وتأمين التحكيم الإجباري أخفقت في أول مؤتمر في لاهاي (١٨٩٩) .

١ ـ وفاق الأباطرة الثلاثة ـ إنذار ١٨٧٥

وفاق الأباطرة الثلاثة :

غداة معاهدة فرنكفورت ، لم يكن بسمارك ليرغب بالفتوحات ، وانتقلت القضايا الداخلية إلى الصعيد الأول ؛ ولزم تنظيم الإمبراطورية ؛ لا سيا وأن النزاع مع الوسط قد بدت طلائعه . وقال بسمارك : « من مصلحتنا الحفاظ على السلام ... علينا أن نحاول تهدئة الأمزجة السيئة التي أثرناها عندما أصبحنا بحق دولة عظمى وصنعنا استعمالاً شريفاً وسلمياً من ثقلنا الخاص ... لسنا بحاجة لنوسع أرضنا الحالية ، هذا ما لا نستطيع عمله دون تعزيز العناصر الخارجة عن مركز هذا الصعيد » .

وهكذا فإن ألمانيا ، بأنانية مفهومة جيداً ، يجب أن تكون محبة للسلام ـ ولكن يجب أن تكون قوية أيضاً . وإن فرنسا ، في نظرها بقيت خطرة وتأمل بأخذ الثأر . لذا يلزم عزلها وتشكيل وفاق مع الدول العظمى الأخرى للحفاظ على الوضع الراهن . وقبل الآن ،أثناء الحرب الفرنسية ـ الألمانية ، كان بسمارك يفكر بحلف مع روسيا والنمسا ، وربما أيضاً مع إيطاليا . وهذا ما سيكون ، ضد فرنسا والاشتراكية الأممية ، حلفاً مقدساً جديداً . وكان لغليوم الأول وفرانسوا جوزيف عدة لقاءات في صيف ١٨٧١ ؛ وحصل بسمارك بأن عدوه ، الوزير الساكسوني السابق ، **بوستْ** ، الذي كان آنذاك مستشار النمسا ـ هونغاريا ، قد حل محله **آندراسي** وهو مجري لا يهتم بشؤون ألمانيا وينظر بخاصة نحو البلقان . وفي السنة التالية التقى فرنسوا ـ جوزيف والكسندر الثاني بغليوم الأول في برلين . وتعهد الأباطرة الثلاثة بألا يغيروا الوضع الراهن الأرضي ، وفي ١٨٧٣ ، فزع ملك إيطاليا نفسه من الدسائس الإكليركية في فرنسا ، وقام برحلة إلى فينا وبرلين . وهكذا تحققت غاية بسمارك . لقد كانت فرنسا معزولة .

بسمارك وفرنسا :

بالرغم من هذا الوفاق للحفاظ على السلام ، فإن الحرب كادت تنفجر من جديد ، في ١٨٧٤ ، وبخاصة في ١٨٧٥ إثر موقف بسمارك .

وما دام تيير رئيساً للوزراء في فرنسا على رأس السلطة ، فإن العلاقات بين فرنسا وألمانيا لم تكن سيئة ؛ إن العسكر الألمان ، الذين كانوا في فرنسا بعد الحرب ، كان الجنرال مانتوفيل يقودهم وهو رجل ذو بصيرة . عمل كل شيء ليتجنب الحوادث . وكانت فرنسا تدفع الغرامة بانتظام حتى أنها استطاعت أن تتحرر ، منذ بداية أيلول ١٨٧٣ ، ستة أشهر قبل التاريخ المتوقع . ولكن عندما خلفت وزارة ملكية وأكليركية وزارة تيير ، ظهر بسمارك في الحال أكثر عنفاً في ذلك الحين الذي كان فيه « **الكفاح لأجل الحضارة** » (أي الخلاف الذي قاوم فيه بسمارك الكاثوليك الألمان من ١٨٧١ إلى ١٨٧٨) في مرحلة حادة جداً استاء فيها المستشار الألماني من الهجومات العنيفة أحياناً التي كان بعض الأساقفة الفرنسيين يطلقونها ضده في رسائلهم الرعائية ومناشيرهم . وأراد من حكوة ڤرساي ملاحقتهم ، ولبلوغ أهدافه بدأ يهدد فرنسا بحرب جديدة في (١٨٧٤) .

إنذار ١٨٧٥ :

ولكن العلاقات بين البلدين بدت أنها عادت صحيحة فجأة في بداية نيسان ١٨٧٥ ، ثم توترت من جديد . فقد صوتت الجمعية الوطنية على قانون عسكري يزيد في عدد الملاكات (الكوادر) ويضع في كل سرية كتيبة رابعة . وهذا التدبير أقلق الأركان العظمى الألمانية . وكان مولتكه رئيس الأركان يرى سحق فرنسا قبل أن تكون مستعدة . وأظهرت بعض الصحف أن « الحرب في المستقبل مرتقبة » واسَرّ دبلوماسي بروسي ، صديق حميم لبسمارك ، إلى سفير فرنسا في برلين ، غونتو ـ بيرون ، بأخبار مقلقة ، وشكا سفير ألمانيا في باريس لدى وزير الخارجية الفرنسي ، دوكاز ،

من الصفة العدوانيـة للتسلحـات الفرنسيـة . وقلق دوكاز ، وطلب مسـانـدة الحكومتين الإنكليزية والروسية . وتدخلت الملكة فيكتوريا والقيصر شخصيـاً لـدى غليوم الأول ، وهدأ كل شيء .

ويبدو أن بسمارك مـدفوع بولتكـه ؛ وبـالرغم من أفكار غليوم الأول السلميـة كان يريد أن يحاول تخويف فرنسا ، وربما بتهديـدات مختلفـة ، ويجبرهـا على ترك أو تغيير قـانون ملاكات الجيش (الكوادر) ؛ ويريـد أيضـاً أن يعلم استعـداد الـدول الكبرى في حال احتمال حرب . إلا أنـه رأى ضـده تشكل ائتلاف معنوي ، حقيقي . لأن فرنسـا لم تكن منعزلة كما كان يفكر . والقيصر ، بصورة خاصـة ، بـدا أثنـاء أزمتي ١٨٧٤ و ١٨٧٥ مفعماً بـالمجـاملات حيـال السفير الفرنسي . ووزيره غورتشـاكوف ، المزهـو دومـاً ، زعم بصخب أنه أمّن السلام . غير أن بسمارك استاء وحقد عليه بشدة .

ويحـدث بسمارك أنـه قـال إلى غورتشـاكوف : « يجب ألا يقفز فجـأة على أكتـاف صديقه ، ليخرج مشهـداً في ملعب على حسـابـه ... وإذا كان هـذا يسليـك بـأن تكون مشهوراً في باريس ـ فليس هذا سبباً لتدمير علاقاتنا مع روسيـا . وإني أقبل طوعـاً أن تسك في برلين قطع نقود من خمسة فرنكات مع النقش « غورتشاكوف يحمي فرنسـا » . ونستطيع أيضاً أن نقيم مسرحاً في سفارة ألمانيا في باريس حيث تقدم للجمهور الفرنسي مع النقش نفسه بصورة ملاك حارس يرتدي لباساً أبيض مع أجنحة من نار بانغال » .

٢ ـ الحرب الروسية التركية ومؤتمر برلين (١٨٧٥ ـ ١٨٧٨) :

افتتاح المسألة الشرقية من جديد :

في الحرب الفرنسية ـ الألمانية عام ١٨٧١ افتتحت من جديد المسألة الشرقية بمبادهة من روسيـا ؛ وفي مـؤتمر لنـدن حـذف بنـد حيـاد البحر الأسـود . ولم تكتفِ السيـاسـة الروسية بهذا النجاح الأول . كما أن سقوط النفوذ الفرنسي الـذي خلف الهزيمـة في ١٨٧٠ ترك لها المجال حراً . وحركـة الجـامعـة السلافيـة ، التي كانت تمجـد برسـالـة روسيـا في

البلقان ، ضاعفت نشاطها بصورة خاصة لصالح البلغاريين : ففي ١٨٧٠ حصل القيصر لإنصاف هؤلاء السلافيين الذين كادوا بصعوبة يشعرون بجنسيتهم ، على كنيسة مستقلة ذاتياً ومستقلة عن بطريرك القسطنطينية اليوناني .

وفي الحقيقة إن روسيا كان بإمكانها أن تجد في وجهها معارضة النمسا ، لا لأن أندراسي كان يدفع لضم البلاد السلافية الصعبة التمثل ، ولكن الحزب العسكري حول فرنسوا - جوزيف ، كان يطالب بفتح البوسنة التي كان بإمكانها أن توسع ، كما تأمل دلماسيا النمساوية . وفي ربيع ١٨٧٥ ، قام الإمبراطور برحلة طويلة على الحدود التركية ، وتأمل سكان البوسنة والهرسك - في غالبيتهم صرب - أن بإمكانهم ، عند مقتضى الحال ، أن يعتمدوا على مساعدة النمسا .

وهكذا ، في ١٨٧٥ ، وضعت قضيتان جديدتان في البلقان : قضية البوسنة والهرسك ، والقضية البلغارية : الأولى تهم النمسا بخاصة ، والثانية تهم روسيا .

حرب البلقان :

لقد تمتعت البوسنة والهرسك بإدارة جيدة حتى عام ١٨٦٩ ، ولكن منذ ذلك الحين كان الحكام السيئون ينهكون البلد بالضرائب . وفي شهر تموز ١٨٧٥ ، انفجرت ثورة شعبية في قرية في الهرسك . وهذا الحادث المبتذل كان في أصل أزمة أوربية دامت ثلاثة أعوام (تموز ١٨٧٥ - تموز ١٨٧٨) . وجد أولاً تدخل دبلوماسي من الدول وما يقارب عامين من المفاوضات العابثة مع الباب العالي (آب ١٨٧٥ - نيسان ١٨٧٧) ثم إن إخفاق المفاوضات أدى إلى نزاع بين روسيا وتركيا ، حرب البلقان ، دام سنة (نيسان ١٨٧٧ - آذار ١٨٧٨) وفي آخر هذه الحرب ، قررت أوربة ، في مؤتمر برلين ، مرة أخرى ، تسوية للقضية الشرقية .

المفاوضات الأولى :

منذ بداية الثورة الشعبية . خشيت النمسا من أن ترى الثائرين يتحدون مع صربيا ، ولذلك حاولت أن تهدئ النزاع وطلبت من السلطان عبد العزيز وعوداً بالإصلاحات . ولكن البوسنيين رفضوا السلام ، حتى أنهم دعموا من قبل بعض العصابات البلغارية . فثارت ثائرة الأتراك وتركوا في بلغاريا جنوداً غير نظاميين يذبحون الألوف من الفلاحين ، بينما قتل في سالونيك القنصل الألماني والفرنسي . استاء غلادستون وأشهر ذلك في كتيب شديد اللهجة (فظائع بلغاريا) . وطالب غورتشاكوف وأندراسي ، يدعمها بسمارك ، بإصلاحات مباشرة مع التهديد بالعقوبات : ولكن موقف دزرائيلي الذي رفض الاشتراك معهما شل عملهما . وهذا العجز من أوربة دفع الصرب وسكان الجبل الأسود إلى إعلان الحرب على تركيا في الوقت الذي خلع فيه السلطان عبد العزيز وحل محله ابن أخيه عبد الحميد الثاني (حزيران ١٨٧٦) . أما القيصر الكسندر الثاني فقد انضم إلى فكرة الحرب : تفاهم مع أندراسي في مقابلة ريخشتادت في بوهيميا ؛ وفي حال النصر ، يضم بسّارابيا وجزءاً من أرمينية التركية ، فيما تحتل النمسا البوسنة . وبعد أن قوي بالحياد النمساوي ، تحزب للصرب وفرض على الأتراك هدنة وبدأ بالتعبئة .

أمام التهديد بحرب روسية ـ تركية طلب دزرائيلي انعقاد مؤتمر للسفراء في القسطنطنية لوضع خطة إصلاحات . ولجأ السلطان عبد الحميد إلى حيلة : خوّل دستوراً ليبرالياً ، ثم قدم طلبات المؤتمر إلى مجلس وجهاء رفضها باعتبارها مخالفة للدستور . وعندئذ غادر السفراء القسطنطينية ، في كانون الأول ١٨٧٦ . ولم يكن كل هذا التزيين لليبرالية إلا وسيلة ليلعب بها على أوربة ، لأن الدستور لم يطبق أبداً .

أمام إخفاق المؤتمر ، شد القيصر أواصر وفاقه مع النمسا وأعلن الحرب على تركيا في ٢٤ نيسان ١٨٧٧ . وقبل بضعة أيام كان قد أجبر شارل أمير رومانيا على التحالف

معه . وأعلنت الحكومة الإنكليزية عن حيادها بعد أن أخذت وعداً بألا تحتل الجيوش الروسية بأي حال من الأحوال مضايق : البوسفور والدردنيل ، وقناة السويس والأرض المحيطة بالخليج العربي . وقبل بدء الحرب ، وجد أن روسيا طرحتها النمسا من البلقان الغربي ، ومن قبل إنكلترا أيضاً من القسطنطينية ومن طريق الهند .

الحرب :

كان الروس يأملون بنصر سريع . ولكن إذا كان الجنود كدأبهم دوماً شجعاناً جداً ، فقد كانوا مجهزين بشكل سيء ، والتموين والخدمات الصحية كانت غير كافية . والقيادة العليا ضعيفة . وكانت الحملة العسكرية تكراراً لحملة ١٨٢٨ ـ ١٨٢٩ . في البدء ، نجاحات سريعة على الدانوب وفي أرمينيا ؛ ثم توقف ستة أشهر ، وأخيراً تقدم حاسم .

وانتشر جيش روسي / روماني بقيادة أخ القيصر ، الدوق نيقولا الأكبر ، على الدانوب ، واجتازه دون صعوبة (حزيران ١٨٧٧) ثم إن جيشاً مؤلفاً من ٦٠٠٠ رجل تحت أوامر الجنرال **غوركو** حاول غارة جريئة ، واجتاز البلقان ـ ولكنه هوجم بعنف واضطر إلى الانطواء على عجل . وفي الوقت نفسه جمد الجناح الأيمن الروسي أمام **بلفنا** بأفضل قادة الأتراك ، عثمان باشا : فقد حول هذه المدينة المكشوفة إلى معسكر كبير محصن ودفع هجمات الروس كلها . واضطر الدوق الأكبر إلى الإذعان إلى حصار حسب الأصول وجهه تودلبن ، بطل سيباستوبول . وبعد دفاع عظيم ، غادر عثمان باشا الموقع ؛ وحاول عبثاً اقتحام خطوط العدو ، وجرح وأسر ، في ١٠ كانون الأول ١٨٧٧ . واستأنف الروس الهجوم بحملة قوية في الشتاء ، وسط مصاعب فظيعة ، وبعد أن احتلوا صوفيا وأدرنة زحفوا إلى القسطنطينية . وفي آسيا كان جيش القوقاز متوقفاً زمناً طويلاً أمام حصن قارس ، ثم تقدم بسرعة نحو أرضروم وطربزون . وفي الوقت نفسه حمل الصرب والجبل الأسود السلاح ثانية . وطلب السلطان عبد الحميد هدنة : وقلق الدوق الأكبر من نضوب قوة جيوشه ، ولم يكن مطمئناً للرومانيين . فوافق على هذه الهدنة في ٣١ كانون الثاني ١٨٧٨ .

معاهدة سان ستيفانو :

إن انهيار تركيا والخوف من احتلال الروس للقسطنطنية قد يؤديا إلى نزاع إنكليزي ـ روسي . لهذا أمر دزرائيلي بإدخال بعض المدمرات في بحر مرمرة . ودفع الروس طلائعهم حتى سان ستيفانو ، على أبواب القسطنطينية . ورجا السلطان الملكة فيكتوريا لاستدعاء سفنها ـ وهذا ما فعلت ـ ثم وقع مع الروس معاهدة سان ستيفانو (في ٣ آذار ١٨٧٨) وهذه أهم بنودها :

أولاً : أن تتخلى تركيا لرومانيا عن هضبة الدوبروجا في جنوب أفواه الدانوب ، ولروسيا عن جزء عظيم من أرمينية ؛ وتعهدت بدفع غرامة حرب ثقيلة .

ثانياً : أنشأت المعاهدة دولة مسيحية جديدة ، **بلغاريا** التي تمس نهر الدانوب في الشمال ، وبحر إيجة في الجنوب ، وتمتد من الشرق إلى الغرب من البحر الأسود إلى جبال ألبانيا ، شاملة على هذا النحو تقريباً ماكيدونيا كلها . وفي السنتين التاليتين لتوقيع السلام يحق لروسيا تنظيم بلغاريا بل واحتلالها عسكرياً .

ثالثاً : إن رومانيا التي أخذت الدوبروجا تخلت بالمقابل لروسيا عن جنوب بسّارابيا ؛ وأصبحت مستقلة تماماً كصربيا والجبل الأسود اللتين كبرتا ببعض الأراضي .

وهكذا اقتصرت تركيا في أوربة على ثلاثة أقسام منفصلة : تراكيا ، شبه جزيرة سالونيك ، وفريق أقاليم الغرب ـ تساليا ، أبيروس ، ألبانيا ، البوسنة والهرسك . وتعهد السلطان أيضاً بإدخال إصلاحات تحت الرقابة الأوربية في كل الأقاليم المسيحية في إمبراطوريته . وهذا يعني تجزئة تركيا .

مقاومة أوربة :

أثارت معاهدة سان ستيفانو مباشرة احتجاجات أوربة ؛ طالبت النمسا ، باسم اتفاق رايخشتادت ، بنصيبها من الغنائم ، وبخاصة إنكلترا التي لم تستطع أن تقبل مثل هذا التوسع للنفوذ الروسي في البلقان .

« كانت الملكة فيكتوريا تدفع دزرائيلي إلى الحرب وتقول « كن جريئاً » ... إن مهلة بضعة أسابيع ، بضعة أيام ، يمكن أن تكون قاضية ... واغتمت الملكة لأنها لم تر شيئاً يعمل ... ولم تسمع كلاماً بأي حركة عسكر وأصبحت أكثر فأكثر فزعة قلقة ... والكلام ، كلام الشتيمة الذي يستعمله الروس ضدنا ! إن هذا يغلي دم الملكة . ماذا أصبحت عواطف الكثير من رجال هذا البلد ؟ » .

لقد أفهم دزرائيلي غورتشاكوف بأنه على استعداد للحرب في الحالة التي ترفض فيها روسيا إخضاع معاهدة سان ستيفانو لفحص الدول العظمى . وحشد جنوداً في جبل طارق وفي مالطه ، وأتى من الهند بفرق من السباهيين . وأعلن بسمارك في خطاب عظيم في الرايخشتاغ بأن المعاهدة الروسية ـ التركية يجب أن تقبل من الدول الموقعة على مؤتمر باريس .واقترحت النمسا ـ هونغاريا انعقاد مؤتمر في برلين . واضطر غورتشاكوف إلى التنازل . وأراد على الأقل أن يتفاهم مسبقاً مع إنكلترا ، أفظع خصومه . وتناقش سفيره في لندن شوفالوف سراً مع دزرائيلي بالتبديلات التي يجب إدخالها على المعاهدة : وانتهى بالتخلي عن بلغاريا الكبرى وعن جزء من أرمينية . وعندئذ فقط قبلت روسيا الظهور أمام مؤتمر أوربي . وإنكلترا ، بحجة أنها تدافع بشكل أفضل عن تركيا آسيا ضد المطامع الروسية ، اضطرت السلطان إلى التخلي لها عن جزيرة قبرص (حزيران ١٨٧٨) .

مؤتمر برلين :

انعقد مؤتمر برلين من ١٥ حزيران إلى ١٤ تموز ١٨٧٨ وحرص كل من غورتشاكوف ، ودزرائيلي ، وأندراسي أن يأتوا ويحضروا شخصياً . وكان بسمارك رئيس المؤتمر . وقد وعد من قبل بأن يكون « السمسار الشريف الذي يريد فعلاً أن يصل بالقضية إلى خير نتيجة » . وفي الواقع عرف كيف يهدئ الخلافات التي تحتدم بين غورتشاكوف ودزرائيلي ، هذين العجوزين العاجزين والنزقين أيضاً اللذين يتناقشان

أحياناً على خارطات لا يعرفان قراءتها وعلى حدود يجهلانها . وبالمقابل أبدى احتقاراً كلياً للجنسيات الصغيرة ولتركيا .

وحتى قبل بدء الحرب أكد تجرده : « لن أنصح إذن بمشاركة ألمانيا الفعلية في شؤون الشرق ، لأنني لا أرى فيه بالإجمال لألمانيا مصلحة تستحق فقط ـ اعذروالي جفاء التعبير ـ عظام جندي يوميراني مسلح ببندقية » وأكد أيضاً حياده تجاه النمسا وروسيا .

« إذا تحزبت لإحدى الدولتين ، فإن فرنسا تنقلب في الحال من الجهة الأخرى ... إنني أمسك بوجهي شعار من عقدهما وأبعدهما بعناية الواحد عن الآخر ، أولاً لئلا يفترسا بعضهما ، وثانياً لئلا يتفقا على حسابنا » . ولكنه أجاب بفظاظة المندوب التركي الذي أبدى بعض التحفظات » بأنه ليس من مصلحة الباب العالي أن يخلق صعوبات ... ويعيق أعمال « المجلس السامي » وقال إلى الأتراك أيضاً في يوم آخر : « إن المندوب لا يأتي إلى المؤتمر ليناقش » وصرخ : تأتون للكلام عن اللاز (شعب القوقاز) وهل يستحق النقاش به طويلاً في يوم قائظ ؟ » .

وأخيراً سوى مؤتمر برلين القضية الشرقية على النحو التالي :

١ ـ إن بلغاريا معاهدة سان ستيفانو جزئت إلى ثلاثة أجزاء : بين الدانوب والبلقان شكلت **بلغاريا الأصلية** إمارة تابعة ؛ وفي جنوب البلقان . الروميلي الشرقية تشكلت في إقليم مستقل ذاتياً تحت حاكم مسيحي يسميه السلطان بموافقة الدول ؛ وأخيراً ماكيدونيا بكاملها وضعت من جديد تحت سلطة السلطان المباشرة مع الوعد بإصلاحات .

٢ ـ أن تحتل النمسا هونغاريا ، باسم تركيا ، البوسنة والهرسك وسنجق نوفي بازار ، الذي يفصل صربيا عن الجبل الأسود .

٣ ـ الإمارات : الجبل الأسود ، وصربيا ، ورومانيا التي أصبحت مستقلة تماماً

أخذت الأولى ميناء أنتيڤاري ، والثانية منطقتي نيش وپيروت[1] ؛ والثالثة الدوبروجا وأفواه الدانوب . وبالمقابل ، تتخلى رومانيا عن جنوب بسارابيا إلى روسيا التي تكسب من جهة أخرى ، في أرمينية ، قارس وميناء باطوم .

٤ ـ أخيراً ، بناء على طلب فرنسا ، وعدت أوربة اليونان بتوسيعات في تساليا ، وفي إبيروس ، وتعهدت بالعمل على تطبيق الإصلاحات في ارمينية التركية وفي كريت .

صفات ونتائج معاهدة برلين :

لقد كانت معاهدة برلين أبعد من أنه تكون معاهدة سلام ، وأطالت بقاء الصعوبات الموجودة وأوجدت صعوبات جديدة .

١ ـ إن معاهدة سان ستيفانو ، بتأسيسها بلغاريا الكبرى ، قد أمنت تحرير أكثرية المسيحيين الواسعة في البلقان ، ووضعت من جديد مسيحيي ماكيدونيا تحت النير التركي ، وظلت قضية ماكيدونيا خلال أكثر من ثلاثين عاماً ، حتى ١٩١٣ سبب قلق ، بالنسبة لأوربة .

٢ ـ وبفصل الروميلي عن بلغاريا ذهبت المعاهدة إلى نقيض إرادة الشعب البلغاري ؛ ومن هنا بعد بضع سنوات سنرى الثورة الروميليوتية ، وحربا بلغارية ـ صربية ، ومصاعب طويلة دبلوماسية .

٣ ـ وبالمصادقة على اتفاقات رايخشتادت خلقت معاهدة برلين ، وبتسليمها للنمسا البوسنة والهرسك التي ضمتها إليها في ١٩٠٨ ، « إلزاس ـ لورين » صربية .

٤ ـ وبالإسهام في جعل النمسا دولة بلقانية ، وإثارة الطمع عندها لبلوغها يوماً ما

(١) پيروت PIROT .

سالونيك وبحر إيجة ، دبرت مباشرة خلافاً نمساوياً ـ روسيا خرجت منه في ١٩١٤ حرب أوربية .

٥ ـ وأخيراً أنجزت معاهدة برلين كسر وفاق الأباطرة الثلاثة . واتهم الرأي الروسي بسمارك بأنه كان يدعم ويدعم أيضاً مصالح النمسا على حساب مصالح روسيا ، وقام محبو السلاڤية ضد ألمانيا بحملة صحافة عنيفة للغاية . ولام القيصر غليوم الأول على جحوده في (آب ١٨٧٩) . وسيدفع عداء روسيا بسمارك إلى التقارب بصورة وثيقة أكثر من النمسا . وأصبح الاتحاد الحميم مع النمسا منذ الآن وظل مؤشراً بارزاً للسياسة الألمانية حتى ١٩١٨ . ولدعم النمسا كادت تقوم بالحرب في ١٩٠٩ ، ولكنها فعلتها في ١٩١٤ .

٣ ـ أوج السياسة البسماركية

(١٨٧٩ ـ ١٨٩٠)

الحلف النمساوي ـ الألماني (الدّبليس) :

غداة معاهدة برلين ، كان أندراسي ، كبسمارك ، يخشى حقد القيصر . وقرر المستشاران إبرام حلف دفاعي ضد روسيا . في البدء ـ رفض غليوم الأول هذا الحلف بعنف . وفكر بالتنازل عن العرش من أن يرتكب حيال ابن أخته ما كان يسميه « خيانة » ولكنه سلم بالأمر فقط عندما هدد بسمارك باستقالته واستقالة جميع وزرائه . وهكذا وقّع الحلف النمساوي ـ الألماني في ٧ تشرين الأول ١٨٧٩ . ويقضي هذا الحلف بأنه إذا هوجم أحد الحليفين من قبل روسيا أو من دولة تدعمها روسيا ، فإن الآخر يأتي لنجدته بكل قواه .

عصبة الأباطرة (تريبليس) :

لقد ظل التحالف مع النمسا بالنسبة لبسمارك التحالف الأساسي . ومع ذلك فهو

لا يستهين بأحلاف إضافية « تدابير مؤقتة » يمكنها أن تقوي الـدبليس ، الحلف الثنـائي السابق . وهذه الضمانات الإضافية وجدها في وفاقين مع روسيا ومع إيطاليا .

وبعد أن خفّت أحقاد روسيا كان بعض الدبلوماسيين من محبي الجرمان يرغبون في عقد علاقات ودية مع ألمانيا . وبسمارك ، الذي كان يخشى تحالفاً بين فرنسـا وروسيـا ـ نصح به محبو السلافيـة القيصر الكسنـدر الثـاني بشـدة ، استقبل بترحـاب هـذه الإرادة الطيبة . وفي ١٨٨١ ألّف مع السفيرين النمساوي والروسي في برلين . « عصبـة الأبـاطرة الثلاثة » وغايتها توطيد وفاق ١٨٧٢ والحفاظ على « الوضع الراهن » الأرضي .

وفي السنة التالية قبل بسمارك ضماناً آخر للسلام ؛ وهو اشتراك إيطاليا في سياستـه التحالفية . وبالرغم من رحلة فيكتور عمانوئيل الثـاني إلى فينـاو إلى برلين في ١٨٧٣ ، لم يعقد حلفاً مع الدول المركزية . وقامت حوادث عنيفة في تريستـاو في الترانتـان كادت تشعل النار بين إيطاليا والنمسا . ولكن فتح فرنسا لتونس استاءت منه إيطاليـا ورمت نفسها في أحضان النمسا وألمانيا . وكان بسمارك وفرانسوا ـ جوزيف يحتقران الإيطـاليين وأبديا في البدء قليل حماسة لقبول عروضهم . ومع ذلك وقع في ٢٠ آيـار ١٨٨٢ ، **الحلف الثلاثي** . وكان بخاصة مفيداً لألمانيا التي حصلت على حليفة ضد فرنسا ؛ والنمسا تكسب فيـه القـدرة ، في حـال حرب مـع روسيـا ، وعلى إخـلاء حـدودهـا على الألب . أمـا إيطاليا ، فلم تكن مؤمنة إلا ضـد عـدوان فرنسي يبـدو أنـه قليل الاحتمال . وبـالمقـابل كانت تحت رحمة حادث حدود فرنسي ـ ألمـاني ؛ ولم تحصل على أي نجـدة لأجل توسعهـا الاستعماري في حين أن هذه الرغبة في التوسع دفعتها إلى الحلف ؛ وأخيراً يبدو أنها تخلت بوفاقها مع النمسا عن كل « مطـالبـة أرضيـة » تخصهـا . والمـادتـان الآتيـان من الميثـاق تشرحان الوضع .

البنـد ٢ ـ في الحـال التي تكون فيهـا إيطـاليـا مهـاجـمةً ، دون إثـارة مبـاشرة من جانبهـا ، من قبل فرنسـا لأي سبب كان ، يلتزم الطرفـان المتعـاقـدان بنجـدة الطرف

المهاجَم ومساعدته بكل قواهما . وهذا الالتزام نفسه يقع على إيطاليا في حالة عدوان غير مثار مباشرة ، من فرنسا ضد ألمانيا .

البند ٣ ـ إذا هوجم طرف أو اثنان من الأطراف السامية المتعاقدة ، دون إثارة مباشرة من طرفها ، ووجدا ملزمين بحرب مع اثنين أو أكثر من الدول غير الموقعة على هذه المعاهدة ، فإن جميع الأطراف السامية المتعاقدة تأتي لنجدته أو نجدتها .

وأخيراً وسعت النمسا وألمانيا نفوذهما على البلقان بتوقيع معاهدات تحالف مع صربيا (١٨٨١) ورومانيا (١٨٨٤) . وبدا أن بسمارك قد وطد هيمنته بشكل دائم . ولإنجاز عمله لم يبق له إلا مقاومة فرنسا وإنكلترا اللتين كانتا على علاقات طيبة . وستكون شؤون مصر لعبته .

أصول حرب مصر :

منذ ١٨٦٣ كان الخديوي إسماعيل (١٨٦٣ ـ ١٨٧٩) ، حفيد محمد علي يحكم مصر . كان عاهلاً ذكياً ، وعقلاً منفتحاً . وفردينانـد دولسّبس المهندس الفرنسي مدين له بإنهاء بناء قناة السويس التي دشنت في ١٨٦٩ ـ ولكن ذوق الأبهة أدى به إلى صرف أموال طائلة . وللحصول على المال ، ترك لإنكلترا في ١٨٧٥ ، أسهمه في قناة السويس وعددها ١٧٦٠٠٠ سهم . وهكذا حصلت الحكومة الإنكليزية على ثلث الأصوات في مجلس إدارة شركة القناة . وفي السنة التالية كان الخديوي بحاجة إلى المال بعد أن نفدت موارده ولم يستطع دفع قسية الدين . وعندئذ طلبت أوربة حق الإشراف على الأموال المصرية . من جهة ألغت **لجنة الدين** المكلفة بالاقتطاع من حصيلة الضرائب ، المبالغ الضرورية لدفع القسائم ، ومن جهة أخرى فرضت على الخديوي نظام الرقابة المشتركة المالية الإنكليزية ـ الفرنسية : ووجد مراقبان أحدهما إنكليزي والآخر فرنسي يراقبان واردات ونفقات مصر . وعندما أراد إسماعيل في ١٨٧٩ طرح هذه الوصاية خلعته الدول عن العرش بأمر من السلطان العثماني . وخلفه ابنه **توفيق** وقام المراقبان ببعض

الإصلاحات . ولكن بينما كانت فرنسا لا تهتم إلا بالقضية المالية ـ أي جعل مصر قادرة على الدفع ـ كانت إنكلترا تحاول بخاصة توطيد سلطتها السياسية على البلاد . وقدمت لها ثورة الحزب الوطني في مصر الفرصة التي كانت تبحث عنها .

التدخل الإنكليزي في مصر :

كان جزء صغير من الرأي العام المصري يأخذ على توفيق ضعفه حيال الأجانب ، لا الأوربيين فحسب ، ولكن أيضاً الترك والشراكسة الذين حوله . وهكذا تشكل **حزب وطني** دخل فيه عدد من الضباط يقودهم الزعيم **عرابي** . وفي ١٨٨١ نظم المستاؤون مرتين ثورات عسكرية . وغامبتا الذي أصبح رئيس وزراء فرنسا في تشرين الثاني ١٨٨١ ، أراد التدخل باتفاق مع إنكلترا دون بقية الدول الأخرى ، لإرجاع سلطة توفيق . ولكن إنكلترا لم يكن لها أي رغبة في مقاسمة فرنسا هذا النفوذ الذي تأمل أن تمارسه وحدها في مصر . وطالت المفاوضات حتى سقوط غامبتا ، في ٣٠ كانون الثاني ١٨٨٢ .

وكذلك خلفه فريسينيه لم يشأ يعمل إلا بناء على انتداب من أوربة . واقترح عقد مؤتمر سفراء في القسطنطينية وطلب أثناء مدة المحادثات بألا تتدخل أي دولة منفردة في مصر . وقبلت إنكلترا ، ولكن « تحت حيطة حالة قوة قاهرة ، مثل ضرورة حماية حياة مواطنيها » . وفي ذلك الحين ، في ١١ حزيران ١٨٨٢ ، انفجرت ثورة شعبية في الإسكندرية كلفت حياة ستين أوربياً . وبالرغم من أن المؤتمر كلف رسمياً تركيا بإعادة توطيد النظام في مصر ، فإن إنكلترا عملت بجرأة وأرسلت إلى عرابي إنذاراً يطالب بأن يكف مباشرة عن وضع حصون الإسكندرية في حالة دفاع ؛ ثم طلبت من فريسينيه إذا كان بالإمكان أن يساند الأميرال الفرنسي زميله الإنكليزي في حال رفض الإنذار . أما فريسينيه فقد التزم ببروتوكول عدم الاهتمام بالمنفعة الذي اقترحه نفسه وأجاب بالرفض . وفي ١١ تموز فتح الأميرال الإنكليزي النار على حصون الإسكندرية وبعد

بضعة أيام أنزل العسكر في المدينة . وهذا الامتناع الأول من فرنسا أعطى لإنكلترا مدينة الإسكندرية .

وبعد قليل ، طلبت حكومة لندن من المؤتمر حماية قناة السويس التي ، يقال ، بأن عرابي أراد ردمها . وعندئذ تهيأ فريسينيه للتدخل لإنقاذ هذا العمل الفرنسي وطلب من المجلس اعتماد بضعة ملايين فرنك . ولكن المعارضة ، التي كان يوجهها كليمنصو ، أخذت عليه أنه يريد أن يعمل دون انتداب أوربة ويحشر فرنسا في مصر فيما يهاجمه بسمارك على جبال الفوج . ورفضت الاعتمادات واستقال فريسينيه (٢٩ تموز) . وغداة سقوطه تلقى مذكرة من بسمارك يحضه فيها على العمل معاً للدفاع عن القناة - هل أريد هذا التأخير أو أنه ناجم فقط عن « حادث عامي في النقل التلغرافي » . لا نعلم !

وبذل غامبتا جهداً عظيماً للحصول على تصويت على الاعتمادات : « لا تدعو تراث فرنسا يتضاءل . فليس هذا لأجل الجنسية المصرية ... يجب الذهاب إلى مصر ، لأجل الأمة الفرنسية ... وإن أخشى ما أخشاه أن تسلموا إلى إنكلترا ، وإلى الأبد ، أراضي ، أنهاراً وممرات حيث حقكم في الحياة والتجارة مساوٍ لحقها » . ولكن كليمنصو أبدى رأيه ضد كل تدخل . « إن أوربة مغطاة بالجنود ، وكل العالم ينتظر . الدول تدخر حريتها لأجل المستقبل ، فلندخر حرية فرنسا » . ورفض اعتماد ٩ مليون فرنك بـ ٤١٧ صوتاً ضد ٧٥ ؛ والبرلمان الإنكليزي صوت على ٥٧ مليون .

عمل الإنكليز وحدهم . وفي بداية شهر آب احتلوا قناة السويس ثم زحفوا إلى القاهرة . وبعد أن فرقوا جيش عرابي ، دخلوا المدينة (في ١٥ أيلول ١٨٨٢) . وهكذا فإن الامتناع الثاني لفرنسا أعطى إنكلترا القناة وكل مصر الدنيا .

وأكد غلادستون بأبهة أن الاحتلال لم يكن إلا وقتياً وسيجلو عن البلاد بتوطد النظام . ولكن ثورة المهدي في السودان الشرقي (المصري) كانت حجة ممتازة لئلا

يتخلى عن وادي النيل وكذلك **ومن حجة** أخرى وهي أن امتلاك مصر ، مرحلة على طريق الهند بين مالطة وعدن ، تهم **إنكلترا** كثيراً لئلا تتخلى عنها . وألغي نظام الرقابة المشتركة (كانون الثاني ١٨٨٣) وظلت فرنسا ترفض حتى ١٩٠٤ الاعتراف بالأمر الواقع والعلاقات التي كانت حتى ذلك الحين ودية ، توترت بين باريس ولندن . لقد حققت القضية المصرية حلم بسمارك لأن فرنسا كانت معزولة أكثر من أي وقت مضى .

مؤتمر برلين :

كان نفوذ بسمارك يزداد كل يوم . وعندما كان القصد ، في ١٨٨٤ ، تسوية بعض النزاعات في إفريقية ، كان المؤتمر ينعقد في برلين تحت رئاسة بسمارك . وكان هدف المؤتمر تحديد مصير حوض الكونغو . وفي ١٨٧٦ تأسست في بروكسيل ، تحت رعاية ملك بلجيكا ، ليؤبولد الثاني ، **الرابطة الدولية الإفريقية** بغية مكافحة الرق . وفي ذلك التاريخ ، كان وسط القارة مجهولاً تقريباً . ولكن ، في ١٨٧٧ ، نشر المكتشف الأميركي **ستانلي** نتائج الرحلة الكبرى التي قام بها . وعندئذٍ فكر ليؤبولد الثاني بإنشاء دولة جديدة في هذه المناطق ، وأسس ، لهذا الغرض ، لجنة « **رابطة الكونغو الدولية** » التي كلفت ستانلي بأن يتملك ، لحسابها ، منطقة الكونغو . وفي الوقت نفسه كان **برازا** يكتشف لحساب فرنسا ضفة النهر اليمنى ، والبرتغاليون أقاموا على المصب ، ووجب بالضبط تحديد حصة كل من المتنافسين . وكان هذا موضوع **مؤتمر** برلين (آخر ١٨٨٤ ، وبداية ١٨٨٥) وخصص كل وسط إفريقية الاستوائية ، على الضفة اليسرى لنهر الكونغو ، إلى الرابطة الدولية وشكل **دولة الكونغو المستقلة** ، وكان ليؤبولد الثاني عاهلها . وحصلت فرنسا على الاعتراف لها بحق الأفضلية في الحالة التي تترك فيها الرابطة الدولية كل أو جزءاً من دولة الكونغو . ثم في الآجل ، قبلت بأن يحذف هذا الحق إذا رغبت مملكة بلجيكا بأن تكون مالكة لدولة الكونغو ـ وهذا ما حصل في ١٩٠٩ عند وفاة ليؤبولد الثاني .

ونص المؤتمر أيضاً على الملاحة الحرة على نهر الكونغو والنيجر ، وثبت الشروط المقبولة لاحتلال جديد على سواحل إفريقية يعتبر فيها حقيقياً ، ونشر مرسوماً بالتدابير التي يجب أن تتخذ ضد تجارة الرق .

القضايا البلغارية والتوتر الفرنسي الألماني :

وفجأة . في أوربة التي يريد بسمارك أن يحافظ فيها على السلام ، كاد خلافان خطيران جداً أن يؤديا إلى حرب مزدوجة ، وهما : قضايا بلغاريا والتوتر الفرنسي - الألماني .

لم يقتلع القيصر بلغاريا من النير التركي إلا على أمل أن يعمل منها محمية روسية : فقد أعطاها عاهلاً أحد أحفاد ابن أخيه ، **الكسندر دوباتنبرغ** . وما لبث الأمير أن جزع من وصاية عمه ، وبنوع من انقلاب ، تحرر منها . وبعد قليل ، في ١٨٨٥ . اندلعت **ثورة روميليوتية** : إن إقليم الروميلي المأهول بالبلغاريين ، ولكنه ظل تحت سيطرة تركيا ، ثار وأعلن اتحاده مع بلغاريا . وروسيا التي فسدت علاقاتها مع باتنبرغ ، احتجت . أما من جهة الصرب ، فقد كانوا قلقين من توسع بلغاريا ، واجتاحوا الإمارة ، ولكنهم خذلوا في كل مكان ، ولم ينقذوا إلا بوساطة النمسا (تشرين الثاني ١٨٨٥) . والنجاحات البلغارية اضطرت أوربة إلى قبول اتحاد بلغاريا والروميلي . إلا أن الكسندر الثالث وحده رفض التخلي والتنازل ، وأجبر باتنبرغ على التنازل عن العرش ، وحاول أن يقيم في صوفيا وصاية محبة لروسيا . والنمسا - هونغاريا ، تساندها إنكلترا ، استاءت من وضع القيصر يده على بلغاريا ، وبدت مستعدة لمجابهة الحرب ، بالرغم من جهود بسمارك السلمية . وجنبت الحرب ، ولكن القيصر لم يغفر للنمسا . ولم يعترف أبداً بأمير البلغار الجديد ، **فردينااند دوساكس - كوبورغ** ، وهو حفيد لوي - فيليب بأمه ، وضابط في الجيش النمساوي .

وإذا كان بسمارك يحاول تهدئة النزاعات في الشرق ، فقد بدا ، إن لم يثر النزاعات ، فعلى الأقل كان لا يخشاها من جهةالفوج . ومنذ مؤتمر برلين كان يظهر أنه يريد التقرب من فرنسا ؛ وقال إنه يأمل « بأن تصفح عن سودان كما صفحت عن واترلو » ونصحها بالاستيلاء على تونس ؛ وإذا لم يناور ضدها في قضايا مصر ، فقد كان في مؤتمر برلين ضد المزاعم الإنكليزية ـ البرتغالية . ولكنه علم بعد ذلك بأنها « لن تغفر له سودان » وكانت **عصبة الوطنيين** تراودها فكرة الثأر ويطالب الجنرال بولانجيه بزيادة الاعتمادات للجيش . ومنذ آخر ١٨٨٥ وفي كل سنة ١٨٨٦ توترت العلاقات من جديد بين باريس وبرلين .

وبدت الحالة خطيرة جداً منذ بداية ١٨٨٧ : فقد حلّ بسمارك الرايخشتاغ وللحصول على انتخابات جيدة ذكر بخطر « الثأر الفرنسي » . ثم فاجأت **قضية شنابيليه** . ففي ٢٠ نيسان ١٨٨٧ ، جاء مفوض پاني على الموزيل ، شنابيليه . إلى الحدود بدعوة من زميله الألماني في قرية مجاورة . فأوقف ، على غير علم بسمارك ، كما يبدو ، بحجة أنه يقوم بالتجسس . وخلال بضعة أيام أمكن الخوف من حرب ، ثم أطلق سراح شنابيليه وهدأت الأزمة .

نتائج الأزمة المزدوجة :

كان نتائج الأزمة المزدوجة النساوية ـ الروسية والفرنسية ـ الألمانية ذات أهمية عظيمة .

١ ـ إن القيصر الذي فسدت علاقاته مع النسا ، لم يشأ تجديد عصبة الأباطرة الثلاثة التي وصلت إلى نهايتها في ١٨٨٧ ، فخاف بسمارك من أن يتحول إلى جانب فرنسا ، ولذلك قرر أن يربطه به بوفاق الدولتين الألمانية والروسية وعقد معه معاهدة التأمين الجديد (حزيران ١٨٨٧) ، وعاد إلى الفكرة التي كان يطرحها غالباً ، واعترف له بحق بسط نفوذه في القسم الشرقي من البلقان .

وفي هذه الحـال قـال : « إن بروتوكولاً ملحقاً سرياً تماماً » يرى فيـه صـاحب الجلالة إمبراطور روسيا نفسه في ضرورة وهي أن يـأخـذ على عـاتقـه عمل الـدفـاع من مدخل البحر الأسود لصيانة مصالح روسيا ، وتعهدت ألمانيا بأن تخول حيادها العطوف ومساندتها المعنوية والدبلوماسية للتدابير التي يرى صاحب الجلالة أنها ضروريـة للأخـذ بها لحماية مفتاح إمبراطوريته » .

٢ ـ والحلف الثلاثي ، هو أيضاً بلغ نهايتـه في ١٨٨٧ . وألمـانيـا كانت على علاقـات سيئة مع فرنسا ، والنمسا على علاقـات سيئـة مع روسيـا ، ولـذلـك كان من مصلحتهما تجديده . وإيطاليا عرفت بمهارة كيف تستفيـد من الظروف وتكسب فوائـد لم تمنحهـا لهـا معـاهـدة ١٨٨٢ . وحصلت من النمســا على أن أي تغيير في البلقــان لا يعمـل دون موافقتها ؛ وتعهدت ألمانيا بمساعـدتهـا بكل قواهـا في الحـالـة التي يمكن فيهـا للخلافـات الاستعمارية أن تثير حرباً فرنسية ـ إيطالية . وهكذا فإن إيطـاليـا التي كانت في ١٨٨٢ تلتمس التحالف مع ألمانيا والنمسا ، فرضت عليهما الآن وجهات نظرها .

أما الاتفاق الخـاص بين أيطـاليـا والنمسـا ـ هونغـاريـا فيعرف موقف الـدولتين في القضايا البلقانية : « في الحـال التي يصبح فيهـا الحفـاظ على الوضع الراهن مستحيلاً في منطقة البلقان أو السواحل والجزر العثمانيـة في بحر الأدريـاتيـك وفي بحر إيجـة ، وترى النمسـا هـونغـاريـاً أو إيطـاليـا نفسيهما في ضرورة تغييره بـاحتـلال مـؤقت أو دائم من جانبهما ، فإن هـذا الاحتلال لن يقع إلا بعـد اتفـاق مسبق بين الـدولتين المـذكورتين ، مؤسس على مبدأ تعويض مشترك لكل فائـدة أرضيـة أو غيرهـا ، وأن كل واحـدة منهما ستحصل عليها علاوة عن الوضع الراهن » .

والاتفاق الآخر الخاص بين إيطاليا وألمانيا يشترط أنه « إذا حصل أن فرنسا قامت ببسط احتلالها أو حمايتها أو سيادتها ، تحت شكل ما ، على الأراضي الشمال ـ إفريقيـة ، كأن تكون ولاية طرابلس ، أو تكون الإمبراطورية المراكشية ، فـإن إيطـاليـا بنتيجـة

هذا الواقع ترى من واجبها ، لصيانة موقعها في البحر المتوسط ، القيام بنفسها بعمل على الأراضي الشمال إفريقية ، أو اللجوء ، على الأرض الفرنسية في أوربا ، إلى تدابير قصوى ، حالة الحرب التي تنجم عن ذلك بين إيطاليا وفرنسا ستؤلف بالواقع نفسه ... حالة اتحاد مع كل النتائج المتوقعة بالمادتين ٢ و ٥ من المعاهدة المذكورة الموقعة في ٢٠ أيار ١٨٨٢ .

٣ ـ حتى إن إيطاليا فرضت وجهات نظرها على إنكلترا . وهذه الدولة الأخيرة كانت حتى ذلك الحين باقية جانباً عن الوفاقات القارية . ولكن الخلافات التي جعلتها تقاوم فرنسا في الهند ـ الصينية ، ومدغسكر ، والسودان ، ومصر بخاصة ـ وأيضاً روسيا ـ أخذ مرڤ في ١٨٨٤ ، والمكائد الروسية في بلغاريا وفي آسيا الصغرى ـ دفعت إنكلترا إلى التقارب من إيطاليا والنمسا . وفي شباط ١٨٨٧ ، اعترفت معاهدة إنكليزية إيطالية بالمزاعم المشتركة لإنكلترا في مصر ، ولإيطاليا في طرابلس الغرب . وشيئاً فشيئاً اشتركت النمسا بهذا الاتفاق وأسهمت في إعطائه صفة معادية لروسيا ظاهرة جداً : ففي الحال التي يريد فيها السلطان أن يفوض روسيا بجزء من سلطته في بلغاريا أو آسيا الصغرى ، تقاوم السلطات الثلاث ذلك .

أوربة عند سقوط بسمارك :

لقد توج النشاط الدبلوماسي لعام ١٨٨٧ عمل بسمارك والإمكانات الثلاث للنزاع ، التي بقيت بعد ١٨٧٠ ـ منافسات فرنسا ضد ألمانيا ، وإيطاليا ضد النمسا ، وروسيا ضد النمسا أو إنكلترا ـ بدا أنها حذفت باللعبة الدقيقة الناعمة للأحلاف والأحلاف المناقضة . ومع ذلك فإن القيصر انفصل عن بسمارك وكره قليلاً الفكرة التي طرحها محبو السلاڤية منذ ١٨٧٨ لتقارب مع فرنسا ، وفي ١٨٨٨ أصدر في باريس أول قرض روسي ، وقدم طلباً ببنادق . ولم يكن بسمارك أقل منه قراراً ، في ١٨٩٠ ، بتجديد معاهدة التأمين الجديد . ولكن غليوم الثاني أراد أن يشد أواصر الحلف مع النمسا ، وبخاصة ألا يتخلى ،

لصالح روسيا ، عن شبه جزيرة البلقان حيث بدأت ألمانيا توطد نفوذها . وهذا الاختلاف في وجهات النظر أسهم في سقوط بسمارك . لقد أنجزت السياسة البسماركية في ١٨٨٧ ، وتزعزعت في ١٨٨٨ وستنهار في نفس الوقت الذي يسقط فيه من أبدعها .

٤ ـ الحلف الفرنسي الروسي

قضايا الشرق

الوفاق الفرنسي ـ الإنكليزي (١٨٩٠ ـ ١٩٠٤)

الدبلوماسية الأوربية من ١٨٩٠ إلى ١٩٠٤ :

الحوادث الدبلوماسية الهامة أكثر من غيرها بين ١٨٩٠ و ١٩٠٤ كانت التالية :

من جهة تحول تام لسياسة الأحلاف التي رتبها ونظمها بسمارك ؛ إن فرنسا ، المعزولة في ١٨٩٠ ، أبرمت حلفاً مع روسيا في ١٨٩٣ ، وتقربت من إيطاليا انطلاقاً من ١٨٩٦ ، ومن إنكلترا في ١٩٠٤ .

من جهة أخرى ، إن سياسة مذابح السلطان عبد الحميد حيال الجنسيات المسيحية في إمبراطوريته ـ أرمن ، كريتيون ، ماكيدونيون ـ أدت إلى يقظة المسألة الشرقية .

الحلف الفرنسي ـ الروسي :

إن الحلف الفرنسي ـ الروسي ، الذي رسم في ١٨٨٨ ، اقتضى أربع سنوات لتحقيقه . وكان الفرنسيون يرغبون فيه بحرارة ، لإنهم يرون فيه الوسيلة الوحيدة لمقاومة ألمانيا وإيطاليا . وغليوم الثاني أعلن مرات عديدة رغبته في السلام . وهذا صحيح . ولكن حوادث هنا وهناك أشعلت البغضاء والشنآن بين الشعبين . ونذكر على سبيل المثال هذا الحادث :

في شهر شباط ١٨٩١ جاءت أم غليوم الثاني متخفية إلى باريس ؛ فاستاءت عصبة الوطنيين وقسم من الصحافة الفرنسية من هذه الزيارة لفرنسا ، وقامت مظاهرات معادية للألمان في الشوارع . وكاد الحادث يؤدي إلى الحرب .

وفي إيطاليا بدأ الوزير كريسبي حرب تعرفات جمركية ضد فرنسا ؛ وأكد أن « إيطاليا وألمانيا لا تشكلان إلا أسرة واحدة » ومع ذلك ، فإن الكسندر الثالث لا يبدو أنه مسرع في التقرب من فرنسا . لقد كان حاكماً فردياً (أوتوقراطياً) وينفر من الحكم الجمهوري . ومستشاره جيير محب للجرمانية ويرى الفرنسيين « أردأ الشعوب » ولكن لزم خرق دبلوماسي من ألمانيا لتحقيق الحلف الفرنسي ـ الروسي .

والمستشار كابريفي البروسي يرى أن سياسة بسمارك الدبلوماسية معقدة جداً ويرغب قبل كل شيء في مجاملة النمسا . ونقض معاهدة التأمين الجديد (١٨٩٠) . وقلق القيصر لأنه لم يكن له حليف واحد في أوربة ، وعندما علم بالتجديد المسبق للحلف الثلاثي (١٨٩١) ووجود معاهدات إنكليزية ـ نمساوية ـ إيطالية في ١٨٨٧ ، تقرب من فرنسا ووقع معها اتفاقاً سياسياً (آب ١٨٩١) .

١ ـ « بغية تعريف وتكريس الوفاق الودي الذي يجمع بينهما ، ورغبتهما في الإسهام معاً في اتفاق مشترك للحفاظ على السلام الذي يشكل موضوع تمنياتها الخالصة ، تصرح الحكومتان بأنها ستتشاوران في كل قضية من طبيعتها وضع السلام العام موضع تشكيك » .

٢ ـ « وفي الحال التي يكون فيها السلام فعلاً في خطر ، وبخاصة في الحال التي يكون فيها أحد الطرفين مهدداً بعدوان ، يتفق الطرفان بالتفاهم فيما بينهما ، في هذا الاحتمال ، على الإجراءات التي يفرض تحقيقها معاً تبنياً مباشراً على الحكومتين » .

واستمرت المفاوضات ، ولكن بالبطء نفسه : في آب ١٨٩٢ ، اتفق زعيما الأركان الفرنسي والروسي على نصوص اتفاق عسكري ؛ وهذا الاتفاق أيضا لم يصادق القيصر

عليه نهائياً إلا في كانون الأول ١٨٩٣ ، بعد الحفاوة الحماسية التي استقبل بها ملاحو الأسطول الروسي في تولون وباريس .

وهذه هي نصوص الاتفاق الذي ظل سرياً :

« إذا هوجمت فرنسا من ألمانيا ، أو من إيطاليا تدعمها ألمانيا ، فإن روسيا ستستخدم كل قواتها الجاهزة [من ٧ إلى ٨ مائة ألف رجل] لمهاجمة ألمانيا . وإذا هوجمت روسيا من ألمانيا ، فإن فرنسا ستستخدم كل قواتها الجاهزة [ثلاثة عشر مائة ألف رجل] لمكافحة ألمانيا ... وفي الحالة التي ستعبأ فيها قوات الحلف الثلاثي أو دولة من الدول التي تشارك به ، فإن فرنسا وروسيا لدى أول خبر عن الحادث ، ودون أي حاجة لمشاورة مسبقة ، ستعلنان معاً النفير العام مباشرة لكامل قواتها وتقربها بأكثر ما يمكن من الحدود » .

وهذا البند الأخير بدل فيا بعد وأصبح على الشكل التالي :

« في حال تعبئة جزئية أو حتى عامة من النمسا أو إيطاليا وحدهما يصرح بأن « الاتفاق المسبق » بين فرنسا وروسيا « لا مندوحة عنه » .

ويبدو أن الحلف ـ الفرنسي ـ الروسي يوطد توازن القوى في أوربة . ويوازن التريبليس . وكانت فرنسا ترى أن أمنها مؤمن بشكل أفضل ، وأن جاهها كدولة كبرى قد أرجع إليها . أما روسيا ، فكانت تجد في فرنسا رؤوس الأموال الضرورية لنمو صناعتها ولسياستها التوسعية في الشرق الأقصى .

مذابح أرمينية :

ما كاد الحلف الفرنسي ـ الروسي يبرم ، إلا وافتتحت المسألة الشرقية بمذابح أرمينية بأمر من السلطان عبد الحميد .

لقد اعتلى السلطان عبد الحميد العرش في ١٨٧٦ على يد رجال تركيا الفتاة الذين

كانوا يأملون من تحقيق إصلاحات ليبرالية . وفي الواقع ظهر عدواً مستشرياً لهم ، وكان أبعد من أن يصلح المفاسد وإساءة الاستعمال ، وعلى العكس فاقمها . وتتصف حكومته بمذابح الشعوب المسيحية والصداقة الألمانية .

أكد عبد الحميد بسياسته أنه حام للإسلام . ولم يساعد الأعمال الدينية فحسب ويأمر بإنشاء خط حديد إلى المدينة المنورة يساعد الحجاج على زيارة المدن المقدسة ، غير أنه تغاضى عن مذابح المسيحيين الذين قتلوا بمئات الألوف . وفي الوقت نفسه ، حاول لئلا يخشى استياء الرأي العام ، أن يشتري سكوت الحكومات الأوربية بتخويله مواطنيها امتيازات مناجم وخطوط حديدية . وبخاصة كسب صداقة غليوم الثاني بتشجيعه طموحات ألمانيا الاقتصادية في الشرق الأدنى .

كان الأرمن أوائل الضحايا . وفي مؤتمر برلين وعد عبد الحميد باتخاذ إجراءات لصالحهم ، ولم يعمل شيئاً . وحقد فقط على الأرمن لأنهم عملوا على دعم الدول الكبرى لمطالبهم . وفي ١٨٨٦ عندما مل بعضهم من انتظار الإصلاحات ـ أسسوا جمعيات سرية ونظموا محاولات اغتيالات . وخلط السلطان بين عمل قبضة من الثوريين مع شعب كامل ؛ وأطلق الأكراد ضد الأرمن . وبدأ العدوان في ١٨٩٢ و ١٨٩٣ بأعمال نهب وإجبار على اعتناق الإسلام ، ثم من ١٨٩٤ إلى ١٨٩٦ مذابح رهيبة امتدت إلى القسطنطينية وربما بلغ عدد الضحايا ٣٠٠٠٠٠ ضحية .

كادت هذه المذابح أن تؤدي إلى حرب أوربية . وإنكلترا التي عهد إليها اتفاق قبرص (١٨٧٨) بحماية مسيحيي آسيا الصغرى ، استاءت بصوت غلادستون ، ولكن روسيا لم تشأ سماع الكلام عن أرمينية تركية مستقلة ذاتياً ، وجارة خطرة على أرمينية الروسية . وعندما أدخل ساليسبوري سفينتين في بحر مرمرة ، فكر القيصر باحتلال القسطنطينية للدفاع عن المدينة ضد الإنكليز ، وفرنسا احتوت الخصمين لأن أحدهما كان حليفها : وهكذا ضحي بالأرمن للحفاظ على السلام في ١٨٩٦ .

قضيتا كريت وماكيدونيا :

ما كادت المذابح تنقطع في أرمينية إلا وبدأت في **كريت** . ففي ١٨٨٩ حذف عبد الحميد الضمانات التي خولها للكريتيين في ١٨٧٨ ؛ ومن هنا قامت الاضطرابات التي أدت شيئاً فشيئاً إلى مذابح كانون الثاني ـ شباط ١٨٩٧ في لاكانيه . ورأت اليونان أن الفرصة مناسبة لضم كريت ، ولكن الدول الكبرى قررت ترك الجزيرة تحت سلطة الأتراك ووعدتها باستقلال ذاتي واسع فقط ؛ ثم أمرت العسكر اليوناني الذي نزل في كريت أن يجلو عن البلاد (آذار ١٨٩٧) . احتجت اليونان واستعدت لمهاجمة تركيا . وبالرغم من جهود أوربة اندلعت حرب يونانية ـ تركية في نيسان ١٨٩٧ . وقهر اليونان في كل مكان واضطروا أن يدفعوا غرامة حرب ويرجعوا إلى تركيا جزء صغيراً من تساليا التي سعى التدخل الفرنسي للحصول لهم عليها في ١٨٨١

والمنطقة المسيحية الكبرى في الإمبراطورية العثمانية كانت **ماكيدونيا** . وهنا لعبت الأحقاد القاتلة للأخوة الصرب واليونان والبلغار لصالح السلطان ، فضلاً عن أن الدول الكبرى منذ ١٨٩٣ بدت أنها لا تهتم بالبلقان . فقد كانت النمسا تعاني أزمة داخلية خطيرة ، وروسيا كانت منهمكة بقضايا ـ الشرق الأقصى ، وإنكلترا بالخلاف مع الترنسفال ؛ وفرنسا بقضية دريفوس والسياسة المناوئة للإكليروس ؛ وأخيراً ألمانيا كانت دوماً حليفة السلطان : ففي الرحلة الكبرى التي قام بها إلى سورية وفلسطين ، أعلن غليوم الثاني عن نفسه ، في ١٨٩٨ ، أنه حام ل ٣٠٠ مليون مسلم يعترفون بعبد الحميد خليفة . وما دام هذا الامتناع من أوربة ، فإن الماكيدونيين تركوا لسلطة واستبداد الألبانيين وجنود السلطان . وأجابوا بتأسيس جمعيات سرية ونظموا عصابات مسلحة كانت تشن غاراتها على الجنود العثمانيين . وفي ١٩٠٢ و ١٩٠٣ كانت ماكيدونيا في عز ثورتها .

في تشرين الأول ١٩٠٢ كتب قنصل فرنسا في سالونيك : « قمع انقلب من سيء إلى

أسوأ ، إلى مذبحة كانت ولا شك الوسيلة الأكثر عجلة من غيرها لعودة شيء من النظام ؛ وكثيرون الذين لا ينتظرون إلا إشارة ليقدموا للسلطان خدمة لتخليصه من المحرضين ، بالعمل كما في أرمينية » .

وعبثاً ، بعد نهاية حرب الترانسفال ، طلبت الحكومة الإنكليزية إجراءات لصالح الماكيدونيين . والنمسا وروسيا لم تشاءا أبداً تغيير الوضع الراهن . وتفاهمتا في ١٩٠٣ باتفاق **مورزستيغ** ـ قرية في جبال الألب النمساوية ـ على ألا يطلب من السلطان إلا إصلاحات مسكنة ـ وعلى سبيل المثال ، إنشاء مؤسسة درك يوجهها أوربيون . وظل مصير الماكيدونيين يرثى له كما في الماضي . وسنرى كيف أن قضية ماكيدونيا أدت في ١٩٠٨ و١٩٠٩ إلى ثورة في تركيا وإلى خلاف خطير في أوربة .

عزل إنكلترا فاشودا :

لقد ظلت إنكلترا بكبريائها زمناً طويلاً لا تعتمد إلا على نفسها . ولكن ابتداءً من ١٨٩٥ تقريباً بدأت تشعر بمساوئ ما سماه برلماني كندي بـ « العزلة اللامعة » . في الشرق الأقصى ، وفي إفريقية ، وفي القسطنطينية ، كانت تصطدم في كل مكان بعداء روسيا ، وفرنسا ، وألمانيا . وأصبحت الحال خطرة أكثر عندما قامت فرنسا آنذاك بمحاولة فائقة لتوطيد سلطتها على بلاد النيل ـ الأعلى ، وبهذا تهدم سيطرة إنكلترا على مصر .

لقد رأينا في ١٨٨٥ كيف أن الإنكليز ـ المصريين اضطروا إلى الجلاء عن السودان الشرقي (المصري) . وكانت الحكومة الفرنسية تعتبر هذه المنطقة التي كانت آنذاك في أيدي المهديين ، يجب أن تتبع أول محتل . وفي ١٨٩٣ قررت أن ترسل لها « بعثة دراسات » ، على أمل أن هذه الوسيلة الملتوية تفتح من جديد المسألة المصرية . وبعد أن ترك المشروع فترة ، استؤنف في ١٨٩٦ عندما علم أن جيشاً إنكليزياً ـ مصرياً بقيادة كيتشنر سيصعد النيل لتقويض المهديين .

عهد بقيادة البعثة إلى الكابتين مارشان على أمل أن يصل قرية فاشودا على النيل قبل كيتشنر ، وأن فرنسا وقد أصبح بيدها منذ الآن هذا الرهن ، تستطيع أن تسوي لصالحها المسألة الإفريقية . ولكن البعثة لم تصل إلى فاشودا إلا في بداية تموز ١٨٩٨ . وما كادت تستقر حتى علمت وصول الجيش الإنكليزي ـ المصري . وفي ١٩ أيلول غلب كيتشنر المهديين أمام الخرطوم ، ودخل فاشودا واحتل البلاد باسم الخديوي .

كان لدى مارشان مائتا رجل ـ وكتيشنر عشرون ألفاً . كان كل نضال مستحيلاً . طالبت إنكلترا إرجاع البعثة مباشرة . وفي آخر شهر تشرين الأول ١٨٩٨ بدت الحرب غير ممكن اجتنابها ، ما دامت الأفكار هائجة في كلا البلدين ؛ وفي ٣ تشرين الثاني تنازلت الحكومة الفرنسية . وبعد بضعة أشهر سجل اتفاق ـ رسمياً ـ تخلي فرنسا عن السودان المصري : وبالمقابل كتعويض ، أخذت فرنسا حول بحيرة تشاد بعض أراضي مثل الواداي ، التي تساعد على ربط الصحراء الكبرى بشكل وثيق بإفريقية الاستوائية الفرنسية .

عروض إنكلترا على ألمانيا :

في التنافس الحاد مع روسيا ومع فرنسا لم تستطع إنكلترا الخروج من عزلتها إلا بالتوجه إلى ألمانيا . فمنذ ربيع ١٨٩٨ ، طلب شامبرلان بأن يترك في التريبليس مكان لإنكلترا . وكانت الحكومة الألمانية متحفظة جداً ، ولكن غليوم الثاني عدد البينات على إرادته الطيبة : فأثناء حرب البور ، كان تقريباً الوحيد في ألمانيا ، نصيراً للإنكليز ، وأقام مرتين في إنكلترا ورفض استقبال الرئيس كروجر . أمام هذا الموقف الودي ، جدد تشامبرلن عروضه ، واستمرت مستشارية برلين برفضها . وبولوف ومعاونه هولشتاين ـ الذي كان من ١٨٩٦ إلى ١٩٠٦ الملهم الحقيقي للدبلوماسية الألمانية ـ كانا يخشيان من أن التحالف مع إنكلترا قد يؤدي إلى قطيعة مع روسيا ؛ ويعتقدان أيضاً أنه من الأفضل أن تنتظر إنكلترا لجعلها أكثر ليناً ، ولا حاجة للإسراع ، لأن وفاقاً انكليزياً ـ روسياً أو إنكليزياً ـ فرنسياً يبدو لهما مستحيلاً .

ومن جهة أخرى أجبرت العاطفة الشعبية الإنكليزية حكومة لندن بعد ذلك على قطع المحادثات . وكانت الأمة متأثرة كثيراً من رؤية الاتهامات بالفظاعة التي تطلقها ألمانيا ضد الجيوش الإنكليزية في الترنسفال ؛ وبخاصة كانت ترتعب من تقدم الصناعة والأسطول الألمانيين . وظهرت ألمانيا ، أكثر من فرنسا ، المنافسة الحقيقية . وهكذا اضطرت الحكومة الإنكليزية أمام احتقار بولوف والعاطفة العامة أن تتخلى عن الحلف الألماني ، وأصاخت بسمعها إلى الاقتراحات المجاملة التي كان يبديها لها آنذاك الوزير الفرنسي **دلكاسيه** .

الوفاق الودي :

المحاولة على ما يبدو حرجة لتوحيد بلدين متعادين حتى الأعماق منذ زمن طويل . يضاف إلى ذلك خلاف جديد إلى كل أسباب الخلاف الموجودة سابقاً : وهو أطماع فرنسا الجديدة في مراكش . بدأت المفاوضات مع ذلك في أيلول ١٩٠٢ . وكان أدوار السابع يشجعها : كان يحب فرنسا التي أقام فيها كثيراً ويرى في ابن أخته غليوم الثاني المدعي بالبسالة والشجاعة خطراً للحفاظ على السلام . وفي أيار ١٩٠٣ قرر أن يظهر علناً ، بإقامته في باريس ، تقارباً كان يرتسم بين الحكومتين : في البدء استقبل ببرودة جداً ولكنه عرف كيف يتصالح والشعب . ورد الرئيس لوبيه له زيارته بعد قليل واستقبل بحرارة في لندن . وكانت المفاوضات طويلة وصعبة . وأخيراً سويت الخلافات كلها **باتفاقات ٨ نيسان ١٩٠٤** .

١ ـ الاتفاق الأول ينتزع من فرنسا حصر صيد سمك المورو على جزء من شاطئ جزيرة الأرض ـ الجديدة (التي تركت لإنكلترا بمعاهدة أوترخت في ١٧١٣) الواقعة على مصب سن ـ لوران في أمريكا الشمالية ، ولكنها أعطت فرنسا تعويضاً ببعض الفوائد في غامبيه وغينة وعلى شواطئ بحيرة تشاد .

٢ ـ الاتفاق الثاني يسوي العلاقات العالقة في سيام ، ومدغسكر وجزر هبريد ـ الجديدة (في شرق أوستراليا) .

ولكن التصريح الأهم كان يتناول مراكش ومصر . وهذه هي النقاط الأساسية في هذا التصريح .

« إن حكومة صاحب الجلالة البريطانية تصرح بأن ليس في نيتها تغيير الحالة السياسية في مصر . وحكومة الجمهورية الفرنسية من جانبها تصرح بأنها لن تعيق عمل إنكلترا في هذا البلد بطلب تثبيت حد للاحتلال البريطاني ، أو بأي شكل آخر ... واتفق على أن تستمر المديرية العامة للآثار في مصر ، كما في الماضي ، ويعهد بها إلى عالم فرنسي . وأن تستمر المدارس الفرنسية في مصر في تمتعها بنفس الحرية كما في الماضي . وتصرح حكومة الجمهورية الفرنسية بأن ليس لها نية في تغيير الحالة السياسية لمراكش . والحكومة الإنكليزية من جهتها ، تعترف بأن على فرنسا ، باعتبارها دولة على حدود مراكش على مسافة واسعة ، أن تسهر على هدوء هذا البلد وتمد له يد المساعدة لأجل جميع الإصلاحات الإدارية والاقتصادية والمالية والعسكرية التي هو بحاجة لها » . وأضافت إحدى المواد السرية : « تتفق الحكومتان على أن بعضاً من الأراضي المراكشية المتاخمة إلى مليلا ، وسبتة والمواقع الحصينة الأخرى يجب ، في اليوم الذي يكف فيه السلطان عن ممارسة سلطة عليها ، أن تقع في منطقة النفوذ الإسباني ، وأن إدارة الساحل من مليلا حتى مرتفعات الشاطئ الأيمن في سيبو على سبيل الحصر ، سيعهد بها إلى إسبانيا » التي يجب أن تتعهد بألا تبني تحصينات على طول هذا الشاطئ « بغية المرور الحر من مضيق جبل طارق » .

منظومات التحالف في ١٩٠٤ :

إن توطيد وفاق ودي ، بالنسبة لإنكلترا كما بالنسبة لفرنسا يعقب منافسة حادة ، يعتبر تاريخاً رئيسياً . فقد خرجت إنكلترا أخيراً من عزلتها في أوربة (منذ ١٩٠٢ كانت إنكلترا عقدت حلفاً في الشرق الأقصى مع اليابان) : وأصبح بإمكانها أن تعتمد على إرادة فرنسا الطيبة ، ومن قبل كان أدوار السابع يرسم تقارباً مع روسيا .

أما من جهة فرنسا ، فلن تجازف أو تخاطر بأن تصطدم في إفريقية وفي آسيا بعداء إنكلترا الذي لا ينقطع ، وبخاصة أنها وجدت في الوفاق الودي متمماً نافعاً لحلف روسيا . وكانت تعلم في الواقع كم كانت إدارة هذا الحلف دقيقة : لأن نيقولا الثاني القيصر الأوتوقراطي يبدو أنه كان يشعر ببعض الندم باتحاده مع الجمهورية الفرنسية : كان ضعيف الطبع ، متردداً وترك نفسه تحت تأثير غليوم الثاني ؛ وإذا برهن انعقاد مؤتمر السلام في **لاهاي** (١٨٩٩) على نواياه السليمة ، فقد استمر على الأقل في الشرق والشرق الأقصى في متابعة سياسة متهورة جداً في الغالب أدخلته في نزاع مع اليابان في (شباط ١٩٠٤) ، والحرب الروسية ـ اليابانية انتزعت من فرنسا كل إمكانية في الاعتماد على مساندة ناجعة من روسيا ، ولم يكن الوفاق الودي في مثل هذه الحال إلا نافعاً .

ثم إن الوضع الدبلوماسي لفرنسا تعزز بالمصالحة مع إيطاليا . فبعد سقوط كريسبي ، أصبحت العلاقات أفضل من ذي قبل . وفي ١٨٩٦ وقعت الحكومتان اتفاقات تتعلق بشأن تونس ، وفي ١٨٩٨ وضعت نهاية للحرب الجمركية ، وأخيراً في ١٩٠٠ و ١٩٠٢ تفاهمتا على « التطلعات المشتركة لأمتين في البحر المتوسط » طرابلس (ليبيا) ومراكش . وأكثر من ذلك أن كلاً من الدولتين وعدت بأن تبقى محايدة في الحال التي تهاجم فيها الأخرى أو تصل بها الحال إلى حمل الأسلحة للدفاع عن أمنها . وإذا كانت إيطاليا تؤلف دوماً طرفاً بصورة رسمية في التريبليس ، فقد تخلت عنه معنوياً .

وفرنسا ، المعزولة سابقاً ، اعتمدت الآن على روسيا وإنكلترا وإيطاليا . وكل النجاحات الدبلوماسية التي أحرزتها فرنسا كانت بالمقابل إخفاقات لألمانيا . ومن المؤكد أن ألمانيا لم تكن لا مطوقة حتى ولا مهددة ؛ لقد كانت متحدة بصورة حمية مع النمسا ، والقيصر لا يفكر بمهاجمتها . ولكن يبدو من الصعب أن تستطيع منذ الآن استعادة تلك الهيمنة التي كانت قد مارستها تحت إدارة بسمارك ، في أوربة من ١٨٧١ إلى ١٨٨٨ .

الفصل التاسع

العلاقات الدولية

من ١٩٠٤ إلى ١٩١٤

التوجه إلى الحرب

المقدمة :

من ١٩٠٤ إلى ١٩١٤ اجتازت أوربة دور سلام ضعيف ، وتسلح كثيف ـ وأزمات لا تنقطع . وسيطر فيه الخوف على ألمانيا من تطويق ، وحاولت عبثاً قطع الوفاق الثلاثي الذي تشكل بين إنكلترا وفرنسا وروسيا .

وخلال مرات ثلاث : طنجة (١٩٠٥) ، والبوسنة (١٩٠٨ ـ ١٩٠٩) ، وأغادير في ١٩١١ بدت الحرب محتمة الوقوع ؛ ولم تجنب إلا بتنازلات من فرنسا وتراجع من روسيا ولكن هذه الإنذارات أيقظت الأهواء القومية وخلقت أجواء عاصفة .

وبعد الحرب البلقانية من ١٩١٢ ـ ١٩١٣ أشعل الاعتداء في سيرابيڤو (٢٨ حزيران ١٩١٤) الذي أتبع بعدوان النمسا على صربيا (في ٢٨ تموز ١٩١٤) الحرب العامة (١ ـ ٤ آب ١٩١٤) .

١ ـ الصفات العامة للحالة في أوربة

قضية أصول الحرب :

إن سنوات ١٩٠٤ ـ ١٩٠٥ التي شهدت تقارباً فرنسياً ـ إنكليزياً وإخفاقات روسيا في ماند شوريا ، تشكل منعطفاً في تاريخ السياسة الأوربية ، وفتحت دور أزمات ،

وتوتراً متزايداً ، ومقدمة للحرب العالمية . وإن دراسة هذا الدور ، إنما هي دراسة لأصول الحرب .

إن القضية التي يحوم الجدل حولها ، إذا كان هنالك شيء من ذلك ، هي مسؤولية هذه الحرب باعتبارها عبئاً ثقيلاً ساحقاً لا يقبل به أحد . وفي الحقيقة ، من المتعذر تأسيس تاريخ دور قريب ومضطرب على أسس متينة والوثائق المتعلقة به ليست كلها معروفة . وقد نشرت إثر الثورات ، التي قامت بعد الحرب الوثائق الألمانية ، والنمساوية ، والروسية معلومات سرية . كما أن إنكلترا في ١٩٢٦ ، وفرنسا في ١٩٢٩ بدأتا بنشر الوثائق الدبلوماسية المتعلقة بأصول الحرب . وفي ذلك ما يساعد على استخلاص الحوادث الأساسية شريطة الدلالة على التفسيرات المتناقضة التي توضع لها .

على أن هذه الحوادث لا تتضح إلا إذا وضعناها في إطارها الأوربي : فقد كانت أوربة مفعمة في بداية القرن العشرين ، بقضاياها القومية ، ومنافساتها الاقتصادية ، وإمبرياليات‌ها وتسلحها الكثيف .

القضايا القومية : إن يقظة الجنسيات ، وتمجيد القوميات كانا صفة من الصفات المسيطرة في القرن التاسع عشر . وقد نجم عنهما ثورات عديدة وحروب كبرى ألفت مع ذلك حالات عديدة من القمع وقضايا يجب حلها وبؤر اضطرابات .

لقد كان بعض هذه القضايا محدوداً مثل قضية إيرلاندا التي لا تهم إلا المملكة ـ المتحدة ، والبولونيون كانوا خاضعين تحت ثلاث دول : روسيا ، بروسيا ، والنمسا ولا يستطيعون الاعتماد إلا على أنفسهم .

غير أن قضايا أخرى كانت ذات أهمية دولية مثل قضية الإلزاس ـ لورين التي خفت حدتها ، ولكنها ما زالت مطروحة أمام الرأي العام وتشكل عقبة لكل تقارب فرنسي ـ ألماني . ومطالب الجنسيات في أوربة الوسطى والبلقان كانت تدخل في

التوازن الأوربي ، ووجود الأمبراطورية العثمانية والنمسا ـ هونغاريا . وهنا كان الخطر بخاصة . لأن الحرب خرجت من هنا .

المنافسات الاقتصادية :

كانت القضايا القومية من تراث الماضي . أما الوقت الحاضر فيتصف بنهوض الحضارة الصناعية ، ويضع قضايا جديدة ويثير منافسات جديدة .

لقد وسعت الصناعة الكبرى مشاريعها لا في إنكلترا وفرنسا فحسب ، وإنما من طرف لطرف في أوربة ، وفي ألمانيا بخاصة ، حيث تقدمت بخطى الجبابرة ، وفي سويسرا ، وفي إيطاليا الشمالية ـ وفي بوهيميا النمساوية ، وفي بولونيا ، حتى موسكو ، في قلب روسيا القديمة . وأصبحت المنافسة يوماً فيوماً أكثر حدة . وفي العالم كله كان التنازع في كل سوق ، وكل امتياز مناجم ، وخطوط حديدية ، وأشغال عامة ، وكل فرع بنك ، وكل طلب أسلحة وذخائر . وكانت الحكومات تدافع عن مصالح أبناء قومها ، ورجال الأعمال يمدون الحملات الصحفية . والمنافسات الاقتصادية جنحت إلى التحول إلى منافسات سياسية ، مثل الكراهية الإنكليزية ـ الألمانية التي كانت من ١٩٠٤ إلى ١٩١٤ محور السياسة الأوربية .

الإمبرياليات :

ولد التصنيع أو قوى ما يسمى **الإمبريالية** أي سياسة التوسع والفتوحات الأرضية أو الاقتصادية ، التي كانت تطبقها الدول . وكانت **إنكلترا** مبكرة قبل الدول الأخرى إلى الحضارة الصناعية ، وتقدمت عليها في هذا الاعتبار . وكانت تحتكر أكبر إمبراطورية في العالم ، ولكن يجب تأمين حراستها ، ومن هنا خرج مبدآن للسياسة البريطانية : الحفاظ على سيادة البحار ، والسيطرة على كل الطرق المؤدية إلى الهند . **وفرنسا** كانت تريد إنجاز تأسيس إمبراطوريتها الإفريقية بربط مراكش بها

وإيطاليا ، بعد أن أبعدت عن تونس والحبشة طالبت بطرابلس (ليبيا) ، وفضلاً عن ذلك كانت تراقب منافذ بحر الإدرياتيك أي الساحل الغربي للبلقان .

وشبه جزيرة البلقان كان عدم استقرارها يفسح مجالاً للمكائد والدسائس ، كما كانت ساحة توسع لروسيا والنمسا . وروسيا التي أخفقت في مشاريعها في الشرق الأقصى ، ورجعت إلى أهدافها التقليدية : القسطنطينية والمضائق ، والنمسا ترمي إلى **سالونيك** ووضع صربيا تحت وصايتها ، باعتبارها تقف حاجزاً في طريقها . وكانت هذه القضية ذات أهمية حيوية لأن الملكية النمساوية ـ الهونغارية كانت تضم ملايين اليوغسلافيين الذين ينظرون نحو صربيا الحرة .

أما ألمانيا ، فلم تكتف بأن تكون دولة كبرى قارية . وكان غليوم الثاني يرجو أن تكون دولة بحرية وعالمية . ونظراً لعدم وجود أراضي شاغرة لاحتلالها . كانت تنتظر في كل الاتجاهات : **آسيا التركية** التي خولتها صداقة السلطان **امتياز خط حديد بغداد** ـ ولكن هذا معناه الدخول في منافسة مع إنكلترا وروسيا ـ ؛ ومراكش ولكنها اصطدمت فيها مع فرنسا ـ ؛ **إفريقية الاستوائية** ـ ولكن كان يجب طرد وإبعاد المحتلين من بلجيكيين وبرتغاليين ـ إن الإمبريالية الألمانية كان برنامجها قليل الوضوح ـ ولكنها الأساس الاقتصادي الأقوى والقدرة العسكرية التي تخشى أكثر من غيرها .

سباق التسلح :

كانت جميع الحكومات تؤكد عن إرادتها في الحفاظ على السلام ، ولكنها كلها تحاول أن تزيد في وسائل عملها ودفاعها أي تسلحها . وبنوع من حلقة مفرغة ، هذا السباق إلى التسلح لا يمكن إلا أن يفاقم الشحناء والكراهية ويكثر المخاطرات بالحرب .

ونظراً لتقدم العلوم ، أصبحت المنافسة العسكرية أكثر تدميراً وكلفة يوماً عن يوم . وتحت طائلة الخوف من طول مسافة التقدم بين دولة ودولة ، كان يجب تحويل عتاد الحرب دون انقطاع : بنادق ، مدافع ، رشاشات ، بارود ، قذائف ، مدرعات ،

قاذفات ، تضاف لها الغواصات ، والمناطيد والطائرات . وكانت موازنات الحرب البحرية تستوعب القسم الأعظم من موارد الدول . ونحو ١٩١٠ ، ولكل دولة من الدول الأربع العظمى : ألمانيا ، إنكلترا ، فرنسا ، روسيا ، كان الرقم ينوس بين مليار ومليار ونصف فرنك ـ يضاف إلى ذلك أن النمو المفاجئ لأسطول الحرب الألماني أنذر بالخطر إنكلترا واضطرها إلى نفقات جسمية للحفاظ على تفوقها البحري .

لقد كتب مترنيخ سفير ألمانيا في إنكلترا في العام ١٩٠٧ :

« لا يوجد في إنكلترا لا حزب ، ولا فرع يرغب في الحرب مع ألمانيا ، أو يعمل على إثارتها . وبالرغم من ذلك فإن الحالة بين إنكلترا وألمانيا خطيرة . لأن نمو أسطولنا تسبب في إنكلترا بقلق عام . وهذا القلق سيزداد مع إسطولنا نفسه ، ولن ينقص . ومن الممكن ، إذا ازداد هذا القلق بين يوم وآخر ، فإن فكرة عدوانية تخرج عنه : وسيقال : يجب القتال قبل فوات الأوان . نحن عازمون على بناء أسطولنا ، وعلينا ، بالتالي ، أن نحسب معه حساباً لخطر حرب إنكليزية ـ ألمانية » .

والدعوة إلى السلام كانت عاجزة عن دفع تقدم التسلح . ولا شك ، في أن « أصول التحكيم » الذي أسس في مؤتمر لاهاي الأول يساعد على تسوية بعض النزاعات . وعقد مؤتمر لاهاي الثاني للسلام في ١٩٠٧ : ولم يمكن التفاهم لا على تحديد التسلح ولا على جعل التحكيم إجبارياً .

الشعوب والحكومات :

إن الضمان الأساسي للسلام يبدو أنه كان في جسامة الأخطار التي تمثلها حرب أوربية ، بسبب حالة **الرأي السلمي** الذي يعتقد أنه عام لدى كل الشعوب ـ باستثناء أقليات ذات نفوذ ومحبة للصخب . ومع ذلك لم تكن عبارة القوة في أي مكان منتشرة كما في ألمانيا حيث يعيش الناس معتقدين أن القوة الألمانية لا تقاوم .

وفي الواقع إن الشعوب ما كانت لتلعب إلا دوراً ثانوياً في السياسة الدولية ، ويساء إعلامها ، ولذا كانت تتأثر بسهولة . إن كل شيء كان يتعلق بالحكومات وكل شيء يمر في مفاوضات سرية ، خارجاً عن مراقبة الرأي العام . وإنكلترا وفرنسا كانا بلدين ، نظامهما برلماني ، وكان لهما حكومات غالبية كانت على الأقل لحد ما مجبرة لأن تأخذ بعين الاعتبار العاطفة الشعبية ـ لرجل الشارع ـ ولكن ألمانيا ، والنمسا وروسيا كانت إمبراطوريات يحافظ فيها العاهل على سلطة القرار ، ويعتبر نفسه قبل كل شيء زعيم الجيش ، ويتأثر بالطبقة العسكرية القوية . وكانت الجامعة الجرمانية تسوق أعضاءها حتى من داخل الدوائر الرسمية .

أهم الأحداث من ١٩٠٤ ـ ١٩١٤ :

وهكذا من ١٩٠٤ إلى ١٩١٤ عاشت أوربة تحت تهديد دائم تقريباً بالحرب . والأزمات تتلو الأزمات ، مثارة تارة بالقضية المراكشية وتارة بقضية البلقان والحوادث الهامة هي التالية :

١ ـ إن إنزال غليوم الثاني في طنجة (١٩٠٥) فتح الأزمة الأولى الملحوظة بمؤتمر **الجزيرة الخضراء** (١٩٠٦) الذي اتبع بالاتفاق الإنكليزي ـ الروسي (١٩٠٧) وتشكيل الوفاق الثلاثي .

٢ ـ ثم تأتي الأزمة البلقانية التي كانت نقطة انطلاقها الثورة التركية (١٩٠٨) بسبب ضم البوسنة والهرسك من قبل النمسا في (١٩٠٨) ، وكان من نتيجتها إخفاق دبلوماسي لروسيا (١٩٠٩) .

٣ ـ ثم إن دخول فرنسا إلى فاس (١٩١١) والرد الألماني ـ إرسال سفينة حربية إلى **أغادير** ـ تسببتا بأزمة مراكشية جديدة انتهت باتفاق فرنسي ـ ألماني على مراكش والكونغو .

وبالحال تقريباً ظهرت في الشرق تعقيدات خطيرة : احتلال طرابلس (ليبيا) من قبل إيطاليا (١٩١١) ، والحرب الإيطالية ـ التركية (١٩١١ ـ ١٩١٢) ، تألبات وحرب بلقانية ضد تركيا (١٩١٢ ـ ١٩١٣) ، ثم ضد بلغاريا (١٩١٣) ، توسع صربيا ، واليونان ورومانيا .

لم تقبل النمسا بهذه النتائج . وأتاح لها اغتيال سيراييفو في ٢٨ حزيران ١٩١٤ الفرصة التي كانت تبحث عنها لسحق صربيا . وقبلت بها ألمانيا ، وعارضتها روسيا . وهكذا نرى أن الحرب النمساوية ـ الصربية أثارت الحرب الأوربية (من ١ ـ ٤ آب) .

٢ ـ الأزمات الأولى المراكشية والبلقانية (١٩٠٥ ـ ١٩٠٩)

دواعي المبادهة الألمانية :

إن اتفاق ١٩٠٤ ، أساس وفاق ودّي جديد ، بدل الحالة الأوربية . فقد قلقت ألمانيا أكثر من قبل من التحالف الفرنسي ـ الروسي أو من التقارب الفرنسي ـ الإيطالي . واعتقدت أن فيهما أخطاراً من كل الأنواع : دمار التفوق الذي أمنه لها التحالف الثلاثي حتى ذلك الحين ، وعثرة في سبيل مشاريعها التوسعية ، وتهديد بالتطويق .

وعندئذ كان الهدف السري للسياسة الألمانية كسر الوفاق الفرنسي ـ الإنكليزي . وأملت الوصول إلى ذلك بفضل الهزائم الروسية في ماند شوريا وبمناورة مزدوجة : التدخل في مراكش لتبرهن لفرنسا بأن اتفاق ١٩٠٤ لا تأثير له ؛ والتقدم بعروض إلى روسيا ، وإذا أمكن إبرام حلف جرماني ـ روسي ترى فيه فرنسا أنها مضطرة للمشاركة به .

إن غليوم الثاني ـ الذي يرى بعظمة ، كان يحلم بعصبة قارية تحت إدارته العليا . وفي مراسلته الحميمة مع القيصر ـ ويلي إلى نيكي ـ كان يحاول التأثير على عقل نيقولا

الثاني وجعل نفسه صديقاً وفياً لروسيا البائسة . وفي ٢٧ تشرين الأول ١٩٠٤ ، بعد حادث **دوغر ـ بنك**[١] ، كتب له : « على روسيا وألمانيا أن تذكر كل واحدة منهما حليفتها فرنسا وبالالتزامات التي اتخذت في معاهدة الدوبليس حيالها ... وبالرغم من أن دلكاسيه محب لإنكلترا حباً مسعوراً ، فسيكون عاقلاً بما يكفي ليفهم أن الأسطول الإنكليزي غير قادر تماماً على إنقاذ باريس . وهكذا يتألف ترتيب من أقوى دول أوربة الثلاث في القارة » .

الخلاف الروسي ـ الياباني :

بحجة أن روسيا أرادت تأمين الخطوط الحديدية التي أنشأتها في ماند شوريا أخلت ماند شوريا أثناء **ثورة الملاكمين** . وحصنت پور ـ آرثر وزادت أسطولها في المحيط الهادئ . كما قامت بحركات ودسائس في كوريا وأخفت رغبتها في السيطرة على الصين الشمالية كلها . ولكن اليابان من جانبها كانت ترغب في كوريا . إن زيادة عدد سكانها وضرورة استيراد الرز والفلزات المعدنية وتصدير منتجات صناعتها دفعتاها للتوسع الاستعماري . وإذا قبلت روسيا بالتخلي عن كوريا ، فإن اليابان اعترف لها ولا شك بحق احتلال ماند شوريا . هذا هو الحل الذي امتدحه بعض الوزراء الروس مثل **ويت** : فقد كانوا يخشون من حرب في الشرق الأقصى تؤدي إلى اضطراب الحالة المالية وتعطي قوة جديدة للأحزاب الثورية . ولكن القيصر كان يكره اليابانيين ويحتقرهم كما كان يفكر بأن حرباً سعيدة ستوطد في روسيا الاعتماد والثقة بالملكية .

هذا التنافس في موضوع كوريا أدى إلى الحرب . وفي ١٩٠٢ استعدت لها اليابان بتوقيعها معاهدة التحالف الإنكليزي ـ الياباني ، ثم عندما علمت بأن روسيا تتباطأ في المفاوضات لتعطي لنفسها الوقت اللازم لإتمام تسلحها ، قطعت فجأة المحادثات ، في ٥

---

(١) حدث في بحر الشمال ، بالقرب من دوغر بانك أن الأسطول الروسي قذف سهواً بعض زوارق الصيد الإنكليزية ظناً منه أنها طوربيدات يابانية .

شباط ١٩٠٤ ، وبعد بضعة أيـام ، ودون إعلان الحرب ، فتحت العـداء . وفي ليل ٨ إلى ٩ شباط فجرت النسافات اليابانية جزءاً من الأسطول الروسي في حوض بور- آرثر .

كانت أوربـة على العمـوم تعتقـد بنصر روسيـا ، والـواقـع أن اليـابـان كان الحـظ بجانبهـا . فقـد دخلت الحرب قبل أن يبـدأ الروس بحشـد قواهم . يضـاف إلى ذلـك أن أسطول فلاديفو ستوك الروسي كان لشهر أيضـاً سجين الجليـد . وكان مسرح العمليـات قريبـاً نسبيـاً من اليـابـان ، بينمـا يوجـد من موسكو إلى بور آرثر أكثر من ٨٠٠٠ ك م يجب قطعها بالخط الحـديـدي الوحيـد الـذي لم يتم بعـد . وأخيراً إن التجيـد الوطني في اليابان كان غير قـابل للوصف ، كما كان لـدى الجيش الأسطول زعمـاء عـالي القيمـة مثل الماريشال أو ياما والأميرال توغو ؛ وكان الجنود الروس بالعكس ، يقاتلون دون حمـاس تحت إدارة زعماء ضعاف .

الحرب الروسية اليابانية :

إن محـاصرة الأسطول الروسي في بورآرثر من قبل الأميرال توغـو (من شبـاط إلى نيسان ١٩٠٤) ساعـد الجيوش اليـابـانيـة على الإنزال في كوريـا وفي ليـاؤ تونغ ، حيث حـوصر بـورآرثر . وفي منتصف آب عنـدمـا حـاولت السفن الروسيـة في بـورآرثر وفـلاديفـوستـوك الخروج معـاً ، أغرقت كلهـا تقريبـاً . وأصبـح الأسطـول الروسي في الشرق ـ الأقصى خارجاً عن الكفاح . وبعد بضعة أسـابيع حقق اليـابـانيون في البر أول نجـاح كبير لهم : ففي ٣١آب ١٩٠٤ وقعت بينهم وبين الجنراليسيم (القـائـد الأعلى للجيش) الروسي كـوروبـاتكين معركـة ليـاؤ يـانـغ ، وبعـد خمسة أيـام من النضـال أجبروهم على الانطـواء . وأوقف الشتـاء جـزئيـاً العـداء ، ولكن حصـار بـورآرثر استمر واستسلمت المدينة (في ٢ كانون الثاني ١٩٠٥ ، واستطاع الماريشال أوياما عنـدئـذ ، مع كل قواه ، أن يهـاجم من جـديـد كوروبـاتكين . وكانت **معركة موكدن** (٤ ـ ٩ آذار ١٩٠٥ نكبة للروس الذين فقدوا ١٠٠٠٠٠ رجل .

وكانت الحرب خاسرة على البر ، وأمل القيصر أن يربحها على البحر . ومنذ شهر تشرين الأول ١٩٠٤ غادر أسطول ضعيف القيمة ، كرونشتادت تحت قيادة الأميرال روديستفنسكي واتجه نحو اليابان بطريق پادو كاليه والكاب وسنغافورة . وفي بحر الشمال ، بالقرب من دوغر بانك ظن أن أمامه نسافات يابانية ، وأطلق المدافع على بعض صيادين إنكليز ؛ ولولا النصائح بالاعتدال من قبل فرنسا ، كاد هذا الحادث أن يؤدي إلى قطع العلاقات الإنكليزية ـ الروسية . ووصل روديستفنسكي أخيراً ، في أيار ١٩٠٥ ، على ارتفاع كوريا ؛ ولكن الأميرال توغو كان يترصده بالقرب من **جزر تسوشيما** : وأبيد الأسطول الروسي إلا قليلاً . وبعد شهرين نزل اليابانيون في جزيرة ساخالين .

وكانوا مع ذلك يرغبون بالسلام تقريباً كالروس . وقد توصلوا إلى هدفهم ؛ وكانت خسارتهم بالرجال فظيعة ، ولا مال عندهم . وبناءً على طلب الميكادو ، قدم الرئيس روزفلت وساطته ، وافتتحت المفاوضات في الولايات المتحدة ، في بورتسموث (آب ١٩٠٥) . وكانت صعبة : من جهة ، كانت مطامع اليابان عظيمة ؛ ومن جهة أخرى ، كان القيصر قد أمر إلى مفوضه مطلق الصلاحية ، الكونت ويت ، بألا يسلم « ولا إبهام من الأرض الروسية ، ولا كوبيك (وحدة عملة) غرامة » . وأمكن الاعتقاد خلال لحظة أن المحادثات ستنقطع ، ولكن روزفلت وإنكلترا ضغطا على اليابان . وفي ٥ أيلول ١٩٠٥ ، وقعت معاهدة بورتسموث : وبموجبها جلت روسيا عن ماندشوريا ونقلت إلى اليابان تأجير بور ـ آرثر وليياؤتونغ وتركت لها القسم الجنوبي من جزيرة ساخالين واعترفت لها بحق بسط حمايتها على كوريا .

طنجة وبيوركو :

ارتسمت المناورة المزدوجة الألمانية في ١٩٠٥ وكانت في بادئ الأمر ناجحة . وتتألف من عملين أساسيين : عمل مدوٍ ، وهو إنزال غليوم الثاني في طنجة ؛ ومفاوضة سرية مع القيصر انتهت بلقاء بيوركو .

ففي الوقت الذي كانت بعثة فرنسية تفاوض في فاس إبرام اتفاق مع سلطان مراكش ، علم خبر مفاجئ مفاده أن غليوم الثاني ذاهب إلى طنجة . وهذا الفعل لا يمكن أن يفسر إلا كتحدٍ لفرنسا . ومنذ زمن طويل لم تعرف أوربا إنذاراً كهذا الإنذار .

استقبل غليوم الثاني في طنجة في ٣١آذار ١٩٠٥ من قبل عم السلطان ، وألقى القيصر خطاباً ، لم يقل فيه كلمة عن فرنسا ، واتخذ موقفاً ضدها بوضوح . « إلى السلطان ، بصفته العاهل المستقل ، أقوم اليوم بزيارتي . وآمل ، تحت سيادة السلطان ، بأن تبقى مراكش حرة منفتحة للتنافس السلمي لكل الأمم دون حصر ودون ضم ، على قدم المساواة المطلقة ... لقد قررت أن أفعل كل ما في سلطتي لصيانة مصالح ألمانيا بنفاذ في مراكش ، لأنني أعتبر أن السلطان عاهل حر على الإطلاق » .

إن الضغط القوي الذي مارسته الدبلوماسية الألمانية على الحكومة الفرنسية كانت نتائجه : **أولاً** : استقالة دلكاسيه الذي كان يوجه منذ سبعة أعوام سياسة فرنسا الخارجية (حزيران ١٩٠٥) وكان رأي دلكاسيه بأنه يجب مقاومة ألمانيا بمساعدة إنكلترا ؛ ورئيس مجلس الوزراء روفيه والوزراء الآخرون كانوا من رأي معاكس - ويعلم اليوم أن ألمانيا ، بمسعى رسمي ، أخطرت روفيه على إبعاد دلكاسيه .

ثانياً : قبول مؤتمر دولي لتسوية قضية مراكش على أساس استقلال السلطان (تموز) . ولم تقبل فرنسا إلا تحت التحفظ بأن تؤخذ بعين الاعتبار « مصالحها المشروعة » في مراكش . ولكنها على الأقل تحملت إخفاقاً وخزياً .

ومع ذلك فإن القيصر بردت همته بكارثة تسوشيما ، وفزع من الثورة التي انتشرت في روسيا إثر سنوات حرب ١٩٠٤ - ١٩٠٥ التي كانت ملحوظة بتعاقب محاولات الاغتيال ، والتجمعات السياسية ، والاضرابات الكبرى والمظاهرات في المدن ، والثورات اليعقوبية في الأرياف والثورات العسكرية ضد السلطات القائمة . وامتثل

لدعوات غليوم الثاني . وفي مقابلة (لقاء) بيوركو في البالطيك قبل توقيع معاهدة تحالف سرية مع ألمانيا وإلزام فرنسا بالمشاركة بها في (٢٤ تموز ١٩٠٥) . وظن غليوم الثاني أنه لامس غايته وكتب إلى قيصر « إن معاهدتنا تقدم أساساً ممتازاً يمكن البناء عليه ... وما وُقّع وُقّع : الله شهيد علينا » .

مؤتمر الجزيرة الخضراء وخيبات ألمانيا :

هذه النجاحات الأولى كانت دون غير غد . فلا ميثاق بيوركو ولا المشروع المراكشي ، أحدثا الأثر الذي عولت عليه ألمانيا ، وهو كسر الوفاق الفرنسي ـ الإنكليزي وتشكيل حلف قاري كبير .

وميثاق بيوركو ألغي تقريباً حال توقيعه . فقد أبرمه نيقولا الثاني ، دون علم وزرائه . ولما نوروه وأمنوه بأن فرنسا لن تشترك به ، قرر التمسك بالحلف الفرنسي ـ الروسي .

اقترح القيصر على غليوم الثاني (في تشرين الثاني ١٩٠٥) أن يضيف إلى المعاهدة التصريح الآتي : « بناءً على الصعوبات التي تقاوم انضمام الحكومة الفرنسية المباشر للمعاهدة ... ، من المفهوم أن المادة الأولى من هذا الميثاق (الحلف) لا يمكن أن يكون لها أي تطبيق في حالة حرب مع فرنسا ، وأن التعهدات المتبادلة التي تربط هذه الأخيرة بروسيا ستبقى في حيز التنفيذ حتى إبرام حلف ثلاثي (ألمانيا ، روسيا ، فرنسا) ورأى غليوم الثاني من غير المفيد الإجابة . وبقيت المعاهدة الروسية ـ الألمانية حرفاً ميتاً لا يؤخذ بعين الاعتبار .

وكان **مؤتمر الجزيرة الخضراء الدولي** (كانون الثاني ـ نيسان ١٩٠٦) المكلف بتسوية قضايا مراكش ، خيبة أخرى لألمانيا . فقد كانت هذه تعتقد أن باستطاعتها الاعتماد على غالبية الدول التي وجدت ممثلة فيه ـ ومنها الولايات المتحدة ـ وعندما طرحت القضية الأساسية على المناقشة ـ تنظيم الشرطة في الموانئ المراكشية ـ ، رفضت

الغالبية أن تتبع ألمانيا ، وتقرر أن الشرطة الشريفية يجب أن تكون مؤطرة بضباط فرنسيين وإسبانيين . وهكذا فإن فرنسا حافظت في مراكش على تفوق واقع . وهكذا بتدويل المسألة المراكشية ، نجحت ألمانيا بإعاقة عمل فرنسا بل في شله نهائياً .

تشكيل الوفاق الثلاثي :

كانت النتيجة النهائية معاكسة تماماً لما كانت ترمي إليها ألمانيا . لأن الوفاق الفرنسي - الإنكليزي كان أبعد من أن يكسر ، وبالعكس شد أواصره . لأن روسيا ، عوضاً عن أن تتقرب من ألمانيا ، تقربت من إنكلترا ، وكان من نتيجة ذلك الوفاق الثلاثي .

لم يكن في تقاليد إنكلترا الارتباط بتعهد رسمي . ومع ذلك ففي غضون الأزمة المراكشية ، تصورت الحكومة الإنكليزية احتمال تدخل عسكري من جانب فرنسا . وبدأ الركنان العسكريان بدراسة خطة عمل مشترك (١٩٠٦) .

وبين روسيا الحليفة وإنكلترا الصديقة ، وجدت فرنسا في حالة ضيق ، ودأبت على مصالحة الدولتين والتوفيق بينهما ، بعد أن ظلتا زمناً طويلاً متنافستين في آسيا ، وأدت المفاوضات في ١٩٠٧ إلى اتفاق إنكليزي - روسي يتناول التيبت ، وأفغانستان ولا سيما فارس (إيران) المقسمة إلى مناطق نفوذ إنكليزية وروسية : فقد احتفظت إنكلترا بمنطقة الجنوب الشرقي ، عند منفذ الخليج الفارسي - العربي ؛ وروسيا بكل شمالي إيران . وكان اتفاق ١٩٠٧ نقطة انطلاق تقارب بين إنكلترا وروسيا ، ومن خرج **الوفاق الثلاثي** - فرنسا ، إنكلترا ، روسيا - وأكد الملك أدوارد السابع بأن « جميع جهوده تنزع إلى الحفاظ على السلام » . وفي ألمانيا بدأ الصراخ من جديد بالتطويق : تطويق نسبي ، لأن الحلف الثلاثي ، في هذه السنة ١٩٠٧ نفسها مدد ستة أعوام .

الحلف الثلاثي والوفاق الثلاثي :

انطلاقاً من ١٩٠٧ ـ ١٩٠٨ بدت أوربة منقسمة إلى فريقين متخاصمين متعاديين ، الحلف الثلاثي والوفاق الثلاثي . وفي الواقع لم يكن لهذين الفريقين الصفة نفسها والعلاقات بين الدول كانت أعقد مما تبدو بادئ بدء .

الحلف الثلاثي يفيد من كونه فريقاً كثيفاً في وسط أوربة ، ومؤسساً على معاهدات . ولكن هذا التجمع لم يكن دون ثغرات . لأن إيطاليا بالرغم من بقائها في التريبليس ، كانت تتقرب من إنكلترا ومن فرنسا . ففي مؤتمر الجزيرة صوتت ضد ألمانيا . ومع حليفتها ، النمسا ، كانت العلاقات قليلة الود . أما إمبراطوريات الوسط ، وإن شكلت كتلة صلبة ، فإن علاقاتها كانت تتحمل تطوراً . فقد بدأت النمسا تمل من دور « الثاني اللامع » ـ الكلمة لغليوم الثاني ـ واستلم وزير نمساوي جديد ، دارنتال ، السلطة في (١٩٠٦) وقرر أن يرجع جاه آل هابسبورغ ويطبق سياسة عمل في البلقان .

ومنذ ذلك الحين كان في فينا حزب عسكري متنفذ يهدف إلى سحق صربيا ، وقد صرح كونراد فون هوتساندورف ، رئيس الأركان إلى دارنتال في (١٩٠٧) : « إن حل القضية اليوغوسلافية لا يمكن أن يوجد إلا في صربيا ، ولا يمكن أن يتحقق إلا بعمل كبير تكون غايته القصوى ضم صربيا . وفي الحقيقة إن دارنتال كان يفضل الحلول الدبلوماسية على الحلول العسكرية التي كان يفضلها كونراد .

كان الوفاق الثلاثي يضم إمبراطوريات واسعة كان إطارها يتجاوز أوربة . ولكنها ، في أوربة تتصرف بقوات محدودة . وكان الجيش الروسي في عز تنظيمه الجديد ، والجيش الإنكليزي عدد جنوده زهيد ، ولم يكن الوفاق غير « تفاهم » كاد يرتسم ، وضعيف أيضاً بواقع أنه كان يضم ديموقراطيتين ليبراليتين إلى إمبراطورية تحكم حكماً فردياً . وبين فرنسا وروسيا ، كان يوجد ميثاق حلف قديم منذ خمسة عشر

عاماً ؛ ولكن روسيا كانت تجمع الحلف الفرنسي ـ الذي يجهزها بالمليارات التي هي بحاجة لها ـ ، مع الصداقة الألمانية المؤسسة على حميية العواهل وبلاطاتهم . والوزير الروسي إيسفولسكي الذي استلم السلطة في ١٩٠٦ مثل دارنتال ، ظل يمارس هذه اللعبة المزدوجة لبلوغ الغاية التي حددها لنفسه وهي : وضع اليد على المضائق : الدردنيل والبوسفور .

الأزمة البلقانية :

إن السياسة النشيطة التي دشنها دارنتال وإيسفولسكي ، طرحت على الصعيد الأول قضية البلقان ، وما لبثت أن تسببت بتعقيدات تهدد السلام .

كان يوجد على الدوام في البلقان عدة بؤر حريق ، ماكيدونيا بخاصة ، حيث تمتزج كل الشعوب البلقانية . ومنذ ثورة ١٩٠٣ ، كان اليونان ، والبلغار ، والألبان ، والباش ـ بوزوك (جنود غير نظاميين) يتقاتلون ويذبح بعضهم بعضاً . وفي كانون الثاني ١٩٠٨ وضعت قضية ماكيدونيا من جديد ببادهة النمسا : فقد حصل دارنتال من السلطان على امتياز خط حديدي يصل بين البوسنة وماكيدونيا . فاستاء أيسفولسكي وتقرب من إنكلترا ، وانضم إلى البرنامج الفرنسي ـ الإنكليزي ، وهو الاتفاق الذي أبرم في لقاء روڤال (حزيران ١٩٠٨) بين أدوار السابع ونيقولا الثاني . ـ وفيه تعززت السيطرة الأوربية في ماكيدونيا (وكان أيسفولسكي يطالب أيضاً بامتياز خط حديد يصل الدانوب بالأدرياتيك ويقطع الخط النمساوي) .

وكان للإعلان عن البرنامج الفرنسي ـ الإنكليزي نتيجة غير منتظرة وهي الثورة التركية (تموز ١٩٠٨) . فبالرغم من اضطهادات السلطان عبد الحميد ، فإن حزب تركيا الفتاة قد جند الكثير من الشبان في الجيش . ولجنته الموجهة تسمى « لجنة الاتحاد والترقّي » وتقيم في سالونيك . فقد رأت أن الوقت حان للعمل بداعي الحقد من ظلم عبد الحميد ومن الغطرسة القومية ، لمنع التدخل الأوربي في شؤون الإمبراطورية .

وجرت إليها جيش ماكيدونيا وأجبرت ثورته السلطان على قبول دستور ١٨٧٦ . ومنذئذ ، كما توقع رجال تركيا الفتاة ، تخلت إنكلترا عن مشروعها في الإصلاحات .

ولكن الثورة التركية بدورها كان لها انعكاسات خطيرة . فقد أيقظت في البلقان كل الأهواء القومية ، من تركي ، ويوناني وصربي وبلغاري . وكان بإمكان النمسا أن ترتضي وتقنع بالقومية البلغارية التي لا تضايقها ، ولكنها لا ترتضي القومية الصربية التي انتشرت في البوسنة وكرواتيا . ولقطع دابر الثورة اليوغوسلافية ، اتخذت قراراً جريئاً : ففي الخامس من تشرين الأول ١٩٠٨ قرر فرانسوا جوزيف ضم البوسنة والهرسك الإقليمين التركيين اللذين عهدت أوربة بها إليه لحراستها والسهر عليهما في ١٨٧٨ . وفي العشية ، وباتفاق مع النمسا ، أعلن فرديناند أمير بلغاريا استقلال إمارته وحولها إلى مملكة . ونودي به قيصر بلغاريا .

الأزمة الأوربية :

إن قرار النمسا لم يكن منه سوى تكريس حالة واقع . إلا أنه كان يشكل على الأقل خرقاً للنظام الذي وطده مؤتمر برلين . وفي حالة السلام المسلح التي كانت تعيشها أوربة كان يُخشى من هذه المبادرة .

وأيضاً إن النمسا ، وألمانيا التي تدعمها ـ لم تعملا إلا بعد اختبار للحالة العسكرية : « فقد كتب المستشار بولوف : « إن روسيا لم تتقو بعد للقيام بسياسة عدوانية . وفرنسا لا تريد أن تثير حربا ضد ألمانيا ... ، إنها على حد قدراتها العسكرية . أما صربيا فقد قال كونراد دو هوتساندورف عنها « إنها متخلفة عسكريا » .

وفي الواقع ، توجد أزمة بسبب المقاومة العنيفة من صربيا وروسيا . فقد احتجت صربيا ضد قرار يبدو أنه ينتزع منها كل أمل لتؤلف يوماً ما الوحدة اليوغوسلافية . وروسيا لم تستطع أن تحتج ضد الضم نفسه : فقد اعترفت به سلفاً . ففي عدة اتفاقات

نمساوية ـ روسية كان التفاوض في آخرها في بوخلو (أيلول ١٩٠٨) دون علم من فرنسا . وفي هذه المقابلة في بوخلو أعطى كل من إيسفولسكي ودارنتال نصاً مختلفاً عن الآخر . ومن المؤكد أن إيسفولسكي أخذ على حين غرة بالمبادهة النمساوية ، ورأى أنه خدع . وعلى الأقل ، للحصول على تعويض مرغوب ـ فتح المضائق ـ ، طالبت روسيا بدعوة مؤتمر أوربي . ولكن إنكلترا أو فرنسا دعمتاها بفتور ، إحداهما لا تريد فتح المضائق ، والأخرى لأنها لا تريد أن تجر إلى الحرب .

وفي هذه الظروف ، حاولت ألمانيا عبثاً « تجربة قوة » دبلوماسية : وبمسعى أكيد قاطع ، في ٢٢ آذار ١٩٠٩ ، أجبرت روسيا على الاعتراف دون تحفظ بالأمر الواقع وأيضاً على الانضمام للدول للضغط على صربيا . ويبدو أن حرباً نمساوية ـ صربية كانت تبدو محتمة الوقوع عندما أنهى خضوع صربيا الأزمة .

أرسلت صربيا إلى فينا المذكرة التالية في ٣١ آذار ١٩٠٩ :

« إن صربيا تعترف بأنها لم تمس في حقوقها بالأمر الواقع الذي حدث في البوسنة ـ هرسك ... وإن صربيا ، بامتثالها لنصائح الدول الكبرى ، تتعهد منذ الآن ، بالتخلي عن موقف الاحتجاج والمقاومة الذي راعته حيال الضم منذ الخريف الأخير ، وتتعهد علاوة على ذلك بتبديل مجرى سياستها الحالية حيال النمسا ـ هونغاريا ، لتعيش منذ الآن مع هذه الأخيرة على قدم حسن الجوار .

النتائج :

إن ضم البوسنة الذي فرضته أوربة ، تحت تهديد الحرب ، وخزي روسيا وصربيا ، هذه النتائج ظهرت كنصر مدو لإمبراطوريتي الوسط على الوفاق الثلاثي . وكتب بولوف : « لقد مزقت القوة القارية لألمانيا شبكة التطويق » .

ولكن هذا النجاح الضعيف لم يطمأن له في ١٩٠٩ ، كما في ١٩٠٥ ، على وجه

الدقة ، لأنه لم يكن إلا نجاح جاه ، ونتيجة « محك قوة » ، فلا صربيا ولا روسيا ستتنازلان عن آمالها السرية . وقال دبلوماسي فرنسي : « الزمن يعمل للصرب » . والقضية اليوغوسلاڤية ليست من تلك القضايا التي تكفي لحلها مذكرة دبلوماسية . أما إيسفولسكي فقد كظم غيظه من إخفاقه ، واستعد للأخذ بالثأر ، إما بإيصال بلغاريا لتكون في عداد زبائن روسيا ، وإما بالمفاوضة مع إيطاليا القلقة هي أيضاً من النجاحات النمساوية . فقد أبرمت إيطاليا تباعاً اتفاقاً مع روسيا (في راكّونيجي في تشرين الأول ١٩٠٩) واتفاقاً مع النمسا (كانون الأول ١٩٠٩) .

وأخيراً إن طرق السياسة الألمانية ، بطبيعتها ، كانت خطرة . وإذا كانت لا تهدف إلى الحرب ، فقد كانت تذكر بالتهديد . وصخب السلاح أقلق الشعوب وعزز في كل البلاد التيارات القومية . ونشط سباق التسلح ، وخلق جواً ملائماً أكثر فأكثر للتعقيدات الحربية . وهكذا فإن أزمة ١٩٠٩ هيأت أزمة ١٩١٤ .

٣ ـ الاتفاق المراكشي ـ الحروب البلقانية (١٩١١ ـ ١٩١٣)

ألمانيا والوفاق الثلاثي :

إن الغاية التي ترمي إليها ألمانيا كانت دوماً نفسها دون تغيير .. تفريق الوفاق الثلاثي . ومن هنا موقفها العجيب حيال فرنسا كما هو حيال روسيا أو إنكلترا . هذه اللعبة المتوالية بالتهديدات وعروض التقارب .

وهكذا ، في أيلول ١٩٠٨ ، قبل أن تنفجر الأزمة البلقانية ، حدث حادث جديد فرنسي ـ ألماني في مراكش . فقد أوقفت الشرطة الفرنسية في الدار البيضاء جنوداً من الجوقة الأجنبية ساعدهم عملاء القنصلية ـ الألمانية على الهرب . هددت ألمانيا أولاً ، ثم أمام المقاومة الحازمة من الحكومة الفرنسية ، التي يرأسها كليمنصو قبلت اللجوء إلى التحكيم . وأكثر أيضاً اقترحت على فرنسا حل المسألة المراكشية باتفاق فرنسي ـ ألماني

أبرم في شبـاط ١٩٠٩ : وبموجبـه اعترفت ألمـانيـا بمصـالح فرنسـا الخـاصـة في مراكش ، ووعدت فرنسا بالحفاظ على المساواة الاقتصاديـة ، وعلى الـدولتين « إشراك مواطنيهما » في الأعمال التي يحصلون على مشروعها . وبدا أن هذا الاتفـاق أنهى المنـافسـة التي دامت منذ ١٩٠٥ .

وكذلك روسيا عوملت بقساوة من ألمانيا في آذار ١٩٠٩ ، ومع ذلك فمنذ ١٩١٠ ، في مؤتمر بوتسدام ، تفاوض العاهلان ووزيراهما بتقارب : ووعد كل منهما الآخر بالتبادل بألا يساندا سياسة عدوانية من إنكلترا أو من النمسا . وأبرم اتفاق يصون المصالح العائدة لكلا البلدين في إيران وفي آسيا الصغرى . وكان القصد بالنسبة للدبلومـاسيـة الألمـانيـة قبل كل شيء « إحراج الروس » حيال إنكلترا .

وكان من الصعب الوصول بـإنكلترا نفسهـا إلى الانفصـال عن فرنسـا وروسيـا ، في حين أن الرأي الإنكليزي كان يقلـق كل يـوم أكثر من تسلـح ألمـانيـا البحري . وظنت الحكومة الألمانية بأنها وجـدت الوسيلـة بـإعطـاء الإنكليز موافقتهـا على تحـديـد التسلح البحري مقـابـل تعهـد الإنكليز بـالحيـاد . ولكن إنكلترا كانت مستعـدة لإبرام اتفـاق استعماري مع ألمانيا من نفس نموذج اتفاقـاتهـا مع فرنسـا وروسيـا ، بيـد أنهـا رفضت أن تأخذ على عاتقها التعهد الرسمي الذي طلب منها . واستؤنفت المفـاوضـات ثلاث مرات (١٩٠٩ ، ١٩١٠ ، ١٩١٢) ولم تؤد إلى شيء .

حادث آغادير :

وإذن بقي الوفاق الثلاثي ، ولكن من المسموح بـه الشـك بصلابتـه ، وعلى العكس يبدو أن وضع ألمانيا القاري قد ثبت من جديد . كانت تثق بقوتها ، ومقتنعة بأن طرق القوة كانت وحـدهـا نـاجعـة ، ولم تتردد الحكومـة الإمبراطـوريـة في اللجـوء إليهـا من جديد ، عندما أظهرت لها الظروف أنها تتطلب ذلك ، في ١٩١١ ، في مراكش .

وفي الواقع ، في مراكش ، إن الاتفاق الفرنسي ـ الألماني لعام ١٩٠٩ قد أفلس ، إما لمطالبة ألمانيا ، وإما لحذر فرنسا . ولم يتوطد التعاون بينهما . ورأت ألمانيا أن أملها خاب وبحثت عن فرصة لإظهار استيائها . وتكفلت الحوادث وفرنسا نفسها بتقديمها لها ، وذلك باحتلال فرنسا فاس ومكناس والرباط في ١٩١١ ، مما دفع الإسبانيين بالحال إلى إرسال عسكر إلى مناطق نفوذهم التي اعترف لهم بها . ولكن فرنسا كما سبق معنا ، لم تأخذ تفويضاً بالشرطة إلا في موانئ مراكش الغربية . ولا شك أنها ذكرت حالة الاستعجال ، وهي طلب النجدة من الأوربيين ومن السلطان : ومبادهتها لا تتجاوز على الأقل الإطار المثبت في مؤتمر الجزيرة ، وبالتالي أعطت مأخذاً لألمانيا . وفي الأول من تموز ١٩١١ تلقت الحكومة الفرنسية الرأي الرسمي بأن سفينة حربية ألمانية أرسلت إلى **أغادير** في جنوب مراكش . وهذه السفينة لم تكن إلا سفينة ذات مدافع ، ولم يكن القصد رسمياً إلا حماية المشاريع الألمانية في المنطقة . وفي الواقع ، لا أحد يمكن أن يخدع : إن ألمانيا أخذت رهناً لإجبار فرنسا على أن تقدم لها تعويضات .

الاتفاق على التعويضات :

إن ضربة أغادير أحدثت رد فعل شديد أكثر مما توقع له في برلين . كان يؤمل أن العلاقة لم تكن إلا مع فرنسا : لقد اصطدمت بإنكلترا التي لم تشأ بأي ثمن ترك ألمانيا تتوطد على الساحل المراكشي . وصرح الوزير البريطاني لويد جورج بتصريح مهدد :

في مأدبة عامة ، بعد أن أكد تعلق إنكلترا بالسلام ، ختم خطابه على النحو التالي : « ومع ذلك إذا فرضت علينا حالة ، لا يمكن أن يحافظ فيها على السلام إلا بالتخلي عن الحالة العظيمة والمحسنة التي حققتها إنكلترا في قرون من الجهود البطولية المتوجة بالنجاح ، وبواقع أن تعامل إنكلترا ، في مسائل تمس مصالحها الحيوية ، كما لو لم يكن لها وزن في مجلس الأمم ـ أصرّ على ذلك ـ عندئذ مهما كلف الأمر ، سيكون السلام خسفاً ، ولا يمكن لبلد عظيم مثل بلدنا أن يقبله » .

إن فتح المناقشات في مثل هذه الظروف ، ومتابعتها وسط حملات صحافة حادة وبرلمان كان أمراً صعباً ، ومع ذلك فإن رئيس مجلس الوزراء الفرنسي جوزيف كايو كان نصيراً لاتفاق مع ألمانيا ؛ وهذه أمام المقاومة التي لاقتها ، خفضت متطلباتها . وعلى هذا النحو أمكن التوصل إلى معاهدة ٤ تشرين الثاني ١٩١١ ، وبموجبها ، تخلت فرنسا ، مقابل حرية عملها في مراكش ، إلى ألمانيا بجزء من الكونغو الفرنسية .

الانعكاسات الأولى :

كانت هذه المعاهدة أبعد ماتكون عن التهدئة ، وانتقدت بمرارة . والألمان بخاصة أبدوا خيبتهم . وأخذوا على حكومتهم أنها تراجعت أمام فرنسا . وفي فرنسا صادق البرلمان على المعاهدة ، ولكن التنازل عن « أرض فرنسية ، في عز السلام ـ وتحت تهديد الحرب » ، شعر به كجرح .

في مجلس الشيوخ صفق للخطاب الذي دافع به رئيس الوزراء الجديد بوانكاريه ، عن المعاهدة ، ولكن هلل لرد كليمنصو : « عن حسن نية ، نريد السلام ، نريده لأننا بحاجة لتعمير بلدنا . ولكن ، أخيراً ، إذا فرضت علينا الحرب فسيجدوننا (تصفيق حاد على كل المقاعد) . الصعوبة بين ألمانيا وبيننا هي هذه : هي أن ألمانيا تعتقد أن منطق نصرها هو في السيطرة والنفوذ ونحن لا نعتقد بأن منطق إخفاقنا يكون في التبعية (تصفيق ثان على كل المقاعد) نحن أنصار سلام ـ محبون للسلام لقول الكلمة الصحيحة ـ ، ولكن لسنا خاضعين ولن نقبل قرار تنازل وسقوط يحكم به جيراننا . لقد أتينا من تاريخ عظيم ، ونريد الحفاظ عليه (استحسان بالإجماع ، جلسة ١٠ شباط ١٩١٢) .

هكذا كانت نتيجة صدمة أغادير ، ويبدو أن المسألة المراكشية أصبحت محلولة ولكن النزاع الفرنسي ـ الألماني اشتد . فمن هذا الجانب أو ذاك يتصور احتمال حرب ، وكان الكثيرون يميلون إلى التفكير بأنها غير مجتنبة ، ونظراً لهذه الفرضية ، طلبت

الحكومة الألمانية التصويت على قوانين عسكرية جديدة . وعملت الحكومة الفرنسية على شد أواصر الوفاق الثلاثي . وتأمن التفوق البحري الفرنسي ـ الإنكليزي بأفضل توزيع للأساطيل . وحشدت فرنسا قواها البحرية في البحر المتوسط ، وإنكلترا في الأطلسي . وتوضح الوفاق السياسي لأول مرة بتبادل مذكرات دبلوماسية (٢٢ ـ ٢٣ تشرين الثاني ١٩١٢) .

« خصت الحكومة الإنكليزية بعبارات رسمية حرية عملها . واحتجت بأن التسوية البحرية « لا تعتمد على تعهد بالعمل معاً في حالة حرب » . واعترفت فقط « بأنه إذا كان لحكومة ما دواعي جادة للخوف من هجوم من جانب دولة ثالثة ، دون أي إثارة ، أو من الاعتقاد بأن السلام مهدد ، فعليها أن تفحص مباشرة مع الحكومة الأخرى ما إذا كان على الحكومتين أن تعملا معاً باتفاق لمنع العدوان ولتأمين الحفاظ على السلام ... » .

وبدا أيضاً أن توضيح الحلف الفرنسي الروسي ضروري . لأن موقف الحكومة الروسية ، أثناء الأزمة المراكشية ، لم يكن أقل تحفظاً من فرنسا في ١٩٠٩ في سياق الأزمة البلقانية . وتم الاتفاق العسكري باتفاق بحري ، وتوطد تعاون حميم أكثر من قبل بين الحكومتين ، تعاون ، لا ينفي ، من الجانب الفرنسي ، يقظة غير منقطعة ، لأن المبادهات الخطرة غالباً للدبلوماسية الروسية كان من طبيعتها أن تخلق في الشرق تعقيدات جديدة تخشى فرنسا من أن تخاطر وتجر إليها .

الحرب الإيطالية ـ التركية :

عادت الحالة من هذه الجهة مقلقة بشكل واضح . إن حوادث مراكش أيقظت كل الأطماع . وكان صداها المباشر أزمة متوسطية ، وهي إرسال حملة إيطالية إلى طرابلس والحرب الإيطالية ـ التركية (١٩١١ ـ ١٩١٢) .

لقد عملت إيطاليا على قبول أطماعها في طرابلس (ليبيا) بالاتفاقات التي تمت مع

إنكلترا وفرنسا وروسيا ، كما بمعاهدات التريبليس . وبعد أغادير ، عندما ظهر أن فرنسا أخذت مراكش وألمانيا الكونغو ، رأت أن الوقت قد حان لتأخذ نصيبها . ورفضت تركيا كل التنازلات . وأعلنت الحرب ، واستولى الإيطاليون على طرابلس الغرب (في ٧ تشرين الأول ١٩١١) .

ولكن العرب ، في داخل البلد ، المؤطرين بضباط أتراك قاوموا مقاومة غير منتظرة . وعندئذ وسع الإيطاليون ميدان عملياتهم ؛ وبالرغم من مقاومة النمسا ، نقلوا الحرب إلى الأرخبيل ، واحتلوا رودس وجزر الدوديكانيز ، حتى إنهم هاجموا الدردنيل ـ دون نتيجة ـ ولم تذعن تركيا للتفاوض إلا تحت ضغط إمبراطوريتي الوسط ، عندما رأت نفسها مهددة بحرب أخرى في البلقان (تشرين الأول ١٩١٢) .

التألب البلقاني :

كانت الأزمات تولد بعضها بعضاً وتشكل تشابكاً مستمراً من ١٩١١ إلى ١٩١٤ . وبإضعاف تركيا أفادت الحرب الإيطالية ـ التركية كتوطئة ومقدمة لحرب بلقانية ، وهجمة عامة من الدول المسيحية ضد السيد العثماني السابق .

هذه الهجمة ، أثارتها أيضاً الحكومة التركية بطيشها . لقد كانت قومية أكثر منها ليبرالية ، وعملت على « تتريك » ماكيدونيا حيث كانت حالة المسيحيين أقبح مما كانت قبل الثورة . ولم تثنه إلا بتكوين اتحاد ضدها من كل خصومها : يونان ، صرب ، بلغار ، العازمين على الإفادة من الوضع لتحرير ماكيدونيا وتحقيق برنامجهم القومي . وتحالفت بلغاريا مع صربيا ثم مع اليونان (آذار ـ أيار ١٩١٢) ؛ ووعد الجبل الأسود الصرب بالمساعدة . وهكذا تألب تألب بلقاني مع مساندة سرية من روسيا .

والمعاهدة الصربية ـ البلغارية ، حلف هجومي ودفاعي ، أبرت تحت حماية روسيا وتتوقع تحكيم روسيا . والحكومة الفرنسية لم تعرف نصها إلا في آب ١٩١٢ ، عندما ذهب بوانكاريه إلى سن ـ بطرسبورغ « فقد ذكر في الحال أن المعاهدة لا تحتوي نبتة

حرب فقط ضد تركيا ، وإنما حرباً ضد النمسا ، وتوطد فوق ذلك هيمنة روسيا على المملكتين السلافيتين ، لأن روسيا متخذة حكماً في كل المسائل . وأبديت ملاحظتي إلى سازونوف (وزير خارجية روسيا) أن هذا الاتفاق ... والحق أقول اتفاق حرب ... » فأجاب الوزير الروسي « بما أن صربيا وبلغاريا ملتزمتان بألا تعلنا الحرب دون موافقة روسيا ، فإن هذه باستطاعتها أن تمارس حق الفيتو الروسي الذي يؤمن الحفاظ على السلام ، ولن تقصر أبداً ، وفي الواقع أن الفيتو الروسي ـ مخلصاً كان أو لا ـ لا يفيد شيئاً . وحسب كلمة غليوم الثاني . الذي رفض كل تدخل لاجتناب الحرب ، « المسألة الشرقية (يجب) أن تسوى بالدم والحديد » . وهاجم المتألبون في تشرين الأول ١٩١٢ . والمفاجأة الكبرى لأوربة ، التي تعتقد بتفوق الأتراك العسكري ، أنهم كانوا في كل مكان غالبين ، البلغار في كيرك ـ كيليسيّة ، والصرب في كومانوڤو واليونان دخلوا سالونيك . ولم يوقف الجيش البلغاري إلا على ٣٠ ك م من القسطنطينية ، أمام خطوط **تشاتالجا** .

سلام لندن وحرب بلغاريا :

وفجأة وجد أن توازن أوربة وسلامها مهددان من جديد . وظهر نصر الحلفاء البلقانيين كثأر لروسيا من إمبراطوريتي الوسط . فقد أصيبت ألمانيا في جاهها بنكبة الأتراك الذين علمتهم وجهزتهم . وأصيبت النمسا بصورة خطيرة أيضاً بانتصار الصرب ، واستعدت للتدخل .

صرح الوزير النمساوي **برختولد** الذي خلف دارنتال الذي توفي في شباط ١٩١٢ ، قبل افتتاح الحرب ، بأن النمسا لا يمكنها أن تقبل تضخم صربيا : « إن هذه الدولة السلاڤية الصغيرة ستكون قطب جذب مستديم لكل العناصر اليوغوسلافية في البوسنة والهرسك ، وكرواتيا ، وسلاڤونيا ، ودالماسيا ، وستؤلف خطراً على هدوء وأمن النمسا ـ هونغاريا . ومن المصلحة الحيوية للملكية أن تمنعها .. » وبعد الانتصارات الصربية :

« إما أن تحصل النمسا على ضمانات موثوقة لأجل رابطة اقتصادية ـ سياسية وثيقة مع صربيا المضخمة ... ، وإما إذا لم تفكر صربيا بالتخلي عن سياستها المناوئة للنمسا ... ، فإن الملكية ستجد نفسها مضطرة لأن تصون بنفسها مصالحها » وهذا يعني بوضوح أن وجود صربيا كبرى مستقلة لا يتلاءم مع وجود الملكية النمساوية .

وكان الاتجاه مع ذلك نحو الحل السلمي للأزمة . لأن الوفاق الثلاثي بدا مصالحاً ، وحتى في ألمانيا نفسها لاقت سياسة النمسا مقاومات . ووقع الأتراك تمهيدات خطة لندن (٣٠ أيار ١٩١٣) التي لم تترك لهم في أوربة إلا القسطنطينية والمضايق . وأمام المعارضة المهيأة من النمسا ومن إيطاليا ، اضطرت صربيا واليونان إلى التخلي عن كل مؤسسة على ساحل الأدرياتيك ؛ وسد الطريق عليهما **بإمارة البانيا** التي انتقل تاجها إلى ضابط ألماني وهو الأمير ڤيد .

ولكن عندما كان القصد تسوية تقسيم ماكيدونيا ، بالرغم من كل جهود روسيا ، تفتت التألب البلقاني . وحاولت بلغاريا ، بهجوم مفاجئ ، سحق حلفائها ، الذين أصبحوا منافسيها (٣٠ حزيران ١٩١٣ ، وأخفقت . وتعزز الصرب واليونان بالرومانيين ، وسحقوا البلغار . وانتهت حرب بلغاريا القصيرة بمعاهدة **بخارست** (آب ١٩١٣) التي خصت صربيا واليونان بالقسم الأعظم من ماكيدونيا . وأفاد الأتراك من الفرصة لاسترداد أدرنة وبقوا فيها .

إخفاق النمسا وروسيا :

في منتصف العام ١٩١٣ توطد السلام في البلقان . ولكنه كان سلاماً ضعيفاً . لأن بلغاريا لم تقبل بهزيمتها ، والنمسا أفلست سياستها ، وما كانت لتنتظر إلا فرصة ملائمة للأخذ بثأرها على حساب صربيا .

ويعلم بشواهد إيطالية . بأنها أرادت أن تتدخل لصالح بلغاريا ضد الصرب في تموز ١٩١٣ . ومنعها من ذلك موقف إيطاليا وألمانيا : « إذا هاجمت النمسا صربيا فمن

الواضح أن (تعهدات التريبليس) لا تتحقق . هذا العمل الذي تقوم به لحسابها الخاص ، لأن لا أحد تقريباً يفكر بمهاجمتها . ومن الضروري بأن يصرح بهذا إلى النمسا بشكل رسمي » (برقية جيوليتّي ، رئيس مجلس الوزراء الإيطالي) . وقال الوزير الإيطالي إلى سفير النمسا : « سيمسك بك من أذيال سترتك الطويلة المشقوقة من الخلف (ردنغوت) ، إذا كان هذا ضرورياً » .

وروسيا نفسها لم تكن راضية عن النتائج التي حصّل عليها ، لأنها لم تحل لصالحها **قضية المضايق** كما كانت تأمل . وأكثر من ذلك ، في كانون الأول ١٩١٣ ، علم أن جنرالاً ألمانياً ، **ليمان فون ساندرس** سيقود الجيش الأول التركي ، في القسطنطينية : وهذا معناه « تسليم برلين مفتاح القسطنطينية والدردنيل » وهذا ما صرح به وزير روسي . وأمام الاحتجاجات الروسية سمي ليمان مفتشاً عاماً للجيش التركي . امتياز شكلي محض اكتفت به روسيا مؤقتاً ، بانتظار ظروف أكثر ملاءمة لتحقيق مقاصدها .

٤ ـ سراييفو ـ الحرب الأوربية (حزيران ـ آب ١٩١٤)

تهديدات الحرب :

هكذا ظلت الحالة العامة عكرة ومقلقة . وعلى جانبي الحدود ظلت العاطفة القومية في حالة يقظة أو محرضة بحملات الصحافة ، والخطب الرسمية ، وتكاثرت الحوادث كأعراض سابقة تدل على شيء آت مثل نزول المنطاد الألماني زبلن في مدينة لونيڤيل الفرنسية (٣ نيسان ١٩١٣) ، وشجار بين الألمان والفرنسيين في نانسي (١٣ نيسان ١٩١٣) ، ألزاسيون عوملوا بشكل سيء من قبل ضباط بروسيين في ساڤرن (كانون الأول ١٩١٣) ـ وتكاثفت الدعاية للجامعة الجرمانية في ألمانيا . وفي البلاد اليوغوسلافية ، تحول الهياج المعادي للنمسا إلى إرهاب .

ومن الوجهة الرسمية ، كانت العلاقات بين الدول صحيحة . وفي الواقع ، أن الحذر كان سائداً . كل واحد ينسب للآخر أفكار عدوان ويعجل بتعبئاته العسكرية ، وفي

ألمانيا صوت على قانون يزيد بنسب كبيرة عدد الجنود وعتاد الحرب (٣ تموز ١٩١٣) . وفي فرنسا رفعت مدة الخدمة العسكرية إلى ٣ أعوام (٧آب ١٩١٣) وخول قرض إلى روسيا لإنجاز وتحقيق برنامج عسكري واسع ، ولا سيما إنشاء طرق ستراتيجية ويجب أن تنفذ في مهلة ٤ أو ٥ أعوام . وكانت الأركان الألمانية ترغب بالعمل قبل أن تتم روسيا تعبئاتها ، وتناصر **حرباً وقائية** وتحاول قبول الإمبراطور لوجهات نظرها .

في تشرين الثاني ١٩١٣ ، نقل البارون بيينس ، سفير بلجيكا في برلين إلى زميله الفرنسي ، ج كامبون ، قصة الحديث الذي أجراه غليوم الثاني مع ملك البلجيك ألبرت الأول ، بحضور رئيس الأركان فون مولتكه . وقد وجد الملك ألبرت أن غليوم « قد تغير تماماً : إمبراطور ألمانيا لم يكن في نظره بطل السلام ضد النزعات الحربية لبعض الأحزاب الألمانية . فقد توصل غليوم الثاني إلى التفكير بأن الحرب مع فرنسا لا يمكن اجتنابها وأنه يجب الوصول إليها بين يوم وآخر . وكان يعتقد بصورة طبيعية بالتفوق الساحق للجيش الألماني ولنجاحه المؤكد ـ والجنرال فون مولتكه تكلم بالضبط مثل عاهله : وصرح هو أيضاً بأن الحرب ضرورية ولا يمكن اجتنابها ، ولكنه ظهر مطمئناً أكثر أيضاً بالنجاح « لأنه قال للملك ، هذه المرة يجب الانتهاء ، وجلالتكم لا يمكن أن تشك بالحماسة التي لا تقاوم التي ستجر في هذا اليوم الشعب الألماني بكامله ... » . وفي غضون هذه المحادثة كان الإمبراطور في الحقيقة مجهداً وسريع الغضب والحدة . وكلما أثقلت السنون على غليوم الثاني ، والتقاليد العائلية والعواطف الرجعية للبلاط ، ولا سيما جزع العسكريين ، كلها كانت تسيطر على فكره » (برقية ج . كامبون ، ٢٢ تشرين الثاني ١٩١٣) . وبعد قليل من الزمن لاحظ مراقب محايد ، وهو الأميركي هوس ، في برلين نفوذ العسكرانية (الروح العسكرية والموقف العسكري) . وذهب إلى لندن ليقول للوزير غري « لأي درجة صعدت الروح العسكرية والحربية لألمانيا ... وحالة التوتر المضطرم التي كان يعيش فيها هذا الشعب ... » .

حالة الأحلاف :

عندما بدأت سنة ١٩١٤ ، كانت ألمانيا تميل إلى الاعتقاد بأن الحالة العامة كانت ملائمة لها . فقد نجحت في تجديد التريبليس (كانون الأول ١٩١٢) بل وشدت أواصره باتفاقات جديدة عسكرية وبحرية (١٩١٣) اشتركت فيها إيطاليا . ولا شك في أن المساندة الرومانية ، منذ حوادث ١٩١٣ ، يشك بها ، ولكن كانت تأمل بمساندة بلغاريا وتركيا . وأمل ألمانيا الكبير كان في موقف إنكلترا الذي بدا أنه تبدل لصالحها . والاتفاق الإنكليزي ـ الألماني ، الذي يتناول خط حديد بغداد (بغداد باهن) وإفريقية البرتغالية ، كان على وشك الوصول إلى غايته . ويعتقد في برلين أن إنكلترا ، في حالة نزاع بلقاني ، لن تدعم الروس ، وأنه بدونها ، لن تجرأ فرنسا أن تتعهد بشيء . ومن جهة أخرى كانت الحرب المدنية تهدد في إيرلندة ؛ وهياج العمال تكاثف في روسيا ؛ وفي فرنسا بلغ نزاع الأحزاب درجة استشراء لم يسمع بمثله . واستنتج من ذلك أن الوفاق الثلاثي لن يكون في حالة تقاوم « محك قوة » جديد .

وبرهن الحادث أن كل هذه الحسابات كانت خاطئة جزئياً . فإيطاليا كان لها اتفاقات مع الدول كلها ، ولذا لا يمكن أن يحكم مسبقاً على موقفها . والنتيجة الأكثر وضوحاً للحرب البلقانية كانت تعزيز صربيا ، وبهذا تفاقم حالة النمسا . والحلف الفرنسي ـ الروسي كان أصلب كثيراً مما يفترض في المعسكر الآخر . وتصلب أيضاً بواقع أن الوزير الفرنسي بوانكاريه ، الذي سعى بنفاذ في ١٩١٢ لشد أواصره ، انتخب رئيساً للجمهورية (كانون الثاني ١٩١٣) . أما إنكلترا ، فمن الصحيح أنها كانت ترغب بتحسين علاقاتها مع ألمانيا ، ولكنها برأي السفير الألماني نفسه ، ظلت على الأقل متحدة بشكل وثيق مع فرنسا .

« يجب ألا يكون لدينا في ذلك أي شك ، بأنه إذا كان على إنكلترا أن تختار بين فرنسا وألمانيا ، فستقرر للأولى ... إن إنقاذ فرنسا ، بالنسبة للإنكليز ، ضرورة سياسية

مطلقة كضرورتنا في الحفاظ على النمسا ... وإني لآسف بشدة ، بالرغم من براهيني المتكررة على هذه النقطة الرئيسية ، بأن هذا الواقع يلاقي أيضاً شكوكاً في ألمانيا . وعليه يراد السلام في إنكلترا . ولا يرغب في أن تكون مضطرة للمشاركة في حرب لمنع انتقال في التوازن الأوربي . ولنتجنب كل ظاهرة يمكن أن تجعلنا نعتقد بأننا نريد أن نزعج النظام الحالي . هذا هو الشرط الذي بدونه لا يكون غري مستعداً لإرضاء رغباتنا ولإقامة الصداقة الألمانية » (رسالة الأمير ليخنوفسكي) ، سفير ألمانيا في لندن .

إذن كانت الحالة في ١٩١٤ مختلفة جداً عما كانت عليه في ١٩٠٩ . وإذا أخذنا بعين الاعتبار حالة الأحلاف فإن « محك القوة » يوشك أن يثير حرباً عامة ، وفي الواقع آثارها .

اغتيال سراييڤو :

الحادث الأولي للأزمة الكبرى كان جريمة سياسية أشعلتها القومية الصربية : وهي اغتيال سراييڤو . ففي ٢٨ حزيران ١٩١٤ في سراييڤو عاصمة البوسنة ، أطلق طالب بوسني شاب ، اسمه برنسيپ رصاص مسدسه على الأرشيدوق وريث النمسا وزوجته . ودل التحقيق على أن الاغتيال كان قد هيء في بلغراد بمساعدة موظفين وضباط صربيين ولم يلاحظ أي أثر لاشتراك الحكومة الصربية في الجرم .

القرارات النمساوية ـ الألمانية :

أما وأن النمسا لها الحق في أن تطلب إصلاحات (تعويضات) لما حدث فلا أحد ينازع في ذلك . ولكنها كانت تهدف إلى أبعد كما رأينا . وظهرت الفرصة لها سانحة « لتسوية حساباتها مع صربيا » و « حذفها كعامل سياسي من البلقان » .

ولمشروع ضخم كهذا مليء بالأخطار ، كانت مساندة ألمانيا لا مندوحة عنها : وقد أعطيت هذه المرة دون تحفظ . وجواباً على الرسالة التي كتبها فرانسوا ـ جوزيف بخط

يده ، وعد غليوم الثاني بأن يقوم بواجبه بأمانة كحليف . وقال لا يعتقد بأن « القيصر سيصطف إلى جانب قتل الملك » ومع ذلك فالفرضية لم تكن قابلة للإهمال . ففي محادثات بوتسدام (٥ ـ ٦ تموز) في مجلس الوزراء النمساوي ـ الهونغاري (٧ تموز) درست بعناية المخاطرة بحرب أوربية وقبلت .

إلا أن الوزير الهونغاري الأول تيسزا صرح بأنه معاد لهجوم على صربيا ، ونجح برختولد بإقناعه مذكراً بخاصة جزع (نقيض الصبر) ألمانيا : « لا يفهم في ألمانيا بأن نترك هذه المنافسة تمر دون توجيه ضربة » (الكتاب الأحمر النمساوي لعام ١٩١٩) . وفي الواقع فقد غليوم الثاني صبره : « الآن وإلا فلا ! ... مع الصرب يجب أن ننتهي وبأسرع وقت ممكن » (تعليق على هامش تقرير لسفيره في فينا).وفي ١٤ تموز اتفق تيسزا وبرختولد على الشروط التي يجب فرضها على صربيا ، « شروط أن يكون قبولها على هذا النحو مستحيلاً » . وقرار المجلس في ١٩ يتوقع « تصغير صربيا لصالح الدول الأخرى (بلغاريا ، ألبانيا ، اليونان ، رومانيا) » (الكتاب الأحمر) .

وما أن اتخذ القرار حتى تقاسمت النمسا وألمانيا الأدوار . تكفلت ألمانيا بسحق صربيا . والنمسا في « حصر » الحرب محلياً بمقاومة كل تدخل من دولة أخرى ، وهذا يعني روسيا .

إن المذكرة التي وجهت إلى مونيخ في ١٨ تموز من مفوضيه بافاريا إلى برلين تقول : « في مصلحة حصر الحرب محلياً ، ستبدأ إدارة الإمبراطورية عملاً دبلوماسياً لدى الدول الكبرى وبالحال بعد تسليم المذكرة النمساوية إلى بلغراد . وبالاستناد إلى واقع أن الإمبراطور في رحلة في الشمال وأن رئيس الأركان الكبرى ووزير الحربية في بروسيا في إجازة ، ستزعم بأنها فوجئت بعمل النمسا ، وبالضبط بنفس الدرجة التي فوجئت الدول الأخرى بها . وستحاول الحصول على مشاركة الدول لوجهة النظر هذه وهي أن الخلاف بين النمسا وصربيا هو قضية تخص هاتين الدولتين فحسب ... » .

لقد كانت المسألة معرفة ما إذا كانت معارضة ألمانيا تكفي لاحتواء روسيا ، وإلا فستكون الحرب العامة .

إنذار إلى صربيا :

ومع ذلك ، أثناء اتخاذ هذه القرارات الخطيرة سراً ، كانت التصريحات السلمية تغدق على أوربة . وذهب غليوم الثاني في سفينة جوالة في بحر الشمال . وبعد أن اطمأن رئيس الجمهورية الفرنسية بوانكاريه ورئيس مجلس الوزراء ڤيڤياني نصف اطمئنان أبحرا في ١٥ تموز لزيارة القيصر في البلاطات الإسكاندنيافية .

وفجأة في ٢٣ تموز مساءً ـ انتظر حتى يغادر الزوار الفرنسيون سن ـ بطرسبورغ ـ سلم **الإنذار** النمساوي إلى بلغراد . وكان أمام الحكومة الصربية ٤٨ ساعة لقبول الطلبات الآتية دون تحفظ ، وهي : أن تستنكر علناً وتتعهد بقمع الدعاية الموجهة ضد النمسا بآخر شدة ، وتحذف كل المنشورات ، وتحل كل الجمعيات ذات النزعات المعادية للنمسا ، وأن تراقب التعليم المعطى في المدارس ، وأن تعزل الضباط والموظفين الذين تدل عليهم الحكومة النمساوية ، وأن تقبل بمشاركة النمسا في البحث عن المجرمين وفي قمع الحركة الهدامة في صربيا .

وفي غداة ٢٤ تموز ، عندما عرفت أوربة بنود الإنذار ، أدركت بالحال أن معناها كله : **الحرب** ، وليست الحرب النمساوية ـ الصربية فحسب ، بل الحرب الأوربية .

تطور الأزمة :

من الجمعة في ٢٤ تموز ، تاريخ نشر الإنذار ، إلى السبت في الأول من آب ، تاريخ إعلان ألمانيا الحرب على روسيا ، كان الأسبوع الذي مضى دراميا مثقلاً بالحوادث ومثقلاً بكل قلق العالم المتمدن .

أما مراحل الأزمة الأساسية فهي الآتية :

في ٢٥ تموز ، قطع النمسا العلاقات الدبلوماسية مع صربيا .

في ٢٨ تموز ، إعلان حرب النمسا على صربيا .

في ٣٠ تموز الأمر بالتعبئة العامة في روسيا .

في الأول من آب الأمر بالتعبئة العامة في فرنسا وفي ألمانيا ، إعلان ألمانيا الحرب على روسيا .

في بضعة الأيام هذه من هم الرجال الذين يتعلق بهم مصير الملايين من البشر ؟ في النمسا الإمبراطور العجوز فرنسوا ، جوزيف ـ ٨٤ عاماً ـ ووزيره الأساسي الكونت **برختولد** ، وكان أميراً كبيراً ضعيف الهمة يشمئز من كل شيء . وفي ألمانيا غليوم الثاني ،الذي عاد من جولته البحرية في ٢٧ تموز بعد الظهر ، كان مندفعاً أكثر من أي وقت مضى ؛ والمستشار بتمان ـ هولڤيغ موظف وجداني ـ دون كبير سلطة ؛ وفي روسيا نيقولا الثاني الضعيف والوزير سازونوف مريض ومتردد ، وبين هؤلاء جميعاً لا يوجد رجل إرادة وميزة . وكان الأحرار الإنكليز في السلطة . وكان عند أسكويث وغري الكثير من العقل ، إن لم يكن الكثير من الوضوح . أما رئيس الدولة الفرنسية ورئيس الحكومة : پوانكاريه وڤيڤياني ، فقد كانا في البحر ، عند عودتها من روسيا . ونزلا في فرنسا في تموز ٢٩ ، متأخرين ليستطيعا التدخل بنشاط .

كانت الحوادث تتعاقب بسرعة ، بحمى متزايدة من ساعة لساعة . ومن طرف لآخر في أوربة ، تتكاثر المساعي الرسمية أو السرية وتتشابك ولا يمكن إلا أن نختصرها هنا ، هذا مع العالم في الوقت نفسه أن كثيراً من هذه المساعي كان الرأي العام يجهلها .

قطع العلاقات النمساوية ـ الصربية :

لقد سلم الإنذار النمساوي في ٢٣ تموز ، وفي ٢٤ منه . وطبقاً للخطة المقررة . أعربت ألمانيا على لسان سفرائها أن النقاش يجب أن يبقى منحصراً بين النمسا وصربيا

« وأن كل تدخل من دولة أخرى يثير ، بلعبة الأحلاف ، نتائج لا تدخل في الحسبان ولا حصر لها » .

والنمسا ، من جهتها ، عجلت ووضعت أوربة أمام الأمر الواقع . وفي ٢٥ تموز ، بعد أن تلقت صربيا نصيحة روسيا وفرنسا ، سلمت جوابها على الإنذار : فقد قبلت ، مع بعض الحيطة ، كل الطلبات المقدمة إلا واحداً منها ـ تعاون النمسا في التحقيق القضائي ـ ، واقترحت تحكيم محكمة لاهاي أو الدول . ولكن النمسا طلبت القبول دون تحفظات : وبعد نصف ساعة من أخذ المذكرة الصربية ، غادر ممثلها بلغراد . وكانت الحكومة الفرنسية كانت مقررة على القيام بالتزاماتها كحليف ، ولكنها رفضت أن تتخذ واهية مبنية بخرق على معلومات مغلوطة .

كان الجواب الصربي حاذقاً ، ولهجته معتدلة جداً ، وأحدث في كل مكان انطباعاً ملائماً ، حتى في برلين حيث دهش من التشدد النمساوي . وعلق غليوم الثاني على هامش الوثيقة ـ التي قرأها فقط بعد ثلاثة أيام ، في ٢٨ ـ : « هذه نتيجة لامعة لأجل مهلة ٤٨ ساعة ! إنها أكثر مما يمكن أن ينتظر ... نجاح عظيم معنوي لفينّا ، ولكن يجب إزالة كل سبب للحرب . وبعد ذلك لن آمر أبداً بالتعبئة » (الوثائق الألمانية رقم ٢٧١) .

التهديد بتدخل روسي :

ماذا ستفعل روسيا ؟ هذه هي النقطة الرئيسية الآن . وبعد أن احتج سازونوف ، بعنف ضد موقف النمسا وألمانيا ، صرح بأنه مستعد (في ٢٦ تموز) إلى قبول تسوية من طبيعتها الحفاظ على استقلال صربيا . ولكن الحكومة الروسية كانت عازمة على ألا تذهب إلى أبعد من ذلك ، على ألا تترك صربيا لتسحق ، وعلى ألا تتحمل خزياً جديداً : وباعتمادها على مساندة فرنسا ، قبلت هي أيضاً المخاطرة بحرب .

هذه التسوية التي طالبت بها روسيا ، لا يبدو أنه من المستحيل إيجادها . وسعت إنكلترا لها بنشاط . وفي ٢٦ ، اقترحت مؤتمراً رباعياً من ـ ألمانيا ، إنكلترا ، فرنسا ، إيطاليا ـ ، وفي الوقت نفسه دعيت النمسا ، وصربيا ، وروسيا للامتناع عن كل عملية عسكرية . وهذا الاقتراح اصطدم برفض ألمانيا . لأنها تمسكت بمبدأ أن الخلاف النمساوي ـ الصربي لا يعني أحداً ، ولذا لا يجب التأثير إلا على روسيا . وفي ٢٧ ، عرفت في كل مكان بنود الجواب الصربي ، وظهر أن تشدد النمسا يشتبه به . واقترح غري بأن تتخذ المذكرة الصربية كأساس للمفاوضة . ونقلت ألمانيا الاقتراح الإنكليزي إلى فينّا ، ولكن بعبارات باردة ذات مغزى .

كتب بتمان ـ هوللفيغ إلى السفير الألماني تشيرشكي : « بعد رفضنا لاقتراح إنكليزي بمؤتمر ، من المستحيل علينا أن نرفض أيضاً هذه المبادرة الإنكليزية دفعة واحدة . وبرفض كل محاولة وساطة ، سنكون بالإجماع مسؤولين عن الانفجار ، ومقدمين كمحرضين حقيقين للحرب . وهذا أيضاً يجعل وضعنا الخاص مستحيلاً في البلد الذي يجب أن نكون فيه معتبرين كمجبرين على الحرب ، ووضعنا يكون كذلك أكثر حرجاً إذا ذهبت صربيا ظاهراً إلى بعيد جداً في طريق التنازلات ... » (الوثائق الألمانية ، رقم ٢٧٧) . وفي اليوم نفسه تلقى برختولد من سفيره في برلين سزوجييني البرقية التالية : « إن الحكومة الألمانية تؤكد بأنها لن تشارك بهذه الاقتراحات ، حتى أنها معاكسة على الإطلاق لاتخاذها بعين الاعتبار ، ولا تنقلها إلا لأنها تعتبر المسعى الإنكليزي » (الكتاب الأحمر النمساوي ، رقم ٦٨) ـ ويدعم المؤرخون الألمان أن سزوجييني كان مسناً ، وأصبح ضعيفاً ، وأنه فسر بشكل أرعن التصريحات الألمانية . والواقع أنها اعتبرت في فينا صحيحة . ولقطع دابر محاولات الوساطة ، لم تخش النمسا من الغوص أكثر في الأعماق : وفي ٢٨ تموز أعلنت الحرب على صربيا .

المفاوضات الأخيرة :

ومنذ ذلك الحين ، يبدو أن الحرب لا يمكن اجتنابها ، إلا إذا تراجعت روسيا . ولكن روسيا لم تفكر بالتراجع . ولم تتردد بين التعبئة الجزئية والتعبئة العامة . وتقررت هذه التعبئة العامة في ٢٩ تموز ، ولكن عندما وصلت برقية من غليوم الثاني ، أعطى القيصر أمراً معاكساً ، واكتفى بالتعبئة الجزئية ـ ضد النمسا ـ .

والواقع في ذلك الحين أن موقف ألمانيا أصبح متردداً ، وبناءً على التشدد النمساوي بدا لها أن القضية أسيء الالتزام بها : إذ كان من الصعب « إسقاط مسؤولية الخلاف على روسيا » ومن لندن وصل الرأي المهدد بأنه « إذا جرت فرنسا وألمانيا إلى الحرب ، فإن إنكلترا لا يمكن أن تبقى جانباً زمناً طويلاً » وعندئذ كثرت المساعي الألمانية التي تضغط على فينا . وأوحى غليوم الثاني منذ ٢٨ ، وغري في ٢٩ ، بعد أخذ الضمان من بلغراد ، أن على النمسا أن تقبل بالمفاوضة ؛ وأوصى المستشار بهذه التسوية « بإصرار وقوة » (٣٠ تموز) .

بعد فوات الأوان ، وحتى باعتراف بتمان « الآلة كانت في حركة ، والتوجيه فر من أيدي رجال السياسة » ليكون بأيدي الأركان . فقد أبرق مولتكه زعيم الأركان الألمانية إلى فينّا باتجاه معاكس لبتمان . وعندما انعقد المجلس النمساوي في ٣١ تموز ، كان ذلك لإعطاء جواب مراوغ للاقتراح الإنكليزي ولتقرير التعبئة العامة . والأمر بالتعبئة العامة الروسية صدر في الأمس مساءً ـ في ٣٠ تموز الساعة ١٨ ـ قبل غيره .

إعلان الحرب :

« حتى آخر لحظة ، صرح سازونوف ، سأفاوض » . والواقع أن المبادهة التي اتخذتها روسيا وكذلك التشدد الذي أبدته النمسا ، جعلا كل المفاوضات عبثاً . ولم تكن الحرب إلا قضية ساعات . وفي ٣١ تموز أصدرت ألمانيا إنذاراً مضاعفاً : إلى روسيا ١٢ ساعة لتوقف « كل إجراء حربي » ؛ إلى فرنسا ١٨ ساعة لتصرح إذا كانت تتعهد بالبقاء

محايدة . وعلم مؤخراً (في ١٩١٨) أنه في حال جواب إيجابي ـ ومع ذلك غير محتمل ـ أن ألمانيا قد طلبت تسليم حصون **تول وفردن** ، كضمان للحياد الفرنسي ، ومن الواضح أن مثل هذا الطلب يجعل الحرب لا محالة واقعة .

وفي الأول من آب عندما انتهت المهلة المحددة سلم السفير الألماني إعلان حرب ألمانيا على روسيا .

وأجاب ڤيڤياني « بأن فرنسا ستعمل ما تقتضيه مصالحها » . وفي الحقيقة إن الحكومة الفرنسية كانت مقررة على القيام بالتزاماتها كحليف ، ولكنها رفضت أن تتخذ مبادهة قطع العلاقات : ولتجنب كل حادث ، تلقت الجنود الفرنسية الأمر أن تبقى في كل مكان على عشرة كيلومترات من الحدود (٣٠ تموز) وفي الأول من آب تقررت التعبئة العامة في فرنسا وفي ألمانيا . وكل واحد من الطرفين كان ينتظر إعلان الحرب من الآخر . وفي ٣ آب أخيراً ، أعلنت ألمانيا الحرب على فرنسا ، ذاكرة كسبب لهذا الإعلان ، أعمال العداء » التي ترتكب على أرض ألمانية من طيارين فرنسيين ـ حجة واهية مبنية بخرق على معلومات مغلوطة .

إخفاق الدبلوماسية الألمانية :

كانت الحكومة الألمانية تفقد آمالها الواحد بعد الآخر ـ أو أوهامها ـ لقد اعتمدت على أن التهديدات بالحرب تغيظ في فرنسا الأهواء السياسية وربما تثير الثورات الشعبية . والعكس هو الذي حدث . فأمام خطر الموت الذي يتهددها ، شدت الأمة أواصرها ـ وسكنت الأهواء السياسية ، وجميع الأحزاب حتى الاشتراكيين نفسهم ، بالرغم من اغتيال جوريس ، الزعيم الاشتراكي المعتدل (٣١ تموز) ، التفوا حول الحكومة . وتمت التعبئة في جو عزم هادئ .

إن الكاتب شارل بيغي الذي جند كملازم في الجيش البري الثابت على طلبه في الجيش الاحتياطي رقم ٢٧٦ (قتل في اليوم الأول من معركة المارن في ٥ أيلول) كتب

في ٣ اب : « إن من لم ير باريس اليوم والبارحة لم ير شيئاً ... » ، وفي ٤ آب : « لقد انطلقنا ، نحن جنود الجمهورية ، من أجل نزع السلاح العام وآخر الحروب ... » . هذه هي العاطفة الأكثر انتشاراً في فرنسا التي قوت القلوب : كان يجب القضاء على الروح العسكرية الألمانية لتأسيس السلام وإنقاذ الحرية .

ومن جهة أخرى ، تخلت الدول المتحالفة عن قضيتها وتحزبها . وفي ٣ آب نشرت إيطاليا تصريح **الحياد** ، « إن الحرب لها صفة عدوانية لا تتفق مع الصفة الدفاعية المحضة للحلف الثلاثي » . وحذت رومانيا حذوها . « وذكر غليوم الثاني : إن الحلفاء انفصلوا عن وفاقنا كأجاص فاسد ! » .

وفي المعسكرين ، ينتظر بقلق قرار إنكلترا . والرأي الإنكليزي أسيء « إيقاظه » وكان يتردد أيضاً . والحكومة نفسها ، كانت منقسمة جداً ، ولم تستطع أن تقرر . وإذا رفضت لألمانيا الحياد الذي كانت تطلبه منها مقابل « مزايدة قوية » فقد كانت تتخلص من الدعوات اللجوجة من فرنسا . وفي الأول من آب أرسل الرئيس پوانكاريه رسالة إلى الملك جورج ، ولم يتلق إلا جواباً مراوغاً . ومع ذلك وجدت نقطة اتفق عليها جميع رجال السياسة وهي أنه يجب مهما كلف الأمر ، ألا يترك الألمان يتوطدون في بلجيكا ويحتلون آنفرس . وفي ٣ آب ، عندما خرق الألمان حياد بلجيكا ، كفت إنكلترا عن التردد . ومنذ ٢ آب كانت الحكومة الإنكليزية قد وعدت أن تدافع عن فرنسا ضد عدوان من الأسطول الألماني في بحر الشمال أو المانش ، وكان ذلك منها النتيجة المنطقية للاتفاق البحري في ١٩١٢ .

ألمانيا وبلجيكا :

كانت بروسيا ، مع الدول الكبرى الأخرى ، قد وقعت معاهدات ١٨٣١ ـ ١٨٣٩ التي تضمن حياد بلجيكا الدائم . ولكن للغلاب بسرعة واطمئنان ، قررت الأركان الألمانية أن تتجاوز الدفاعات الفرنسية في الشرق باجتياز اللوكسمبورغ وبلجيكا ،

ومنذ ٢ آب اجتاح الألمان دوقية اللوكسمبورغ الكبرى التي كان حيادها مضموناً باتفاق ١٨٦٧ ، وفي اليوم نفسه أخطرت ألمانيا بلجيكا بأن تفسح مجالاً لمرور لجيوشها . وكان رفض الحكومة البلجيكية قاطعاً وأتبع في الحال بالهجوم على لييج وقطع العلاقات الإنكليزية الألمانية (٤ آب) .

أجابت الحكومة البلجيكية بأن بلجيكا كانت قد قامت دوماً بواجب حيادها « بروح حياد أمين صادق » ، ولم يكن هنالك « مصلحة ستراتيجية » يمكن أن تبرر « خرقاً للحق » ، « ولو قبلت الاقتراحات التي أعلمت بها رسمياً لضحت بشرف الأمة وفي الوقت نفسه لخانت واجباتها حيال أوربة » . وصرح المستشار الألماني على منبر الرايخشتاغ : « نجد أنفسنا في حالة دفاع مشروع وضرورة لا تعرف قانوناً . لقد احتلت جيوشنا اللوكسمبورغ ، وربما تغلغلت في بلجيكا ، وهذا على نقيض أوامر حق البشر ... ولكننا علمنا أن فرنسا وقفت مستعدة لاجتياح بلجيكا . وفرنسا كان بإمكانها أن تنتظر . أما نحن فلا ... وهكذا فقد اضطررنا أن نتجاوز الاحتجاجات المبررة لحكومتي اللوكسمبورغ وبلجيكا . الظلم ، أتكلم بصراحة ، الظلم الذي نرتكبه بهذا الشكل سنصلحه متى يتحقق هدفنا العسكري . إن من هو مهدد في النقطة التي نحن فيها ، ويناضل في سبيل خيره الأسمى ، يجب ألا يفكر بشيء آخر إلا بإحداث ثلمة » وفي المساء كان لبتمان آخر لقاء مع السفير الإنكليزي : وقال : « إن الإجراء الذي اتخذته الحكومة الإنكليزية كان فظيعاً لآخر درجة : لا شيء إلا لأجل كلمة - الحياد - كلمة في زمن الحرب لا يؤخذ لها في الغالب أي اعتبار ، لا شيء إلا أنها قصاصة ورق ، وبريطانيا العظمى ستذهب لتحارب أمة من نفس الأسرة ، لا تطلب أفضل من أن تكون صديقتها ... » (الكتاب الأزرق الإنكليزي ، رقم ١٦٠) .

إن خرق الحياد البلجيكي ، وكلمة المستشار بتمان - هولفيغ - « لا شيء إلا أنها قصاصة ورق - أحدثتا وقعاً في العالم كله . وبدا أن ألمانيا عندها القوة المادية : ولكنها وضعت ضدها القوى المعنوية .

الفصل العاشر

تطور العلم والتقنية والاقتصاد

الصفات العامة

لقد كان التقدم العلمي حادثاً مسيطراً منذ منتصف القرن التاسع عشر . فالفلسفة والتاريخ والأدب نفسه أشربت كلها بالروح العلمية . وخلفت الواقعيةُ والطبيعيةُ الإبداعيةَ (الرومانتيكية) . ومع ذلك حدث في آخر القرن رد فعل لصالح السر والفوق الطبيعي . وكان هذا العصر عصر الرمزية ، والنظريات الجديدة التي يزعم الفلاسفة بها تحديد دور العلم بشكل ضيق .

وكما تطورت الحياة الاقتصادية والسياسية ، تطورت الحياة الفكرية وتجددت بسرعة متزايدة ، وتحررت من كل نظام ، وأصبحت نشاطاً حاراً قليلاً ولا يخلو من فوضوية .

أسباب التطور الأساسية :

كانت الحياة الفكرية متأثرة ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بالتغيرات الكبرى التي حدثت في النظام الاقتصادي والسياسي والاجتماعي ، وتطورت بسرعة . على أن هنالك حادثين أساسيين سيطرا على هذا التطور وهما : التقدم العلمي والتقدم الديموقراطي .

إن العلم ، بسعة تقدمه في هذا الدور ، سيطر على الحضارة كلها ، وطبع بطابعه الخاص جميع أشكال النشاط الفكري . وجهز الفنانين بتقنيات جديدة ، والمفكرين

والكتاب بمفاهيم جديدة وطرق عمل جديدة . وكان لجميعها مصدر إلهام . وهكذا امتد تأثيره ، وما زال يمتد يوماً عن يوم وبازدياد لا حد له .

ولم يكن نفوذ التقدم الديموقراطي بأقل من نفوذ العلم وتقدمه . فمن ذلك أن هنالك مؤسستين ديموقراطيتين تبنتهما الدول المتمدنة وهما : التصويت العام ، والتعليم العام . وكانت نتائجهما مباشرة : فمن جهة ، توسع الجمهور ؛ ومن الجهة الأخرى ، الازدياد السريع في الإنتاج الفكري . فقد ازداد بشكل فائق لا سابق له عدد قراء الكتب والصحف والمجلات وعدد الحضور في المسارح والتمثيل المسرحي ، وعدد زوار المتاحف والمعارض ، وعدد حضور الحفلات الموسيقية . كما ازداد عدد طبعات الكتاب حتى بلغ الألوف ، وعدد الصحف اليومية ما يزيد على المليون . وبالتالي تحولت ظروف العمل الفكري وتحسنت بالنسبة لبعض المؤلفين الذين استطاعت مؤلفاتهم أن تصل إلى الجمهور الواسع كما عظم خطرها بالنسبة لآخرين ؛ وكذلك للإجابة على الطلبات المختلفة للجمهور المتزايد ، حتى أصبح كل قارئ يجد ما يرضي غاياته من قديم وحديث بل وثوري أيضاً . وإذا كان النصف الأول من القرن مطبوعاً بتيار الإبداعية والنزاع العظيم بين الإبداعية والإتباعية (الكلاسيكية) ، فإن الدور المعاصر يتصف بخاصة بالاختلاف الفائق للنزعات والميول والأهواء والمدارس والآثار (المؤلفات) .

ومما ساعد على تنوع الإنتاج في الحياة الفكرية أن هذه الحياة نفسها لم تبق محددة وموضعية . ولا شك في أن فرنسا بقيت أكثر نشاطاً من غيرها على الصعيد الأدبي والفني ، ومركزا يشع بالجاذبية . وظلت كذلك أيضاً كل من إنكلترا وألمانيا تظهران عبقريتها في الخلق والإبداع الأصيل . ويمكن أن نذكر أيضاً إلى جانبهما البلاد اللاتينية الأخرى ، والإسكاندينافية والسلافية ولا سيما روسيا . وحتى في خارج أوربة البلاد الجديدة الأميركية . وتعددت تيارات المبادلات بين بلد وآخر ، وتوطد الاتصال بين الغرب والشرق ـ الأقصى الغني بالقوى الروحية . وفي هذا التوجه يمكننا أن نقول إن الحياة الفكرية كالحياة الاقتصادية والسياسية نزعت في أيامنا إلى أن تكون دولانية .

١ ـ التقدم العلمي

المقدمة :

منذ منتصف القرن التاسع عشر إلى أيامنا هذه شهد العالم تغيرات مما لم يشهد مثلها في ألوف السنين السابقة . وكان التقدم العلمي ، ولا سيا العلوم الفيزيائية ، في أساس هذه التغيرات والتحولات التي تبشر بعصر جديد في تاريخ الإنسانية . فعلى الصعيد الاقتصادي ، كان التحول فائقاً ومدهشاً في تجديد أدوات العمل والطرق وتمركز المشاريع وزيادة الإنتاج والمبادلات ، حتى بدا ثورة اقتصادية لها انعكاساتها العديدة في تحويل مجرى التطور السياسي .

في هذه الفترة الزمنية التي لا تعد شيئاً مذكوراً في سياق الأزمة التاريخية ، كانت التطورات متزايدة السرعة حتى أصبحت هذه السرعة في التحويلات صفة أساسية من صفات العصر الذي ندرسه .

بين هذه التحويلات كانت التحويلات ، التي تناولت الحضارة المادية ، أعظمها تأثيراً . وفي الواقع ، منذ بداية العصور التاريخية ، منذ تركت صناعة الحجر المجال للصناعة المعدنية ومجموع الآلات ، التي تستعمل ، لم يتبدل بشكل محسوس . والتحول لم يبدأ بالحدوث إلا في آخر القرن الثامن عشر في إنكلترا . ومع ذلك ظل محلياً جداً وبطيئاً في بادئ الأمر ، ثم ما لبث أن تعمم وتسارع انطلاقاً من ١٨٥٠ . وأصبح بالإمكان القول بأن البشرية دخلت في عصر جديد ، عصر الآلة أو الحضارة العلمية .

على أن هنالك تحويلات أخرى سريعة كثيراً أو قليلاً تناولت البنية السياسية والاجتماعية للبشرية . فمن ذلك أننا نرى زيادة عظيمة في السكان ، وبصورة خاصة في الطبقات العاملة . يضاف إلى ذلك أن الأهمية العائدة للدول ، ونظامها الداخلي قد تبدلا بصورة عميقة . وعم النشاط سطح الكرة الأرضية كله . فحيث لم يكن في السابق

غير مساحات صحراوية ، نبعت دول جديدة . وتكاثرت العلاقات الدولية ووضعت قضايا سياسية جديدة أو حددت القديمة . فإلى أي نفوذ عظيم يجب أن ننسب هذا التغير الفائق العجيب .

لا مشاحة ، إلى العلم . فهو بتقدمه السريع غير مجرى التطور الاقتصادي أولاً ، وبالمقابل مجرى التطور السياسي والاجتماعي . ولذا يحسن بنا أن ندرس النشاط العلمي والتحول الاقتصادي لنرى مدى تأثير كل منهما في حياة العصر .

التقدم العلمي وصفاته :

لقد أفاد النصف الثاني من القرن التاسع عشر من التقدم العلمي الذي جرى في النصف الأول منه . فقد استمرت الحركة العلمية في تقدمها بسرعة متسارعة لا تعرف الملل والكلل ، كما اتسعت وتعقدت . وفي الحقيقة إننا كلما أدركنا الأهمية الرئيسية للعلوم ، ازداد تحسين نظام العمل العلمي في البلاد المتمدنة . وكانت الحكومات مدعومة أو يقوم مقامها في هذا العمل بعض كبار الصناعيين الواعين للخدمات التي يمكن أن يقدمها العلم للصناعة . والتعليم العلمي ما فتئ يتوسع في المدارس الثانوية ، وفي الجامعات ، وفي المدارس والمعاهد التقنية الآخذة بالتزايد والتي يرتادها طلاب العلم . كما أن متطلبات هذا التعليم وأكثر من ذلك أيضاً متطلبات الصناعة كان من نتيجتها زيادة فائقة في الجهاز العلمي ـ من علماء وتقنيين ـ يضاف إلى ذلك ازدياد المخابر ، وتحسين الأدوات والتوسع التدريجي في البحوث العلمية والإنتاج العلمي . وقد سبقت ألمانيا وإنكلترا والولايات المتحدة فرنسا في هذا المضمار .

وتوسع الإنتاج ولّد بدوره تخصصاً متزايداً ، وتقسيماً في العمل مدفوعاً حتى النهاية . ولا شك أنه وجد أيضاً في النصف الثاني من القرن التاسع عشر علماء كانت لهم شهرة عالمية مثل الألماني هلمهولتز (١٨٢١ ـ ١٨٩٤) ، فقد كان فكراً واسعاً قوياً انطلق من الطب وأكب على علم منافع الأعضاء (الفيزيولوجيا) والمولدات الحرارية ، وعلم

البصريات ، والكهرباء ، وعلم السمعيات ، ولكن من الممكن القول اليوم إن عصر العقول العامة قد أقفل . لأن كل العمل العلمي مال إلى التخصص في علم واحد ، بل في جزء صغير من هذا العلم . ولكن هذا لا ينفي الثقافة العامة الضرورية والأساسية الذي تميز الإنسان المثقف عن غيره .

ولمعالجة هذه التجزئة أو التفتت في البحوث العلمية ، وجب أن ينمى بكل الوسائل التعاون العلمي على الصعيد الوطني وعلى الصعيد القومي وعلى الصعيد الدولي . ولقد أمكن التوصل إلى ذلك جزئياً وبصورة ناقصة بنشر الصحف والمجلات العلمية والمصادر والمراجع والتقارير النقدية ولا سيا بالمحاضرات والندوات والمؤتمرات العلمية . وهكذا في مؤتمرات باريس ١٨٨١ ، وشيكاغو ١٨٩٣ حددت الوحدات الكهربائية الدولية . ولكن يبقى الكثير في هذا السبيل . وفي أيامنا لا يخلو كل عامل في الحقل العلمي من الاصطدام بصعوبات الاستخبار .

الطرق :

إن تقدم المخابر كان من نتيجته نمو الطريقة التجريبية . وبعد أن كانت الطريقة محصورة في العلوم الفيزيائية والكيميائية ، أصبحت أيضاً طريقة العلوم الحياتية المؤسسة على الملاحظة وحدها . ثم توسعت وامتدت إلى العلوم النفسية ، وبفضل تحسين الآلات والأدوات واستعمال الطرق الحديثة في المنحنيات التي تمثل تغيرات المقادير والكميات التي هي قابلة للقياس ، والطرق التصويرية ،والسينمائية ، وأجهزة التسجيل . وهكذا أمكن بالتجريب الحصول على نتائج مضبوطة ودقيقة بشكل متزايد ، وقابلة لأن تصاغ بلغة رياضية ودساتير .

والطريقة العلمية التجريبية ما انفكت في الواقع تنضم إلى الطريقة الرياضية . وهذه الطريقة بلغت درجة من المرونة وأصبح بإمكانها أن تتكيف مع التعقيد المتزايد في البحث والتنقيب . وإذا أخذت أعمال العلماء الرياضيين في العصر الحاضر صفة

تجريدية أكثر فأكثر فذلك لأنه وجد أن لاكتشافاتها تطبيقات عديدة في المسائل التي تضعها العلوم التجريبية ، وهكذا فإن الفيزياء الرياضية أصبحت فرعاً هاماً من الرياضيات .

والطريقة التجريبية أو الطريقة الرياضية كلاهما خصبتان بالفرضيات النظرية التي تسلكها أو توحي بها . فالتجربة ، والحساب ، والفرضية ، هذه هي الطرق الثلاث الأساسية التي يؤمن مزجها سير التقدم العلمي . فالاستقراء والاستنتاج والتجارب والنظريات مهيأة دون انقطاع لأن تكون دعماً مشتركاً متبادلاً . والتجارب والحسابات ولدت بدورها نظريات جديدة . وبالمقابل ما إن تصاغ نظرية في دستور إلا وتجري مباشرة من جميع الجهات تحقيقات تجريبية ورياضية توسع بدورها العلم . ولقد استطاع العالم الرياضي هنري بوانكاريه أن يقول : « إن دور النظريات لا أن تكون حقيقية ، بل أن تكون مفيدة » .

أولوية العلوم الرياضية :

الإنتاج العلمي المعاصر موفور ومتنوع ، ومن المستحيل هنا أن نعطي عنه لوحة ولو كانت مختصرة . ونقتصر هنا ، بين الاكتشافات الأساسية ، على الاكتشافات التي لها انعكاسات أكثر من غيرها نظرية كانت أم تطبيقية .

وفي هذا الاعتبار ، نلاحظ أن أول ما يفرض هو : أولوية العلوم الفيزيائية . فلقد توسع صعيدها حتى طغى على صعيد العلوم الأخرى التي أصبحت جزئياً على الأقل لها فروعاً . والمثال الضارب أكثر من غيره هو مثال الفلك الذي ظل حتى ذلك الحين فرعاً من الميكانيك : فقد أثير بتقدم علم الفيزياء الذي ساعد على تشكيل : **الفيزياء الفلكية** إلى جانب الميكانيك . وكذلك امتدت مبادئ وطرق الفيزياء إلى الكيمياء : وتكونت الكيمياء الفيزيائية . والكيمياء بدورها اجتاحت الأرضية المحفوظة للعلوم البيولوجية ونما إثر ذلك علم جديد وهو الكيمياء البيولوجية (كيمياء علم الحياة) .

استعمال النتائج الحاصلة :

إن النتائج العلمية التي أمكن الحصول عليها في النصف الأول من القرن التاسع عشر كانت على درجة من السعة والخصب حتى أنه كان يكفي تقويتها وتثبيتها وإيضاحها بدقة بتحقيق تقدم جديد في جميع الاتجاهات .

لقد حل فرينل مسألة طبيعة الضوء ، وبرهن على أنه اهتزاز ، وأنه ينتشر على أمواج . وثبتت نظريته بالتجارب العظيمة التي قام بها فيزو وفوكول اللذان نجحا بقياس سرعة النور بدقة في الهواء وفي الماء (١٨٤٩-١٨٥٤) وطرق القياس المخترعة ، على أيدي المجرّبَين العبقريين ، كان لها تطبيقات عديدة في الفلك ، وفي البصريات ، وعلم البلورة وحولا تقنية المشاغل البصرية والمراصد .

ثم جاء ماير وجول وأتما أثر كارنو ، وهؤلاء العلماء الثلاثة الكبار ، الألمانيان هلمهولتز وكلاوزيوس ، والإنكليزي وليام تومسون - لورد كلفن - وأنجزوا تأسيس المولدات الحرورية ، وأظهروا القيمة العامة لمبادئها المطبقة على كل الحوادث . والتجارب العديدة للعالم الفيزيائي الفرنسي رينيول ، التي لم يتوصل إليها حتى ذلك العهد أحد ، أعطت للعلم الجديد أساساً (قاعدة) تجريبياً صلباً وكان من نتيجتها الحل النهائي لقضية **تمييع الغازات** التي وجدها كايوتيه في ١٨٧٨ . وقد أوجدت طريقة كايوتيه ومتممه **تقنية التبريد** مع كل تطبيقاتها الصناعية .

وكذا الحال على صعيد الكهرباء المغناطيسية التي اكتشفها آمبير وفرداي ، والتجارب ، والقياسات ، والتحسينات التقنية التي شارك فيها أيضاً فيزو ،وفوكول ووليام تومسون ، أدت إلى تطبيقات عملية ذات أهمية عظيمة . وتوضح البرق تحت الماء بعمل وليام تومسون (١٨٦٦) . وهيأ الألماني سينس والإيطالي پاتشينوتي المبدأ والعناصر الأساسية **لآلة المولد الكهربائي** التي تحققت في ١٨٦٩ على يد التقني البلجيكي غرام . وكان لهذا الاختراع أهمية عظيمة شبيهة بأهمية الآلة البخارية ومصدر كل الصناعات

الكهربائية . والأميركيان غراهام بيل وغري مخترعا الهاتف (١٨٧٦) الذي حذف المسافات بواسطته . كما يجدر بنا أن نذكر أن موظفاً فرنسياً اسمه بورسول اخترع منذ ١٨٥٤ جهازاً ينقل الأصوات ولكن لا الكلام .

تطور الفيزياء:

ومع ذلك فإن اكتشافات جديدة أخذت توسع أيضاً ساحة الفيزياء ، وتجبرها على تغيير كل مفاهيمها النظرية ، وتجهز الناس بوسائل عمل حديثة ، وتكشف أخيراً في الطبيعة عن وجود قوى لا يشك فيها ولكن يكاد يبدأ رسمها الأولي ، وهذه قضية المستقبل .

كان الاكتشاف الرئيسي الأول : **تحليل الطيف** (١٨٦٠) الذي يعود إلى فيزيائيين ألمانيين ، كيرشهوف وبونسن . ودراسة الأطياف الضوئية كانت نتيجتها المباشرة إحداث ثورة في عالم الفلك والتعريف بالتركيب الكيميائي للكواكب واكتشاف الوحدة الكيميائية للكون . وبتنمية دراسة الإشعاعات أدى إلى اكتشافات لا تقل عنها خصباً .

ومن جهة أخرى ، استأنف العالم الإنكليزي ماكسويل الأفكار التي أذاعها فاراداي وأظهر أن الوسط الذي ترجع إليه الأعمال الكهربائية ، ليست غير الأثير المضيء ، أو بشكل أصح ، إن الكهرباء المغناطيسية والضوء هما شكلان مختلفان لحادث واحد (١٨٧٣) . وقد ثبتت نظرية **الكهرباء المغناطيسية للضوء** بتجارب العالم الألماني هرتز (١٨٨٩) التي برهنت على أن النوسانات الكهربائية تنتشر في الفضاء بأمواج ، كالنور . وقد ساعد إنتاج موجات هرتزية تباعاً على تحقيق البرق اللاسلكي (١٨٩٦) ، وبعد عشر سنوات (١٩٠٦) على الهاتف اللاسلكي ، الذي يرجع إلى عدة باحثين من جميع البلاد .

وحصل تقدم جديد نظري في معرفة الكهرباء والضوء ، عندما استأنف العالم

الهولاندي لورنتز الفكرة التي طرحها هلمهولتز ، وخلص إلى بنية الجوهر الفرد للكهرباء وإلى وجود ألكترونات أو جواهر فردية (آتومات) كهربائية (١٨٩٢) . وتثبتت **النظرية الإلكترونية** بتجارب الفيزيائي الفرنسي بيرّن والإنكليزي ج . ج تومسون اللذين أسسا بشكل حاسم حقيقة الإلكترونات . وهكذا فإن الجوهر الفرد (الآتومية) ، التي كانت حتى ذلك الحين نظرية ، دخلت في الصعيد التجريبي .

وفي الوقت نفسه وجدت نقطة استناد غير منتظرة في اكتشافات أخرى مدعوة لقلب العلوم الفيزيائية . ففي ١٨٩٥ اكتشف العالم الألماني رونتغن الأشعة السينية (×) وخاصيتها أن تجتاز بعض الأجسام الكثيفة . وفي السنة التالية كان الاختراع المدهش أيضاً وهو اختراع الحوادث النشيطة الإشعاع على يد الفيزيائي الفرنسي بيكيرل . ثم جاء عالمان آخران وهما السيد والسيدة كوري اللذان أظهرا أهمية هذا الاختراع واكتشفا أقوى الأجسام نشاطاً في الإشعاع وهو الراديوم (١٩٠٠) . ودراسة النشاط المشع كان من نتيجتها النظرية التعمق في معرفة المادة : فمع روثرفورد والمدرسة الإنكليزية أمكن التوصل إلى تصوير أثر الآتومات ، وتعيين البنية الداخلية التي تدعو إلى التفكير بنوع من نظام شمسي . ومن وجهة النظر العلمية كانت النتيجة المباشرة مهر الطب والجراحة وصناعة وسائل جديدة للملاحظة والعمل . ولكن ما زلنا في بداية الطريق الذي سيؤدي بشكل فائق إلى بعيد .

وفي النقطة التي وصلت إليها الفيزياء ، أعيد النظر في كلّ المبادئ الأساسية . ويبدو أننا نقترب من مفهوم عام للكون ، وإلى ثورة شبيهة ومماثلة للثورة التي طبعت بطابعها عصر النهضة وبداية العصور الحديثة . وهذه هي الأهمية التي يجب نسبتها للنظرات العميقة لعالمين ألمانيين ، وهي نظرية الكانتا أو الكوانتا التي أذاعها پلانك ، وهي نظرية نسبية الزمان والمكان التي أوضحها إينشتاين التي ما زالت تحقيقاتها التجريبية قائمة على قدم وساق وتتلاحق تباعاً .

الكيمياء المعدنية والعضوية :

إن تقدم الكيمياء يرتبط بصورة وثيقة بتقدم الفيزياء . ومن الصعب فصلهما عن بعضهما . والاكتشافات العظيمة التي أتينا على ذكرها ترجع للكيمياء كما للفيزياء ، وبالتالي لها انعكاسات على الصعيدين .

وفي الواقع ، إن الحواجز التي كانت تفصل الفيزياء والكيمياء سقطت تدريجياً . وبين الأعمال الخصبة في هذا الاعتبار ، يمكن أن نذكر أعمال العالم الفرنسي سنت ـ كلير دوفيل على حوادث **الانفصال** (١٨٥٧) . لقد كانت نقطة انطلاق الأبحاث التي أدت إلى إيجاد **الكيمياء الفيزيائية** وإدخال الطرق الفيزيائية في الكيمياء . والقوانين الأكثر أهمية **للميكانيك الكيميائي** أوضحها منذ ١٨٧٦ الأميركي جبس . وقاس الفرنسي برتيلو سرعة التفاعلات الكيميائية وكمية الحرارة التي تنشرها وأوجد على هذا النحو « **الكيمياء الحرارية** » .

ومن جهة أخرى سقطت الحواجز بين الكيمياء المعدنية والكيمياء العضوية . وكان هذا من عمل برتيلو بصورة أساسية . فقد تقدم في الطريق الذي فتحه ڤوهلر . وحل تماماً قضية **التركيب العضوي** : وبتجارب حاسمة دل على أنه يمكن إعادة بناء معظم المركبات العضوية بطرق بسيطة في المخبر ؛ وحقق تركيب الأسيتيلين والبنزين ، والكحول (١٨٥٤ـ١٨٦٢) . وهناك علماء آخرون فرنسيون ، وألمان أدخلوا في الكيمياء العضوية النظرية والتمثيل بعلامات متفق عليها أي التمثيل الآتومي اللذين ساعدا على اكتشاف عدد كبير من الأجسام الجديدة بل وحتى التنبؤ جزئياً بخواصها .

وأدى تقدم الكيمياء ، كتقدم الفيزياء إلى تطبيقات عملية لا عد لها . وأخذ مجموع الصناعات الكيميائية نسباً عظيمة : صنع الأسمدة الكيميائية ، والمستحضرات الصيدلانية ، والمواد الملونة المستخرجة من زفت الفحم الحجري ، والحرير الاصطناعي

والنشادر (آمونياك) إلخ .. وحولت الكيمياء كلياً على وجه تام تقنية الصناعة المعدنية ، وتقنية الحرب نفسها بصنع متفجرات جديدة وغازات سامة .

الكيمياء العضوية والفيزيولوجيا التجريبية :

كلما تقدمت الكيمياء العضوية ، يرى سقوط الحواجز التي كانت تفصل العلوم الفيزيائية والعلوم البيولوجية . وهذه مرحلة جديدة أخذت تظهر أهميتها شيئاً فشيئاً عظيمة ، نحو وحدة العلم ومعرفة الحياة .

فمن جهة ، ان الكيمياء العضوية ، التي نشطت بتقدمها السريع ، وسعت صعيد أبحاثها حتى دراسة الحوادث الكيميائية مثل التي تحدث في المخلوقات الحية . وهكذا تشكلت **الكيمياء البيولوجية** ، التي تناولت أبحاثها العظيمة السكريات والمواد الألبومينوئيدية ، والمواد الهلامية والأنزيمات (دياستاز) أو الكاتاليزورات ، العضوية التي تمارس بها الوظائف الحياتية .

ومن جهة أخرى ، إن أهم العلوم البيولوجية ، وهو علم الفيزيولوجيا ، قد نما وتوسع بما اقتبسه من طرق تجريبية عن العلوم الفيزيائية . فحتى ذلك الحين ، ما عدا بعض السابقين الجريئين ، لم يكن الفيزيولوجيون والأطباء ليعملوا إلا على حوادث الملاحظة . والرأي الشائع كثيراً كان في أن الطريقة التجريبية ، الصالحة لدراسة الحوادث الفيزيائية ، كانت عاجزة أمام حوادث الحياة . إلا أن كلودبرنار أحد كبار أساتذة العلم الفرنسي ، أظهر الرأي المعاكس : وذلك بفضل التجريب الذي تعتمد عليه اكتشافاته الأساسية ، وبخاصة على الوظيفة الغليكوجينية للكبد (١٨٤٩) ، أي الخاصة التي يملكها هذا العضو في احتفاظه بالسكر . ودل على مبادئ طريقته في مطوله : « **مدخل إلى دراسة الطب التجريبي** » (١٨٦٥) الذي أثار دوياً جدلياً . على أن الغالبية العظمى للأطباء أنكرت أولاً قيمة نظرياته واعتبروها طوبائية ؛ ولكنهم انتهوا أخيراً إلى مشايعتها ، وعندما توفي كلودبرنار (١٨٧٨) لم يفكر أحد بمنازعة أهمية عمله .

پاستور وعلم الجراثيم :

هذه الطريقة التجريبية التي وضع كلودبرنار مبادئها ، استعملها عالم فرنسي آخر ، پاستور (١٨٢٢ـ١٨٩٥) خير استعمال . لقد كان مجرباً عبقرياً ، أنجز عملاً واسعاً وخصباً من وجهة النظر العلمية ، ومحسناً من وجهة النظر الاجتماعية .

تخرج باستور من مدرسة المعلمين العليا ، وكان كيميائياً . وكان هو نفسه المثال الحي للرابطة الوثيقة التي جمعت منذ الآن العلوم الفيزيائية والبيولوجية . لقد عرف نحو ١٨٥٠ بأبحاثه الأصيلة في تركيب الكريستال . وكان هذا العمل منه نقطة انطلاق لعلم الكيمياء الفراغية التي تستخدم أبعاد الفراغ الثلاثة لوصف بنية الذرات .

والكيمياء نفسها قادت باستور إلى البيولوجيا (علم الحياة) . فمن دراسة البلورات انتقل إلى دراسة « **التخمرات** » . فحتى ذلك الحين كان التخمر معتبراً كحادث كيميائي بحت . غير أن باستور قال بالعكس إن التخمر ، مثل الخمر ، وتخمر الحليب ،إلخ .. سببه كائنات حية ـ سميت فيما بعد « **جراثيم** » تتكاثر في وسط ملائم ، ولكل تخمر نوع خاص من الجراثيم . وأخيراً إن هذه الجراثيم لا يمكن أن تولد بصورة عفوية ، ولكن بذورها المتناثرة في الفضاء تسكن بخاصة وسط الغبار المتجمع (١٨٥٨ـ١٨٦٢) . ومن هنا تأسيس « **علم الجراثيم** » . وعرف باستور كيف يستنتج بالحال تقريباً نتائج عملية هامة : فقد دل على أن الدواء الناجع ضد التخمر هو التسخين الذي يقتل أو يشل الخمائر الضارة (١٨٦٧) . والطرق المعروفة باسم « **بسترة** » طبقت أولاً على الخمر ، ثم على الحليب وعلى الجعة (البيرة) .

أبحاث في الأمراض المعدية :

لقد تتابعت هذه الأعمال وسط جدل عنيف . وجعلت پاستور مشهوراً . وفي ١٨٦٥ ، عهدت إليه الحكومة بمهمة دراسة مرض أباد آنذاك **دود القز** . وعرف أن المرض

مرض طفيلي ، يعود كالتخمر إلى دخول البـذور المتـأتيـة عن الخـارج ونجح في القضـاء على الوباء .

إن دراسة الأمراض المعدية (الإنتانيـة) جـذبت بـاستور . فقـد بـدأ بـالعمل على الحيوانات ، ودرس جمرة الخراف ، ثم هيضـة الـدجـاج . وبعـد أن وضع وقرر أن هـذه الأمراض ترجع أيضـاً إلى دخول الجراثيم في العضويـة ، نجح في عزل هـذه الجراثيم ، وفي **زراعتها** اصطناعياً ، وفي توليـد المرض بتلقيح هـذه الزراعـة . ثم حصل على اكتشـاف رئيسي في ١٨٧٩ ، وأظهر أن التلقيـح بهـذه الجراثيم التي أضعفت وخففت يستطيـع أن يحفظ من المرض : هـذه الزراعـة التي خففت تؤلف **لقـاحـاً** . هـذا مع العلم أن الطبيب جنّر كان قـد اكتشف منـذ آخر القرن الثـامن عشر تلقيـح الجـدري ، ولكن هـذا الاكتشاف كان له صفة عملية تجريبية لا نظرية . وفي ١٨٨١ ، اكتشف بـاستور التلقيح المضـاد للجمرة . ثم أخـذ يـدرس مرض الكَلَب ، وبعـد عـدة سنوات من التجربـة على الحيوانـات ، قرر أخيراً ، في ١٨٨٥ ، ولا يخلو الأمر من قلـق ، أن يحـاول حقن اللقـاح على طفل عضه كلبٌ كَلِبٌ . ونجحت التجربة تماماً .

عندئذ عرف باستور في العالم كله محسنـاً للإنسـانيـة . وسـاعـد اكتتـاب دولي على تأسيس « **معهد پاستور** » في ١٨٨٨ لدراسة الأمراض المعدية . وقبل عـام على وفـاتـه ، في ١٨٩٤ ، شهـد اكتشـاف أحـد تلاميـذه وهو الـدكتور « رو » لمصلٍ يشفي من مرض الخناق « الدفتريا » .

عظمة عمل پاستور :

إذا أخذنا بقول عالم إنكليزي ، إن عبقرية پاستور أرجعت لفرنسا فديـة حرب من خمسة مليارات دفعت إلى ألمانيا بعد هزيمة ١٨٧٠ . والمديح ليس فيـه مبـالغـة ؛ إن عمل باستور كانت له نتائج مفيدة لا حصر لها .

لقـد تكلمنـا فيما سبق عن طريقـة « **البسترة** » المطبقـة اليـوم في كل أجـزاء العـالم

ومرض الجمرة الذي أباد في السابق الحيوانات ، قد زال تماماً تقريباً ، بفضل التلقيح . وفي المدن الكبرى في كل البلاد تأسست معاهد باستور ، وكوفح مرض الكلب بشكل ناجع . وبمصل الدكتور روسقطت الوفاة بالخناق (الدفتريا) من ٧٠٪ إلى ٧٪ .

إن المذهب الباستوري قدم للجراحة خدمات جلى لا تقل عن غيرها . فلقد ساعد على أن التعقيدات الحتمية ، التي تفسح مجالاً تقريباً لكل العمليات الخطيرة ، كانت ناجمة عن جراثيم منبعثة إما عن الغبار الجوي ، وإما عن الجراح نفسه الذي يقوم بالعملية أو أدواته . ومنذ ذلك الحين ، باستعمال « **المطهرات** » التي تبيد الجراثيم ، أمكن التوصل إلى تجنب التعقيدات في معظم الحالات . واستطاعت الجراحة أن تجازف بالعديد من العمليات الجديدة .

وأخيراً لقد أسست اكتشافات باستور ما يمكن تسميته بـ « **الصحة الاجتماعية** » فبفضلها استطاع المجتمع القيام بالكفاح العقلاني ضد المرض ، ويمنع بإجراءات وتدابير صحية شديدة انتشار الأمراض المعدية ، وتوقيف غزوات الطاعون والكوليرا على الحدود . والمشروع كاد يبدأ ، ولكن النتائج الحاصلة عظيمة . فلقد قال باستور نفسه : « سترون كم سيتعاظم كل هذا في الآجل » .

دارون ونظرية التحول :

بين المناقشات النظرية التي أتاحتها لها العلوم الطبيعية الفرصة ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وجد ما كان له دويٌّ عظيم وكان هاماً بنتائجه ألا وهو نظرية **التحويل** . فبعد أن دافع « **كوفيه** » (١٧٦٩ ـ ١٨٣٢) بشدة عن نظرية ثبات الأجناس ، ظهر ، بعد عشرين عاماً من الأعمال ، العالم الطبيعي الإنكليزي « **دارون** » ونشر في ١٨٥٩ مطوله في « **أصل الأجناس** » . وفيه استأنف النظرية التي قال بها « **لامارك** » ودعم بأن « جميع الحيوانات وجميع النباتات تشتق من أربعة أو خمسة نماذج بدائية » ، وربما حتى من واحد فقط . فعلى عكس لامارك الذي وضح بأن تطور

الأجناس بتأثير الوسط ، جاء دارون وأوضحه « **بالانتقاء الطبيعي** » للأفراد الموهوبين .

وانتقلت نظرية التحويل إلى الصعيد الفلسفي على يد « **هربرت سبنسر** » وولدت المذهب الذي يرى في « **التطور** » القانون الأساسي للعالم الفيزيائي والأخلاقي (المعنوي) . وفي الصعيد العلمي كوفحت نظرية التحويل بحرارة ولا سيا في فرنسا ، على يد تلاميذ كوفيه . ولكن الجدل الذي تتابع حتى أيامنا ساعد على تقدم العلم بالتحقيقات العديدة والتجارب التي أثارها . فقد برهن على وجود الإنسان المستحاثة أو ما قبل التاريخ . وتمكن « **علم الإحاثة** » أو المستحاثات أن يتشكل كعلم مميز . واتجه العلماء الطبيعيون نحو دراسة العضويات الدنيا ، نحو دراسة الوراثة والتغيرات . وهذه الأبحاث ولدت منذ آخر القرن التاسع عشر ، نظرية جديدة مخصصة لأن تتم أو تحل محل النظرية الدارونية .

معرفة الأرض :

إن جميع العلوم وبصورة أساسية العلوم الطبيعية ، أفادت من التقدم الواسع الذي حققته معرفة الأرض منذ منتصف القرن التاسع عشر . فمن وجهة النظر العلمية المحضة ، كان حادثاً من الحوادث الأساسية في الدور المعاصر .

وقد يكون هنا من الإسهاب والإطالة أن نعيد هنا رسم التاريخ الذي هو درس عظيم للنزاهة والتجرد والإرادة . ولكن يجب أن نتذكر أن القسم الأعظم من سطح الأرض ، نحو ١٨٥٠ ، ما زال تساء معرفته أو تقريباً بكامله مجهولاً ، ولا سيا إفريقية ، وآسيا الوسطى ، وأوستراليا الداخلية ، والمناطق القطبية . أما قضايا « **الجغرافيا الإفريقية** » فقد حلت يد جماعة من المكتشفين الجريئين ، وبينهم بارت مكتشف السودان (١٨٤٩ـ١٨٥٥) ، وسبيك لأعلى النيل (١٨٥٨) ، ولفنغستون مكتشف نهر زامبيز والبحيرات الكبرى (١٨٤٩ـ ١٨٧٣) ، وستانلي مكتشف الكونغو

(١٨٧٤-١٨٧٧) . وآخرون انقطعوا للعمل الشاق لاكتشاف المناطق القطبية : عبر القشرة الجليدية التي تغطي البحار القطبية . فمن ذلك أن الأميركي پيري بلغ القطب الشمالي في ١٩٠٩ ، والقطب الجنوبي بلغه في ١٩١١ النرفيجي « **آموندسن** » عبر الجبال والهضاب المتجمدة لقارة القطب الجنوبي . وهذا التقدم الحاصل ساعد في أيامنا على رسم خارطة عامة للكرة الأرضية بمقياس ١/مليون . وتشكل فريق جديد وهام « للعلوم الجغرافية » التي لها أيضاً تطبيقاتها العمليّة : وهكذا فإن دراسة التيارات الجوية والبحرية ساعدت على وضع طرق عقلانية للملاحة .

٢ ـ استخدام الآلات والحضارة العلمية

الحضارة في طريق التحول :

إن تقدم العلوم ، التي تعددت تطبيقاتها العملية إلى ما لا نهاية ، كان منه أن الحضارة تطورت أيضاً وبعمق . وكنتيجة طبيعية لتقدم العلوم ، نزعت الحضارة أيضاً وبصورة أساسية لتصبح حضارة علمية أساساً . وبدأ هذا التحول قبل منتصف القرن التاسع عشر بكثير . وكنا درسنا المراحل الأولى لهذا التحول في إنكلترا أو في فرنسا . ولكن وتيرته كانت في البدء بطيئة ، ثم ما لبثت أن تسارعت بعد ١٨٥٠ ، حسب إيقاع أسرع أكثر فأكثر ، كإيقاع التقدم العلمي نفسه الذي ارتبطت به بصورة وثيقة .

القوى المحركة :

إن الصفة الأساسية للحضارة العلمية هي الوفرة المتزايدة لمنابع الطاقة التي وضعها العلم تحت تصرف العمل الإنساني ، وبالتالي الإنابة التدريجية لقوى الطبيعة مناب القوى البشرية والحيوانية .

وفي هذا الاعتبار نرى أن الاختراعات الأساسية كانت اختراعات « **الآلة البخارية** » و « المولد الكهربائي » و « المحرك ذو الانفجار » .

إن تاريخ الآلة البخارية يرجع كما رأينا ، إلى آخر القرن الثامن عشر . ولكنها ، خارج إنكلترا ، لم تنتشر إلا ببطء . فنحو ١٨٤٨ يكاد يكون في فرنسا ٥٠٠٠ آلة بخارية تمثل قوة ٦٠٠٠٠ حصان ؛ وبعد ستين عاماً أصبح العدد ١٠٠,٠٠٠ تعطي قوة مليونين ونصف من الأحصنة . والتقدم كان نفسه فيما يتعلق بالفحم الحجري الذي يفيد كمحروقات لإنتاج البخار : فقد استخرج في العالم كله ٩٠ مليون طون في ١٨٥٠ ، وقرابة ١٤٠٠ مليون في ١٩٢٥ . وعلى هذا ففي النصف الثاني من القرن التاسع عشر أثارت الآلة البخارية والفحم الحجري وسائل الإنتاج والنقل . وظلت حتى أيامنا العوامل الأساسية للنشاط الاقتصادي وقوته .

ولكنهما ليسا الوحيدين ، وتفوقهما مهدد باختراعات أحدث . فمنذ ١٨٦٩ أدى تقدم الكهرباء المغناطيسية إلى اختراع « **الآلة المولدة ـ الكهربائية** » ، القادرة على تحويل العمل الميكانيكي إلى طاقة كهربائية وبالعكس . وفي العصر نفسه أظهر المهندس الفرنسي برجس كل الفائدة التي يمكن الحصول عليها من **الفحم الأبيض** ـ كتلة الجليد الذائبة في شلال على الجبل ـ والاستخدام المنضم من المولد والفحم الأبيض ولد الصناعة المائية ـ الكهربائية . وفي ١٨٨٢ ، عندما حل المهندس الفرنسي الآخر ، دوبريز ، قضية **نقل القوة إلى مسافة** ، بواسطة التيار الكهربائي ، نما بسرعة استعمال الفحم الأبيض كمنبع للطاقة الكهربائية : فنحو ١٩٢٥ ، قدم لفرنسا قوة تقدر بأكثر من مليوني حصان . وفي أيامنا هذه يبحث بطرق مماثلة عن التقاط « **الفحم الأزرق** » أي استغلال حوض الطاقة العظيم الذي يمثله البحر مع مده وجزره وتياراته .

وساعد اختراع مولد الانفجار على استعمال قوى أخرى أيضاً ، ناشئة عن قدرة امتداد الغاز في الاحتراق . والفكرة كانت قديمة جداً ، ولكنها لم تدخل في العمل إلا نحو ١٨٦٠ مع المولد على الغاز لمخترعه لونوار ، وتأمن مستقبله باختراع ما يسمى « **دورة الأزمنة الأربعة** » التي تعود إلى المهندس بو دو روشا (١٨٦٢) . على أن أول محرك بأزمنة أربعة لم ينشأ إلا في ١٨٧٦ على يد الألماني اوتّو : وهو أيضاً محرك على

الغـاز . وثم مضت الفكرة في إنـابـة غـاز مـائيـات الفحم التي تشتعل بسهولـة ، بـالبترول . والبترول الخفيف (البنزين) . والمحرك على البترول الخفيف ، الـذي أعطى أحسن نتيجـة نحـو ١٨٨٨ على يـد الميكانيكي البسيـط فـوريست ، أصبـح المحرك المتـاز للسيـارات ، والطائرات ، والملاحة تحت الماء . وبدفعـة واحـدة انتقل إنتـاج البترول في العـالم من ٢ مليون طون في ١٨٨٠ إلى ما يقارب ١٥٠ مليون في ١٩٢٥ .

إن الفحم والفحم الأبيض والبترول هي اليوم المصـادر الثلاثـة للطـاقـة والأغـذيـة الأساسية الثلاثة للآلات المحركة التي تشغل غيرها بالألوف .

التقنية الصناعية الجديدة :

في الحقيقـة إن التقنيـة الصنـاعيـة كلهـا أثيرت بتنميـة استخـدام الآلات . ففي الصناعات النسيجية ، كان اختراع الأنوال الميكانيكية قد سبق اختراع الآلة البخارية . وبالرغم من المقاومة العنيفـة أحيـانـاً من العمال ، فـإن العمل الميكانيكي حل محل العمل اليـدوي بسرعـة كثيرة أو قليلـة ، وكثيرة أو قليلـة تمـامـاً حسب الصنـاعـات وحسب البلاد . وأنشأت عبقرية أو مهارة التقنيين آلات لا نهايـة لهـا قـادرة على القيـام بسرعـة وبدقة أكثر من عمل العامل ، وإما على تنفيذ أعمال تتجاوز القوى البشرية ، وإمـا على القيام ببضع لحظات بأعمال متتابعة كانت تتطلب في السابق جهداً طويلاً لعمال مختصين عديـدين : مثل الآلـة التي تصنع الآلات أو المطرقـة الضخمـة التي تعمل على البخـار ، وعلى الهواء المضغوط (١٨٣٩) في الصناعـة المعـدنيـة ، والمكبس الـدوار (١٨٦٧) وآلـة التركيب أو اللينوتيب (١٨٨٧) لأجل الطباعة .

وأسهمت جميع العلوم في تجـديـد وفي تحسين التقنيـة الصنـاعيـة ، ولكن بين الجميع الكيمياء . إن الأهمية المتزايدة التي اتخـذتهـا ، في النصف الثـاني من القرن التـاسع عشر ، الصناعات الكيميائية ، قد ذكرناها آنفاً ، ويمكن أن نضيف بـأنـه لا يوجـد صنـاعـة إلا وتحولت كثيراً أو قليلاً بـالكيميـاء . وهكـذا فـإن الصودا التي يحصل عليهـا بثمن رخيص

بطريق سولفي (١٨٦٣) قد غيرت وبدلت تقنية الصناعة الزجاجية ، وصناعة الصابون ودباغة الجلود ، وتبييض وتحضير الأقمشة إلخ ... والمثال الضارب هو مثال الصناعة المعدنية . فنحو (١٨٥٥ـ١٨٥٩) ، وجد الإنكليزي « **بسّمير** » الواسطة لتغيير حديد الصلب إلى **فولاذ** ، في قليل من الزمن وفي قليل من التكاليف . ولكن طريقته لاتصلح من أجل الفلزات الفوسفورية الغزيرة . ونحو ١٨٧٨ ـ ١٨٨٠ نجح إنكليزيان آخران وهما « **توماس** » و « **جيلكريست** » إلى إبعاد الفوسفور باستخدام الكلس والماغنيزيا في المقلب . ومنذ ذلك العصر يبدأ تاريخ النهوض العجيب للصناعة المعدنية في اللورين (فرنسا) . وساعدت الطرق الكيميائية أيضاً على الحصول ، بخلائط مختلفة ، على أنواع من الفولاذ تدعى « **الفولاذات الخاصة** » ، مستجيبة بذلك لمتطلبات مختلف الصناعات .

التقنية الزراعية الجديدة :

لقد حصل في التقنية الزراعية ما حصل في التقنية الصناعية . وقد ثارت تلك التقنية بتقدم استخدام الآلة وبالتطبيقات العملية للكيمياء .

وكما هي الحال في الصناعة ، بدأ التجديد في إنكلترا في القرن الثامن عشر ، بفضل روح المبادهة عند كبار الملاكين الإنكليز . ومنذ ذلك الحين اخترعت بالتوالي آلات تتفق وتلائم مختلف الأعمال الزراعية : نوارج ، باذرات ، محشات ميكانيكية ، حاصدات ، حازمات إلخ ... وإلى جانب المحاريث المقرونة بالبقر أو الخيول ، ظهرت محاريث تحرك بالبخار ، وبالكهرباء ، أو بالبترول . وتطبيق المحرك على الزراعة نما بخاصة في الولايات المتحدة ، حيث نجد أن كل العمل الزراعي يعمل بالآلة : بذار ، حصاد ، خزن الحنطة ، تنظيف الحبوب في مخازن الحنطة .

إن نشر المطول الأساسي الذي ألفه ليبيغ في ١٨٤٠ وهو بعنوان « الكيمياء المطبقة على الفيزيولوجيا النباتية وعلى الزراعة » كان مصدراً لتقدم جديد على درجة عظيمة

من الأهمية . فقد برهن ليبيغ نظرياً على أن الأسمدة المعدنية أكثر نفاذاً . ومنذ ذلك الحين ساعد الاستخدام العقلاني للأسمدة الكيميائية ـ فوصفاتية ، بوتاسية ، آزوتية ـ على زيادة قوة إنتاج التربة وعلى الحصول على مردودات أكثر بكثير مما كانت في الماضي .

هذا ولما كان الفلاح ذا مزاج محافظ ، ويحذر بصورة غريزية التجديدات لذلك تحولت الزراعة ببطء أكثر من الصناعة ، إلا في البلاد الجديدة ، مثل الولايات المتحدة ، وأوستراليا ، والبلاد التي يكون فيها التعليم التقني أفضل تنظيماً من غيرها كالدانيارك وألمانيا . وحتى في فرنسا ، تقترب التقنية الزراعية بالرغم من المقاومات : إن عدد النوارج التي تفصل الحبوب عن السنابل كان يقدر في ١٨٦٢ بـ ١٠٠٠٠٠ ، وفي ١٨٩٢ بـ ٢٣٤٠٠٠ ؛ وفي الدور نفسه انتقل عدد الآلات الأخرى الميكانيكية من ٦٠٠٠٠ إلى ٤٢٠٠٠٠ .

وسائل المواصلات والنقل :

إن التحول العجيب والمدهش ، الذي بدل بسرعة سيماء العالم المعاصر ، كان تحويل وسائل المواصلات والنقل باختراعات متعاقبة : السفن البخارية ، السكك الحديدية ، التلغراف ، التلفون ، السيارة ، الطيارة ، التلغراف والتلفون اللاسلكي .

من هذه الاختراعات كانت الثلاث الأولى : السفينة البخارية ، والسكة الحديدية ، والتلغراف ـ من اختراع النصف الأول من القرن التاسع عشر وقد انتشرت هذه ببطء شديد في فرنسا بخاصة أولاً ، ونحو منتصف القرن كان استعمالها ما زال بعد استثنائياً . ولم تكن فرنسا لتملك في ١٨٤٨ إلا ١٩٠٠ كم من الطرق الحديدية ، وكان الانتقال والترحال والسفر بالعجلات التي تقطرها الخيول : الديليجانس ، أو المال ـ بوست . وهذه عجلة خفيفة . بأربعة أمكنة تدور ليل نهار خبباً بخمسة أو ستة أحصنة مدة ٥٥ ساعة ـ يومان وربع اليوم ـ لتقطع المسافة بين باريس وليون .

والبضائع تنقل على يد متعهدين على مركبات ذات دولابين تسحبها عدة أحصنة الواحد منها خلف الآخر ، والنقل بطيء السير ويحتمل شهراً من مرسيليا إلى باريس . والرسائل تنقل بصناديق البريد . وفرنسا لم تتبن إلا في عام ١٨٤٩ استعمال الطابع البريدي الذي تبيعه الدولة بسعر ثابت ، يدفعه المرسل ، وهذا النظام أسس في إنكلترا نحو ١٨٤٠ ويوجد منذ الثورة شبكة « **تلغراف بصري** » تساعد ، بواسطة إشارات على المراسلة في بضع دقائق من باريس إلى المدن الهامة ، ولكن استعمال التلغراف كان خاصاً بالدولة ، ولم يكن ممكناً إلا في أوقات الصحو . وكذلك بدئ بالاستعاضة عنه بالتلغراف الكهربائي ـ الذي اخترع في ١٨٣٣ ؛ والخطوط التلغرافية الأولى التي وضعت انطلاقاً من ١٨٤٥ لم تكن موضوعة تحت تصرف الجمهور إلا في سنة ١٨٥٠ . وعلى البحر كانت السفن البخارية لا تمثل أيضاً إلا جزءاً ضعيفاً من الحمولة الكلية ـ ١٤٪ في ١٨٤٠ ـ ؛ ولم تكن أعلى من السفن الشراعية الكبرى لا بحمولتها ولا بسرعتها : إن اجتياز المسافة من مدينة لوهافر إلى نيويورك كانت تتم في ١٨ إلى ٢٠ يوماً .

توسيع الشبكة الحديدية :

إن تنمية الخطوط الحديدية كان العمل الرئيسي في الدور المعاصر ، من ١٨٥٠ إلى أيامنا . وهو الذي أسهم كثيراً في تكثيف المواصلات وبالتالي كانت له أكثر النتائج من كل نوع . وقد أصبح ممكناً تقنياً بالتنمية الموازية والمتضامنة مع الصناعة المعدنية .

إن مجموع الطرق الحديدية المستغلة أو التي في حيز الإنشاء في العالم لم تتجاوز ٣٨٠٠٠ كم في ١٨٥٠ ، منها ٢٣٠٠٠ لأوربة . وبعد عشرين عاماً ، في ١٨٧٠ بلغ ٢٠٠٠٠٠ كم تقريباً ، مقسمة تقريباً بالتساوي بين أوربة والولايات المتحدة ؛ وإن أول خط عابر للقارة الأميركية ، « **السنترال باسيفيك** » دشن في ١٨٦٩ بين نيويورك وسان فرنسيسكو . وبعد أربعين عاماً ، في ١٩١٢ ، كان يوجد على سطح الكرة أكثر من مليون كم من الخطوط الحديدية ، منها ٤٠٠٠٠٠ كم للولايات المتحدة وحدها ،

وما يقارب ١٠٠٠٠٠ كم لآسيا . إن كل القارات ، باستثناء إفريقية ، كانت تجتازها القاطرة من المحيط إلى المحيط .

إن الجرأة المتزايدة للمهندسين غلبت تباعاً كل العقبات الطبيعية التي تعيق المواصلات في داخل القارات . إن الوديان العميقة ، وأذرعة البحر تجووزت بجسور مقنطرة أو بجسور معدنية ، مثل جسر فورث في إنكلترا ، وقناطر **غارابيت وڤيور** في فرنسا . والجبال اخترقت بأنفاق طويلة منذ نفق مون - سيني (١٨٧٠) بطول ١٢ كم ، حتى نفق سمپلون (١٩٠٥) وهو بطول ١٩ كم . وفي الوقت نفسه ازدادت سرعة وقوة القاطرة . واليوم القطارات « السريعة » تتجاوز أحياناً ١٠٠ كم في الساعة - وتجتاز بخمس دقائق الطريق الذي كانت تجتازه الديليجانس في ساعة واحدة . والسفر من باريس إلى ليون يحتمل سبع ساعات . إن ثلاثين قطاراً تصل المدينتين كل يوم . ومن الممكن أن يأخذ كل واحد منها من ٢ إلى ٥٠٠ شخص . ومن جهة أخرى ، إن قطاراً واحداً للبضائع يستطيع أن ينقل حمولة ٣ إلى ٤٠٠ عجلة دفعة واحدة إلى رصيف المحطات الكبرى .

تنمية الملاحة البحرية :

لقد توضعت إلى جانب شبكة الخطوط الحديدية القارية ، شبكة خطوط ملاحة بحرية تؤمن على هذا النحو على سطح الكرة تياراً من المواصلات مستمراً . وإن خدمات النقل أصبحت على البحر أيضاً شبه منتظمة كما هي على البر . وهذا الانتظام ، المجهول سابقاً ، لم يكن ممكناً إلا بفضل تقدم الملاحة على البخار .

إن السفن البخارية الأولى كانت تحرك بدولابين لهما لوحات موضوعة على جانبي السفينة ومزعجة وسريعة العطب . ولكن تقدماً عظيماً تحقق ، نحو ١٨٣٨ باختراع دافع إلى الأمام عملي ، وهو مروحة السفينة (دوامة) الموضوعة وراءها . وفي العصر نفسه بدئ ببناء **سفن من الحديد** ، ثم ، انطلاقاً من ١٨٧٧ من الفولاذ . وأبعاد السفن ، وقوة

الآلات المحركة ازدادت بالتدريج نظراً لنمو المواصلات والتجارة . ونحو منتصف القرن ، كان أكبر السفن العابرة للأطلسي تسع ١٨٠٠ طونو ، وتحمل ٧٠ مسافراً ؛ وبآلات من قوة ٥٠٠ حصان تقطع ١٣ كم في الساعة وتجتاز الأطلسي في ١٨ يوماً . واليوم ، إن أكبر سفينة عابرة للأطلسي تتسع لـ ٤٠ إلى ٦٠٠٠٠ طونو ، وتنقل ٢٠٠ إلى ٤٠٠٠ مسافر . وقوة آلاتها تتجاوز ٤٠ وحتى ٥٠٠٠٠ حصان وتساعدها على أن تقطع ٤٠ إلى ٥٠ كم في الساعة وتجتاز الأطلسي في ٥ إلى ٦ أيام ـ أقل من خمسة أيام كان زمناً قياسياً للسبق ـ وكذلك توجد سفن كبرى للشحن ، تنقل البضائع وحمولتها تعادل حمولة ١٠٠٠ إلى ١٢٠٠ حافلة من حافلات الخطوط الحديدية .

وعلى هذا فإن الملاحة تحررت تقريباً من الرياح والعواصف . وأمكن تأسيس خطوط للملاحة عبر جميع البحار وتصل بتواريخ ثابتة . وبهذه الأعمال العظيمة الهائلة أمكن اختصار المسافات على البحار كاعلى البر . وإحلال طرق اصطناعية محل الطرق الطبيعية : طرق قناة السويس في (١٨٦٩) ، وقناة كيل (١٨٩٥) ، وقناة پاناما (١٩١٤) . وكان لهذه الطرق الجديدة انعكاساتها على الحياة الاقتصادية والسياسية للكرة .

وسائل النقل الجديدة :

حتى آخر القرن التاسع عشر ، كانت الخطوط الحديدية والسفن البخارية الوسائل الوحيدة للمواصلات السريعة . ولكن التقدم المستمر للعلوم ، والميكانيك والتقنية الصناعية كان من نتيجته اختراع وسائل جديدة للنقل .

على الأرض ، انقصت المواصلات على الطرق البرية بنجاح الخطوط الحديدية . ولكنها انتعشت تدريجياً باستعمال « الدراجة » وبخاصة « السيارة » . لقد اخترعت الدراجة نحو ١٨٨٠ وانتشرت جداً انطلاقاً من ١٨٩٠ ، ولكنها لم تستطع عملياً إلا خدمة المواصلة على مسافة قصيرة . وبفضل اختراع إحاطة دولاب السيارة بإطار من

الكاوشوك المملوء بالهواء ، ساعدت السيارة على قطع المسافات الطويلة وبسرعة شبيهة بسرعة الخط الحديدي . وقد ظهرت النماذج العملية الأولى للسيارة على البخار في معرض باريس في ١٨٨٩ . وإنشئت أيضاً سيارات كهربائية ولكن استخدام المحرك ذي الانفجار هو الذي أمن نجاح الاختراع الجديد : نجاح لدرجة أن عدد السيارات في فرنسا انتقل من ٥٠٠ في ١٨٩٣ إلى أكثر من ٢٠٠٠٠٠ في ١٩٢٧ . وفي الولايات المتحدة وجد ٢٢ مليون سيارة أي بمعدل وسطي قدره سيارة واحدة لكل خمسة أشخاص . هذا مع العلم أن استخدام السيارة لم يكن بعد إلا في بداياته ، ولكن الجر الحيواني آل إلى الزوال . وهذا ما وقع في المدن الكبرى ، مثل باريس وغيرها .

وعلى البحر لم تكن المواصلة حصراً على السفن البخارية ، لأنه بني بكميات متزايدة سفن مجهزة بمحركات ديزل على البترول أو محركات كهربائية . ومن جهة أخرى حلت عملياً ، نحو ١٨٨٥ ـ ١٨٩٠ قضية الملاحة تحت البحر . ولكن الغواصات لم تستعمل حتى الآن إلا كوسائل حرب وتدمير .

النقل الجوي :

وفي الدور نفسه ، في آخر القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ، استطاع علم الميكانيك أن يسجل لصالحه تقدماً أكثر مفاجأة أيضاً ، وهو فتح الفضاء أو « غزو الفضاء » ، الذي ظل زمناً طويلاً معتبراً كشبح غير قابل للتحقيق . ومنذ الآن انضمت المواصلات الجوية إلى المواصلات البرية أو البحرية .

وبحث عن حل المشكلة ووجد بطريقتين مختلفتين :
علم الملاحة الجوية والطيران .

إن الملاحة الجوية أو الملاحة بالمناطيد ـ الأكثر خفة من الهواء الذي يحملها ـ كانت الأولى التي أعطت نتائج عملية ، ولكنها تقدمت ببطء . والاختراع من أصل فرنسي . ففوق باريس شوهد في ١٨٨٥ تطور منطاد الكابتينين رونار وكريبس ، الأول الذي

أظهر بأنه قادر على العودة إلى ميناء ارتباطه بوسائله الخاصة . ثم إن الضابط الألماني ، الكونت تزبلين ، أنشأ مناطيد من نموذج جديد ، تصبح غير قابلة للتغيير بواسطة آلة وقاية معدنية . ففي ١٩٢٩ ، طار منطاد تزبلين بقيادة الدكتور إيكنر ونجح في القيام بأول جولة في عالم الطيران ـ ٣٠٠٠٠ كم تقريباً على أربع مراحل في ٢١ يوماً منها ١٢ يوماً للطيران ـ وربما ، بعد هذه المغامرة ، خرجت الملاحة الجوية من مرحلة التجارب لتدخل في الصعيد العملي .

الطيران ، أي الطيران على شاكلة العصافير بواسطة أجهزة أثقل من الهواء ، نما بسرعة أعظم ، وكمعظم الاختراعات الكبرى ، كان هذا الاختراع نتيجة أبحاث وتجارب عديدة ، متابعة معاً في كثير من البلاد ، في إنكلترا ، وفي فرنسا ، وفي ألمانيا ، وفي الولايات المتحدة . إن الطيار الأميركي ويلبور رايتْ ، أوضح ميكانيكية الطيران المقلد لطيران العصافير وكان بحق أول « **رجل عصفور** » أو « **طيار** » قام منذ ١٩٠٤ بطيران عدة كيلومترات . وانطلاقاً من ١٩٠٨ ولا سيا في فرنسا تقدم الطيران تقدماً حاسماً : ففي ٢٥ تموز ١٩٠٩ قام المهندس الفرنسي بليريو على جهاز من اختراعه ، بأول اجتياز جوي لبحر المانش ، من كاليه إلى دوڤر . ومنذ ذلك الحين ، اجتاز الطيارون الألپ (١٩١٠) ، البحر المتوسط (١٩١٢) ، الأطلسي (١٩١٩) ، المحيط الهادئ (١٩٢٧) واستطاعت الطائرات أن ترتفع إلى أكثر من ١٣٠٠٠ متر ارتفاعاً ، متجاوزة سرعة ٥٠٠ كم في الساعة . وبعد الحرب الكبرى (١٩١٨) ، تشكلت في كل البلاد **شبكة خطوط جوية** ، مخصصة في الغالب لتؤمن المواصلات السريعة ، لأن الطائرات تملك ، على وسائل النقل الأخرى ، تفوقاً غير منازع : وهو التفوق في « **السرعة** » . والبريد الجوي لأمريكا الجنوبية يجتاز في ٤٠ ساعة المسافة تولوز ـ داكار ـ ٤٦٩٥ كم ـ أي « ١٥ » ساعة أقل مما كان يلزم قبل ١٠٠ عام للصندوق البريدي لقطع الـ ٥٠٠ كم من باريس إلى ليون .

وسائل المراسلة :

وأفادت المصالح البريدية من التقدم الذي تم بكل وسائل النقل ، وكان نموها عظيماً . وفي السنة الأخيرة من القرن التاسع عشر ، بلغ رقم الرسائل ، والبطاقات ، والصحف ، والطرود ، الموزعة بالبريد في العالم كله ٢٣ مليار و ٢٠٠ مليون .

ومن جهة أخرى ، جهزت الكهرباء المراسلة بوسائل جديدة مستقلة عن وسائل النقل . إن اختراع التلغراف الكهربائي (١٨٣٣) ، ثم الهاتف (١٨٧٧) جعل النقل الآني للأفكار إلى مسافة بعيدة ممكناً . ونظراً لكون تركيبه قليل الكلفة . لذلك فإن شبكات الخطوط التلغرافية والتلفونية نمت بأسرع من شبكات الخطوط الحديدية . وفي الولايات المتحدة وحدها تجاوز طول الأسلاك الهاتفية ، في ١٩٠٩ ، اثنين وعشرين مليون كيلومتراً . وارتباط القارات بحبال مغمورة عبر المحيطات كان صعب التحقيق . وبعد ثلاث محاولات يائسة أمكن النجاح في ١٨٦٦ بتمديد أول حبل عابر للأطلسي . والطول الحالي للحبال تحت البحار ربما تجاوز ٥٥٠٠٠٠ كم .

وحصل أيضاً على نتائج فائقة أيضاً بالاختراعات الحديثة للتلغراف اللاسلكي (١٨٩٦) والتلفون اللاسلكي (١٩٠٦) . وليس للتلفون اللاسلكي سلطة نقل أعظم بكثير وأوسع من التلغراف العادي فحسب ، وإنما يمكن القول بأنه ظفر على كل أشكال العزل . فالسفن المجهزة بالهاتف اللاسلكي ، كالمناطيد ، والطائرات ، تبقى على اتصال دائم مع الأرض : وهذا ضمان ثمين للأمن ، وبفضله أمكن تجنب كوارث عديدة . وبانتشار البريد المتلقي في العالم كله ، من الكوخ الضائع في الريف الفرنسي حتى كوخ ساكني المستعمرات الضائع في العواسج ، يستطيع كل واحد أن يشارك في الحياة العالمية ، ويكون مخبراً بالحوادث اليومية ، ويسمع خطب الخطباء ، أو الحفلات الموسيقية المعطاة على ألوف الكيلومترات . إن الهاتف اللاسلكي أصبح الآن أقوى وسيلة للمواصلات والتقارب بين البشر .

تحولات منوعة :

وكثير من الاختراعات الأخرى أسهمت في تحويل الحضارة المعاصرة ، وغيرت الحياة العائلية والحياة الاجتماعية . ولا يمكن التفكير بتعدادها كلها . وبين أكثرها أهمية يجب أن نذكر بصفة مثال « **الإضاءة الكهربائية** » و « **السينما** » .

في النضال الدائم الذي يدعمه الإنسان ضد الظلام كما ضد المسافة تحقق تقدم كبير منذ بداية القرن التاسع عشر ، بالإضاءة بالغاز التي تحسنت وظلت حتى أيامنا . فمن المعلوم منذ تجربة داڤي (١٨١٣) ، أن الكهرباء يمكن أن تحدث نوراً مبهراً . ولكن الإضاءة بالكهرباء لم تدخل في الصعيد العملي إلا بعد اختراع « **الشمعة الكهربائية** » (١٨٧٦) على يد الروسي يابلوشكوف واختراع « المصباح المتوهج » (١٨٨٠) على يد الفيزيائي الأميركي أديسون . ومنذ ذلك الحين ، بفضل نمو الصناعات الكهربائية ، استطاع النور الجديد أن ينتشر بوفرة في المدن والأرياف ، ويضيء الشوارع كما في داخل المنازل ويحول كلياً المشهد الليلي للمدن الكبرى .

والسينما الناشئة معاً في وقت واحد عن الصناعة التصويرية والبحوث في التحليل والتركيب للحركة ، وضحت في ١٨٩٥ على يد الأخوين لوميير الكيماويين والصناعيين الليونيين . وكان النجاح عاجلاً والنمو فائقاً للعادة ولم يسمع به من قبل . ففي العالم كله أصبحت السينما المشهد المفضل لدى الجماهير الشعبية . وإن الشعبية المعتادة لهذه المناظر يجب ألا تنسي أن السينما ، بوسائل التعبير التي تمتلكها ، يمكنها أن تولد أشكالاً جديدة للفن ، لا سيا وأنها أصبحت أفضل وسيلة للتبسيط والتربية والبحث العلمي . والسينما بانضمامها إلى اختراع الفونوغراف (١٨٧٨) ، ساعدت الإنسان في انتصاره على الزمان والمكان . والحياة يمكن أن تمضي ، وتبقى مسجلة بأمانة تحت المشهد الثلاثي للصورة والحركة والكلام . وهكذا يمكن أن تتألف الوثائق « المحفوظات الحية » للبشرية .

٣ ـ الثورة الاقتصادية

النزعات الحديثة للحياة الاقتصادية :

إن التقدم السريع لاستخدام الآلات والتطبيقات العديدة للعلوم على الصناعة ، وعلى الزراعة ، وعلى وسائل المواصلات ، كان من نتيجتها المباشرة تحول الحياة الاقتصادية وظروف الإنتاج والمبادلة . وقد كان هذا التحويل على درجة من السعة انطلاقاً من ١٨٥٠ استحق على إثرها الوصف بأنه « **ثورة اقتصادية** » . وهذه الثورة هي الواقع الأساسي الذي يسيطر على التاريخ المعاصر .

وإذا أردنا البحث عن استخلاص الملامح المميزة لهذه الثورة ، أمكننا أن نذكر ثلاث صفات أساسية :

الأولى : هي الأهمية المتزايدة للمشاريع الكبرى التي تتصرف برؤوس أموال عظيمة . وهذه الحركة لتمركز رؤوس الأموال تظهر بتنمية المصارف (**البنوك**) الكبرى ، والمعامل الكبرى ، والمخازن الكبرى ، والشركات الكبرى للخطوط الحديدية ، والملاحة ، والتأمين ، إلخ ...

الثانية : هي الازدياد العظيم للإنتاج والاستهلاك . وما قلناه بشأن الفحم الحجري والبترول يصلح في الواقع لكل فروع الإنتاج الصناعي أو الزراعي ، وعلى سبيل المثال . إن إنتاج الحنطة في العالم قد تضاعف خلال أربعين عاماً : ٥٠ مليون طون نحو ١٨٧٠ ، وأكثر من ١٠٠ مليون نحو ١٩١٠ . وإنتاج السكر ازداد بأربعة أضعاف : ٢٢ مليون كنتال في ١٨٦٠ ؛ ١٠٨ كنتالات ١٩٠١ .

الثالثة : توسع المبادلات بشكل لا حد له . وهذه المبادلات تتناول كل أنواع البضائع ـ مواد أولية ضرورية للصناعة ؛ محاصيل غذائية ، إنتاجات مصنوعة ـ

تكاثرت بين جميع الدول ، وبين جميع أجزاء العالم كلما تقدمت وسائل النقل ، وبالتـالي فإن الحياة الاقتصادية تجاوزت الحدود وأخذت صفة دولية .

الصناعة الكبرى :

حتى منتصف القرن التاسع عشر ، مـا زال استخـدام الآلات قليل الانتشـار بعـد ، والنموذج العـادي والطبيعي للتنظيم في الصنـاعـة كان المشغـل ، حيث كان رب العمـل يشتغل بنفسـه مـع عـدد صغير من العمال . وبـالرغم من وجـود بعض المراكـز المشهـورة بإنتاجاتها الخاصة ـ ليون لصنع الأقمشة الحريرية ـ ، كانت الصنـاعـة في حـالـة بعثرة : وعلى العموم كانت كل منطقة تصنع معظم بضائعها الضرورية لسكانها . وكانت الصناعة تجري ببطء ، وبكمية صغيرة على قـدر الحـاجـات ، والمنتجـات التي تصنع بـاليـد كانت غالية الثمن .

ومـع ذلـك فـإن التنظيم الصنـاعي بـدأ يتحـول ، ولا سيما في إنكلترا . إن بعض الصنـاعـات ، وبخـاصـة غـزل القطن ، قـد ثـارت بـوقت أبكر من الأخرى بسبب الاختراعات الميكانيكية . وقد شهـد النصف الثـاني من القرن التـاسع عشر نهوض وظفر الصناعة الكبرى التي أصبحت اليوم النموذج الطبيعي للتنظيم الصناعي .

والآلات تكلف غاليـاً ، وتتطلب على العموم أبنيـة كبرى ، ولـذلـك أخلى المشغل المكان للمعمل . وهذا المعمل يمثل في الغالب رأسمال من عـدة ملايين ، ويجمع مئـات ، وأحياناً ألوف العمال ويشكل بهم جيشاً صناعيـاً يعمل تحت إدارة معلمين مسـاعـدين أو مهندسين . وبالتالي فإن المسافة أصبحت شيئـاً فشيئـاً عظيمـة ، بين ربوبيـة العمل التي تملك رؤوس الأموال وجمهور العمال المأجورين : ومن هنا تظهر المشاحنات والخلافـات التي عكرت المجتمع بشكل عميق .

ومن جهة أخرى ، إن السهولة المتزايدة في النقل سـاعـدت العـامل على البعـد عن المستهلـك ـ وتجمعت على الأرجح حيث تستطيـع أن تجـد بسعر رخيص القـوة المحركـة

والمواد الأولية : حول المناجم والموانئ . موانئ بحرية أو نهرية . وعلى هذا وجد « **تمركز الصناعات** » . والأحواض الفحمية أصبحت بصورة أساسية مناطق نشاط صناعي كثيف . وقد شوهد في قليل من الزمن نمو مدن كبرى مثل : روبيه ، توركوان ، كمنيتز ، لودز ـ التي هي ليست إلا اجتماع معامل ، أو حتى ـ لوكروزو ، أو إيسّن ـ اللتين ليست كل منهما غير معمل واحد عظيم ضخم . وكان من نتيجة تمركز الصناعات « **نمو السكان المدنيين** » .

ونشطت الصناعة الكبرى بالتقدم التقني وبتوسع التجارة معاً ، ولذلك زادت قوتها بالتدريج في الإنتاج . ولئلا نذكر إلا مثالاً واحداً نقول إنه نحو ١٨٣٠ ، كان العامل النشيط يعمل باليد ثلاث اثني عشريات (دزينات) من أزرار الأكمام في اليوم ؛ ونحو ١٩٠٠ كان الغلام يستطيع أن يعمل منها في الوقت نفسه ٩٠٠٠ زوج بالآلة . حتى إن الإنتاج على كتل كبيرة أدى إلى ما يفوق الإنتاج : أي إلى إنتاج يفيض عن الطلب التجاري . كما أدى بيع كمية عظيمة من الإنتاجات بسعر أدنى من السعر القديم للإنتاجات المشابهة ، وفي الغالب أيضاً من نوعية أدنى جداً .

الزراعة الحديثة :

لقد تطورت الزراعة بشكل أبطأ ومتأخر بالنسبة للصناعة ، ولا سيما في البلاد ذات السكان الريفيين ، مثل فرنسا . وتحولها لم يبدأ بإنتاج آثاره المحسوسة إلا بعد ١٨٧٠ .

بادئ بدء يبدو أن الزراعة الحديثة نجت من حركة تمركز المشاريع لأن المستغلات الزراعية الصغيرة والمتوسطة لم تمتصها المستغلات الكبرى . والتمركز الضروري للأموال حصل مع ذلك تحت شكل **رابطة** . فحيث تكون الملكية مجزأة توصل المزارعون إلى التجمع في رابطات من كل نوع : نقابات ، شركات متضامنة (تضامنيات) ، جمعيات تعاونية للشراء ، والإنتاج ، والبيع .

وتبع الإنتاج الزراعي التقدم نفسه الذي حققه الإنتاج الصناعي ، ولنفس الأسباب . وتم نموه بشكلين مختلفين : إما « **بالزراعة الكثيفة** » وذلك بالحصول بطرق أفضل على مردودات أقوى ، في بلاد كفرنسا ، وإنكلترا وألمانيا حيث نجد منذ الآن ، أن كل السطح المزروع تقريباً قد استثمر ؛ وإما « **بالزراعة الواسعة** » ، وذلك ببسط وتمديد دون انقطاع لسطح الأراضي المزروعة ، في البلاد الجديدة مثل الولايات المتحدة ، وكندا ، والأرجنتين ، حيث يملك الفلاح مسافات شاسعة في قسم عظيم ما زال بوراً . وفي الأرجنتين انتقل السطح المزروع بالحنطة من ٨٠٠٠٠٠ هكتار في ١٨٨٨ إلى أكثر من ٥ ملايين في ١٩٠٥ .

والإنتاج الزراعي ، في الوقت الذي ينمو فيه ، نراه يميل إلى التخصص ، أي إن كل منطقة تنزع إلى تكريس نفسها بخاصة إلى الزراعات التي تتفق بشكل أفضل مع مناخها وتربتها ، وتنتج بالتالي نتاجاً بسعر أفضل . وهكذا في البرازيل تخصصت دولة سان ـ پول في إنتاج القهوة . وفي الولايات المتحدة تخصصت مينوسوستا في إنتاج الحنطة ؛ وفي فرنسا تخصصت منطقة اللانغدوك بزراعة الكرمة ..إلخ ... وهكذا فإن التخصص الزراعي يطابق تمركز الصناعات .

التجارة الكبرى :

يرجع أصل الصناعة والزراعة إلى التنمية الفائقة للتجارة الكبرى أو التجارة الدولية ، النتيجة الطبيعية لتقدم وسائل المواصلات والنقل .

وما دامت النقليات إلى مسافة كبرى صعبة وبطيئة ، فإن « **التجارة المحلية** » كانت بالضرورة أنشط من التجارة الكبرى . ولم تكن هذه لتتناول إلا عدداً صغيراً من المنتجات ، والبيع المربح من السلع الاستعمارية وبضائع البذخ . ومذ نمت وسائل النقل ، تقدمت التجارة الكبرى بسرعة : ولم تكثر المبادلات بين البلاد البعيدة فحسب ، وإنما استطاعت أن تتناول كميات متزايدة من المنتجات والمواد الأولية

الضرورية للصناعة ، من منتجات غذائية من كل الأصناف ، ويدخل فيها ، منذ اختراع التبريد الاصطناعي ، ما يسمى بالمواد السريعة العطب والفساد . ونشط توسع المبادلات الإنتاج الصناعي والزراعي ؛ وبالمقابل ، إن ازدياد الإنتاج كان من نتيجته أن نشط الفعاليات التجارية . فقد وجد توسع في الحقل التجاري ، وازدياد المادة التجارية ، والشدة المتزايدة للمواصلات التجارية .

ونظراً للشدة المتزايدة للمواصلات التجارية ، فإن العالم نزع إلى أن يكون سوقاً وحيداً . فقد تأسس في الولايات المتحدة أولاً ، ثم في كل البلاد بورصة (مَصْفَق) للتجارة حيث يأتي التلغراف ساعة فساعة بالمعلومات عن الإنتاج وحاجات العالم كله ، وعروض البيع ، وطلبات الشراء . ولعبة المنافسة الحرة أدت بصورة طبيعية إلى تساوي الأسعار وتدنيها ؛ ولكنها خطّئت بتشكيل الوفاقات بين المنتجين ـ مثل التروست والكارتل ، وإما بحواجز تحيط الدول نفسها بها . وهذه الدول ، بعد أن ظهرت أولاً أنها تريد أن تتبع إنكلترا في طريق المبادلة الحرة ، عادت في معظمها إلى نظام الحماية الجمركية .

ازديادِ العملة (النقد) :

إن نمو التجارة في العالم كله قد سهل ونشط أيضاً بالوفرة المتزايدة للعملة في التداول ، من عملة معدنية وعملة ورقية .

وإن كمية العملة المعدنية ، وبخاصة « **العملة الذهبية** » ازدادت منذ منتصف القرن التاسع عشر بنسب ضخمة . فقد اكتشفت مناجم ذهبية غنية جداً ، في كاليفورنيا (١٨٤٨) ، وفي أوستراليا (١٨٥١) ، وفي الترانسفال (١٨٨٤) ، وفي كلونديك (١٨٩٧) . وبين ١٨٥٠ و ١٨٦٠ كان الإنتاج السنوي ، الكلي لمناجم الذهب المستثمرة في العالم ، تقريباً ٧٠٠ مليون فرنك . وهذا الرقم ظهر عظيماً . وفي ١٩١٣ ارتفع إلى أكثر من مليارين ، منها ١,٣٠٠ مليون لإفريقية الجنوبية وحدها . وكمية ذهب

العملة في التداول في العالم كان يقدر في ١٨٧٥ ، بـ ٧ مليارات فرنك ، وفي ١٩٠٨ بـأكثر من ٣٣ مليار .

ومن جهة أخرى ، إن الأهمية التي اتخذت للعملـة الورقيـة كانت إحـدى الصفـات المميزة للتجارة المعاصرة . والورق النقدي هو اختراع قديم جداً ، لأنـه كان يستخـدم في الصين منذ القرن الثامن الميلادي . وبعد كل أنواع التقلبات أصبح استعماله سارياً تحت شكل **أوراق نقدية مصرفية** . وأخذ مصرف أو عدة مصـارف ـ حسب البلاد ـ امتيـازاً بإصدار الأوراق النقدية تحت رقـابـة الـدولـة . وفي فرنسـا ، اختص بنـك وحيـد بهـذا الامتياز ، وهو **بنك فرنسا** : وقيمة الأوراق النقدية تضمن بقيمة ذهبية أو فضيـة جسيمـة وهذا ما يسمى **محفظة البنك** ـ السندات التجاريـة التي يحتفـظ بها ـ ولما كانت العملـة الورقية خفيفة وأسهل للدفع من العملة المعدنيـة ، فـإن حصتهـا في تـداول النقـد العـام مـافتئ يزداد : ففي فرنسـا ، نحو ١٩١٠ بلغت نحو ٨٥٪ . ومنـذ ١٩١٤ أوجـدت الحرب حالة نقدية غير طبيعية .

أهمية الاعتماد :

إن التوسع الـذي أخـذتـه العملـة الورقيـة لم يكن إلا ظـاهرة لقوة الاعتماد . وقـد عظمت هذه القوة منذ منتصف القرن التاسع عشر حتى إن الاعتماد أصبح المحرك للتنظيم الاقتصادي المعاصر .

وفي الواقع إن نمو الصناعة ، والتجارة ، والزراعة نفسها ، لم يكن ممكنـاً إلا بتعبئـة رؤوس أموال جسيمـة ، وهـذه التعبئـة هي بوضوح ودقـة موضـوع الاعتماد . إن القرض بالفائدة ، على سبيل المثال ، هو الأكثر جرياناً لعمليات الاعتماد . ولكن توجـد قروض أخرى كثيرة . فقد كثرت وتعددت البنوك ، وبكل الوسائل دأبت على زيـادة وتسهيل تداول وتجارة رؤوس الأموال التي هي سبب وجودها .

إن جزءاً من رؤوس الأموال الجاهزة ذهب إلى « **قروض الدولـة** » ، لأن الـدول ،

التي ازدادت نفقاتها أيضاً بسرعة متزايدة ، مالت كلها تقريباً إلى الاستقراض . والجزء الآخر ذهب للمشاريع الصناعية والتجارية ، ولا سيا في اليوم الذي أخذت فيه شكل الشركات المساهمة .

وفي الواقع ، إن هذه المشاريع كانت تتطلب وضع أموال عظيمة ، حتى إن ثروة إنسان واحد - عدا استثناءات نادرة - لا تكفيها : ومن هنا تبدو ضرورة تشكيل رابطات رأسمالية ، وهذه بوضوح هي الشركات المساهمة .

لقد تشكلت هذه الشركات المساهمة بالشكل التالي : إن رأس المال الضروري للمشروع - المقدر على سبيل المثال بـ ١٠ ملايين فرنك يجزأ إلى ٢٠٠٠٠ جزء أو سهم بقيمة كل واحد منها ٥٠٠ فرنك . وإن جميع الذين يكتتبون بسهم أو عدة أسهم مالكون للمشروع . وحتى وإن لم يشاركوا بأي شكل في إدارته ، فإنهم يحصلون على الأقل على جزء من الأرباح أي حاصل القسمة المتناسب مع عدد الأسهم التي يمتلكونها . وعلى العموم ، يوجد في كل مشروع بعض « كبار المساهمين » الذين يملكون عدداً عظيماً من الأسهم ويوجهون فعلياً الأعمال أو يراقبونها ، أي يشرفون على إدارتها ؛ ولكن سير العمل بحصص من ٥٠٠ فرنك ، وأحياناً أيضاً أقل من ذلك ، يساعد أيضاً على دعوة صغار الكسبة . والأسهم ، الممثلة بشهادات أو أوراق مالية هي قابلة للتجارة كالبضائع العادية .

وقد وجدت شركات من هذا النوع منذ العصر القديم والعصر الوسيط . والشركات التجارية ، العديدة في القرن السابع عشر وفي الثامن عشر ، كانت شركات مساهمة . ولكن هذا الشكل من المشروع بدا مقتصراً على العمليات التجارية . ومع ذلك فرض نفسه عندما لزم إيجاد كتلة رؤوس الأموال الضرورية لتأسيس الخطوط الحديدية ، وخطوط الملاحة ، والأشغال الكبرى مثل فتح قناة السويس . ونجاحه جعله يمتد تدريجياً إلى جميع أصعدة النشاط الاقتصادي . ومنذ آخر القرن التاسع عشر ، شوهدت

صناعات بكاملها تنتقل في بضع سنوات من الشكل الفردي إلى شكل الشراكة . وفي إنكلترا بلغ عدد الشركات المساهمة الثلاثة أضعاف بين ١٨٩٥ و ١٩٠٠ .

والشركات المساهمة نفسها لا تمثل آخر حد لتمركز رؤوس الأموال .. فبين رؤساء المشاريع تشكل ائتلاف حقيقي قوي بما يكفي ، إما لتسوية ظروف وشروط الإنتاج والبيع والشراء ، وإما للقضاء على كل منافسة وممارسة حصر الأمر الواقع مثل **الكارتيلات** في ألمانيا ، وفي فرنسا ، **والتروستات** في الولايات المتحدة . والفرق بين الاثنين هو ما يأتي : في الكارتيلات ، يرى أن جميع الفرقاء المشاركة تحافظ على استقلالها الذاتي وتؤلف نوعاً من جمعية تعاونية للبيع ؛ وفي التروستات تذوب مع بعض أو تلتحق بإدارة وحيدة . وفي الولايات المتحدة لا ترقم قوة التروستات المالية بالملايين وإنما بالمليارات .

تجارة رؤوس الأموال :

إن تزايد التكديس (المخزون) النقدي والإنتاج ، والأرباح التي تحققها الصناعة والزراعة والتجارة يكون **من نتيجتها تزايد عجيب ومدهش للثروة العامة** وبالتالي لكمية رؤوس الأموال الجاهزة لمشاريع جديدة .

وبفضل التنظيم الحديث للاعتماد ، أخذت تجارة رؤوس الأموال ، كتجارة السلع الأخرى ، **صفة دولية** . والشعوب الغنية التي يوجد عندها احتياطيات هامة لرؤوس الأموال ، تصدر هذه الأموال ، إلى البلاد الأقل غنى . وفي النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، أدخلت إنكلترا وفرنسا رؤوس أموال إلى العالم كله . وقبل الحرب الكبرى ، كان مجموع استثمار (توظيف الأموال) الفرنسية في الخارج يقدر بنحو أربعين ملياراً من الفرنكات . وفي أيامنا ، يوجد انتقال للثروة العالمية : فالولايات المتحدة أصبحت مستودعاً أساسياً لرؤوس الأموال ودائنة للعالم كله .

وتجارة رؤوس الأموال تعمل بنفس الشكل الذي تعمل فيه تجارة السلع الأخرى .

فكما أنه يوجد سوق مالية للتجارة لتثبيت سعر القطن أو الحنطة يوجد **أسواق (بورصات) للقيم** لتحديد سعر الأسناد التي تأتي بالربح ، أسناد دخل تتأتى عن قروض الدولة ، وأسهم الشركات . وأهمها توجد بصورة طبيعية في المراكز المالية الكبرى ، لندن ، نيويورك ، باريس ، أمستردام ، فرنكفورت ، برلين . ونمت سعة الصفقات (العمليات التجارية) بشكل عظيم منذ منتصف القرن التاسع عشر . وقد أفادت المضاربة منها . وأصبحت الأسواق المالية ميادين قتال حقيقية حيث يتلاعب المشترون بالارتفاع ، والباعة بالانخفاض ، ويستسلمون يومياً لنضال مستشرٍ .

النتائج العامة :

كلما تقدمنا في التاريخ المعاصر كلما نشاهد أهمية هذه الثورة العلمية والاقتصادية معاً ، وتكاثر انعكاساتها في النظام السياسي والاجتماعي كما في الأخلاق والعادات والمظهر الخارجي للحضارة . والنتائج العامة أكثر من غيرها كانت الآتية :

إن الظروف المادية للحياة تغيرت في جميع طبقات المجتمع . والتزايد العظيم في الإنتاج جر إلى تزايد لا يقل عنه عظمة وهو تزايد الاستهلاك . وإن عددا من المنتجات كان استعمالاً قاصراً على أقلية غنية ثم أصبح في متناول أكبر عدد ممكن من الناس . وعلى سبيل المثال نذكر بعض الأغذية ، مثل القهوة ، والشوكولاته والسكر ، والإضاءة بالغاز والكهرباء ، والكتب ، والصحف ، والألبسة الجوخية .إلخ ... وإن حياة بعض فئات من العمال هي اليوم أوسع بكثير من حياة العديد من البورجوازيين نحو ١٨٣٠ . ومن وجهة نظر الأخلاق والعادات تناقص الفصل الذي كان يوجد بين البورجوازية والشعب .

ويوجد تزايد سريع في السكان : ففي أوربة ، حيث كان عدد السكان في ١٨٥٠ يقدر بنحو ٢٦٠ مليون نسمة ، تجاوز في ١٩٣٠ تقريباً ٤٦٠ مليون . وفي الوقت نفسه انتقل عدد سكان الولايات المتحدة من ٢٣ إلى ١١٥ مليون نسمة . ونظراً لنمو الصناعة

الكبرى ، نمت المدن بخاصة سكانها على حساب سكان الريف . وتشكلت في المدن الكبرى طبقة عديدة أكثر فأكثر من العمال والمستخدمين المأجورين . وبفضل نمو الطباعة أصبحت هذه الجماهير الشعبية تستعلم بصحافة رخيصة الثمن ، وأصبحت تشارك في الحياة السياسية ، وتتجمع في رابطات قوية وتضغط على السلطات العامة . وهكذا فإن التحولات الاقتصادية كان لها في كل مكان نتيجة : وهي نمو النظام الديموقراطي والأفكار الاشتراكية .

وأخيراً إن التحويلات الاقتصادية بدلت بعمق العلاقات الدولية . فمن جهة زادت في عدد الشعوب المنتجة وأنمت على هذا النحو روح المنافسة ؛ فإلى المنافسات السابقة السياسية أضيفت المنافسات التجارية ؛ والدول الصناعية القوية الكبرى ، لتؤمن لنفسها أسواقاً ممتازة ، أسرعت في بسط صعيدها الاستعماري ، وتنازعت على كل الأراضي الشاغرة في العالم . ومن جهة أخرى ، إن التحولات الاقتصادية أحدثت بين جميع البلاد ، حتى البعيدة منها ، روابط عديدة جعلتها متضامنة مع بعضها أكثر فأكثر بصورة وثيقة . وإن التضامن الاقتصادي بين جميع الأمم ظهر بنمو المؤسسات الدولية ، كاتحاد البريد ، الاتحاد التلغرافي العام ، المكتب الدولي للموازين والمكاييل ، محاضرات ، اجتماعات ، مؤتمرات دولية من كل الأنواع . ووجدت الحياة السياسية الدولية متأثرة طوراً وطوراً بهاتين النزعتين المتباينتين والمتعاكستين : من منافسة ومن تضامن .

الفصل الحادي عشر

الحركة الفكرية

في الآداب والفنون

١ ـ المذاهب الفلسفية والاجتماعية

التيارات الفلسفية الأساسية :

كان التوسع العجيب للعلوم ، في النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، مصدراً أساسياً للتأملات الفلسفية . ومن هنا ينجم تياران مختلفان : المذاهب العلمية التي اتخذت العلم نقطة استناد وتوجيه ؛ والمذاهب المناوئة للعلم التي تنكر على العلم حق اجتياز بعض الحدود التي يبدأ فيا بعدها الصعيد المخصص للفلسفة والدين .

في فرنسا ، في ظل الإمبراطورية الثانية ، إمبراطورية نابوليون الثالث ، حافظت الروحانية الانتقائية عند فيكتور كوزن على كل أفضال التعليم الرسمي . ونجم الفكر الحر بتدابير مزعجة ومرهقة ، ومع ذلك ، فقد بدأ في ذلك الحين انتشار المدرسة الوضعية على يد **رونان** الذي كتب منذ ١٨٤٨ ، في سن الـ ٢٥ عاماً كتاباً لإعلان إيمانه في « مستقبل العلم » ؛ وعلى يد **تين** الذي بادر بتطبيق الطرق الصارمة في العلوم الفيزيائية على العلوم المعنوية . وفي الوقت نفسه ، في إنكلترا ، أعمال العالم الطبيعي دارون التي عززت الثقة التامة بالإمكانيات اللامتناهية للعلم ، النظريات منها والتطبيقية ؛ وبجيل جريء من العلماء مثل هربرت سبنسر الذي شاد مذهباً فلسفياً ومعنوياً مؤسساً على فكرة التطور . وبالرغم من المقاومات الشديدة . سيطرت الروح العلمية في الدور التالي ، نحو آخر القرن التاسع عشر .

عنـدئـذ ، بـدأ رد الفعل ، وتشجعـه الـدراسـات النقـديـة للعلمـاء أنفسهم ، مثـل دراسات هنري **بوانكاريه** في كتابه « قيمة العلم » (١٩٠٦) . ولم تنكر القيمـة التطبيقيـة للعلم ، ولكن جرت محاولة في إقامة حاجز لا يمكن اجتيازه بين المعرفة العلميـة والمعرفـة الميتافيزيقية ، أما **المدرسة الذرائعيـة** للأميركي **وليم جيمس** فهي ترى بـأن العلم ليس إلا أداة سهلة ، ووسيلة عمل ، وأن عقلنا يبقى سيـداً في الانتخـاب ، بين جميع العقـائـد ، العقائـد التي أثبتت التجربـة وبرهنت على قيمتهـا . أمـا المـدرسـة الحـدسيـة ، مـدرسـة الفيلسوف الفرنسي برغسون ، فإنها ترى العلم ، بناء الذكاء ، غير أهل للإمسـاك بـالواقع الذي هو ديمومة ، وحركيـة ، وجريـان : ويلزم فيـه « التفـاف الشعور على نفسـه » ، « هذا هو النوع من التعاطف الفكري » الذي يسميه برغسون « الحدس » . ولاقت هذه المذاهب الجذابة نجاحاً كبيراً وأفادت أداة حرب ضد الروح العلمية .

أما تاريخ الفلسفة المعـاصرة فلا يختصر في هـاتين النزعتين المتضـادتين . لأن بعض المفكرين ، علمـاء علم الجمـال بخاصـة ، نجوا من وسواس العلم : وأكثرهم أصـالـة الألمـاني نيتشيه . كان عبقرية مضطربة وانتهى به الأمر إلى الجنون . ومن تناقضاته أنه يحتفـظ خاصة بفكرة : وهي أن القاعدة الوحيدة لحياة هي ما يسميـه نيتشيـه « إرادة القوة » . وإن القادرين على عمل مقبول وله قيمة ، إنمـا هم الأبطـال « النـاس المتفوقون » الـذين يعرفون كيف يعيشون في الخطر ، ويتحررون من « أخـلاق العبيـد » . ولقـد تـأثرت السياسة والأدب بالصيغ النتشية ، الشبيهة بالألغاز ، مما يجعل لها تفسيرات متناقضة .

علم النفس التجريبي وعلم الاجتماع :

أمـا تـأثير العلم في الفلسفـة التي تميز الـدور المعـاصر ، فلم يظهر بتطـور المـذاهب فحسب ، وإنمـا أيضـاً بواقـع أن بعض فروع الفلسفـة ، مثـل **علم النفس** وعلم **الاجتماع** اللذين نزعا إلى أن يكونا علمين مستقلين .

إن كثيراً من الفلاسفة ، ولا سيا منـذ القرن السـابع عشر ، قـد تصوروا إمكان علم

نفس ، ولكنه لم يبدأ قبل منتصف القرن التاسع عشر بتطبيق الطرق العلمية بحق على الحوادث العقلية ، فقد حاول بعضهم مع **فشنر** ربط علم النفس بالعلوم الفيزيائية وتأسيس علم الفيزياء النفسية . والآخرون مع **فندت** الألماني دلوا بخاصة على الصلة الوثيقة للحوادث النفسية والفيزيولوجية : وأوجدوا علم الفيزيولوجياء النفسية . وقد جهزت ، في فرنسا ، تحقيقات **تيؤدول ريبو** ، في دراسة الأمراض العقلية على يد الأطباء النفسيين ، بمواد غزيرة ما يسمى منذ الآن فصاعداً علم النفس التجريبي .

وهذا التيار نفسه في الأفكار والبحوث ولد **علم الاجتماع** . والكلمة تعود إلى **أوغست كونت** الذي علم أن تنمية البشرية خاضعة إلى قوانين ، وأن هذه القوانين يمكن أن تعين باستخدام الطرق التاريخية والعلمية معاً : وقد فهم علم الاجتماع بهذا الشكل ووضع في قمة تسلسل العلوم ، وكان عليه أن يقوم بأعلى عمل وهو ضبط التقدم الاجتماعي . ولم يكن هذا غير برنامج طموح جداً لعلم لم يوجد بعد . ولزم الأمر أولاً تأسيسه . وقد حاول ذلك العالم سبنسر : فقد أخذ علم الاجتماع مكانة في مذهبه الواسع كفرع من العلوم الحيوية . وهذه المدرسة « التي تشبه المجتمعات بالكائنات الحية » أو حسب نظرية سبنسر ، تشبه العضوية الاجتماعية بالعضوية الحيوية ، عارضتها المدرسة الفرنسية التي يوجهها دركهايم الذي تميز أطروحته الأساسية بين الواقع الاجتماعي والفردي ، والاعتقاد بوجود « وجدان أو شعور جماعي » . وسواء قبلنا نظرياته أو لم نقبل ، فمن غير الممكن أن ننكر له الفضل في نهضة الدراسات العلم - اجتماعية : وأبحاثه مجموعة في « السنة الاجتماعية » (السوسيولوجية) تتناول بصورة أساسية النظم (المؤسسات) وأخلاق وعادات الشعوب البدائية .

المذاهب الاجتماعية

كارل ماركس :

لقد تطورت المذاهب الاقتصادية والاجتماعية كالمذاهب الفلسفية وتحت المؤثرات نفسها . والأمر الضارب في هذا الاعتبار هو أن جهود الاشتراكية كانت تبحث عن التخلص من الإبداعية الطوبائية لتعطي نفسها أساساً علمياً . وهذا التطور يختصر في أثر أساسي وهو مؤلف كارل ماركس الذي يمكن القول بشأنه أنه أصبح كإنجيل للاشتراكية المعاصرة .

عرض ماركس مذهبه منذ ١٨٤٨ في كراس صغير وهو « البيان الشيوعي » الشهير الآن ، ولكنه في حينه عبر وكأن أحداً لم يره . ووسع ماركس نظرياته الاقتصادية في مؤلف كبير وهو « رأس المال » . وظهر أول جزء منه في ١٨٦٧ ، والآخران بعد وفاته في ١٨٨٤ و ١٨٩٤ . والأطروحات الأساسية للماركسية هي التالية :

في أساس ما يسمى « المادية التاريخية » يدعم ماركس بأن تسلسل التاريخ لا يتضح بتطور الفكر البشري وإنما بتطور ظروف الحياة المادية ، ـ التقنية والإنتاج بخاصة ـ فالطاحونة الهوائية تعطينا المجتمع مع الأمير الإقطاعي ؛ والطاحونة البخارية المجتمع مع الرأسمال الصناعي » . والحق ، والسياسة ، والأخلاق ، والدين ، والفنون ليست ، نوعاً ما ، إلا التعبير والتغيير المثالي للواقع الاقتصادي .

إن الأشكال المختلفة للمجتمع المتولدة على هذا النحو تتضمن جميعاً تسلسلاً في الطبقات تتفق كل واحدة منها مع حالة معطاة في النظام الاقتصادي . وإن التحولات التي أصبحت ضرورية بالتطور الاقتصادي تعود أساساً إلى **صراع الطبقات** الذي يشكل لحمة جميع الحوادث التاريخية حتى أيامنا ، والمحرك لجميع الثورات .

وعليه فإن دراسة النظام الاقتصادي الحالي ـ **الرأسمالية** ـ يبرهن ، حسب كارل

ماركس ، على الوصول إلى حالة خلل ، عدم توازن ، مثل صراع الطبقات الذي يحدث بالضرورة ثورة . فمن جهة يولد النظام ، بالشكل الحر لميكانيكيته ، أزمات خطيرة دوماً في فرط الإنتاج والبطالة . ومن جهة أخرى ، بموجب ما يسميه ماركس « **قانون المركزية** » تنزع الرأسمالية من نفسها إلى تدمير الملكية الفردية ، وزيادة عدد المأجورين وإذن تنتج « حفاري قبرها الخاصين » . والخاتمة الضرورية لهذا التطور ، بأي شكل من الأشكال ، بالطريقة السلمية أو العنيفة ، توطيد نظام جديد حيث تصبح كل أدوات الإنتاج ، والأرض ، والمناجم ، والمعامل ورؤوس الأموال ملكية اجتماعية ، وحيث تدار وتنظم الإنتاجات من الجميع لصالح الجميع .

وهكذا فإن المذهب الماركسي ـ الذي أطلق عليه اسم **الجماعية** ـ لا يظهر كمذهب مثالي وإنما كـ « تعبير عام لظروف الواقع » . وبهذا يدعي بالعنوان « اشتراكية علمية » . وقد نوقش هذا المذهب كثيراً ولكن نظرياته الأساسية تبنتها الاشتراكية الأممية : وهذا ما يجعل لها أهمية تاريخية .

٢ ـ الأمميات

الأممية الأولى :

هي اسم مختصر لرابطة الشغيلة الدولية التي تأسست في لندن أثناء اجتماع كبير عام عقد في سن مارتن هول في ٢٨ أيلول ١٨٦٤ وكان من عمل ماركس بصورة أساسية . وهو الذي حرر نظامها الأساسي وحاول أن يوجه نزعاتها التي كانت متنوعة ومختلفة (ماتزنيين ، برودونيين ، وضعيين إنكليز ، فوضويين ، الخ ...) ، في طريق الاشتراكية العلمية . وعقدت مؤتمراتها الأولى في لوزان (١٨٦٧) ، وبروكسيل (١٨٦٨) وفي بال (١٨٦٩) . وكان تأسيسها في البدء بطيئاً ثم سهل بالأزمة الاقتصادية في سنة ١٨٦٧ التي اتبعت بموجة إضرابات في فرنسا وفي بلجيكا . وفي ١٨٧٠ كان للأممية فروعها الفرنسية ، والبلجيكية ، والسويسرية ، والألمانية ، والإيطالية ، والإسبانية والبرتغالية ،

والدانياركية ، والهولاندية ، والنمساوية ، والأميركية . كان مبدؤها الأساسي فتح وتحرير الطبقة العاملة بالطبقة العاملة ذاتها : وبدأ النفوذ الماركسي يسيطر فيها في مؤتمر بروكسل ١٨٦٨ الذي طالب بجماعية المناجم والمقالع ، والخطوط الحديدية وتأميم التربة (الأرض) التي يجب أن توزع بين المجتمعات الزراعية العمالية . واحتج المؤتمر نفسه بشدة ضد الحرب وأوصى جميع فروع الأممية بأن تستعمل جميعاً ضدها جميع وسائل الاضطراب بما فيها إضراب الشعوب . ومع ذلك ، فمنذ ٢٣ تموز ١٨٧٠ حكم مجلس الأممية العام لصالح ألمانيا بحجة أن هذه قامت بحرب ضد عدوان ؛ ولم يتبعه الفرع الجوراسي (من بلاد الجورا) الذي أطلق في أيلول ١٨٧٠ نداءً لصالح الجمهورية الفرنسية بدافع من باكونين . ومؤتمر لاهاي (١٨٧٢) سيطرت عليه المعارضة بين الماركسيين وفوضويي باكونين الذين طردوا وأسسوا أممية فوضوية قطعت نشاطها بعد ١٨٨٠ ، وهذا الانفصال وجه ضربة خطيرة لرابطة الشغيلة الأممية التي كفت عن جميع الاتجاهات المختلفة للاشتراكية . وبعد مؤتمر جونيف ١٨٧٣ انتقل مجلس الأممية العام إلى نيويورك ، ولكن الأممية لم تكن آنذاك أكثر من مؤسسة اسمية حُلّتْ رسمياً في مؤتمر فيلادلفيا (١٨٧٦) .

الأممية الثانية :

في سنوات ١٨٨٠ تكاثرت محاولات إعادة بناء الأممية بمبادهات بلجيكية وسويسرية ـ ولكنها اصطدمت زمناً طويلاً بمقاومة الديموقراطية ـ الاجتماعية الألمانية التي أصبحت أقوى حزب اشتراكي في أوربة . وتأسست الأممية الثانية في مؤتمر باريس ١٨٨٩ . وتبنت طرقاً أكثر مرونة من الأممية الأولى ، وأوصت بتشكيل فروع في كل بلد ، وانعقاد دوري للمؤتمرات الدولية ، ولكنها تخلت أولاً عن فرض منظمة مركزية ولم تمهر بمكتب دائم إلا انطلاقاً من ١٩٠٠ . إن نفوذ الماركسية ، ولا سيا الماركسية الألمانية ، كان في الحال مسيطراً . ووضع مؤتمر بروكسيل (١٨٩١) صراع الطبقات كمبدأ أساسي . ومؤتمر زوريخ في (١٨٩٣) أبدى رأيه لأجل يوم ثمانية ساعات عمل

وحدد العمل السياسي كوسيلة لا غنى عنها للحصول على التجرر الاقتصادي للطبقة الكادحة . لقد كانت الأممية الثانية بعدد مشتركيها ، ومع ذلك كانت منقسمة في بداية القرن العشرين بين الاتجاهات التي تحبذ إعادة النظر أو الإصلاحية والاتجاهات الثورية ؛ وقد تغلبت هذه الأخيرة في مؤتمر أمستردام (١٩٠٤)، ولكن إخفاق الثورة الروسية في ١٩٠٥ سهل تقدم اتجاه إعادة النظر وبخاصة في الاجتماعية - الديموقراطية الألمانية ، مع برنشتاين . وكانت إثارة الحرب العالمية في ١٩١٤ إخفاقاً ذريعاً للأممية الثانية ، لأن عمال جميع البلاد المحاربة أطاعوا آنذاك عفوياً إيحاءات الوطنية التقليدية ، ولم يطيعوا مثلهم الأعلى الاشتراكي . ومؤتمر زمرڤالد (١٩١٥) وكينتال (١٩١٦) في سويسرا ، ثم مؤتمر ستوكهولم ١٩١٧ لم يكن لها صفة أممية بحق وكانت عاجزة عن إيقاف الخلاف . وبعد انفصال الأممية الثالثة (١٩١٩) توحدت الاتجاهات المختلفة الاشتراكية غير الشيوعية من جديد في مؤتمر هامبورغ (١٩٢٣) . وغداة الحرب العالمية الثانية ، أعيد تشكيل الأممية الاشتراكية في مؤتمر فرنكفورت (١٩٥١) . ولإتمام الكلام عن الأمميات نذكر الأممية الثالثة .

الأممية الثالثة :

تأسست هذه الأممية الثالثة على يد لينين في الكرملن في آذار ١٩١٩ ، تحت اسم « **كومنترن** » . وبدت كوريثة للأممية الثانية . وهي تضم جميع الأحزاب الشيوعية العالمية بدافع الحزب الشيوعي الروسي الذي - في الواقع - إن لم يكن في الحق ، ظل دوماً الفرع المركزي للأممية الثالثة . وأوضاع هذه تطابق بانتظام أوضاع السياسية الخارجية السوفياتية . ولتسهيل العلاقات بين الاتحاد السوڤياتي وحلفائه الغربيين أثناء الحرب العالمية الثانية ، حلت الأممية الثالثة على يد ستالين ، في ١٥ أيار ١٩٤٣ . وأخذ كل حزب شيوعي من الوجهة النظرية استقلاله الذاتي الكامل ، ولكن في الواقع تغير شيء قليل في العلاقات بين موسكو والشيوعية العالمية . وأدى اندلاع « الحرب الباردة »

إلى إعادة بناء « الكومنترن » تحت اسم « **كومنفورم** » التي أنشئت في بولونيا في ٥ تشرين الأول ١٩٤٧ بدفع من جدانوف . وهذه المنظمة الجديدة لم يكن لها بنية كالكومنترن ، وبدت كمكتب بسيط للاستعلامات والارتباط ؛ فعوضاً عن أن تجمع كل الحركة الشيوعية ، ما كانت لتضم إلا الأحزاب الشيوعية في الاتحاد السوفياتي ، وپولونيا ، وبلغاريا ، ورومانيا ، ويوغوسلاڤيا وهونغاريا ، وتشيكوسلوڤاكيا ، وإيطاليا ، وفرنسا . وأثناء القطيعة بين تيتو والاتحاد السوڤياتي (في حزيران ١٩٥٨) نسقت الكومنفورم النضال ضد « التيتوية » في أوربة الشرقية . وبعد وفاة ستالين (١٩٥٣) ، كان الاتحاد السوفياتي يرغب في التقارب مع تيتو وحل الكومنفورم (في ١٧ نيسان ١٩٥٦) . وظلت وحدة الأممية الثالثة تظهر في المؤتمرات التي تشترك فيها كل الأحزاب الشيوعية في العالم . وهكذا فإن مندوبي ٦٤ حزباً شيوعياً (ما عدا يوغوسلاڤيا) اجتمعوا في موسكو من ١٦ إلى ١٩ تشرين الثاني ١٩٥٧ . وانعقد اجتماع جديد ضم ٨١ حزباً (دون يوغوسلاڤيا) في موسكو ، من ١١ إلى ٢٥ تشرين الثاني ١٩٦٠ وكان ملحوظاً بأول ظاهرة مفتوحة في الخلاف العقائدي (الإيديولوجي) السوفياتي - الصيني : وهاجم أمين السر الأول الألباني أنور خوجا بحرارة موجهي الاتحاد السوڤياتي ، مدافعاً عن الأطروحات الصينية . ومنذ ذلك الحين اصطدمت الجهود ، التي بذلتها موسكو لعقد مؤتمر كامل الأعضاء لشجب الصين ، بالاتجاهات القوية لـ « المركزية المتعددة الجنسيات » وبخاصة في رومانيا وفي يوغوسلاڤيا . واللقاء التمهيدي الذي عقد في بودابست ، في آذار ١٩٦٨ ، كان ملحوظاً بانسحاب الوفد الروماني ، وهذا ما زاد في قلق واضطراب الحركة الشيوعية ، بالرغم من أن ٦٦ حزباً آخر ممثلة في هذا المؤتمر أظهرت اتفاقها مع موسكو ، ولكن على برنامج محدود .

٣ ـ الحركة الأدبية

أصول الواقعية :

لقد تركت الإبداعية بقايا أدبية شهيرة ، ولكنها بعد ١٨٤٨ ظهرت في جيل ليست من أهله بالنسبة للكتاب والفنانين والمنظرين الاشتراكيين . وكان ذنبها أنها أفرطت بالخيال والحساسية والحماسة والغنائية . وهذه الإفراطات ولدت رد فعل تحت شكل **الواقعية** . وعلى وجه الدقة إن الروح العلمية انتقلت إلى صعيد الفن .

لقد حول كل شيء الأفكار نحو الواقعية ، لأن الظروف التاريخية والوسط لم تكن أقل من المذاهب الجديدة . وأفلس المثل الأعلى في ١٨٤٨ . ويبدو أن الإمبراطورية الثانية كانت تشريفاً للمادية السياسية . وشدهت الأجيال الجديدة خاصةً بتقدم العلوم والصناعة ، وبالتحويل السريع للحياة الاقتصادية بكل نتائجه : نمو الثروة والبذخ في الطبقات الموجهة ، والبؤس في الجماهير العاملة . وهذه الوقائع الجديدة مفرحة كانت أو حزينة كانت مشهداً يفرض نفسه على الأنظار .

كتب فيدو الروائي الواقعي في ١٨٦٣ في « بداية الأوبرا » ، في المقدمة عام ١٨٦٣ : « القرن التاسع عشر ، في رأيي ، يمكن أن يسمى عصر المادة . النافع هو إله هذا القرن . لقد اجتاح كل شيء . المنافع تسود في كل مكان . المصالح حلت محل الأشياء الرفيعة كلها : الإيمان ، حب الجمال ، والفضيلة ، والمثل الأعلى ... في العصر الذي أوجد التصويت العام ـ والقروض الوطنية ، و « تجميل » باريس ، الشركات الرأسمالية ، الطرق الحديدية ، التلغراف الكهربائي ، السفن البخارية ، المدرعات ، المدافع المفرّضة من الداخل ، والتصوير ، ومعارض الصناعة ، كل ما يفيد الحواس ، كل ما يحذف المسافات ، كل ما ينطلق بسرعة ، كل ما يضرب الحس بقوة ونفاذ ، كل ما هو رياضيات ، نافع ، مادي ، سهل الاستعمال ، الواقعية هي الأدب الوحيد الممكن » .

صفات الواقعية :

في الواقع وجد منذ البداية عدة واقعيات ، لا واقعية واحدة ، ذات اتجاهات وإيحاءات مختلفة . ومع ذلك يمكن الاعتراف ، لكل الكتاب الذين ينتسبون إلى الواقعية أو الذين صنفوا واقعيين ، ببعض الصفات العامة .

إن الرؤى التي هي تصورية وخيالية وتخطر للبال بغرابتها عند الإبداعيين ، عارضها الواقعيون بالملاحظة الدقيقة ، والواضحة والصحيحة للواقع . والواقعي ، حسب فلوبير « يحفر وينقب بقدر ما يستطيع ، ويجب أن يظهر الواقع الصغير بقوة كالكبير . ويريدك أن تشعر تقريباً مادياً بالأشياء التي ينتجها من جديد طبق الأصل » .

وبالتالي فإن الفن الواقعي أخذ طرقه في العمل عن علوم الملاحظة والفقه (سعة العلم والمعرفة) . وأراد أن يكون **فناً علمياً** ؛ والكاتب يراكم أو يجمع المواد على شاكلة المؤرخ وعالم الطبيعة : والأرجح المذكرات (النوتات) « التي يقلد فيها الحقيقة كثيراً » .

يقول فلوبير : « كلما انطلق الفن كلما أصبح علمياً ... والأدب يأخذ شيئاً فشيئاً هيئة العلم ، وسيكون بخاصة عارضاً أثره ، وهذا لا يعني أنه تعليمي ... » والأخوان غونكور يعتزان بالتاريخ : « الرواية الحالية تعمل بوثائق حكيت أو ترجع إلى الطبيعة ، كما يعمل التاريخ من الوثائق المكتوبة . المؤرخون هم قصاصو الماضي : والروائيون هو قصاصو الحاضر » . ولم يكتب فلوبير سطراً من رواياته إلا بعد أن توثق ، أي استخدم الوثائق بدقة . ويقول أيضاً الأخوان غونكور : « يلزمنا أن نعمل ، لأجل روايتنا « الأخت فيلومين » ، دراسات في المستشفى ، على « الحقيقي » ، على « الحي » ، على « الدامي » .

والفن الواقعي ، إن كان علمياً أو يعتقد أنه علمي ، يريد أن يكون أيضاً غير

شخصي كالعلم ، وبهذه النزعة إلى اللاشخصية يلتحق بالتقليد الاتباعي . وبمجاملة مُل منها بسرعة ، كان الرومانتيكيون (الإبداعيون) يتخذون الجمهور نجيّاً لأهوائهم وهيجاناتهم (انفعالاتهم) الحمية ؛ أما الواقعيون فيعلنون ، بالعكس ، أن « الفن العظيم غير شخصي » وأنه « يجب على الفنان ألا يظهر في أثره إلا كالله في الطبيعة » .

الطبيعية :

لم تنتصر الواقعية دون نضال في السنوات الأولى من النصف الثاني للقرن التاسع عشر . ثم أخذت تبالغ في نزعاتها الخاصة ولا سيا بزاعمها العلمية . وتطورت نحو **الطبيعية** التي هي ما يمكن أن يسمى بالأدب الفيزيولوجي والتجريبي .

لقد ترأس مؤثران على تشكيل الطبيعية : تأثير العلماء أنفسهم ، وبخاصة **كلود برنار** مؤلف « مدخل إلى دراسة الطب التجريبي » (١٨٦٥) . وكتب إميل زولا في « الرواية التجريبية » :

« الروائي مصنوع من ملاحظ ومن مجرب . الملاحظ يعطي الوقائع كما لاحظها ، ويضع نقطة الانطلاق ، ويؤسس الأرضية الصلبة التي ستمشي عليها الشخصيات وتنمو الحوادث . ثم يظهر المجرب ويؤسس التجربة ، وأعني بذلك يحرك الشخصيات في تاريخ خاص ليري فيه أن تعاقب الحوادث يكون فيه كما تتطلب حتمية الحوادث الموضوعة للدراسة » .

وإلى جانب كلود برنار نذكر **تين** (١٨٢٨ـ١٨٩٣) الذي كان عظيماً في الثلاثين سنة الأخيرة من القرن التاسع عشر . كان فيلسوفاً ، نقاداً ، مؤرخاً ، فكراً منظماً وقوياً وصاحب مذهب المدرسة الواقعية ، عَلّم أن الحوادث البشرية تتعين بالعرق والوسط والظرف ، وهي خاضعة إلى قوانين كسائر حوادث الطبيعة ، وبالتالي يحسن دراستها بنفس الطرق التي تدرس بها العلوم الأخرى .

وكان الكتاب الواقعيون يحاولون ، حسب قول الأخوين غونكور ، « أن يسلموا الجمهور شرائح الحياة » . ويزعم الكتاب الطبيعيون ، وهم أكثر طموحاً ، أن يقوموا بعمل العلماء الذين يجربون ويستخلصون . فقد صرح إميل زولا : « الرواية التجريبية هي نتيجة التطور العلمي في القرن : إنها تتم وتكمل الفيزيولوجيا » .

المؤثرات والنزعات الجديدة :

هذه العقائدية الحاسمة أثارت رد فعل لا يمكن اجتنابه . ففي ١٨٨٧ ، احتج فريق من الكتاب في بيان ضد « خداع الأدب الحقيقي » . لقد خضعت الأفكار لمؤثرات عديدة واتجهت في آخر القرن التاسع عشر في اتجاهات جديدة ، متفرقة ، وأصبح هذا الدور الأخير يتصف بنوع من الفوضى الفكرية ، ولكنها خصيبة .

ومن المستحيل تقريباً أن نعرف بدقة جميع التيارات المتشابكة في ذلك الحين ، وكل المؤثرات التي تمارس . وبعضها ، كالمؤثرات الفلسفية ، درس سابقاً . ويجب أن نسجل أيضاً **تأثير الآداب الأجنبية** ، وبخاصة **تأثير الرواية الروسية والدراما الاسكاندينافية** .

كانت فرنسا المركز الأساسي للحركة الواقعية والطبيعية التي انتشرت في أوربة كلها . وكانت أوربة ترجع الآن نحو فرنسا الواقعية المتحولة في الوقت ذاته الذي وجدت فيه نزعة المثالية . فقد كانت آثار كبار الكتاب الروس ، مثل **دوستويفسكي وتولستوي** واقعية ، ولكنها كانت أيضاً إنسانية بعمق يتغلغل فيها الإحسان والهوى ؛ فقد تطور تولستوي (١٨٢٨ ـ ١٩١٠) نحو فوضوية إنجيلية وانتهى بأن مارس نوعاً من نشر مذهب جديد . وفي الدرامات القوية للموسيقي الألماني **ڤاغنر** ، والكاتب النورفيجي **إيبسن** (١٨٢٨ ـ ١٩٠٦) ، الواقع الخارجي ليس إلا رمزاً ، زينة تلعب وراءها الدرامة الحقيقية ، المشربة بالسر . والأجيال التي كانت أفتى من غيرها مع الإنكليزي **كيبلنغ** والإيطالي **دانونزيو** ، كانت تمجد وتشيد ببذل الطاقات البشرية

والقومية . ومنذ ذلك الحين بدت الطبيعية غير كافية وعامية . ووجد دور قصير تبعتها فيه الرمزية بفضل الندوات إن لم يكن الجمهور . ولكن الواقعية التي عدلت عن مبالغاتها احتفظت بالعديد من المريدين . ويلاحظ أيضاً عودة دفاعية للإبداعية ، والاتباعية . والصفة ، التي ربما تكون ضاربة أكثر من غيرها في الأدب عشية الحرب العالمية الأولى ، كانت الأهمية المتزايدة لـ « الاهتمامات » الاجتماعية ، والمعنوية ، والأخلاقية والدينية . ووجد كتاب يهتمون بالوقائع الاقتصادية والاجتماعية ويقربون من الاشتراكية ، وآخرون منظرون للقومية ، وآخرون أيضاً يميلون نحو الصوفية المسيحية . وهكذا أصبح الأدب مناضلاً .

تفوق الرواية :

بينما كان للشعر الغنائي ، الشكل الطبيعي للإبداعية ، المكان الأول في الدور السابق ، وجدت الواقعية أكمل تعبير لها في الرواية التي أصبحت وبقيت حتى أيامنا ، وربما أيضاً بداعي بيعها المثمر ، النوع الأدبي المسيطر .

كان فلوبير (١٨٢١ ـ ١٨٨٠) على العموم أستاذ الرواية الواقعية ، كذلك في الواقع باهتمامه بالصحة وبالدقة الوثائقية . ولكنه كان فناناً قبل كل شيء ، ودراسة الواقع لم تكن بالنسبة له إلا وسيلة ، في حين أن الغاية كانت عمل أثر فني ، والوصول إلى الجمال بالأسلوب .

وأكثر من فلوبير كان الأخوان غونكور : إدمون (١٨٢٢ ـ ١٨٩٦) وجول (١٨٣٠ ـ ١٨٧٠) زعيمي مدرسة . لقد أعطيا للواقعية نزعات ديموقراطية بإعلانها أن : « الطبقات الدنيا في المجتمع ... لها الحق في الرواية في زمن التصويت العام والديموقراطية والليبرالية » ؛ وأشهر رواياتها ، **جرميني لاسرتو** (١٨٦٥) ، هي تاريخ خادمة فقيرة . لقد اطرح الأخوان غونكور الشكل الكلاسيكي الذي ظل فلوبير

وفياً له وأخذا مع علم النحو كل الحريات وأبدعا أسلوباً جديداً يسمى « الكتابة الفنية » وتمتاز بصفائها العَمِل والتعبيري .

وسواء في فرنسا ، أو خارج فرنسا ، وجد جمع من مشاهير وكبار الروائيين الواقعيين من أمثال الروائيين الروس تورغينيف ، دوستويفسكي ، تولستوي ، والإنكليزي جورج إيليت (١٨١٩ـ١٨٨٠) . وفي فرنسا الفونس دوديه (١٨٤٠ـ١٨٩٧) ، وغي دومو باسّان (١٨٥٠ـ١٨٩٣) بين من كانوا أكثرهم شهرة .

أما الطبيعية فقد تفتحت تحت شكل قوي وعامي معاً في أثر إيميل زولا (١٨٤٠ـ١٩٠٢) الذي تشكل رواياته الأساسية **مجموعة روغون ـ ماكار** المؤلفة من ٢٠ رواية ، وهي « تاريخ اجتماعي وطبيعي لأسرة في عهد الإمبراطورية الثانية في فرنسا » . وبالرغم من المزاعم العلمية ، فإن أثر زولا فيه نوع من نفحة حماسية مشبعة بإبداعية نقية .

إلا أن زولا بسبب تجاوزه حتى النهاية لم يكن له إلا تأثير محدود . ونحو آخر القرن التاسع عشر ، تنوعت الرواية إلى ما لا نهاية . وأصبحت كإطار سهل يوضع فيه من كل شيء : من أوصاف غريبة من بيير لوتي (١٨٥٠ـ١٩٢٣) ومن شعر مؤثر ؛ ودعابات فلسفية لأناتول فرانس (١٨٤٤ـ١٩٢٤) ، إلى الإيقاع المنسجم ، والنجاوى الفكرية إلى موريس بارّيسْ (١٨٦٢ـ١٩٢٣) ، الذي سحب مرارته من الولع بالفن إلى العمل السياسي .

المسرح :

لقد تمتع المسرح في النصف الثاني من القرن التاسع عشر برواج مدوٍ تقريباً كرواج الرواية ، وتحول كالرواية بالنزعة الواقعية . وتخلت الدراما الإبداعية عن مكانها إلى « ملهاة الأخلاق والعادات » . وأخذت هذه أشكالاً مختلفة : **« مسرح الملاحظة »** المجائي كثيراً أو قليلاً ، **« القطع المسرحية ذات الأطروحة »** حيث تناقش القضايا

الأخلاقية والاجتماعية ، و « ملاهي التحليل النفسي » ، والملاهي الخفيفة المبنية على المكيدة والاحتقار ، أو الخطأ الناتج عن ظن شخص أو شيء على غير ما هو عليه في الحقيقة ؛ أو المغنّاة الهزلية القصيرة التي تجمع بين الكلام والغناء (أوبيريت) .

وفي عهد الإمبراطورية الثانية كان أستاذ المسرح الواقعي في فرنسا ، إميل أوجيه (١٨٢٠ ـ ١٨٨٩) ، والكسندر دوماس الابن (١٨٢٤ ـ ١٨٨٥) الأول مدافع عن التقاليد البورجوازية والأخلاق العائلية ؛ والثاني كان يهتم ويهاجم بشدة « الأفكار المأخوذة ، والآراء المقبولة قبل التحقيق ، والقيل والقال » . وفكر رجل الشارع ـ الخليط من الهذر والعبث والتهكم والنقد والمعاكسة واللوم ـ تجسد في أوبيريتات **ميلهاك وهاليفي** ، موسيقى أوفنباخ . وجن جنون الجمهور بنجاح ملاهي **لابيش** الفرحة والمفرحة .

وتبعت الواقعية في المسرح التطور نفسه الذي كان للرواية . ومن جيل لجيل كانت تشتد وتحتقر كل ما اتفق عليه . ولا يخلو ذلك من مقاومات شديدة . وأستاذ هذه الواقعية المرة التي لا تعرف الشفقة والرحمة ، هنري بيك (١٨٣٧ ـ ١٨٩٩) الذي لم يلق النجاح حتى في رائعته ، **الغربان** (١٨٨٢) ، وهو لوحة لعائلة في حالة حزن استغلها أشخاص حقيرون . وتمثيليات « **المسرح الحر** » الذي نظمه **أنطوان** في ١٨٨٧ ، صدمت أولاً : أذواق وعادات الجمهور الفرنسي : القطع المسرحية الطبيعية ، « شرائح حياة » ذات الفظاظة المتعمدة كانت تتوالى فيها مع الدرامات الألمانية ، والروسية أو الاسكاندينافية ؛ والتزيين ، والإخراج ، ولعب الممثلين تهدف إلى إعطاء انطباع واقعية . وكان لهذه المحاولات نتائج مختلفة : من جهة ، أدت ، برد الفعل ، إلى بعث الإبداعية المتعددة الألوان : من ذلك أن « سيرانو دو برجراك ، لمؤلفها أدمون روستان ، لاقت استقبالاً ظافراً في ١٨٩٧ ؛ ومن جهة أخرى حقق المسرح نفسه وتجدد ، إما بالميل نحو الرمزية مع فرنسوا دوكوريل في « الصنم (المعبود) الجديد » في ١٨٩٩ ؛ وبورتو ـ ريش في « العاشقة » في ١٨٩١ ؛ وهرفيو في « الكماشات » ١٨٩٥ .

الشعر :

كانت الإبداعية العصر الذهبي للشعر الفرنسي ؛ وعصر الواقعية كان لها محبذاً قليلاً . ومع ذلك ، أفادت زمناً طويلاً أيضاً من جاه الشاعر الكبير الشعبي **فيكتور هوغو** الذي امتد « حُكمه » الشعري حتى ١٨٨٥ . كان جمهورياً وحكم بعد ٢ كانون الأول يوم انقلاب نابوليون الثالث ، وغادر البلاد إلى المنفى . وفيه كتب آثاره القوية « العقوبات » (١٨٥٥) **وأسطورة القرون** (١٨٥٩) .

إن سنا مجد فيكتور هوغو لم يمنع الشعر نفسه من التحول عن الإبداعية . وهكذا نجد بين ١٨٥٠ و ١٨٦٠ تشكيل **المدرسة البارناسية** التي فرضت نفسها كنظام شديد للاشخصية والاهتمام بكمال الشكل ، كرد فعل ضد غنائية الإبداعيين غير التائبة والمصرة على الخطأ ، ونجاواهم الغزيرة وإهمالهم للأسلوب . وأكبر شاعر بارناسي **لوكونت دوليل** (١٨٢٠ ـ ١٨٩٤ : فقد بلغت « قصائده القديمة » (١٨٥٨) ، و« قصائده البربرية » (١٨٦٣) في الواقع الكمال الذي يرمي إليه البارناسيون ، وكما لهم نفسه كان تقريباً نقصهم . لقد ملّ الكتاب الشبان بسرعة من الكمال البارناسي ، أكثر مما ملّوا من الغنائية الإبداعية . لقد تأثروا أكثر بشاعر نوقش كثيراً ، طلعة للإحساسات النادرة والمرضية ، وهو بودلير (١٨٢١ ـ ١٨٦٧) : وأثره الأساسي « أزهار الشر » (١٨٥٧) أصبح قراءتهم المعتادة . واهتمت المدرسة الجديدة بالفنون التشكيلية أقل من الموسيقى في التعبير عن الهارمونيات الدقيقة الناعمة المرهفة . وتطورت نحو **الرمزية** . وللتقرب من مثلها الأعلى تحررت من كل القواعد التقليدية : وأكبر إساءة للاتباعيين هي أنها دشنت « الشعر الحر » واستهزئ بالرمزيين واعتبروا « **منحطين** » . وكان أحدهم **ڤرلين** (١٨٤٤ ـ ١٨٩٦) بوهيمياً مثل ڤيللون سابقاً ، ولكنه كان مثله شاعراً ملهماً .

التاريخ :

إن التأثير العلمي المشاهد سابقاً في الرواية والمسرح ، تغلغل بخاصة في التاريخ وحوله لدرجة أنه فصله نوعاً ما عن الأدب وقربه من العلم .

وبالرغم من أن ميشليه يمثل بسناء حتى ١٨٧٤ التاريخ الأبداعي ، فإن ثلاثة مؤرخين عظاماً ، **تين** ، **رونان** ، **فوستل دوكولانج** كانوا على درجات متفاوتة المبادهين للتاريخ « العلمي » . ولقد رأينا في أعلاه ما كانت عليه نظريات وطريقة تين : فقد طبقها على التاريخ منشئاً أثرين عظيمين : « تاريخ الأدب الإنكليزي (١٨٦٣) و « أصول فرنسا الحديثة » (١٨٧٦ ـ ١٨٩٤) حيث نجد روح المذهب تفوق أحياناً روح الملاحظة . **وأرنست رونان** (١٨٢٣ ـ ١٨٩٢) مثله فيلسوف ، نقاد ، مؤرخ ، كاتب كبير ، أحد أساتذة النثر الفرنسي . وكان متجهاً بموهبته وبتربيته نحو الدراسات الدينية ، باعتبار أنه كان مهيئاً للكهانة وكرس أفضل وقته إلى « تاريخ أصول المسيحية (١٨٦٧ ـ ١٨٨٢) ، وأتبعه بـ « تاريخ شعب إسرائيل (١٨٨٧ ـ ١٨٩٢) . **وفوستل دوكولانج** (١٨٣٠ ـ ١٨٨٩) أكثر تخصصاً في البحث التاريخي ، وأعطى النماذج الأولى للتاريخ الموضوعي بالمعنى الدقيق ، كما يظهر في « المدينة القديمة » (١٨٥٤) وفي « الملكية الفرنجية » (١٨٨٨) .

يرى رونان الفنان والفقيه المتوسع والمتبحر في البحث أن التاريخ يسهم أيضاً في بعض حالات طبيعة الفن . وفي كتابه « حياة يسوع » كتب : في مثل هذا الجهد لإحياء الأرواح السامية في الماضي يجب أن يسمح بجزء من التأليه والتخمين ... إن داعي الفن في مثل هذا الموضوع خير دليل ... وما يقصد إيجاده من جديد هنا ، هو روح التاريخ نفسها ، لا الظرف المادي الذي تستحيل مراقبته والسيطرة عليه ! وما يجب بحثه إنما هو صحة العاطفة العامة ، وليس اليقين الصغير بالترهات ... النصوص بحاجة إلى تفسير الذوق ، يجب التماسها على مهل حتى تصل وتتقرب من بعضها وتجهز

مجموعة تذوب فيها كل المعطيات لحسن الحظ ... » (رونان ، حياة يسوع ، المدخل) . وعلى العكس ، نرى أن فوستل دوكولانج يختصر طريقته بهذه القواعد الثلاث :

١ ـ « أن تدرس النصوص مباشرة وبصورة منفردة في أدق تفاصيلها .

٢ ـ ألا يصدق إلا ما تبرهن عليه .

٣ ـ أن تجنب بحزم عن تاريخ الماضي ، الأفكار الحديثة التي تحملها الطريقة الخاطئة إليه » .

والتاريخ ليس فناً ، إنه علم محض ... ويقتضي مثل كل علم ، التحقق من الحوادث ، وتحليلها وتقريبها من بعض وملاحظة الرابط فيما بينها . ومن الممكن ولا شك أن فلسفة ما تظهر من هذا التاريخ العلمي ، ولكن يجب أن تظهر بصورة طبيعية من نفسها ، وخارجة تقريباً عن إرادة المؤرخ . أما هوفليس له من مطمح آخر غير أن يرى الوقائع جيداً ، ويفهمها بضبط وصحة وملاحظة دقيقة للنصوص ... إن أفضل المؤرخين من يقف على مقربة من النصوص ويفسرها بكل دقة وإتقان ، ولا يكتب وحتى لا يفكر إلا بها وعنها (فوستل دوكولانج ـ الملكية الفرنجية) .

هذه القواعد التي وضعها فوستل دوكولانج ، تبنتها المدرسة التاريخية الحديثة . والتاريخ المؤسس على نقد الوثائق يقوم على التحقيق والتحليل ، وما زال صعيده يتسع بفضل نمو « العلوم المساعدة » كعلم دراسة النقوش ، وعلم فك الكتابات القديمة ، وعلم المداليات والنقود ، وعلم الآثار ، وعلم النفس ، ولا يغرب عن البال أن أهمية التوسع في الدراسات التاريخية إنما هي صفة من الصفات المميزة للثقافة الحديثة .

٤ ـ الفنون الجميلة ـ الموسيقى

صفات الحركة الفنية :

الحركة الفنية في صعيد الرسم خاصةً غير منفصلة عن الحركة الأدبية ، تقتبس الواحدة عن الأخرى ، والمبادلة بينهما لا تنقطع ، والفن يستلهم من الأدب كما يستلهم الأدب من الفن .

والفنانون ، كالكتاب ، في نزاع مستمر . وربما كان النزاع فيما بينهم أشد وأقوى . ولكل من الفنون التشكيلية عموماً والموسيقى تقنيته الخاصة . وتثمن أهميتها حسب الأذواق والثقافات ، ومن هنا يظهر تردد الجمهور وضياعه أمام تأمل الآيات الفنية ، وكلما ازداد عدده اختلف تثمينه لروائع الفن . ومن هنا يظهر عدم الفهم الذي اصطدم به في الغالب كبار الفنانين في عصرهم . فقد ينهال المديح على بعض ، ويكثر النكران للإبداع على بعض آخر . وكثير من الفنانين لم يقدروا في عصرهم ، ثم أنصفهم الدهر في العصور الآتية . وحتى آخر القرن التاسع عشر ظلت الحياة الفنية خاضعة لنوع من النظام السلطوي ، والتقليد الأكاديمي ، ولكن هذا لم يمنع نمو الحركة الفنية وتطورها والإقبال عليها في تأسيس المدارس الفنية والأكاديميات والمعارض والتجارة بالأعمال الفنية في صالونات العرض . كما كثر الفنانون في كل بلد من البلاد الأوربية ، وأمام هذه الكثرة نقتصر على ما يلي :

الرسم في عهد الإمبراطورية الثانية في فرنسا :

لقد كان تاريخ الرسم الفرنسي في ظل الإمبراطورية الثانية ، كالأدب ملحوظاً بنمو النزعات الواقعية والاهتمام الوثيق بالاتصال مع الطبيعة ، ودراستها وتفسيرها بإخلاص جهد المستطاع .

لقد رأينا في النصف الأول من القرن مدرسة رسامي المناظر ، وكانت تمثل

باساتذة مثل **كورو** الذي بدئ بتذوق سحر آياته الفنية وصفائها . ولم يقدر الغواة الفنان الفقير المسكين مييه (١٨١٤ ـ ١٨٨٥) الذي كان مفسراً أميناً للحياة الريفية ، ومفسراً حساساً ، خطيراً يدعو أثره الفني إلى التأمل .

ومع ذلك فإن معظم الرسامين تأخروا في إبداعية ضعفت وبهت لونها أو ظلوا خاضعين للتقليد الأكاديمي . ولتحرير وتجديد الفن الفرنسي وجبت الثورة والعراك . وقد أخذ كوربيه (١٨١٩ ـ ١٨٧٧) على عاتقه القيام بذلك . كان ديموقراطياً متحمساً، وثورياً ـ اشترك في ثورة الكومون . وأطلق صيغاً مدوية شبيهة بصيغ **غونكوروزولا** .

هذا ويمكن اعتباره أحد مبادهي الواقعية في الفن والأدب . لقد طرد من المعرض العام في ١٨٥٥ ، وفتح معرضاً خاصاً لآثاره الفنية وكان فهرسها الذي وضعه أول بيان للواقعية : « إن الوصف الواقعي فرض علي ، كما فرض وصف الإبداعيين على رجال ١٨٣٠ . والأوصاف ، في أي زمن لا تعطي فكرة صحيحة عن الاشياء ... لقد درستُ ، خارجاً عن كل فكرة مذهب ودون رأي مسبق ، فن القدامى وفن المحدثين . ولم أشأ أن أقلد بعضهم وأنسخ الآخرين ... أن أكون قادراً في التعبير عن العواطف والأخلاق والأفكار ومظهر عصري حسب تقديري وتثميني وباختصار أن أعمل فناً حياً ، هذا هو هدفي » .

وبموجب هذه المبادئ رسم « دون تكلف أو ادعاء » مشاهد عائلية ، وعرض لوحات لها معناها ومغزاها . مثل « كساري الحجر » و « الدفن » في مدينة « أورنانس » (١٨٥١) ، فتيات ضفاف السين (١٨٥٦) التي أثارت استياء النقاد الرسميين وحماسة شبيبة المشاغل ، والمدارس والمؤسسات التي تقدم الجعة (البيرة) للشاربين في الحي اللاتيني .

ولكن هذا الثوري المحب للنزاع والصخب ، كان رساماً عظيماً ، وعبقرية قوية ولهذا كان أثره ونفوذه دائمين .

تطور الرسم :

وبالرغم من كل المقاومات سار الفنانون الموهوبون أفضل من غيرهم في الطريق الذي فتحه كوربيه وكورو . واستمرت الواقعية تحت شكل **الانطباعية** وأعظم ممثلين لها كان **مانيه** (١٨٣٢ ـ ١٨٨٣) ، **رونوار** (١٨٤١ ـ ١٩١٩) ورسام المناظر **كلودمونيه** (١٨٤٠ ـ ١٩٢٦) .

وأعطي اسم الانطباعيين لهم بسخرية في ١٨٧٤ ، لأن مونيه سمى أحد لوحاته : انطباع ، شمس مشرقة . وفي الواقع إن هذا الاسم كان يعبر جيداً عن نزعة مدرسة جديدة : تثبت على قماش اللوحة انطباعات الحين ، حتى أكثرها هرباً . وكتب مانيه في مَذكرة فهرس معرضه عام ١٨٦٧ : « هذا هو تأثير الإخلاص في إعطاء الآثار الفنية صفة مميزة تجعلها تشبه الاحتجاج ، على حين أن الرسام لم يفكر إلا في إعطاء انطباعه » . وأوضح من ذلك أيضاً أنه كان يقول : « لا يعمل منظر ، لوحة تمثل منظراً بحرياً ، وجهاً ، وصورة ، إنما يعطى انطباع لساعة نهار في منظر حياة بحرية ، في وجه » .

وعلى هذا فإن الانطباعيين يعبرون إذن عن انطباعاتهم بإخلاص يظهر أولاً مربكاً . وما يربك أكثر أيضاً هو أنهم يتخلون عن الإضاءة المفتعلة للمشاغل ، ويدشنون تقانة جديدة ، رسماً واضحاً أهلاً لأن يعطي تأثيره في الهواء الطلق . والنور الطلق . وبتطبيق جريء لقوانين الضوء والبصر ، طبقوا تقسيم درجة سنا الألوان : أي عوضاً عن خلط الألوان على المطثة ، يضعونها بجانب بعضها على النسيج . فعن قرب ليس هذا إلا جمعاً متفرقاً من الألوان ، وعلى مسافة ما تختلط الألوان وتنسجم مع بعض . وقد أكثر كلود مونيه على هذا النحو تغيرات مبهرة للبصر على الموضوع نفسه ،

كأن يكون أكواماً من القش - أنهاراً ، نيلوفر على بركة . ولكن إذا تـوبعت على هـذا النحو التلاعبات المتغيرة للنور تغيب الأشياء نفسها عن البصر ، وشكلها ، وكثـافتها . ويسرعة يُملّ من هذه اللعبـة النـاريـة . وتبحث الأجيـال الجديـدة في مكان آخر عن تعليم جديد : وتجده بصورة أساسيـة في الأثر الفني عنـد سيزان (١٨٣٩ - ١٩٠٦) ، وهو رسـام من إقليم بروڤـانس ، عـاش واشتغـل وحيـداً ، مستشريـاً في التعبير في تغيرات ملونة ، لا في تلاعبات النور ، وإنما في بنية الأشياء ، الأحجام في المكان . وتحت تـأثيره استأنف الرسم ذوق **النظام والبنـاء** ، وبمواربـات غير متوقعـة نزع الرسم إلى العودة إلى الأسلوب الاتباعي .

هذا الأسلوب وجد له فنان كبير هو پوڤي دوشاڤان (١٨٢٤ - ١٨٩٨) الذي وجده من جديد منـذ زمن طويل ، ولكن ليطبقـه على تزيين الأوابد المعماريـة . وتراكيبـه الواسعة ، رؤى هادئة ونبيلـة تزين مقبرة العظماء (البـانتيؤن) والسوربون ، ومتـاحف أميان وروان ، وليون ومارسيليا .

النحت :

تطور النحت بصورة أبطأ من الرسم بسبب تقانته . ومع ذلك كان لـه هو أيضـاً ، مجددوه الذين عرفوا كيف يتخلصون من الأشكال والصيغ التقليدية ويجددون التقاليـد ويدعمون النضال في سبيل حرية الفن وإخلاصه .

في ظل الإمبراطورية الثانية أحيا **كارپو** (١٨٢٨ - ١٨٧٥) ، تلميـذ **رود** ، بحرارة تماثيله النصفية وجموعه - وأشهرها **الرقص** الذي يزين واجهـة الأوابر في بـاريس . ومـا من أحد غيره عرف كيف يعبر بالبرونز أو الحجر « المشاعر الطبيعية ، ورعشـة اللـذة ، وشعلـة النظر ، وضحـك البهجـة ، والنشـاط العضلي في الرقص » . وبـالرغم من عـداء الأكاديميا ، كان نحات صور الأشخاص المفضل لدى البلاط الإمبراطوري .

وكان **رودن** (١٨٤٠ ـ ١٩١٧) عبقرية قوية وواسعة ويحتقر أيضاً التقاليد الأكاديمية أيضاً ، وعبر بأعلى درجة عن كل الأهواء والآلام البشرية . ومعظم الشخصيات والجموع التي نحتها ترتبط بمفهوم أبدي ، كما في **باب جهنم** ، حيث تمر نسمة من دانتي وميكيل آنج .

العمارة :

بين الفنون الثلاثة الكبرى ، كان فن العمارة متأخراً في الخلاص من الرتابة الأكاديمية . وعصرها كان بالنسبة لها عصر تلمس ومحاولات .

ويجب أن نبحث عن السبب في تطور التقانة الذي في وضع حوزة المهندسين المعمارين وسائل جديدة ، ولكن أيضاً عكر العادات المكتسبة ، ومن هنا نجد نزعتين ومدرستين متضادتين : فبينما **الاتباعيون** ينسبون إلى الصيغ والأشكال القديمة قيمة دائمة ويرفضون الابتعاد عنها ، نجد **العقلانيين** يؤكدون بأن الأشكال العمرانية يجب أن تتكيف منطقياً مع متطلبات العصر .

لقد وضع المهندس المعمار والكاتب الفرنسي فيوليه ـ لو ـ دوك في « أحاديثه عن فن العمارة » النظرية العقلانية : « إن الفن لا يعتمد في العمارة على استعمال الرخام الثمين ، وتراكم التزيين ، وإنما في تمييز الشكل وبالتعبير الحقيقي للحاجات . وكل شكل يستحيل إيضاح سببه لا يمكن أن يكون جميلاً » . وكتب أيضاً : « إن الفن لا يكون على شكل أو في شكل آخر ، وإنما في مبدأ ، في طريقة منطقية . ومن هنا لا يوجد أي داع لدعم أن شكلاً من الفن يجب أن يكون الفن ، وأن في خارج هذا الفن لا يوجد إلا بربرية » . يجب « على المهندسين المعمارين أن يكفوا عن الاعتقاد بأن الأسلوب يتألف بوضع الأعمدة الإغريقية والبريجات الغوطية ، على الواجهة ، دون القدرة على إعطاء سبب لتطبيق هذه الأشكال » .

لم يكن للعقلانية أولاً إلا عدد صغير من الأنصار ، وغالبية المهندسين المعمارين ،

بـانقيـاد كثير أو قليل ، يطبقون الأشكال التقليـديـة . وأفـاضلهم يقفـون على مسـافـة متساوية بين الطرفين : لقد كانوا انتقائيين ، دون فكرة مسبقة ، يبحثون عن الأصالـة في جمع الأساليب المختلفة كثيراً ، وحتى أحياناً عناصر قديمة وحديثة ، الحجر والحديـد . والأوبرا في بـاريس التي وضع تصميم هنـدستهـا **شـارل غـارنيـه** هي أكثر الأوابـد تمثيلاً للإمبراطورية الثانية . وفي العصر نفسه **لابروست** في الصالـة الكبرى للمكتبـة الوطنيـة **وبالتار** في سوق الخضر المركزي وفي كنيسـة القـديس أغسطينوس ، يظهر أن كل النفع الذي يمكن أن تحصل عليه الهندسة المعمارية من الحديد .

وفي الدور التالي ، لإشادة الأوابد الواسعة ـ من محطـات قطـار ، وقصور عرض ، ومخـازن كبرى ـ التي كانت تتطلبهـا تحـولات الحيـاة الاقتصـاديـة ، استعمـل بجرأة متزايـدة ، البنـاء المعـدني ، ولكن كان يخفى وراء واجهـة من الحجر . وظل الأسلـوب تركيبياً . وما زال فن العمارة يتردد أيضـاً : إن المعرض العـام في ١٨٨٩ ، مع **برج إيفل وصالة الآلات** ، يظهر أنه يكرس ظفر الحديد على الحجر . وقد أخـذ هـذا الحجر ثـأره في معرض ١٩٠٠ بقصري الشانزيليزيه وأعمدتها الاتباعية .

وفي بـدايـة القرن العشرين فقـط استعملت مـادة جـديـدة وهي **الإسمنت المسلح** فأنتجت ثورة معمارية حقيقية ، لصالح العقلانية . إن الشروط التقنية للبناء بالإسمنت أجبرت المهندسين المعمارين على قطع صلتهم مع كل التقـاليـد . ودفعت **البسـاطـة** حتى النهـايـة استعمال الخـط المستقيم ، والسطوح العـاريـة والأشكال الهنـدسيـة ، تلـك هي الصفات المميزة الأساسية لفن العمارة الجديدة .

الفنون التزيينية :

لقـد تطورت الفنون التزينيـة أو الصنـاعيـة في نفس الاتجـاه الـذي تطور بـه فن العمارة وتعلقت به . وكان انحطاطها ، منذ بداية القرن التاسع عشر عميقاً جداً لـدرجـة أن الفن والصناعـة بـدا أنهما أصبحـا صعيـدين متميزين دون أي اتصـال أو تمـاس . ففي

داخل البيوت البورجوازية كان التزيين والأثاث على درجة من البذخ المصنع أو المموه أو الابتذال الشنيع . وإذا ما قورن بالقرن الثامن عشر ، يمكن القول بأن القرن التاسع عشر كان في هذا الاعتبار ظفراً للذوق الرديء .

وبفضل جهود بعض الغواة والفنانين في تنظيم جمعيات كجمعية الفن الصناعي المؤسسة في ١٨٦٣ ، والتي أصبحت من بعد « الاتحاد المركزي للفنون التطبيقية على الصناعة » . شهد آخر القرن حدوث نهضة لكل « الفنون الصناعية » . فمن ذلك أن فنانين من كبار الموهبة جددوا صناعة الفخار والزجاج وصياغة الجوهرات ، وصناعة نجارة الأبنوس (الأثاث) ، والأنسجة حتى الأوراق الملونة وإعلانات الشارع . وفي البحث عن **أسلوب حديث** ، كانت المحاولات الأولى غير مؤكدة : **والأسلوب الحديث** ذو الخطوط المضطربة جداً لم يكن له نحو ١٩٠٠ إلا رواج عابر . ولكن الفنون التزينية يبدو أنها وجدت اليوم طريقها باتباعها التوجيهات التي أعطتها النهضة المعمارية .

الموسيقى :

لم يكن الذوق الموسيقي نامياً في عهد الإمبراطور الثانية كالذوق الفني . وما كان الجمهور ليقدر ويثمن إلا الأوبرات الإيطالية والفرنسية التي كانت ميلودياتها سهلة الحفظ . وعندما مثلت في عام ١٨٥٩ أوبرا **فاوست** لمؤلفها **غونو** أخذ عليه أنه ، « يحلق في مناطق لا يبلغها ذكاء من لم يتدربوا على مثل هذه المعرفة ، أما اليوم فيوجه إليه اللوم المعاكس » .

لا شك أنه لا غنى عن أثر التربية والدعاية الموسيقية . وقد بدأت منذ ١٨٦١ برئيس الأوركسترا الفرنسي « پاسدولو » في الكونشرتات الشعبية للموسيقى الكلاسيكية (الاتباعية) واستمرت بكونشرتات كولون (١٨٧٣) ولامورو (١٨٨٢) وشرّف كولون رئيس الأوكسترا الفرنسي الموسيقار برليوز . وعرّف لامورو خاصة

بدرامات ريشار ڤاغنر (١٨١٣ ـ ١٨٣٣) المؤلف الموسيقي الألماني الذي نوقش طويلاً وتجوهل ، ولكن تأثيره أصبح عندئذ مسيطراً .

وآثار ڤاغنر العظيمة : تريستان وإيزولد ، معلمو نورامبرغ المغنون . ورباعيات نيبيلونغن ، وپارسيفال ألفت بين ١٨٥٠ و ١٨٧٠ ، وتسجل ثورة في الفن الموسيقي . لقد أحل ڤاغنر ، محل الأوپرا التقليدية ، الدراما الغنائية وأعطى الغنائية وأعطى لها منذ ١٨٥٠ التعريف التالي :

« إن أصالة الأثر الدرامي تقوم على أنها تبدو ككل » أجزاؤه تتسلسل ولكن لا كمجموعة غير متجانسة من عناصر مختلفة . وإن المؤلف لا يتطلع إلى اللمعان بتأثير قطع موسيقية منعزلة : لقد أراد ... ألا يستخدم بالإجمال الموسيقى إلا كعضو قوي وكامل ليعبر عما كان يريد التعبير عنه ، أي الدراما » .

وفي الوقت الذي ظفرت فيه الدرامات الڤاغنرية في فرنسا ، بدأ الفن الموسيقي ينتج آثاره الأصيلة والقوية التي ستضعه لأول مرة على رأس الحركة الموسيقية . **وبيزيه** (١٨٣٨ ـ ١٨٧٥) لم يكن نيتشه الفيلسوف ، عنده من الوقت لإعطاء كل ما هو أهل له ، ولكن بعد أن سمع **الآرليزين** (١٨٧٢) **وكارمن** (١٨٧٥) ، حيا فيه ، آخر عبقرية اكتشفت أرضاً جديدة ، **جنوب الموسيقى** . وكان لعازف الأورغ البلجيكي الأصل سيزار فرانك (١٨٢٢ ـ ١٨٩٠) نفوذ حاسم في تطور الموسيقى الفرنسية : ففي آثار عالمة وملهَمَة مثل « **أحكام المسيح** » ، وجد أنقى تقليد موسيقي ، موسيقى باخ ؛ ولم يجدد الموسيقى الدينية فحسب ، وإنما أسهم في تشكيل مدرسة فرنسية للسمفونية وموسيقى الغرفة . وفي بداية القرن العشرين كانت الموسيقى الفرنسية غنية بالمواهب الأصيلة ، ومن بينها دوبُسّي (١٨٦٢ ـ ١٩١٨) المفسر الدقيق لدرامة ميترلينك الكاتب البلجيكي ، وهي « **پيللياس** » ، وميليزاند (١٩٠٢) .

في الفن الموسيقي ، كما في أصعدة الحياة الفكرية الأخرى ، كلمة الآمر هي اليوم :

التجديد . وفي هذا التجديد نرى أن الانطباعية الموسيقية نشأت في نفس الجو الذي نشأت فيه حركة بين الشعر والرسم . ونمت المصالحة بين الموسيقى والشعر وبين الموسيقى والرسم . لقد أصبح الشعر موسيقى قبل كل شيء مهيئاً للميلوديات أحلامه الخيالية الصافية وأنغامه البسيطة . واتصل التحالف بين الموسيقى والرسم بما قبل الرفائيليات الإنكليزية وامتزج بالمآتي الروسية المسرحية والراقصة كما فعل دياغيليف في انعكاسات أنوار الباليهات البراقة الروسية .

وحدث فتح جديد في الموسيقى القومية ، ففي كثير من البلاد غذى التيار الفني للتقاليد القومية الموسيقى بالإقلال من الاقتباس من فهرس الخارج وحذا الموسيقيون في كل بلد حذو المثل الروسي وشعروا بوحدتهم القومية وبالتفكير والعيش بنفسهم واستعادوا قوتهم بالأخذ عن المصادر الحية والعميقة في الميلوديات الشعبية . وبعد أن ملوا من الموسيقى العالمة كثيراً ، وبحثوا فيها عن إلهام جديد . وهكذا فإن اليقظة العامة للقوميات وتجديد البحوث التاريخية نهلتا من الغناء الذي تظهر فيه الروح الشعبية . وهذه الأغاني هي أغاني الفلاح والماضي . ولعبت الموسيقى والفولكلور دوراً أساسياً في نهضة بعض الأمم بعد أن رزحت زمناً طويلاً في قيود الأسر والعبودية ، وأنقذتها الأغنية .

في تشيكوسلوفاكيا نجد دفوراك خلف سميتانا أب الموسيقى التشيكية . وبولونيا التي غطت في نومها منذ شوبن انتعشت بالنفحة الجديدة ، ونادى كارلو ويتش بالفولكلور وغيره بالأوبرا وبالتقانة الهارمونية ، وفيتلبرغ في السمفونيات والرابسوديات لجأوا إلى الموضوعات الشعبية . وتوج سيا نوفيسكي هذه المجموعة .

والمؤلفون الهونغاريون مثل فرانز إيركيل نظروا إلى الماضي حيث كانت الموسيقى القومية تمتزج مع الموسيقى الغجرية التي كان يفكر بأنها تمجد الروح المجرية . والصربي كوهاش نشر ألفي أغنية ، وكشف عن جمال ميلوديات مرنة وملتوية . وألهمت التيارات القومية الأغاني الوطنية والحربية . مارينكوفيك شاعر الاتحاد اليوغوسلافي .

وحصل التجديد نفسه عند اليونانيين والبلغاريين والرومانيين . وفي الدانيمارك ترك **هارتمان** وصهره **غارد** أثراً مشرباً بالعاطفة الشمالية . والسويدي هاللشتروم نقل إلى المسرح الميلودبا القومية . وغريغ النحيف والميلودي تعلق بخلق وإبداع فن نورفيجي وفتح شهرة عامة . وفي إنتاج متنوع أوحى به الفولكلور الفنلادي ، عبر سيبليوس عن الروح الفنلادية . وفي إسبانيا غذى بيدريل بالفولكلور أوبراته وقصائده السمفونية ، وأخذ عن الغناء الشعبي أسلوب الموسيقى القومية .

وفي إنكلترا ، مدرسة شددت على اللون المحلي ، وحاولت الخلاص من النفوذ الأجنبي بأوبيريتات سالیفان ، أوراتوريو (تركيب موسيقى درامي ذو موضوعات دينية وغير دينية) وأوبرات پارّي والغار ، وكانتات وأوبرات ستانفورد . وفي الولايات المتحدة حيث خرج من تمازج الأعراق عرق جديد ، وبدئ بالجمع بين **فولكلور** العرقين الهندي والزنجي ، وظهر **الجاز** المتحدر من موسيقى قديمة وإفريقية واختلط بالكورال البروتستانتي وتهيأ لغزو أورية .

وهذا التفتح في الموضوعات القومية والشعبية رافقه تقدم عام في التربية الموسيقية وسعته جمعيات الكونشرتو ومدارس الموسيقى الكثيرة العدد . وأخذت الموسيقى الدينية أهمية جديدة . وأسس ڤنسان دندي **لاسكولا كانتوروم** في ١٨٩٤ . وبعد أن كانت الموسيقى مهملة زمناً طويلاً وتعتبر تزجية للوقت دون أهمية ، أخذت تتمتع بفضل عميم . لأن اللامبالاة ليست لوناً جيداً لـ « الرجل الشريف ».وهكذا فإن كل هذا الجهد سيؤتى ثماره اللذيذة والمغذية في أثر القرن العشرين .

الفهرس

كلمة شكر

الشكر الجزيل لكل من أسهم في طبع هذا الكتاب

د. نور الدين حاطوم